بهجة المحافل وبغية الأماثل

في تلخيص

السير والمعجزات والشمائل

تأليف

الإمام العلامة المحدث

يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري

الحرضي اليماني الشافعي

رحمه الله تعالى

(٨١٦-٨٩٣هـ)

عُنِيَ بِهِ

أبو حمزة أنور بن أبي بكر الشيخي

الداغستاني

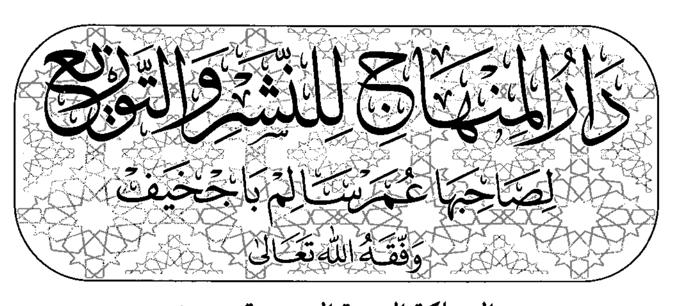




لبنان ـ بيروت ـ فاكس : ٧٨٦٢٣٠

الطَّبْعَة الأولى

١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م



المملكة العربية السعودية ـ جدة

حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392

ص. ب 22943 ـ جدة 21416

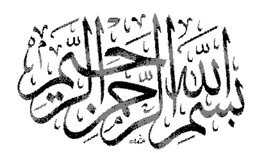
ISBN 978-9953-498-23-2



www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com


بهجة المحافل
وبغية الأماثل
في تلخيص
السير والمعجزات والشمائل



الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة هاتف 6322471 - فاكس 6320392	مكتبة دار كنوز المعرفة ـ جدة هاتف 6510421 - فاكس 6516593	مكتبة الشنقيطي - جدة هاتف 6893638
مكتبة المأمون ـ جدة هاتف 6446614	مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة هاتف 5570506	مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة هاتف 5473838 فاكس 5473939
دار البدوي ـ المدينة المنورة هاتف 0503000240	مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة هاتف 8366666	مكتبة المصيف ـ الطائف هاتف 7368840 - 7330248
مكتبة جرير ـ الرياض هاتف 4626000 وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها	مكتبة العبيكان ـ الرياض هاتف 4650071 - 4654424	مكتبة الرشد ـ الرياض هاتف 4593451
دار التدمرية ـ الرياض هاتف 4924706	دار أطلس ـ الرياض هاتف 4266104	مكتبة المتنبي ـ الدمام هاتف 8413000

الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

الإمارات العربية المتحدة مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي هاتف 2211949 فاكس 2225137 دار الفقيه ـ أبو ظبي هاتف 6272795 - 6272726	دولة الكويت دار البيان ـ حَوَلِّي هاتف 2616490 - فاكس 2616490 دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلِّي تلفاكس 2658180	الجمهورية اليمنية مكتبة تريم الحديثة - تريم (حضر موت) هاتف 417130 - فاكس 418130 مكتبة الإرشاد ـ صنعاء هاتف 271677
دولة قطر مكتبة الأقصى ـ الدوحة هاتف 4437409 - 4316895	مملكة البحرين مكتبة الفاروق ـ المنامة هاتف 17272204 فاكس 17256936	المملكة الأردنية الهاشمية دار محمد دنديس ـ عمان هاتف 4653390 - فاكس 4653380
المملكة المغربية دار الأمان ـ الرباط هاتف 037723276 فاكس 037200055	الجمهورية العربية السورية دار السنابل ـ دمشق هاتف 2242753 - فاكس 2237960	جمهورية مصر العربية دار السلام ـ القاهرة هاتف 2741578 - فاكس 2741750
الجمهورية اللبنانية الدار العربية للعلوم ـ بيروت هاتف 7851408 فاكس 786230 مكتبة التمام - بيروت هاتف 707039	جمهورية أندونيسيا دار العلوم الإسلامية ـ سورابايا هاتف 60304660 006231	الجمهورية التركية مكتبة الإرشاد ـ إستنبول هاتف 6381633 فاكس 6381700



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

بقلم

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

الحمد لله حمداً لا انقطاع له على الدوام ، الذي اصطفىٰ من عباده أنبياءَ ورسلاً ، وبعثهم إلى الأمم ليكونوا موحدين حنفاء ، ومنحهم من خصائص الرسالات ودلائل النبوة ما جعلهم في المقام الأسمىٰ ، والمكان الأسنىٰ ، فهم صفوة الخلق ، وأعلام الحق ، والصفوة المنتقاة ، الذين كرمهم الله تعالىٰ بسائر أوجه التكريم ، وخص من بينهم خاتم الأنبياء بالتفضيل ، فهو أشرف الرسل ، وسيد ولد آدم ، وأول شافع وأول مشفع ، وصاحب المعجزة الكبرى الخالدة ، ومن خصه الله بخصائص لا تحصىٰ ، ومزايا لا تستقصىٰ .

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلىٰ إخوانه من النبيين والمرسلين ما تعاقب الليل والنهار ، وأضاء النيران ، وما ارتفع إلى السماء أذان ، وعلىٰ آله الأطهار أولي الشرف ، وصحابته الكرام البررة ، الذين جاهدوا في الله حق جهاده ، وتبوءوا من الجنة غرفاً ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

وبعد :

فإن كافة الأمم علىٰ مدار التاريخ لتعتز وتفخر بعظمائها ، وتحتفي وتحتفل بتاريخها وعطائها ، وتعتبر ذلك من الواجبات المقدسة ، ولذلك فهي تعنىٰ بأخبار هٰؤلاء ، وبسيرهم وأيامهم ، وتجعلهم مضرب الأمثال ، وتعتبرهم غرة في جبين الدهر ، حتىٰ ولو لم يكن لهم ثقل في ميزان العدل ، أو أثرٌ بارز في ميدان التجديد والإصلاح .

بل تدنى الحال في عصرنا الحاضر الذي أصبح فيه الكون الأرضي قرية عالمية إلىٰ حد أنه أصبح للمشاهير من الفنانين والفنانات أتباع ومؤيدون ، وثلة تنثر علىٰ رؤوس الأشهاد مزاياهم ، وأخرىٰ تتشبه بهم في المظهر والسمت ، ولله في خلقه شؤون .

(ب)

ألا يتحتم علينا أمة الإجابة ونحن المتعبدون بهدي إمام الأنبياء ، وأرفع العظماء ، وسيد الأتقياء صلى الله عليه وسلم أن نهتم بسيرته ، ونقتدي بهديه ، ونولي العناية التامة تاريخ هٰذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ؛ قراءة وحفظاً ، وتدويناً وتأليفاً ، وتفهماً وتدريساً ، ونلقن سيرته العطرة ، ومناقبه النيرة أولادنا منذ نعومة أظفارهم ، جرياً علىٰ ما كان عليه السلف الصالح ، والأمة الخيرة ؛ لأنه جل وعلا هو الذي أنقذنا به من الهلكة ، وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس ، دائنين بدينه الذي ارتضىٰ ، فما من خير بأمة الإسلام إلا وهو القائد إليه ، الهادي إلىٰ رشده الذي ذادنا عن الهلكة وموارد السوء ، وتركنا علىٰ مثل البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وبناء علىٰ ذلك فإن كل مسلم ومسلمة في عنقه وذمته دين تجاه قائده الكريم ، ذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قدوتنا وأسوتنا ، ومعلمنا كما قال المولىٰ جل وعلا : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وهو الرحمة المهداة كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وهو شافعنا ومنقذنا من هول يوم التناد .

فإذا قرعت الأسماع سيرته ، وصافحت الأفئدة سننه ومعجزاته ، وغزواته وأيامه . . امتلأت القلوب إيماناً ، واشتاقت إلى التأسي بصاحب المعجزات ، والاقتداء بأشرف المخلوقات ، فذلك أدعىٰ لأن تُعنِقَ الجوارح إلى الطاعات ، وأن تهرول في طريق النجاة ، وتندفع إلى التحلي بمكارم الأخلاق ، والتروي من منهل الأبرار ، وهٰذه آثار المحبة الصادقة .

(جـ)

والمتتبع لطريقة سلف الأمة بل وخلفها يدرك قوة عناية الأمة الإسلامية بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسَنَنِه وأيامه ، وشمائله ومغازيه ، ولهم في نشر ذلك اليد الطولىٰ ؛ تأليفا وقراءة ، وتفهماً وتفهيماً ، ونشراً ودراية ، وشرحاً ورواية ، ولا زالوا إلىٰ أيامنا الأولىٰ

ونحن صغار نسمع بأن « سيرة ابن هشام » تدرس في المكان الفلاني ، و« السيرة الحلبية » تدرس في مكان كذا وكذا ، حتىٰ جاء عصر العولمة ، فانقطعت تلك المجالس ، وأقفرت مرابع القوم ، وخفت صوت تالي السيرة النبوية ، ولم تعد لنا إلا الذكرىٰ ، وانتزعت تلك البركات التي كانت تتراءىٰ في كثير من الشؤون ، واضمحل خير عظيم .

وكذلك كان سلف الأمة يعقدون المجالس لإملاء السيرة النبوية ، وكانوا يتعلمونها كما يتعلمون السورة من القرآن الكريم ، ويتواصون بالعناية بها .

قال علي بن الحسين : (كنا نعلم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه كما نعلم السورة من القرآن)[١] وقال ابن كثير : (وهـٰذا الفن ينبغي الاعتناء به والاعتبار به والتهيؤ له)[٢] .

ذلك لأنهم كانوا يدركون ما لسيرة هـٰذا النبي الكريم من آثار طيبة في بناء الأمة ، وتربية الأولاد ، وتنشئة الجيل المؤمن الصالح الصادق ، المتأهل لحمل هـٰذه الرسالة علىٰ أكمل وجه ، وأتم صورة ، وهو الأجدر بنشر الأمن والأمان في بقاع الدنيا .

فما أحرىٰ بأمتنا في عصرنا الحاضر المتموج بعجائب الأفكار أن تستلهم رشدها من السيرة النبوية العطرة ، ويكون لها شرف التأسي بذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

(د)

فأفضل الخلق على الإطلاق أولىٰ أن نركز علىٰ تفصيلات حياته لنتعرف منها عن كثب علىٰ جوانب عظمته صلى الله عليه وسلم ، وننطلق في ميدان التأسي والاقتداء بمن نستمد من منهاجه السعادة الأبدية ، والنعيم السرمدي ، والحياة الهانئة .

لا سيما في أيامنا هـٰذه التي لامسنا فيها مرحلة الغثائية ، وتتابعت في تضميم قنوات تبث مسلسلات هابطة ذات أهداف كيدية ، تهوي بِمُتقفِّيها إلىٰ مستنقع الرذائل وذبح الصيانة ، ونزع براقع الحياء والعفة ، حتىٰ أصبح لها تأثير براق علىٰ حياة جمهرة من الأسر المفتونة ببهرج الوافد ، ولو كان في لهواته السم الزعاف ، ومن الغبن الفاحش أن ينسلخ المرء من

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٨٨) .
(٢) البداية والنهاية (٤/ ١٧) .

هويته ، ويقذف بموروثاته العلية في يم الإهمال ، ثم يلتقط أصول ثقافته من ممثلين وممثلات ، أو يستبطن منهجهم ليلعق من غثائهم .

إن هٰذا السلاح الماكر الفعال الذي اقتحم دورنا ، وابتلع وقتاً نفيساً من أعمارنا ، واستدرج صغارنا إلىٰ ثقافة غريبة هو العامل الأعظم أو المباشر في تعثر السلوك لدىٰ كثير من فلذات أكبادنا ، وهو باعث الفتنة والاعوجاج في كيان بناتنا ، ومن ثم فيجب أن يكون لدينا وعي إيماني يدفع بنا إلىٰ ترشيد هٰذه الفتحات ، ولا نفتح إلا كوة صالحة بريئة من الغش ، نقية من وضر المكر ، نسيمها ينبعث من قواعد الإصلاح ، ومنهلها يستمد من تشريع الله وهدي نبيه صلى الله عليه وسلم .

(هـ)

وبعد :

فإن كتاب « بهجة المحافل » : يعتبر مصنفاً ينخرط في دائرة كتب السيرة النبوية ، وقد تميز محبرها بالاستبحار العلمي لا سيما في علم السنة النبوية حتىٰ لقب بمحدث الديار اليمنية ، إنه العلامة البارع عماد الدين أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري الحرضي اليماني الشافعي الحافظ الصالح العابد .

ولما كان مؤلفها وناسج بردتها رجلاً عاش مع الأنفاس النبوية ، وجرت محبة السنة الغراء في قلبه مجرى الدم . . أراد أن يكون له شرف في الانتساب إلىٰ تلك الكوكبة أولي الأقلام اللامعة الذين ألفوا في سيرة المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، فارتاد طريقة لم يسبق إليها ، وسلك منهجاً لم تقرأ العيون ضريبه ، فقال صب الله علىٰ جدثه شآبيب المغفرة :

(لما رأيت ما حبي به القوم من محبة سيد البشر ، وما يرجون من نفعه يوم غد في المحشر . . سارعت إلىٰ جمع مختصر جامع في هٰذا المعنىٰ ، يتلخص الكلام فيه في ثلاثة أقسام ، مُبينَةً عن فنون حقها أن يفرد كل منها بالتصنيف علىٰ حدته) .

فكان بهٰذا الصنيع كمن تصيد من أعماق البحر ثلاث جواهر ، ثم احتفظ بها في زجاجة واحدة .

ولا مراء أن من استبطن محتوىٰ كتاب « بهجة المحافل » ، وغاص في لججه ، وتعاطىٰ مع ثبجه . . فإنه يجزم في يقين أن هـٰذا السفر من الكتب الفريدة المؤلفة علىٰ هـٰذا النمط ، وأنه يتمتع بخصائص بها يتميز عن ترائبه ، ويسمو علىٰ أضرابه ، وهـٰذه الخصائص تتراءىٰ في النقاط التالية :

١ـ احتواؤه علىٰ ثلاثة فنون ، وكان من حق كل فن أن يفرد بالتصنيف ، فهو كتاب يغنيك عن ثلاثة كتب ، ولا يغني عنه كتاب .

٢ـ ومنها : اشتماله علىٰ فقه السيرة النبوية ، وما يستنبط منها من أحكام ، فإن طريقته في هـٰذا الكتاب أنه يعرج على الكلام علىٰ فقه السيرة كلما اقتضى المقام ذلك ، بل ربما أطال النفَس في ذلك الموضوع حتىٰ يوفي المقام حقه بحسب مقتضيات الأحوال ، ومقدار أهمية معرفة الموضوع هو الذي يحدد له الجري في هـٰذا المضمار .

٣ـ ومنها : أنه يتوخى التثبت في النقل ، فإن كثيراً من كتب السير تحشد في صفحاتها الصحيح ومقابله ، حتىٰ قال الحافظ العراقي في ألفيته .

وليعلم الطالب أن السيرا تجمع ما صح وما قد أنكرا

بيد أن كتاب العلامة العامري اليمني يشتمل غالباً على الصحيح وما يشبهه ويقاربه ، والقليل فقط هو الذي لم يرق إلىٰ درجة الصحة أو الحسن ، وهـٰذه من أنفس مميزاته .

ولا عجب ؛ فإنه إمام محدث ألقت إليه اليمن بمقاليد الحديث ، وشهد له بذلك القاصي والداني .

٤ـ تطرُّقه لمهمات من أصول الدين ، فقد دبج كتابه « بهجة المحافل » بعدد وفير من مسائل العقيدة ؛ كعصمة الأنبياء ، وإثبات رؤية الله تعالىٰ في الجنة ، وغيرهما من مسائل الاعتقاد المهمة ، والتي استعر فيها الخلاف بين أهل السنة وغيرهم .

هـٰذا بالإضافة إلىٰ ذكر قواعد من علم أصول الحديث ، بل هي كثيرة تدرك في تضاعيف كلامه ، ويسفر لثامها عند المناسبات .

ولهٰذا كلِّه ، فقد دعت الحاجة إلىٰ إخراج هٰذا الكتاب القيِّم معتنىً به ، محققاً مدققاً ؛ ليكون من أهم وأبرز مراجع السيرة وفقهها ، وأحد روافدها التي لن تنضب مهما تطاول الزمان .

وهٰذا ما قامت به مشكورةً دارُ المنهاج ، إذ قامت لجنتها العلمية بخدمته خدمة لائقة ، وبعناية علمية فائقة ؛ من توثيق للنص ، وتخريج للآثار ، وضبط وشرح ، وتعليق علمي للتوضيح والبيان ، بالإضافة إلى اللمسات الفنية والخدمية .

فجزى الله خيراً أبا سعيد عمر بن سالم صاحب دار المنهاج ، الذي تم هٰذا الإنجاز بجهوده وتوجيهاته ، وذهابه وإيابه ، فإنه ذو العزيمة المتمطية التي لا تعرف الوهن .

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم

أهمية الكتاب ومزاياه

« بهجة المحافل » من الكتب الفريدة المؤلفة بهٰذا الأسلوب في تدوين سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغزواته ، وشمائله .

ومعلوم أن لكل كتاب ألّف في السيرة ميزات لا توجد في غيرها ، مع أنها تجتمع في موضوع واحد ، **ألا وهو شخصية النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم** .

ومطالع « بهجة المحافل » سيقف مع عدد من هٰذه الميزات التي كاد ينفرد بها :

فمنها : جمعه ثلاث فنون حقها إفراد كل واحد علىٰ حدته .

ومنها : حديثه عن فقه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسهباً تارة ، وموجزاً أخرىٰ .

ومنها : اعتناؤه الملحوظ بصحيح الآثار والأخبار .

ومنها : تطرقه لأمور العقيدة : **مثل** :

قضية عصمة الأنبياء : قال رحمه الله تعالىٰ : (واتفقوا أنه صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنماً ، ولم يقارف شيئاً من قاذورات الجاهلية ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام جملة معصومون من الكفر والكبائر قبل النبوة وبعدها ، ومن الصغائر أيضاً عند المحققين)[١] .

ومسألة أصل الجن والرد علىٰ كفرة الأطباء والفلاسفة : قال رحمه الله تعالىٰ : (واختلف في أصل الجن ، فقيل : هم والشياطين ولد إبليس ، وقيل : هم ولد الجان ، والشياطين ولد إبليس ، ثم إنهم متجسمون محتاجون إلى التغذية كالإنس ، خلافاً لمن أنكره من كفرة الأطباء والفلاسفة ، ويتصورون في الصور المختلفة ، وأكثر ما يتصورون في حيات)[٢] .

ومسألة إثبات رؤية الله عز وجل : قال رحمه الله تعالىٰ : (وأثبت رؤيته لربه ليلتئذٍ

---

(١) ص (٧١) .
(٢) ص (١١٣) .

جماهيرُ الصحابة والعلماء من غير إدراك ولا إحاطة ولا تكييف بحد ولا انتهاء ، صلى الله عليه وآله وسلم أفضل ما صلىٰ علىٰ أحد من عباده الذين اصطفىٰ)[1] .

ومسألة إنكار الملحدة وجوب الحج ، والرد عليهم : قال رحمه الله تعالىٰ : (إن وجوبه إجماع ، وأنكرته الملحدة ، حيث عرضوا أفعاله علىٰ عقولهم السخيفة ؛ كالتجرد عند الإحرام ، والوقوف ، والرمي ، والرمل ، فحين لم يعرفوا وجه الحكمة فيها والمراد بها .. جانبوه جملة ، فكفروا وجهلوا ؛ إذ لم يعلموا أن الواجب على العبيد امتثال أحكام المولىٰ فيما يريده ، وانقياد آراء العقول لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، عُرِفَ وجه الحكمة في ذلك أو جُهِلَ)[2] .

ومسألة إيمان المقلد : قال رحمه الله تعالىٰ : (قال ابن الصلاح : وفيه دلالة علىٰ صحة ما ذهب إليه أئمة العلماء ؛ من أن العوام المقلدين مؤمنون ، وأنه يكتفىٰ منهم بمجرد اعتقاد الحق جزماً من غير شك ولا تزلزل ، خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة)[3] .

والتحذير لمن يقع في أَجِلاَّء الصحابة ؛ مثل عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين : قال رحمه الله تعالىٰ : (وقد حذر علماء السنة المحتاطون لدينهم من النظر في الكتب الحاكية تشاجر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ؛ لما فيه من المفسدة وعدم الفائدة)[4] .

ومسألة : أن الكبائر لا تسلب الإيمان ، ولا يكفر أهلها : قال رحمه الله تعالىٰ : (ونزل في أمر حاطب قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ الآيات ، وتضمنت منقبة لحاطب ؛ حيث خوطب بالإيمان وهو أمر باطن ، ففيه دليل علىٰ أن كبائر الذنوب لا تسلب الإيمان ، ولا يكفر أهلها)[5] .

وغيرها من المسائل الكثيرة في إثبات عقيدة أهل السنة والجماعة .

---

(١) ص (١١٦ـ١١٧) .
(٢) ص (٢١٧) .
(٣) ص (٢٢٠) .
(٤) ص (٢٧١) .
(٥) ص (٢٨٥) .

ومنها : ذكر مباحث أصول الفقه والقواعد .

مثل اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم : قال رحمه الله تعالىٰ عند الكلام علىٰ مشروعية الأذان : (قال النووي رحمه الله : فشرعه النبي صلى الله عليه وسلم إما بوحي ، وإما باجتهاده صلى الله عليه وسلم علىٰ مذهب الجمهور في جواز الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم ، وليس هو عملاً بمجرد المنام ، هـٰذا ما لا شك فيه بلا خلاف)[١] .

ومسألة : **الأمر المجرد عن القرائن هل يدل على الفور أم على التراخي** : قال رحمه الله عند الكلام علىٰ وجوب الحج بعد الاستطاعة : (واعلم : أن وجوبه بعد الاستطاعة على التراخي ، وقال بعض المالكية : على الفور)[٢] .

ومسألة : **ارتكاب أخف المفسدتين عند التزاحم** : قال رحمه الله تعالىٰ : (وقد قال أهل التحقيق والنظر الدقيق بجواز احتمال المفسدة اليسيرة لدفع أعظم منها ، أو لتحصيل مصلحة عظيمة تتوقع باحتمالها)[٣] .

وغيرها من المسائل الأصولية التي يجدها القارىء بين دفتي الكتاب .

وأما **مسائل** مصطلح الحديث . . فكثيرة جداً ، أترك للقارىء مجالاً كي يتمتع بنفسه ، ويغوص في أعماق هـٰذا الكتاب بحثاً عن لآلئها .

---

(١) ص (١٤٥) .
(٢) ص (٢١٧) .
(٣) ص (٢٤١) .

ترجمة

الإمام العلامة المحدث

يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري[1]

الحرضي اليماني الشافعي

رحمه الله تعالى

(٨١٦-٨٩٣هـ)

اسمه ونسبه ومذهبه

هو عماد الدين أبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى بن محمد بن حسن[2] العامري الحَرَضي اليماني الشافعي .

الشيخ الفقيه ، الإمام الحافظ ، العلامة المحدث ، الولي الصالح .

مولده

ولد يحيى العامري سنة (٨١٦هـ) بحَرَض ، وهو بلد مشهور بأطراف اليمن ، شرقُها الجبل ، وغربها البحر ، وشمالها جازان المخلاف السليماني ، وجنوبها مور اليمن ، وهي في الإقليم الأول ، وأهلها أخلاط ، وتسقىٰ أرضها من سبعة أودية ، خرج منها جماعة من العلماء ، رحمهم الله تعالىٰ[3] .

طلبه للعلم

المصادر التي بين أيدينا لم تتوسع في الكلام علىٰ مراحل طلب العامري للعلم ، وإنما نجد بعض الإشارات إلىٰ ذلك ، ولعله ذكر شيئاً من ذلك في ثبته ، فمن اطلع علىٰ ثبت العامري نرجو منه أن يتحفنا به ؛ كي نتوسع في ترجمته في الطبعة القادمة إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) ترجمته في « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٢٤) ، و« وجيز الكلام في الذيل علىٰ دول الإسلام » (٣/ ١٠٤٣) ، و« الجزء اللطيف » (ص٢٣) ، و« قلادة النحر » (٦/ ٤٨٠ ـ ٤٨١) ، و« المشرع الروي » (٢/ ٣٥) ، و« البدر الطالع » (ص٨٤٦) ، و« الأعلام » (٨/ ١٣٩) ، و« معجم المؤلفين » (٤/ ٨٨ ـ ٨٩) ، و« هجر العلم ومعاقله في اليمن » (١/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) ، و« مصادر الفكر الإسلامي في اليمن » (ص٩٨ ، ١٣٨ ، ٣٣٤ ، ٤٩٦ ، ٥٦٣ ، ٥٨٢) .

(٢) في « البدر الطالع » (٨٤٦) : (حسين) .

(٣) انظر « النسبة إلى المواضع والبلدان » (ص٢١٨) .

فأولَ الأمر بدأ العامري دراسته وطلبه للعلم علىٰ والده الشيخ أبي بكر بن محمد الحَرَضي ، مع زميله وقريبه إبراهيم بن أبي بكر العامري الحَرَضي .

يقول الإمام السخاوي رحمه الله تعالىٰ : (إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم . . . الحَرَضي ، والد محمد الطيب الآتي ، وقريب شيخ يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري ، فقيه ، أخذ عن أبي بكر بن محمد ؛ والد قريبه يحيىٰ ، رفيقاً لقريبه)[1] .

فلقد لازم العامري والده ـ خاصة في الفقه ـ حتىٰ فاق أقرانه ، وتميز في الفقه ، فوصف بالفقيه .

يقول السخاوي : (كان تفقهه بأبيه ، حتىٰ تميز في ذلك)[2] .

وأخذ أيضاً عن العلامة إبراهيم النحوي ، رحمه الله تعالىٰ .

وعن العلامة أحمد بن يحيى المساوي الحسيني اليماني ، المتوفىٰ سنة (٨٤١هـ) ، صاحب « المسلك الرشيق » .

وعلىٰ عادة العلماء رحل إلىٰ أبيات حسين ، فأخذ عن العلامة الفقيه محمد بن أبي الغيث الحسيني الكَمَرَاني ، ومن جملة ما أخذ عنه « تفسير البغوي » ، فلازمه حتىٰ تخرج به .

ثم رحل إلىٰ مكة ، فأخذ عن العلامة أبي الفتح المراغي ، فمما أخذه عنه كتاب « التعريف بما أَسَّست الهجرة من معالم دار الهجرة » للمطري .

يقول المؤلف في « بهجة المحافل » : (وسمعته جميعاً بالمسجد الحرام من لفظ شيخنا إمام الوقت أبي الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسين المراغي . . .)[3] أي : « التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة » .

وقال في موضع آخر من الكتاب : (ما أرويه عن شيخنا الإمام القانت الناسك الحافظ مسند الآفاق شرف الدين أبي الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسين العثماني المراغي ثم المدني ، نضر الله وجهه ، سماعاً عليه لثلاثيات « الجامع الصحيح » وإجازة ومناولة من يده

---

(١) انظر « الضوء اللامع » (١/ ٣٣ـ٣٤) .
(٢) انظر « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٢٤) .
(٣) انظر (ص ٥٤) .

لجميعه بالمسجد الحرام ، تجاه بيت الملك العلام ، سنة خمس وثلاثين وثمان مئة)[1] .

ـ وأخذ بمكة عن العلامة تقي الدين محمد ابن فهد القرشي الهاشمي العلوي .

يقول العامري في « بهجة المحافل » : (ومن ذلك ما رويناه في « صحيح مسلم » بروايتي له عن شيخي الإمام الحافظ المسند تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد القرشي الهاشمي العلوي ـ عرف بابن فهد ـ إجازة مشافهة بالمسجد الحرام سنة خمس وثلاثين وثمان مئة ، وهو ما سمعته علىٰ غيره)[2] .

وقال أيضاً : (وروينا ذلك من عوالي شيخنا الإمام الحافظ تقي الدين محمد ابن فهد القرشي الهاشمي العلوي ـ كان الله له ـ قراءة مني عليه لجميعها بالمسجد الحرام سنة خمس وثلاثين وثمان مئة)[3] .

ثم رحل إلى المدينة المنورة وأخذ عن علمائها ، منهم :

ـ العلامة الإمام الحافظ محب الدين محمد بن أبي حامد المطري ، يقول المؤلف في « بهجة المحافل » : (وقال الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المطري رحمه الله تعالىٰ في كتابه « تأليف ما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة »[4] بروايتي لذلك عن شيخي الإمام الحافظ محب الدين محمد بن أبي حامد المطري حفيد المصنف قراءة مني عليه لجميع الكتاب بالمسجد النبوي الشريف إلىٰ جانب المنبر المنيف)[5] .

وأخذ عن غيرهم من العلماء ، حتىٰ فاق أقرانه ، وأقرأ الفقه والحديث ، رحمه الله تعالىٰ .

شيوخه

درس الحافظ العامري علىٰ كبار أساتذة عصره ، وأئمة العلم ، وليس باستطاعتنا حصر كل هـٰؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم العامري ، فلذلك نشير إلىٰ بعضهم ، منهم :

---

(١) انظر (ص ٧٣) .

(٢) انظر (ص ٨٦) .

(٣) انظر (ص ٣٠٦) .

(٤) والصحيح « التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة » .

(٥) انظر (ص ٥٤) .

ـ والده العلامة الشيخ أبو بكر بن محمد بن يحيى بن محمد بن حسن العامري الحَرَضي اليماني الشافعي ، رحمه الله تعالىٰ .

ـ والعلامة أحمد بن يحيى المساوي الحسيني اليماني ، المتوفىٰ سنة (٨٤١هـ) ، صاحب كتاب « المسلك الرشيق إلىٰ بعض معاني الطريق » رحمه الله تعالىٰ .

ـ والعلامة الفقيه الصالح الورع ، المحقق المدقق ، عمدة الفتوىٰ محمد بن أبي الغيث بن أبي الغيث بن علي القرشي الكَمَرَاني اليماني الشافعي ، المتوفىٰ بأبيات حسين سنة (٨٥٧هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ـ وشيخ الإسلام ، إمام الوقت القانت الناسك الحافظ مسند الآفاق العثماني ، القاهري الأصل ، المدني الشافعي أبو الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسين ، المعروف بالمراغي ، المتوفىٰ بمكة سنة (٨٥٩هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ـ والعلامة الإمام الحافظ المسند تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد القرشي الهاشمي العلوي ، المعروف بابن فهد ، المتوفىٰ سنة (٨٧١هـ) .

وكان العامري يفتخر بابن فهد رحمهما الله تعالىٰ .

ـ والإمام الحافظ محب الدين محمد بن أبي حامد المطري ، حفيد جمال الدين المطري ، مؤلف كتاب « التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة » رحمهما الله تعالىٰ .

ـ والشيخ إبراهيم النحوي ، رحمه الله تعالىٰ ، ولم أعثر علىٰ ترجمته .

تلاميذه

إن شهرة العالم وجلالته سبب في إقبال الطلبة عليه ، ومواظبتهم علىٰ دروسه ؛ لذا كثر الآخذون عن العلامة العامري ، وفيما يلي ذكر بعض من أخذ عنه وتتلمذ عليه ، منهم :

ـ الشيخ الإمام الفقيه موفق الدين أبو الحسن ، الهمذاني الأصل ، اليماني الشافعي ، المعروف بابن الأزرق ، المتوفىٰ سنة (٨٥٩هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ـ والشيخ العلامة صديق بن إدريس بن محمد المَذْحِجي اليماني الصوفي ، نزيل مكة ، المتوفىٰ سنة (٨٩٦هـ) رحمه الله تعالىٰ .

يقول السخاوي : (أخذ عن يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري الحرضي ، محدثها ، بل شيخ تلك الناحية مصنفاً له في عمل اليوم والليلة ، وآخر في التاريخ ، والتمس مني تقريظهما له)[1] .

- والإمام الهادي عز الدين بن الحسن بن المؤيد من علماء الزيدية باليمن .

قال الإمام الشوكاني : (ثم رحل إلىٰ تهامة ، فسمع الحديث علىٰ شيخه يحيى بن أبي بكر العامري المشهور ، مؤلف « البهجة » ، وغيرها ، سمع منه سنن أبي داوود ، وأجازه في سائر كتب الحديث ، وبرع في جميع العلوم ، وصنف وهو دون العشرين)[2] ، وتوفي سنة (٩٠٠هـ) رحمه الله تعالىٰ .

- والفقيه الأديب الحافظ المحدث البارع في أشتات العلوم بدر الدين الحسين بن الصديق بن الحسين بن عبد الرحمـٰن الأهدل .

قال العلامة عبد القادر العَيْدَرُوس : (وأخذ عن يحيى العامري ، وبحث عليه « المنهاج »)[3] ، وتوفي سنة (٩٠٣هـ) رحمه الله تعالىٰ .

- والفقيه العلامة المتقن المفنن رضي الدين صديق بن محمد الحكمي ، الشهير بالوزيغي[4] ، المتوفىٰ سنة (٩٠٣هـ) رحمه الله تعالىٰ .

قال السخاوي : (وأخذ في الفقه عن عمر الفتىٰ ، وعبد الرحمـٰن بن الطيب وغيرهما ، وفي الحديث عن الفقيه يحيى العامري)[5] .

- والشيخ الكبير ، والعلم الشهير ، شمس الشموس الشيخ أبو بكر بن عبد الله العَيْدَرُوس باعلوي .

وله « الجزء اللطيف في التحكيم الشريف » ، قال فيه : (ومنهم سيدي وشيخي الفقيه

---

(١) الضوء اللامع (٣/ ٣١٩ـ ٣٢٠) .
(٢) البدر الطالع (٤٢٠ ـ ٤٢١) .
(٣) النور السافر (ص٥٣ ـ ٥٤) .
(٤) في « الضوء اللامع » : (بالوزيفي) بالفاء .
(٥) الضوء اللامع (٣/ ٣٢١) .

الإمام الحافظ المحدث الحبر العلامة الولي الصالح يحيى بن أبي بكر العامري)[1] .

وقال العلامة محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي في ترجمة أبي بكر العَيْدَرُوس : (ودخل مدينة زبيد فأخذ عن شيخ الإسلام أحمد بن عمر المُزَجَّد ، وعن الإمام يحيى بن أبي بكر العامري ، صاحب « بهجة المحافل » ، وطلب منه أن يريه موضع الأصابع النبوية من ظهره ، فكشف له فرآه ؛ لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم مسح علىٰ ظهره ، واستيقظ وأثر الأصابع النبوية ظاهرة في ظهره ، وبقي كذلك مدة حياته ، واشتهر ذلك في جهة اليمن)[2] .

وتوفي سنة (٩١٤هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ـ والشيخ الكبير العارف بالله تعالىٰ عبد الرحمـٰن بن الشيخ علي بن أبي بكر .

قال عبد القادر العَيْدَرُوس : (واجتمع بالشيخ العلامة الصالح يحيى العامري ، وله منه إجازة .

وحكي : أنه لما اجتمع بالشيخ العامري ، وكان معه ابن عمه الشيخ أبو بكر العَيْدَرُوس ، فالتمسا منه أن يريهما موضع الأصابع النبوية من ظهره ، فكشف لهما عنها ، فرأوها بالعيان)[3] ، وتوفي سنة (٩٢٣هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ـ وشيخ الإسلام العلامة ، ذو التصانيف المفيدة ، والفتاوى السديدة ، المجمع علىٰ جلالته ، وتحريه وورعه ، أقضىٰ قضاة المسلمين ، أحمد بن عمر بن محمد بن عبد الرحمـٰن المَذْحِجي السَّيفي المُرادي ، الشهير بالمُزَجَّد .

قال عبد القادر العيدروس : (وأخذ الأصول عن السيفكي ، والجبائي ، والحديث عن الحافظ يحيى العامري)[4] ، وتوفي سنة (٩٣٠هـ) رحمه الله تعالىٰ .

ـ والشيخ العلامة إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل العامري اليماني الحَرَضي ، وهو قريب يحيى العامري .

---

(١) الجزء اللطيف (ص٢٣) .
(٢) المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي (٢/ ٣٥) .
(٣) النور السافر (ص١٦٣) .
(٤) النور السافر (ص١٩٦) .

قال السخاوي : (ثم أخذ عن يحيىٰ رواية ، وأقرأ الفقه في حياة يحيىٰ ، ثم بعده)[1] .

- والشيخ صديق بن موسى بن أحمد بن يوسف بن محمد بن حسن الديباجي الجازاني العريشي اليماني الشافعي ، رحمهم الله تعالىٰ .

مؤلفاته

لقد ترك لنا الحافظ العامري مؤلفات عديدة ، هي نتاج علمه ، وثمرة جهده ، وكلها تدل علىٰ سعة علمه واطلاعه ، منها :

١- الرياض المستطابة في جملة من روىٰ له في الصحيحين من الصحابة[2] .

٢- كتاب في رجال « الصحيحين »[3] .

٣- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص السير والمعجزات والشمائل[4] ، **وهو كتابنا هٰذا** .

٤- غربال الزمان في وفيات الأعيان[5] ، وهو كتاب في التاريخ والتراجم ، بدأ فيه من السنة الأولىٰ من الهجرة ، ووصل إلىٰ سنة (٧٥٠هـ) .

٥- العدد فيما لا يستغني عنه أحد ، وهو كتاب الأدعية ، عمل اليوم والليلة .

---

(١) الضوء اللامع (١/ ٣٣ـ ٣٤) .

(٢) طبع الكتاب بمكتبة المعارف في بيروت سنة (١٩٨٣) بعناية عمر الديراوي أبي حجلة .

(٣) قال الشيخ عبد الحي الكتاني في « فهرس الفهارس » (٢/ ١١٣١) : (وله كتاب عظيم في رجال « الصحيحين » وقفت عليه بمصر في مكتبة السيد أحمد الحسيني في مجلدين ، له مقدمة بها من الفوائد ما لا يوجد في غيرها) .

(٤) لقد اختلفت المخطوطات والمصادر في إثبات اسم الكتاب ، ففي بعضها اسم الكتاب : « بهجة المحافل في السير والأخلاق والشمائل » ، وفي بعضها : « بهجة المحافل وبغية الأماثل في السير والمعجزات والشمائل » ، وفي أخرىٰ : « بهجة المحافل في السير والمعجزات والشمائل » ، وكذا نجد اسمه باسم : « بهجة المحافل وقدوة الأماثل في السير والمغازي والشمائل » ، وأما المطبوع من الكتاب : فاسمه : « بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل » .

وترجح لدينا ما أثبتناه ؛ لأن تقسيم المؤلف يوافقه ، ولأن الإمام السخاوي في « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٢٤) ذكره كما أثبتناه ، وكذلك أثبته الشيخ محمد بن جعفر الكتاني في « الرسالة المستطرفة » (ص٢٠٨) ، وهو الموافق لما في « هدية العارفين » (٦/ ٥٢٩) ، و« معجم المؤلفين » (٤/ ٨٨ـ ٨٩) .

(٥) طبع الكتاب بتصحيح محمد ناجي زعبي العمر في مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ، سنة (١٤٠٥هـ) .

٦ـ حادي القلوب إلىٰ وطن المحبوب[1] .

٧ـ بيان الاعتقاد وما يكثر إليه احتياج العباد[2] .

٨ـ التحفة الجامعة لمفردات الطب النافعة[3] .

٩ـ ثبت العامري[4] .

١٠ـ النبذة المهمة لنصيحة الأمة[5] .

١١ـ العقائد والفقه[6] .

١٢ـ الفقه[7] .

مكانته وثناء العلماء عليه

وصفه شمس الدين السخاوي ، فقال عنه : (محدثها ، بل شيخ تلك الناحية وصالح اليمن الشافعي)[8] .

وقال العلامة أبو بكر العَيْدَرُوس : (ومنهم سيدي وشيخي الفقيه الإمام الحافظ المحدث الحبر العلامة الولي الصالح يحيى بن أبي بكر العامري)[9] .

وقال العالم المؤرخ أبو محمد الطيب بامخرمة : (شيخ مشايخنا ، الإمام العالم ،

---

(١) منه نسخة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ، برقم (٨٨٤) ، في (٢٢٢) ورقة .

(٢) كذا ذكره الرومي في « إيضاح المكنون » (٣/ ٢٠٤) ، و« هدية العارفين » (٦/ ٥٢٩) .

(٣) منها نسختان في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم (٢٢٣٩) و(١٢١٦) ، أوله : (الحمد لله خالق الأجسام ، وما يعرض لها من الألم والضرر . . .) ، وآخره : (اللهم ؛ اختم لنا بها مع الروح والريحان ، والعفو والرضوان ، إنك رحيم كريم منان) انظر « فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير » (٤/ ١٩٢٢ـ ١٩٢٣) .

(٤) ذكره بامخرمة في « تاريخ ثغر عدن » (ص٩١) فقال : (ولم يذكر الجندي ولا الخزرجي ما يدل علىٰ وصول الأديب سعد بن سعيد المنجدي إلىٰ ثغر عدن ، وإنما ذكرته هنا لأني رأيت في ثبت شيخ المحدثين في عصرنا بالديار اليمنية عماد الدين يحيى العامري ما يدل علىٰ دخوله إلىٰ ثغر عدن) .

(٥) كذا ذكره الأستاذ عبد الله محمد الحبشي في « مصادر الفكر الإسلامي في اليمن » (ص٥٦٣) .

(٦) انظر « الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط » (٦/ ٢٢٨) .

(٧) انظر « الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط » (٧/ ٦٠٥) .

(٨) انظر « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٢٤) ، و« وجيز الكلام في الذيل علىٰ دول الإسلام » (٣/ ١٠٤٣) .

(٩) انظر « الجزء اللطيف » (ص٢٣) ، « المشرع الروي » (٢/ ٣٥) للشلي باعلوي .

الحافظ ، الصالح العابد ، غلب عليه علم الحديث ، وكان فيه متقناً ، وعارفاً به وبطرقه وعلومه)[1] .

وقال الإمام الشوكاني : (وهو محدث اليمن وشيخها)[2] .

وفاته

توفي العلامة العامري بعد هـٰذه الرحلة العلمية تَعلُّماً وتعليماً وتأليفاً ، سنة (٨٩٣هـ) ببلده حَرَض .

قال السخاوي : (ومات بحَرَض في إحدى الجماديين ، سنة ثلاث وتسعين ، عن سبع وسبعين سنة ، ممتعاً بسمعه وبصره ، ودفن بجوار مسجده الذي كان يُقرىء به من حَرَض)[3] .

وقال العلامة بامخرمة : (وتوفي ببلده حَرَض في عاشر جمادى الأخرىٰ من سنة ثلاث وتسعين وثمان مئة)[4] .

رحمه الله تعالىٰ ، ورَوّىٰ ثراه بشآبيب رضوانه

---

(١) انظر « قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر » (٦/ ٤٨٠ ـ ٤٨١) .
(٢) انظر « البدر الطالع » (ص٨٤٦) .
(٣) انظر « الضوء اللامع » (١٠/ ٢٢٤) .
(٤) انظر « قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر » (٦/ ٤٨١) .

وصف النسخ الخطية

اعتمدنا في إخراج هٰذا الكتاب علىٰ خمس نسخ خطية نفيسة أفضلها : الرابعة والخامسة من حيث التصحيح والضبط وذكر فروق النسخ وإن كانتا متأخرتين من حيث تاريخ النسخ :

الأولىٰ : نسخة مكتبة شهيد علي باشا بإستنبول ، ذات الرقم (١٨٤٨) .

عدد أوراقها (٤٧٠) ورقة ، ومتوسط عدد أسطرها (٢٣) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٤) كلمة ، خطها نسخي ، كان الفراغ من نسخها يوم الأربعاء (١٧) شهر محرم الحرام ، سنة (٩٣٣هـ) ولم يكتب اسم ناسخ الكتاب .

ورمزنا لها بـ(أ) .

في آخر ورقة من هٰذه النسخة كتبت أبيات وهي :

بِحَمْدِ ٱللهِ تَمَّ وَحُسْنُ ظَنِّي ... بِرَبِّي فِي ٱلْقِيَامَةِ يَجْعَلَنِّي

بِحُبِّي لِلنَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتٍ ... نَزِيلَ ٱلْمُصْطَفَىٰ بِجِنَانِ عَدْنِ

وَمَنْ نَسَخَ ٱلْكِتَابُ لَهُ أَكْرِمْنَهُ ... إِلٰهِي وَٱعْفُ عَنْهُ ثُمَّ عَنِّي

الثانية : نسخة مكتبة باريس الوطنية (دي سلان) ذات الرقم (١٩٧٦) .

عدد أوراقها (٢٢٠) ورقة ، ومتوسط عدد أسطرها (٢٠) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٩) كلمة ، خطها نسخي ، وكان الفراغ من نسخها سلخ المحرم الحرام أحد شهور سنة (٩٩٧هـ) .

وقد قوبلت النسخة مرتين : مرة سنة (٩٩٨هـ) وأخرىٰ سنة (١٠٠٠هـ) .

ورمزنا لها بـ(ب) .

وجاء علىٰ طرة هٰذه النسخة أبيات وهي :

أَلَا يَا مُسْتَعِيرَ ٱلْكُتْبِ دَعْنِي ... فَإِنَّ إِعَارَةَ ٱلْمَعْشُوقِ عَارُ

فَمَعْشُوقِي مِنَ ٱلدُّنْيَا كِتَابِي فَهَلْ أَبْصَرْتَ مَعْشُوقاً يُعَارُ

جواب :

فَلاَ تَمْنَعْ كِتَاباً مُسْتَعِيراً فَإِنَّ ٱلْبُخْلَ لِلإِنْسَانِ عَارُ

أَمَا تَسْمَعْ حَدِيثاً مِن رُوَاةٍ جَزَاءُ ٱلْبُخْلِ عِنْدَ ٱللهِ نَارُ

الثالثة : نسخة مكتبة خاصة باليمن.

عدد أوراقها (٢٨٥) ورقة ، ومتوسط عدد أسطرها (٣٣) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٢٠) كلمة ، خطها نسخي ، وكان الفراغ من نسخها شهر صفر الخير من شهور سنة (١٠٣٣هـ).

ورمزنا لها بـ (ج).

الرابعة : نسخة مكتبة خاصة باليمن .

عدد أوراقها (٢٢٥) ورقة، ومتوسط عدد أسطرها (٢٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٤) كلمة، خطها نسخي جميل ، وكان الفراغ من نسخها عصر يوم الجمعة في سلخ شهر القعدة الحرام سنة (١٠٦١هـ).

ورمزنا لها بـ (د).

الخامسة :

نسخة مكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ذات الرقم (١٤٥٦٣).

عدد أوراقها (٣٠٥) ورقة ، ومتوسط عدد أسطرها (١٩) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (١٠) كلمات ، خطها نسخي جميل ، وكان الفراغ من نسخها منتصف شهر صفر سنة (١٠٧٧هـ).

ورمزنا لها بـ (و).

منهج العمل في الكتاب

ـ قابلنا الكتاب علىٰ خمس نسخ خطية ، كلها جيدة ، وعليها تصحيحات وتصويبات .

ـ وثقنا النصوص من المصادر الأصلية للمادة قدر الاستطاعة .

ـ وضعنا الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ برسم المصحف الشريف وبرواية حفص عن عاصم رحمهما الله تعالىٰ .

ـ أحلنا الأحاديث النبوية إلىٰ مظانها من دواوين السنة المطهرة ، مع عدم التوسع .

ـ شكلنا الأحاديث القولية شكلاً كاملاً ، وكذلك الأبيات الشعرية .

ـ عنونا الفصول والفوائد بعنونات مناسبة ، وجعلناها بين معقوفين [ ] .

ـ أضفنا بين معقوفين [ ] ما رأيناه مناسباً لتقويم العبارة ، اعتماداً علىٰ ما بين أيدينا من المصادر والمراجع .

ـ ضبطنا الكتاب بالحركات الإعرابية المناسبة ، ورقمناه حسب منهج الدار المعتمد .

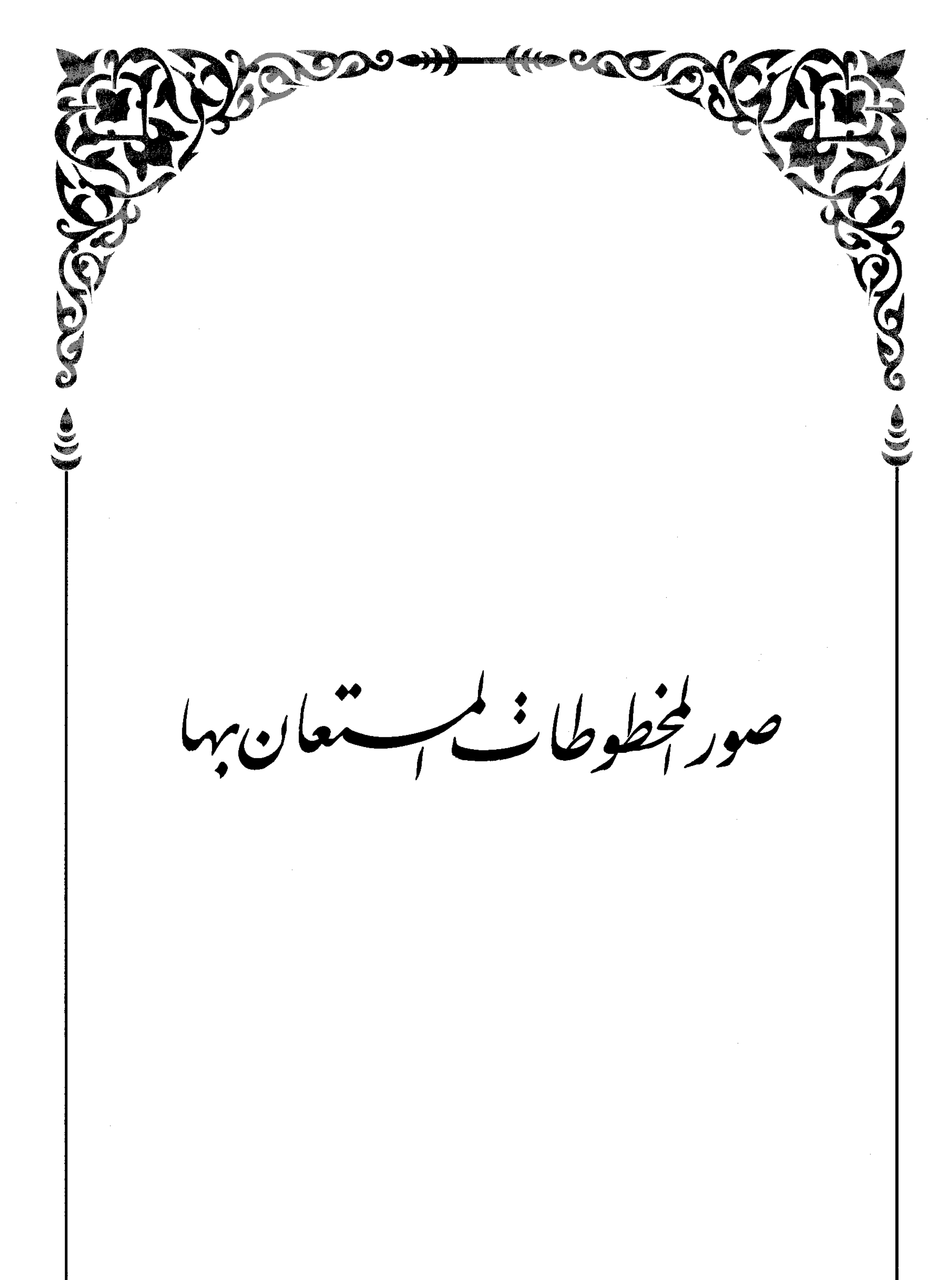
ـ شرحنا الكلمات الغريبة خاصة في الشعر ، وعلقنا علىٰ بعض الأماكن للتوضيح والبيان .

ـ ترجمنا للمؤلف ترجمة وافية .

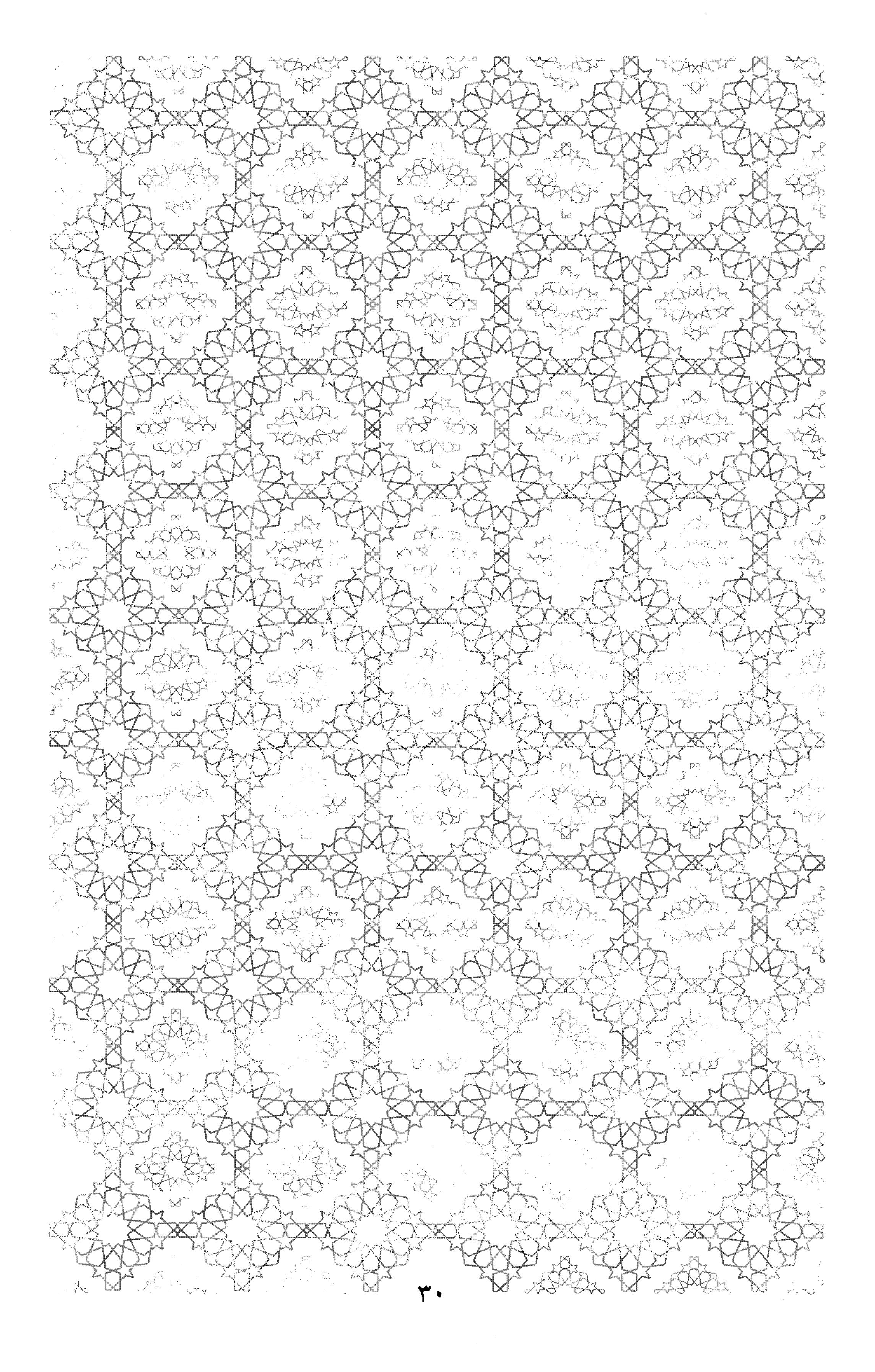
وختاماً :

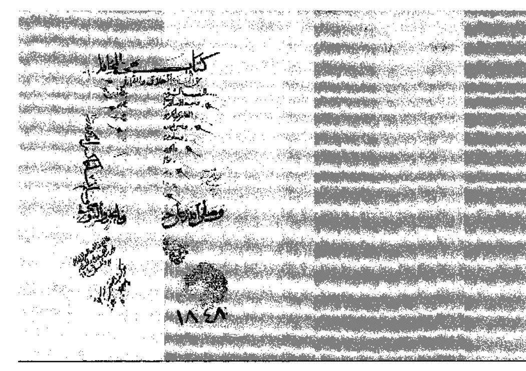
نسأل الله تعالى التوفيق والإخلاص في العمل ، وأن يجمعنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الفردوس الأعلىٰ ، وأن نكون قد وفقنا لإخراج الكتاب علىٰ أحسن وجه كما أراده المؤلف رحمه الله تعالىٰ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

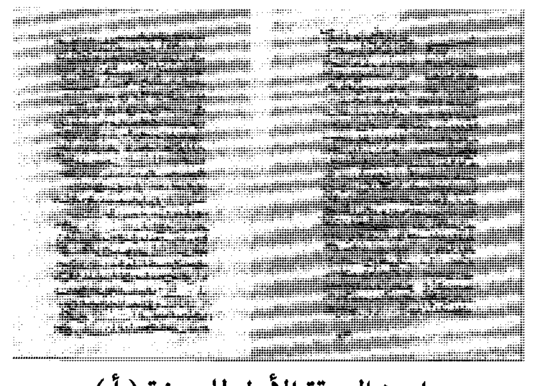


صور المخطوطات المستعان بها

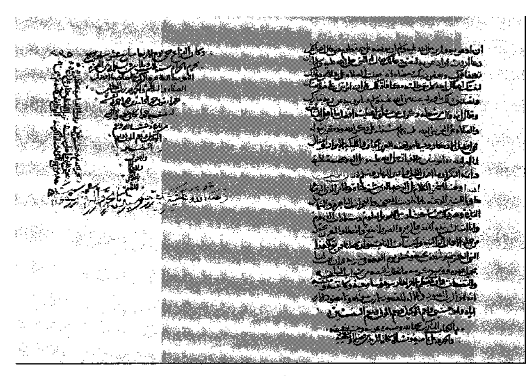




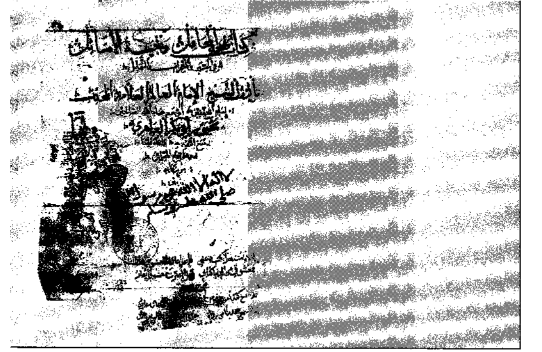
راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)



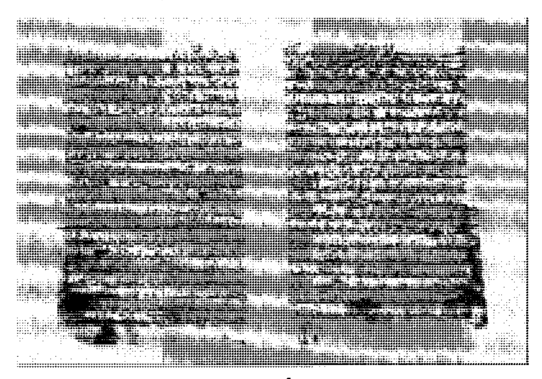
راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)



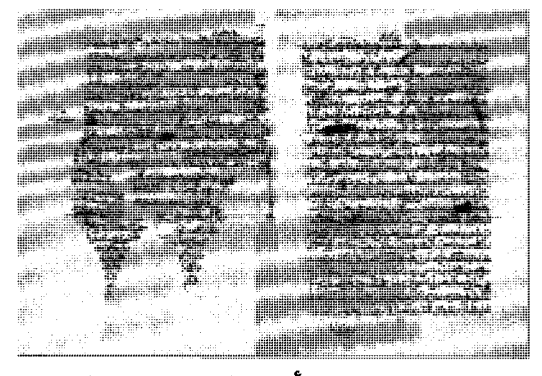
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)



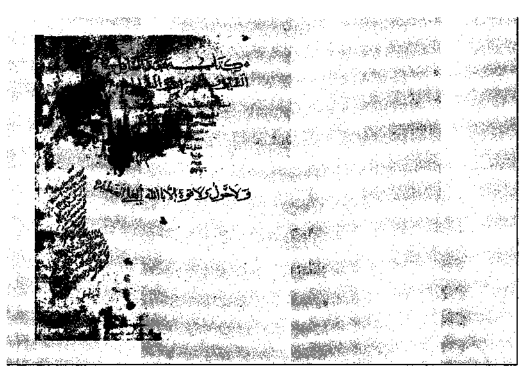
راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)



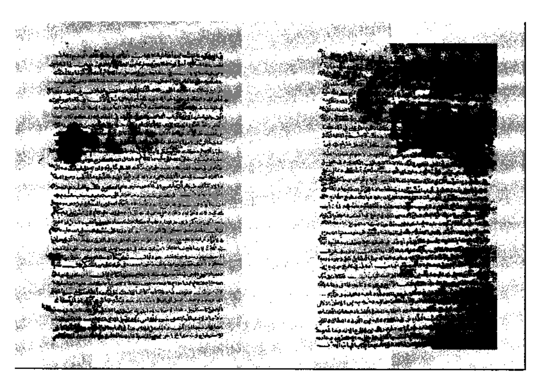
راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)



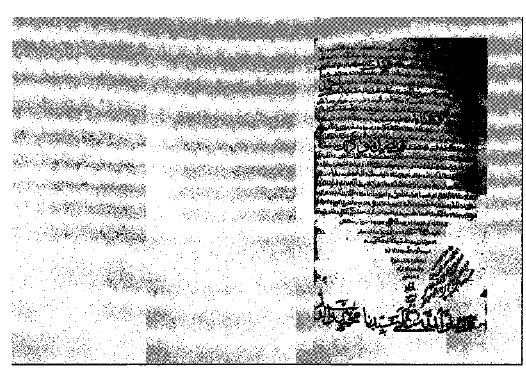
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)



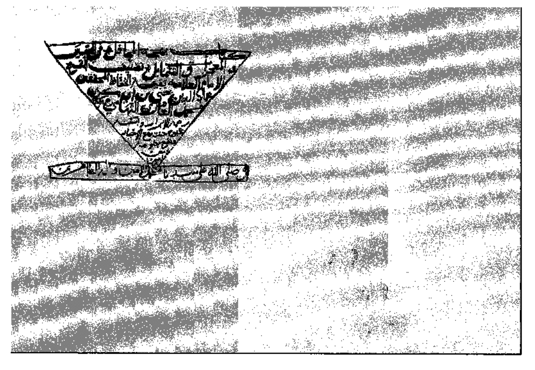
راموز ورقة العنوان للنسخة (ج)



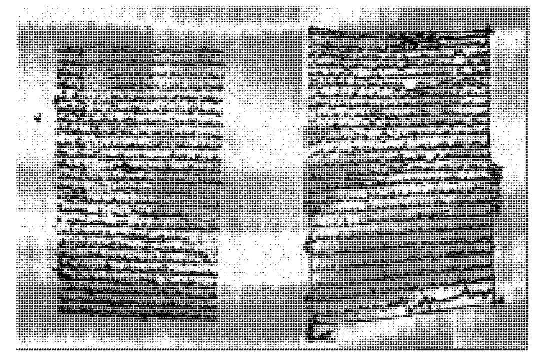
راموز الورقة الأولى للنسخة (ج)



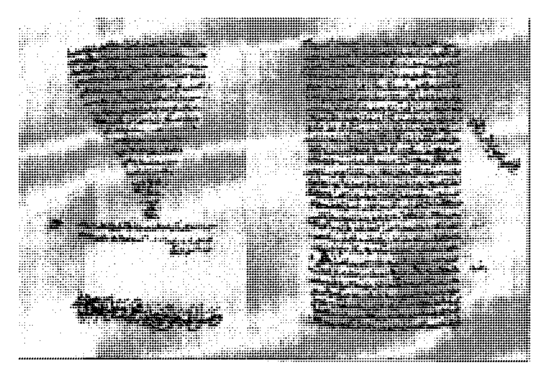
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ج)



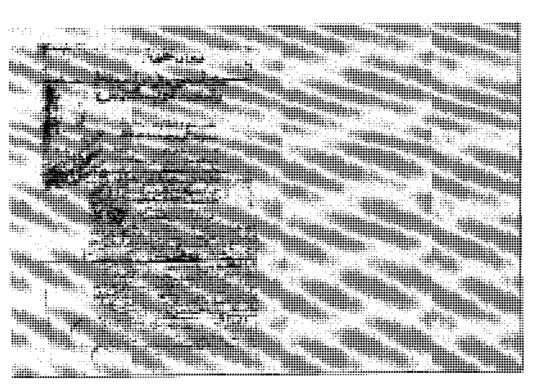
راموز ورقة العنوان للنسخة (د)



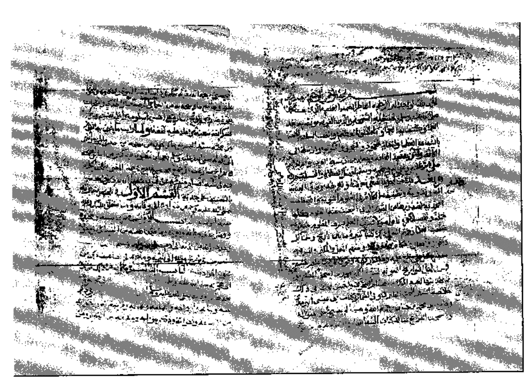
راموز الورقة الأولى للنسخة (د)



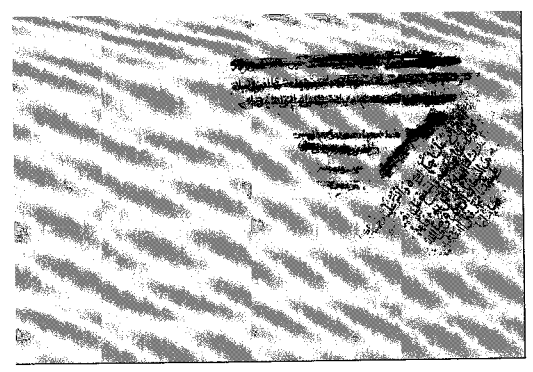
راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)



راموز ورقة العنوان للنسخة (و)



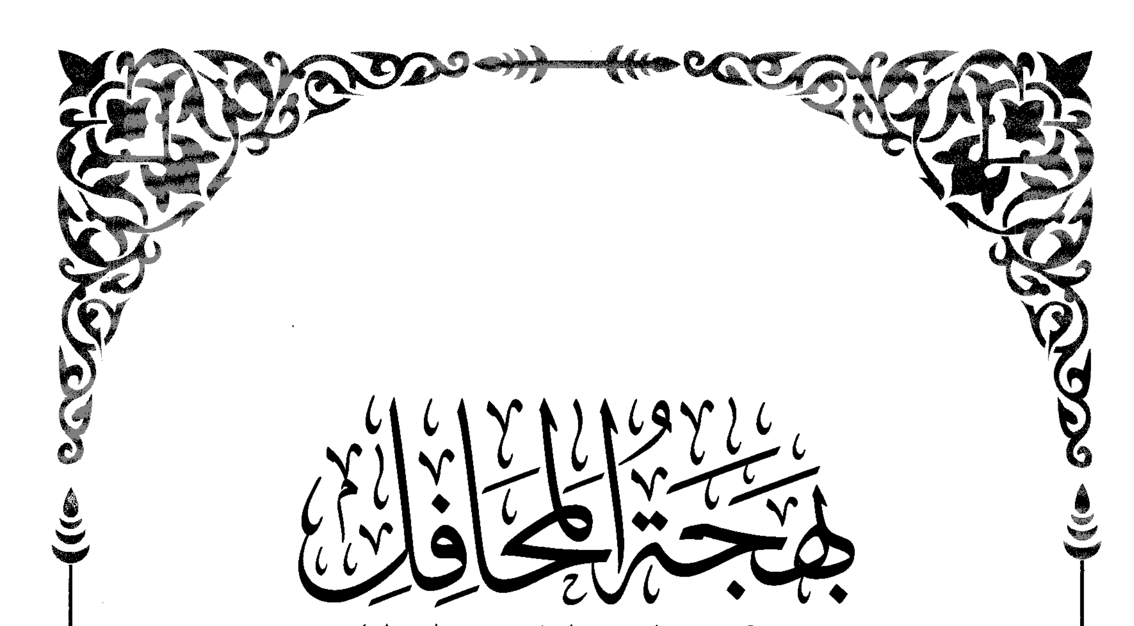
راموز الورقة الأولى للنسخة (و)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (و)

* * *





بهجة المحافل وبغية الأماثل

في تلخيص

السير والمعجزات والشمائل

تأليف

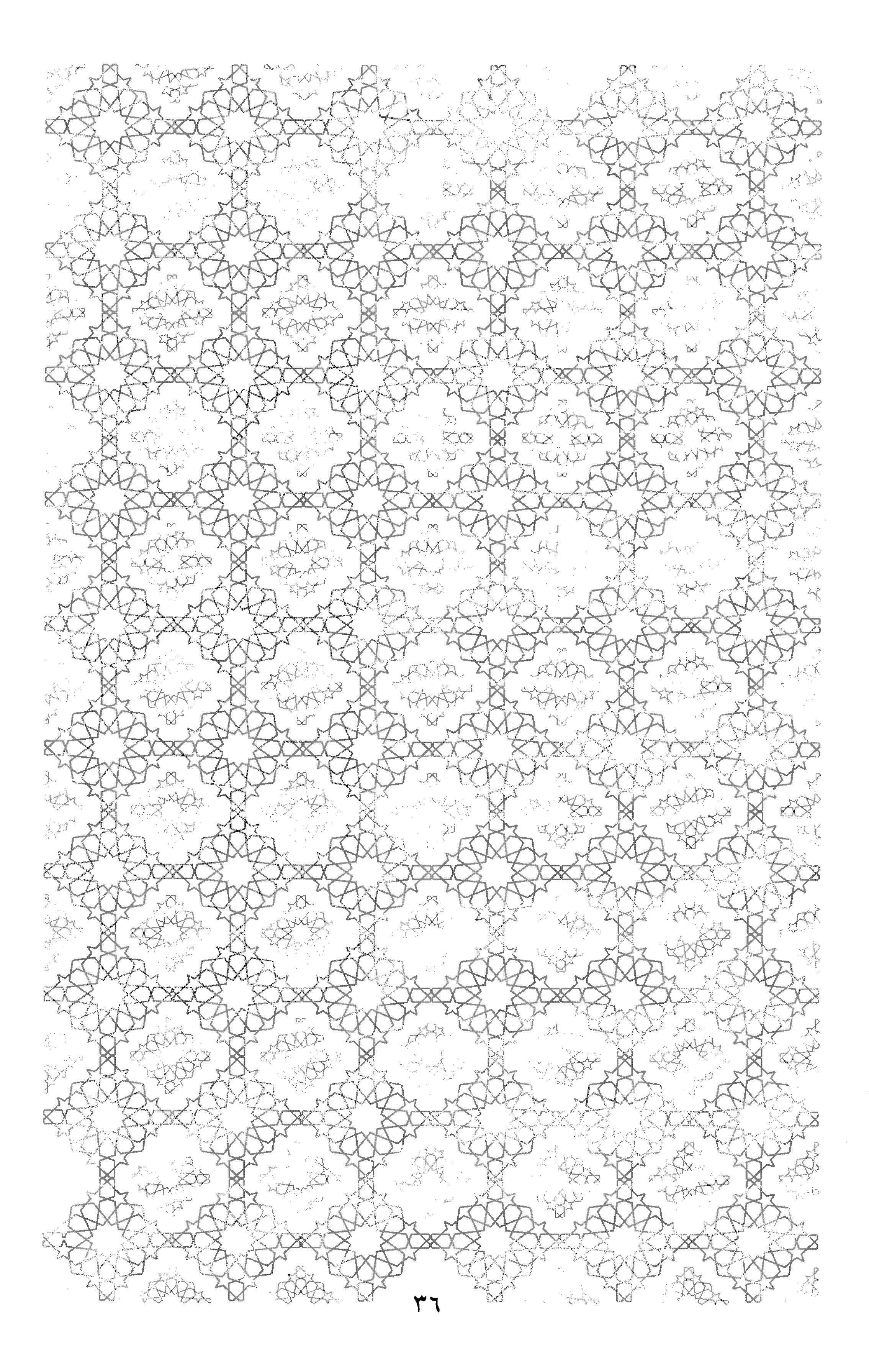
الإمام العلامة المحدث

يحيى بن أبي بكر بن محمد بن يحيى العامري

الحرضي اليماني الشافعي

رحمه الله تعالى

(٨١٦-٨٩٣هـ)



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين وبه ثقتي وهو حسبي ونعم الوكيل

رَبِّ يَسِّرْ وأَعِنْ يا كَرِيم وصلَّى اللهُ على مُحمَّدٍ وآلهِ[1]

[خُطْبَةُ الكِتَابِ]

الحمد لله الواحد البَرِّ الرحيم ، الفاطر الصمد العليم ، الذي بعث محمداً صلى الله عليه وعلىٰ آله وسلم بالحنيفية السمحةِ والدين القويمِ ، وبصَّر به بعد العَمىٰ وكشف به الغُمَّا[2] وآتاه الخُلُقَ العظيم والقلب السليم ، واختصه بالشفاعة العظمىٰ والمقام المحمود والتبجيل والتكريم ، وأرسله إلى الكافة[3] وأمَّنَ به بعد المخافة ، وجعله من أوسط العرب وأعز الجراثيم[4] ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم أفضل الصلاة والتسليم .

أما بعد :

فإن من أجل ما ينبغي معرفته وتعريفه وصرف العناية إليه وتدوينه وتصنيفه.. الكلام في العلوم النبوية والصفات المحمدية ؛ لصدورها عن الصدر الذي انبعثت عنه العلوم كلها جملةً وتفصيلاً، فروعاً وأصولاً، فشرف العلم بشرف المعلوم منه ، وقد صنفت العلماء رحمهم الله تعالىٰ في ذلك كتباً كثيرةً ؛ ما بين تاريخ وشمائل ، وأقوال وأفعال ، وأحكام وغير ذلك ، ومنهم المقل والمكثر، وليس فيهم مقصر، كلٌّ علىٰ مبلغ علمه ومقدار فهمه، وفوق كل ذي علم عليم.

فمن أجلِّ التواريخ النبوية : « السيرة الكبرىٰ » لمحمد بن إسحاق المطلبي مولاهم ، ثم

---

(١) راعينا في صياغة هذه الديباجة جميع النسخ .

(٢) **الغُمَّا** : بضم المعجمة وتشديد الميم ، وهو : الغم العظيم ، وأصلها المدّ ، لكن يقصر لمجاورة (العمىٰ) . « شرح البهجة » (١/ ٣) .

(٣) قال الجوهري : الكافة : جمع من الناس ، يقال : لقيتهم كافة ؛ أي : جميعهم . اهـ ، وعن سيبويه : إن التعريف في (كافة) لا يجوز ، بل يستعمل منكراً منصوباً على الحال كقاطبة . اهـ
والمراد بـ : (الكافة) : الإنس والجن ، وفي الملائكة خلاف مشهور ، واختار السبكي وغيره أنه مرسل إليهم أيضاً . « شرح البهجة » (١/ ٤) .

(٤) **جرثومةُ كلِّ شيءٍ** : أصله .

« تهذيبها » لعبد الملك بن هشام النحوي[١] ، وأَحسن مختصرٍ في ذلك : « خلاصةُ السير » للمحب الطبري ، وفي الشمائل : « كتاب أبي عيسى التِّرْمِذي » وجامع أبي محمد ابن حَيَّان[٢] ، رحمهم الله تعالىٰ .

ومما لم يُنسَج علىٰ مِنواله ، ولا سمحت القرائح بمثاله : كتابُ « الشفا » للقاضي الإمام عِياض بن موسى اليَحْصُبيِّ رحمه الله تعالىٰ ؛ فإنه تكلم في ذات[٣] النبوة وأَحكامِها ، والمجوزات عليها ولها ، مع ما وشَّحه به من الشمائل المرضيات والهَدْي والمعجزاتِ بقوة عبارة وتلويح إشارة ، علىٰ أحسن أسلوب وأَملح تقسيم وترتيب ، فشكر الله سعيه ، وأَعاد عليه نفعه .

ولما رأيتُ ما حُبِيَ به القومُ من محبة سيد البشر[٤] ، وما يرجون من نفعه يوم غد في المحشر ، وانتهىٰ إليّ قوله صلى الله عليه و علىٰ آله وسلم : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : ٱلصِّحَّةُ وَٱلْفَرَاغُ »[٥] . سارعت إلىٰ جمعِ مختصر جامع في هـٰذا المعنىٰ ، يتلخص الكلامُ فيه في ثلاثة أقسام مُنبئَةٍ عن فنونٍ حقُّها أن يفرد كلٌّ واحد منها بالتصنيف علىٰ حِدَتِهِ :

- **القسم الأول** : في تلخيص سيرته صلى الله عليه وسلم من مولده إلىٰ وفاته ، وما يتعلق بذلك ، **وفيه ستة أبواب** :

الباب الأول : في شرف نسبه ومَحْتِده[٦] ، وفضل بلدَيْ وفاته ومولده ، وما مهَّد الله له من الفضائل قبل وجودِه ، وعدد آبائِه من لدنْه إلىٰ آدم صلى الله عليهما وسلم .

الباب الثاني : في تاريخ مولده إلىٰ نبوَّته ، وما جرىٰ في تضاعيفِ ذلك من عيون الحوادث .

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، المتوفىٰ سنة (٢١٣هـ) ، غير أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري المصري ، المتوفىٰ سنة (٧٦١هـ) ، صاحب « المغني » ، و« أوضح المسالك » وغيرهما ، رحمهما الله تعالىٰ .

(٢) في المخطوطات : (جامع أبي محمد بن حبان) والصواب ما أثبتناه ، ومقصود المؤلف : كتاب « أخلاق النبي وآدابه » والله تعالىٰ أعلم .

(٣) في (أ) و(ج) : (آداب) .

(٤) **حُبِيَ به** : خُصَّ به .

(٥) أخرجه البخاري (٦٤١٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) **المَحْتِدُ** : الأَصْلُ والطَّبْعُ .

الباب الثالث : فيما كان من ذلك من نبوَّته إلىٰ هجرته صلى الله عليه وسلم .

الباب الرابع : في هجرته وما بعدها إلىٰ وفاته صلى الله عليه وسلم .

الباب الخامس : في ذكر بنيه وبناته وأزواجه ، وأعمامه وعماته ، ومرضعاته وإخوته من الرضاعة وأَخواته ، وذكر مواليه وخدمه من الأحرار ، ومن كان يحرُسه ، ورسله إلى الملوك ، وكتَّابه ، وأصحابه العشرة النُّجباء ، وأنصاره النُّقباء ، وأهل الفتوىٰ في حياته .

الباب السادس : في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير ، ونَعمه وغنمه[1] ، وسلاحه ، ومساكنه وملبوساته ، وغير ذلك من أنواع آلاته ، وخاتمتُه : عددُ سراياه وغزواته صلى الله عليه وسلم .

◉ **القسم الثاني** : في أسمائه الكريمة وخِلقته الوسيمة ، وخصائصه ، ومعجزاته ، وباهر آياته ، **وفيه أربعة أبواب** :

الباب الأول : في الأسماء وما تضمنت من المناسبات .

الباب الثاني : في صفة خَلْقه الوسيم ، وتناسب أعضائه واستواء أجزائه ، وما جمع الله فيه من الكمالات .

الباب الثالث : في الخصائص ، **وهي نوعان** :

ـ **الأول** : في خصائصه صلى الله عليه وسلم دون الأنبياء قبله ، وما اختصت به أمته ببركته صلى الله عليه وسلم .

ـ **الثاني** : فيما اختص به دون أمته من الواجبات والمباحات والمحرمات .

الباب الرابع : فيما أيده الله تعالىٰ به من المعجزات وخرق العادات .

○ **القسم الثالث** : في شمائله وفضائله ، وأقواله وأفعاله في جميع أحواله ، **وفيه ثلاثة أبواب** :

الباب الأول : في عادته وسَجِيَّته في المباحات والمعتادات الضروريات .

---

(١) **النَّعَمُ** : الإبلُ خاصةً ، فإذا قيل : أَنعامٌ . . دخل فيها البقر والغنم ، وقيل : بل النعم شاملٌ لها وللبقر والغنم أَيضاً ، وذِكرُ الغنم على الثاني من باب ذكر الخاص بعد العام . « شرح البهجة » (١/ ٧) .

الباب الثاني : في الأخلاق المعنويات التي جِماعُها حسن الخلق .

الباب الثالث : في شمائله صلى الله عليه وسلم في العبادات المتكررات .

وهٰذا القسم ـ رحمك الله ـ واسطة عقد هٰذه الأقسام ، ومحله منها محل اللطائف من الأجسام ؛ لما حوىٰ من التنبيه علىٰ جمل شرعية ، وآداب مرعية وسنن مأثورة ، وهيئات مهجورة لقلة الاستعمالِ ، واقتداء الجهال بأهل الإهمال .

وأذيله بباب جامع في فضل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، ومَنْ يُعَظَّم لأجله ، وفضل حديثه ومحدثيه ، وأختم جميع ذلك بفضل الصلاة عليه والتسليم صلى الله عليه وسلم .

وأسأل الله الكريم الرحمـٰن الرحيم أن يعظم لي في جمعه الفائدة ، ويعيد علي من بركته أعظم عائدة ، وأن يجعلَ إجازتي فيه الرضا ، والنزول في جوار المصطفىٰ ، ووالدِيَّ وإخواني وحَامَّتِي(١) ، والمسلمين وجميع الأصحاب والأولياء ؛ إنه عظيم الرَّجاء سميع الدعاء ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ونعم المولىٰ ونعم النصير .

* * *

---

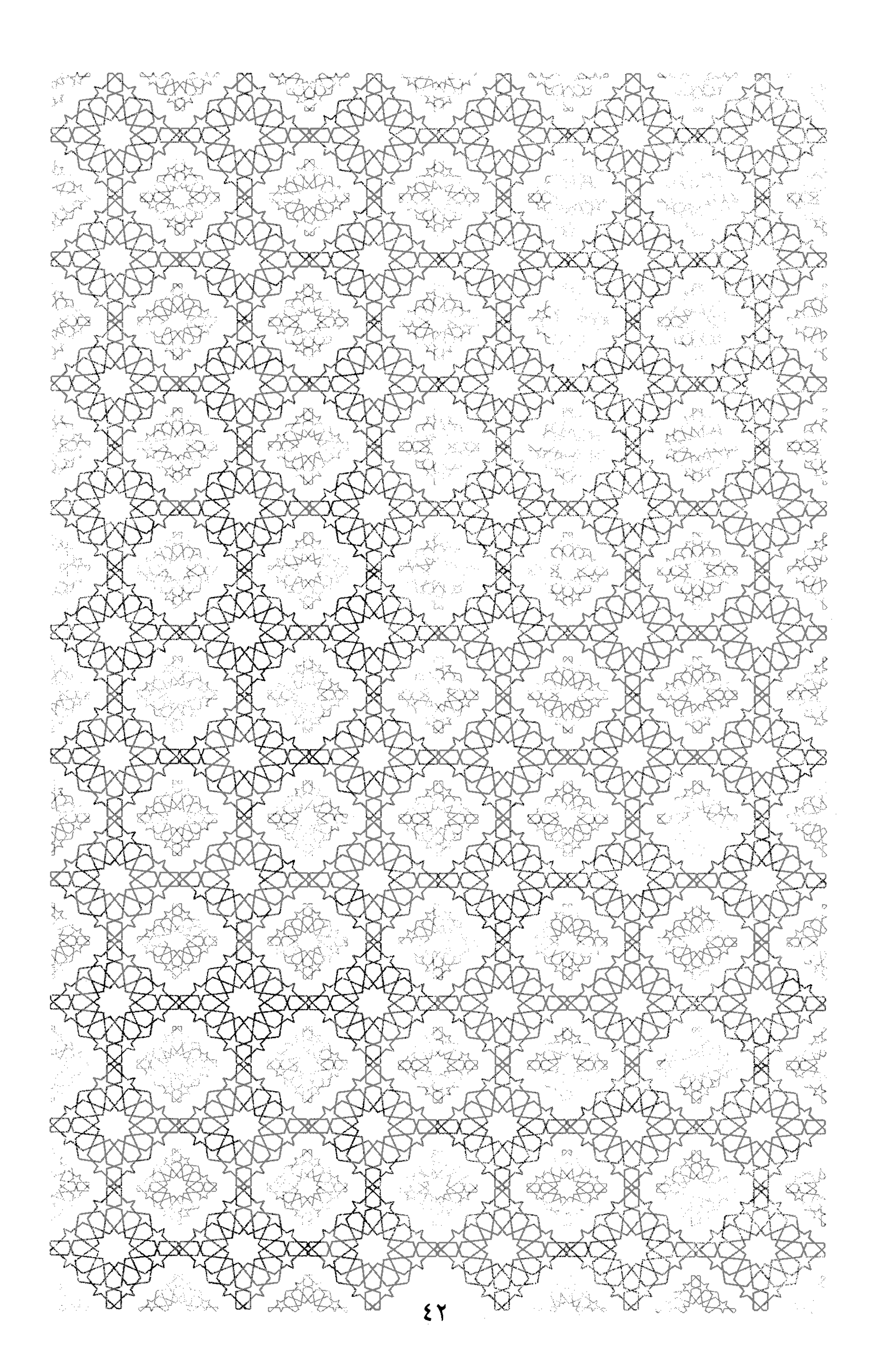
(١) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالى في «شرح البهجة» (١/٨) : (وفي بعض النسخ : وخاصتي بإعجام وإهمال الصاد ، **والحامة** : الخاصة الذين يختص بهم ويختصون به ، ويهتم بأمرهم).



القسم الأول

في تلخيص سيرته

وهو محتوٍ على ستّةِ أبوابٍ حسبما تقدّم



الباب الأول

في شرف نسبه ومحتده ، وما مهد الله له من الفضائل قبل وجوده وفضل بلدي وفاته ومولده ، وعدد آبائه من لدنه إلى آدم صلى الله عليهما وسلم

قال الله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قرىء بضم الفاء وفتحها ، وكلاهما متضمنان لفضيلة نسبه .

أما قراءةُ الضم . . فقال المفسرون : لم يكن في العرب قبيلة إلا ولها علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قرابة ، وعليه حمل ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالىٰ : ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[1] .

وعلىٰ قراءة الفتح . . فهو أبلغ في المدح[2] ؛ لأنَّ النفيس : الخيار الجيد ، ومثلُه في الآية الأخرىٰ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالىٰ : ﴿مِنْ أَنْفَسِكُمْ﴾ قال عنه صلى الله عليه وسلم : (حسباً ونسباً وصهراً ليس في آبائي من لدنْ آدمَ سفاح كلها نكاح)[3] ، قال ابن الكلبي : كتبتُ للنبي صلى الله عليه وسلم خمس مئة أم ؛ فما وجدتُ فيهن سفاحاً ، ولا شيئاً مما كانت عليه الجاهليةُ[4] .

قال المؤلف غفر الله له ورحمه : وقد كان نكاح الجاهلية علىٰ أربعة أنحاء :

ـ فنكاح منها نكاح الناس اليوم ؛ يخطب الرجل إلى الرجل وَلِيَّته أو بنته ، فيُصدِقها ثم يَنكِحها .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٨) .

(٢) انظر « المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات » (١/ ٣٠٦) .

(٣) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٣٢٧) مرفوعاً ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٧٢٨) بنحوه .

(٤) انظر « الشفا » (ص٥٧) .

ـ والنكاح الآخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طَهُرَت من طَمْثها : أرسلي إلىٰ فلانٍ فاستبضعي منه ، فيعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتىٰ يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها . . أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد ، فكان هـٰذا النكاح نكاح الاستبضاع .

ـ ونكاح آخر : يجتمع الرَّهْط ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرت ليالٍ بعد أن تضع . . أرسلت إليهم فلم يستطع أن يمتنع رجل منهم حتىٰ يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدتُ ، فهو ابنك يا فلان ؛ تسمي من أحبَّتْ باسمه ، فتلحِق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل .

ـ والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها ، وهن البغايا ، كنَّ يَنصِبن علىٰ أبوابهن رايات تكون عَلماً ، من أرادهن . . دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها . . جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاط به[١] ودُعِيَ ابنَه لا يمتنع من ذلك .

فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحق . . هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم ، رُوينا ذلك في « صحيح البخاري » و« سنن أبي داوود » من رواية عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها موقوفاً عليها[٢] .

وهـٰذا من أعظم العناية أن أجرى الله سبحانه وتعالىٰ نكاح آبائه من آدم إلىٰ أن أخرجه من بين أبويه علىٰ نَمَط واحد وفق شريعته صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس في قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ قال : « مِنْ نَبِيٍّ إِلَىٰ نَبِيٍّ حَتَّىٰ أَخْرَجْتُكَ نَبِيّاً »[٣] .

وروينا في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

---

(١) **التَاطَ** : التصق .

(٢) البخاري (٥١٢٧) ، وأبو داوود (٢٢٧٢) .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٨٧) ، وابن عساكر (٣/ ٤٠١) .

صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْناً فَقَرْناً ، حَتَّىٰ كُنْتُ مِنَ ٱلْقَرْنِ ٱلَّذِي كُنْتُ مِنْهُ »[(١)] .

وروينا في « جامع أبي عيسى الترمذي » عن واثلةَ بن الأَسْقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ ، وَٱصْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ ، وَٱصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً ، وَٱصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَٱصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » صححه الترمذي[(٢)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ ٱخْتَارَ خَلْقَهُ فَٱخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ ، [ثُمَّ ٱخْتَارَ بَنِي آدَمَ] فَٱخْتَارَ مِنْهُمُ ٱلْعَرَبَ ، ثُمَّ ٱخْتَارَ ٱلْعَرَبَ فَٱخْتَارَ مِنْهُمْ قُرَيْشاً ، ثُمَّ ٱخْتَارَ قُرَيْشاً فَٱخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي هَاشِمٍ ، ثُمَّ ٱخْتَارَ بَنِي هَاشِمٍ فَٱخْتَارَنِي مِنْهُمْ ، فَلَمْ أَزَلْ خِيَاراً مِنْ خِيَارٍ ، أَلاَ مَنْ أَحَبَّ ٱلْعَرَبَ . . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَ ٱلْعَرَبَ . . فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ » رواه الطبري[(٣)] .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : وأما شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه . . فمما لا يحتاج إلىٰ إقامة دليل عليه ، ولا بيان مشكل ولا خفي منه ؛ فإنه نُخْبَة بني هاشم ، وأفضل سُلالة قريش وصميمها[(٤)] ، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلىٰ عباده[(٥)] .

ثم روىٰ بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَسَمَ ٱلْخَلْقَ قِسْمَيْنِ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قِسْماً ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ

---

(١) البخاري (٣٥٥٧) .

(٢) سنن الترمذي (٣٦٠٥) .

(٣) هـٰذا لفظ القاضي عياض في « الشفا » (١٢٦) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢١٨) ونسبه إلى الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٥٥) و« الأوسط » (٦١٨٢) ، ولفظه : « . . . وَخَلَقَ ٱلْخَلْقَ فَٱخْتَارَ مِنَ ٱلْخَلْقِ بَنِي آدَمَ ، وَٱخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ ٱلْعَرَبَ ، وَٱخْتَارَ مِنَ ٱلْعَرَبِ مُضَرَ ، وَٱخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشاً ، وَٱخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَٱخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَىٰ خِيَارٍ ، فَمَنْ أَحَبَّ ٱلْعَرَبَ . . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَ ٱلْعَرَبَ . . فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ » .

(٤) **الصميم** : الخالص .

(٥) انظر : « الشفا » (ص١٢٥) .

تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾ ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ فَأَنَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ، وَأَنَا خَيْرُ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ، ثُمَّ جعلَ ٱلْقِسْمَيْنِ أَثْلَاثاً فَجعَلَنِي فِي خَيْرِهَا ثُلُثاً ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالَىٰ : ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ ، فَأَنَا مِنَ ٱلسَّابِقِينَ ، وَأَنَا خَيْرُ ٱلسَّابِقِينَ ، ثُمَّ جَعَلَ ٱلأَثْلَاثَ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهَا قَبِيلَةً ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ ﴾ الآية ، فَأَنَا أَتْقَىٰ وَلَدِ آدمَ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى ٱللهِ وَلاَ فَخْرَ ، وَجعَلَ ٱلْقَبَائِلَ بُيُوتاً فَجعَلَنِي فِي خَيْرِهَا بَيْتاً وَلاَ فَخْرَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ ﴾ الآية[1] .

ومعنىٰ قوله : « وَلاَ فَخْرَ » أي : لست أقوله مفتخراً متطاولاً ولا محتقراً لغيري ، إنما هو من باب التحدث بالنعم ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها ، عنه صلى الله عليه وسلم : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : قَلَبْتُ مَشَارِقَ ٱلأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَرَ رَجُلاً أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَلَمْ أَرَ بَنِي أَبٍ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »[2] .

وما أحسن قول أبي طالب حيث مدح قريشاً وخيَّرها ، ثم خيَّر منهم بني عبد مناف ، ثم خيَّر منهم بني هاشم ، ثم خيَّره على الكل فقال : [من الطويل]

وَإِنْ فَخَرَتْ يَوْماً فَإِنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ ٱلْمُصْطَفَىٰ مِنْ سِرِّهَا وَصَمِيمِهَا

وقال أيضاً : [من الطويل]

فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي أَرُومَةٍ ... تُقَصِّرُ عَنْهَا سَوْرَةُ ٱلْمُتَطَاوِلِ

وقال ابنه طالب بن أبي طالب : [من الطويل]

فَمَا إِنْ جَنَيْنَا فِي قُرَيْشٍ عَظِيمَةً ... سِوَىٰ أَنْ حَمَيْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ ٱلثَّرَىٰ[3]

---

(١) انظر « الشفا » (ص٢١٤) .
(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٢٨٥) .
(٣) في (أ) و(ب) : (التربا) .

فَصْلٌ

[فيما مهد الله له من الفضائل قبل وجوده]

وأما ما مهد الله له في قدم نبوته وذكره :

فروى القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ من ذلك في كتابه « الشفا » أخباراً كثيرةً ، وكثيراً ما أنقل منه إلا ما كان من فن التواريخ ؛ فإنه رحمه الله تعالىٰ لم يأت بشيء منها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾ الآية[1] ، وفي معناها ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (لم يبعث الله نبياً من لدن آدم . . إلاَّ وأخذ الله عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لئن بعث وهو حي . . ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأخذ العهد بذلك علىٰ قومه) ونحوه عن السُّدِّي وقتادة[2] .

ورویٰ قتادة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كُنْتُ أَوَّلَ ٱلأَنْبِيَاءِ فِي ٱلْخَلْقِ ، وَآخِرَهُمْ فِي ٱلْبَعْثِ »[3] فلذلك ذكر في الآية مقدماً علىٰ نوح وغيره .

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنِّي عِنْدَ ٱللهِ لَخَاتَمُ ٱلنَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَعِدَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ »[4] .

وكان آدم في الأزل يكنىٰ بأبي محمد ، وأبي البشر ، وروي أنه تشفّع بمحمد صلى الله عليه وسلم حين أصاب الخطيئة فتاب الله عليه[5] .

وعن البراء قال : قلنا : يا رسول الله ؛ متىٰ وجبت لك النبوة ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ ٱلرُّوحِ وَٱلْجَسَدِ »[6] .

---

(١) في المخطوطات : (لما آتيناكم) قال الحافظ ابن الجزري في « النشر » (٢/ ٢٤١) : (قرأ المدنيان « آتيناكم » بالنون والألف على التعظيم) .

(٢) انظر « الشفا » (٨٥) .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٢٤٢١) .

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧) ، وانظر « الشفا » (ص٢٢١) ، **منجدل في طينته** : ملقًى على الأرض ؛ أي : صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد .

(٥) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦١٥) ، والطبراني في « الصغير » (٢/ ٨٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦٠٩) .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال في كلام بكىٰ به النبي صلى الله عليه وسلم : (بأبي وأمي أنت يا رسول الله ؛ لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآية ، بأبي وأمي أنت يا رسول الله ؛ لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون : ﴿ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾)[1] .

وروى الشيخ أبو الحسن الحرَّاني المغربي في كتابه الذي صنفه في أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وتفسيرها : أنه صلى الله عليه وسلم نسب نفسه فقال : « أَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ » ثم رفع نسبه إلىٰ آدم ، ثم قال : « وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، وَٱلتُّرَابُ مِنَ الزَّبَدِ ، وَالزَّبَدُ مِنَ ٱلْمَوْجِ ، وَٱلْمَوْجُ مِنَ ٱلْمَاءِ ، وَٱلْمَاءُ مِنَ ٱلدِّرَّةِ ، وَٱلدِّرَّةُ مِنَ ٱلضَّبَابَةِ[2] ، وَٱلضَّبَابَةُ أُنْشِئَتْ مِنْ نُورِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » فإن صح هـٰذا من جهة النقل . . فهو صلى الله عليه وآله وسلم أصل الوجود الإنساني خلقاً وتكويناً .

وما أحسن قول السيد الحكيم أبي عبد الله الترمذي فيه حيث قال : [من السريع]

قَـدْ وَرِثَ ٱلْمَجْـدَ بِـآبَـائِـهِ ... وَوَرَّثَ ٱلْمَجْـدَ لِأَبْنَـائِـهِ
وَقَـامَ قُطْبـاً لِمُحِيـطِ ٱلْعُـلاَ ... وَٱلْمَجْـدُ قَـدْ حَـفَّ بِـأَرْجَـائِـهِ
وَطَهُـرَتْ أَجْـزَاؤُهُ فَـٱغْتَـدَىٰ ... يُطَهِّـرُ ٱلْكُـلَّ بِـأَجْـزَائِـهِ
وَكَـانَ ظِـلاًّ فَمَحَـاهُ ٱلسَّنَـا ... وَمُثْبَتـاً فَـانٍ بِـإِفْنَـائِـهِ
وَكَـانَ فِـي غَيْبَـةِ أَكْـوَانِـهِ ... يَقْطُـرُ مَـاءُ ٱلْمَجْـدِ مِـنْ مَـائِـهِ[3]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَمَّا خَلَقَ ٱللهُ آدَمَ . . أَهْبَطَنِي إِلَى ٱلأَرْضِ فِي صُلْبِهِ ، وَجَعَلَنِي فِي صُلْبِ نُوحٍ فِي ٱلسَّفِينَةِ ، وَقَذَفَ بِي فِي ٱلنَّارِ فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي مِنَ ٱلأَصْلاَبِ ٱلْكَرِيمَةِ إِلَى ٱلأَرْحَامِ ٱلطَّاهِرَةِ حَتَّىٰ

---

(١) انظر « الشفا » (ص٨٦) .
(٢) **الدِّرَّةُ** في أصل اللغة : كثرة اللبن وسيلانه ، ويقال : للسحاب دِرَّةٌ ؛ أي : صَبٌّ واندفاع . **الضَّبابة** : السحابة الرقيقة .
(٣) في (أ) و(ج) : (يقطر ماء المزن من مائه) .

أَخْرَجَنِي ٱللهُ مِنْ بَيْنِ أَبَوَيَّ لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَىٰ سِفَاحٍ قَطُّ »[1] .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ أشار عمه العباس رضي الله عنه حيث قال : يا رسول الله ؛ إني أريد أن أمتدحك . قال : « قُلْ ، لاَ يَفْضُضِ ٱللهُ فَاكَ » فقال : [من المنسرح]

مِـنْ قَبْلِهَـا طِبْـتَ فِـي ٱلظِّـلاَلِ وَفِـي ... مُسْتَـوْدَعٍ حَيْـثُ يُخْصَـفُ ٱلْـوَرَقُ[2]

ثُـمَّ هَبَطْـتَ ٱلْبِـلاَدَ لاَ بَشَـرٌ ... أَنْـتَ وَلاَ مُضْغَـةٌ وَلاَ عَلَـقُ

بَـلْ نُطْفَـةٌ تَـرْكَـبُ ٱلسَّفِيـنَ وَقَـدْ ... أَلْجَـمَ نَسْـراً وَأَهْلَـهُ ٱلْغَـرَقُ[3]

تُنْقَـلُ مِـنْ صَـالِـبٍ إِلَـىٰ رَحِـمٍ ... إِذَا مَضَـىٰ عَـالَـمٌ بَـدَا طَبَـقُ[4]

وَرَدْتَ نَـارَ ٱلْخَلِيـلِ مُكْتَمِنـاً ... فِـي صُلْبِـهِ أَنْـتَ كَيْـفَ يَحْتَـرِقُ ؟!

حَتَّـى ٱحْتَـوَىٰ بَيْتُـكَ ٱلْمُهَيْمِـنُ مِـنْ ... خِنْـدِفَ عَلْيَـاءَ تَحْتَهَـا ٱلنُّطُـقُ[5]

وَأَنْـتَ لَمَّـا وُلِـدْتَ أَشْـرَقَـتِ ٱلأَرْ ... ضُ وَضَـاءَتْ بِنُـورِكَ ٱلأُفُـقُ

فَنَحْـنُ فِـي ذَلِـكَ ٱلضِّيَـاءِ وَفِـي ٱلنُّـ ... ـورِ وَسُبْـلِ ٱلـرَّشَـادِ نَخْتَـرِقُ[6]

فَصْلٌ

فيما ورد من فضل بلدي مولده ووفاته

قال المؤلف كان الله له : جمع الله سبحانه لنبيه أنواع التفضيل والإعزاز والتبجيل ، وتخير له في البلد كما هيأ له في النسب ؛ فجعل مولده ومبعثه بمكة ، ومهاجره ووفاته بالمدينة ، ولا خلاف بين العلماء أنهما أفضل البلدان على الإطلاق ، ثم اختلفوا في أيهما

---

(١) انظر « الشفا » (ص٢١٥ـ٢١٦) .

(٢) أي : في الجنة حيث خصف آدم وحواء عليهما من ورق الجنة . انظر « النهاية » لابن الأثير (٢/ ٣٨) .

(٣) يريد الصنم الذي كان يعبده قوم نوح عليه السلام ، وهو المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ انظر « النهاية » (٥/ ٤٧) .

(٤) يقول : إذا مضىٰ قرن . . بدا قرن . انظر « النهاية » (٣/ ١١٣) .

(٥) **الخِنْدِفُ** : الهرولة والإسراع في المشي ، وهو في الأصل لقب ليلىٰ بنت عمران ، **وعلياء** : اسم للمكان المرتفع ، **والنطق** : جمع نطاق ، وهي : أعراض من جبال بعضها فوق بعض . انظر « النهاية » (٢/ ٨٢) و(٣/ ٢٩٥) و(٥/ ٧٥) .

(٦) انظر « الشفا » (ص٢١٦) .

أفضل : فذهب أهل مكة والكوفة إلىٰ تفضيل مكة ، وهو قول الشافعي وعليه جماعة من المالكية ، وذهب مالك وأكثر المدنيين إلىٰ تفضيل المدينة ، وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولا خلاف أن موضع قبره أفضل البقاع ؛ لما ورد : أن كلاًّ يدفن في تربته التي خلق منها ، وهو صلى الله عليه وسلم أفضل المخلوقين ، فتعين أنها أفضل البقاع ، والله أعلم .

فمما ورد في فضل مكة من الآيات والأحاديث : قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، والآيات الواردة في هٰذا المعنىٰ كثيرة غير منحصرة .

وأما الأحاديث : فروينا في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « إِنَّ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ حَرَّمَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلاَّ مَنْ عَرَّفَهَا »[1] وفي رواية أخرىٰ عنه : « وَلاَ يُخْتَلَىٰ خَلاَهَا » قال العباس رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ إلاَّ الإذْخِر ؛ فإنه لِقَيْنِهم ولبيوتهم ، قال : « إِلاَّ ٱلإِذْخِرَ »[2] .

وروينا في « جامع الترمذي » عن عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو علىٰ راحلته بالحَزْوَرة بمكة يقول لمكة : « وَٱللهِ ؛ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ ٱللهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ ٱللهِ إِلَيَّ ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ » صححه الترمذي[3] .

---

(١) البخاري (١٥٨٧) ، **لا يُعضد** : لا يقطع بالمعضد ، وهو آلة كالفأس .

(٢) البخاري (١٨٣٤) **لا يختلىٰ** : لا يؤخذ ولا يقطع ، **والخلا** : الرطب من الكلأ ، **والإذخر** : نبت معروف طيب الرائحة ، **والقَيْنُ** : الحداد والصائغ ؛ لأنهما يحتاجان إليه في وُقود النار .

(٣) سنن الترمذي (٣٩٢٥) ، **والحزورة** : بفتح المهملة والزاي والواو المشددة والراء ، كذا يقوله المحدثون ، وسكون الزاي وتخفيف الواو بوزن قسورة ، كذا ضبطه ابن السراج بالوجهين . « شرح البهجة » (١/ ١٩) ، وعند الترمذي : (وَأَحَبُّ أَرْضِ ٱللهِ إِلَى ٱللهِ) .

وعن أبي شُرَيْح العدوي : أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلىٰ مكة : ائذن لي أيها الأمير أحدثْك قولاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغدَ من يوم الفتح ، فسمعتْه أُذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، أنه حمد الله وأثنىٰ عليه ثم قال : « إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا ٱللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا ٱلنَّاسُ ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِىءٍ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَماً ، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ ٱللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا ٱلْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِٱلأَمْسِ ، وَلْيُبَلِّغِ ٱلشَّاهِدُ ٱلْغَائِبَ »[1] .

وفي « مسند أبي داوود الطَّيالِسي » من رواية عبد الله بن الزبير ورفعه : (أن الصلاة في المسجد الحرام تفضل على الصلاة في غيره بمئة ألف صلاة)[2] وقد حسب ذلك فبلغت صلاة واحدة في المسجد الحرام عمر خمس وخمسين سنةً وستة أشهر وعشرين ليلةً ، ولا يُسقط هـٰذا التضاعفُ شيئاً من الفوائت كما يتخيله كثير من الجهال ، نبه عليه النووي رحمه الله تعالىٰ[3] .

قال بعض المفسرين في قوله تعالىٰ : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ أي : من النار ، وقيل : من الطلب[4] ، وكان في الجاهلية من أحدث حدثاً ولجأ إليه . . أمن ، ويمشي القاتل علىٰ قاتله فيه من غير خَفارة[5] ، والسباع تطلب الصيد فإذا دخل الحرم . . كفت عنه ، وهـٰذا كقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ .

ولها في القرآن ثمانية أسماء : مكة ، وبكة ، وأم القرىٰ ، والقرية ، والبلد ، والبلد الأمين ، والبلدة ، ومَعَاد ، ومن أسمائها في غيره : الرأس ، والقادسية ، والمسجد

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤) ، ومسلم (١٣٥٤) .

(٢) أخرجه الطيالسي (١٣٦٧) وأحمد (٤/ ٥) .

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرحه علىٰ صحيح مسلم » (٩/ ١٦٦) : (ولا يتعدىٰ ذلك إلى الإجزاء عن الفوائت ، حتىٰ لو كان عليه صلاتان فصلىٰ في مسجد المدينة صلاةً . . لم تُجزئه عنهما ، وهـٰذا لا خلاف فيه ، والله أعلم) .

(٤) أورده الطبري في « جامع البيان » (٧٤٦٩) ، والسيوطي في « الدر المنثور » (٢/ ٢٧١ـ ٢٧٢) وغيرهما .

(٥) **الخفارة** : الأمان والعهد .

الحرام ، والمكَّتان ، وأم رَوْح[1] ، وأم رُحْم[2] ، وأم الرحمة ، وأم كُوثَىٰ .

قال المؤلف كان الله له : ومن الآيات البينات فيه : الحجر الأسود ، والحطيم ، وآثار قدمي إبراهيم عليه السلام ، وانبثاق ماء زمزم بعقب جبريل ؛ غياثاً لهاجَرَ وإسماعيل غُنيةً عن الطعام والشراب ودواءً للغليل .

ثم إن بها جماعَ المشاعر ، ومولد النبي المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، ومنها بدأ الدين غريباً بعد أن كان قد عفا ، وأول ما نزل بها القرآن العظيم ، وعكف في عرصاتها الملائكة والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، ثم هي قبلة المصلين في جميع الآفاق ، وإليها تنّزِع القلوب بدعاء الخليل وأمر الخلاق ، وبها أعظم مجامع الدنيا ، وفي خمسة عشر موضعاً منها يستجاب الدعاء[3] ، ثم لها الخصائص التي لا تحصىٰ ولا تعد ولا تُستقصىٰ : [من الكامل]

يَـا أَهْـلَ تَـدْرِيـسِ ٱلْعُلُـومِ جَمِيعِهَـا ... وَذَوِي عُقُـولٍ قَـدْ صَفَـتْ مِـنْ رِيبَـةِ

هَــلْ تَعْلَمُــونَ مَحَلَّــةً مَعْــرُوفَــةً ... جَمَعَــتْ كَمَكَّــةَ فِــي عِـدَادٍ فَضِيلَـةِ

وأما ما جاء في فضل المدينة : فروينا في صحيحي : « البخاري » و« مسلم » رحمهما الله تعالىٰ من رواية علي وأبي هريرة وأبي حميد الساعدي وسفيان بن أبي زهير وأبي بكرة وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وعائشة وعبد الله بن زيد بن عاصم ورافع بن خديج وسعد بن أبي وقاص وسهل بن حُنَيْف وجابر بن سمرة وابن عمر رضي الله عنهم أحاديث متفرقة : أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ ٱلْقُرَىٰ ، يَقُولُونَ : يَثْرِبُ ، وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ، تَنْفِي ٱلنَّاسَ كَمَا يَنْفِي ٱلْكِيرُ خَبَثَ ٱلْحَدِيدِ »[4] .

---

(١) **الرَّوح لغةً** : الراحة ، سميت بذلك لأنها يستراح فيها من الذنوب .

(٢) **رُحْم** : بضم الراء وإسكان الحاء المهملة ، سميت بذلك لتراحم الناس بها . « شرح البهجة » (١ / ٢٢) .

(٣) وهي : في الطواف ، وعند الملتزم ، وتحت الميزاب ، وفي البيت ، وعند زمزم ، وعلى الصفا والمروة ، وفي المسعىٰ ، وخلف المقام ، وفي عرفات ، والمزدلفة ، وفي منىٰ ، وعند الجمرات الثلاث . « شرح البهجة » (١ / ٢٣) .

(٤) البخاري (١٨٧١) ومسلم (١٣٨٢) ، **أمرت بقرية** : أمرت بالهجرة إليها واستيطانها ، **تأكل القرىٰ** : ذكروا في معناه وجهين : **أحدهما** : أنها مركز جيوش الإسلام في أول الأمر ، فمنها فتحت القرىٰ وغنمت أموالها وسباياها ، **والثاني** : أن أكلها وميرتها من القرى المنفتحة ، وإليها تساق غنائمها . « شرح البهجة » (١ / ٢٤) ، **الكِيرُ** : ما ينفخ فيه الحداد ؛ لإشعال النار .

وأنه حرم ما بين لابتيها كما حرم إبراهيم مكة ، وأنه سماها طابة ، ونهىٰ عن تسميتها يثرب ، وأخبر أن الإيمان يأرِز إليها[1] كما تأرز الحية إلىٰ جحرها .

وقال فيمن تحمَّلَ عن المدينة : « وَٱلْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »[2] ، وأنها لا يدخلها رُعْبُ المسيح الدجال ولا الطاعون ، وأنه كان إذا قدم من سفر فنظر إلىٰ جُدُرات المدينة . . أوضع راحلته[3] ، وإن كان علىٰ دابة . . حرَّكها من حُبها ودعا لها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة .

وأخبر أنه لا يدعها أحد رغبةً عنها . . إلا أبدل الله فيها من هو خير منه ، ولا يثبت أحد علىٰ لأوائها وجهدها[4] . . إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ، وأنها لا يريدها أحد بسوء . . إلا أذابه الله ذَوْب الرصاص أو ذوب الملح في الماء .

ومما رويناه خارج « الصحيحين » : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ٱلْمَدِينَةُ مُهَاجَرِي ، وَفِيهَا مَضْجَعِي ، وَفِيهَا مَبْعَثِي ، حَقِيقٌ عَلَىٰ أُمَّتِي حِفْظُ جِيرَانِي مَا ٱجْتَنَبُوا ٱلْكَبَائِرَ ، مَنْ حَفِظَهُمْ . . كُنْتُ لَهُ شَهِيداً أَوْ[5] شَفِيعاً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْهُمْ . . سُقِيَ مِنْ طِينَةِ ٱلْخَبَالِ »[6] .

وقال : « غُبَارُ ٱلْمَدِينَةِ شِفَاءٌ مِنَ ٱلْجُذَامِ »[7] .

وقال : « كُلُّ ٱلْبِلَادِ ٱفْتُتِحَتْ بِٱلسَّيْفِ ، وَٱفْتُتِحَتِ ٱلْمَدِينَةُ بِٱلْقُرْآنِ »[8] .

وقال : « مَا عَلَى ٱلأَرْضِ بُقْعَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَبْرِي بِهَا مِنْهَا » ثلاث مرات[9] .

---

(١) **يأرز** : ينضم إليها ويجتمع .

(٢) أخرجه مسلم ، (١٣٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٤٥٤) عن جابر رضي الله عنه .

(٣) **أوضع** : أسرع .

(٤) **لأواؤها** : الشدة وما يعظم مشقته ويحرج له الصدر ؛ من ضيق عيش أو قحط أو خوف ونحو ذلك ، **وجهدها** ـ بفتح الجيم لغة قليلة وبضمها ـ : هو المشقة .

(٥) في (ب) : (و) .

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٠٥) ، **طينة الخبال** : عصارة أهل النار .

(٧) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٤٢٨١) .

(٨) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٣٤٢) عن عائشة رضي الله عنها .

(٩) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٦٢٩٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال : « مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ ٱلْحَرَمَيْنِ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً . . بَعَثَهُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ وَلاَ عَذَابَ » ، وفي طريق آخر : « بُعِثَ مِنَ ٱلآمِنِينَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[1] .

وقال : « مَنِ ٱسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِٱلْمَدِينَةِ . . فَلْيَمُتْ بِهَا ؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا »[2] .

وروي عن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ قال : ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ : المدينة ، و﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ : مكة ، و﴿ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ : الأنصار .

وسماها الله تعالىٰ (الدار) كما ذكر في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ الآيات ، وذُكر أن لها في التوراة أربعين ٱسماً ، منها : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، وجابرة ، والمجبورة ، والمرحومة ، والهدراء ، والعذراء ، والمحبة ، والمحبوبة ، والقاصمة[3] .

وروي أن في « التوراة » : (يا مسكينة ؛ لا تقبلي الكنوز ، أرفع أَجاجيرك علىٰ أَجاجير القرىٰ)[4] .

وقال الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المطري رحمه الله تعالىٰ في كتابه « تأليف ما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة »[5] بروايتي لذلك عن شيخي الإمام الحافظ محب الدين محمد بن أبي حامد المطري حفيد المصنف قراءةً مني عليه لجميع الكتاب بالمسجد النبوي الشريف إلىٰ جانب المنبر المنيف ، وسمعته جميعاً بالمسجد الحرام من لفظ شيخنا إمام الوقت أبي الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسين المراغي نَضَّر الله وجوههما ، قالا : أخبرنا به الشيخ الإمام إبراهيم بن علي اليعمري عن المؤلف رحمه الله تعالى قال :

---

(١) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٥٥٦١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩١٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) في (أ) و(ب) : (العاصمة) .

(٤) انظر « فتح الباري » (٤/ ٨٩) ، **والأجاجير** : الجوانب والأرجاء .

(٥) في « ذيل تذكرة الحفاظ » (١/ ١١٠) : « التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة » ، وفي « إيضاح المكنون » (١/ ٢٩٦) : « التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة » وهـٰذا هو الصحيح .

وبعد : فإن العناية بالمدينة الشريفة متعينة ، والرعاية لعظيم حرمتها لكل خير متضمنة ، والوسيلة بنشر شرفها شافعة ، والفضيلة لأشتات معاهدها جامعة ؛ لأنها طابة ذات الحجرة المفضلة ، ودار الهجرة المكملة ، وحرم النبوة المشرف بالآيات المنزلة ، والمسجد الذي تشد إليه الرحال المُرْقِلة[1] ، والبقعة التي تهبط الأملاك عليها ، والمدينة التي يأرز الإيمان إليها ، والمشهد الذي تفوح أرواح نجد من ثياب زائريه ، والمورد الذي لا تُرْوَىٰ من الشوق غُلة[2] وارديه ، والعرصة التي خصها الله تعالىٰ بالنبي الأطهر ، والحرمة[3] التي فيها الروضة المقدسة بين القبر والمنبر ، والتربة التي سَمَتْ بساكنها على الآفاق ، وفضَلت بقاع الأرض على الإطلاق ، فهي كما قيل : [من الكامل]

جَـزَمَ ٱلْجَمِيـعُ بِـأَنَّ خَيْـرَ ٱلأَرْضِ مَـا ... قَـدْ حَـاطَ ذَاتَ ٱلْمُصْطَفَـىٰ وَحَـوَاهَـا

وَنَعَـمْ لَقَـدْ صَـدَقُـوا بِسَـاكِنِهـا عَلَـتْ ... كَـٱلنَّفْـسِ حِيـنَ زَكَـتْ زَكَـىٰ مَـأْوَاهَـا

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : وجدير لمواطنَ عُمِّرت بالوحي والتنزيل ، وتردد فيها جبريل وميكائيل ، وعرجت منها الملائكة والروح ، وضجَّت عرصاتُها بالتقديس والتسبيح ، واشتملت تربتها علىٰ جسد سيد البشر ، وانتشر عنها من دين الله تعالىٰ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما انتشر ، مدارسُ آياتٍ ، ومساجد وصلوات ، ومشاهد الفضائل والخيرات ، ومعاهد البراهين والمعجزات ، ومناسك الدين ومشاعر المسلمين ، ومواقف سيد المرسلين ، ومتبوَّأ خاتم النبيين ؛ حيث انفجرت النبوة وأين فاض عُبابها ، ومواطن مَهْبط الرسالة ، وأول أرض مس جلد المصطفىٰ ترابها . . أن تُعظَّم عرصاتها ، وتُتَنَسَّمَ نفحاتُها ، وتُقبَّل ربوعها وجُدُراتها . وأنشد : [من الكامل]

يَـا دَارَ خَيْـرِ ٱلْمُـرْسَلِيـنَ وَمَـنْ بِـهِ ... هُـدِيَ ٱلأَنَـامُ وَخُـصَّ بِـٱلآيَـاتِ

عِنْـدِي لأَجْلِـكِ لَـوْعَـةٌ وَصَبَـابَـةٌ ... وَتَشَـوُّقٌ مُتَـوَقِّـدُ ٱلْجَمَـرَاتِ

---

(١) المُرْقِلة : المسرعة .

(٢) الغلة : العطش .

(٣) في (ب) و(ج) : (الحومة) .

وَعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلأْتُ مَحَاجِرِي ... مِنْ تِلْكُمُ ٱلْجُدُرَاتِ وَٱلْعَرَصَاتِ[1]

لأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَيْبِي بَيْنَهَا ... مِنْ كَثْرَةِ ٱلتَّقْبِيلِ وَٱلرَّشَفَاتِ

لَوْلاَ ٱلْعَوَادِي وَٱلأَعَادِي زُرْتُهَا ... أَبَداً وَلَوْ سَحْباً عَلَى ٱلْوَجَنَاتِ[2]

لَكِنْ سَأُهْدِي مِنْ حَفِيلِ تَحِيَّتِي ... لِقَطِينِ تِلْكَ ٱلدَّارِ وَٱلْحُجُرَاتِ

أَذْكَىٰ مِنَ ٱلْمِسْكِ ٱلْمُفَتَّقِ نَفْحَةً ... تَغْشَاهُ بِٱلآصَالِ وَٱلْبُكُرَاتِ[3]

وَتَخُصُّهُ بِزَوَاكِي ٱلصَّلَوَاتِ ... وَنَوَامِي ٱلتَّسْلِيمِ وَٱلْبَرَكَاتِ[4]

فصل

[في عدد آبائه من لدنه إلىٰ آدم صلى الله عليهما وسلم]

وأما عدد آبائه : فهو صلى الله عليه وآله وسلم أبو القاسم وأبو الأرامل وأبو إبراهيم محمد صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان بن أُدَد بن مُقوِّم بن ناحور بن تيَرَح بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قيدار بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم ـ صلى الله عليهما وسلم ـ ابن آزر بن تارح بن ناحور بن ساروح بن راعُو بن فالخ بن عَيْبَر بن شالَخ بن أَرْفَخشَذ بن سام بن نوح ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن لامك بن مَتُّوشَلَخ بن خَنُوخ ـ وهو إدريس صلى الله عليه وسلم عند الأكثرين ـ ابن يَرْد بن مَهْليل بن قَينين ـ ويقال : قَينان بالألف ـ ابن يانش بن شِيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قال المؤلف غفر الله له : وما ذكرنا من النسب إلىٰ عدنان متفق عليه ، وفيما بعده إلىٰ آدم خلاف واضطراب في العدد والضبط ، والمشهور في ذلك ما ذكرنا ، ثم اتفقوا علىٰ أن النسب يرجع إلىٰ إسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم .

---

(١) **المحجر** من العين : ما أحاط بها .

(٢) **العوادي** : العوائق .

(٣) **المفتق** : ما خلط بغيره ليزداد طيباً .

(٤) انظر « الشفا » (ص٥٤٢ـ٥٤٣) .

وروى ابن سعد في « الطبقات » حديثاً مسنداً عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب . . لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ، ثم يمسك ، ثم يقول : « كَذَبَ ٱلنَّسَّابُونَ ؛ أي : بعد هذا قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ »[1] .

وروي نحوه عن ابن مسعود موقوفاً عليه في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : (لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه . . لعلمه) .

وذكر ابن عبد البر حديثاً موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بين معد بن عدنان إلىٰ إسماعيل ثلاثون أباً) قال : وليس هـٰذا الإسناد مما يقطع بصحته ، والأنساب صعبة[2] .

قال شيخ شيوخنا سراج الدين بن الأنصاري في « شرح البخاري » : كره مالك رحمه الله تعالىٰ رفع الأنساب إلىٰ آدم ، وقال : ومن يخبره بذلك ؟! وذهب كثيرون إلىٰ جوازه ، وهو الأظهر ؛ لأنه يترتب عليه معرفة العرب من غيرهم ، وقريش من غيرهم ، وتنبني عليه الأحكام ؛ كالإمامة والكفاءة والتقدم في قسمة الفيء ، وغير ذلك ، وفي الصحيح : « حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ »[3] .

وقريش هم ولد النضر بن كنانة في قول الأكثرين ، وقيل : هو فهر ، وقيل : هم ولد إلياس ، وقيل : ولد مضر ، والله أعلم .

فَصْلٌ

فيما نقل من مزايا آباء النبي صلى الله عليه وسلم الأدنَين

قال أهل السير : كان عبد الله والد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهد فتىً في قريش[4] ، وأصبحهم خلقاً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وكان نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيّناً في

---

(١) الطبقات (١/٣٨) .

(٢) وعبارة « الاستيعاب » (١/١١) : (ولكنه عمن عِلْمُ الأنسابِ صنعتُه) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٢٥٤) ، وأبو داوود (٣٦٦٢) ، وأحمد (٢/٤٧٤) .

(٤) أي : أقواهم وأجلدهم .

وجهه ، فلما خرج منه . . فقد ذلك النور وانتقل إلىٰ وجه آمنة ، وهدى الله أهله فسموه بأحب الأسماء إليه ، كما هداهم في تسمية ولده محمداً صلى الله عليه وآله وسلم .

وفدي بمئة من الإبل حين نذر عبد المطلب عند حفر بئر زمزم : لئن رزقه الله عشرة من الولد يمنعونه . . لينحرن أحدهم ، فلما تم عددهم عشرة . . أسهم بينهم فخرج السهم علىٰ عبد الله ، ثم أسهم عليه وعلىٰ عشر من الإبل ـ وكانت العشر دية العرب ـ فخرج السهم علىٰ عبد الله ، فزاد عشراً ثم عشراً حتىٰ بلغ مئةً من الإبل ، فخرج السهم على الإبل فنحرها عنه ، ثم استمرت الدية كذلك ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا ٱبْنُ ٱلذَّبِيحَيْنِ »[1] يعني أباه وإسماعيل بن إبراهيم صلى الله عليهما وسلم .

وأمه وأم أبي طالب فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية .

وتوفي عبد الله والنبي صلى الله عليه وسلم في بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد بثمانية وعشرين شهراً ، وقيل : سبعة أشهر ، وقيل : شهرين ، والله أعلم ، وكانت وفاته بيثرب ، وكان بَعَثَه أبوه يَمْتَار له تمراً منها[2] ، وقيل : توفي بالأبواء بين مكة والمدينة[3] ، وكان بينه وبين ابنه محمد صلى الله عليه وسلم في السن ثمانية عشر عاماً ، والله أعلم .

وأما عبد المطلب . . فاسمه شيبة الحمد ، وقيل : عامر ، وعاش مئة وأربعين سنةً ، سمي عبد المطلب لأن أباه هاشماً توفي وهو صغير ، فغلبت عليه أمه سَلمى الأنصارية النجارية بالمدينة ، فلما شب وترعرع . . ذهب له عمه المطلب بن عبد مناف فقدم به مكة مردفه خلفه ، وكان آدم اللون ، فقال الناس : عبد المطلب ، فلزمه ذلك ، وكان شريفاً في قومه ، مبجلاً معظماً عندهم ، يوضع له بساط في ظل الكعبة لا يجلس عليه غيره ، وكانوا يسمونه الفيض والفياض ؛ لسماحته وكرمه ، ورأى الرؤيا المشهورة في أمر زمزم ، وأثارَها بعد أن درست آثارُها ، وتم له مع قومه ما تم في حفرها ، وله أخبار طويلة ومآثر جليلة .

---

(١) لم أجده بهٰذا اللفظ ، وقد أخرجه الحاكم في « المستدرك » في قصة الأعرابي وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم : (يا بن الذبيحين) (٢/ ٥٥٤) ، وانظر ما قاله في « كشف الخفاء » (١/ ١٩٩) .

(٢) **يمتار** : يشتري .

(٣) **الأَبواء** : قرية بين مكة والمدينة قريبة من الجحفة ، من عمل الفرع ، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً ، سميت بذلك لتبوء السيول بها . « شرح البهجة » (١/ ٣٦) .

وأما هاشم . . فاسمه عمرو ، وسمي هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه في المجاعة ، وبلغ في الكرم مبلغاً ، وأطعم الوحوش في رؤوس الجبال .

وأما عبد مناف . . فاسمه المغيرة ، وكان يقال له : قمر البطحاء ؛ لسماحته وجماله ، وورَّثه قصي المجد فأعرق فيه ، وأطاعته قريش كما دانت لأبيه .

وأما قصي واسمه زيد . . فهو الذي ألف قريشاً وجمعها وجعلها اثنتي عشرة قبيلةً ، وجعل لكل قبيلة منزلاً ، ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وعلىٰ آله وسلم مجمِّعاً ، وزاد في مكة شيئاً من الحرم ، وجعل دار النَّدوة التي يجتمعون فيها لمهماتهم ، وعظم البيت الحرام والمشاعر العظام ، وسن الرفادة ، وهي : طعام أمر قريشاً أن يُهَيِّئوه للحجيج في كل عام فأطاعوه في ذلك ، ولقب قصياً لأنه بَعُدَ عن عشيرته في بلاد قُضاعة حين احتملته أمه فاطمة .

وكِلاب اسمه حكيم ، ويقال : الحكم ، ويقال : المهذب ، سمي كلاباً لمحبته الصيد بالكلاب .

ولؤي بالهمزة عند الأكثرين .

وفهر ، قيل : لقب واسمه قريش ، والصواب : أنه اسمه ، وأن النضر أبو قريش كما تقدم ، والله أعلم .

وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وكانت سيدةَ نساء بني زهرة ، وكذلك كان أبوها ، ولم تلد هي ولا عبد الله غير النبي صلى الله عليه وسلم كما نقل ، ففي ذلك إشارة إلىٰ أنه صلى الله عليه وسلم نسيجُ وحدِه في العالم .

قلت : ولا أعلم لآمنة أيضاً إخوةً ، ولو كان . . لنقل وعُدُّوا أخوالاً للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما نقل أعمامه وأختانه وغيرهم ، والله أعلم .

توفيت آمنة بالأبواء مرجعَها من المدينة حين ذهبت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم تُزيره أخوال جده عبد المطلب ، وبقي صلى الله عليه وسلم بعد موتها بالأبواء حتى انتهى الخبر إلىٰ

مكة ، وجاءت أم أيمن مولاة أبيه عبد الله فاحتملته ، وذلك لخامسة من موت أمه وله صلى الله عليه وسلم يومئذ ست سنين ، وقيل : أربع ، والله أعلم .

وروي : أن آمنة آمنت بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موتها ، وأورد المحب الطبري في ذلك حديثاً مسنداً إلىٰ عائشة رضي الله عنها ، والله أعلم[1] .

* * *

---

(١) في هامش (ج) : (وفي ذلك قال [ابن] ناصر الدين رحمه الله تعالىٰ : [الوافر]

حَبَا ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ مَزِيدَ فَضْلٍ ... عَلَىٰ فَضْلٍ وَكَانَ بِهِ رَؤُوفَا

فَأَحْيَا أُمَّهُ وَكَذَا أَبَاهُ ... لإِيمَانٍ بِهِ مَعْنَىً لَطِيفَا

فَسَلِّمْ فَٱلْقَدِيمُ بِذَا قَدِيرٌ ... وَإِنْ كَانَ ٱلْحَدِيثُ بِهِ ضَعِيفَا)

الباب الثاني

في تاريخ مولده إلىٰ نبوته صلّى الله عليه وآله وسلّم وما جرىٰ في تضاعيف ذلك من الحوادث

وفي أكثره خلاف وتنازع ، وتقديم وتأخير ، وأصح ما قيل : إنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل بعد هلاكهم بخمسين يوماً ، وقيل : بعده بثلاثين يوماً ، وقيل : بأربعين ، وكان الفيل في المحرم سنة اثنين وثمانين وثمان مئة من عهد ذي القرنين في زمان ملك كسرىٰ أنوشروان ، ومات أنوشروان بعد مولده صلى الله عليه وسلم بثمان سنين .

واتفقوا علىٰ أنه صلى الله عليه وآله وسلم ولد يوم الإثنين ، قال الأكثرون : في شهر ربيع الأول ، قيل : لليلتين خلتا منه ، وقيل : لثمان ، وقيل : لعشر ، وقيل : لاثنتي عشرة ، وهو أشهرها ، وقيل : أول إثنين منه من غير تعيين ، وقيل : ولد في رمضان لثنتي عشرة خلت منه ، والله أعلم .

وحملت به صلى الله عليه وسلم أمه أيام التشريق ، وولد في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطىٰ ، ووضع صلى الله عليه وآله وسلم مستقبل القبلة ، واضعاً يديه على الأرض ، رافعاً رأسه إلى السماء ، مختوناً مسروراً ، ليس عليه من أقذار الولادة شيء .

روي عن الشِّفاء أم عبد الرحمـٰن بن عوف ـ وهي التي تولت ولادته ـ قالت : لما سقط النبي صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ يدي واستهل . . سمعت قائلاً يقول : رحمك الله ، وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتىٰ نظرت إلىٰ قصور الروم .

ولميلاده صلى الله عليه وآله وسلم خَمَدت نار فارس ، وكان وُقودها مستمراً من عهد عيسىٰ عليه السلام .

واضطرب إيوان كسرىٰ ليلة مولده ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وكان في ذلك إشارة إلىٰ عدد من ملك منهم بعد ذلك إلىٰ أن نسخ ملكهم في خلافة عمر رضي الله عنه ، وغاضت بُحَيْرَة ساوة ، وتنكست الأصنام في آفاق الأرض ، وسقط عرش إبليس ، ورمي الشياطين بالشهب ، وروي عنهم وعن كهنتهم في ذلك أنواع العجب .

وفي السنة الأولىٰ من ميلاده صلى الله عليه وسلم : أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب ، وأرضعت معه عمه حمزة وأبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي بلبن ابنها مسروح .

وروي : أن العباس رضي الله عنه رأىٰ أخاه أبا لهب في المنام بشرِّ حالٍ وقال : يرفَّه[١] عني من العذاب في كل ليلة إثنين ، فسأله عن ذلك فقال : لمّا ولد محمد . . جاءتني ثويبة فبشرتني ، فأعتقتها ، وكان ذلك ليلة الإثنين ، وفي « صحيح البخاري » إشارة إلىٰ ذلك[٢] ، والله أعلم .

ثم احتملته حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث من بني سعد بن بكر بن هوازن ثم من قيس عَيلان بن مضر ، وذلك حين قدمت مكة مع نسوة من قومها يلتمسون الرضعاء ؛ لما يرجونه من المعروف والبر من أهليهم ، وكان أهل مكة يسترضعون أولادهم فيهم لفصاحتهم ، وليجمعوا للولد بين صحة البادية وفصاحتها ، وآداب الحاضرة وملاحتها .

فأقام صلى الله عليه وآله وسلم فيهم خمس سنين ، وظهر لهم من يمنه وبركته أثناء إقامته بين أظهرهم أنواع من المعجزات وخوارق العادات ، وروي عن حليمة في ذلك أخبار طويلة ؛ من دَرَّة ثديها عليه بعد أن كان عاطلاً ، وسير أتانها بها وبه بعد أن كان ثاقلاً[٣] ، ودرور شارفهم[٤] وشائهم بعد أن كانت لا تُروي عالّاً ولا ناهلاً[٥] ، وخِصْب مرعاهم بعد أن كان جَدباً ماحلاً .

وأحبَّته حليمة ، وسِيطَ[٦] حبه بلحمها ودمها ، وصارت أمَّه بعد أن كانت راغبة عنه في ابتداء الحال حين ذكر لها يتمه .

وفي انقضاء السنة الثانية : فصلته حليمة وقد صار غلاماً جَفْراً[٧] ، وكان كِبَرُه في سنة

---

(١) في (ج) : (يرفع) .
(٢) انظر البخاري (٥١٠١) .
(٣) كذا في النسخ ، وأما الشارح العلامة الأشخر رحمه الله . . فقد ضبطه بالفاء ، ومعنىٰ **ثاقل** : بطيء السير .
(٤) **الشارف** : المسنة من النوق .
(٥) **العَلَلُ** : الشرب مرةً بعد أخرىٰ ، **والنَّهَلُ** : الشرب أول مرة .
(٦) **السَّوْط** : خلط الشيء بعضه ببعض .
(٧) **الجَفْرُ** : القوي على الأكل وحده مستقلاً بنفسه غير محتاج إلىٰ غيره . « شرح البهجة » (١/ ٤٢) .

ككبر غيره في سنتين[1] ، ثم قدمت به علىٰ أمه مكة وناشدتها أن ترجعه معها ففعلت .

وفي الثالثة بعد مرجعه من مكة بأشهر ـ وقيل : في الرابعة ـ : أتاه الملكان فشقا صدره ، واستخرجا قلبه فشقاه ، وآستخرجا منه علقةً سوداء وقالا : هـٰذا حظ الشيطان منك[2] ، ثم ملآه حكمةً وإيماناً ، ثم لأماه فالتأم ، ثم وضعا الخاتم بين كتفيه ولم يكن الخاتم لنبي قبله ، ففيه إشارة إلىٰ أنه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين .

ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنهم ، ثم ما زال يزنه بعشرة بعد عشرة حتىٰ قال : والله ؛ لو وزنته بأمته.. لوزنها ، ثم قبلا رأسه وما بين عينيه وقالا : يا حبيب الله ؛ لم تُرَعْ[3] ، إنك لو تدري ما يراد بك.. لقرت عيناك ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ وَلَّيَا عَنِّي ، فَكَأَنَّمَا أَرَى ٱلأَمْرَ مُعَايَنَةً »[4] .

وفي الخامسة أو في مستهل السنة السادسة : ردته حليمة إلىٰ أمه ، والذي حملها علىٰ رده بعد أن كانت حريصةً علىٰ إقامته معها : ما تخوفت عليه حين شق صدره ، وما حكي أيضاً : أن نفراً من نصارى الحبشة رأوه معها فسألوها إياه ليذهبوا به معهم ؛ لما تعرَّفوا منه من العلامات البينات .

وفي السادسة : خرجت به أمه إلىٰ أخواله بني عدي بن النجار تُزِيرُه إياهم ، وأقاما فيهم شهراً ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أَحْسَنْتُ ٱلْعَوْمَ وَٱلسِّبَاحَةَ فِي بِئْرِ بَنِي عَدِيٍّ بْنِ ٱلنَّجَّارِ »[5] .

وكان يهود المدينة يختلفون إليه ويتعرفون منه علامات النبوة ، ثم رجع إلىٰ مكة فتوفيت أمه بالأبواء ، وتقدم قول : إن أباه أيضاً مات بها .

وورد حديث في إسناده مقال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه عز وجل

---

(١) في (أ) و(ج) : (سنين) .

(٢) الموضع الذي يوسوس فيه الشيطان من بني آدم .

(٣) **لم ترع** : لا فَزَعَ ولا خَوْفَ .

(٤) انظر « الشفا » (ص٢٢٣) .

(٥) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٩٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، **والعوم** : الجري في الماء مع الانغماس .

أن يحيي أبويه ، فأحياهما له وآمنا به ، والأحاديث الصحيحة مصرحة بنفي ذلك[1] ، قيل : والجمع بينهما : أن حديث الإحياء متأخر عن تلك الأحاديث ، ولله أن يتحف نبيه بما شاء ، والله أعلم .

وفي السنة السابعة ـ وقيل : في الثامنة ـ : قصة سيف بن ذي يَزَن مع جده عبد المطلب حين وفد عليه يهنئه بظفره بالحبشة ، وإخبار الكهان عنه ، وأمر الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم .

ولشهرين وعشرة أيام في الثامنة : توفي جده عبد المطلب ، قيل : بعد وفاة أمه آمنة بسنتين ، فكفله عمه أبو طالب أحسن كفالة ، وتعرف من كفالته اليمن والبركة له ولولده وأهل بيته ، ودافع عنه حين شَنِف[2] القوم لعداوته بنفسه ولسانه وأهل بيته ومن أطاعه من قومه ، وعرّض نفسه للشر دونه ، كما قال في قصيدته المشهورة حيث يقول : [من الطويل]

حَدِبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمَيْتُهُ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَىٰ وَالْكَلاَكِلِ[3]

وفي التاسعة أو في الثانية أو الثالثة عشرة ـ قيل : لشهرين منها وعشرة أيام ـ : خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة ، وقيل : وكان معهم أبو بكر ، فلما بلغوا بصرىٰ . . رآه بَحِيرا الراهب ، وتعرف منه صفات النبوة وتحققها ، وسأل أبا طالب عنه فقال : هو ابن أخي ، فناشده أن يرده إلىٰ مكة ؛ خوفاً عليه من اليهود والنصارىٰ ، فرجع ورجع معه أبو بكر ، وزودهم بحيرا الراهب شيئاً من الكعك والزبيب[4] .

ومما ذكر في هـٰذه السفرة : أن نفراً من اليهود رأوه وعرفوا منه ما عرف بحيرا ، فأرادوا به سوءاً ، فردهم بحيرا ، وذكَّرهم اللهَ ، فرجعوا عن ذلك .

وفي « جامع أبي عيسى الترمذي » من رواية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ما معناه : أن نفراً من الروم تسعة أقبلوا ، فسألهم بحيرا ، فقالوا : إن هـٰذا النبي خارج في هـٰذا

---

(١) انظر « المقاصد الحسنة » (ص٢٥) ، ورسالة الإمام السيوطي « مسالك الحنفا في والدي المصطفىٰ » في « الحاوي للفتاوي » (٢/ ٢٠٢ـ ٢٣٣) .
(٢) **الشنف** : البغض .
(٣) **الكلكل** : الصدر .
(٤) في (ب) : (والزيت) .

الشهر ، ولم يبق طريق إلا بُعث إليه منّا ناس ، وإنا قد أُخبرنا خبره بطريقك هـٰذا ، قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، أيقدر أحد من الناس أن يرده ؟ قالوا : لا ، قال : فتابَعوه وأقاموا معه(١) .

كل ذلك وعين الرعاية ترعاه ، وملائكة الرحمـٰن تراعيه وتحفظه في صبحه وممساه ، من قدامه وخلفه وشماله ويمناه ، فسبحان من أتحفه بالخيرات والتحف ، وبوأه ذروة المعالي والشرف ، وقطعه عن النظير فيمن سلف وخلف!

وفي الرابعة عشرة في شوال منها : كان حرب الفِجار بين كنانة وقيس عيلان ، وكان علىٰ قريش عبد الله بن جدعان ، وقيل : حرب بن أمية ، وتطاول الحرب بينهم أياماً ، وكانت لقيس علىٰ كنانة ، فحضر صلى الله عليه وسلم في أحد أيامهم ، فانقلبت الدائرة لقريش وكنانة علىٰ قيس وهوازن .

وسمي حرب الفجار ؛ لوقوعه في الشهر الحرام .

وبعد منصرفهم منه في ذي القعدة . . كان حِلف الفُضول ، وسببه : أن رجلاً من زبيد من أهل اليمن باع سلعةً من العاص بن وائل السهمي ، فمطله بالثمن ، فصعد أبا قُبَيْسٍ وصاح وذكر ظُلامته في شعر حكاه ، فحشِدت قريش لذلك واجتمعوا في دار الندوة ، واتفقوا أنهم يمنعون الظالم من الظلم ، واحتلفوا علىٰ ذلك في دار عبد الله بن جُدعان ، وكان أول من سعىٰ في ذلك الزبير بن عبد المطلب .

وفي السابعة عشرة : قتل هُرْمز أحد الملوك الأكاسرة .

وفي الخامسة والعشرين : خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع ميسرة غلام خديجة في تجارة لها قبل أن يتزوجها بشهرين وأربعة وعشرين يوماً .

وفيها كان من أمر نَسطُورا(٢) الراهب ما ذكر ، وقوله لميسرة : ممن هـٰذا الرجل ؟ فقال : من قريش ، من أهل الحرم ، فقال : هـٰذا نبي ، وهو آخر الأنبياء .

وحكىٰ ميسرة : أنه كان إذا اشتد الحر . . ظللته غمامة ، ولما رجعا . . باعت خديجة

---

(١) الترمذي (٣٦٢٠) .

(٢) في كل النسخ : (نسطور) ، غير أنه كتب بهامش (ب) : (نسخة : نسطورا) .

ما قدما به . . فأضعف ، ولما أضعف الربح . . أضعفت له خديجة ما سمت له من الأجرة ، وكانت أربع بَكَرات .

وروى الحاكم بسنده : أن خديجة أيضاً استأجرته سفرتين إلىٰ جُرَش ، كل سفرة بقلوص[1] .

ولما حكىٰ ميسرة لخديجة ما رأىٰ من البراهين والكرامات ، وتعرف في صحبته من البركات مع حسن السمت والهدي والدَّلّ[2] . . خطبته إلىٰ نفسها ، وكانت رضي الله عنها من أفضل قريش حسباً ونسباً ومالاً وجمالاً ، كل من قومها قد كان حريصاً علىٰ ذلك منها لو يقدر عليه ، فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ذكره لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة وكلم أباها فقبل ، ثم حضر أبو طالب ورؤساء قريش ، وخطب أبو طالب فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضىء مَعَدّ[3] ، وعنصر مضر ، وجعلنا حَضَنَة بيته وسوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخي هـٰذا محمد بن عبد الله لا يوزن به أحد إلا رجح ، فإن كان في المال قُلٌّ . . فالمال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمد مَن قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالي كذا وكذا ، وهو والله بعد هـٰذا له نبأ عظيم وخطب جليل .

وتزوجها صلى الله عليه وآله وسلم وله في العمر خمس وعشرون سنةً ، وهي يومئذ ابنة ثمان وعشرين سنةً[4] .

وروي : أنه أصدقها اثنتي عشرة أوقية من الذهب ، وقيل : عشرين بكرةً من الإبل ، وبقيت عنده قبل الوحي خمس عشرة سنةً ، وبعده إلىٰ ما قبل الهجرة بثلاث سنين ، وماتت

---

(١) الحاكم (٣/ ١٨٢) .

(٢) الدَّلُّ : السيرة والطريقة والمذهب ، وهيئة أهل الخير .

(٣) الضِّئْضِىءُ : الأصل .

(٤) أخرج هـٰذا القول ابن سعد في « الطبقات » (١٠/١٨) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد ذكر قبلُ في (١/١٠٩) أنه تزوجها وعمرها يومئذٍ أربعون سنة .

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم تسع[1] وأربعون سنة وثمانية أشهر .

وكانت له وزيرَ صدق ، وهي أول من أسلم من النساء ، وأتاه جبريل فقال : أقرىء خديجة من ربها السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يَا خَدِيجَةُ ؛ هَـٰذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ مِنْ رَبِّكِ ٱلسَّلاَمَ » فقالت : (الله السلام ، ومنه السلام ، وعلىٰ جبريل السلام) ، وأمره أيضاً أن يبشرها ببيت في الجنة من قَصب ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب ، وسيأتي فيها مزيد ذكر في الباب الخامس عند تراجم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالىٰ[2] .

ولما بلغ صلى الله عليه وآله وسلم خمساً وثلاثين سنةً : ظهرت وبهرت أمارات خبره ظهورَ نار القِرىٰ ، واشتهرت بركته وأمانته في أم القرىٰ .

ففي هـٰذه السنة ولدت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيها بنت قريش الكعبة وتقسمتها أرباعاً ، فلما انتهوا إلىٰ موضع الحجر الأسود. . تنازعوا أيهم يضعه في موضعه ، ثم اتفقوا أن يحكموا أول داخل عليهم من بني هاشم من باب بني شيبة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أول من ظهر لأبصارهم ، فأخبروه ، فبسط صلى الله عليه وسلم رداءه ووضع الحجر فيه ، وأمر أربعةً من رؤسائهم أن يحملوه معاً إلىٰ منتهىٰ موضع الحجر ، ثم أخذه صلى الله عليه وآله وسلم بيده المباركة ووضعه في موضعه .

وفي الصحيح : أنهم كانوا يجعلون أزرهم علىٰ عواتقهم لتقيهم الحجارة ، ففعل صلى الله عليه وسلم مثلهم فسقط مغشياً عليه[3] .

قال أهل السير : والذي حمل قريشاً علىٰ بنائها بعد أن هدمها السيل وكانت رضماً من حجارة فوق القامة مدةً طويلةً[4] . . ما تأتَّىٰ لها من الآلة ، وذلك أن قيصر بعث إلى النجاشي

---

(١) (ب) : (سبع) .

(٢) انظر (ص ٣٩٨) .

(٣) أخرجه البخاري (١٥٨٢) ، ومسلم (٣٤٠) .

(٤) أي : كومة مجتمعة منها .

بمركب فيه ضروب من آلات البناء ، وأمره أن يبني له كنيسةً تعظمها النصارىٰ بالحبشة ، فانكسر المركب وألقاه البحر علىٰ ساحل جدة .

وأيضاً كان بمكة يومئذ صانع من القبط .

وأيضاً كان في البئر التي في جوف الكعبة حية عظيمة ، تخرج كل يوم إذا طلعت الشمس فتُشْرِفُ علىٰ جدار الكعبة ، ولا يقرب الكعبة أحد من هيبتها ، فلما تهيؤوا للبناء . . طلع لها عُقاب فاحتملها ، ومع ذلك فقد تهيبوا وفرِقوا من هدمها .

وبدأ الوليد بن المغيرة ، فأخذ المِعْوَل وقال : اللهم ؛ إنا لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربصوا به تلك الليلة ، فلما لم يصبه شر . . تمادوا في الهدم حتى انتهوا إلىٰ حجارة خُضْر كالأسنمة آخذ بعضها ببعض أساس إبراهيم ، فأراد بعضهم أن يفصل بين حجرين منها فانتفضت مكة بأسرها ، فانتهوا عن ذلك ، وجعلوه أساس بنيانهم ، إلا أنهم قد نقصوا من شاميِّها قدر ستة أذرع أو سبعة[1] أذرع ؛ لقصور نفقتهم ، وجعلوا لها باباً واحداً ، ورفعوه عن الأرض ؛ ليُدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا كما ثبت في « صحيح البخاري »[2] .

فلما كان في خلافة ابن الزبير وحصره الحُصَين بن نُمَيْر السَّكُوني بها . . احترقت الكعبة لحريق خيمة كانت في المسجد ، وأيضاً كان يصيبها حجر المَنْجَنيق الذي كان يرمي به الحصين وأصحابه .

ولما أدبر الحصين راجعاً إلى الشام لموت خليفته يزيد بن معاوية . . هدمها ابن الزبير وبناها علىٰ أساس إبراهيم علىٰ ما حدثته خالته عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] ، وجعل طولها في السماء ثمانية وعشرين ذراعاً تقريباً علىٰ ما هي عليه اليوم ، فلما ظفر الحجاج بابن الزبير . . تركها علىٰ ما هي عليه ، إلا أنه أخرج منها ما أدخله ابن الزبير من شاميها ، وسد الباب الغربي ، ورفع الشرقي عن الأرض بمشاورة عبد الملك بن مروان .

---

(١) في (أ) : (تسعة) .

(٢) البخاري (١٥٨٤) عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه البخاري (١٥٨٦) بنحوه .

فائدة

[فيمن بنى الكعبة والمسجد الحرام]

قال شيخ شيوخنا حافظ الحجاز وقاضيه تقي الدين الفاسي رحمه الله تعالىٰ في « تاريخ مكة » : (بنيت الكعبة المعظمة مرات ، وفي عدد بنائها خلاف ، ويتحصل من مجموع ما قيل في ذلك : أنها بنيت عشر مرات : بناء الملائكة ، وبناء آدم ، وأولاده ، وإبراهيم عليه السلام ، وبناء العمالقة ، وجُرْهُم ، وقصي بن كلاب ، وقريش ، وعبد الله بن الزبير ، والحجاج ، قال : وإطلاق العبارة بأنه بنى الكعبة تجوُّز ؛ لأنه لم يبن إلا بعضها ، والله أعلم)[1] .

وأما المسجد الحرام . . فأول من بناه : عمر ، وآخر من عَمَّه بالتحسين والبناء : الوليد بن عبد الملك ، وللملوك بعده زيادات وتحسين ، والله أعلم .

قال المؤلف غفر الله زلته وأقال عثرته : وفيما بعد هٰذه المدة لاحت لوائح النبوة واتسقت آياتها ، وانتشرت الأخبار عن الأحبار والرهبان والكهان بحلول ميقاتها .

من ذلك : ما روي أن زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش اجتمعوا وتلاوموا بينهم ، وضللوا أقوامهم في عبادتهم الأوثان ، وتفرقوا في البلاد يطلبون الحنيفية .

فأما زيد . . فكان يوحد الله ، ويبكي ويقول : وعزتك ؛ لو أعلم الوجه الذي تعبد به . . لعبدتك به ، ثم يسجد علىٰ كفه ، وخرج علىٰ وجهه إلى الشام ، وسأل جماعة من الأحبار والرهبان فقال له آخرهم بأرض البلقاء : قد أظلك زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها ، يبعث بدين إبراهيم ، فرجع سريعاً ، حتىٰ إذا كان ببلاد لَخْم . . عَدَوا عليه فقتلوه ، رحمه الله تعالىٰ ، قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ »[2] وترحم عليه ، وله أشعار كثيرة في التوحيد .

---

(١) العقد الثمين (١/٤٧) .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٤٣٨) ، وأبو يعلىٰ (٧٢١٢) وغيرهما .

وأما ورقة بن نوفل . . فتنصر وقرأ الكتب ، ووجد فيها صفة النبي صلى الله عليه وسلم وقُرْب مبعثه ، فأقام بمكة ينتظر ذلك ، وكان يسأل خديجة رضي الله عنها ويخبرها بما وجد من الصفات ، وتخبره بما رأت من الدلالات ، وكان يلقى النبي صلى الله عليه وسلم فيقبل وجهه ويقول : أشهد أنك نبي هٰذه الأمة ، ثم أدرك أول النبوة ، وقص عليه النبي صلى الله عليه وسلم خبر ما رأىٰ علىٰ ما سيأتي في أول الباب الثالث إن شاء الله تعالىٰ ، وتوفي عقيب ذلك ، وترحم عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « رَأَيْتُ لِوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ »[1] .

ومن شعره حين كان يسأل خديجة رضي الله عنها ويستبطىء الأمر : [من الوافر]

لَجِجْتُ وَكُنْتُ فِي ٱلذِّكْرَىٰ لَجُوجَا ... لِهَمٍّ طَالَمَا بَعَثَ ٱلنَّشِيجَا[2]

وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فَقَدْ طَالَ ٱنْتِظَارِي يَا خَدِيجَا

بِبَطْنِ ٱلْمَكَّتَيْنِ عَلَىٰ رَجَائِي ... حَدِيثَكِ أَنْ أَرَىٰ مِنْهُ خُرُوجَا

بِمَا خَبَّرْتِنَا عَنْ قَوْلِ قَسٍّ ... مِنَ ٱلرُّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجَا

بِأَنَّ مُحَمَّداً سَيَسُودُ يَوْماً ... وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجَا

وَيُظْهِرُ فِي ٱلْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ ... يُقِيمُ بِهِ ٱلْبَرِيَّةَ أَنْ تَمُوجَا

فَيَلْقَىٰ مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَاراً ... وَيَلْقَىٰ مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا[3]

فَيَا لَيْتِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُمْ ... شَهِدْتُ وَكُنْتُ أَوَّلَهُمْ وُلُوجَا

وُلُوجاً فِي ٱلَّذِي كَرِهَتْ قُرَيْشٌ ... وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكَّتِهَا عَجِيجَا[4]

أُرَجِّي بِٱلَّذِي كَرِهُوا جَمِيعاً ... إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ إِنْ سَفَلُوا عُرُوجَا

وَهَلْ أَمْرُ ٱلسَّفَاهَةِ غَيْرُ كُفْرٍ ... بِمَنْ يَخْتَارُ مَنْ سَمَكَ ٱلْبُرُوجَا

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٠٩) ، والديلمي (٧٢٩٧) .

(٢) **اللجاج** : التمادي في الشيء ، والإصرار عليه ، **والنشيج** : ما يعرض في حلق الباكي من الغصة .

(٣) **الفُلوج** : الفوز والظفر .

(٤) **العجيج** : رفع الصوت .

فَــإِنْ يَبْقَــوْا وَأَبْــقَ تَكُــنْ أُمُــورٌ يَضِــجُّ ٱلْكَــافِــرُونَ لَهَــا ضَجِيجَــا
وَإِنْ أَهْلِــكْ فَكُــلُّ فَتَــىً سَيَلْقَــىٰ مِــنَ ٱلأَقْــدَارِ مَتْلَفَــةً خَــرُوجَــا[1]

وأما عثمان بن الحويرث . . فقدم علىٰ قيصر ، وحسنت منزلته عنده فتنصر .

وأما عبيد الله بن جحش . . فأدرك الإسلام وأسلم ، وهاجر مع مهاجرة الحبشة ، وارتد هناك عن الإسلام ، ومات بها نصرانياً .

ومن ذلك : ما ذكر في قصة إسلام سلمان الفارسي ، وتنقله من الأحبار واحداً بعد واحد ، حتىٰ دله آخرهم علىٰ مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما قدم المدينة . . تعرف صفات النبوة علىٰ ما ثبت عنده من الوصف ، وأسلم .

ومن ذلك : حديث ابن الهَيَّبان من يهود الشام حين قدم المدينة متوكفاً[2] لمخرجه ، فلما حضره الموت وعلم أنه ميت قبله . . عهد إلى ابني سَعْية وأسد بن عبيد إخوة بني قريظة بذلك ، فكان سبب إسلامهم وفلاحهم .

وفي سنة ثمان وثلاثين : كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى الضوء والنور ، ويسمع الصوت والنداء ولا يرىٰ أحداً ، وحبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، قيل : كانت عبادته فيه الفكر ، وقيل : الذكر ، وهو الصحيح .

واختلفوا بأي الشرائع كان يدين تلك الأيام ، فقيل : بشريعة نوح ، وقيل : إبراهيم ؛ وهو الظاهر ، وقيل : موسىٰ عليهم السلام ، وقيل : غير ملتزم شريعة أحد ، وهو المختار ؛ لظاهر قوله تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ ، ولخلوه من دلالة العقل والنقل والإجماع كما أفهمه كلام الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ .

واتفقوا أنه صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنماً ، ولم يقارف شيئاً من قاذورات الجاهلية ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام جملةً معصومون من الكفر والكبائر قبل النبوة وبعدها ، ومن الصغائر أيضاً عند المحققين .

---

(١) **متلفة** : يجوز فيه ضم الميم مع كسر اللام ؛ أي : ميتة متلفة ، وفتحهما ؛ أي : محل تلف ، **والخَروج** : بفتح المعجمة ؛ أي : عظيمة .

(٢) **متوكفاً** : متلقياً .

ومما هداه الله تعالىٰ له فطرةً وبديهةً من مناهج الهدىٰ قبل النبوة وقبل سماع الصوت والنداء : ما روي في صحيح الأخبار : أن قريشاً خالفت الناس في موقف عرفات ، وكانوا يقفون بالمشعر الحرام ويقولون : نحن أهل الحرم وقُطّانه لا نخرج منه ، وكان صلى الله عليه وسلم يخالفهم ويقف مع الناس بعرفات علىٰ مناسك إبراهيم .

وكانت الأحجار تسلم عليه قبل النبوة وتناديه بالرسالة كما في صحيح الأخبار : « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ ٱلآنَ »[1] .

وقبل أن يشافهه جبريل عليه السلام بالرسالة بستة أشهر . . كان وحيه مناماً ، فكان لا يرىٰ رؤيا . . إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وعلىٰ ذلك حمل بعض المحدثين قوله صلى الله عليه وسلم : « رُؤْيَا ٱلْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ »[2] وذلك باعتبار سني الوحي وهي ثلاث وعشرون سنة ، والله أعلم .

ومن غرائب ما ذكره شيخ شيوخنا القاضي مجد الدين الشيرازي رحمه الله تعالى ، وعثرت علىٰ صحته : أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما بلغ تسع سنين . . أمر الله سبحانه وتعالىٰ إسرافيل عليه السلام أن يقوم بملازمته ، فكان قريباً منه دائماً ، إلىٰ أن أتم إحدىٰ عشرة سنةً . . أمر جبريل عليه السلام بملازمته ، فلازمه تسعاً وعشرين سنة بطريق المقارنة[3] والملازمة ، لكن لم يظهر له[4] .

قال : وفي بعض الروايات الصحيحة : أن إسرافيل عليه السلام ظهر له في ملازمته مراراً ، وكلمه بكلمة أو كلمتين ، وقبل نزول الوحي بخمس عشرة سنةً كان يسمع صوتاً أحياناً ولا يرىٰ شخصاً ، وسبع سنين كان يرىٰ نوراً ، وكان به مسروراً ، فسبحان من حفظه ورعاه بحسن رعايته ، وتولاه بحسن ولايته! اللهم ؛ صلِّ وسلِّم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وأتحفنا بقربه في جنات النعيم ، آمين .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) وابن حبان (٦٤٨٢) عن جابر بن سمرة رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٧) ، ومسلم (٢٢٦٣) .
(٣) في (ج) : (المقاربة) .
(٤) انظر ما قاله صاحب « السيرة الحلبية » (١/ ٢٤٤) .

الباب الثالث

في ذكر نبوته وما بعدها إلى هجرته صلى الله عليه وسلم

قال المؤلف كان الله له وغفر الله زلته وأقال عثرته : ولما بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنةً ـ وقيل : أربعين يوماً ـ وتناهىٰ صفاء قلبه بما اعتمد من الخلوة ، وتأهلت قواه البشرية لاستجلاء تلك الجلوة ، وانفض ختام السر المكنون ، وانكشف الغطاء عن الأمر المصون . . جاءه الأمين جبريل عليه السلام برسالة الملك الجليل ، فألقىٰ عليه القول الثقيل ، علىٰ ما ثبت في « صحيح أبي عبد الله البخاري » رحمه الله تعالىٰ بروايتي له من طرق عديدة ، أعلاها وأولاها :

ما أرويه عن شيخنا الإمام القانت الناسك الحافظ مسند الآفاق شرف الدين أبي الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسين العثماني المراغي ثم المدني نضر الله وجهه ، سماعاً عليه لثلاثيات « الجامع الصحيح » ، وإجازةً ومناولةً من يده لجميعه بالمسجد الحرام تجاه بيت الملك العلام ، سنة خمس وثلاثين وثمان مئة ، بسماعه له على الإمامين المسندين جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم اللخمي الأميوطي وبرهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي قالا : أخبرنا به المسند المعمَّر ملحق الأحفاد بالأجداد أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم نِعْمة الله ابن علي بن بيان الصالحي الحَجَّار سماعاً عليه ، أنا به أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد الزبيدي ، أنا به أبو الوقت عبد الأول ابن عيسى بن شعيب السِّجْزي ، أنا به أبو الحسن عبد الرحمـٰن بن محمد بن المظفر الداوودي ، أنا به أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه الحَمَوي ، أنا به أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفِرَبْرِي ، أنا به أمير المؤمنين في علم الحديث النبوي محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله ، ثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن عُقَيل ، عن ابن شهاب ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي . . الرؤيا الصالحةُ في النوم ، فكان صلى الله عليه

وسلم لا يرىٰ رؤيا . . إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حِراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالِيَ ذواتِ العدد قبل أن يَنْزِع إلىٰ أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها ، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء ؛ فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : « مَا أَنَا بِقَارِىءٍ » قال : « فَأَخَذَنِي فغطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي ٱلْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اِقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِىءٍ ، فَأَخَذَنِي فغطَّنِي ٱلثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي ٱلْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اِقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِىءٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي ٱلثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ » .

قال : فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرجُف فؤاده ، فدخل علىٰ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » فزملوه حتىٰ ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي » فقالت خديجة : كلاَّ ، والله ؛ ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ[١] ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرِي الضيف ، وتعين علىٰ نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتىٰ أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة ، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا بن عم ؛ اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا بن أخي ؛ ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأىٰ ، فقال له ورقة : هـٰذا الناموس الذي أنزل الله علىٰ موسىٰ ، يا ليتني أكون فيها جذعاً ، ليتني أكون حيّاً إذ يُخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟! » قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به . . إلاَّ عودي ، وإن يدركني يومك . . أنصرك نصراً مؤزراً .

ثم لم يَنْشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي)[٢] .

---

(١) **الكَلُّ في الأصل** :الثقل ، ويدخل في حمل الكلّ : الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال ، وغير ذلك . وهو من الكلال ؛ أي : الإعياء . انظر « شرح النووي علىٰ صحيح مسلم » (٢/ ٢٠١) .

(٢) أخرجه البخاري (٣) عن عائشة رضي الله عنها ، **مؤزراً** : بالغاً قوياً .

وذكره البخاري في موضع آخر وزاد في السورة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وزاد في آخره قال : (وفتر الوحي فترة حتىٰ حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كي يتردىٰ من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفىٰ بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه . . تبدىٰ له جبريل فقال : يا محمد ؛ إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي . . غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفىٰ بذروة جبل . . تبدىٰ له جبريل عليه السلام فقال له مثل ذلك)[١] .

ونقل القاضي مجد الدين الشيرازي في كتابه « سِفْر السعادة » : أن جبريل عليه السلام أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعةً بالجواهر[٢] ، فوضعها في يده وقال : اقرأ ، قال : « وَٱللهِ ؛ مَا أَنَا بِقَارِىءٍ ، وَلاَ أَرَىٰ فِي هَـٰذِهِ ٱلرِّسَالَةِ كِتَابَةً » قال : « فَضَمَّنِي إِلَيْهِ وَغَطَّنِي. . . » وذكر الحديث إلىٰ قوله : « ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ثم قال : انزل عن الجبل ، فَنَزَلْتُ مَعَهُ إِلَىٰ قَرَارِ ٱلأَرْضِ ، فَأَجْلَسَنِي عَلَىٰ دُرْنُوكٍ[٣] وَعَلَيَّ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِرِجْلِهِ ٱلأَرْضَ فَنَبَعَتْ عَيْنُ مَاءٍ » فتوضأ جبريل عليه السلام منها ، تمضمض واستنشق وغسل كل عضو ثلاثاً ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل مثله ، فلما تم وضوءه . . أخذ جبريل كفاً من ماء فرشَّ به فرجه[٤] ، ثم قام فصلىٰ ركعتين والنبي صلى الله عليه وسلم مقتد به ، ثم قال : الصلاة هـٰكذا ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ مكة وقص ذلك علىٰ خديجة وعلمها الوضوء والصلاة .

قال المؤلف غفر الله زلته : وفي « سيرة ابن إسحاق » : أن تعليم الوضوء والصلاة كان في مرة أخرىٰ وقد التقيا بأعلىٰ مكة ، وفيها ما يدل علىٰ أن فرض الصلوات الخمس كان

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٢) ، قال الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة في « السيرة النبوية » (١/ ٢٦٥) : (وهـٰذه الرواية ليست علىٰ شرط الصحيح ؛ لأنها من البلاغات ، وهي من قبيل المنقطع ، والمنقطع من أنواع الضعيف ، والبخاري لا يخرج إلاّ الأحاديث المسندة المتصلة برواية العدول الضابطين ، ولعل البخاري ذكرها لينبهنا إلىٰ مخالفتها لما صح عنده من حديث بدء الوحي ، الذي لم تذكر فيه هـٰذه الزيادة) .

(٢) **الترصيع** : التحلية .

(٣) **الدُّرنُوك** : بساط ذو خمل يشبه الفروة .

(٤) كذا في (ب) وكتب عليها حاشية قال : (وقع هنا « فرجه » وفي « سفر السعادة » : « وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم » فلينظر ذلك) .

يومئذ ، وليس كذلك ؛ فإن فرضها إنما كان ليلة الإسراء ، وكان الواجب أولاً قيام بعض الليل كما في صدر (سورة المزمل) ثم نسخ بآخرها : ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، ثم نسخ الجميع بفرض الخمس ليلة الإسراء . ذكره النووي في « فتاويه »[1] .

فَصْلٌ

[في مكانة جبريل عليه السلام وصفة مجيئه إلى النبي صلى الله عليه وسلم]

واعلم : أن جبريل عليه السلام ملك عظيم ، ورسول كريم ، مقرب عند الله ، أمين علىٰ وحيه ، وهو سفيره إلىٰ أنبيائه كلهم ، ورسوله بإهلاك من طغىٰ من أممهم ، ووصفه الله تعالىٰ في القرآن العظيم بالقوة والأمانة ، وقرب المنزلة عنده وعظم المكانة ، وأخبر بطاعة الملائكة له في السماء ، وأنه يؤيد به عباده الأنبياء عليهم السلام ، وسماه روح القدس ، والروح الأمين ، واختصه لوحيه من بين الملائكة المقربين .

وحكي في قوله تعالىٰ في حق النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام : « هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلرَّحْمَةِ شَيْءٌ ؟ » قال : نعم ، كنت أخشى العاقبة ، فأمنت لثناء الله عز وجل عليَّ بقوله : ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ .

ووصفه الله سبحانه وتعالىٰ بالقدس ؛ لأنه لم يقترف ذنباً ، وسماه روحاً ؛ للطافته ولمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب .

أما عدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم . . فرأيت في بعض التواريخ : أنه نزل عليه ستاً وعشرين ألف مرة ، ولم يبلغ أحد من الأنبياء هٰذا العدد ، والله أعلم .

وأما صفة مجيئه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . فثبت في « صحيح البخاري » عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ ٱلْجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي ٱلْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ » .

---

(١) انظر « المسائل المنثورة » (ص٣٥ـ٣٦) .

قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فَيَفْصِم عنه وإنَّ جبينه صلى الله عليه وسلم ليتفصد عرقاً)[١] أي : يسيل .

وورد في الصحيح أيضاً : أنه كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فيكلمه في صورة سائل مستفتٍ علىٰ صورة دِحْية بن خليفة الكَلْبي أو غيره ، وكان دحية رجلاً جميلاً[٢] .

ولم يره النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ صورته التي جبل عليها ـ وهي ست مئة جناح ـ إلا مرتين : مرةً في الأرض في الأفق الأعلىٰ ، وهي ناحية المشرق من حراء ، ومرةً في السماء عند سدرة المنتهىٰ[٣] علىٰ ما تضمنته (سورة النجم) ، ولم يره أحد من الأنبياء عليهم السلام علىٰ تلك الصورة إلا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومرةً كان يأتيه الوحي صلى الله عليه وآله وسلم مناماً ، ومرة يُنفَث في رُوعه[٤] الكلام نفثاً ، وأخرىٰ يكلمه ربه من وراء حجاب إما في اليقظة وإما في النوم .

وقد قدمنا أن إسرافيل عليه السلام وكل به قبل جبرائيل مدةً .

عدنا إلىٰ ما نحن بصدده : قال أهل التواريخ والسير : جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة السبت ، ثم ليلة الأحد ، وخاطبه بالرسالة يوم الإثنين لثمان أو لعشر خلون من ربيع الأول ، بعد بنيان قريش الكعبة بخمس سنين ، وبعد قتل كسرى النعمان بن المنذر بسبعة أشهر ، وقيل : كان ذلك في رمضان ، ولم يذكر ابن إسحاق غيره ، وذلك لستة آلاف سنة ومئة سنة وثلاث وعشرين سنة من هبوط آدم ، ذكره المسعودي .

قال : وذكر مثل هـٰذا عن بعض حكماء العرب في صدر الإسلام ممن قرأ في الكتب السالفة علىٰ حسب ما استخرج من غار الكنز[٥] ، وفي ذلك يقول في أرجوزة له طويلة :

---

(١) البخاري (٢) ، **الصلصلة** في الأصل : صوت وقوع الحديد بعضه علىٰ بعض ، ثم أطلق علىٰ كلّ صوت له طنين ، **يفصم** : يقلع وينجلي .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ٢٦٠) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (١/ ٤١٢) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٢١٧) .

(٤) **النفث** : تفل خفيف لا ريق معه ، فعبر به عن الإلقاء اللطيف ، **والرُّوع** : القلب .

(٥) هو الغار الذي دفن فيه سيدنا آدم عليه السلام ، وعبارة « مروج الذهب » : (علىٰ حسب ما استخرج منها ، وفي ذلك يقول في أرجوزة طويلة . . .) .

فِـي رَأْسِ عِشْـرِيـنَ مِـنَ ٱلسِّنِينَـا ... إِلَـىٰ ثَـلاَثٍ حَصَلَـتْ يَقِينَـا

وَٱلْمِئَـةُ ٱلْمَعْـدُودَةُ ٱلتَّمَـامُ ... إِلَـىٰ أُلُـوفٍ سُـدِّسَـتْ نِظَـامُ

أَرْسَلَـهُ ٱللهُ لَنَـا رَسُـولاَ ... فَنَسَـخَ ٱلتَّـوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيـلاَ[1]

ولما بعث صلى الله عليه وسلم . . أخفىٰ أمره ، وجعل يدعو أهل مكة ومن أتاه إليها سراً ، فاتبعه أناس عامتهم ضعفاء من الرجال والنساء والموالي ، وهم أتباع الرسل كما في حديث أبي سفيان مع هِرَقْل ، فلقوا من المشركين في ذات الله تعالىٰ أنواع البلاء ، فما ارتد أحد منهم عن دينه ولا التوىٰ .

قال المؤلف غفر الله زلته وأقال عثرته : وإلىٰ هـٰذا الحال ـ والله أعلم ـ الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلدِّينَ بَدَأَ غَرِيباً ، وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ ، فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ »[2] .

فأما غربته الأولىٰ[3] . . فقد انتعشت[4] علىٰ يدي المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم وأصحابه النجباء الأتقياء ، الذين قواه بهم المولىٰ ، ووصفهم في التوراة بأنهم أشداء على الكفار ، وفيما بينهم رحماء ، وفي الإنجيل كزرع علىٰ سوقه استوىٰ .

وما أحسن قول شرف الدين محمد بن سعيد الأبُوصيري رحمه الله تعالىٰ فيهم : [من البسيط]

حَتَّىٰ غَـدَتْ مِلَّـةُ ٱلإِسْـلاَمِ وَهْـيَ بِهِـمْ ... مِـنْ بَعْـدِ غُـرْبَتِهَـا مَـوْصُـولَـةَ ٱلـرَّحِـمِ

مَكْفُـولَـةً أَبَـداً مِنْهُـمْ بِخَيْـرِ أَبٍ ... وَخَيْـرِ بَعْـلٍ فَلَـمْ تَيْتَـمْ وَلَـمْ تَئِـمِ[5]

---

(١) انظر : « مروج الذهب » (٣/ ١٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٩) .

(٣) وأحسن ما يفسر به الغرباء : ما أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو « طوبىٰ للغرباء » : أناسٍ صالحين في أناس سوء كثير ، من يبغضهم أكثر ممن يطيعهم ، وهو قريب المعنىٰ مما أخرجه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في « الاستيعاب » من حديث عبد الرحمـٰن بن سَنَّة ـ بفتح المهملة وتشديد النون ـ قالوا : يا رسول الله ؛ ما الغرباء ؟ قال : « ٱلَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ ٱلنَّاسُ » . « شرح البهجة » (١/ ٧٢) .

(٤) **انتعشت** : ارتفعت وقامت .

(٥) **لم تَيْتَم** : لم تكن يتيمة ، **ولم تئم** : لم تصر أَيِّماً ، وهي : المرأة التي لا زوج لها ، أو التي مات عنها زوجها .

والبلاء كل البلاء عند غربته الأخرىٰ ، حيث لا تتناهىٰ ولا ينتهي الأمر منها إلىٰ مدىٰ ، ولا تزال في انتكاس[1] مرةً بعد أخرىٰ إلى انقضاء الدنيا ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

اللهم ؛ إنا نعوذ بك من الفتن ، وأن يدركنا البلاء والمحن ، ونسألك باسمك العظيم ونور وجهك الكريم أن تميتنا علىٰ ملة نبينا محمد غير مبدلين ولا محرفين ، ولا فاتنين ولا مفتونين ، آمين .

وممن أسلم أولاً : خديجة ، ثم علي ، ثم زيد بن حارثة ، ثم أبو بكر ، والمشهور : أن ترتيب إسلامهم كما ذكرنا ، قيل : وطريقة الجمع بين روايات الأولية أن يقال : أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الرجال البالغين أبو بكر ، ومن الموالي زيد بن حارثة رضي الله عنهم أجمعين .

وقد تُنوزع في إسلام علي رضي الله عنه ، فقال قوم : لم يشرك قط فيستأنفَ الإسلام ، وقال قوم آخرون بخلاف ذلك ، وقد ذكرنا كيفية إسلامه ، والخلاف فيه مستوفىً في كتابنا « الرياض المستطابة في جملة من روىٰ في الصحيحين من الصحابة »[2] .

ولما أسلم أبو بكر رضي الله عنه . . جعل يدعو الناس إلى الإسلام ، وكان رجلاً مألوفاً لخلقه ومعروفه ، فمن قبل منه . . جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم علىٰ يديه ، وممن أسلم بدعائه : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، رضي الله عنهم أجمعين .

وفي السنة الرابعة : نزل قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ، فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، وأظهر دعوة الحق .

وكفاه الله المستهزئين كما وعده ، وهم خمسة نفر : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ، وأبو زمعة الأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن

---

(١) في (ب) : (نسخة : إيحاش) .
(٢) الرياض المستطابة (ص١٦٣ـ ١٦٥) .

قيس بن غيطلة[١] ، وقيل : وكان موتهم في يوم واحد بأدواء متنوعة ، وقيل : إن العاص والوليد ماتا بعد الهجرة علىٰ ما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ .

قال ابن إسحاق بعد أن عد الذين أسلموا أولاً نحو أربعين قال : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ، حتىٰ فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدِّث به ، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يبادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستسر به إلىٰ أن أمره الله بإظهاره ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه ، ثم قال الله له : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ * وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا . . ذهبوا في الشعاب ، واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه يصلون ؛ إذ ظهر عليهم نفر من قريش من المشركين ، فناكروهم حتىٰ قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً من المشركين بلَحي بعير فشجه ، فكان أولَ دم أُهَريقَ في الإسلام .

ولما أظهر صلى الله عليه وسلم دعوة الحق . . لم يتفاحش أمرهم حتىٰ ذكر عيب آلهتهم ، فاشتدوا عليه ، وأجمعوا الشر له ، فَحدِب عليه عمه أبو طالب وعرَّض نفسه للشر دونه ، فلما رأت ذلك قريش . . اجتمع أشرافهم ومشوا إلىٰ أبي طالب وقالوا له : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه ؛ فإنك علىٰ مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه ، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً .

ومضىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ ما هو عليه ، فشَري الأمر[٢] بينهم

---

(١) قال الإمام الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥/١٧) : (قال أبو بكر الهذلي : قلت للزهري : إن عكرمة وسعيد بن جبير اختلفا في رجل من المستهزئين ، فقال سعيد : الحارث بن غيطلة ، وقال عكرمة : الحارث بن قيس ، فقال : صدقا جميعاً ، كانت أمه تدعىٰ غيطلة ، وكان أبوه يدعىٰ قيساً) . وهو في « السيرة النبوية » لابن هشام (١/٤٠٩) : (الحارث بن الطلاطلة) .

(٢) **شَرِي الأمر** : ثار وعظم .

وبينه ، حتىٰ تولدت إِحَن وضغائن[1] ، ثم مشوا إلىٰ أبي طالب مرةً أخرىٰ وأعذروا إليه[2] في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، واشتد قولهم في ذلك ، فعظم علىٰ أبي طالب فراق قومه ، ولم يطب نفساً بخذلان النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه تركه والعجز عن نصرته فقال : « يَا عَمِّ ؛ وَٱللهِ لَوْ وَضَعُوا ٱلشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَٱلْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ ٱللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ . . مَا تَرَكْتُهُ » ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم باكياً ، فقال له : يا بن أخي ؛ قل ما أحببت ، فوالله ؛ لا أُسْلمك لشيء أبداً[3] .

ثم مشوا إلىٰ أبي طالب مرةً أخرىٰ بعُمارة بن الوليد بن المغيرة ، وكان من أنهد شبابهم وأجملهم ، وعرضوا عليه أن يتخذه ولداً بدلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : بئسما تسومونني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ؟! هـٰذا والله ما لا يكون أبداً ، فتنابذوا وتذامروا للحرب[4] ، ووثبت كل قبيلة علىٰ من أسلم منهم يعذبونهم .

ثم أخذ أبو طالب يَحْشِد بطون قريش خصوصاً بني عبد مناف ؛ لكونه أخص بهم ، وهم أربعة بطون : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو عبد شمس ، وبنو نوفل ، فأجابه وقام معه بنو هاشم وبنو المطلب ، وخذله البطنان الآخران ، وانسلخ معهم أبو لهب ، فلذلك يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة : [من الطويل]

جَـزَى ٱللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ وَنَـوْفَـلاً ... عُقُـوبَـةَ شَـرٍّ عَـاجِـلاً غَيْـرَ آجِـلِ

بِمِيـزَانِ قِسْـطٍ لاَ يَخِيـسُ شَعِيـرَةً ... لَـهُ شَـاهِـدٌ مِـنْ نَفْسِهِ غَيْـرُ عَـائِـلِ[5]

وقال في قصيدته الأخرىٰ : [من الطويل]

جَـزَى ٱللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ وَنَـوْفَـلاً ... وَتَيْمـاً وَمَخْـزُومـاً عُقُـوقـاً وَمَـأْثَمـا

---

(١) إحن : ـ جمع إحنة ـ وهي : الحقد .

(٢) في (ج) : (عليه) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ١٨٧) .

(٤) تذامروا : حث بعضهم بعضاً .

(٥) يخيس : يغدر ، غير عائل : غير مائل عن الحق .

ولما ثَبّتَ الله تعالىٰ بني المطلب . . دخلوا مع بني هاشم في خصائصهم التي اختصوا بها بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم من الكفاءة وسهم ذوي القربىٰ وتحريم الزكاة ، فلم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام ، دليله : ما ثبت عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربىٰ بين بني هاشم وبني المطلب . . أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا : يا رسول الله ؛ هٰؤلاء إخواننا من بني المطلب[1] ، أعطيتهم وتركتنا ـ أو منعتنا ـ وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة ؟! فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو ٱلْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ » وشبك بين أصابعه[2] .

ولما رأىٰ أبو طالب من قومه ما أعجبه . . قال فيهم : [من الطويل]

إِذَا ٱجْتَمَعَتْ يَوْماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا[3]

فَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا

وَإِنْ فَخَرَتْ يَوْماً فَإِنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ ٱلْمُصْطَفَىٰ مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا

تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثُّهَا وَسَمِينُهَا ... عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا[4]

وَكُنَّا قَدِيماً لاَ نُقِرُّ ظُلاَمَةً ... إِذَا مَا ثَنَوْا صُعْرَ ٱلْخُدُودِ نُقِيمُهَا[5]

وَنَحْمِي حِمَاهَا كُلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... وَنَضْرِبُ عَنْ أَحْجَارِهَا مَنْ يَرُومُهَا[6]

بِنَا ٱنْتَعَشَ ٱلْعُودُ ٱلذَّوَاءُ وَإِنَّمَا ... بِأَكْنَافِنَا تَنْدَىٰ وَتَنْمِي أُرُومُهَا[7]

ثم إن قريشاً اجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة ، وتآمروا بينهم فيما يرمون به النبي صلى الله عليه وسلم في حضور الموسم ؛ لتكون كلمتهم فيه واحدةً ، فعرضوا على الوليد الشعر

---

(١) في (ب) : (إن هٰؤلاء) .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٠) ، وأبو داوود (٢٩٨٠) .

(٣) **سرها** : خيارها ، **وصميمها** : خالصها .

(٤) **غثها** : هزيلها ، **وطاشت** : خفت وذهبت .

(٥) **ثَنَوا** : أمالوا كبراً ، **صُعْر الخدود** : وهي المائلة .

(٦) **يوم كريهة** : حرب عظيمة تكرهها النفوس لشدتها .

(٧) **انتعش** : قام ، **والعود الذواء** : الذي جفت رطوبته ولم ينته إلىٰ حد اليبس .

والكهانة والجنون والسحر ، كل ذلك لا يُلَوِّقه لهم[1] ، وقال : والله ؛ لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا هو من كلام الجن ، وإن له لحلاوةً ، وإن عليه لَطُلاوةً[2] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق[3] ، وإنه يعلو وما يعلىٰ ، وكان قد سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أول (حم غافر) وكاد الوليد أن يسلم لولا ما سبق عليه من تحتم الشقاء .

ثم قالوا : فكيف نقول ؟ ففكر في نفسه ثم قال : إن أقرب القول أن تقولوا : ساحر يفرق بين الرجل وأهله وزوجته ومواليه ، فتفرقوا علىٰ ذلك ، وجعلوا يُلقونه إلىٰ من يَقْدَم عليهم من العرب ، ونزل في الوليد قوله تعالىٰ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ الآيات كلها ، وفيما صنفوه[4] من القول في القرآن ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ .

ولما كان ذلك وخشي أبو طالب دَهْماء العرب أن يركبوه مع قومه . . قال قصيدته التي تعوذ فيها بالحرم، وبمكانه منه، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً حتىٰ يهلك دونه ، وجملتها أحد وثمانون بيتاً تركناها إيثاراً للاختصار وعدم الإكثار ، وإنما نشير إلىٰ أصول القصص ومقاصدها دون فضولاتها وزوائدها ، وسنذكر ما استحسناه من القصيدة المذكورة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

ولما شاع في البلاد تشاجر قريش ، وبلغ الأوس والخزرج بالمدينة . . قال في ذلك أبو قيس بن الأسلت الواقفي قصيدة وبعث بها إليهم يذكرهم نعم الله عليهم ، ويحذرهم شؤم الحرب وعواقبها ووخيم مشاربها ، وكان أبو قيس صهراً لهم ذا مودة وحياطة لهم[5] ، ومنعنا من ذكرها ما ذكرناه في قصيدة أبي طالب .

---

(١) **لا يُلَوِّقه** : لا يراه لائقاً .

(٢) **الطلاوة** : الحسن والبهجة والقبول .

(٣) في (ج) : (لغَدِق) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (١/ ٧٩) : (ولابن هشام « الغدق » بفتح الغين المعجمة وكسر الدال المهملة من الغدق ، وهو : الماء الكثير ، ولابن إسحاق : بفتح العين المهملة وسكون الذال المعجمة ، **والعذق** : النخلة بجملتها . قال السهيلي : وهي أحسن ؛ لأن بها آخر الكلام يشبه أوله) .

(٤) **صَنَّفُوه** : نوعوه .

(٥) **الحياطة** : النصرة والصيانة .

ثم إن قريشاً لم ينجع فيهم شيء من ذلك ولم يؤثر ؛ لما وقع في قلوبهم من الشنآن والبغض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولِما تحتم عليهم في علم الله من دائرة الشقاء المشار إليه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يألو داعياً إلىٰ سبيل ربه ، مرةً بالترغيب ، ومرةً بالترهيب ، ومرةً بالقول اللين ، وأخرىٰ بالتبكيت والقول الخشن ، فسبحان من شَدَّد عزائمه وقوىٰ دعائمه ، وشرح صدره وأعلىٰ قدره ، وسدده بتسديده وأيده بتأييده ، وكفاه وحماه حيث نصب وجهه ، وقام وحده يدعو إلىٰ أمر مستغرب لا يعرف إلاَّ من جهته ، ولا يسمع إلاّ منه ، ولولا كفاية العزيز الوهاب.. لما أغنىٰ عنه سِطَتُه[١] في عشيرته ، ولا شرف أبي طالب .

ومع ذلك فقد نالوه بضروب من الأذىٰ في بعض الأحيان ، وكان في ذلك سر تحقيق الامتحان الذي هو مَدْرَجة التعبد[٢] ، ومظنة الصبر ومضمار التكليف[٣] ، ورأس التأسي وعنوان الإيمان ، وتحقيق مقام النبوة الذين هم أشد الناس بلاء[٤] ، وبذلك تتبين جواهر الرجال .

فمن أعظم ما بلغنا من ذلك : ما رويناه بسندنا السابق صدرَ الباب إلىٰ أبي عبد الله البخاري رحمه الله تعالىٰ قال : حدثني عَيَّاش بن الوليد ، ثنا الوليد بن مُسلم ، حدثني الأَوزاعي ، حدثني يحيى بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم التيمي ، حدثني عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حِجْر الكعبة ؛ إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيْط فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خَنْقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتىٰ أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ الآية)[٥] .

---

(١) **سطته** : توسطه .
(٢) **المدرجة** : الطريق والمذهب .
(٣) **مضمار التكليف** : محل جريانه .
(٤) كذا في جميع النسخ ، والمطبوع .
(٥) أخرجه البخاري (٣٨٥٦) .

وبه قال : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا عبيد الله بن موسىٰ : حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم ؛ إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلىٰ هـٰذا المرائي ، أيكم يقوم إلىٰ جَزُور آل فلان فيعمِد إلىٰ فَرْثِها ودمها وسَلاها فيجيء به ، ثم يمهله حتىٰ إذا سجد . . وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وضعه بين كتفيه ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً ، فضحكوا حتىٰ مال بعضهم علىٰ بعض من الضحك .

فانطلق منطلق إلىٰ فاطمة وهي جويريةٌ ، فأقبلت تسعىٰ ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً حتىٰ ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة . . قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ » ثلاثاً ، ثم سمىٰ : « ٱللَّهُمَّ ؛ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَٱلْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَعُمَارَةَ بْنِ ٱلْوَلِيدِ » .

قال عبد الله : فوالله ؛ لقد رأيتهم صرعىٰ يوم بدر ، ثم سُحِبوا إلى القليب قليب بدر ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ ٱلْقَلِيبِ لَعْنَةً »[(١)] .

وبه قال : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا بيانٌ وإسماعيل قالا : سمعنا قيساً يقول : سمعت خَبّاباً يقول : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بُرْدةً وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : [يا رسول الله ؛] ألا تدعو الله تعالى ؟ فقعد وهو مُحمَرٌّ وجهه فقال : « لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ ٱلْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُوضَعُ ٱلْمِنْشَارُ عَلَىٰ مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِٱثْنَيْنِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَلَيُتِمَّنَّ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ حَتَّىٰ يَسِيرَ ٱلرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ »[(٢)] .

---

(١) البخاري (٥٢٠) ، **الفرث** : السِّرجين ما دام في الكَرِشِ ، **وسلاها** : لفافتها التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوانات ، وهي عند الآدميين : المشيمة .

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٥٢) .

وهـٰذا من أحسن الأحاديث الدالة على التأسي ، وهو في ضمن قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ الآيات الثلاث ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، والآيات في هـٰذا المعنىٰ كثيرة مشهورة .

ومن ذلك : ما رويناه في « صحيح مسلم » بروايتي له عن شيخي الإمام الحافظ المسند تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد القرشي الهاشمي العلوي ـ عرف بابن فهد ـ إجازةً مشافهةً بالمسجد الحرام سنة خمس وثلاثين وثمان مئة ، وهو ما سمعته علىٰ غيره قال : أنا الشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر العثماني المراغي ثم المدني سماعاً عليه ، أنا به أبو الفرج عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الحميد المقدسي ، أنا به أبو العباس أحمد بن عبد الدائم المقدسي قال : أنا به أبو عبد الله محمد بن علي بن صَدَقَة الحَرَّاني ، أنا به مسند الآفاق محمد بن الفضل الفَرَاوي ، أنا به أبو الحسين عبد الغافر الفارسي ، أنا به أبو أحمد الجُلُودي ، أنا به أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان

(ح) وكما يرويه شيخنا تقي الدين أعلىٰ من هـٰذا بدرجة عن شيخه المسند إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي ، عن أبي النون يونس بن إبراهيم : أن أبا الحسن علي بن أبي عبد الله أنبأه عن الحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر : أن الحافظ أبا القاسم عبد الرحمـٰن بن محمد بن مَنْدَه أنبأه عن محمد بن زكريا النيسابوري ، ثنا به مكي بن عبدان قال : وابن سفيان ثنا به الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالىٰ ، قال : وحدثني أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن سرح وحرملة بن يحيىٰ وعمرو بن سوَّاد العامري ـ وألفاظهم متقاربة ـ قالوا : أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب ، حدثني عروة بن الزبير : أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته : أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ هل أتىٰ عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ فقال : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ : يَوْمَ ٱلْعَقَبَةِ ؛ إِذْ عَرَضْتُ

نَفْسِي عَلَى ٱبْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ ، فَٱنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ بِقَرْنِ ٱلثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ؛ فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ ؛ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ ٱللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ ٱلْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، قَالَ : فَنَادَانِي مَلَكُ ٱلْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ إِنَّ ٱللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ ٱلْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ بِمَا شِئْتَ[1] ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ ٱلأَخْشَبَيْنِ » فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ ٱللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً »[2] .

وابن عبد ياليل هـٰذا وإخوته رؤساء أهل الطائف ، وكان هـٰذا حين قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الله تعالىٰ ، فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون خلفه ، حتى اجتمع عليه الناس ، وسيأتي خبرهم فيما بعد عند ذكر عرضه نفسَه على القبائل صلى الله عليه وسلم .

ولما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . . صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ، فجعل ينادي : « يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ » لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِٱلْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ . أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ » قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهـٰذا جمعتنا ؟! فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ رواه البخاري[3] .

وفي رواية فيه قال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ـ أو كلمةً نحوها ـ اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً ، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً ، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لاَ أُغْنِي عَنْكِ

---

(١) عبارة « الصحيح » : « فما شئت » .

(٢) مسلم (١٧٩٥) .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٧٠) .

مِنَ ٱللهِ شَيْئاً ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ؛ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً »[١] .

قال المؤلف كان الله له : جميع ما ذكرناه مما أصابه صلى الله عليه وسلم من الامتحان علىٰ تبليغ الرسالة قال في معناه القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ وفيما أصابه أيضاً من الأوجاع والأسقام ، قال : وهـٰذا كله ليس بنقيصة فيه ؛ لأن الشيء إنما يسمىٰ ناقصاً بالإضافة إلىٰ ما هو أتم منه وأكمل من نوعه ، وقد كتب الله علىٰ أهل هـٰذه الدار : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ ، وخلق جميع البشر بمَدْرَجَة الغير ، فقد مرِض صلى الله عليه وسلم واشتكىٰ ، وأصابه الحر والقُر[٢] ، وأدركه الجوع والعطش ، ولحقه الغضب والضجر ، وناله الإعياء والتعب ، ومسه الضعف والكِبَر ، وسقط فجُحِش شقه ، وشجه الكفار وكسروا رَباعيته ، وسُقي السم وسُحر ، وتداوىٰ واحتجم ، وتَنشَّر[٣] وتعوذ ، ثم قضىٰ نحبه ولحق بالرفيق الأعلىٰ ، وتخلص من دار الامتحان والبلوىٰ .

وهـٰذه سمات البشر التي لا محيص عنها ، وأصاب غيره من الأنبياء عليهم السلام ما هو أعظم منها ، فقُتلوا قتلاً ، ورُموا في النار ، ونُشروا بالمناشير ، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات ، ومنهم من عصمه الله كما عصم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعد نزول قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ .

فلئن لم يكف نبيَّنا صلى الله عليه وسلم ربُّه يدَ ابن قميئة[٤] يوم أحد ، ولا حجبه عن عيون عِداه عند دعوته أهلَ الطائف . . فلقد أخذ علىٰ عيون قريش عند خروجه إلىٰ ثور ، وأمسك عنه سيفَ غَوْرَث بن الحارث[٥] وحَجَر أبي جهل[٦] وفرس سراقة ، ولئن لم يقِه من سحر ابن الأعصم . . فلقد وقاه الله ما هو أعظم منه من سم اليهودية .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٣) .
(٢) **القُرُّ** : البرد .
(٣) **تنشَّر** : من النشرة ، وهي : الرقية والتعويذ .
(٤) في (ج) : (قمئة) .
(٥) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (١/٩١) : قال البغوي والشمني وغيرهما : أسلم وصحب النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك .
(٦) أي : الذي أراد أن يرمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رآه يصلي .

وهكذا سائر أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم منهم مبتلىً ومعافىً ، وذلك من تمام حكمته ؛ ليظهر شرفهم في هـٰذه المقامات ، ويبين أمرهم ، وتتم كلمته فيهم ، وليُحقق بامتحانهم بَشرِيَّتهم ، ويرفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم ؛ لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب علىٰ أيديهم ضلالَ النصارىٰ بعيسى ابن مريم ، وليكون في محنتهم تسلية لأممهم ووفور لأجورهم عند ربهم ، تماماً على الذي أحسن إليهم[١] .

قال أهل السير : ولما امتنع صلى الله عليه وسلم بوقاية الله له ثم بعمه أبي طالب ، وامتنع ذوو الأقدار بعشائرهم وحِلفهم وجوارهم ، وبقي قوم من الضعفاء والموالي في أيدي المشركين يعذبونهم أنواع التعذيب ، فكانوا يأخذون عمار بن ياسر وأباه وأمه وأخته فيقلبونهم في الرَّمْضاء ظهراً لبطن ، فيمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون فيقول : « صَبْراً آلَ يَاسِرٍ ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ ٱلْجَنَّةُ » وماتت سمية أم عمار بذلك ، فكانت أول قتيل في الإسلام في ذات الله ، ومات ياسر وابنته بعدها .

وكان أمية بن خلف يخرج بلالاً فيضع الصخور علىٰ صدره ويتركها كذلك حتىٰ يخشىٰ أن يموت فيرفعها ، وبلال في ذلك يقول : (أحد أحد) وكان ورقة بن نوفل يمر عليه[٢] فيقول : أحد أحد والله يا بلال ، ثم يقول ورقة : والله ؛ لئن قتلتموه علىٰ هـٰذا .. لأتخذنَّه حناناً[٣] ، فاشتراه أبو بكر منه وأعتقه .

وأعتق أبو بكر رضي الله عنه علىٰ مثل ذلك ستَّ رقاب سابعهم عامر بن فهيرة ، فقال له أبوه : يا بني ؛ لو أعتقت رجالاً جُلَداء يمنعونك[٤] ، فقال : (يا أبت ؛ إنما أريد ما أريد) فيقال : إن هـٰذه الآية نزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ .

---

(١) انظر « الشفا » (ص٧١٥ـ٧١٧) .

(٢) هـٰذا وهم تبع فيه ابن هشام وابن إسحاق وغيرهما ؛ لأن ورقة يومئذ لم يكن حياً . « شرح البهجة » (١/ ٩٣) .

(٣) أي : لأجعلن قبره موضع حنان ؛ أي : مظنة من رحمة الله فأتمسح به متبركاً كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية ، فيرجع ذلك عاراً عليكم وسبَّة عند الناس . انظر « النهاية في غريب الحديث » (١/ ٤٥٢) .

(٤) **الجليد** : القوي الشديد .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعذرون به في ترك دينهم ؟ قال : (نعم ، والله ؛ إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتىٰ ما يقدر علىٰ أن يستوي جالساً من الضُّر ، حتىٰ يقولوا له : اللات والعزىٰ إلـٰهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، وكذلك فعل معهم عمار بن ياسر حين غطوه في بئر ميمون وقالوا له : اكفر بمحمد ، فأعطاهم ذلك ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كَلاَّ ، إِنَّ عَمَّاراً مُلِيءَ إِيمَاناً مِنْ قَرْنِهِ إِلَىٰ قَدَمِهِ ، فَٱخْتَلَطَ ٱلإِيمَانُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ » ثم أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال له : « كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح دمعه وقال : « إِنْ عَادُوا لَكَ . . فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ » ونزل فيه وفي أمثاله قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ ﴾ .

وفي رجب في السنة الخامسة من المبعث : كانت هجرة الحبشة ، وقد ذكر ابن إسحاق وغيره فيها أخباراً عجيبةً ، والملخص مما قالوه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأىٰ ما بأصحابه من البلاء ولم يكن أُمر بالجهاد حينئذ . . أمرهم بالمهاجرة إلى الحبشة ، وقال لهم : « إِنَّ بِهَا مَعَاشاً وَسَعَةً ، وَمَلِكاً عَادِلاً لاَ يُسْلِمُ جَارَهُ » .

فخرج إليها أولاً سراً أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، وهم : عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزبير وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمـٰن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، ومُصعب بن عمير وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة التي صارت أم المؤمنين آخراً ، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة وامرأته ليلىٰ بنت أبي حثمة ، وحاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء رضي الله عنهم أجمعين ، وكان عليهم عثمان بن مظعون ، واستأجروا سفينةً بنصف دينار .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتتابع المسلمون حتىٰ بلغوا اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان ، وهي أول هجرة في الإسلام .

ولما وصلوا الحبشة واستقرت بهم الدار وأحسن النجاشي لهم الجوار ، ونمت بذلك

الأخبار . . أجمع رأي من بمكة من المشركين الأغمار[1] أن يوجهوا خلفهم من يردهم عليهم ليفتنوهم ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وعمرو بن العاص السهمي ، ووجهوا معهم هدايا للنجاشي وخواصه ، فقدما على النجاشي وقدما له ما عندهما من الهدايا ، وكلماه في شأنهم ، وصدَّقهم وُزراؤه ؛ لما أصابوا من الهدايا ، فعصم الله النجاشي وثبته وردهم خائبين بهداياهم .

ولما علم أبو طالب بما أجمعوا عليه من البعث إلى النجاشي . . قال أبياتاً وبعث بها إلى النجاشي يحضه علىٰ حسن جوارهم ، والدفع عنهم ، وهي : [من الطويل]

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ فِي ٱلنَّأْيِ جَعْفَرٌ ... وَعَمْـرٌو وَأَعْـدَاءُ ٱلعَـدُوِّ ٱلأَقَـارِبُ
وَهَلْ نَالَتَ ٱفْعَالُ ٱلنَّجَاشِيِّ جَعْفَراً ... وَأَصْحَـابَـهُ أَوْ عَـاقَ ذَلِـكَ شَـاغِـبُ
تَعَلَّـمْ أَبَيْـتَ ٱللَّعْـنَ أَنَّـكَ مَـاجِـدٌ ... كَـرِيـمٌ فَـلاَ يَشْقَـىٰ لَـدَيْكَ ٱلْمُجَانِـبُ[2]
تَعَلَّـــمْ بِـــأَنَّ ٱللهَ زَادَكَ بَسْطَـــةً ... وَأَسْبَـابَ خَيْـرٍ كُلُّهَـا بِـكَ لاَزِبُ[3]
وَأَنَّـكَ فَيْـضٌ ذُو سِجَـالٍ غَـزِيـرَةٍ ... يَنَـالُ ٱلأَعَـادِي نَفْعَهَـا وَٱلأَقَـارِبُ[4]

قال المؤلف كان الله له ولياً : هـٰكذا ذكر ابن هشام روايةً عن ابن إسحاق : أن المرسل مع عمرو هو عبد الله بن أبي ربيعة ، وذكر في « تفسير البغوي » نقلاً عن ابن إسحاق أيضاً : أن المرسل معه عمارة بن الوليد ، ولعل ذلك من رواية غير ابن هشام عنه ، وكان عمارة معهما أو في رسالة أخرىٰ ، لكن في سياق القصتين إيهام من حيث اتحاد جنس الهدية ، واشتباه اللفظ من جعفر والنجاشي ، وهما في القصتين ، وأحسن ما يقال : تعدد الرسالتين ؛ الأولىٰ عقيب هجرتهم ، والثانية بعد بدر لطلب الثأر بمن أصيب منهم بها ، كما هو مصرح به في القصة .

---

(١) **الغُمْرُ** : الجاهل الذي لم يجرب الأمور .

(٢) **أبيت اللعن** : هي تحية كانوا يحيون بها الملوك في الجاهلية ، ومعناه : أبيت أن تأتي ما تُذَم عليه ، **والمجانب** : الذي جانبك .

(٣) **البسطة** : فضلة وسعة في الملك ، **واللازب** : اللاصق .

(٤) قوله : (**فيض**) أي : جواد ، **والسجالُ** : العطايا ، واحدها : سجل ، وأصل السجل الدلو المملوءة ماءً ، ثم يستعار للعطية .

وفيها : أن عَمْراً وعمارة تخاونا في سفرهما ، ثم تكايدا عند النجاشي ، فكاد عمرو عمارة عنده ، حتى اتهمه ببعض نسائه ، فتحاشا النجاشي من قتله ، وأمر السواحر فسحرنه ، فتوحش من الإنس ، وهام علىٰ وجهه مع الوحوش حتىٰ هلك هناك ، والله أعلم .

ثم إن مهاجرة الحبشة بلغهم أن أهل مكة قد أسلموا ، فاستخف ذلك الخبر منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً فأقبلوا راجعين ، حتىٰ إذا دنوا من مكة . . بان لهم فساد ذلك الخبر ، فلم يدخل أحد منهم مكة إلاَّ بجوار أو مستخفياً ، فمنهم من أقام بها حتىٰ هاجر إلى المدينة وشهد بدراً ، ومنهم من حبس حتىٰ فاتته ، ومنهم من مات بها .

وكان عثمان بن مظعون رضي الله عنه دخل في جوار الوليد بن المغيرة فأنفذت قريش جواره ، ودخل أبو سلمة بن عبد الأسد في جوار أبي طالب ؛ لكونه ابن أخته برة بنت عبد المطلب ، فتعرضت له بنو مخزوم وأبت أن تُنفذ جواره ، وقالوا لأبي طالب : هـٰذا منعت منا ابن أخيك محمداً ، فما لك ولصاحبنا ؟! فقال : إنه استجار بي ، وإن أنا لم أمنع ابن أختي . . لم أمنع ابن أخي ، فقام أبو لهب فقال : يا معشر قريش ؛ والله ، لقد أكثرتم علىٰ هـٰذا الشيخ ، ما تزالون توثبون عليه في جواره من بين قومه ، والله ؛ لتنتهن عنه أو لنقومَنَّ معه في كل ما قام فيه حتىٰ يبلغ ما أراد ، فتركوه مراعاةً لأبي لهب ، فطمع أبو طالب حينئذ بأبي لهب ، وقال يحرضه علىٰ نصرته ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هـٰذه الأبيات : [من الطويل]

وَإِنَّ ٱمْـــرأً أَبُـــو عُتَيْبَـــةَ عَمُّـــهُ ... لَفِـي رَوْضَـةٍ مَـا إِنْ يُسَـامُ ٱلْمَظَـالِمَـا (١)

أَقُــولُ لَــهُ وَأَيْــنَ مِنْــهُ نَصِيحَتِـي ... أَبَـا مُعْتِـبٍ ثَبِّـتْ سَـوَادَكَ قَـائِمَـا (٢)

وَلاَ تَقْبَلَـنَّ ٱلـدَّهْـرَ مَـا عِشْـتَ خُطَّـةً ... تُسَـبُّ بِهَـا إِمَّـا هَبَطْـتَ ٱلْمَـوَاسِمَـا (٣)

وَوَلِّ سَبِيـلَ ٱلْعَجْـزِ غَيْـرَكَ مِنْهُـمُ ... فَـإِنَّـكَ لَـمْ تُخْلَـقْ عَلَـى ٱلْعَجْـزِ لاَزِمَـا

---

(١) **ما إن يُسام** : ما إن يكلف أن يتحمل .

(٢) **سوادك** : شخصك .

(٣) **خطة** : أمر وخصلة .

وَحَارِبْ فَإِنَّ ٱلْحَرْبَ نَصْفٌ وَلَنْ تَرَى ... أَخَا ٱلْحَرْبِ يُعْطَى ٱلْخَسْفَ حَتَّىٰ يُسَالِمَا[1]

وَكَيْـفَ وَلَـمْ يَجْنُـوا عَلَيْـكَ عَظِيمَـةً ... وَلَـمْ يَخْـذُلُـوكَ غَـانِمـاً أَوْ مُغَـارِمَـا

جَـزَى ٱللهُ عَنَّـا عَبْـدَ شَمْـسٍ وَنَـوْفَـلاً ... وَتَيْمـاً وَمَخْـزُومـاً عُقُـوقـاً وَمَـأْثَمَـا

قال أهل السير : ثم أقام بقية المهاجرين بأرض الحبشة في خير دار وأحسن جوار إلىٰ أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلا أمره وانتشر صِيتُه .

فلما كانت سنة ست من الهجرة . . كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي علىٰ يد عمرو بن أمية الضمري ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت قد هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر هناك ومات ، وسيأتي خبر تزويجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذكر أزواجه صلى الله عليه وسلم ، وكتب إليه أيضاً ليبعث مَنْ عنده من المهاجرين .

قالت أم حبيبة رضي الله عنها : قدمنا المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر حين افتتحها ، فخرج من خرج إليه ، وأقمت بالمدينة حتىٰ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فدخلت عليه .

وبعث النجاشي بعد قدوم جعفر وأصحابه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنه أرْها بن أَصْحَمة بن أبجر في ستين رجلاً من الحبشة وافدين إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإسلامهم وإسلام النجاشي ، فغرقوا في البحر ، وكان قدم منهم مع جعفر وأصحابه سبعون رجلاً ، وفيهم نزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ وما بعدها .

ولما مات النجاشي . . قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « مَاتَ ٱلْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَىٰ أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ »[2] .

قالت عائشة رضي الله عنها : (لما مات النجاشي . . كان يتحدث أنه لا يزال يرىٰ علىٰ

---

(١) **النَّصْف** : الإنصاف ، **والخَسْف** : الدناءة .

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٧٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

قبره نور)[١] ، وقد ذكرنا خبر هجرة الحبشة إلىٰ آخره وإن كان في أزمان متفرقة ؛ حرصاً علىٰ تمام الفائدة واجتماعها .

فَصْلٌ

[في فضل مهاجرة الحبشة]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم مهاجرة الحبشة ويلاطفهم ، ويداعب صغارهم برطانة الحبشة[٢] ، ولما فَجِئَه خبر قدوم جعفر وأصحابه . . خرج مسرعاً فرحاً يجرُّ ثوبه ، وارتاح له وعانقه ، وقال : « مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أُسَرُّ أَكْثَرَ ؛ بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ! »[٣] وأسهم لهم من خيبر كمن شهدها ، ولم يُسهم لأحد غاب عنها غيرهم .

والجامع في فضلهم : ما رويناه في « صحيح البخاري » رحمه الله تعالىٰ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : بلغنا مخرج رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهما : أبو بُردة ، والآخر : أبو رُهْم ، إما قال : بِضْعٌ ، وإما قال : في ثلاثة وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومنا ، فركبنا سفينةً ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفرَ بن أبي طالب ، فأقمنا معه حتىٰ قدمنا جميعاً ، فوافقنا النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حين افتتح خيبر .

وكان أناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ : سبقناكم بالهجرة ، ودخلتْ أسماء بنت عُمَيْس وهي ممن قدم معنا علىٰ حفصة زوج النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم زائرةً ، وقد كانت هاجرتْ إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر علىٰ حفصة وأسماءُ عندها ، فقال عمر حين رأىٰ أسماء : مَنْ هـٰذه ؟ قالت : أسماء بنت عُميس ، قال عمر : آلحبشية هـٰذه ؟ آلبحرية هـٰذه ؟ قالت أسماء : نعم ، قال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم منكم ، فغضبتْ وقالت : كلا ، والله ؛ كنتم مع

---

(١) أخرجه أبو داوود (٢٥٢٣) .

(٢) **الرَّطانة** : كل كلام لا تفهمه العرب .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦٨١) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ١٠٨) .

رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يُطعِم جائعكم ويَعِظ جاهلكم ، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البُعَداء البُغَضاء بالحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وأيم الله ؛ لا أَطعمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتىٰ أَذكُر ما قلتَ للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وكنا نؤذىٰ ونُخاف ، وسأذكر ذلك للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأسأله ، والله ؛ لا أكذِب ولا أزيغ ولا أزيد عليه .

فلمّا جاء النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم . . قالت : يا نبي الله ؛ إنَّ عمر قال كذا وكذا ، قال : « فَمَا قُلْتِ لَهُ ؟ » قالتْ : قلت له كذا وكذا ، قال : « لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ ٱلسَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ » .

قالت : (فلقد رأيت أبا موسى الأشعري وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألونني عن هٰذا الحديث ، فما من الدنيا شيء هُمْ به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) .

قال أبو بُردة : قالت أسماء : (فلقد رأيت أبا موسىٰ وإنه ليستعيد هٰذا الحديث مني)[1] .

فَصْلٌ

[في بعض أحكام الهجرة والضرب في الأرض]

كانت هجرة الحبشة أول هجرة في الإسلام ، وبعدها الهجرة الكبرىٰ إلى المدينة ، ثم حُكْم الهجرة باق إلى الآن متىٰ وجد معناها ؛ وهو الفرار بالدين والعجز عن مقاومة المشركين أو الملحدين .

ونقل القرطبي عن ابن العربي في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ فائدةً حسنة ، وأنا أوردها علىٰ معنىٰ ما ذكر متحرياً[2] لبعض اللفظ :

قال رحمه الله تعالىٰ : قَسَم العلماءُ رحمهم الله تعالى الذهاب في الأرض قسمين : هرباً ، وطلباً ، فالأول ينقسم إلىٰ ستة أقسام :

---

(١) البخاري (٤٢٣٠) .
(٢) متحرياً : قاصداً .

الأول : الخروج من دار الحرب ، وهي باقية مفروضة إلىٰ يوم القيامة ، فإن بقي في دار الحرب . . عصىٰ ، ويُختلف في حاله .

الثاني : الخروج من أرض البدعة التي يعجز عن تغييرها .

الثالث : الخروج من أرض غلب عليها الحرام ؛ فإنَّ طلب الحلال فرضٌ علىٰ كل مسلم .

الرابع : الفرار من الأذىٰ في البدن رخصةً من الله تعالىٰ ؛ قال الله تعالىٰ مخبراً عن موسىٰ : ﴿ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ ﴾ .

الخامس : الخروج من البلاد الوخيمة[1] ، وقد أذن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم للعُرَنيين حين استوخموا المدينة أن يخرجوا ، وقد استُثني من ذلك الخروج من الطاعون لقيام الدليل عليه[2] .

السادس : خوف الأذىٰ في المال ؛ فإنَّ حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، والأهل أوكد منه .

وأما قسم الطلب . . فينقسم قسمين : طلب دين ودُنيا ، وطلب الدين يتعدد بتعدد أنواعه إلىٰ تسعة أقسام :

الأول : سفر العِبرة بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ .

الثاني : سفر الحج عند الاستطاعة ، فهو فرض ، والأول ندب .

الثالث : سفر الجهاد ، وله أحكامه .

الرابع : سفر المعاش ؛ فقد يتعذر مع الإقامة ، فيطلب كفايته بصيد أو احتطاب أو احتشاش ، وهو فرض .

الخامس : سفر التجارة لطلب زائدٍ على القوت ، وذلك جائز فضلاً من الله تعالىٰ .

السادس : طلب العلم ، وفضله مشهور .

---

(١) **البلدة الوخيمة** : التي لا توافق ساكنَها .

(٢) وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ . فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا . . فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ » أخرجه البخاري (٥٧٣٠) عن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه .

السابع : قصد البقاع ، قال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « لاَ تُشَدُّ ٱلرِّحَالُ إِلاَّ إِلَىٰ ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَـٰذَا ، وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَىٰ »(١) .

الثامن : الثغور للرباط بها ، وثوابه عظيم .

التاسع : زيارة الإخوان ، ونفعها حاصل وثوابها واصل ، والله أعلم(٢) .

وفي السنة السادسة ـ وقيل : في الخامسة ـ : أسلم سيدنا أبو عُمَارة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وكان شديداً ذا شكيمة ، لا يُرام ما وراء ظهره ، ولا يطمع طامع عند المخاشنة بكسره ، فاستوثقتْ بإسلامه عُرى الدين ، وذل لوطأته عُتاة المشركين(٣) .

وإنما كان ابتداء إسلامه حَمِيَّةً أفضت به إلى السعادة ، وختمت له بنيل الشهادة ، وأكسبته حسن المنقلب ، لا كحمية أبي لهب التي ذكرناها آنفاً ، وذلك أنه رجع يوماً من قَنَصه(٤) ، فلقيته مولاة لابن جُدعان ، فأخبرته أن أبا جهل نال من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآذاه وسبه ، كل ذلك لا يجيبه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولا يرد عليه شيئاً ، فغضب عند ذلك حمزة رضي الله عنه ؛ لما أراد الله به من الكرامة ، وأقبل يسعىٰ حتىٰ وقف علىٰ أبي جهل جالساً في القوم ، فضربه بقوسه فشجه شجةً منكرةً ، ثم قال : (أتسبه وأنا علىٰ دينه ؟! فردَّ ذلك عليَّ إن استطعت) فقامت رجال من بني مخزوم إلىٰ حمزة ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ؛ فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، وتم حمزة رضي الله عنه علىٰ إسلامه .

وفيها ـ وقيل : في الخامسة ـ أسلم سيدنا أبو حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فعزز الله به ضعَفَة المسلمين ، وكان إسلامه متمماً لأربعين ، وبقدر شدته التي كانت على المسلمين صار بأضعاف ذلك على المشركين(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٩٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) تفسير القرطبي (٥/٣٤٩ـ ٣٥١) .

(٣) **الوطأة** : البأس ، **والعُتاة** جمع عاتٍ ، وهو : الشديد في الشر والمتكبر .

(٤) **القنص** : الصيد .

(٥) كذا عبارة المطبوع (١/ ١٠٤) ، وعبارة النسخ المخطوطة التي بين أيدينا : (وبقدر شدته كان على المسلمين صار بأضعاف ذلك على المشركين) .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : (كان إسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمةً ، ولقد كنا وما نصلي عند الكعبة حتىٰ أسلم عمر ، فلما أسلم . . قاتل قريشاً حتىٰ صلىٰ عند الكعبة ، وصلينا معه) .

وعنه قال : (ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر رضي الله عنه) .

قال سعيد بن جبير : أسلم مع النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ، ثم أسلم عمر فتم به الأربعون ، فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وسبب إسلامه : أنه كان شديداً علىٰ من أسلم ، فلما علم أن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد أسلما . . جاء إليهما وعندهما خباب يقرئهما ، فاختبأ خباب ، فبَطَش بختنه ، وأقبلت أخته لتكفه عن زوجها فشجها فأدماها ، ثم ندم فقال : أعطيني هـٰذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً ، فقالت له : إنك نَجِسٌ مشرك ، وإنه لا يمسها إلاَّ الطاهر ، فقام فاغتسل ، ثم قرأ منها سطراً واحداً وقال : ما أحسن هـٰذا الكلام وأكرمه! يقال : هي (سورة طه) ، ولما قال ذلك . . خرج إليه خباب ووعظه وقال له : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم أمس يقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَيِّدِ ٱلإِسْلاَمَ بِأَبِي ٱلْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ »[١] فاللهَ اللهَ يا عمر ، فقال له : دُلني علىٰ محمد ، فقال له : هو في بيت عند الصفا مع نفر من أصحابه ، فجاء فاستأذن ، فارتاع مَنْ هناك لاستئذانه ، فقال حمزة رضي الله عنه : فأْذَنْ له ، فإن كان يريد خيراً . . بذلناه له ، وإن كان يريد شراً . . قتلناه بسيفه ، ولما دخل . . لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وَجَبَذه بِحُجْزَته جبذةً شديدةً وقال : « مَا جَاءَ بِكَ يَا بْنَ ٱلْخَطَّابِ ؟ فَوَٱللهِ ، مَا أَرَىٰ أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّىٰ يُنْزِلَ ٱللهُ بِكَ قَارِعَةً » فقال : جئتك لأومن بالله ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فَرَحاً[٢] .

وفي « صحيح البخاري » عن عبد الله بن عمر قال : (لما أسلم عمر . . اجتمع الناس عند داره وقالوا : صبأ عمر ، وأنا غلام فوق ظهر بيتي ، فجاء رجل عليه قَباء من ديباج فقال :

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٤٣) .

فصبأ عمر ؟! فما ذاك ، فأنا له جار ، قال : فرأيت الناس قد انصدعوا عنه ، فقلت : من هـٰذا ؟ قالوا : العاص بن وائل)[1] .

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال لأبيه بعد الهجرة : (يا أبت ؛ من الذي زجر عنك القوم وهم يقاتلونك جزاه الله خيراً ؟ قال : يا بني ؛ ذاك العاص بن وائل لا جزاه الله خيراً)[2] وكان للعاص بن وائل من آل الخطاب حلف وولاء .

وفي ليلة هلال المحرم السنة السابعة من المبعث : اجتمعت قريش وتعاهدوا علىٰ قطيعة بني هاشم وبني المطلب ، ومقاطعتهم في البيع والشراء والنكاح وغير ذلك ، فكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة ؛ تأكيداً لأمرها .

ويحكىٰ : أن كاتبها شَلَّت يده[3] ، قيل : هو منصور بن عكرمة ، وقيل : النضر بن الحارث ، وقيل : بَغِيض بن عامر .

ولما تم ذلك . . انحاز البطنان المذكوران إلىٰ أبي طالب ودخلوا معه في شعبه ، وبَقُوا هناك محاصرين مدةً ، وخرج عنهم أبو لهب ، وتضرَّر المسلمون بذلك جوعاً وعُرياً ، ولحقتهم مشقة عظيمة .

قال السهيلي : وهـٰذه إحدى الشدائد الثلاث التي دل عليها تأويل الغَطَّات الثلاث من جبريل حين ابتداء الوحي ، قال : وإن كان ذلك في اليقظة ، ولكن مع ذلك له في مقتضى الحكمة تأويل وإيماء ، والله أعلم[4] .

وفي « الصحيحين » : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عام حجة الوداع مرجعه من منىٰ : « مَنْزِلُنَا إِنْ شَاءَ ٱللهُ غَداً بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى ٱلْكُفْرِ »[5] وهو المحصَّب والأبطح ، وهو شعب أبي طالب المذكور ، وفي نزوله صلى الله عليه وسلم حينئذ

---

(١) البخاري (٣٨٦٥) .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٤٩) .
(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٥٠) .
(٤) انظر « الروض الأنف » (٣/ ٢١٧) .
(٥) البخاري (١٥٨٩) ومسلم (١٣١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فيه وذكره لما جرىٰ به . . إشارة إلى الظهور بعد الخمول ، وامتثال لما أمر به من التحدث بالنعم ، وفي ذلك الشكر لمنعمها .

ولما رأىٰ أبو طالب ما أجمعوا عليه من القطع والقطيعة . . قال في ذلك : [من الطويل]

أَلاَ أَبْلِغَا عَنِّي عَلَىٰ ذَاتِ بَيْنِنَا ... لُؤَيّاً وَخُصَّا مِنْ لُؤَيٍّ بَنِي كَعْبِ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَدْنَا مُحَمَّداً ... نَبِيّاً كَمُوسَىٰ خُطَّ فِي أَوَّلِ ٱلْكُتْبِ

وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي ٱلْعِبَادِ مَحَبَّةً ... وَلاَ خَيْرَ مِمَّنْ خَصَّهُ ٱللهُ بِٱلْحُبِّ

وَأَنَّ ٱلَّذِي لَصَّقْتُمُ مِنْ كِتَابِكُمْ ... لَكُمْ كَائِنٌ نَحْساً كَرَاغِيَةِ ٱلسَّقْبِ[1]

أَفِيقُوا أَفِيقُوا قَبْلَ أَنْ يَحْفِرُوا ٱلثَّرَىٰ ... وَيُصْبِحَ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْباً كَذِي ٱلذَّنْبِ

وَلاَ تَتْبَعُوا أَمْرَ ٱلْوُشَاةِ وَتَقْطَعُوا ... أَوَاصِرَنَا بَعْدَ ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْقُرْبِ[2]

وَتَسْتَجْلِبُوا حَرْباً عَوَاناً وَرُبَّمَا ... أَمَرَّ عَلَىٰ مَنْ ذَاقَهُ حَلَبُ ٱلْحَرْبِ[3]

فَلَسْنَا وَرَبِّ ٱلْبَيْتِ نُسْلِمُ أَحْمَداً ... لِعَزَّاءَ مِنْ عَضِّ ٱلزَّمَانِ وَلاَ كَرْبِ[4]

وَلَمَّا تَبِنْ مِنَّا وَمِنْكُمْ سَوَالِفٌ ... وَأَيْدٍ أُتِرَّتْ بِٱلْقُسَاسِيَةِ ٱلشُّهْبِ[5]

وَمُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ تَرَىٰ كِسَرَ ٱلْقَنَا ... بِهِ وَٱلنُّسُورَ ٱلطُّخْمَ يَعْكُفْنَ كَٱلشَّرْبِ[6]

كَأَنَّ مَجَالَ ٱلْخَيْلِ فِي حُجُرَاتِهِ ... وَمَعْمَعَةَ ٱلأَبْطَالِ مَعْرَكَةُ ٱلْحَرْبِ[7]

---

(١) **النَّحْس** : ضد السَّعْد ، من نجوم السماء ، **وراغية السَّقْب** : أصوات الإبل ، **والسَّقْب** : ولد الناقة ، وأراد به هنا : ولد ناقة صالح صلى الله عليه وسلم التي عقرها قُدَار ، فرغا ولدها وصاح برغائه كلّ شيء له صوت ، فهلكت ثمود عند ذلك ، فضربت العرب ذلك مثلاً في كل هلكة . « سبل الهدىٰ والرشاد » (٢/ ٥٠٩) .

(٢) **الأواصر** : العهد الثقيل ، أو أسباب القرابة والمودة .

(٣) **عواناً** : شديدة .

(٤) **العزاء** : الشدة .

(٥) **لما تَبِنْ** : لم تنقطع ، **والسَّوالف** : صفحات الأعناق ، **وأُتِرَّتْ** : قطعت ، **والقُساسية** : سيوفٌ منسوبة إلىٰ قُساس ، وهو جبل فيه معدن الحديد ، **والشُّهْب** : البياض .

(٦) **المعترك** : موضع غمرات الحرب ، **والضَّنك** : الضيق ، **والقنا** : الرماح ، **والطُّخْم** :سُود الرؤوس ، **ويعكفن** : يقمن ، **والشَّرْب** : جمع شارب ، ما بين المعكوفين مثبت من المصادر ، وفي المخطوطات : (والنسور الضخم) .

(٧) **مجال الخيل** : موضع جول الفرسان ، **والمعمعة** في الأصل : صوت الحريق ، وسُمِّي به القتال .

أَلَيْسَ أَبُونَا هَاشِمٌ شَدَّ أَزْرَهُ   وَأَوْصَىٰ بَنِيهِ بِٱلطِّعَانِ وَبِٱلضَّرْبِ
وَلَسْنَا نَمَلُّ ٱلْحَرْبَ حَتَّىٰ تَمَلَّنَا   وَلاَ نَتَشَكَّىٰ مَا يَنُوبُ مِنَ ٱلنَّكْبِ
وَلَكِنَّنَا أَهْلُ ٱلْحَفَائِظِ وَٱلنُّهَىٰ   إِذَا طَارَ أَرْوَاحُ ٱلْكُمَاةِ مِنَ ٱلرَّعْبِ[1]

وقال في أخرىٰ : [من الوافر]

أَطَاعُوا ٱبْنَ ٱلْمُغِيرَةِ وَٱبْنَ حَرْبٍ   كِلاَ ٱلرَّجُلَيْنِ مُتَّهَمٌ مُلِيمُ
وَقَالُوا خُطَّةً حُمْقاً وَجَوْراً   وَبَعْضُ ٱلْقَوْلِ أَبْلَجُ مُسْتَقِيمُ
لِتَخْرُجْ هَاشِمٌ فَيَصِيرَ مِنْهَا   بَلاَقِعَ بطْنُ مَكَّةَ وَٱلْحَطِيمُ[2]

ولما أراد الله سبحانه وتعالىٰ حل ما عقدوه ونقضَ ما أبرموه ، وذلك لقريب من ثلاث سنين من حين كتبت [الصحيفة] . . اجتمع خمسة نفر من سادات قريش عند خَطْم الحَجُون بأعلىٰ مكة ليلاً ، وتعاقدوا وتحاشدوا علىٰ نقض الصحيفة وهتكها ، وهم : هشام بن عمرو العامري وهو الذي تولىٰ كِبْر ذلك وأبلىٰ فيه وسعىٰ إلىٰ كل منهم ، وزهير بن أبي أمية المخزومي وهو تِلْوَه في العَنية[3] وأمه عاتكة بنت عبد المطلب ، والمُطعِم بن عدي النوفلي ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود الأسدي ، ولما أصبحوا من ليلتهم تلك . . جاء زهير فطاف بالبيت ثم قال : يا أهل مكة ؛ أنأكل الطعام ونَلْبَس الثياب وبنو هاشم هلكى ؟! والله ؛ لا أقعد حتىٰ تُشق هـٰذه الصحيفة ، فقال له أبو جهل : كذبت والله ، فقال له زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، وقال الآخرون مثله ، فقال أبو جهل : هـٰذا أمر قُضِي بليل ، تُشوِّر فيه بغير هـٰذا المكان ، ثم قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجدوا الأَرَضة قد أكلت جميعها إلاَّ ما كان فيه اسم الله تعالىٰ ، وكان قبل ذلك قد أخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بفعل الأَرَضة بها ، وأخبر النبي

(١) **الحَفائظ** : أهل الحفاظ ، وهم الذابون عن عوراتهم ، **والنُّهىٰ** : جمع نهية ، وهي : العقل ، **والكُماة** : الشجعان ، **والرَّعْب** : الوعيد .
(٢) **الخُطَّة** : الخصلة ، **والجَوْر** : الميل عن الحق ، **وأَبْلَج** : مُشرق ، **والبلقع** : الأرض الخالية .
(٣) **العنية** : المشقة .

صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب ، وأخبرهم أبو طالب ، ووجدوه كما ذكر لهم ، فلم يؤثر ذلك فيهم ؛ لِشقوتهم .

وهنا ذكر ابن هشام إسلام الطفيل بن عمرو الدَّوْسي ، وخبرَ الأعشى الشاعر حين أقبل يريد الإسلام وقد امتدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدته المشهورة التي أولها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا . . . .

فاعترضه بعض المشركين بمكة فأخبره : أن النبي صلى الله عليه وسلم يُحرم الخمر(١) ، فقال : أرجع فأتروَّىٰ منها عامي هٰذا ، ثم آتيه ، فرجع ومات في عامه .

وفي السابعة أيضاً : كانت وقعة بُعاث ، وبُعاث : اسم حصن للأوس كانت به حرب عظيمة بينهم وبين الخزرج ، وكانت الغلبة فيها للأوس ، وكان على الأوس يومئذ حُضَير والد أُسَيْد بن حُضَير النقيب ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، فقُتلا معاً .

قال ابن إسحاق وغيره من أهل الأخبار : كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم ، فوقعت بينهما عداوة بسبب قتيل ، وتطاولت فتنتهم عشرين ومئة سنة ، آخر وقعة بينهم يوم بُعاث ، وهو مما قدمه الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم في أسباب دخولهم في الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق مَلؤُهم ، وقتلت سرواتهم ، وتأسست الإحن والعداوة بينهم ، فألفهم الله به ، وعليه حمل المفسرون قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ مع ما كانوا يسمعون من جيرانهم وخلطائهم من اليهود من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونعته وقرب مبعثه ، وتخويفهم لهم به عند محاربتهم لهم ، وأنهم سيكونون معه عليهم ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ في حق اليهود : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ .

---

(١) فيه إشكال من حيث إن تحريم الخمر إنما كان بالمدينة بعد الأحزاب ، فيحتمل أن بعض المشركين سمع من النبي صلى الله عليه وسلم بعض التقديم في تحريمها ، فأطلق عليه التحريم مجازاً . « شرح البهجة » (١٠٩/١) .

فلما بُعث صلى الله عليه وسلم . . انعكس الأمر عليهم ، فصار الأنصار معه على اليهود ، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك في الأنصار نسب وولادة وولاء سابق ، والأصل في ذلك كله ما أتيح لهم في سابق علم الله تعالىٰ من السعادة والسبق إلى الإسلام ونصره ، حتىٰ غلب علىٰ أكثرهم الشهادة .

ولعظائم الأمور مقدمات ، فمن مقدمات دخولهم في الإسلام أولاً مع ما ذكرنا : أنه صلى الله عليه وسلم لما تُوفي عمه أبو طالب . . جعل يتصدىٰ في المواسم لأشراف العرب يدعوهم إلى الله ونصر دينه ، فكان ممن قدم سُوَيد بن الصامت الأوسي حاجاً أو معتمراً ، وكان سويد يسمونه : الكاملَ ؛ لما استجمع من خصال الشرف ، وهو الذي يقول : [من الطويل]

أَلاَ رُبَّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقاً وَلَوْ تَرَىٰ ... مَقَالَتَهُ بِٱلْغَيْبِ سَاءَكَ مَا يَفْرِي

مَقَالَتُهُ كَٱلشَّحْمِ مَا كَانَ شَاهِداً ... وَبِٱلْغَيْبِ مَأْثُورٌ عَلَىٰ ثُغْرَةِ ٱلنَّحْرِ

يَسُرُّكَ بَادِيهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ ... تَمِيمَةُ غِشٍّ تَبْتَرِي عَقَبَ ٱلظَّهْرِ

تُبِينُ لَكَ ٱلْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَاتِمٌ ... مِنَ ٱلْغِلِّ وَٱلْبَغْضَاءِ بِٱلنَّظَرِ ٱلشَّزْرِ

فلما قدم سويد . . جاءه النبي صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الإسلام ، فقال : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « وَمَا ٱلَّذِي مَعَكَ ؟ » فقال : مجلة لقمان ـ يعني حكمتَه ـ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِعْرِضْهَا عَلَيَّ » فعرضها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْكَلاَمَ حَسَنٌ ، وَٱلَّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْهُ ، قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ ٱللهُ عَلَيَّ ، هُوَ هُدىً وَنُورٌ » وتلا عليه رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم القرآن ، فلم يَبْعُد وقال : إن هـٰذا القول حسن ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة ، فقتله الخزرج قبل يوم بُعاث ، فكانوا يرون أنه قتل مسلماً[1] .

ثم قدم بعد ذلك جماعة من الأوس يلتمسون من قريش الحلف علىٰ قومهم من الخزرج ،

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٤٢٥ـ٤٢٧) .

فتعرض لهم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وقال لهم : « هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ ؟ » فقالوا : وما ذاك ؟ فقال : « أَنَا رَسُولُ ٱللهِ ، بَعَثَنِي إِلَى ٱلْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدُوا ٱللهَ وَحْدَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ ٱلْكِتَابَ » ودعاهم إلى الإسلام ، فقال إياس بن معاذ ـ وكان شاباً حدثاً ـ : أي قوم ؛ هٰذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحَيْسر أنسُ بن رافع حَفْنَةً من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك ، فَلَعَمْري ؛ لقد جئنا لغير هٰذا ، فصمت إياس ، وقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا راجعين إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعاث .

ثم لم يلبث إياس أن هلك ، ولا يشكون أنه مات مسلماً ؛ لما كانوا يسمعون منه ، ثم اتسق الخبر في الأنصار ، فلقي رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ستة نفر منهم عند العقبة ، فأسلموا ، ثم في قابلها اثني عشر رجلاً ، فأسلموا وبايعوا بيعة النساء ، ثم في قابلها سبعين رجلاً وبايعوا على الحرب علىٰ ما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالىٰ .

ثم هاجر صلى الله عليه وسلم إليهم ، فكانوا أهل حروبه وفتوحه ومغازيه ، وتمهدت لهم بصحبته الفضائل والسبق ، وكان منهم السادة النقباء ، وسادات الشهداء ، والقادة العلماء ، والكرماء النجباء ، والشعراء الفصحاء ، وسماهم الله الأنصار ، حتىٰ غلب عليهم هٰذا الاسم ، فلم يُعرفوا بعدُ بغيره ؛ لنصرهم نبيه ودينه ، وورد في فضلهم من الآيات الكريمات والأحاديث النبويات ما لا ينحصر بالتَّعداد ، ويَنْفَدُ دون بلوغ نهايته الأقلام والمِداد ، فسبحان من خصهم بذلك علىٰ بعدهم ، وزواه عن غيرهم مع قربهم! إنه هو الخبير اللطيف الحَكَم العدل الذي لا يَحِيفُ .

وفي الثامنة : نزلت (سورة الروم) ، وسبب نزولها علىٰ ما ذكره المفسرون : أنه كان بين فارس والروم قتال ، وكان المشركون يُحبون ظهور فارس ؛ لكونهم وإياهم أميين ، ولأن الفرس كانت مجوساً ، وكان المسلمون يحبون غلبة الروم ؛ لكونهم وإياهم أهل كتاب ، وكانت الروم نصارىٰ ، فالتقوا مرةً في أدنى الأرض علىٰ ما نطق به التنزيل ؛ أي : أقرب أرض الشام إلىٰ فارس ، وهي أَذْرِعات وكَسْكَر(١) ، فغلبت الروم ، فحزن

---

(١) **أَذْرِعات** : بلد في أقصى الشام ، يقع اليوم بحوران ، قرب مدينة دَرْعَا ، **وكَسْكَر** : بلد من أعمال واسط بالعراق .

المسلمون ، وفرح الآخرون وقالوا : قد غلب إخواننا إخوانكم ، فلئن قاتلتمونا . . لنَظهرَن عليكم ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ .

فخرج أبو بكر الصديق حينئذ وقال لهم : (لا تفرحوا ، فوالله ؛ ليظهرن الروم علىٰ فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله تعالىٰ عليه وسلم) فماراه أبيّ بن خلف في ذلك وراهنه علىٰ عشر قلائص[1] من كل واحد منهما ، وجعلوا الأجل ثلاث سنين ، ثم أخبر أبو بكر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بذلك ، فقال له : « مَا هَكَذَا ذَكَرْتُ لَكَ ، إِنَّمَا ٱلْبِضْعُ مِنَ ٱلثَّلَاثِ إِلَى ٱلتِّسْعِ » فخرج أبو بكر فلقي أبياً ، فزايده في الخطر والأجل ، وكان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أمره بذلك ، وذلك قبل تحريم القمار ، فجعلا الخطر مئة قَلُوص من كل واحد منهما ، والأجل تسع سنين .

ولمَّا خشي أبيٌّ خروج أبي بكر من مكة . . طالبه بكفيل ، فكفَّل له ابنه عبد الله ، وحين أراد أبيٌّ الخروج إلىٰ أحد . . لزمه عبد الله بن أبي بكر فكفَّل له ، فلما رجع من أحد ومات من جراحته التي أصابته من رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حين بارزه ، وظهرت الروم علىٰ فارس يوم الحديبية علىٰ رأس سبع سنين من مناحبتهم[2] ـ وقيل : كان ذلك يوم بدر ـ فقَمَر أبو بكر أبياً ، وأخذ الخطر من ورثته ، وجاء به إلى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، فقال له : « تَصَدَّقْ بِهِ » .

وفي التاسعة : خرج صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هو وأهله من حصار الشعب ، ونقضت الصحيفة بتَمالُؤ النفر الخمسة علىٰ نقضها حَسبَما تقدم .

ولثمانية أشهر وأحد عشر يوماً من العاشرة : مات عمه أبو طالب ، فاشتد حزنه صلى الله تعالىٰ عليه وعلىٰ آله وسلم عليه ، ثم ماتت خديجة رضي الله عنها بعده بثلاثة أيام ، فتضاعف حزنه صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وكان الله له خَلَفاً عنهما وعن كلٍّ .

---

(١) **القَلُوص** : الناقة الفتيَّة .
(٢) **المناحبة** : المفاخرة .

وثبت في « الصحيحين » من رواية سعيد بن المسيب[1] عن أبيه : أنه لما احتضر أبو طالب . . جاءه النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال له : « أَيْ عَمِّ ؛ قُلْ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ ٱللهِ »[2] فقالا له : يا أبا طالب ؛ أترغب عن ملة عبد المطلب ؟! فلم يزالا يكلمانه حتىٰ قال آخر شيء كلمهم به : علىٰ ملة عبد المطلب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ إلىٰ ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، ونزلت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[3] .

وفي رواية لمسلم قال : لولا أن تعيِّرني قريش يقولون : إنما حمله علىٰ ذلك الجَزع . . لأقررتُ بها عينك[4] ، وإن العباس بن عبد المطلب قال للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : ما أَغْنَيْتَ عن عمك ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك ، قال : « هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ أُمُّ دِمَاغِهِ »[5] .

وهـٰذا مطابق لقوله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « ٱلذُّنُوبُ ثَلَاثَةٌ : ذَنْبٌ يَغْفِرُهُ ٱللهُ ، وَذَنْبٌ لاَ يَغْفِرُهُ ٱللهُ ، وَذَنْبٌ لاَ يَتْرُكُهُ ٱللهُ » وفسر الأول بظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين خالقهم ، والثاني بالشرك ، واستشهد عليه بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، والثالث مظالم العباد فيما بينهم[6] .

---

(١) **المُسَيَّب** : بفتح التحتية عن العراقيين وهو المشهور ، وبكسرها عن المدنيين ، قال ابن قُرْقُول : قال الصيدلاني : ذكر لنا أن سعيداً كان يكره أن يفتح الياء من اسم أبيه ، وأما غير والد سعيد . . فبفتح الياء بلا خلاف . « شرح البهجة » (١/ ١١٤) .

(٢) **أُحاجُّ لك** : أقيم لك بها الحجة عند الله عز وجل بالشهادة لك علىٰ أنك قلتها ، ومنه يؤخذ صحة إسلام الكافر قبيل موته إذا كان قبل الغرغرة ، وهو كذلك . « شرح البهجة » (١/ ١١٥) .

(٣) البخاري (٣٨٨٤) ، مسلم (٢٤) .

(٤) مسلم (٢٥/ ٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٨٣ ، ٣٨٨٥) ، ومسلم (٢٠٩ ، ٢١٠) ، والمراد : أنه في قليل من العذاب بالنسبة لغيره ممن هو فيها .

(٦) أخرجه الضبي في « الدعاء » (ص ٣٣٢) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (ص ٢٢٢) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

وفي معناه : ما ثبت في الصحيح من رواية أنس رضي الله عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ أين أبي ؟ قال : « فِي ٱلنَّارِ » قال : فلما قَفَّى الرجل . . دعاه فقال : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي ٱلنَّارِ »[1] ، ومثله : ما روت عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله ؛ ابن جُدْعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ فقال : « لاَ يَنْفَعُهُ ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً : رَبِّ ٱغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » رواهما مسلم[2] .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ : أنه أبو طالب ، كان ينهى الناس عن أذى النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ويمنعهم ، وينأىٰ عن الإيمان[3] ؛ أي : يبعد .

وروي في كتب السير : أن العباس بن عبد المطلب نظر إلىٰ أبي طالب حين الموت وهو يحرك شفتيه ، فأصغىٰ إليه بأذنه ، فقال : يا بن أخي ؛ والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها ، فقال النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « لَمْ أَسْمَعْ »[4] والله أعلم ، لكن لم يقلها العباس رضي الله عنه ولم تؤثر عنه بعد أن أسلم ، ولا يستقيم ذلك مع ما ثبت من النقل الصحيح الصريح أنه مات على الشرك .

قال السهيلي : ومن باب النظر في حكمة الله تعالىٰ ومشاكلة الجزاء للعمل : أن أبا طالب كان مع رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بجملته متحزباً له ، إلا أنه كان مثبتاً لقدميه علىٰ ملة عبد المطلب ، فسلط العذاب علىٰ قدميه خاصة ؛ لتثبيته إياهما علىٰ ملة آبائه[5] .

اللهم ؛ ثبت قلوبنا علىٰ دينك حتىٰ تميتنا عليه في غير محنة ولا فتنة .

وذكر أبو طالب في وصيته لقريش عند موته في أمر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : (والله ؛ لا يسلك أحد سبيله . . إلاَّ رشد ، ولا يأخذ أحد بهديه . . إلاَّ سعد ، ولو كان

---

(١) مسلم (٢٠٣) .
(٢) مسلم (٢١٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٠٤) .
(٤) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٤١٨) .
(٥) « الروض الأنف » (٤/ ١٨) .

لنفسي مدة ولأجلي تأخير.. لكفَّيتُ[1] عنه الهزاهز[2]، ولدافعتُ عنه الدواهي)[3]، واشتهرت الأخبار بتولِّيه للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، والمدافعة والذب عنه، وتحمل الضر لأجله، ومن أحسن ما روي عنه في ذلك أنه قال: [من الكامل]

وَٱللهِ لَـنْ يَصِلُـوا إِلَيْـكَ بِجَمْعِهِـمْ ... حَتَّـىٰ أُوَسَّـدَ فِـي ٱلتُّـرَابِ دَفِينَـا

فَـٱصْـدَعْ بِـأَمْـرِكَ مَـا عَلَيْـكَ غَضَـاضَـةٌ ... وَٱبْشِـرْ وَقَـرَّ بِـذَاكَ مِنْـكَ عُيُـونَـا[4]

وَدَعَـوْتَنِـي وَعَـرَفْـتُ أَنَّـكَ نَـاصِحِـي ... وَلَقَـدْ صَـدَقْـتَ وَكُنْـتَ ثَـمَّ أَمِينَـا

وَعَـرَضْـتَ دِينـاً قَـدْ عَـرَفْـتُ بِـأَنَّـهُ ... مِـنْ خَيْـرِ أَدْيَـانِ ٱلْبَـرِيَّـةِ دِينَـا

لَـوْلاَ ٱلْمَـلاَمَـةُ أَوْ حِـذَارُ مَسَبَّـةٍ ... لَـوَجَـدْتَنِـي سَمْحـاً بِـذَاكَ مُبِينَـا

ومن محاسن قصيدته الكبرىٰ قوله: [من الطويل]

كَـذَبْتُـمْ وَبَيْـتِ ٱللهِ نَتْـرُكُ مَكَّـةً ... وَنَظْعَـنُ إِلاَّ أَمْـرُكُـمْ فِـي بَـلاَبِـلِ[5]

كَـذَبْتُـمْ وَبَيْـتِ ٱللهِ نُبْـزَىٰ مُحَمَّـداً ... وَلَمَّـا نُطَـاعِـنْ دُونَـهُ وَنُنَـاضِـلِ[6]

وَنُسْلِمُـهُ حَتَّـىٰ نُصَـرَّعَ حَـوْلَـهُ ... وَنَـذْهَـلَ عَـنْ أَبْنَـائِنَـا وَٱلْحَـلاَئِـلِ[7]

وَيَنْهَـضَ قَـوْمٌ فِـي ٱلْحَـدِيـدِ إِلَيْكُـمُ ... نُهُوضَ ٱلرَّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ ٱلصَّلاَصِلِ

وَحَتَّىٰ تَرَىٰ ذَا ٱلضِّغْنِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ ... مِنَ ٱلطَّعْنِ فِعْلَ ٱلأَنْكَبِ ٱلْمُتَحَامِلِ[8]

وَإِنَّـا لَعَمْـرُ ٱللهِ إِنْ جَـدَّ مَـا أَرَىٰ ... لَتَلْتَبِسَـنْ أَسْيَـافُنَـا بِـٱلأَنَـامِـلِ

بِكَفَّـيْ فَتـىً مِثْـلِ ٱلشِّهَـابِ سَمَيْـدَعٍ ... أَخِي ثِقَـةٍ حَـامِـي ٱلْحَقِيقَـةِ بَـاسِـلِ[9]

---

(١) كذا في النسخ، وفي نسخة بهامش (ب): (لكففت) وكتب فوقها: (صح).

(٢) **الهزاهز**: الحروب والشدائد.

(٣) انظر «الروض الأنف» (٤/ ٢١).

(٤) **الغضاضة**: النقص والازدراء.

(٥) **نَظْعَن**: نرحل، **والبلابل**: الهموم والأحزان.

(٦) **نُبْزَىٰ**: نُغلب عليه، **ونُناضل**: نرامي بالسهام.

(٧) **نذهل**: ننْسىٰ، **والحلائل**: الزوجات والسراري.

(٨) **الضِّغن**: الحقد، **وردعه**: ما يرشه من الدم، **والأنكب**: المائل إلى جهة.

(٩) **سَميدع**: السيد، **والحقيقة**: ما يلزم الإنسان الدفع عنه من أهل بيته.

شُهُـوراً وَأَيَّـامـاً وَحَـوْلاً مُجَـرَّمـاً ... عَلَيْنَـا وَتَـأْتِـي حِجَّـةٌ بَعْـدَ قَـابِـلِ (١)

وَمَـا تَـرْكُ قَـوْمٍ لاَ أَبَـا لَـكَ سَيِّـداً ... يَحُـوطُ ٱلـذِّمَـارَ غَيْـرَ ذِرْبٍ مُـوَاكِـلِ (٢)

وَأَبْيَـضَ يُسْتَسْقَـى ٱلْغَمَـامُ بِـوَجْهِـهِ ... ثِمَـالُ ٱلْيَتَـامَـىٰ عِصْمَـةٌ لِـلأَرَامِـلِ (٣)

يَلُـوذُ بِـهِ ٱلْهُـلاَّكُ مِـنْ آلِ هَـاشِـمٍ ... فَهُـمْ عِنْـدَهُ فِـي نِعْمَـةٍ وَفَـوَاضِـلِ

لَعَمْـرِي لَقَـدْ كُلِّفْـتُ وَجْـداً بِـأَحْمَـدٍ ... وإِخْـوَتِـهِ دَأْبَ ٱلْمُحِـبِّ ٱلْمُـوَاصِـلِ

فَمَـنْ مِثْلُـهُ فِـي ٱلنَّـاسِ أَيُّ مُـؤَمَّـلٍ ... إِذَا قَـاسَـهُ ٱلْحُكَّـامُ عِنْـدَ ٱلتَّفَـاضُـلِ

حَلِيـمٌ رَشِيـدٌ عَـادِلٌ غَيْـرُ طَـائِـشٍ ... يُـوَالِـي إِلَـٰهـاً لَيْـسَ عَنْـهُ بِغَـافِـلِ

فَـوَٱللهِ لَـوْلاَ أَنْ أَجِـيءَ بِسُبَّـةٍ ... تُجَـرُّ عَلَـىٰ أَشْيَـاخِنَـا فِـي ٱلْمَحَـافِـلِ

لَكُنَّـا ٱتَّبَعْنَـاهُ عَلَـىٰ كُـلِّ حَـالَـةٍ ... مِـنَ ٱلـدَّهْـرِ جِـدّاً غَيْـرَ قَـوْلِ ٱلتَّهَـازُلِ

لَقَـدْ عَلِمُـوا أَنَّ ٱبْنَنَـا لاَ مُكَـذَّبٌ ... لَـدَيْنَـا وَلاَ يُعْنَـىٰ بِقَـوْلِ ٱلأَبَـاطِـلِ

فَـأَصْبَـحَ فِينَـا أَحْمَـدٌ فِـي أَرُومَـةٍ ... تُقَصِّـرُ عَنْهَـا سَـوْرَةُ ٱلْمُتَطَـاوِلِ (٤)

حَـدِبْـتُ بِنَفْسِـي دُونَـهُ وَحَمَيْتُـهُ ... وَدَافَعْـتُ عَنْـهُ بِـٱلـذُّرَىٰ وَٱلْكَـلاَكِـلِ (٥)

وقال ابنه طالب بن أبي طالب : [من الطويل]

فَمَـا إِنْ جَنَيْنَـا فِـي قُـرَيْـشٍ عَظِيمَـةً ... سِوَىٰ أَنْ حَمَيْنَا خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ ٱلتُّرْبَا

أَخَـا ثِقَـةٍ فِـي ٱلنَّـائِبَـاتِ مُـرَزَّأً ... كَـرِيمـاً نَثَـاهُ لاَ بَخِيـلاً وَلاَ ذَرِبَـا (٦)

يُطِيـفُ بِـهِ ٱلْعَـافُـونَ يَغْشَـوْنَ بَـابَـهُ ... يَـؤُمُّـونَ نَهْـراً لاَ نَـزُوراً وَلاَ صَـرْبَـا (٧)

---

(١) **حولاً مُجرَّماً** : حولاً كاملاً .

(٢) **يحوط** : يمنع ، **والذِّمار** : ما يلزم حفظه من أهل وغيره ، **والذِّرْب** : السليط اللسان ، **والمواكل** : الذي يكل أموره إلىٰ غيره غباوة منه .

(٣) **ثِمالُ اليتامىٰ** : القائم بمصالحهم ، **والعِصمة** : المَلاذ .

(٤) **الأَرُومة** : الأصل .

(٥) **الذُّرىٰ** : جمع ذروة ، وذروة الشيء : أعلاه ، **والكلكل** : معظم الصدر .

(٦) **النثا** : العطاء .

(٧) **الصَّرب** : المنقطع .

قال ابن إسحاق : فلما مات أبو طالب . . نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذىٰ ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سَفِيه من سفهاء قريش فنثر علىٰ رأسه تراباً ، ودخل علىٰ إحدىٰ بناته فجعلت تغسله وتبكي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : « لاَ تَبْكِي يَا بُنَيَّةِ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ » ويقول بين ذلك : « مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ مَا نَالَتْ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو طَالِبٍ » .

وذكر أيضاً : أن النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوار المنزل لم يُسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص ، مع أن إسلامه كان مضطرباً ، فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي ، ويطرحها في بُرْمَته إذا نصبت له[1] ، حتى اتخذ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم حِجْراً يستتر به منهم إذا صلىٰ ، وكان إذا طرحوا عليه ذلك يخرج به علىٰ عُودٍ ويقول : « يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ؛ أَيُّ جِوَارٍ هَـٰذَا ؟! » ثم يُلقيه[2] .

قلت : وجميع ذلك إنما هو أذىً يتأذىٰ به مع قيام العصمة بجملته ؛ ليناله حظه من البلاء ، وليتحقق فيه مقام الصبر الذي أمر به كما صبر أولو العزم من الرسل الأنبياء ، ومع ذلك فكل من قومه قد كان حريصاً على الفتك به واستئصاله والفراغ منه لو يقدر علىٰ ذلك ، فسبحان من كفاه ، ووقاه وآواه ، وأظهر دينه على الأديان كلها وأسماه!

ولثلاثة أشهر من موت أبي طالب : خرج رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إلىٰ ثقيف أهلِ الطائف وحده ، وقيل : كان معه زيد بن حارثة ، فأقام بها شهراً يدعوهم ، فردوا قوله واستهزؤوا به ، وسألهم أن يكتُموا عنه إذ لم يقبلوا ، فلم يفعلوا ، وعند انصرافه عنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون خلفه ، حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلىٰ جنب حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ، وكانا حينئذ هناك ، فلما اطمأن صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في ظله ورجع عنه عامة السفهاء . . دعا فقال :

« ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى ٱلنَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ

---

(١) البُرْمَة : القِدْر من الحجر .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/٤١٦) .

ٱلرَّاحِمِينَ ؛ أَنْتَ رَبُّ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي ؟ إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي[1] ، أَوْ إِلَىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ . . فَلاَ أُبَالِي ، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ ٱلَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ ٱلظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ ٱلْعُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ[2] ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ » .

ولما رأى ابنا ربيعة ما لقي . . تحركت له رحمهما ، وبعثا إليه غلاماً لهما اسمه عَدَّاس بطبق عنب ، فلما وضعه بين يديه . . سمىٰ وأكل صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، ثم سأل عَدَّاساً عن دينه وبلده ، فقال : أنا نصراني من أهل نينوىٰ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ قَرْيَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ؟ » فقال عَدَّاس : وما يدريك به ؟ فقال : « ذَاكَ أَخِي كَانَ نَبِيّاً وَأَنَا نَبِيٌّ » فأكب عليه عدَّاس يقبل رأسه ويديه ورجليه ، فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أمَّا غلامك . . فقد أفسده ، ولما جاءهم عدَّاس . . سألاه فقال : ما في الأرض خير من هٰذا الرجل ، فقالا : يا عدَّاس ؛ لا يصرفنك عن دينك ؛ فإنه خير من دينه[3] .

قال المؤلف كان الله له : وقد تقدم الحديث عن « صحيح مسلم » من رواية عائشة رضي الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم : أن هٰذا الموقفَ بالطائف أَشدُّ ما لقي ، وذلك ـ والله أعلم ـ لما لحقه من التعيير والتبكيت والاستهزاء ، وخيفة شماتة قريش ، وخشية أن ينالوه بمثلها ، ودعاؤُه حينئذ مبين عما وقع في نفسه من الكرب العظيم صلى الله عليه وعلىٰ آله وسلم أفضل الصلاة وأزكى التسليم والبركات .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتأذىٰ منهم بالقول أعظم من تأذيه بالفعل ، ولما عكسوا اسمه الكريم وسموه مُذَمَّماً بدلاً عن محمد . . قال : « أَلاَ تَرَوْنَ مَا يَدْفَعُ ٱللهُ عَنِّي مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ؟ يَسُبُّونَ وَيَهْجُونَ مُذَمَّماً ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ » صلى الله عليه وسلم ؛ يعني : أنهم يوقعون سبهم علىٰ وصف ولم يكن بذلك الوصف صلى الله عليه وسلم .

---

(١) **التجهُّم** : المقابلة بوجه غليظ .
(٢) **العُتْبىٰ** : الرضا .
(٣) انظر « عيون الأثر » (١/١٦٦ـ١٦٨) .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً مهموماً مغموماً ، فلما بلغ قرن الثعالب وهو قرن المنازل . . أتاه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال ، واستأذنه أن يطبق علىٰ قريش الأخشبين ـ وهما جبلا مكة ـ فكره صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم الحديث في ذلك مستوفىً[1] .

ثم أخذ راجعاً إلىٰ مكة ، حتىٰ إذا كان بنخْلَةَ[2] . . قام من جوف الليل يصلي ، فمر به نفر تسعة ـ وقيل : سبعة ـ من جن نَصِيبِين ، وهي مدينة بالشام مباركة[3] ، وجنها سادات الجن وأكثرهم عدداً ، وهم أول بعث بعثه إبليس حين بعث جنوده ليتعرفوا له الأخبار عن سبب منعهم من استراق السمع ، فلما سمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . . ولّوا إلىٰ قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا ، فقص الله سبحانه علىٰ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم خبرهم فقال : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ الآية .

وذُكر من أسمائهم : منشي وماشي ، وشاصر وماصر ، والأحْقَب وزَوبعَة ، وحكي : أنهم من نَصِيبين قرية باليمن غير التي بالعراق ، وقيل : إنهم من نينوىٰ ، وإن جن نَصِيبِين أتوه بعد ذلك بمكة ، والصواب : أنه لم يرهم ليلتئذٍ .

قال المؤلف كان الله له : هٰكذا ينقل عن ابن إسحاق رحمه الله تعالىٰ ، وتبعه غيره أن استماع الجن بنخلة كان عند مرجعه صلى الله عليه وآله وسلم من الطائف وحده ، وثبت في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن ذلك كان عند انطلاقه في طائفة من أصحابه عامدين إلىٰ سوق عُكَاظٍ ، فسمعوه وهو يصلي بهم صلاة الفجر[4] ، وما ثبت فيه مقدم علىٰ غيره ، ويدل عليه ما رواه الترمذي عن ابن عباس وصححه : أنهم لما رأوه يصلي بأصحابه وهم يصلون بصلاته ويسجدون معه . . تعجبوا من طواعية أصحابه له ، قالوا لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[5] .

---

(١) (ص ٨٥ـ ٨٧) .

(٢) **نَخْلَةُ** : أحد واديين علىٰ ليلة من مكة ، يقال لأحدهما : نخلة الشامية ، وللآخر : نخلة اليمانية .

(٣) **نَصِيبين** : مدينة من بلاد الجزيرة علىٰ جادة القوافل من الموصل إلى الشام .

(٤) البخاري (٧٧٣) .

(٥) الترمذي (٣٣٣٥) .

وثبت في « صحيح مسلم » : أنه أتاه داعي الجن مرةً أخرىٰ بمكة ، وذهب معه وقرأ عليهم القرآن ، وسألوه الزاد ، فقال لهم : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً ، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ » فقال رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا ؛ فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ »[1] .

قال عكرمة : وكانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، ووردت أحاديث أخرىٰ تدل علىٰ تكرار اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن مسعود معه في إحدى المرات ، والله أعلم .

فصل

[في أصل الجن وأصنافهم]

واختلف في أصل الجن ، فقيل : هم والشياطين ولد إبليس ، وقيل : هم ولد الجان والشياطين ولد إبليس ، ثم إنهم متجسمون محتاجون إلى التغذية كالإنس ، خلافاً لمن أنكره من كفرة الأطباء والفلاسفة ، ويتصورون في الصور المختلفة ، وأكثر ما يتصورون حيات .

وروي في حديث : « أَنَّهُمْ ثَلاَثَةُ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ فِي ٱلْهَوَاءِ ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلاَبٌ ، وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ »[2] .

وسُمُّوا جناً لاستتارهم عن أعين الناس ، وجائز رؤيتهم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إليهم كالإنس ، قيل : ولم يكن ذلك لنبي قبله ، والصواب : أن مؤمنهم يدخل الجنة وكافرهم يدخل النار .

ثم إنهم يُعمَّرون الأعمار الطويلة ، ومن أعجب ما روي في ذلك : ما حكاه القاضي عياض عن غير واحد من المصنفين عن عمر بن الخطاب قال : (بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذا أقبل شيخ وبيده عصاً ، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد

---

(١) مسلم(٤٥٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٥٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٢١٤) .

عليه وقال : « نَغْمَةُ ٱلْجِنِّ ، مَنْ أَنْتَ ؟ » فقال : أنا هَامَة بن الهِيم بن لاقس بن إبليس . . .)
فذكر أنه لقي نوحاً ومن بعده في حديث طويل[١] .

وروي أنهم قبائل متكاثرة ، وأصناف متباينة ، وأهواء مختلفة حتىٰ قيل : إن فيهم قدرية ومرجئة ورافضة ، والله أعلم .

رجعنا إلى القصة : ولما بلغ صلى الله عليه وسلم في مرجعه من الطائف حراء . . بعث إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره ، فقال : أنا حليف ، والحليف لا يجير ، فبعث إلىٰ سهيل بن عمرو فقال : إن بني عامر لا تجير علىٰ بني كعب ، فبعث إلى المطعم بن عدي ، فلَبِس سلاحه هو وأهل بيته وخرجوا إلى المسجد ، وبعث إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنِ ادخل ، فدخل صلى الله عليه وسلم فطاف وانصرف إلىٰ منزله[٢] ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم في أسارىٰ بدر ـ وكانوا سبعين ـ : « لَوْ كَانَ ٱلْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيّاً ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ ٱلنَّتْنَىٰ . . لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ »[٣] ولذلك أيضاً يقول حسان بن ثابت في المطعم حين رثاه : [من الطويل]

أَجَـرْتَ رَسُـولَ ٱللهِ مِنْهُـمْ فَـأَصْبَحُـوا ... عَبِيـدَكَ مَـا لَبَّـىٰ مُهِـلٌّ وَأَحْـرَمَـا
فَلَـوْ سُئِلَـتْ عَنْـهُ مَعَـدٌّ بِـأَسْـرِهَـا ... وَقَحْطَـانُ أَوْ بَـاقِـي بَقِيَّـةِ جُـرْهُمَـا
لَقَـالُـوا هُـوَ ٱلْمُـوفِـي بِخُفْـرَةِ جَـارِهِ ... وَذِمَّتِـهِ يَـوْمـاً إِذَا مَـا تَـذَمَّمَـا[٤]

وفي هٰذه السنة ـ وهي سنة عشر من المبعث وخمسين من المولد ـ : تزوج النبي صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة ، وبنىٰ بها ، ثم عائشة بنت أبي بكر ، وبنىٰ بها بالمدينة ، وسيأتي خبر تزويجهما إن شاء الله تعالىٰ عند ذكر أزواجه صلى الله عليه وسلم .

وفي سنة إحدىٰ عشرة : اجتهد صلى الله عليه وسلم في عرض نفسه على القبائل في

---

(١) انظر « الشفا » (ص٤٥٤) ، و« اللآلىء المصنوعة » (١/ ١٧٤ـ ١٧٧) .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٨١) .
(٣) أخرجه البخاري (٣١٣٩) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، وانظر « عيون الأثر » (١/ ١٦٩) .
(٤) **الخُفْرَةُ** : الذمة .

مجامعهم بالمواسم : منىٰ وعرفات ومِجَنَّة وذي المجاز ، فكان من خبر ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله : أنه لما رجع صلى الله عليه وسلم من الطائف . . وجد قومه أشد ما كانوا عليه .

فكان ممن عرض عليه كندة فلم يجيبوه ، ثم بنو عبد الله بطن من كَلْب ، وكان مما قال لهم : « قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ ٱسْمَ أَبِيكُمْ » فلم يقبلوا منه ، ثم بنو حنيفة ، فردوا أقبح رد ، وكان عمه أبو لهب يقفو أَثَره ، فكلما أتىٰ قوماً ودعاهم . . كذبه وحذرهم منه .

وممن دعا أيضاً : بنو عامر بن صَعْصَعة ، فشارطوه علىٰ أن يكون لهم الأمر من بعده ، فقال : « ٱلأَمْرُ للهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ »[1] .

وذكر محمد بن الحسن الكَلاَعي في « سيرته » قبائل كثيرةً ، فممن ذكر زيادةً علىٰ ما نقل ابنُ هشام : بنو كنانة ، وحين لم يجيبوه . . انصرف عنهم صلى الله عليه وسلم يتلو : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، ثم بنو فَزارة ، فلم يجيبوه ، فانصرف عنهم يتلو : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ، ثم بنو تميم ، وحين أبوا . . انصرف عنهم يتلو : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ الآية ، ثم بنو أُسَيْد ، فرد عليه رئيسهم طلحة الأسيدي رداً قبيحاً ، وانصرف عنهم يتلو : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ الآية .

ثم أتىٰ بكرَ بن وائل ومعه أبو بكر وعلي ، فكان لأبي بكر مع دُغْفُل بن حنظلة النَّسَّابة أخبار طريفة في الأنساب .

ثم وقف علىٰ بني شيبان ، فتلا عليهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ الآية ، ثم استزادوه فتلا : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلىٰ آخر ثلاث آيات .

وكان له ولهم مراجعة حسنة طريفة لطيفة ، ثم وعدوه أن يمنعوه من جميع الجوانب إلا ما يلي أنهار كسرىٰ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ لاَ يَقُومُ بِأَمْرِ ٱللهِ إِلاَّ مَنْ مَنَعَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، وَمَا أَسَأْتُمْ فِي ٱلرَّدِّ وَلاَ تَجَهَّمْتُمْ فِي ٱلْقَوْلِ ، أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ يَأْتِ عَلَيْكُمْ إِلاَّ يَسِيرٌ حَتَّىٰ تَسْتَخْدِمُوا رِجَالَ ٱلْقَوْمِ وَتَقْتَسِمُوا أَمْوَالَهُمْ . . أَتُعْطُونَ للهِ عَهْداً لَتَعْبُدُنَّهُ وَلاَ تُشْرِكُنَّ بِهِ شَيْئاً ؟ » فقال النعمان بن شريك وبَدَرَهم إلى القول : نعم ، علينا بذلك عهد الله تعالىٰ لنعبدنه

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٤٢٢ـ ٤٢٥) .

ولا نشرك به شيئاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱنْصُرْهُمْ » فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أتينا قوماً ذوي حجًى يحسنون الجواب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِأَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَحْلاَماً وَمَقْدُرَةً يَتَحَاجَزُونَ بِهَا[١] ، وَيَدْفَعُ بِهَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ » وانصرف عنهم وهو يقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وفي هٰذه السنة : بَدْء إسلام الأنصار ، وقد قدمنا عند ذكر وقعة بُعاث سبب مقدمات إسلامهم ، وخبر سويد بن الصامت وإياس بن معاذ[٢] ، وحين أراد الله سبحانه إعزاز نبيه وسياقة خير الدنيا والآخرة إلى الأنصار . . لقي النفر الستة الخزرجيين عند العقبة ، فعرض عليهم ما عرض علىٰ غيرهم ، فقالوا فيما بينهم : والله ؛ إنه للنبي الذي توعَّدنا به اليهود ، فلا تسبقنا إليه ، ثم صدقوه وآمنوا بما جاء به ، وأخبروه أنهم خلفوا قومهم وبينهم العداوة والبغضاء ، وقالوا : إن جمعنا الله بك . . فلا رجلَ أعزُّ منك .

وهم فيما ذكر ابن إسحاق وغيره : أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، وعوف بن الحارث وهو ابن عَفْراء ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله بن رِئاب .

ولما قدموا المدينة وأخبروا قومهم بذلك . . فشا فيهم الإسلام ، فلم يبق دارٌ من دورهم . . إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولتسعة أشهر من الثانية عشرة ـ قبل الهجرة بسنة ـ أسري به صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام من بين زمزم والمقام إلى المسجد الأقصىٰ وهو بيت المقدس ، ثم إلى السماوات العلا ، ثم إلىٰ ما لا يعلمه إلا الله تعالىٰ ، وفارقه جبريل ، وانقطعت عنه الأصوات ، وسمع صَريف الأقلام في اللوح المحفوظ ، ثم سمع كلام المولىٰ ، فأوحىٰ إليه ما أوحىٰ ، وأتحفه بأنواع التُّحَف والزُّلْفىٰ ، ورأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ علىٰ ما نطق به الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ .

وأثبت رؤيتَه لربه ليلتئذ جماهيرُ الصحابة والعلماء من غير إدراك ولا إحاطة ولا تكييف

---

(١) **يتحاجزون بها** : يمنعون بها .
(٢) انظر (ص ١٠٣) .

بحد ولا انتهاء ، صلى الله عليه وسلم أفضل ما صلىٰ علىٰ أحد من عباده الذين اصطفىٰ .

وقيل : كان الإسراء سنة ست أو خمس من المبعث ، وقيل : لسنة وثلاثة أشهر منه ، والصواب ما قدمناه أولاً .

وجزم النووي في « شرح صحيح مسلم » أنه كان ليلة الإثنين ، ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الأول[1] ، وكذلك في « فتاويه »[2] وفي « سير الروضة » له : أنه كان في رجب[3] ، وقال غيره : في رمضان .

واختلف : هل كان بروحه وجسده يقظةً ، أو بروحه فقط مناماً ؟ مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وحي ، واختلافهم بحسب اختلاف الروايات في ذلك ، والصحيح : الأول ؛ أنه بالروح والجسد ، وطريقة الجمع بينهما أن يقال : كان ذلك مرتين أولاهما مناماً قبل الوحي كما في حديث شَرِيك ، ثم أسري به يقظةً بعد الوحي ، تحقيقاً لرؤياه كما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتح مكة قبل عام الحديبية سنة ست من الهجرة ، ثم كان تحقيقه سنة ثمان ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ الآية .

وتوسط آخرون فقالوا : كان الإسراء بجسده إلىٰ بيت المقدس ، ومن هناك إلى السماوات بروحه .

قال النووي رحمه الله تعالىٰ في « فتاويه » : ثبت أنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ليلة الإسراء ببيت المقدس ، ثم يحتمل أنها قبل صعوده إلى السماء ، ويحتمل أنها بعده ، واختلف العلماء فيها ، فقيل : هي الصلاة اللغوية ، وهي الدعاء والذكر ، وقيل : الصلاة المعروفة ، ورجح الثاني ، وكانت الصلاة واجبةً قبل ليلة الإسراء ، وكان الواجب منها قيام بعض الليل كما في (سورة المزمل) ، ثم نسخ ذلك ليلة الإسراء بافتراض الخمس ، وقد سبق ذلك .

ورأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء بعيني رأسه ، هـٰذا هو الصحيح ،

---

(١) ذكر الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح صحيح مسلم » (٢/ ٢٠٩) أقوالاً في الإسراء ، منها : أنه كان ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ، ولم نجد فيه أنه جزم علىٰ أحد الأقوال .

(٢) انظر « فتاوى الإمام النووي » (ص٣٦) .

(٣) انظر « روضة الطالبين » (١٠/ ٢٠٦) .

وعليه أكثر الصحابة والعلماء ، وليس للمانع دليل ظاهر ، وإنما احتجت عائشة رضي الله عنها بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ ، وأجاب الجمهور عنه : بأن الإدراك هو الإحاطة ، والله سبحانه وتعالى لا يحاط به ، ويراه المؤمنون في الآخرة بغير إحاطة ، وكذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء . انتهى ما ذكره مختصراً[1] .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم : قصة الإسراء ، وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبه عليه الكتاب العزيز ، وشرحته صحاح الأخبار ، قال الله سبحانه : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ الآيات ، فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هو نص القرآن ، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه وخواص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيه أحاديث كثيرة منتشرة ، رأينا أن نقدم أكملها ، ونشير إلىٰ زيادة من غيره يجب ذكرها ، ثم ذكر حديث ثابت عن أنس من طريق مسلم .

قلت : وقد اخترت ما اختاره القاضي ؛ لِدرايته وتقدمه في هـٰذا الشأن ، مع أني قد امتحنتُ الأحاديثَ غيرَه فوجدته من أعدلها متناً وأصحها سنداً ، وهـٰأنا أذكره مقتصراً عليه ، وأحذف الزيادات من غيره اختصاراً ، وهو ما رويناه بسندنا السابق إلىٰ مسلم رحمه الله تعالىٰ قال : حدثنا شيبان بن فَرُّوخ ، ثنا حماد بن سَلمةَ ، ثنا ثابت البُناني عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُتِيتُ بِٱلْبُرَاقِ ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ ٱلْحِمَارِ وَدُونَ ٱلْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ ، قَالَ : فَرَكِبْتُهُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ ٱلْمَقْدِسِ ، فَرَبَطْتُهُ بِٱلْحَلْقَةِ ٱلَّتِي تَرْبِطُ بِهَا ٱلأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ ، فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَٱخْتَرْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ : ٱخْتَرْتَ ٱلْفِطْرَةَ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ، فَٱسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : فَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ؛ فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ صلى الله عليه وسلم ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

---

(١) انظر « فتاوى الإمام النووي » (ص٣٥ـ٣٦) .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَٱسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ؛ فَإِذَا أَنَا بِٱبْنَي ٱلْخَالَةِ : عِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ، فَرَحَّبَا بِي وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلثَّالِثَةِ . . . » فذكر مثل الأول « فَفُتِحَ لَنَا ؛ فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صلى الله عليه وسلم ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ ٱلْحُسْنِ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلرَّابِعَةِ . . . » وذكر مثله « وَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلْخَامِسَةِ . . . » فذكر مثله « فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّادِسَةِ . . . » فذكر مثله « فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ صلى الله عليه وسلم ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّابِعَةِ . . . » فذكر مثله « فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ صلى الله عليه وسلم مُسْنِداً ظَهْرَهُ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ .

ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَىٰ سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَىٰ ؛ فَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ ٱلْفِيَلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَٱلْقِلاَلِ ، قَالَ : فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ ٱللهِ مَا غَشِيَ . . تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ ٱللهِ تَعَالَىٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، فَأَوْحَى ٱللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَىٰ ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَنَزَلْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلاَةً ، قَالَ : اِرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَٱسْأَلْهُ ٱلتَّخْفِيفَ ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ وَخَبَرْتُهُمْ .

قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَقُلْتُ : يَا رَبِّ ؛ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّي خَمْساً ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ ، فَٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَٱسْأَلْهُ ٱلتَّخْفِيفَ ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَعَالَىٰ وَبَيْنَ مُوسَىٰ حَتَّىٰ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، بِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا . . كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا . . كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا . . لَمْ

تُكْتَبْ شَيْئاً ، فَإِنْ عَمِلَهَا . . كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، قَالَ : فَنَزَلْتُ حَتَّى ٱنْتَهَيْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : اِرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَٱسْأَلْهُ ٱلتَّخْفِيفَ ، فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم : فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي حَتَّى ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ » اهـ الحديث[1] .

ولما أصبح صلى الله عليه وسلم وأخبر خبر ليلته وما جرىٰ له فيها . . كذَّبه كفار قريش ومَقَتُوه ، واستبعد ذلك كثير من الناس ، حتى ارتد من ضَعُف إيمانه ورقَّ دينه ، ثم استوصفوه بيتَ المقدس ولم يكن أثبت صفاتِه ، فكُرِب رسول الله صلى الله عليه وسلم كرباً عظيماً ، فرفعه الله له ، فجعل يخبرهم عنه وهو يبصره .

وفي رواية يونس بن بُكَيْر عن ابن إسحاق : أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر قومه بالرُّفقة والعلامة في عِيرهم . . قالوا : متىٰ تجيء ؟ قال : يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم وأشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم تجيء . . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيد له في النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس صلى الله عليه وسلم[2] .

وفي موسم هـٰذه السنة : وافاه من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، وهم : أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع بن العَجْلان وذكوان بن عامر وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة وعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر ، هـٰؤلاء خزرجيون ، ومن الأوس : أبو الهيثم بن التَّيِّهان وعُوَيْم بن ساعدة ، فلَقُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة ، وهي العقبة الأولىٰ ، فبايعوه بيعة النساء : ألاَّ يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ولا يزنوا . . . إلىٰ آخر ما قص الله سبحانه في آية بيعة المؤمنات ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، وبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير العبدري[3] يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الأحكام ، فكانوا يسمونه المقرىء ، وكان منزله علىٰ أسعد بن زرارة .

ودخل به أسعد بن زرارة يوماً حائطاً لبني ظَفَر من الأوس ، واجتمع إليهما نفر ممن أسلم ، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير : انطلق إلىٰ هـٰذين الرجلين اللذين أتيا دارنا

---

(١) مسلم (١٦٢) ، وانظر « الشفا » (ص٢٢٧ـ٢٢٨) .
(٢) راجع « الشفا » (٣٤٨) و« شرح صحيح مسلم » (١٢/٥٢) ، و« فتح الباري » (٦/٢٢١) لابن حجر رحمهم الله تعالىٰ .
(٣) في (ج) : (العبدي) .

ليسفِّها ضعفاءنا فازجُرْهما ، فلولا أن أسعد بن زُرارة ابن خالتي . . لكفيتك ، فأخذ أسيد حَرْبته وأقبل نحوهما ، وحين رأياه . . قال أسعد لمصعب : هـٰذا سيد قومه قد جاءك فاصدُق الله فيه ، فقال مصعب : إن يجلسْ . . أكلمه ، فوقف عليهما متشتماً[1] ، وقال : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أوتجلس فتستمع ؟ فإن رضيت أمراً . . قبلته ، وإن كرهت أمراً . . كُفَّ عنك ما تكره ، قال : أنصفتَ ، فركَزَ حَربته وجلس ، فتلا عليه القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتبعكما . . لم يتخلَّف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما .

فلما أقبل أسيد راجعاً إلىٰ سعد بن معاذ رضي الله عنه . . قال سعد : أحلف بالله ؛ لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به عنكم ، فلما وقف عليهم . . سأله سعد فقال : والله ؛ ما رأيت بهما بأساً ، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه ، فقام سعد مغضباً حتىٰ وقف عليهما ، فلما رآهما مطمئنَّين . . عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً وقال لأسعد : لولا ما بيني وبينك من القرابة . . ما رُمت ذلك مني ، تغشانا في ديارنا بما نكره ؟! فقالا له ما قالا لصاحبه ، وفعل كفعله .

ولما رجع سعد إلىٰ قومه . . قال : يا بني عبد الأشهل ؛ كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتىٰ تؤمنوا بالله ورسوله ، فما أمسىٰ في دارهم مشرك .

ثم فشا الإسلام في دور الأنصار كلها إلا ما كان من بني أمية بن زيد وخَطْمة وواقِف ؛ فإنهم انتظروا بإسلامهم إسلام أبي قيس بن الأسلت ، وكان شاعراً مطاعاً فيهم ، فوقف بهم حتىٰ هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومضىٰ بدر وأحد والخندق ، وقال حين رأى الإسلام : [من الوافر]

أَرَبَّ ٱلنَّـــاسِ أَشْيَـــاءٌ أَلَمَّـــتْ ... يُلَـفُّ ٱلصَّعْـبُ مِنْهَـا بِـٱلـذَّلُـولِ

في أبيات له ، وقد كان أهل مكة قبل إسلام سعد بن معاذ سمعوا هاتفاً يقول : [من الطويل]

فَـإِنْ يُسْلِـمِ ٱلسَّعْـدَانِ يُصْبِـحْ مُحَمَّـدٌ ... بِمَكَّـةَ لاَ يَخْشَـىٰ خِـلاَفَ مُخَـالِـفِ

---

(١) من الشتم .

يعني سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما[1] .

وفي سنة ثلاث عشرة : خرج حجاج الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فلما قدموا مكة . . وَاعَدُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، وهي العقبة الثالثة المتفق علىٰ صحتها ، وهـٰأنا أذكرها مختصرة علىٰ معنىٰ ما ذكره أهل السير ، مع مراعاة بعض الألفاظ كما أفعل في غيرها من القصص :

قالوا : فلما كان ليلة الميعاد . . باتوا مع قومهم ، فلما مضىٰ ثلث الليل . . خرجوا مستخفين ، ولما اجتمعوا بالشعب عند العقبة . . جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس وهو يومئذ مشرك ، فتكلم العباس وقال : يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمي الأنصار أوسَها وخزرجَها الخزرج ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عزة ومنعة من قومه في بلده ، وقد أبىٰ إلاَّ الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه . . فأنتم وما تحملتم ، وإن كنتم تَرَوْن أنكم مسلموه وخاذلوه . . فمن الآن .

فقالوا : تكلم يا رسول الله ، وخذ لربك ولنفسك ما شئت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا عليهم شيئاً من القرآن ، ثم قال : « أُبَايِعُكُمْ عَلَىٰ أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ؟ » فقال البراء بن مَعْرور : نعم ، والذي بعثك بالحق نبياً ؛ لنمنعك مما نمنع منه أُزُرنا[2] ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن أهل الحَلْقة والسلاح ورثناها كابراً عن كابر .

فقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله ؛ إن بيننا وبين الناس حِبالاً ، وإنّا قاطعوها ، فهل عسيتَ إن فعلنا ذلك ثم أظفرك الله أن ترجع إلىٰ قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بَلِ ٱلأَبَدَ ٱلأَبَدَ[3] ، ٱلدَّمَ ٱلدَّمَ ، وَٱلْهَدْمَ ٱلْهَدْمَ ، أَنْتُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْكُمْ ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ » ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) راجع « سيرة ابن هشام » (ص٤٣٥ـ٤٣٨) ، و« عيون الأثر » (١/ ١٩٥ـ١٩٧) .

(٢) أُزُرنا : كناية عن النساء والأهل .

(٣) في (و) : (الأيد الأيد) أي : القوة.

وسلم : « أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً كُفَلاَءَ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ » فأخرجوا تسعةً من الخزرج ، وثلاثةً من الأوس ، ونَقَّب صلى الله عليه وسلم على النقباء أسعد بن زرارة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتُمْ كُفَلاَءُ عَلَىٰ قَوْمِكُمْ كَكَفَالَةِ ٱلْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ، وَأَنَا ٱلْكَفِيلُ عَلَىٰ قَوْمِي » قالوا : نعم ، فبايعوه ، ووعدهم على الوفاء الجنةَ ، وأول من بايع البراء بن معرور ، ثم تتابع الناس ، وكانوا ثلاثةً وسبعين رجلاً وامرأتين ، وقيل : سبعين .

أسماء النقباء رضي الله عنهم :

أبو أمامة أسعد بن زُرارة ، عبد الله بن رواحة ، سعد بن الربيع ، رافع بن مالك بن العَجْلان ، البراء بن معرور ، سعد بن عبادة ، عبد الله بن عمرو بن حرام ـ والد جابر ، وكان إسلامه ليلتئذ ـ والمنذر بن عمرو، وعبادة بن الصامت ، هؤلاء من الخزرج ، ومن الأوس : أُسَيْد بن حُضَيْر ، وسعد بن خَيْثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر ، وعَدَّ بعضهم بدل رفاعة أبا الهيثم بن التيهان ، وعلىٰ ذلك عمل كعب بن مالك حيث يقول في جوابه لأُبي بن خلف وأبي سفيان حين كتبا إلى الأنصار في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من الطويل]

أَبْلِغْ أُبَيّاً أَنَّهُ فَالَ رَأْيُهُ ... وَحَانَ غَدَاةَ ٱلشِّعْبِ وَٱلْحَيْنُ وَاقِعُ (١)

أَبَى ٱللهُ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ إِنَّهُ ... بِمِرْصَادِ أَمْرِ ٱلنَّاسِ رَاءٍ وَسَامِعُ

وَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا ... بِأَحْمَدَ نُورٌ مِنْ هُدَى ٱللهِ سَاطِعُ

فَلاَ تَرْغَبَنْ فِي حَشْدِ أَمْرٍ تُرِيدُهُ ... وَأَلِّبْ وَجَمِّعْ كُلَّ مَا أَنْتَ جَامِعُ

وَدُونَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّ نَقْضَ عُهُودِنَا ... أَبَاهُ عَلَيْكَ ٱلرَّهْطُ حِينَ تَبَايَعُوا

أَبَاهُ ٱلْبَرَاءُ وَٱبْنُ عَمْرٍو كِلاَهُمَا ... وَأَسْعَدُ يَأْبَاهُ عَلَيْكَ وَرَافِعُ

وَسَعْدٌ أَبَاهُ ٱلسَّاعِدِيُّ وَمُنْذِرٌ ... لِأَنْفِكَ إِنْ حَاوَلْتَ ذَلِكَ جَادِعُ (٢)

وَمَا ٱبْنُ رَبِيعٍ إِنْ تَنَاوَلْتَ عَهْدَهُ ... بِمُسْلِمِهِ لاَ يَطْمَعَنْ ثَمَّ طَامِعُ

---

(١) فال : خاب وبطل ، والحَيْنُ : الهلاك .
(٢) الجادع : القاطع .

وَأَيْضـاً فَـلاَ يُعْطِيكَـهُ ٱبْـنُ رَوَاحَـةٍ ... وَإِخْفَـارُهُ مِـنْ دُونِـهِ ٱلسُّمُّ نَـاقِـعُ (١)

وَفَـاءً بِـهِ وَٱلْقَـوْقَلِـيُّ ٱبْـنُ صَـامِـتٍ ... بِمَنْـدُوحَـةٍ عَمَّـا تُحَـاوِلُ بَـاقِـعُ (٢)

أَبُــو هَيْثَــمٍ أَيْضــاً وَفِــيٌّ بِمِثْلِهَــا ... وَفَـاءً لِمَـا أَعْطَـىٰ مِـنَ ٱلْعَهْـدِ خَـانِـعُ

وَمَـا ٱبْـنُ حُضَيْـرٍ إِنْ أَرَدْتَ بِمُطْمِـعٍ ... فَهَـلْ أَنْـتَ عَـنْ أُحْمُـوقَـةِ ٱلْغَـيِّ نَـازِعُ

وَسَعْـدٌ أَخُـو عَمْـرِو بْـنِ عَـوْفٍ فَـإِنَّـهُ ... ضَـرُوحٌ بِمَـا حَـاوَلْـتَ مِـلأَمْـرِ مَـانِـعُ (٣)

أُولاَكَ نُجُـــومٌ لاَ يُغِبُّـــكَ مِنْهُـــمُ ... عَلَيْكَ بِنَحْسٍ فِي دُجَى ٱللَّيْلِ طَالِعُ

وأنشدنا فيهم الشيخ العلامة الذكي الولي نجل العلماء وفخر الأدباء الصديق بن محمد المقري المعروف والده بالمدوّح ، وكنت سألته ذلك فقال : [من الرجز]

سَــأَلْتَنِـي نَظْـمَ أَسَـامِـي ٱلنُّقَبَـا ... أَلْفَـاضِلِيـنَ ٱلْمَـاجِـدِيـنَ ٱلأُدَبَـا

رُؤُوسِ أَنْصَــارِ ٱلنَّبِــيِّ أَحْمَــدِ ... أَهْـلِ ٱلسَّمَـاحِ وَٱلْحِجَـىٰ وَٱلسُّـؤْدَدِ

أَعْــدَادُهُــمْ إِثْنَــا عَشَــرْ نَقِيبَــا ... كَـٱلنُّقَبَـاءِ مِـنْ بَنِـي يَعْقُـوبَـا

تَبَـايَعُـوا بِـٱللَّيْـلِ عِنْـدَ ٱلْعَقَبَـةْ ... مَنْقَبَــةٌ مَــا مِثْلُهَــا مِــنْ مَنْقَبَــةْ

فَتِسْعَـةٌ هُـمْ مِـنْ رُؤُوسِ ٱلْخَـزْرَجِ ... كَـأَسْعَـدٍ نِعْـمَ رَجَـاءُ ٱلْمُـرْتَجِـي

وَمُنْــــذِرٍ وَرَافِــــعٍ وَسَعْــــدِ ... اِبْــنِ ٱلــرَّبِيــعِ وَٱلْبَـرَا ذِي ٱلْمَجْـدِ

وَعُــــدَّ مَــــنْ عُبَــادَةٌ أَبُــــوهُ ... سَعْــــدٌ وَعَبْــــدُ ٱللهِ فَــٱنْسُبُــوهُ

ذَاكَ أَبُــو جَـابِـرٍ خَيْـرُ ثَـابِـتِ ... فِي ٱلْحَرْبِ مَعْ عُبَادَةَ بْنِ ٱلصَّامِتِ

وَإِنْ تَسَلْنِــي عَــنْ شَهِيــدِ مُــوتَــةْ ... فَــــذَاكَ عَبْــــدُ ٱللهِ إِنْ نَسِيتَــــهْ

وَٱلأَوْسُ مِنْهُــمْ وَاحِــدٌ وَثَــانِــي ... وَثَــالِــثٌ فَــاقَــتْ بِــهِ ٱلْمَعَــانِــي

فَمِنْهُــــمُ رِفَــــاعَــــةٌ وَسَعْــــدُ ... وَٱبْــنُ حُضَيْـرٍ مَـنْ نَمَـاهُ ٱلْمَجْـدُ

---

(١) **الإخفار** : نقضُ العهد ، **والناقع** : الثابت .

(٢) **بمندوحة** : أي : بمتَّسع ، **والباقع** : البعيد .

(٣) **الضّرُوح** : المانع والدافع عن نفسه ، **ومِلأَمْر** : أصله من الأمر حذفت النون وألف الوصل .

أُسَيْدُ مَنْ قَامُوا لَهُ قِيَامَا ... لِأَنَّهُ أَبْرَكُهُمْ إِسْلَامَا

هُمْ هَؤُلَاءِ ٱلنُّقَبَا ٱلإِثْنَا عَشَرْ ... خِيرَةُ خَلْقِ ٱللهِ مِنْ خَيْرِ ٱلْبَشَرْ

صَلَّىٰ عَلَيْهِ ٱللهُ ثُمَّ سَلَّمَا ... مَا دَامَتِ ٱلأَرْضُ وَمَا دَامَ ٱلسَّمَا

وَٱلآلِ وَٱلأَصْحَابِ وَٱلأَزْوَاجِ ... مَا غَطْمَطَ ٱلْعَجَاجُ بِٱلأَمْوَاجِ[1]

وروي : أن جبريل عليه السلام كان إلىٰ جنب النبي صلى الله عليه وسلم عند مبايعتهم وهو يشير إليهم واحداً بعد واحد .

قال مالك : وكنت أعجب كيف جاء هـٰذا : رجلان من قبيلة ورجل من أخرى ؟! حتىٰ حُدِّثت بهـٰذا الحديث ، وأن جبريل هو الذي ولاَّهم وأشار بهم ، فعلمت[2] .

ولما تمت البيعة . . صاح إبليس ـ لعنه الله ـ صيحةً منكرةً مشبِّهاً صوته بصوت مُنبه بن الحجاج السَّهمي : يا أهل منىٰ ؛ هـٰذا محمد وأهل يثرب قد اجتمعوا لحربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيْ عَدُوَّ ٱللهِ ؛ أَمَا وَٱللهِ لأَفْرُغَنَّ لَكَ » ثم تفرقوا ، فلما أصبحوا . . غدت عليهم رؤساء قريش فقالوا : يا معشر الخزرج ؛ بلغنا أنكم جئتم إلىٰ صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه علىٰ حربنا ، وإنه والله ما حيٌّ من العرب أبغض إلينا من أن تَنْشَب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فحلف له مشركو الأنصار : ما كان من هـٰذا شيء ولا علمناه ، وصَدَقُوا : لم يعلموا ، وداروهم بالقول ثم تفرقوا ، وتفرق الناس من منىٰ .

ثم فَتَّشت قريش عن الخبر فوجدوه قد كان ، فخرجوا في طلب القوم ففاتوهم ، وأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو بأَذاخِر ، فأعجزهم المنذر ، وأدركوا سعداً فرجعوا به إلىٰ مكة أسيراً يضربونه ، فاستنقذه منهم جبير بن مطعم والحارث بن حرب بن أمية لصنائع كانت لسعدٍ في رقابهما .

فقال ضِرار بن الخطاب الفِهْري يفتخر بما فعلوا بسعد ، وهو أول شعر قيل بعد الهجرة :

[من الطويل]

تَدَارَكْتُ سَعْداً عَنْوَةً فَأَخَذْتُهُ ... وَكَانَ شِفَاءً لَوْ تَدَارَكْتُ مُنْذِرَا

---

(١) الغَطْمَطَةُ : التطام الأمواج واضطرابها .

(٢) انظر « الروض الأنف » (٤/٧٦ـ٧٧) .

وَلَـوْ نِلْتُـهُ طُلَّـتْ هُنَـاكَ جِـرَاحُـهُ   وَكَـانَ حَقِيقـاً أَنْ يُهَـانَ وَيُهْـدَرَا [1]

فأجابه حسان بن ثابت رضي الله عنه :   [من الطويل]

وَلَسْـتَ إِلَـىٰ سَعْـدٍ وَلاَ ٱلْمَـرْءِ مُنْـذِرٍ   إِذَا مَـا مَطَـايَـا ٱلْقَـوْمِ أَصْبَحْـنَ ضُمَّـرَا

فَلَـوْلاَ أَبُـو وَهْـبٍ لَمَـرَّتْ قَصَـائِـدٌ   إِلَـىٰ شَـرَفِ ٱلْبَـرْقَـاءِ يَهْـوِيـنَ حُسَّـرَا [2]

أَتَفْخَـرُ بِـٱلْكِتَّـانِ لَمَّـا لَبِسْتَـهُ   وَقَـدْ تَلْبَـسُ ٱلأَنْبَـاطُ رِيطـاً مُقَصَّـرَا [3]

فَـلاَ تَـكُ كَـٱلْـوَسْنَـانِ يَحْلُـمُ أَنَّـهُ   بِقَـرْيَـةِ كِسْـرَىٰ أَوْ بِقَـرْيَـةِ قَيْصَـرَا

وَلاَ تَـكُ كَـٱلثَّكْلَـىٰ وَكَـانَـتْ بِمَعْـزِلٍ   عَـنِ ٱلثُّكْـلِ لَـوْ كَـانَ ٱلْفُـؤَادُ تَفَكَّـرَا [4]

وَلاَ تَـكُ كَـٱلشَّـاةِ ٱلَّتِـي كَـانَ حَتْفُهَـا   بِحَفْـرِ ذِرَاعَيْهَـا فَلَـمْ تَـرْضَ مَحْفَـرَا

وَلاَ تَـكُ كَـٱلْغَـاوِي فَـأَقْبَـلَ نَحْـرَهُ   وَلَـمْ يَخْشَـهُ سَهْـمٌ مِـنَ ٱلنَّبْـلِ مَضْمَـرَا

فَـإِنَّـا وَمَـنْ يُهْـدِي ٱلْقَصَـائِـدَ نَحْـوَنَـا   كَمُسْتَبْضِـعٍ تَمْـراً إِلَـىٰ أَهْـلِ خَيْبَـرَا

فلما كان ذلك . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إِنَّ ٱللهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَاناً وَدَاراً تَأْمَنُونَ فِيهَا » .

فأول من هاجر إلى المدينة بعد العقبة : أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثم عامر بن ربيعة ، ثم عبد الله بن جحش ، ثم تتابعوا أرسالاً وآحاداً وأثلاثاً ، فلقوا من الأنصار داراً وجواراً ، وآثروهم علىٰ أنفسهم في أقواتهم ، وقاسموهم أموالاً ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفهم ينتظر الإذن في الهجرة ، ولم يتخلف معه أحد إلا مَنْ حُبس أو فُتن ، إلاَّ عليّ بن أبي طالب وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما ؛ فإنهما حَبَسا أنفسهما علىٰ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمَّا أبو بكر . . فصحبه في هجرته ، وأما علي بن أبي طالب رضي الله

---

(١) **طُلَّت** : ذهبت هدراً .

(٢) في « ديوان حسان بن ثابت » (١/ ٢٢٤) : (علىٰ شرف) ، و**البرقاء** : حجارة ورمل مختلطة ، و**حُسَّراً** : مكشوفات .

(٣) **الأنباط** : قوم من العجم ، و**الريط** : الملاحف البيض ، و**مُقَصَّرا** : أي قصرت بالمِقصرة ، وهي خشبة القصار .

(٤) **الثكلىٰ** : من مات عنها ولدها .

عنه . . فتخلف عنه قليلاً بأمره لأمر اقتضىٰ ذلك علىٰ ما سيأتي خبره إن شاء الله تعالىٰ .

ولما رأت قريش ما لقي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من طيب الحال وحسن الجوار من الأنصار . . رَهِبوا ذلك ، وحَذِروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في أمره ، فتصور لهم إبليس في صورة شيخ نجدي مشاركاً لهم في الرأي ، فتحدثوا أن يربطوه في الحديد ويغلقوا دونه الأبواب حتىٰ يموت ، أو أن يخرجوه من بين أظهرهم فيستريحوا منه ، أو أن يجمعوا من كل قبيلة رجلاً فيقتلونه دَفْعةً واحدةً فيفترق دمه في القبائل حتىٰ يَعجِز قومه عن طلب الثأر ، وهو رأي أبي جهل ، فحسَّنه لهم الشيخ النجدي ، وتفرقوا علىٰ ذلك .

ولما قصدوا لذلك . . أخبر جبريل النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وأمره أن يغير فِراشه ، فقال النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : « نَمْ عَلَىٰ فِرَاشِي ، وَتَسَجَّ بِبُرْدِي هَـٰذَا ٱلْحَضْرَمِيِّ ٱلأَخْضَرِ فَنَمْ فِيهِ ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ » .

ولما قعدوا علىٰ بابه لذلك . . خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده حَفْنة من التراب ، وجعل ينثرها علىٰ رؤوسهم وهو يتلو صدر (سورة يس) فأتاهم آت فقال لهم : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً ، قال لهم : خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك رجلاً منكم إلاَّ وقد وضع[1] علىٰ رأسه تراباً ، فتفقدوا ذلك فوجدوه كما قال ، ثم نظروا إلى الفراش فوجدوا علياً مُتَسجياً بالبرد ، فبقوا متحيرين حتىٰ أصبحوا ، فقام علي ، فحين رأوه . . قالوا : والله ؛ لقد كان صدقنا الذي حدثنا ، فنزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ .

* * *

(١) في (ج) : (نثر) .

الباب الرابع

في هجرته صلى الله عليه وسلم وما بعدها إلى وفاته

قال المؤلف زكى الله عمله وختم بخير أجله : اعلم ـ رحمك الله وإياي ـ أن هٰذا الباب أوسع تاريخاً من الأبواب قبله ؛ لحلول الجهاد فيه ، وترادف الغزوات ، وانتشار أعلام النبوة وارتفاع صِيتها ، وتوالي الفتوحات ، وخمول أهل البغي والعناد والجهالات ، ووفود العرب من الآفاق المتباينات ، وختام ذلك بوفاته صلى الله عليه وسلم وعلىٰ آله أفضل الصلوات .

قال أهل التواريخ : أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرة ، وفرض عليه الجهاد ، وذلك في سنة إحدىٰ من سني الهجرة ، وهي سنة أربع عشرة من النبوة ، وأربعٍ وخمسين من المولد ، ومنها ابتداء التاريخ الإسلامي ، ففي ربيع الأول منها يوم الإثنين هاجر صلى الله عليه وسلم .

وهٰأنا إن شاء الله تعالىٰ أذكر حديث الهجرة مختصراً من « الصحيحين » مع زيادات من غيرهما معبراً عن تلك الزيادات بصيغة من صيغ التمريض كـ : روي وحكي ونحوهما ، مع احتمال أن يكون بعضها لاحقاً بدرجة « الصحيحين » ، والله المسدد .

فأول ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم لما عقد البيعة مع الأنصار ليلة العقبة . . أقام ينتظر أمر الله سبحانه وتعالىٰ بالهجرة ، وبقوا منتظرين لوروده عليهم في كل حين ، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد خرج قبل ذلك مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتىٰ إذا بلغ بِرْكَ الغِماد . . لقيه ابن الدُّغُنَّة ـ وهو سيد القارة ـ فحكىٰ له ما لقي من قومه ، فقال له ابن الدغنة : إن مثلك لا يَخْرج ولا يُخرج ، ارجع فأنا لك جار ، فرجع وارتحل معه حتىٰ قدما مكة ، فأنفذت له قريش جواره بشرط ألاَّ يعلن بقراءته ولا صلاته ، فعمل بشرطهم أياماً ، ثم بدا له أن يعلن فأعلن ، فأخبرت قريش ابن الدُّغُنَّة ، فقدم عليه ولازمه علىٰ شرطه الأول أو يرد عليه جواره ، فرد عليه أبو بكر ذمته ورضي بجوار الله عز وجل .

وتجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَلَىٰ رِسْلِكَ ؛

فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي » فاحتبس أبو بكر لذلك ، وعلف راحلتين كانتا عنده الخَبَطَ أربعة أشهر[١] .

قالت عائشة رضي الله عنها : فبينما نحن يوماً جلوس في نَحْرِ الظهيرة[٢] . . قال قائل لأبي بكر : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فدىً له أبي وأمي ، والله ؛ ما جاء به في هـٰذه الساعة إلا أمر .

فلما دخل صلى الله عليه وسلم . . قال لأبي بكر : « أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ » فقال : إنما هم أهلك ، قال : « فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي ٱلْخُرُوجِ » قيل : بكىٰ أبو بكر حينئذ فرحاً وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فخذ إحدىٰ راحلتيَّ هاتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بِٱلثَّمَنِ » .

قالت عائشة رضي الله عنها : فجهزناهما أحثَّ الجَهاز[٣] ، وصنعنا لهما سُفْرةً في جراب[٤] ، فقطعتْ أسماء بنت أبي بكر قِطْعة من نطاقها[٥] فربطت بها علىٰ فم الجراب ، فبذلك سُمِّيت : ذاتَ النطاقين ، واستأجرا رجلاً من بني ٱلدُّئِل دليلاً ماهراً ، قيل : اسمه عبد الله بن أُرَيْقِط ، وهو يومئذ كافر ، ولا يعرف له فيما بعد إسلامٌ ، فأَمِناه ، ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليال ، ثم لحقا بالغار فمكثا فيه ثلاثاً يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ[٦] ، فيُدْلج من عندهما بسَحَرٍ فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يُكَادَان به . . إلاَّ وعاه حتىٰ يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعىٰ عليهما عامرُ بن فهيرة مولىٰ أبي بكر مِنْحةً[٧] من غنم فيُرِيحها عليهما عشاء ويَنْعِق بها[٨] من عندهم بغَلَسٍ[٩] .

---

(١) الخَبَطُ : ورق الشجر .
(٢) نَحْرُ الظهيرة : وقت زوال الشمس .
(٣) في (ج) : (أحبَّ) .
(٤) السُّفرة : طعام المسافر ، والجِراب : وعاء الزاد .
(٥) النِّطاق : شُقَّة من ملابس النساء .
(٦) الثَّقِفُ و اللَّقِنُ : من يفهم الحديث بسرعة .
(٧) المنحة : الشاة أو الناقة .
(٨) النَّعيقُ : صوت الراعي بغنمه .
(٩) الغَلَسُ : ظلمة آخر الليل .

قيل : وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست بما يُصلحهما ، وطلبهم المشركون بجميع وجوه الطلب ، ومروا علىٰ غارهما فلم يأبنوه بشيء[١] ، ففي « البخاري » : عن أبي بكر قال : رفعت رأسي ؛ فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلت : يا رسول الله ؛ لو أن بعضهم[٢] طأطأ بصره.. رآنا! قال : « اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ ، اِثْنَانِ ٱللهُ ثَالِثُهُمَا »[٣] .

وبعد الثلاث جاءهم الدليل بالراحلتين فارتحلوا ، فكانوا ثلاثة ركب : النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، والدليل ، وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما ، فأخذ بهم طريق السواحل .

وأخذت قريش عليهم بالرصد والطلب ، وجعلوا دية كل واحد منهما لمن أسره أو قتله .

قال أبو بكر رضي الله عنه : أُخِذ علينا بالرصد ، فخرجنا ليلاً ، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتىٰ قام قائم الظهيرة[٤] ، ثم رفعت لنا صخرة فآتيناها ، ولها شيء من ظل ، قال : ففرشت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فَرْوةً معي ثم اضطجع ، ثم انطلقت أَنْفُض ما حوله ؛ فإذا أنا براع قد أقبل في غنيمة يريد من الصخرة مثل الذي أردنا ، فسألته : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : أنا لفلان ، فقلت له : فهل في غنمك من لبن ؟ قال : نعم ، قلت له : هل أنت حالب ؟ قال : نعم ، فأخذ شاةً من غنمه ، فقلت له : انفُض الضرع .

قال : فحلب كُثْبةً[٥] من لبن ، ومعي إداوة من ماء عليها خرقة قد روَّأتها[٦] لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصببت على اللبن حتىٰ بَرَد أسفله ، ثم أتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتىٰ رضيت .

ثم ارتحلنا بعدما زالت الشمس ، والطلب في أثرنا ، واتبعنا سُراقة بن مالك بن جعشم

---

(١) **لم يأبنوه** : لم يعيبوه .
(٢) في (ب) : (أحدهم) .
(٣) البخاري (٣٩٢٢) .
(٤) **قائم الظهيرة** : نصف النهار .
(٥) **الكثبة** : القليل من اللبن قدر قدح .
(٦) **روَّأتها** : أي تأنَّيت بها حتىٰ صلحت .

ونحن في جَلَد من الأرض[1] ، فقلت : يا رسول الله ؛ أُتِينا ، فقال : « لاَ تَحْزَنْ إِنَّ ٱللهَ مَعَنَا » فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتطمت فرسه إلىٰ بطنها[2] ، فقال : إني قد علمت أنكما دعوتما عليَّ ، فادعوا لي واللهُ لكما أن أرد عنكما الطلب ، فدعا الله فنجا ، فرجع لا يلقىٰ أحداً إلاَّ قال : قد كفيتُكم ما هٰهنا ، فلا يلقىٰ أحداً إلاَّ رده ، قال : ووَفىٰ لنا[3] .

وروي : أنهم مروا علىٰ خيمتي أم معبد الخزاعية ثم الكعبية ، فسألوها الزاد فلم يصيبوا عندها شيئاً ، وكانوا مُسْنِتِين[4] ، فنظر رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إلىٰ شاة في خيمتهم ، وسألها : « هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ » قالت : هي أجهد من ذلك ، إنما خلفها عن الغنم الجَهْد ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح بيده ضرعها وسمى الله تعالى ، ودعا لها في شاتها ، فتفاجَّتْ عليه ودرَّت[5] ، ودعا بإناء يُرْبِض الرهطَ[6] ، فحلب وسقاها وسقىٰ أصحابه وشرب آخرهم ، ثم ملأه وغادره عندها ، وبايعها وارتحلوا عنها .

وأصبح صوت بمكة عال يسمعونه ولا يدرون من صاحبه[7] ـ قيل : هو من الجن ـ وهو يقول :

[من الطويل]

جَـزَى ٱللهُ رَبُّ ٱلنَّـاسِ خَيْـرَ جَـزَائِـهِ ... رَفِيقَيْـــنِ قَـــالاَ خَيْمَتَـــيْ أُمِّ مَعْبَـــدِ[8]

هُمَـا نَـزَّلاَهَـا بِـٱلْهُـدَىٰ فَـٱهْتَـدَتْ بِـهِ ... فَقَـدْ فَـازَ مَـنْ أَمْسَـىٰ رَفِيـقَ مُحَمَّـدِ

فَيَـــالَ قُصَـــيٍّ مَـــا زَوَى ٱللهُ عَنْكُـــمُ ... بِـهِ مِـنْ فَخَـارٍ لاَ يُجَـارَىٰ وَسُـؤْدَدِ[9]

لِيَهْـنِ بَنِـي كَعْـبٍ مَكَـانُ فَتَـاتِهِـمْ ... وَمَقْعَـدُهَـا لِلْمُـؤْمِنِيـنَ بِمَـرْصَـدِ

---

(١) الجَلَدُ : الأرض الصلبة .
(٢) ارتطمت : غاصَت قوائمها .
(٣) البخاري (٣٦١٥) .
(٤) أي : مُجْدِبين أصابتهم السنة ، وهي القحط والجدب .
(٥) تَفَاجَّ : بالغ في توسيع ما بين رجليه .
(٦) يُرْبِض الرهط : يرويهم .
(٧) في (ج) : (ولا يرون من صاح به) .
(٨) قالا : من القيلولة .
(٩) ما زوى الله عنكم : ما أبعد الله عنكم .

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُمُ إِنْ تَسْأَلُوا ٱلشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ ... لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرَّةُ ٱلشَّاةِ مُزْبِدِ[1]

قيل : ولما هبطوا العَرْج[2] . . أبطأ عليهم بعض ظهرهم ، فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقال له : أوس بن حُجْر علىٰ حمل له اسمه الرداح أو الرداء ، وبعث معه غلاماً يقال له : مسعود بن هُنَيدة ، ثم سلكوا من العرج ثنية العائر[3] عن يمين رَكُوبة ، وهبطوا بطن رِيم ، ثم قدموا قُباء علىٰ بني عمرو بن عوف .

وفي « صحيح البخاري » : أنه لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة . . فكانوا يَغْدُون كل غداة إلى الحَرَّة فينتظرونه حتىٰ يردَّهم حرُّ الظهيرة ، وانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما أَوَوْا إلىٰ بيوتهم . . أَوْفىٰ رجلٌ من يهود علىٰ أُطُم من آطامهم[4] لأمر ينظر إليه ، فبَصُر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مُبيَّضين[5] يزول بهم السَّراب ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلىٰ صوته : يا معشر العرب ؛ هـٰذا جَدكم الذي تنتظرون ، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بظَهْر الحَرَّة ، فعدل بهم ذات اليمين حتىٰ نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، قيل : لثنتي عشرة منه ، وقيل : لثمان .

فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَيِّي أبا بكر حتىٰ أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتىٰ ظلَّل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك .

فلبث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة ليلة ، وقيل : ثلاثاً ، وقيل : خمساً ، وأَسَّس المسجد الذي أسس على التقوىٰ ، وصلىٰ فيه رسول الله صلى الله عليه

---

(١) **الحائل** : غير الحامل ، **والصريح** : اللبن الخالص ، **والضَّرَّةُ** : أصل الضرع .
(٢) **العَرْجُ** : قرية جامعة في واد من نواحي الطائف ، وهي أول تهامة . « شرح البهجة » (١/ ١٥٢ـ ١٥٣) .
(٣) في (أ) : (الغائر) .
(٤) **الأُطُمُ** : الحصن .
(٥) أي : عليهم الثياب البيض .

وسلم[١] ، قيل : وكان مِربداً لكلثوم بن الهِدْم[٢] ، وورد في فضله أحاديث كثيرة ، وكان رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يأتيه في كل إثنين وخميس راكباً وماشياً ، فيصلي فيه ، وأثنى الله سبحانه عليه وعلىٰ أهله بالطهارة ، وهو أول مسجد بني في الإسلام .

قيل : وكان نزوله بقُباء علىٰ كلثوم بن الهِدْم ، وقيل : علىٰ سعد بن خيثمة .

وسار من قُباء يوم الخميس ، وقيل : يوم الجمعة ، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف ، فصلاها في بطن وادي رَانُونَاء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

قلت : واتخذ موضع مصلاّه مسجداً ، وسمي مسجد الجمعة ، وهو مسجد عِتبان بن مالك الذي شكىٰ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يحول بينه وبين السيل .

ولما ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قُباء . . كان كلما حاذىٰ أو مر علىٰ دار من دور الأنصار . . اعترضوه ولزموا بزمام ناقته يقولون : هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة ، فيقول لهم : « خَلُّوا سَبِيلَهَا ؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » وقد أرخىٰ لها زمامها وما يحركها ، وهي تنظر يميناً وشمالاً ، والناس كنفيها ، حتىٰ بركت حيث بركت علىٰ باب مسجده ، ثم ثارت وهو عليها فسارت حتىٰ بركت علىٰ باب أبي أيوب الأنصاري ، ثم التفتت يميناً وشمالاً ، ثم ثارت وبَرَكت في مَبْرَكها الأول ، وألقت جِرانها بالأرض[٣] ، وأرزمت[٤] ، فنزل عنها وقال : « هَـٰذَا ٱلْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ » .

فاحتمل أبو أيوب رَحْله وأدخله بيته ، فاختار الله له ما كان يختاره ، فقد كان يحب النزول علىٰ بني النجار ؛ لنسبه فيهم ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خَيْرُ دُورِ ٱلأَنْصَارِ : دَارُ بَنِي ٱلنَّجَّارِ ؛ فَهُمْ أَوْسَطُ دُورِ ٱلأَنْصَارِ ، وَأَخْوَالُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ » .

ولم يزل صلى الله عليه وسلم في منزل أبي أيوب الأنصاري حتى ابتنىٰ مسجده ومساكنه صلى الله عليه وسلم ، قيل : كانت إقامته عنده شهراً .

---

(١) البخاري (٣٩٠٦) .
(٢) **المِرْبَدُ** : الموضع الذي يجفف فيه التمر ، أو الموضع الذي تحبس فيه الإبل أو الغنم .
(٣) **الجران** : مقدم عنق البعير من مذبحه إلىٰ منحره .
(٤) **أَرزَمَتْ** : صَوَّتَتْ بدون فتح الفم .

ولما اطمأن صلى الله تعالىٰ عليه وسلم . . اشتد سرور الأنصار به ، وأظهروا الأسف علىٰ ما فاتهم من نصره ، ففي ذلك يقول أبو قيس صِرْمة بن أبي أنس أحد بني عدي بن النجار رضي الله عنه : [من الطويل]

ثَوَىٰ فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً … يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَىٰ صَدِيقاً مُوَاتِيَا

وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ ٱلْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ … فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا

فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ ٱللهُ دِينَهُ … فَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَيْبَةَ رَاضِيَا

وَأَلْفَىٰ صَدِيقاً وَٱطْمَأَنَّتْ بِهِ ٱلنَّوَىٰ … وَكَانَ لَهُ عَوْناً مِنَ ٱللهِ بَادِيَا (1)

يَقُصُّ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ … وَمَا قَالَ مُوسَىٰ إِذْ أَجَابَ ٱلْمُنَادِيَا

فَأَصْبَحَ لاَ يَخْشَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ وَاحِداً … قَرِيباً وَلاَ يَخْشَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ نَائِيَا

بَذَلْنَا لَهُ ٱلأَمْوَالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا … وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ ٱلْوَغَىٰ وَٱلتَّآسِيَا

وَنَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ … وَنَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ أَفْضَلُ هَادِيَا

نُعَادِي ٱلَّذِي عَادَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمْ … جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ ٱلْحَبِيبَ ٱلْمُصَافِيَا

أَقُولُ إِذَا أَدْعُوكَ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ … تَبَارَكْتَ قَدْ أَكْثَرْتَ لِاسْمِكَ دَاعِيَا

أَقُولُ إِذَا جَاوَزْتُ أَرْضاً مَخُوفَةً … حَنَانَيْكَ لاَ تُظْهِرْ عَلَيَّ ٱلأَعَادِيَا

فَطَأْ مُعْرِضاً إِنَّ ٱلْحُتُوفَ كَثِيرَةٌ … فَإِنَّكَ لاَ تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا

فَوَٱللهِ مَا يَدْرِي ٱلْفَتَىٰ كَيْفَ يَتَّقِي … إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ ٱللهُ وَاقِيَا

وَلاَ تَحْمِلُ ٱلنَّخْلُ ٱلْمُقِيمَةُ رَبَّهَا … إِذَا أَصْبَحَتْ رِيّاً وَأَصْبَحَ ثَاوِيَا (2)

وكان أبو قيس هـٰذا قد ترهب في الجاهلية ، وهمَّ بالنصرانية واعتزل أمر الجاهلية ،

---

(1) أَلْفَىٰ : وجد ، والنَّوَىٰ : الوجه الذي يقصده المسافر من قرب أو بعد .

(2) في « السيرة النبوية » لابن هشام (٢/ ٥١٢) :

وَلاَ تَخْفَلُ ٱلنَّخْلُ ٱلْمُعِيمَةُ رَبَّهَا . . . .

والمعيمة : العاطشة ، ورِيّا : مروية ، وثاوياً : مقيماً .

ودخل بيتاً له واتخذه مسجداً وقال : أَعبُدُ رب إبراهيم ، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم وهو شيخ كبير فأسلم وحسن إسلامه ، وله أشعار حِسان ، من محاسنها قوله : [من الطويل]

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وَأَصْبَحَ غَادِيَا ... أَلاَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَاتِيَ فَٱفْعَلُوا[1]

فَأُوصِيكُمُ بِٱللهِ وَٱلْبِرِّ وَٱلتُّقَىٰ ... وَأَعْرَاضِكُمْ وَٱلْبِرُّ بِٱللهِ أَوَّلُ

وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلاَ تَحْسُدُونَهُمْ ... وَإِنْ كُنْتُمُ أَهْلَ ٱلرِّيَاسَةِ فَٱعْدِلُوا

وَإِنْ نَزَلَتْ إِحْدَى ٱلدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمْ ... فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ ٱلْعَشِيرَةِ فَٱجْعَلُوا

وَإِنْ نَابَ غُرْمٌ فَادِحٌ فَٱرْفِدُوهُمُ ... وَمَا حَمَّلُوكُمْ فِي ٱلْمُلِمَّاتِ فَٱحْمِلُوا

وَإِنْ أَنْتُمُ أَمْعَرْتُمُ فَتَعَفَّفُوا ... وَإِنْ كَانَ فَضْلُ ٱلْخَيْرِ فِيكُمْ فَأَفْضِلُوا[2]

فَصْلٌ

[في بناء المسجد النبوي الشريف]

اعلم : أن المسجد الشريف في دار بني غَنْم بن مالك بن النجار ، وهو حيث مَبْرَك الراحلة ، وكان كما ورد في الصحيح مِرْبداً للتمر لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو ؛ غلامين يتيمين في حِجر أسعد بن زرارة ، وكان يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ بني النجار فقال : « ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَـٰذَا » فقالوا : لا والله ؛ ما نطلب ثمنه إلاَّ إلى الله ، ولما كان لليتيمين . . لم يقبله إلاَّ بالثمن ، قيل : اشتراه بعشرة دنانير ذهباً دفعها عنه أبو بكر رضي الله عنه .

ثم ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنائه ، وأعانه عليه المسلمون ، وكان ينقل معهم اللَّبِن ويقول : [من الرجز]

هَـٰذَا ٱلْحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ ... هَـٰذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ

فقال قائل من المسلمين : [من الرجز]

لَئِنْ قَعَدْنَا وَٱلنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... لَـذَاكَ مِنَّا ٱلْعَمَلُ ٱلْمُضَلَّلُ

---

(١) الوَصَاةُ : الوصية .
(٢) أمعرتُم : افتقرتم .

وارتجز علي كرم الله وجهه فقال :

لاَ يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ ٱلْمَسَاجِدَا يَدْأَبُ فِيهَا قَائِماً وَقَاعِدَا
وَمَنْ يُرَىٰ عَنِ ٱلْغُبَارِ حَائِدَا

قيل : دخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللَّبِن ، فقال : يا رسول الله ؛ قتلوني ، يحملون عليّ ما لا يحملون ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يَنفُض عنه التراب ويقول : « وَيْحَ ٱبْنِ سُمَيَّةَ! لَيْسُوا بِٱلَّذِينَ يَقْتُلُونَكَ ، إِنَّمَا تَقْتُلُكَ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ »[1] .

وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مُربَّعاً ، وجعل قبلته إلىٰ بيت المقدس ، وطوَّله سبعين ذراعاً في ستين أو يزيد ، وجعل له ثلاثة أبواب ، ولم يُسطِّحوه ، فشكوا الحَر ، فجعلوا خَشَبه وسواريه جذوعاً ، وظَلَّلُوا بالجريد ثم بالخَصَف[2] ، فلمَّا وَكَف . . طينوه بالطين ، وجعلوا وسطه رَحَبةً ، وكان جداره قبل أن يظلل قامةً وشبراً ، وبقي كذلك إلىٰ خلافة عمر رضي الله عنه ، فزاد فيه ، وقال بعضهم : بناه حينئذ أقل من مئة في مئة ، فلما فتح خيبر . . زاد عليه مثله ، والله أعلم .

وأما دار أبي أيوب التي نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقال المطري في « تاريخه » : هي اليوم مدرسة للمذاهب الأربعة ، اشترىٰ عَرْصَتها[3] الملك المظفر أحد بني أيوب بن شادي ، وبناها ووقفها علىٰ أهل المذاهب الأربعة من أهل السنة والجماعة ، ووقف عليها أوقافاً بميَّافَارِقين[4] .

فَصْل

[في ذكر أول من هاجر وبعض مشاهير المهاجرين]

قد قدمنا نقلاً عن أصحاب السير : أن أول من هاجر : أبو سلمة بن عبد الأسد ، وعبد الله بن جحش ، وعامر بن ربيعة ، وفي « صحيح البخاري » عن البراء بن عازب

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧) عن سعد بن مالك رضي الله عنه بنحوه .
(٢) **الخَصَف** : حُصُر تنسج من ورق النخل .
(٣) **العَرْصَة** : كلّ بُقْعة واسعة بين الدُّور ليس فيها بناء .
(٤) **مَيَّافارِقين** : أشهر مدينة بديار بكر .

رضي الله عنه قال : (أول من قدم علينا : مُصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، وكانوا يقرئون الناس ، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فَرَحَهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[1] ونَقْلُ البخاري أولىٰ .

قيل : وحين قدومه صلى الله عليه وسلم. . صعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون : جاء محمد ، جاء رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم .

أما منازلهم في الأنصار. . فإنه نزل عثمان بن عفان علىٰ أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت ، فلذلك كان حسان يحب عثمان حينئذ ويرثيه حين قتل ، ونزل العُزَّاب[2] علىٰ سعد بن خيثمة ، وكان سعد رجلاً عَزَباً فنزل عليه العزاب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل قُباء يخرج إلىٰ بيته فيتحدث فيه مع أصحابه ، ونزل بنو جحش علىٰ عاصم بن ثابت .

ونزل الزبير وزوجته أسماء بنت أبي بكر علىٰ أبي سفيان بن الحارث ، وولد لهما عبد الله بن الزبير في تلك السنة بقباء ، **فكان أولَ مولود ولد للمهاجرين بالمدينة** ، وأول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرح المسلمون به ؛ لأنه قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم .

ونزل مصعب بن عمير علىٰ أسعد بن زرارة ، وقيل : علىٰ خُبَيْب بن عدي ، وعبد الرحمـٰن بن عوف علىٰ سعد بن الربيع ، وسعد بن أبي وقاص علىٰ سعد اليماني[3] ، وطلحة بن عبيد الله علىٰ عمير بن معبد ، وأبو سلمة وزوجته أم سلمة علىٰ عبادة رجل من بني عبيد بن زيد ، وعياش بن أبي ربيعة علىٰ أبي لبابة ، وعثمان بن مظعون وزوجته علىٰ خوات بن جبير ، وعمر بن الخطاب وأخوه زيد ومن تبعه من أصهاره وعشيرته علىٰ رفاعة بن عبد المنذر ، وحمزة وزيد بن حارثة ومن تبعهم علىٰ كلثوم بن الهِدْم .

---

(١) البخاري (٣٩٢٥) .
(٢) في « سيرة ابن هشام » (١/ ٤٨٠) : (الأعزاب) .
(٣) في (ب) : (سعد بن اليماني) .

ونزل أبو بكر علىٰ خارجة بن زيد ، ونزل عليٌّ رضي الله عنه علىٰ عويم بن ساعدة ، وكان أمره النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر أن يتخلف بعده ليؤدي عنه الأمانات والودائع التي كانت عنده ، فتخلف ثلاثاً ، ثم هاجر فأدرك النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بقُباء .

ونزل عتبة بن غَزْوان علىٰ عباد بن بشر ، ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه[1] ـ طفيل وحصين ـ ومِسْطح بن أُثاثة في آخرين علىٰ عبد الله بن سلمة أخي بَلْعَجلان .

فهٰذا من سمي لنا من مشاهير المهاجرين ، وفي بعضهم خلاف ، وكان نزولهم عليهم بالقُرعة كما في حديث أم العلاء الأنصارية ، وهو من أفراد البخاري ، ففيه : أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنىٰ[2] حين قرعت الأنصار علىٰ سكنى المهاجرين[3] ، ونزل كثير منهم الصفة ، وهو موضع مظلل إلىٰ جانب المسجد كالسقيفة ، نزلها مَنْ كان خفيف الحال لا يأوي إلىٰ أهل ولا مال ، فكانوا مرةً سبعين ومرةً أكثر من ذلك .

ولما نزل هٰؤلاء لفقرهم وغربتهم علىٰ هٰؤلاء مع قرارهم وثروتهم . . آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، فآووهم في منازلهم ، وقاسموهم أموالهم ، وآثروهم بأقواتهم ، وتلقوا المكاره دونهم ، وصار أحدهم أرأف وأرحم بنزيله وأخيه في الدين من أخيه في النسب ، واتخذوا ذلك الإخاء والحِلْف والولاء لُحْمةً[4] وسبباً أعلىٰ من كل سبب[5] ، لذلك أثنىٰ[6] الله سبحانه على الفريقين في مواضع متعددة من كتابه العزيز ، وجماع ذلك في الآيات المعمّة لهم ولجميع السابقين واللاحقين من مؤمني هٰذه الأمة ، فقال تعالىٰ في بيان من له الحق في الفيء : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ ، ثم قال في حق الأنصار : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟

---

(١) في (ج) : (وأخوه) .

(٢) **طار لهم** : خرج لهم في القرعة .

(٣) البخاري (٣٩٢٩) .

(٤) **اللُّحْمَةُ** : القرابة .

(٥) في (ج) : (ونسباً أعلىٰ . . .) .

(٦) في النسخ : (ما أثنىٰ) .

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، ثم قال في حق من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ الآية .

فصل

[في بيان أنه لا هجرة بعد الفتح وحكم من تخلف عن الهجرة]

واعلم : أنه ما قبل الله إسلام أحد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلاَّ بالهجرة واللحوق به ، وعاب علىٰ من أمكنه ذلك ولم يهاجر ، وواعد عليه الوعيد العظيم فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية ، ثم استثنىٰ وعذر من لم يمكنه فقال : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كنت أنا وأمي ممن عَذَر الله من المستضعفين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهـٰؤلاء في قنوته فيقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَٱلْوَلِيدَ بْنَ ٱلْوَلِيدَ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، ٱللَّهُمَّ ؛ أَنْجِ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[١] .

ولما فتحت مكة وصارت دار إسلام . . نُسخت الهجرة منها إلى المدينة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ ٱلْفَتْحِ »[٢] وأما حكم الهجرة من غير مكة . . فقد قدمنا ذكره وما يتعلق به عند ذكر هجرة الحبشة[٣] .

ثم بعد الفتح لم يرخص النبي صلى الله عليه وسلم لأحد من مهاجرة مكة في الرجوع إليها للاستيطان ، بل كره لغيرهم من مهاجرة الآفاق الرجوع إلىٰ أوطانهم وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَمْضِ لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ ، وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ »[٤] وتشكىٰ ورثىٰ لمن مات منهم بمكة كسعد بن خولة .

ورخص لهم في حجهم وعمرتهم في إقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكهم ، وبهـٰذا استدل

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) انظر (ص ٩٥) .
(٤) أخرجه البخاري (١٢٩٦) .

أصحابنا أن المسافر إذا نوىٰ ببلدٍ إقامة ثلاثة أيام غير يومي دخوله وخروجه . . لا يعد مقيماً ، ولا ينقطع ترخصه في القصر وغيره .

ولم يطب لهم أيضاً الرجوع في دورهم التي اغتصبها المشركون وباعوها بعد مخرجهم ، حتىٰ قال له أسامة بن زيد عام الفتح : يا رسول الله ؛ أين ننزل غداً إن شاء الله تعالىٰ ، قال : « وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ ؟! »(1) وكان عقيل تخلف عنهم في الإسلام والهجرة ، وباع دورهم ، فلم يرجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شيء منها .

وروي : أنه لما هاجر بنو جحش بأجمعهم . . باع أبو سفيان دارهم ، فذكر ذلك عبدالله بن جحش لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم : « أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ يُعْطِيَكَ ٱللهُ بِهَا دَاراً خَيْراً مِنْهَا فِي ٱلْجَنَّةِ ؟ » قال : بلىٰ ، قال : « فَذَلِكَ لَكَ » ثم كلمه فيها أبو أحمد بن جحش عام الفتح ، فلم يرد عليه شيئاً ، فقال الناس له : إن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يكره لكم أن ترجعوا في شيء من أموالكم أصيب منكم في الله ، فأمسك عن كلام رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم وقال : [من مجزوء الكامل]

أَبْلِـغْ أَبَـا سُفْيَـانَ عَـنْ ... أَمْـرٍ عَـوَاقِبُـهُ نَـدَامَـةْ

دَارَ ٱبْـنِ عَمِّـكَ بِعْتَهَـا ... تَقْضِـي بِهَـا عَنْـكَ ٱلْغَـرَامَـةْ

وَحَلِيفُكُـمْ بِـٱللهِ رَبِّ ... ٱلنَّـاسِ مُجْتَهِـدُ ٱلْقَسَـامَـةْ(2)

إِذْهَـبْ بِهَـا اِذْهَـبْ بِهَـا ... طُـوِّقْتَهَـا طَـوْقَ ٱلْحَمَـامَـةْ

ولما دخل رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مكة عام الفتح عَنْوة ، ورفع عن قريش القتل ، وقد كانت الأنصار ظنوا أنه مستأصلهم قتلاً لسالف إساءتهم . . فتوهموا رجوعه إلىٰ مكة واستيطانها ، فأخذهم من الغيرة والوَجْد ما يأخذ مثلهم علىٰ مثله وقالوا : أما الرجل . . فقد أخذته رأفةٌ بعشيرته ورغبة في قريته ، فأخبره جبريل بمقالتهم ، وحين قررهم النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بذلك . . اعترفوا ، فقال صلى الله تعالىٰ عليه وآله وسلم :

---

(1) أخرجه البخاري (٣٠٥٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه .

(2) **القَسامة** : اليمين .

« كَلاَّ ، إِنِّي عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُولُهُ » وفي رواية قال : « أَلاَ فَمَا ٱسْمِي إِذاً ؟! ـ ثلاث مرات ـ أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُولُهُ ، هَاجَرْتُ إِلَى ٱللهِ وَإِلَيْكُمْ ، فَٱلْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ ، وَٱلْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ » قالوا : والله ؛ ما قلنا إلا ضِنّاً بالله وبرسوله[1] ، قال : « فَإِنَّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذُرَانِكُمْ » رواه مسلم[2] .

فَصْلٌ

[فيما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى اليهود والمنافقين]

ولما تخلص رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأصحابه من أذى المشركين بمكة وصاروا بالمدينة . . وقعوا في محنة أخرىٰ من اليهود ومنافقي الأنصار بالشَّنآن والبغض ، والمَقْت والغيبة ، والسَّم والسحر والغوائل ، لكن من غير مجاهرة ولا مكابرة ؛ تتميماً لامتحانهم ، ووفوراً لأجورهم ، وتحقيقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ فكان الغلبة لهم ، وكان أعداؤهم مكبوتين مقهورين[3] ، يرون في طي الليالي والأيام أنواع المكاره ؛ من ارتفاع شأن الإسلام والمسلمين ، وتجدد فتوحهم وعُلو كلمتهم وظهور دينهم ، فمن ذلك قول عبد الله بن أبيّ وقد رد عليه قومه بعض الأذىٰ لرسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، ورأىٰ منهم ما يكره فقال : [من الطويل]

مَتَىٰ مَا يَكُنْ مَوْلاَكَ خَصْمَكَ لاَ تَزَلْ ... تَـذِلُّ وَيَصْـرَعْـكَ ٱلَّـذِيـنَ تُصَـارِعُ

وَهَـلْ يَنْهَـضُ ٱلْبَـازِي بِغَيْـرِ جَنَـاحِـهِ ... وَإِنْ جُـذَّ يَـوْمـاً رِيشُـهُ فَهْـوَ وَاقِـعُ

وقال سعد بن عبادة وقد شكىٰ إليه النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم يوماً بعض أذاه فقال : يا رسول الله ؛ اعف عنه واصفح ، فوالذي أنزل عليك الكتاب ؛ لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هـٰذه البُحَيْرة[4] علىٰ أن يتوجوه فيعصبونه بالعصابة ،

---

(١) ضِنّاً بك : شُحّاً بك أن نفارقك ويختصَّ بك غيرنا . « شرح البهجة » (١/ ١٦٣) .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) مكبوتين : مردودين بغيظهم .

(٤) البحيرة : القرية .

فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله . . شَرِق بذلك[1] ، فذلك فعل به ما رأيت .

ولما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وأظفره الله . . قال ابن أبيّ ومن معه من المشركين : هٰذا أمر قد توجه ، فأسلموا ظاهراً ، وبقي ناس منهم على النفاق حتىٰ ماتوا ، منهم عبد الله بن أبي .

فصل

[في قدوم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وهي وبيئة]

وقدِم صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأصحابه المدينة وهي أوبأ أرض الله تعالىٰ ، فمرض كثير منهم ، فكان أبو بكر ومولياه عامر بن فهيرة وبلال مرضىٰ في بيت واحد ، فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمىٰ يقول : [من الرجز]

كُـلُّ ٱمْـرِىءٍ مُصَبَّـحٌ فِـي أَهْلِـهِ ... وَٱلْمَـوْتُ أَدْنَـىٰ مِـنْ شِـرَاكِ نَعْلِـهِ

وكان عامر يقول : [من الرجز]

لَقَـدْ وَجَـدْتُ ٱلْمَـوْتَ قَبْـلَ ذَوْقِـهِ ... إِنَّ ٱلْجَبَـانَ حَتْفُـهُ مِـنْ فَـوْقِـهِ

كُـلُّ ٱمْـرِىءٍ مُجَـاهِـدٌ بِطَـوْقِـهِ ... كَـٱلثَّـوْرِ يَحْمِـي جِلْـدَهُ بِـرَوْقِـهِ

وكان بلال يقول : [من الطويل]

أَلاَ لَيْـتَ شِعْـرِي هَـلْ أَبِيتَـنَّ لَيْلَـةً ... بِـوَادٍ وَحَـوْلِـي إِذْخِـرٌ وَجَلِيـلُ

وَهَـلْ أَرِدَنْ يَـوْمـاً مِيَـاهَ مَجَنَّـةٍ ... وَهَـلْ يَبْـدُوَنْ لِـي شَـامَـةٌ وَطَفِيـلُ

ثم يقول : اللهم ؛ العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلىٰ أرض الوباء .

قالت عائشة رضي الله عنها : فذكرت ما سمعت منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلت له : إنهم لَيَهذُون وما يعقلون من شدة الحمىٰ[2] ، قالت : فقال رسول الله

---

(١) أي : لم يقدر علىٰ إساغته والصبر عليه لتعاظمه إياه .

(٢) في (ج) : (الألم) .

صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ حَبِّبْ إِلَيْنَا ٱلْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، وَصَحِّحْهَا لَنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا ، وَٱنْقُلْ حُمَّاهَا فَٱجْعَلْهَا بِٱلْجُحْفَةِ »[1] .

فبعد دعوته صلى الله عليه وسلم . . طاب لهم الحال ، وانصرف عنهم البؤس والوباء ، والإقتار والإقلال ، وتم لهم موعد ربهم فاستخلفهم في الأرض ، ومكن لهم في الدين الذي ارتضىٰ لهم ، وأبدلهم عن الخوف أمناً ، وعن الوحشة أُنساً ، وكره إليهم وحظر عليهم الرجوع إلىٰ مكة ، فصاروا لا يأتونها إلاَّ حجاجاً أو معتمرين ، أو مسافرين علىٰ قدم مستوفزين[2] .

فَصْلٌ

[في ذكر حوادث ما بعد الهجرة مرتباً على السنين]

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واستقر به القرار ، وأقر الله عينه بألفة المهاجرين والأنصار ، وأعز الله جنده باجتماع الكلمة والدار . . أذن الله له في الانتقام من أعدائه والانتصار ، فعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم الألوية للأمراء ، وجهز السرايا وشن الغارات علىٰ من داناه من مشركي العرب ، وحين فَرَغ منهم . . تطاول إلىٰ تخوم الشام وبلاد العجم ، مرةً بنفسه كغزوة تبوك ، ومرةً بسراياه وبعوثه كغزوة مؤتة ، وحتىٰ كتب آخراً إلىٰ ملوك الأقاليم يخيفهم ويهددهم ، ويدعوهم إلىٰ طاعته ، فمنهم من اتبعه علىٰ دينه ؛ كالنجاشي وملوك اليمن وملك عمان ، ومنهم من هادنه وأتحفه بالهدايا ؛ كهرقل وملك أيلة والمقوقس صاحب مصر ، ومنهم من تَعَصَّىٰ فأظفره الله به .

ووفدت عليه الوفود من جميع الجهات ، وقال صلى الله عليه وسلم : « زُوِيَتْ لِي ٱلأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا »[3] وقال : « أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ ٱلأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ »[4] فكان تمام ذلك علىٰ أيدي أصحابه الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٨٩) ، ومسلم (١٣٧٦) .

(٢) **مستوفزين** : غير مطمئنين .

(٣) أخرجه أبو داوود (٤٢٥٢) عن ثوبان بن بجدد رضي الله عنه ، وزويت : طويت .

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وها نحن نذكر إن شاء الله تعالىٰ حوادث ما بعد هجرته صلى الله عليه وسلم مرتباً على السنين كما سبق ، وبالله سبحانه التوفيق .

ففي السنة الأولىٰ

بَنَىٰ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم مسجده ومساكنه ، وكتب الكتاب بين المهاجرين والأنصار ، وفيه : أنهم أمة واحدة من دون الناس ، وأن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم ، وما كان بينهم من حدث أو اشتجار يخاف فساده . . فإن مرده إلى الله وإلىٰ محمد رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم .

وفيها : وادع يهود ، وشرط عليهم ولهم ، وألحق كل قبيلة منهم بحلفائهم من الأنصار ، ثم آخىٰ صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بين المهاجرين فقال لهم : « تَآخَوْا فِي ٱللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ » ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : « هَـٰذَا أَخِي » ثم آخىٰ أيضاً بينهم وبين الأنصار ، وجملة من تآخىٰ من الفريقين تسعون رجلاً ؛ خمسة وأربعون من المهاجرين ، ومثلهم من الأنصار ، وقيل : جملتهم ثلاث مئة ، والله أعلم .

وفيها : بعث صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبا رافع مولياه إلىٰ مكة ليأتيا ببناته وزوجته سودة بنت زمعة ، وبعث معهم أبو بكر عبد الله بن أريقط لعائشة وأمها ، فجاؤوا بهم ، وصحبهم طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم .

وفي « سيرة ابن هشام » : أن زينب إنما لحقت بأبيها بعد وقعة بدر ؛ وذلك أن زوجها أبا العاص بن الربيع استؤسر ببدر ، فأطلقه النبي صلى الله عليه وسلم بغير فداء ، وأخذ عليه أن يخلي سبيل زينب إليه ، وبعث صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ، وقال لهما : « كُونَا بِبَطْنِ يَأْجِجَ حَتَّىٰ تَمُرَّ بِكُمَا زَيْنَبُ »[1] فلما قدم أبو العاص مكة . . بعث بها مع أخيه كنانة بن الربيع فألحقها بهما[2] ، وسيأتي خبرها إن شاء الله تعالىٰ في ترجمتها في فصل بناته صلى الله عليه وسلم .

وفيها : صام رسول الله صلى الله عليه وسلم عاشوراء ، وأمر بصومه ، وكانت اليهود

---

(١) أخرجه أبو داوود (٢٦٩٢) عن عائشة رضي الله عنها .
(٢) سيرة ابن هشام (١/٦٥٣) .

والجاهلية يصومونه ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بصومه ، وحض عليه وأكد ، فلما فرض رمضان . . خف ذلك التأكيد وبقي مسنوناً ، وقيل : كان واجباً ثم نسخ برمضان .

وفيها : شرع الأذان ، وكان أول مشروعيته : أنهم لما قدموا المدينة . . تشاوروا فيما يجمعهم للصلاة ، فتآمروا أن يتخذوا ناقوساً أو قرناً أو [بوقاً][1] ، أو يوروا ناراً ، فقال عمر رضي الله عنه : أوَلاَ تبعثون رجلاً ينادي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا بِلاَلُ ؛ قُمْ فَنَادِ بِٱلصَّلاَةِ »[2] .

وظاهر هـٰذا : أنه مجرد إعلام ليس علىٰ صفة الأذان المشروع ، ثم رأىٰ عبد الله بن زيد بن عبد ربه في منامه شخصاً يؤذن بالأذان المشروع ويقيم ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يلقيه علىٰ بلال ، فقال عمر رضي الله عنه : (والذي بعثك بالحق نبيّاً ؛ لقد رأيت مثل الذي رأىٰ) .

قال النووي رحمه الله : فشرعه النبي صلى الله عليه وسلم إما بوحي ، وإما باجتهاده صلى الله عليه وسلم علىٰ مذهب الجمهور في جواز الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم ، وليس هو عملاً بمجرد المنام ، هـٰذا ما لا شك فيه بلا خلاف[3] .

وورد في حديث مسند : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أريه ليلة الإسراء وأسمعه مشاهدة ، ولذلك قال في رؤيا عبد الله بن زيد : « إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٍّ » والله أعلم[4] .

وفيها : أسلم عبد الله بن سلام الإسرائيلي ، وسلمان الفارسي .

وفيها : مات من رؤساء الأنصار أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ـ نَقِيبان ـ وكلثوم بن الهِدْم ، ومن صناديد المشركين من قريش العاص بن وائل والوليد بن المغيرة .

السنة الثانية

قال ابن إسحاق : وفي صفر علىٰ رأس اثني عشر شهراً من الهجرة غزا رسول الله

---

(١) في (ب) : (بوراً) ، وهي ساقطة من بقية النسخ .
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٣) انظر « شرح صحيح مسلم » (٤/٧٦) .
(٤) انظر ما قاله الصالحي رحمه الله في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٣/ ٥٢١ـ ٥٢٤) .

صلى الله تعالىٰ عليه وسلم **غزوة وَدّان** يريد قريشاً وبني ضَمْرة من كنانة ، فوادعه مَخْشِي بن عمرو الضَّمْري ورجع ، وهي أول غزوة غزاها صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة ، وتسمىٰ أيضاً **غزوة الأَبْواء** ، وقال المحب الطبري في « خلاصة السير » : كانت لسنة من الهجرة وشهرين وعشرة أيام[١] ، والله أعلم .

وفيها : حولت القبلة ، وكان تحويلها في صلاة الظهر يوم الثلاثاء نصف شعبان ، وقيل : في رجب علىٰ رأس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة ، وكان ذلك في منازل بني سلمة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم زار امرأةً منهم يقال لها : أم بِشْر ، فصنعت له طعاماً ، فحانت صلاة الظهر ، فصلىٰ بهم ، وأُنزل عليه وهو راكع في الثانية قوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية ، فاستدار صلى الله تعالىٰ عليه وسلم واستدارت الصفوف خلفه ، وتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ، ثم صلىٰ ما بقي من صلاته إلى الكعبة ولم يستأنف ، فسمي ذلك المسجد : مسجد القبلتين[٢] ، وأخبر أهل مسجد قباء بذلك وهم في صلاة الصبح ، فاستداروا كما هم إلى الكعبة ، وبهـٰذا استدل أصحابنا في جواز الصلاة الواحدة إلىٰ جهات متعددة بالاجتهاد .

وكان أمر القبلة **أول منسوخ من أمور الشرع** ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل الهجرة يصلي إلى الكعبة ، فلما هاجر . . استقبل صخرة بيت المقدس ؛ ليكون أقرب إلىٰ تصديق اليهود .

واختلف العلماء : هل كان ذلك بوحي أم باجتهاد ؟ ونقل القاضي عياض رحمه الله عن الأكثرين : أنه كان بسنة لا بقرآن ، ففيه دليل لمن يقول : إن القرآن ينسخ السنة[٣] .

قلت : بل الصواب ـ والله أعلم ـ : أنَّ توجهه إلىٰ بيت المقدس تلك الأشهر كان بوحي من الله ، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ مع ما ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم حين كان يصلي إلىٰ بيت المقدس كان يقول لجبريل عليه السلام : « وَدِدْتُ لَوْ حَوَّلَنِي رَبِّي إِلَى ٱلْكَعْبَةِ ؛ فَإِنَّهَا قِبْلَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ » فقال له جبريل : إنما أنا عبد مثلك ، وأنت

---

(١) خلاصة سير سيد البشر (ص٥٠) .
(٢) راجع « عيون الأثر » (١/٢٧٨ـ٢٧٩) .
(٣) راجع « شرح صحيح مسلم » (٥/٩) .

كريم علىٰ ربك ، فسل أنت ربك ، فإنك عند الله بمكان ، وعرج جبريل ، وجعل صلى الله عليه وسلم يقلب طرفه إلى السماء منتظراً ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية ، وكل هٰذا يدل علىٰ أنه لم يكن باجتهاده ، ويحتمل أن يكون أول ذلك اجتهاداً لموافقة اليهود ؛ رجاء إسلامهم ، ثم نزل الوحي بتقريره ، والله سبحانه أعلم .

وحين عدل صلى الله عليه وسلم قبلة مسجده . . أماط جبريل عليه السلام كل جبل بينه وبين الكعبة فعدلها وهو ينظر إلى الكعبة ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

ولما حولت القبلة . . وقع في ذلك القالة من اليهود ، وارتد من رق إيمانه وقالوا : رجع محمد إلىٰ دين آبائه ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ ﴾ أي : التحويلة ﴿ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ .

وكان قد مات على القبلة الأولىٰ ناس من المسلمين ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالهم في صلاتهم تلك ، فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ أي : في صلاتكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي شعبان منها أيضاً : فرض صيام رمضان ، قيل : كان الواجب قبله صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم عاشوراء ، ثم نسخ ذلك برمضان ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ فكان من شاء . . صام ، ومن شاء . . أفطر وأطعم مسكيناً .

ثم نزلت العزيمة في الصوم بقوله تعالىٰ : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فأوجبه الله على الصحيح المقيم ، وثبتت الرخصة في الإطعام للكبير العاجز .

وكان في ابتداء الأمر إذا أفطروا عند المغرب . . حل لهم كل شيء ما لم يصلوا العشاء أو يرقدوا قبلها ، فإذا صلوا أو رقدوا قبلها . . حرم عليهم كل شيء إلى الليلة القابلة ، فشق ذلك عليهم ، ووقع جماعة منهم في المحظور ؛ منهم عمر بن الخطاب ، فنزل الترخيص في ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ الآية ، فأحل الله لهم ما كان حرم عليهم ، وتاب عليهم وعفا عما سلف منهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (أول ما نسخ بعد الهجرة : أمر القبلة والصوم) .

وقال الشيخ أبو القاسم هبة الله بن سلامة في كتابه « الناسخ والمنسوخ » : اعلم : أن أول النسخ في الشريعة أمر الصلاة ، ثم أمر القبلة ، ثم الصيام ، ثم الزكاة ، ثم الإعراض عن المشركين ، ثم الأمر بجهادهم ، ثم إعلام الله سبحانه وتعالىٰ نبيه ما يفعل به ، ثم أمره تعالىٰ بقتال المشركين ، ثم أمره تعالىٰ بقتال أهل الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ثم ما كان عليه أمر العقود من الموارثة فنسخ بقوله تعالىٰ : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ ، ثم هدم منار الجاهلية ، وألاَّ يخالطوا المسلمين في حجهم ، ثم نسخ المعاهدة التي كانت بينه وبينهم بالأربعة الأشهر بعد يوم النحر ، قال : فهٰذا أكمل الترتيب[1] ، ونزول المنسوخ بمكة كثير ، وأكثر الناسخ مدني ، والله أعلم .

وفي شوال منها : دخل صلى الله عليه وسلم بعائشة وهي بنت تسع سنين ، وكان عقد بها بمكة قبل ذلك وهي بنت ست سنين ، وقيل : سبع ، وعنها قالت : (تزوجني رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في شوال ، وبنىٰ بي في شوال ، فأي نساء رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم كان أحظىٰ عنده مني ؟) وكانت عائشة تستحب أن تُدخِل نساءَها في شوال . رواه مسلم[2] .

وفي صفر منها : تزوج علي فاطمة رضي الله عنهما ولها خمس عشرة سنةً وخمسة أشهر ونصف ، وقيل : ثماني عشرة سنةً ، والله أعلم ، ولعلي رضي الله عنه يومئذ إحدىٰ وعشرون سنةً ، ودخل بها في ذي الحجة بعد وقعة أحد ، وسيأتي خبر تزويج فاطمة وعائشة في موضعه من هٰذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

وفيها : فرضت صدقة الفطر .

قيل : والأصل في وجوبها من كتاب الله تعالىٰ . قوله عز وجل : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ ذهب كثير من المفسرين إلىٰ أن المراد بذلك : زكاة الفطر ، وصلاة العيد بعدها .

---

(١) الناسخ والمنسوخ (ص٢٩) .

(٢) مسلم (١٤٢٣) ، وقال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ عند شرحه هٰذا الحديث : (وقصدت عائشة بهٰذا الكلام ردَّ ما كانت الجاهلية عليه وما يتخيله بعض العوام اليوم من كراهة التزوج والتزويج والدخول في شوال ، وهٰذا باطل لا أصل له ، وهو من آثار الجاهلية ؛ كانوا يتطيرون بذلك ؛ لِما في شوال من الإشالة والرفع) . « شرح صحيح مسلم » (٩/ ٢٠٩) .

قلت : وفيه حديث مرفوع خرجه الدارقطني[1] ، والله أعلم .

واعترض بعضهم علىٰ هـٰذا بأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر ، قال الإمام الحسين بن مسعود البغوي : يحتمل أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما في غيره ، والله أعلم[2] .

وأما من السنة : فما ثبت في « الصحيحين » وغيرهما من رواية ابن عمر رضي الله عنهما قال : (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على الحر والعبد والذكر والأنثىٰ والكبير والصغير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدىٰ قبل خروج الناس إلى الصلاة)[3] .

وفيها : أسلم العباس رضي الله عنه ، وكان أسر ببدر وفادىٰ نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، ثم أسلم عقيب ذلك ، وقد ذكرناه مستوفىً في ترجمته في كتابنا « الرياض المستطابة » والله أعلم[4] .

وفيها : كان من الغزوات والسرايا : سرية عُبَيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، **وهي أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد**[5] ، قيل : بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من غزوة الأبواء قبل أن يصل إلى المدينة ، وكان عددهم ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري ، ولقوا جمعاً من قريش بالحجاز ، فلم يكن بينهم قتال ، إلاَّ أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رَمَىٰ بسهم **فكان أولَ سهم رُمِي به في سبيل الله** ، ثم انصرفوا وللمسلمين حامية ، وفَرَّ إلى المسلمين يومئذ المقداد بن عمرو البَهْراني وعتبة بن غَزْوان المازني ، وكانا من المستضعفين بمكة ، وكان على المشركين يومئذ عكرمة بن أبي جهل ، وقيل : مِكْرَز بن حفص .

---

(١) الدارقطني (٢/ ١٥٠) .
(٢) تفسير البغوي (٤/ ٤٧٧) .
(٣) البخاري (١٥٠٣) ، ومسلم (٩٨٦) .
(٤) الرياض المستطابة (ص٢٠٩ـ ٢١٠) .
(٥) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (١/ ١٧٧) : (هـٰذا مختلف فيه ؛ فإن بعض الناس يقول : راية حمزة أول راية ؛ لأنها كانت علىٰ رأس سبعة أشهر في رمضان خلافاً للمصنف) .

ثم سرية حمزة بن عبد المطلب إلىٰ سِيفِ البحر من ناحية العِيص في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل بذلك الساحل في ثلاث مئة راكب ، فحجز بينهم مَجْدي بن عمرو الجُهَني ، وكان موادعاً للفريقين .

ثم غزوة بُوَاط من ناحية رَضْوىٰ ، قال البكري : وإليها انتهى النبي صلى الله عليه وسلم في غزوته الثانية ، ولم يلق كيداً ، وذلك في شهر ربيع الأول ، واستعمل على المدينة السائب بن مظعون .

وروينا في « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه قال : (سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بُوَاط وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني ، وكان الناضح[1] يعتقبه منا الخمسة والستة والسبعة. . .)[2] ثم ساق فيها الحديث الطويل المشتمل علىٰ معجزات ظاهرة باهرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما رجع منها . . أقام بالمدينة بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولىٰ .

ثم غزوة العُشَيْرة ، وقال ابن سعد : غزا رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ذا العُشَيرة في جمادى الآخرة علىٰ رأس ستة عشر شهراً من مُهاجَره ، في خمسين ومئة ـ وقيل : في مئتين ـ من المهاجرين ، علىٰ ثلاثين بعيراً يعتقبونها ، وحمل لواءه ـ وكان أبيض ـ حمزة بن عبد المطلب ، واستخلف على المدينة أبا سلمة المخزومي ، يطلب عيراً لقريش التي كانت وقعةُ بدر بسببها حين رجعت من الشام ، فبلغ ذا العُشَيرة من بطن يَنْبُع وبين المدينة وبين ينبع تسعة بُرُدٍ ، فوجد العير قد مضت إلى الشام قبل ذلك بأيام ، فوادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضَمْرة ، ثم رجع ولم يلق كيداً[3] .

وفي « صحيح البخاري » : عن زيد بن أرقم أنها أول الغزوات[4] ، وهو خلاف المشهور عن أهل النقل ، وجمع بينهم بأن زيداً أراد أول ما غزوت أنا معه ، وتضعفه رواية مسلم :

---

(١) **الناضح** : البعير .
(٢) مسلم (٣٠٠٩) .
(٣) طبقات ابن سعد (٢/ ٩) .
(٤) البخاري (٣٩٤٩) .

(قلت : فما أول غزوة غزاها ؟ قال : ذات العشير أو العشيرة)[1] والله أعلم .

قال ابن إسحاق : وقد كان بعث رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين ، حتىٰ بلغ الخَرَّار من أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق فيها كيداً .

ثم خرج صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في طلب كُرْزِ بن جابر الفهري ، وكان أغار علىٰ سَرْح المدينة[2] ، وانتهىٰ فيها إلىٰ وادٍ يقال له : سَفْوان من ناحية بدر ، وفاته كُرْزُ بن جابر ، وتُسمىٰ : **بدراً الأولىٰ** .

وفي مَرْجِعه منها بعث ابن عمته عبد الله بن جحش الأَسَدي في ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً أمره فيه أن ينزل بطن نخلة بين مكة والطائف فَيرْصُد بها عير قريش ، ولا يستكرهَنَّ أحداً من أصحابه ، وقال له : « لاَ تَفْتَحِ ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ تَسِيرَ يَوْمَيْنِ » .

فمضىٰ عبد الله ومعه أصحابه لم يتخلف أحد منهم ، إلاَّ أنَّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان تخلفا فوق الفُرُع في طلب بعير لهما أضلاه ، ولما نزلوا نخلة . . مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة وفيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلوا ابن الحضرمي ، وأسروا اثنين ، وَفرَّ واحدٌ ، وذلك آخر يوم من جمادىٰ ، وكانوا يرون أنه من جمادىٰ وهو من رجب ، **وكان ذلك أول قتل وأسر في المشركين ، وأول غنيمة في الإسلام** ، فقال المشركون : قد استحل محمد الشهر الحرام ، وعَيَّروا المسلمين بذلك ، فشق ذلك علىٰ رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، ووَقَّف العيرَ والأسيرين حتىٰ نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ الآية ، فقسم صلى الله عليه وسلم الغنيمة ، ووَقَّف الأسيرين حتىٰ قدم سعد وصاحبه وفاداهم .

ثم غزا النبي صلى الله عليه وسلم **غزوة بدر الكبرىٰ** ، وهي الرابعة من غزواته ، وكانت وقعتها يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان ، وذلك علىٰ رأس سنة من الهجرة وثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة .

---

(١) مسلم (١٢٥٤) .
(٢) **السَّرْحُ** : الإبل والمواشي التي تسرح .

وثبت في عدد المسلمين فيها ما رواه المحدثون في كتبهم واللفظ للبخاري : عن البراء بن عازب قال : (كنا أصحابَ محمد نتحدث أَنَّ عدة أصحاب بدر علىٰ عدة أصحاب طالوتَ الذين جاوزوا معه النهر ـ ولم يجاوز معه إلا مؤمن ـ بضعة عشر وثلاث مئة)[1] فُسِّر البضع هنا بأربعة ، فمن المهاجرين : ثلاثة وثمانون رجلاً ، وبقيتهم من الأنصار ، فمن سائر بطون الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر : أحدٌ وستون ، ومن سائر بطون الخزرج بن حارثة : مئة وسبعون ، وعُدَّ منهم من ضَرَب له رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بسهمه وأجره ولم يحضرها ، فجعله كمن حضرها ، وكان معهم ثمانون بعيراً يعتقبونها ، وفرس واحد للمقداد بن الأسود ، قيل : وآخران للزبير وأبي مَرْثَد الغَنَوي .

وعدد المشركين ما بين التسع مئة والألف ، قيل : تسع مئة وخمسون ، وكان معهم ثمانون فرساً .

وجملة من استشهد بها من المسلمين : أربعة عشر رجلاً ؛ ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار ، وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون .

وتلخيص خبرها علىٰ ما ذكر ابن إسحاق وغيره : أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم سمع بأبي سفيان صخر بن حرب خرج في تجارة إلى الشام معه ثلاثون أو أربعون رجلاً ، فلما فاتته في ذهابها . . طمع بها في إيابها ، وجعل العيون عليها ، فحين جاءه عينه بَسْبَسة[2] بن عمرو الجهني بخبرها . . خرج بمن خف معه من المسلمين ، واستعمل على الصلاة ابن أم مكتوم ، وعلى المدينة أبا لُبَابة ، ودفع لواءَه ـ وكان أبيض ـ إلىٰ مُصْعب بن عُمَيْر العبدري ، وكان له رايتان سوداوان ، إحداهما مع علي رضي الله عنه ، والأخرىٰ بيد رجل من الأنصار .

ثم إن أبا سفيان لما قارب الحجاز . . اشتد خوفه ، وجعل يتحسس الأخبار[3] ، فلما أخبر بمخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . بعث إلىٰ قريش يستنفرهم ، فأوعبت

---

(١) البخاري (٣٩٥٨) .

(٢) في (ج) : (بُسَيْسَة) .

(٣) في (ب) : (يتجسس) .

قريش في الخروج[١] ، فلم يتخلف من بطونها أحد إلاَّ بنو عدي ، ولا من أشرافها إلاَّ أنَّ أبا لهب استأجر مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، فقتل العاص فيمن قتل ، ولم تمتد حياة أبي لهب بعده ؛ رماه الله بالعدسة[٢] بعد مصاب أهل بدر بليال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق وصح له نفير قريش . . استشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير ، وكانت العير أحب إليهم كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم عمر كذلك ، ثم المقداد فأحسن القول وأجاده ، وهو في كل ذلك يقول : « أَشِيرُوا » وإنما يريد الأنصار ؛ لأنهم العدد الكثير ، وأيضاً فكان يتخوف منهم أنهم لا يرون نصرته إلاَّ علىٰ من دهمه بالمدينة كما هو في أصل بيعتهم ليلة العقبة ، وكان إذ ذاك الإيمان قد تمكن في قلوبهم ، وتحققوا وجوب طاعته ، فلو أمرهم بقتل آبائهم وأبنائهم . . لفعلوا .

فقام سعد بن عبادة فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي نفسي بيده ؛ لو أمرتنا أن نُخِيضها البحر . . لأَخَضْناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلىٰ بَرْكِ الغِماد . . لفعلنا ، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ونشطه ، ثم قال : « سِيرُوا عَلَىٰ بَرَكَةِ ٱللهِ ، وَأَبْشِرُوا ؛ فَإِنَّ ٱللهَ وَعَدَنِي إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ ، وَٱللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ ٱلآنَ إِلَىٰ مَصَارِعِ ٱلْقَوْمِ »[٣] .

ولما نزل صلى الله عليه وسلم بدراً . . كان بالعُدْوة الدنيا[٤] وهو شفير الوادي الأدنىٰ من المدينة ، والمشركون بالعدوة القصوىٰ وهو شفير الوادي الأقصىٰ من المدينة ، وكان الركب حينئذٍ أسفل منهم إلىٰ ساحل البحر علىٰ ثلاثة أميال من بدر ، ولا علم عند أحد منهم بالآخر ، وقد حجب الوادي بينهم .

وأول العلم بهم : ما ورد في « صحيح مسلم » : أنه وردت عليهم رَوَايا قريش[٥] وفيهم

---

(١) **أوعبت قريش** : خرجوا كلهم .

(٢) **العَدَسَةُ** : بَثْرَةٌ تخرج في البدن تقتل صاحبها غالباً ، وقال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ : يقال : إنها تشبه الطاعون ، والصحيح : أنها الجدري . « شرح البهجة » (١/ ١٨١) .

(٣) أخرجه البيهقي (٣/ ٣٤) .

(٤) في النسخ : (وكان . . .) .

(٥) **رَوَايا قريش** : إبلهم التي كانوا يحملون عليها الماء .

غلام أسود لبني الحجاج ، فأخذوه ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول : ما لي علم بأبي سفيان ، ولكن هـٰذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس ، فإذا قال ذلك.. ضربوه ، فقال : نعم ، أنا أخبركم ، هـٰذا أبو سفيان ، فإذا تركوه فسألوه.. قال : ما لي بأبي سفيان علم ، ولكن هـٰذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس ، فإذا قال هـٰذا.. ضربوه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، فلما رأىٰ ذلك.. انصرف وقال : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَتَضْرِبُونَهُ إِذَا صَدَقَكُمْ ، وَتَتْرُكُونَهُ إِذَا كَذَبَكُمْ »[1] .

وروي أنهما غلامان ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حين أخبراه قال لأصحابه : « هَـٰذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاَذَ كَبِدِهَا » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين نزل بدراً.. نزل علىٰ أدنىٰ ماء إلى العدو ، وترك المياه كلها خلفه بمشورة الحُبَاب بن المنذر ، وبُني له عريش يستظل فيه بمشورة سعد بن معاذ .

ولما أصبحت قريش.. ارتحلت ، فلما رآها النبي صلى الله عليه وسلم تَصَوَّبُ من العَقَنْقَل[2] وهو الكثيب الذي هبطوا منه إلى الوادي.. قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ هَـٰذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلاَئِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ ، ٱللَّهُمَّ ؛ فَنَصْرَكَ ٱلَّذِي وَعَدْتَنِي ، ٱللَّهُمَّ ؛ أَحِنْهُمُ ٱلْغَدَاةَ[3] ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنْ تَهْلِكْ هَـٰذِهِ ٱلْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ ٱلإِسْلاَمِ.. لاَ تُعْبَدُ فِي ٱلأَرْضِ » وما زال يَهْتِف بربه مَادّاً يديه حتىٰ سقط رداؤه .

وفي « صحيح البخاري » : أن أبا بكر أخذ بيده فقال : حسبُك يا رسول الله ؛ فقد أَلْحَحْتَ علىٰ ربك ، وهو في الدِّرْع ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[4] .

وروىٰ مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هَـٰذَا مَصْرَعُ فُلاَنٍ » ويضع يده على

---

(١) مسلم (١٧٧٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) **تَصَوَّبُ** : تنحدر ، و**العَقَنْقَلُ** : كلّ رمل منعقد .

(٣) **أَحِنْهم** : أهلكهم .

(٤) البخاري (٢٩١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الأرض هٰهنا وههنا ، فما ماط أحد عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدّل الصفوف ، وأمر أصحابه ألاَّ يَحْملوا حتىٰ يأمرهم ، وقال : « إِذَا أَكْثَبُوكُمْ . . فَعَلَيْكُمْ بِٱلنَّبْلِ ، وَٱسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ »[2] ثم رجع العريش ومعه أبو بكر ، فخفق خَفْقَةً ثم انتبه[3] ، فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ أَتَاكَ نَصْرُ ٱللهِ ، هَـٰذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ يَقُودُهُ عَلَىٰ ثَنَايَاهُ ٱلنَّقْعُ » وفي رواية : « عَلَيْهِ أَدَاةُ ٱلْحَرْبِ » .

ولما تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض . . قال أبو جهل : اللهم ؛ أقطعَنا للرحم[4] ، وآتانا بما لا نعرف ، فأَحِنْه الغداةَ ، فكان هو المستفتح علىٰ نفسه ، وآخرُ ذلك أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حَفْنة من الحصباء ورماهم بها وقال لأصحابه : « شُدُّوا » فكانت الهزيمة .

ولما فرغ من أمرهم أسراً وقتلاً . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ ؟ » فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراءَ حتىٰ بَرَد ، فأخذ بلحيته وقال : أنت أبو جهل ؟ فقال : وهل فوق رجل قتلتموه[5] ، أو قال : قَتَلَه قومُه ؟! رواه الشيخان[6] ، وفي رواية لهما قال : فلو غير أكّار قتلني[7] ، وروي أنه قال لابن مسعود : لقد ارْتقيتَ يا رُوَيْعِيَ الغنم مرتقىً صعباً .

قال ابن مسعود : ثم حززت رأسه ، ثم جئت به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ؛ هٰذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال : « آللهِ الَّذِي لاَ إِلَـٰهَ غَيْرُهُ ؟ » وكانت يمينَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : نعم ، والله الذي لا إلٰه غيره ، ثم ألقيتُ رأسَه بين يديه ، فحمد الله تعالىٰ .

---

(١) مسلم (١٧٧٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، **وما مَاطَ** : ما عدل وما تباعد .
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٨٤) عن أبي أُسَيد الساعدي رضي الله عنه .
(٣) **خَفَقَ** : نام نوماً يسيراً .
(٤) أي : من كان أقطعَنا للرحم . . .
(٥) **وهل فوق رجل قتلتموه** : لا عار عليَّ في قتلكم إياي .
(٦) البخاري (٣٩٦٣) ، ومسلم (١٨٠٠) .
(٧) **الأَكَّار** : الفلاح .

وممن تبارز يومئذ حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب(١) وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، فقتَل حمزةُ رضي الله عنه شيبةَ ، وعليٌّ رضي الله عنه الوليدَ ، واختلف بين عبيدة وعتبة ضربتان كلاهما أثبت صاحبَه ، فكَرَّ حمزة وعلي علىٰ عتبة فذَفَّفا عليه(٢) ، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألستُ شهيداً ؟ قال : « بلىٰ » فقال عبيدة : لو كان أبو طالب حياً . . لعلم أنَّا أحق بما قال منه حيث يقول : [من الطويل]

وَنُسْلِمُـــهُ حَتَّـــىٰ نُصَـــرَّعَ حَـــوْلَـــهُ ... وَنَـــذْهَـــلَ عَـــنْ أَبْنَـــائِنَـــا وَٱلْحَـــلاَئِـــلِ

كان أبو ذر يُقْسِم قَسَماً أن هـٰذه الآية نزلت فيهم : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ﴾ ، قال علي رضي الله عنه : (أنا أول من يَجْثُو(٣) بين يدي الرحمـٰن عز وجل للخصومة يوم القيامة) رواه البخاري(٤) .

وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بأربعة وعشرين رجلاً ، فقذفوا في القليب .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا ظهر علىٰ قوم . . أقام بالعَرْصة ثلاث ليالي ، فلما كان ببدر اليوم الثالث . . أمر براحلته فشد عليها ، ثم مشىٰ واتبعه أصحابه وقالوا : ما نُرىٰ ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتىٰ قام علىٰ شفير الركِيِّ(٥) ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول : « أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ؛ ما تكلم من أجساد لا أرواح فيها ؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَٱلَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ؛ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ » قال قتادة : أحياهم الله حتىٰ أسمعهم قوله ؛ توبيخاً وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندماً .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له بعد الهزيمة : هـٰذه العير ليس دونها شيء ، فانهض في طلبها ، فناداه العباس وهو أسير : لا يَصْلُح ذلك ، فقال له النبي صلى الله عليه

---

(١) كذا في النسخ ، وفي « الاستيعاب » (١٦٥٧) ، و« الإصابة » (٢/ ٤٤٢) : (بن المطلب) .
(٢) ذَفَّفا عليه : أسرعا بقتله .
(٣) يَجْثُو : يقعد علىٰ ركبتيه .
(٤) البخاري (٣٩٦٥) .
(٥) شفير الرَّكِي : طرف البئر .

وسلم : « وَلِمَ ذَلِكَ ؟ » قال : لأن الله تعالىٰ وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « صَدَقْتَ » .

ولما انتصر النبي صلى الله عليه وسلم . . بعث عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة إلى المدينة يبشران .

قال أسامة : فأتانا الخبر حين سَوَّينا علىٰ رقية بنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً ، فلما كان بمضيق الصفراء . . قسم النَّفَل ، ولما كان بالروحاء . . لقيه المسلمون يهنونه ، وأمر بقتل النضر بن الحارث بالصفراء ، وبقتل عقبة بن أبي معيط بعرق الظبية .

وقدم النبي صلى الله عليه وسلم قبل الأسارىٰ بيوم ، ولما قدم بالأسارىٰ . . فرقهم بين أصحابه فقال : « اسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً » واستمر فداؤهم علىٰ أربعة آلاف درهم ، ومنهم من نقص عنه ، ومنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ بعضهم بغير فداء ، والله أعلم .

فَصْلٌ

[في مكانة غزوة بدر وعظيم موقعها وفضل شاهديها]

واعلم : أن بدراً مَلْحَمَة شريفة من ملاحم الجنة العظام ، وأول فتح للمسلمين في غُرَّة الإسلام ، وأول قتال للملائكة عليهم الصلاة والسلام ، وفض قلوب عُتاة المشركين صدمتها ، حتىٰ ورد في « صحيح البخاري » : أنه لم يُظْهِر عبد الله بن أبيّ ومن معه من المنافقين الإسلام تقية إلا بعدها[1] ، وتظاهرت نصوص الكتاب والسنة علىٰ فضلها وعظم موقعها ، وفضل شاهديها ومزاياهم علىٰ بقية الصحابة ، والله أعلم .

ومن ذلك : قصة حاطب بن أبي بلتعة ؛ حيث كتب إلىٰ أهل مكة ينذرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، فاستأذن عمر النبي صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ؟ لَعَلَّ ٱللهَ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٦) عن سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

فَقَالَ : اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ؛ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ ٱلْجَنَّةُ » أو « فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم[١] .

وعن أنس قال : أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام ، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ؛ قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني ؛ فإن يك في الجنة . . أصبر وأحتسب ، وإن تكن الأخرىٰ . . ترىٰ ما أصنع ، فقال : « وَيْحَكِ! أَوَهَبِلْتِ ؟ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ ٱلْفِرْدَوْسِ »[٢] .

وعن رِفاعة بن رافع الزُّرقي ـ وكان بدرياً ـ قال : (جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما تَعدُّون أهل بدر فيكم ؟ قال : « مِنْ أَفْضَلِ ٱلْمُسْلِمِينَ » أو كلمةً نحوها ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة) روىٰ جميعها البخاري[٣] .

وكان عطاء البدريين في ديوان عمر رضي الله عنه خمسة آلاف خمسة آلاف ، وقال عمر : (لأفضلنهم علىٰ من بعدهم) وكان المدد فيها من الملائكة خمسة آلاف .

قال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة في المعركة إلاَّ يوم بدر ، وفيما سواه يشهدون القتال ولا يقاتلون ، إنما يكونون عدداً ومدداً ، قيل : كانت خيلهم يومئذ بُلْقاً علىٰ خَلْق فرس المقداد ، وكانت سيماهم عمائم صُفْراً ـ وقيل : بيضاً ـ قد أرسلوها بين أكتافهم ، وعلموا بالعِهْن في نواصي الخيل وأذنابها[٤] .

فَصْلٌ
[في تسمية يوم بدر بذلك]

وسمي يوم بدر باسم المكان الذي جرت فيه الوقعة ، وهو ماء معروف وقرية عامرة علىٰ نحو أربع مراحل من المدينة ، قال ابن قتيبة : وهي بئر لرجل يسمىٰ بدراً سميت باسمه .

ومن أسمائه في الكتاب العزيز : يومُ الفرقان ، ويوم التقى الجمعان ، ويوم اللِّزام ، ويوم البطشة الكبرىٰ ، والله أعلم .

---

(١) قصة حاطب موجودة في « البخاري » (٣٩٨٣) .
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٥٠) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٩٢) .
(٤) **العِهْنُ** : الصوف ، و**نواصي الخيل** : الشعر المسترسل على الجبهة .

الخامسة : **بعد بدر غزوة بني قينقاع** يهود المدينة ، رهط عبد الله بن سلام ، وكانوا أول ناقض للعهد من اليهود ، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ نزلوا علىٰ حكمه ، فوهبهم في أنفسهم لحليفهم عبد الله بن أبيّ ، وأخذ أموالهم ، وكان لعبادة بن الصامت منهم من الحلف مثلما لعبد الله بن أبي فتبرأ منهم ، قيل : نزلت فيه وفي ابن أبيّ قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ الآية .

السادسة : **غزوة السَّوِيق** ، وسببها : أن أبا سفيان بعد بدر حلف ألاَّ يمس رأسه ماء من جنابة حتىٰ يغزو محمداً ، فخرج في مئتي راكب ، فلما كان علىٰ بريد من المدينة . . خرج في الليل حتىٰ أتىٰ حيي بن أخطب ، فضرب بابه ، فخافه وأبىٰ أن يخرج إليه ، فانصرف إلىٰ سَلاَّم بن مِشْكم ، فأطعمه وسقاه وحادثه بالأخبار ، ثم خرج عنه فأتىٰ أصحابه ، فبعث رجالاً منهم ، فوجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما ، فقتلوهما ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم واستعمل على المدينة أبا لُبابة الأنصاري ، وانتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ قَرْقَرة الكُدْر[1] ، وفاته أبو سفيان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب أزواداً كثيرةً مما طرحها أبو سفيان وأصحابه يتخففون عنها أكثرها السويق ، ولذلك سميت غزوة السويق ، والله أعلم .

السابعة : **غزوة بني سليم بالكُدْر** ، علىٰ ثمانية برد من المدينة ، وكان لواء النبي صلى الله عليه وسلم مع علي ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وغنم النبي صلى الله عليه وسلم فيها خمس مئة بعير ، فقسم أربع مئة على الغانمين ، فأصاب كل واحد بعيرين ، وأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مئة ، وكانت مدة غيبته عن المدينة خمس عشرة ليلةً .

الثامنة : **غزوة ذي أَمر** ، وهي غزوة أَنْمار بنجد يريد النبي صلى الله عليه وسلم غَطَفان ، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأقام صلى الله عليه وسلم بنجد شهراً ، ثم رجع من غير قتال .

وهـٰذه الأربع بعد بدر في بقية السنة الثانية ، وفيما بين ذلك : سرية زيد بن حارثة ، وكان من حديثها : أن قريشاً بعد بدر تجنبوا طريق الشام وسلكوا طريق العراق ، فبعث النبي

---

(١) **القَرْقَرَةُ** : الأرض الملساء .

صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ، فلقي أبا سفيان في رفقة يحملون تجارة فيها فضة كثيرة ، فغنم زيد ما في العير ، وأعجزه الرجال هرباً ، ففي ذلك قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يعير قريشاً بأخذهم تلك الطريق : [من الطويل]

دَعُوا فَلَجَاتِ ٱلشَّامِ قَدْ حَالَ دُونَهَا ... جِلَادٌ كَأَفْوَاهِ ٱلْمَخَاضِ ٱلأَوَارِكِ(١)

بِأَيْدِي رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ ... وَأَنْصَارِهِ حَقّاً وَأَيْدِي ٱلْمَلَائِكِ

إِذَا سَلَكَتْ لِلْغَوْرِ مِنْ بَطْنِ عَالِجٍ ... فَقُولَا لَهَا لَيْسَ ٱلطَّرِيقُ هُنَالِكِ(٢)

وهنا ذكر ابن إسحاق قتل كعب بن الأشرف الطائي ، وأمه من بني النضير ، وذكره غير واحد في الثالثة قبيل غزوة بني النضير ، وكان من حديثه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انتصر ببدر . . اشتد حسده وبغضه ، وقدم مكة فجعل يُحرِّضهم ويَرْثي من قتل منهم ، ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لِكَعْبِ ابْنِ ٱلأَشْرَفِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى ٱللهَ وَرَسُولَهُ ؟ » فقال محمد بن مسلمة : يا رسول الله ؛ أتحب أن أقتله ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فأذن لي أن أقول شيئاً ، قال : « قُلْ » .

فأتاه محمد بن مسلمة فقال : إن هٰذا الرجل قد سألَنا صدقةً ، وإنه قد عَنَّانا ، وإني قد أتيتُك أستسلفك ، قال : وأيضاً والله لتملُّنَّهُ ، قال : إنا قد اتبعناه ، فلا نحب أن ندعه حتىٰ ننظر إلىٰ أي شيء يصير شأنُه ، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً أو وسقين ، فقال : نعم ، ارهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟! قال : فارهنوني أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبَّ أحدهم فيقال : رُهِن بوَسْق أو وَسْقين ؟! هٰذا عار علينا ، ولكنا نرهنك اللأْمة ـ يعني السلاح ـ فواعده أن يأتيه .

فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرضاعة ، وأبو عَبْس بن جَبْر ، والحارث بن أَوس ، وعباد بن بِشْر ، فلما دعوه . . قالت امرأته : أين تخرج هٰذه الساعة ؟! وقالت : أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، فقال : إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي

---

(١) **الفلجات** : الأودية ، **والجِلاد** : الإبل القوية ، **والأوارك** : نوع من الإبل .

(٢) **الغور** : المطمئن من الأرض .

أبو نائلة ، إنَّ الكريم إذا دعي إلىٰ طعنة بليل . . لأجاب ، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب ، فقال محمد : ما رأيت كاليوم ريحاً! أي : أطيب ، قال كعب : عندي أعطر نساء العرب ، فقال : أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم ، فشمه ، ثم أشم أصحابه ، ثم قال : أَتأذن لي ، قال : نعم ، فلما استمكن منه . . قال : دونكم ، فقتلوه ، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه . أخرجه البخاري بهٰذا المعنىٰ(١) .

وذكر بعده قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحُقَيْق ، تاجر أهل الحجاز ، وكان بخيبر ، وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم لقتله رجالاً من الأنصار ، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك ، فدنوا من حصنه وقد غربت الشمس وراح الناس بسَرْحِهم ، فدخل عبد الله بن عتيك مع آخر من دخل من أهل الحصن ، فكَمَنَ داخل الباب ، وأبصر المفاتيح حيث وضعت ، فلما هدأت الأصوات . . قام وأخذ المفاتيح ، وجعل يفتح الأبواب باباً باباً ، وكلما فتح باباً . . أغلقه عليه .

قال : قلت : إنِ القومُ نَذِروا بي . . لم يخلُصوا إليَّ حتىٰ أقتله ، قال : فانتهيت إليه وهو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت ، قلت : أبا رافع ؛ قال : من هٰذا ؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربةً بالسيف وأنا دَهِش ، فما أغنت شيئاً ، فصاح ، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت : ما هٰذا الصوت يا أبا رافع ؟ فقال : لأمك الويل! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف ، قال : فأضربه ضربةً أثخنته فيها ولم أقتله ، ثم وضعتُ صَبِيب السيف(٢) في بطنه حتىٰ أخذ في ظهره ، فعرفت أني قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلىٰ درجة وقعتُ منها إلى الأرض ، فانكسرت رجلي ، فعصبتها بعمامة ، ثم انطلقت حتىٰ جلست على الباب فقلت : لا أخرج الليلة حتىٰ أعلم أقتلته أم لا .

فلما صاح الديك . . قام الناعي على السور ، فانطلقت إلىٰ أصحابي فقلت : النجاءَ ؛ فقد قتل الله أبا رافع ، فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته ، فقال : « اُبْسُطْ

---

(١) البخاري (٤٠٣٧) .
(٢) صَبِيبُ السيف : حرفه .

رِجْلَكَ » فبسطت رجلي ، فمسحها فكأنها لم أشتكها قط . خرجه البخاري من ثلاث طرق كلها عن البراء بن عازب ، وفي ألفاظها اختلاف[1] ، والله أعلم .

قال ابن إسحاق عقيب ذكره لقتل كعب بن الأشرف : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ . . فَٱقْتُلُوهُ » فوثب مُحيِّصة بن مسعود علىٰ رجل من تجار يهود كان يلابسهم فقتله ، فجعل حُويِّصة أخوه يضربه ويقول : أي عدو الله ؛ أقتلته ؟! أما والله لرُبَّ شَحْمٍ في بطنك من ماله ، فقال محيصة : والله ؛ لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك . . لضربت عنقك ، قال : والله ؛ إنَّ ديناً بلغ بك هـٰذا . . لعجب! فأسلم حويصة .

السنة الثالثة

فيها : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت قبله تحت خُنَيْس بن حُذافة السهمي البدري فتوفي عنها بالمدينة .

وفي « صحيح البخاري » وغيره : أنها لما تأيَّمت بعد وفاة زوجها . . عرضها أبوها علىٰ عثمان فاعتذره ، ثم علىٰ أبي بكر فصمت فلم يرجع إليه شيئاً ، فلما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم . . اعتذر إليه أبو بكر بأنه لم يمنعه من إجابته إلىٰ ما سأل إلاَّ أنه أُعْلِمَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها[2] .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم طلقها ، فقال له جبريل : إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ؛ فإنها صَوَّامة قَوَّامة[3] .

وفيها : تزوج عثمان رضي الله عنه بأم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أختها رقية ، وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ كَانَ عِنْدِي أَرْبَعُونَ بِنْتاً . . لَزَوَّجْتُ عُثْمَانَ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ حَتَّىٰ لاَ يَبْقَىٰ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ » ، وفي رواية : « مئة » بدل « أربعين »[4] .

---

(١) البخاري (٤٠٣٨/ ٤٠٣٩/ ٤٠٤٠) .

(٢) البخاري (٤٠٠٥) بمعناه .

(٣) أخرجه المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٢٥٠٧) ، والحاكم في « المستدرك »(٤/ ١٥) ، والطبراني في « الأوسط » (١٥١) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وفيها : تزوج صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة أم المساكين الهلالية ، ولبثت عنده شهرين أو ثلاثةً وماتت رضي الله عنها .

وفيها : ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما في منتصف رمضان ، ولما ولد. . دعا به رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وأذَّن في أذنه اليمنىٰ وأقام في اليسرىٰ ، وطلىٰ رأسه بخَلُوق[1] بعد أن عق عنه كبشاً ، وتصدق بزنة شعر رأسه وَرِقاً ، وأعطى القابلة فخذ شاة وديناراً ، وكذلك فعل بأخيه الحسين ، وروى الطبراني : أنه فعل ذلك يوم سابعهما[2] ، وسماهما حسناً وحسيناً ، ولم يسم أحد بذلك قبلهما ، وروي : أنه سمىٰ أولاد فاطمة حسناً وحسيناً ومُحْسِناً بأولاد هارون بن عمران النبي صلى الله على نبينا وعليه وسلم .

وإنما قدمت مولد الحسن هنا وإن كان في الحقيقة بعد أحد ؛ لأني أقدم غالباً حوادث السنة قبل غزواتها وسراياها ، وقد وقع في تاريخ تزويج علي لفاطمة ودخوله بها ومولد ابنيهما تردد يؤدي إلىٰ تغليط بعض النقلة ، والله أعلم .

وفي هـٰذه السنة : كانت من الغزوات **غزوة أحد** ، وهي التاسعة من غزواته صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ، وكانت وقعتها يوم السبت النصف من شوال ، وقيل : السابع منه علىٰ رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة ، وكان عدد المسلمين فيها سبع مئة لا خيل معهم ، والمشركين ثلاثة آلاف معهم مئتا فرس ، وكان علىٰ خيلهم خالد بن الوليد .

قال ابن إسحاق وغيره من أهل السير : وجملة من استشهد بها من المسلمين خمسة وستون .

قلت : والصواب : ما ثبت في « صحيح البخاري » أنهم سبعون[3] ، وفي رواية له أخرىٰ : أن هـٰذا العدد من الأنصار دون المهاجرين[4] ، فمن المهاجرين أربعة ، وبقيتهم من الأنصار .

---

(١) **الخَلُوق** : طيب مجموع من الزعفران وغيره .
(٢) المعجم الكبير (٣/ ٢٩) ، و« المعجم الأوسط » (١٢٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٣) البخاري (٤٠٤٣) عن البراء بن عازب رضي الله عنه .
(٤) البخاري (٤٠٧٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وقتل من المشركين يومئذ اثنان وعشرون ، تسعة قتلهم قُزْمان الكافر[1] ، واثنان قتلهم عاصم بن أبي الأقلح الأنصاري ، فلقُزْمان وعاصم نصف القتلىٰ .

وكان من حديث أحد : أن أبا سفيان وأولاد من قتل ببدر تحاشدوا بينهم ، وأنفقوا الأموال في طلب الثأر بمن أصيب منهم ببدر ، وخرجوا لغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم بظَعْنهم وبمن أطاعهم من الأَحابيش وكنانة ، فلما نزلوا بأحد وهو شامي المدينة إلىٰ جهة المشرق قليلاً علىٰ ثلاثة أميال منها أو نحوها ، ولما علم بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . استشار أصحابه في الخروج إليهم أو الإقامة ، وقال لهم : « إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي أَنَّ فِي سَيْفِي ثُلْمَةً ، وَأَنَّ بَقَراً لِي تُذْبَحُ ، وَأَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ »[2] وتأولها أن نفراً من أصحابه يُقتلون ، وأن رجلاً من أهل بيته يصاب ، وأن الدرع الحصينة المدينة . أخرجه مسلم[3] .

ثم قال لهم : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِهَا وَتَدَعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فَإِنْ أَقَامُوا . . أَقَامُوا بِشَرِّ مَقَامٍ ، وَإِنْ دَخَلُوهَا . . قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا » فاختلفت آراؤهم في ذلك حتىٰ غلب رأي من أحب الخروج ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فلَبس لأْمته[4] ، فخرج عليهم فوجدهم قد رجَّحوا رأي القعود ، فأبىٰ عليهم وقال : « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّىٰ يُقَاتِلَ » فسار بهم ، وذلك بعد أن صلى الجمعة ، وبعد أن صلىٰ علىٰ ميت من الأنصار ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

ولما بلغوا الشوط[5] . . انخزل عبد الله بن أبيّ بثلث الناس أنفة أن خولف رأيُه ، وكان رأى القعود[6] ، وحينئذ هَمَّ بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج بالرجوع والفشل ، فتولاهم الله وثبتهم ، وفيهم نزلت : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ وفي

---

(١) هو الذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه أنه من أهل النار فقتل نفسه .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٢٩) ، والبيهقي في « السنن » (٧/ ٤١) ، وأحمد في « مسنده » (١/ ٢٧١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه .

(٣) مسلم (٢٢٧٢) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بمعناه .

(٤) **اللأْمة** : أداة الحرب ؛ من رمح وبيضة وسيف ودرع .

(٥) **الشَّوْطُ** : حائط عند جبل أحد بالمدينة .

(٦) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٣/ ٢٢٤) .

« صحيح البخاري » : عن جابر قال : فينا نزلت ، وما أحب أنها لم تنزل ؛ لقوله : ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1] .

ونزل صلى الله عليه وسلم بالشعب من أحد علىٰ شفير وادي قناة[2] ، وجعل ظهره إلىٰ أحد ، ورتب أصحابه وبَوَّأهم مقاعد للقتال ، وكانوا مشاةً ، فجعل عبد الله بن جبير أخا خَوَّات بن جبير على الرماة ، وهم خمسون رجلاً ، وأقعدهم علىٰ جبل عَيْنَيْن وقال لهم : « لاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ إِنْ غَلَبْنَا أَوْ غُلِبْنَا » .

وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين[3] ، ودفع اللواء إلىٰ مُصْعب بن عمير .

وتعبأت قريش[4] ، وجعلوا علىٰ ميمنتهم وخيلهم خالد بن الوليد ، وعلىٰ ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لبني عبد الدار ـ وكان إليهم لواء قريش ـ : إنكم وُليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت . . زالوا .

وكانت قريش قد سَرَحَتْ رَواعيها في زرع الأنصار بقناة ، فحميت الأنصار لذلك ، وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين فهزموهم .

روينا في « صحيح البخاري » عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : فأنا والله رأيت النساء ـ يعني هنداً وصواحباتها ـ يشتددن في الجبل رفعن عن سُوقهن قد بدت خَلاَخلهن ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمةَ ، يا قوم الغنيمةَ ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون[5] ؟! وأقبلوا على الغنيمة ، وثبت عبد الله بن جبير في نفر دون العشرة ، فلما رأىٰ خالد بن الوليد ذلك ورأىٰ ظهور المسلمين خاليةً من الرماة . . صاح في خيله فحملوا علىٰ بقية الرماة فقتلوهم ، ثم أتى المسلمين من خلفهم وحالت الريح فصارت دَبُوراً بعد أن كانت صَباً[6] ، فصرخ إبليس : ألا إن محمداً قد قتل ، فانفضت صفوف المسلمين وتراجعت

---

(١) البخاري (٤٠٥١) .
(٢) **قناة** : واد من أودية المدينة .
(٣) **ظاهر بين درعين** : لبس درعاً فوق درع .
(٤) **تَعبَّأت** : تهَيَّأت .
(٥) البخاري (٣٠٣٩) .
(٦) **الدَّبُورُ** : الريح الغربية ، **والصَّبَا** : الريح الشرقية .

قريش بعد هزيمتها وبعد أن قتل علىٰ لوائها أحد عشر رجلاً من بني عبد الدار ، وبقي لواؤهم صريعاً حتىٰ رفعته لهم عَمْرة بنت علقمة الكنانية ، فلاثوا به[١] .

وخلص العدو إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورموه بالحجارة حتىٰ وقع لشقه ، وكسر عتبة بن أبي وقاص رَباعيته اليمنىٰ السفلى ، وجرح شفته السفلىٰ ، وجرح ابن قمئة الليثي وجهه ، فدخلت حَلَقتان من حِلَقِ المِغْفَر[٢] في وَجْنَته صلى الله عليه وسلم ، وشجه أيضاً عبد الله بن شهاب الزهري ، وهَشَم البيضة علىٰ رأسه ، وكان هـٰؤلاء ومعهم أبي بن خلف الجمحي تعاقدوا علىٰ قتله صلى الله عليه وسلم ، أو ليقتلن دونه ، فمنعه الله منهم .

وروينا في « صحيح البخاري » عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ)[٣] وهما جبريل وميكائيل .

وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أشيع قتله كعب بن مالك الأنصاري ، قال : رأيت عينيه تُزهِران تحت المِغْفر فصحت : يا معشر المسلمين ؛ أبشروا ، هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليَّ أنِ اسكت ، فعطف عليه نفر من المسلمين ونهضوا إلى الشعب ، فأدركهم أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا .

وقد كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدي يوم بدر : عندي فرس أَعلِفُها كل يوم فَرَقاً[٤] من ذُرَة أقتلك عليها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالىٰ » .

فلما رآه يوم أحد . . شد أبيّ علىٰ فرسه ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم هـٰكذا ؛ أي : خلوا طريقه ، وتناول النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) **لاثُوا به** : اجتمعوا إليه .
(٢) **المِغْفَرُ** : زَرَدٌ ينسج من الدروع علىٰ قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة ؛ يتقىٰ به في الحرب .
(٣) البخاري (٤٠٥٤) .
(٤) **الفَرَقُ** : مكيال يسع ستة عشر رطلاً .

الحَرْبَة من الحارث بن الصمة ، فانتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطاير الشَّعْراء عن ظهر البعير إذا انتفض[1] ، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ منها عن ظهر فرسه مراراً[2] ، ورجع إلىٰ أصحابه وهو يقول : قتلني محمد ، وهم يقولون : لا بأس بك ، فقال : لو كان ما بي بجميع الناس . . لقتلهم ، أليس قد قال : أنا أقتلك ؟! والله ؛ لو بصق علي . . لقتلني ، فمات بسرف .

وفي هـٰذا أدل دليل علىٰ شجاعته صلى الله عليه وسلم ، وثبات قلبه ، ولم ينقل أنه صلى الله عليه وسلم قتل أحداً غير أبي ، والله أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم : « اِشْتَدَّ غَضَبُ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ » يعني الجهاد . رواه مسلم[3] .

وكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة ، وكان المسلمون فيه أثلاثاً ؛ ثلثاً سليماً ، وثلثاً طريداً ، وثلثاً جريحاً .

وممن أبلىٰ حينئذ وعظم نفعه : طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام ، حتىٰ قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق طلحة : « هَـٰذَا يَوْمٌ كُلُّهُ لِطَلْحَةَ »[4] وفدىٰ سعداً والزبير بأبيه وأمه ، ولما لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه إلى الشعب . . هم بهم العدو فلم يجدوا إليهم مساغاً .

روينا في « صحيح البخاري » من رواية البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : أشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : « لاَ تُجِيبُوهُ » ، فقال : أفي القوم ابن أبي قُحافة ؟ فقال : « لاَ تُجِيبُوهُ » ، فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هـٰؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء . . لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبتَ يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يخزيك ، قال أبو سفيان : أُعْلُ هُبَلُ[5] ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) **الشَّعْراء** : ذباب له لدغ ، **وانتفض بها** : هزها هزاً قوياً .
(٢) **تدأدأ** : تدحرج .
(٣) مسلم (١٧٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الطيالسي في « مسنده » (ص٣) موقوفاً علىٰ سيدنا أبي بكر رضي الله عنه .
(٥) البخاري (٤٠٤٣) ، **واعل هبل** : أظهر دينك .

« أَجِيبُوهُ » ، قالوا : ما نقول ؟ قال : « قُولُوا : ٱللهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ » قال أبو سفيان : لنا العُزَّىٰ ولا عزىٰ لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَجِيبُوهُ » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قُولُوا : ٱللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَىٰ لَكُمْ » قال أبو سفيان : يومٌ بيوم بدر والحرب سجال ، وتجدون مُثلةً لم آمُر بها ولم تَسُؤْني [١] .

وطفق نساء المشركين يمثلن بالقتلىٰ بتبقير البطون وقطع المذاكير وجدع الآذان والآناف ، لم يحترموا أحداً منهم غير حنظلة الغسيل ، فإن أباه أبا عامر الراهب الذي سماه النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم « ٱلْفَاسِقَ » بدل الراهب كان مع المشركين ، فتركوه لذلك .

ولما نظر رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم إلىٰ ذلك من عمه حمزة . . لم ينظر إلىٰ شيء قط كان أوجع لقلبه منه ، وترحم عليه وأثنىٰ ، وقال : « أَمَا وَٱللهِ ؛ لَئِنْ أَظْفَرَنِيَ ٱللهُ بِهِمْ . . لأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ » فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ فكان النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم بعد ذلك ينهىٰ عنها ، ويوصي من يبعث من السرايا ألاَّ يمثلوا .

ولما انصرفت قريش وعلم الله سبحانه ما في قلوب أصحاب رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم من تراكم الغموم والهموم مما أصابهم وخوف كرة العدو عليهم . . تفضل الله عليهم بالنعاس أمنةً منه سبحانه للمؤمنين منهم وأهل اليقين ، ولم يغش أحداً من المنافقين .

وروينا في « صحيح البخاري » عن أبي طلحة قال : (غشينا النعاس ونحن في مَصافِّنا ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه) [٢] ، وعنه قال : (رفعت رأسي فجعلت ما أرىٰ أحداً إلا وهو يميل تحت حَجفته من النعاس) [٣] ، قال الزبير : (والله ؛ إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشَير والنعاس يتغشاني ، ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء . . ما قتلنا ههنا) .

---

(١) **المثلة** : تشويه خلقة القتيل .

(٢) البخاري (٤٥٦٢) .

(٣) أخرجه الترمذي بنحوه (٣٠٠٧) ، **والحجفة** : الترس .

فَصْلٌ

في فضل الشهادة ومزية شهداء أحد

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ الآية ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الآيات ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الآيات ، فتظاهرت الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة علىٰ حياتهم ، وأنهم يرزقون في الجنة من وقت القتل ، حتىٰ كأن حياة الدنيا دائمة لهم ؛ وأنهم لا يجدون مس القتل إلاَّ كما يجد أحدنا مس القرصة ، وأنهم يتمنون علىٰ ربهم الرجوع إلى الدنيا لتكرر لهم الشهادة .

وفي « النسائي » : أن رجلاً قالَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ فقال : « كَفَىٰ بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَىٰ رَأْسِهِ فِتْنَةً »[1] .

وفي « صحيح البخاري » : عن جابر : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلىٰ أحد في ثوب واحد ثم يقول : « أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذاً لِلْقُرْآنِ ؟ » فإذا أشير له إلىٰ أحدهما . . قدمه في اللحد وقال : « أَنَا شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤُلاَءِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ، ولم يغسلوا)[2] .

وفيه : عن جابر قال : لما قتل أبي . . جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يَنْهَوْني والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَبْكِيهِ ـ أو : مَا تَبْكِيهِ ـ مَا زَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّىٰ رُفِعَ »[3] .

وعن جابر أيضاً قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ أَحْيَا أَبَاكَ وَكَلَّمَهُ كِفَاحاً ، وَمَا كَلَّمَ أَحَداً قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحِجَابِ ، فَقَالَ : يَا عَبْدِي تَمَنَّ أُعْطِكَ ،

---

(١) المجتبىٰ (٤/ ٩٩) .

(٢) البخاري (١٣٤٨) .

(٣) البخاري (٤٠٨٠) .

قَالَ : يَا رَبِّ ؛ تَرُدُّنِي إِلَى ٱلدُّنْيَا فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يُرْجَعُونَ ، قَالَ : يَا رَبِّ ؛ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فَأَنْزَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية » رواه ابن ماجه ، والترمذي وقال : حديث حسن غريب[١] .

وروى ابن إسحاق خارجاً عن رواية ابن هشام : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قتلىٰ أحد : « يَا لَيْتَنِي غُودِرْتُ مَعَ أَصْحَابِ نُحْصِ ٱلْجَبَلِ »[٢] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِلشَّهِيدِ عِنْدَ ٱللهِ سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ ، وَيَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ ٱلْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ ٱلْفَزَعِ ٱلأَكْبَرِ ، وَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ تَاجُ ٱلْوَقَارِ ٱلْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ ٱلْحُورِ ٱلْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ » رواه ابن ماجه والترمذي وصححه[٣] .

قلت : هكذا الرواية فيها (ست خصال) ، وهي في العدد سبع ، والله أعلم .

فصل
[في أعيان من أكرم بالشهادة يوم أحد]

ومن أعيان من أكرم الله بالشهادة يومئذ من السادة المهاجرين الأخيار المنتخبين :

ـ أسد الله وأسد رسوله أبو يعلىٰ عم المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة ؛ السيد الأجل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قتله وحشي بن حرب الحبشي مولىٰ جبير بن مطعم بعم مولاه طُعَيْمة بن عدي بن الخِيار ، وكان حمزة رضي الله عنه قتله ببدر .

ـ والسيد القانت الأواب ختن النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمته عبد الله بن جحش بن رِئاب الأسدي رضي الله عنه ، ويعرف بالمجدَّع ، دفن مع خاله حمزة في قبر واحد ، ولا يعلم من قبور شهداء أحد معيناً غير قبريهما ، وعليهما قبة عالية ، وشاهدت حول مشهدهما ببطن الوادي آراماً من حجارة متفرقة يقال : إنها قبور الشهداء ، والله أعلم .

---

(١) ابن ماجه (١٩٠) ، والترمذي (٣٠١٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٧٦) ، وأحمد في « مسنده » (٣/ ٣٧٥) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، **ونُحْصُ الجبل** : سفح الجبل .

(٣) ابن ماجه (٢٧٩٩) ، والترمذي (١٦٦٣) .

ـ والسيد القرم[1] الهُمَام قديم الهجرة والإسلام معلم الخير ؛ مُصعب بن عُمير العبدري رضي الله عنه ، قتله ابن قمئة الليثي أخزاه الله تعالى .

كان مُصعب رضي الله عنه قبل الهجرة بمكة أنهد فتىٰ في قريش ، وأكثرهم رفاهيةً ، فحمله حب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم علىٰ مفارقة ذلك ، فكان يلبس بالمدينة إهاب كبش ، وصار فيمن أُخِّر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] قدوةً للزاهدين ونُهْيَةً للمترفهين[3] .

كما ورد في « صحيح البخاري » وغيره : أن عبد الرحمـٰن بن عوف رضي الله عنه أتي بطعام وكان صائماً ، فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، كفن في بردة إن غُطي رأسه . . بَدَتْ رِجلاه ، وإن غطي رجلاه . . بدا رأسه ، وأُراه قال : قتل حمزة وهو خير مني ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط ـ أو قال : أُعطينا من الدنيا ما أعطينا ـ وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا ، ثم جعل يبكي حتىٰ ترك الطعام[4] ، وروى البخاري أيضاً عن خباب نحوه .

رابعهم : البائع نفسه من مولاه غير مغبون ولا ملوم ، شهيد بني مخزوم ؛ شَمَّاس المخزومي رضي الله عنه .

ومن السادة الأنصار النجباء الأبرار الجم الغفير والعدد الكثير :

فمنهم : السيد النقيب العالي المقام ؛ أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حَرام ، ذو المقامات العلية والكرامات الجلية .

روينا في « صحيح البخاري » عن جابر رضي الله عنه قال : لما قتل أبي يوم أحد . . جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينهوني والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَبْكِهِ ـ أو : مَا تَبْكِيهِ ـ مَا زَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّىٰ رُفِعَ »[5] .

---

(١) أي : المعظم .
(٢) **أُخِّر** : أخر له أجره في الآخرة .
(٣) **النُّهْيَةُ** : غاية الشيء .
(٤) البخاري (١٢٧٥) .
(٥) تقدم (ص١٦٩) .

وقد تقدم قريباً أنه أحياه الله وكلمه كفاحاً[1] ، وكفىٰ بذلك شرفاً وتنويهاً .

دفن هو وابن عمه عمرو بن الجموح في قبر واحد رضي الله عنهما .

ومنهم : السيد الشريف الحسيب الأواه المنيب ؛ سعد بن الربيع النقيب رضي الله عنه ، شهد بدراً ، واستشهد بأحد ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ ؟ » فطلبه رجل من الأنصار فوجده وبه رمق ، فقال له : أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عني السلام ، وقل له : جزاك الله أفضل ما جزىٰ نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلىٰ نبيكم وعين منكم تطرف .

دفن هو وقريبه خارجة بن زيد في قبر واحد رضي الله تعالى عنهما .

ـ والسيد العلَم المبرور القسم ، الصادق ربه فيما عاهده عليه ، والمتبرىء إليه مما صنعه المسلمون والمشركون والمعتذر إليه ؛ أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، غاب عن قتال بدر ، فأسف عليه وقال : لئن أشهدني الله قتال المشركين . . لَيَرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد . . انكشف المسلمون ، فقال : اللهم ؛ إني أعتذر إليك مما صنع هـٰؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هـٰؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : أي سعد ؛ إني أجد ريح الجنة دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين بين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثَّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

قال أنس : كنا نرىٰ أو نظن أن هـٰذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ إلى آخر الآية . رواه البخاري[2] .

و(النَّحْب) : النذر ، و(النحب) : الموت أيضاً ، وكلاهما محتمل هنا ، لكن يؤيد الأول ما روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلىٰ طلحة بن عبيد الله فقال : « مَنْ أَحَبَّ

---

(١) (ص ١٦٩) .

(٢) البخاري (٢٨٠٦) .

أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْأَرْضِ وَقَدْ قَضَىٰ نَحْبَهُ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَـٰذَا»[1] والله أعلم .

ـ والمسارع إلىٰ غرف الجنان السيد مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما ، مص الدم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين شج ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَسَّ دَمُهُ دَمِي . . لَمْ تُصِبْهُ النَّارُ »[2] .

ومنهم : غسيل الملائكة ، الفرد المراقب ، السيد الجليل حنظلة بن أبي عامر الراهب ، أصيب يومئذ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « رَأَيْتُ ٱلْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُهُ » فسئلت زوجته فقالت : لما سمع الهَيْعة[3] . . خرج مُسْرعاً وهو جنب ، فلم يرجع .

ومنهم : أمير الرماة بعيد المرماة ، المسارع إلى الخير ؛ عبد الله بن جبير ، أخو خوات بن جبير رضي الله عنهما ، حفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثبت حيث رتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ قتل هنالك .

ومنهم : الحريص على الشهادة ، المغرر في طلبها بالجسد والروح ؛ عمرو بن الجموح ، كان قد كبر وعرج ، ومنعه بنوه من الخروج معهم ، فأبىٰ عليهم وقال : أرجو أن أطأ بِعُرجتي هـٰذه في الجنة ، فخرج فاستشهد رضي الله عنه .

ومنهم : الذي رضيه مولاه فدخل الجنة بغير صلاة ، الصادق الولي ؛ الأُصَيْرِم الأشهلي رضي الله عنه ، كان مجانباً للإسلام ، فلما كان يوم أحد . . أسلم وخرج لفوره فاستشهد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ » .

ومنهم : السيد الأسد الضِّرْغام ؛ عُمَيْر بن الحمَام رضي الله عنه ، قال للنبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : أرأيت إن قتلت . . فأين أنا ؟ قال : « فِي ٱلْجَنَّةِ » فألقىٰ تمرات في يده ، ثم قاتل حتىٰ قتل[4] .

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٤٨٩٨) .

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٧٣) ، وقال : رواه الطبراني في « الأوسط » ولم أر في إسناده من أجمع علىٰ ضعفه ، وانظر « مغازي الواقدي » (١/ ٢٤٧) ، و« سيرة ابن هشام » (٣/ ٨٠) .

(٣) **الهَيْعَةُ** : كل ما يُفزعك من صوت وغيره .

(٤) أخرجه البخاري (٤٠٤٦) ، والنسائي في « المجتبىٰ » (٦/ ٣٣) ، والبيهقي في « السنن » (٩/ ٩٩) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

ومنهم : السبعة النجباء الذين عرضوا أرواحهم دون روح محمد المصطفىٰ علىٰ ما ورد في « صحيح مسلم » : أن النبي صلى الله عليه وسلم أُفرِد يومئذ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رَهِقُوه . . قال : « مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ ٱلْجَنَّةُ ؟ » أو « هُوَ رَفِيقِي فِي ٱلْجَنَّةِ » فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتىٰ قتل ، ثم كذلك واحداً بعد واحد حتىٰ قتل جميع السبعة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبيه : « مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابُنَا »[1] قيل : كان آخرهم زياد بن السكن ، أو عمارة بن يزيد بن السكن ، أدرك وبه رمق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَدْنُوهُ مِنِّي » ، فأدنوه منه ، فوسده قدمه حتىٰ مات وخده علىٰ قدم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم .

ومنهم : المتنافسان على الشهادة ، السابق لهما من الله خطة السعادة ؛ اليمان والد حذيفة ، وثابت بن وَقْش ، وكانا قد كبرا وضعفا ، فرفعا في الآطام مع النساء[2] ، فتَلاوَمَا بينهما ، وأخذا سيفيهما وخرجا لوجوههما حتىٰ تَغَمَّرا في المعركة[3] ، فأصيب ثابت بأيدي المشركين ، وأصيب اليمان بأيدي المسلمين غلطاً ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَدِيَه ، فتصدق بها حذيفة رضي الله عنه .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من دفن الشهداء ورجع إلى المدينة . . مر بامرأة من الأنصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها ، فلما نُعوا إليها . . قالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبروها بسلامته ، قالت : أرونيه ، فلما رأته . . قالت : كل مصيبة بعدك جلل . تريد : حقيرةً .

ونُعي إلىٰ حمنة بنت جحش أخوها عبد الله بن جحش ، وخالها حمزة بن عبد المطلب ، فاسترجعت ، ثم نُعي إليها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ زَوْجَ ٱلْمَرْأَةِ مِنْهَا بِمَكَانٍ! » .

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاء نساء الأنصار علىٰ قتلاهم . . ذرفت عيناه

---

(١) مسلم (١٧٨٩) .
(٢) الآطام : الحصون .
(٣) تَغَمَّرا : دخلا .

وقال : « لَكِنَّ حَمْزَةَ لاَ بَوَاكِيَ عَلَيْهِ » فأمر سعد بن معاذ وأسيد بن حضير نساءهم أن يبكين علىٰ حمزة ويتركن قتلاهم ، فخرج صلى الله عليه وسلم وهن يبكين علىٰ باب المسجد ، قال : « اِرْجِعْنَ يَرْحَمُكُنَّ ٱللهُ ، فَقَدْ آسَيْتُنَّ بِأَنْفُسِكُنَّ » ونهىٰ يومئذ عن النوح .

غزوة حمراء الأسد ، وسببها : أن قريشاً لما انصرفوا من أحد وبلغوا الرَّوْحاء[1] هموا بالرجوع لاستئصال من بقي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما علم بهم النبي صلى الله عليه وسلم . . ندب أصحابه للخروج مورياً من نفسه القوة ، وقال : « لاَ يَخْرُجَنَّ مَعَنَا إِلاَّ مَنْ حَضَرَ يَوْمَنَا بِٱلأَمْسِ » فانتدب منهم سبعون رجلاً ، فهم الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، فلما بلغوا حمراء الأسد وهي علىٰ ثمانية أميال من المدينة . . مر بهم مَعْبَد الخُزاعي ، وكانت خزاعة نصحاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم ، فعزىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أصيب من أصحابه ، ثم جاوزهم ، فلما انتهىٰ إلىٰ قريش . . أخبرهم بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوَّل بجيوشه ، وقال : والله ؛ لقد حملني ما رأيت علىٰ أن قلت شعراً : [من البسيط]

كَـادَتْ تُهَـدُّ مِـنَ ٱلأَصْـوَاتِ رَاحِلَتِـي إِذْ مَـالَـتِ ٱلأَرْضُ بَـٱلْجُـرْدِ ٱلأَبَـابِيـلِ

. . . في أبيات أنشدها ، فثَنَىٰ ذلك أبا سفيان ومن معه على الرجوع ، ومر عليهم ركب من عبد القيس ، فجعل لهم أبو سفيان جُعْلاً علىٰ أن يخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه بأنهم يريدون الكرة عليهم ، فلما مر الركب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه وأصحابه بمقالة أبي سفيان . . قالوا كما حكى الله عنهم : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ .

وأقام صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد ثلاثاً ثم رجع .

وفي هـٰذه الغزوة أخذ صلى الله عليه وسلم معاوية بن المغيرة الأموي جد عبد الملك بن مروان أبا أمه وأبا عَزة الجمحي الشاعر ، فأما معاوية . . فشفع فيه عثمان رضي الله عنه ، فشفع فيه علىٰ أنه إن وجد بعد ثلاث . . قتل ، فوجد بعدها فقتل ، وأما أبو عزة الجمحي . . فكان النبي صلى الله عليه وسلم أسره ببدر ومنَّ عليه بغير فداء ، لحاجة شكاها وعيال ،

---

(١) **الرَّوْحاء** : قرية علىٰ مرحلتين من المدينة .

فأخذ عليه ألاَّ يعين عليه ، فنكث ، فلما وقع الثانية . . شكا مثلها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاَ وَٱللهِ ، لاَ تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ تقُولُ : خَدَعْتُ مُحَمَّداً مَرَّتَيْنِ ؛ إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ لاَ يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » وأمر بضرب عنقه[1] .

وفيها : غزوة بني النضير بعد أحد ، وقال الزهري عن عروة : كانت علىٰ رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد ، وكان من حديثهم : أنهم كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة علىٰ ألاَّ يقاتلوا معه ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلىٰ قريش فحالفهم، قيل : كان ركوبه بعد بدر ، وقيل : بعد أحد .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قصدهم يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري حين أفلت من غزوة بئر معونة ، فهموا بطرح حجر عليه من فوق الحصن ، فأخبره جبريل عليه السلام ، فانصرف راجعاً عنهم وأمر بقتل كعب بن الأشرف ، وأصبح غادياً عليهم بالكتائب ، وكانوا بقرية يقال لها : زَهَرة ، فوجدهم ينوحون علىٰ كعب ، فقالوا : يا محمد ؛ واعية علىٰ إثر واعية[2] ؟! ثم حشدوا للحرب ، ودَسَّ إليهم إخوانهم من منافقي الأنصار ما حكاه الله سبحانه عنهم : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم إحدىٰ وعشرين ليلةً ، وقطع نخلهم وحرقها ، وهي البُوَيرة ، وفيها يقول حسان بن ثابت يوبخ قريشاً ويعيرهم بذلك : [من الوافر]

وَهَانَ عَلَىٰ سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِٱلْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث : [من الوافر]

أَدَامَ ٱللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا ٱلسَّعِيرُ

سَتَعْلَمُ أَيُّنَا مِنْهَا بِنُزْهٍ ... وَتَعْلَمُ أَيَّ أَرْضَيْنَا تَضِيرُ

رواه البخاري[3] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٩/ ٦٥) .
(٢) **الواعية** : الباكية .
(٣) صحيح البخاري (٤٠٣٢) ، **النُّزْهُ** : البعد ، **وتَضِيرُ** : تضرُّ .

ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل وإحراقها . . ترددوا في ذلك ، فمنهم الفاعل ومنهم الناهي ، ورأوه من الفساد ، وعيرهم اليهود بذلك ، فنزل القرآن العظيم بتصديق من نهىٰ وتحليل من فعل ، فقال تعالىٰ : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

ولما اشتد علىٰ أعداء الله الحصار . . قذف الله في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين . . طلبوا الصلح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصالحهم على الجَلاء ، وأن لهم ما أَقلَّت الإبل إلاَّ السلاح ، فخرجوا إلىٰ أَذْرِعات وأَريحا من الشام ، وخرج آخرون إلى الحِيرة ، ولحق آل أبي الحُقَيْق وآل حُيَي بن أخطب بخيبر ، فكانوا أول من أجلي من يهود كما قال تعالىٰ : ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ ، والحشر الثاني : من خيبر في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكانت أموال بني النضير خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقسمها بين المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين لحاجتهم وفقرهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة : أبو دجانة ، وسهل بن حُنَيف ، والحارث بن الصِّمَّة ، فطابت بذلك أنفس الأنصار ، وأثنىٰ عليهم بذلك العزيز الغفار فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ يعني الأنصار ﴿ حَاجَةً ﴾ أي : حسداً ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ يعني المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين .

وفي ذي القَعدة منها : كانت غزوة بدر الثالثة ، وهي **بدر الصغرىٰ** ، ذكرها النووي ورتبها قبل بني النضير[1] ، وذكرها غير واحد في الرابعة ، وهو موافق لما ذكر فيها أنهم تواعدوا لها يوم أحد العام القابل ، وكانت أحد في الثالثة .

وسببها : أن أبا سفيان حين انصرف من أحد . . واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم موسم بدر ، وكانت سوقاً من أسواق الجاهلية ، يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام ، فلما كان ذلك . . خرج أبو سفيان بمن معه حتىٰ نزل مَجَنَّة من ناحية مر الظهران ، وقيل : بلغ عُسْفان ، وبدا له الرجوع ، وتعلل بمَحْل العام وعدم المرعىٰ ، قيل : وجعل جُعْلاً لبعض العرب علىٰ أن يَلْقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويثبطوه ، فلما رجع أبو سفيان . .

---

(١) انظر « تهذيب الأسماء واللغات » (١/ ٢٠) .

عيرهم أهل مكة وسموهم : جيش السويق ، يقولون : إنما خرجتم لذلك .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه ، واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله ابن أبي ابن سَلول ، وجعل كفار العرب يَلقونهم ويخبرونهم بجمع أبي سفيان ، فيقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتىٰ نزلوا بدراً ، ووافقوا السوق ، وأصاب الدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ الآية ، وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة ـ وقيل : كعب بن مالك ـ : [من الطويل]

وَعَـدْنَـا أَبَـا سُفْيَـانَ بَـدْراً فَلَـمْ نَجِـدْ ... لِمِيعَـادِهِ صِـدْقـاً وَمَـا كَـانَ وَافِيَـا

فَـأُقْسِـمُ لَـوْ وَافَيْتَنَـا فَلَقِيتَنَـا ... لأُبْـتَ ذَلِيـلاً وَٱفْتَقَـدْتَ ٱلْمَـوَالِيَـا (١)

تَـرَكْنَـا بِهَـا أَوْصَـالَ عُتْبَـةَ وَٱبْنِـهِ ... وَعَمْـراً أَبَـا جَهْـلٍ تَـرَكْنَـاهُ ثَـاوِيَـا

عَصَيْتُـمْ رَسُـولَ ٱللهِ أُفٍّ لِـدِينِكُـمْ ... وَأَمْـرِكُـمُ ٱلسَّـيْءِ ٱلَّـذِي كَـانَ غَـاوِيَـا

فَـإِنِّـي وَإِنْ عَنَّفْتُمُـونِـي لَقَـائِـلٌ ... فِـدَىً لِـرَسُـولِ ٱللهِ أَهْلِـي وَمَـالِيَـا

أَطَعْنَـاهُ لَـمْ نَعْـدِلْـهُ فِينَـا بِغَيْـرِهِ ... شِهَـابـاً لَنَـا فِـي ظُلْمَـةِ ٱللَّيْـلِ هَـادِيَـا

وفيها من السرايا : سرية عاصم بن ثابت الأنصاري ، قال ابن إسحاق : كانت بعد أحد ، وكان من حديثها : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه في عشرة عيناً ، فلما كانوا بالرجيع ـ ماءٍ لهُذَيل بين عسفان ومكة ـ ذكروا لبني لِحْيان من هذيل ، فتبعهم منهم نحو من مئة رامٍ ، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه . . لجؤوا إلىٰ مرتفع من الأرض ، وأحاط بهم القوم ، وأعطوهم العهد إن استسلموا وألقوا ما بأيديهم لا يقتلون منهم أحداً ، فقال عاصم : أما أنا . . فلا أنزل في ذمة كافر أبداً ، اللهم ؛ أخبر عنا رسولك ، فرموهم حتىٰ قتلوا عاصماً في سبعة ، ونزل إليهم خُبَيْب بن عدي وزيد بن الدَّثِنة وعبد الله بن طارق بالأمان ، فربطوهم بأوتار قِسِيِّهم ، فقال عبد الله بن طارق : هـٰذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم أبداً ، فقتلوه .

وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة ، فاشترىٰ خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل

---

(١) لأُبْتَ : لرجعت .

وكان قتل أباهم ببدر ، فمكث عندهم أسيراً أياماً ، فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه . . صلىٰ ركعتين وقال : لولا أن تروا أن ما بي جزع . . لزدت ، ثم قال : اللهم ؛ أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً ، وأنشد : [من الطويل]

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَىٰ أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ ٱلإِلَـٰهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم قتلوه وصلبوه رحمه الله تعالىٰ .

قالت إحدىٰ بنات الحارث : ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قِطْف عنبٍ وما بمكة يومئذ ثمرة وإنه لموثق في الحديد ، وما هو إلاَّ رزق رزقه الله خبيباً . خرجه بكثير من ألفاظه البخاري[١] .

وأما زيد . . فاشتراه صفوان بن أمية ، فقتله بأبيه ، روي : أنهم حين قربوه للقتل . . قال له أبو سفيان : أَنْشُدك اللهَ يا زيد ؛ أتحب أَنَّ محمداً الآن عندنا في مكانك يُضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال : والله ؛ ما أحب أَنَّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي[٢] .

وأرسل أهل مكة لرأس عاصم فحمتْه الدَّبْرُ ـ وهي الزنابير ـ من رسلهم ، فسمي حَمِيَّ الدَّبْر ، فلما أمسىٰ من ليلته . . جاء سيل فاحتمله إلى الجنة ، وكان قد أعطى الله عهداً ألاَّ يمس مشركاً ولا يمسه مشرك ، فأتم الله له ذلك .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أَيُّكُمْ يَحْمِلُ خُبَيْباً عَنْ خَشَبَتِهِ وَلَهُ ٱلْجَنَّةُ ؟ » فخرج لذلك الزبير بن العوام والمقداد ، فحمله الزبير علىٰ فرسه ، فأغار بعدهم الكفار ، فلما أرهقوهما . . ألقاه الزبير ، فابتلعته الأرض ، فسمي بليع الأرض .

قال ابن عباس : وفيهم نزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٤٥) .

(٢) انظر « ابن هشام » (٢/ ١٧٢) .

وبعد مقتل خبيب وأصحابه.. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْري وجبَّار بن صخر الأنصاري ليقتلا أبا سفيان غِيلة، فقدما مَكة لذلك في خفية، فشُهرا وخرجا هاربين، ولم يقعا علىٰ ما أرادا، ذكر ذلك ابن هشام دون ابن إسحاق.

وفيها ـ أو في أول الرابعة ـ: **سرية أصحاب بئر معونة**، وسببها: أنه قدم أبو بَراء عامر بن مالك بن جعفر الكلابي العامري مُلاعب الأسنة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، فلم يُسْلم ولم يَبْعُد وقال: يا محمد؛ ابعث رجالاً من أصحابك إلىٰ أهل نجد يدعونهم إلىٰ أمرك وأنا لهم جار، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلاً من خيار المسلمين، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (كنا نسميهم القراء، كانوا يحطبون بالنهار ويُصلون بالليل).

وأَمَّر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم المنذرَ بن عمرو الأنصاري الساعدي أحد النقباء، فساروا حتىٰ نزلوا ببئر معونة، فلما نزلوها.. انطلق حرام بن مِلْحان إلىٰ رئيس المكان عامر بن الطفيل ليبلغه رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم، فجعل يحدثهم، وأومأ إلىٰ رجل فأتاه من خلفه فطعنه بالرمح، فقال حرام: (الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة)، ثم أخذ من دمه فنضحه علىٰ وجهه ورأسه فرحاً بالشهادة وفخراً بها، ثم استصرخ عامر عليهم بني عامر، فأبوا عليه وقالوا: لن نَخْفِر أبا براء في جواره، فاستصرخ عليهم قبائل سُلَيم وعصية ورعلاً وذكوان، فأجابوه، وقتلوا أصحاب السرية عن آخرهم إلاَّ كعب بن زيد فإنه بقي به رمق فعاش حتى استشهد يوم الخندق.

وفي «صحيح البخاري»: قتلوهم كلهم غير أعرج كان في رأس جبل[1]، وكان في سرحهم عمرو بن أمية الضَّمْري وأنصاري، فلما راحا.. وجدا أصحابهم صرعىٰ والخيل التي أصابتهم واقفةٌ، فقتلوا الأنصاري وأطلقوا عمراً حين أخبرهم أنه من بني ضَمْرَة، فخرج عمرو حتىٰ إذا كان بِقَناة[2].. أقبل رجلان فنزلا معه في ظل هو فيه، فتحدث معهما وأخبراه

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٩١).

(٢) القناة: واد يأتي من الطائف.

أنهما من بني عامر ، فأمهل حتىٰ ناما ، فقتلهما ، وكان معهما عقد وجوار من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به ، فلما قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره. . قال : « لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ ، لأَدِيَنَّهُمَا » .

قال المؤلف كان الله له : وقع في خبر بئر معونة تنازع واختلاف لمن تأمله :

من ذلك : أن ابن إسحاق وتبعه غيره ذكروا : أن بئر معونة كانت في صفر سنة أربع ، وذكر النووي وغيره : أن بني النضير في الثالثة ، ثم روىٰ أهل التواريخ جميعاً : أن سبب غزوة بني النضير خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري عند رجوعه من بئر معونة ، فتعين بذلك أن بئر معونة قبل بني النضير .

ومنها : ما ذكر أهل السير : أن عددهم أربعون ، والوجه : ما رواه البخاري والمحدثون أنهم سبعون[1] .

ومنها : أن البخاري روىٰ عن أنس : أن رِعْلاً وذَكْوانَ وعُصَيَّةَ وبني لَحْيان استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ، وفي رواية له أخرىٰ : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثهم لحاجة[3] ، والصواب : أن خروجهم إنما كان بسؤال أبي براء كما تقدم ، وأن القبائل المذكورين إنما استصرخهم عامر علىٰ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أبىٰ منه بنو عامر ، وأن بني لَحْيان لم يكونوا معهم وإنما قتلوا أصحاب سرية الرجيع .

ولما انتهىٰ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مصابهم. . قال : « هَـٰذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءٍ ، قَدْ كُنْتُ لِهَـٰذَا كَارِهاً مُتَخَوِّفاً » وشق علىٰ أبي براء إخفار عامر إياه ، وقال حسان يحرضه وبنيه في الطلب : [من الوافر]

بَنِـــي أُمِّ ٱلْبَنِيـــنَ أَلَـــمْ يَـــرُعْكُـــمْ ... وَأَنْتُـــمْ مِـــنْ ذَوَائِـــبِ أَهْـــلِ نَجْـــدِ

تَهَكُّـــمُ عَـــامِـــرٍ بِـــأَبِـــي بَـــرَاءٍ ... لِيُخْفِـــرَهُ وَمَـــا خَطَـــأٌ كَعَمْـــدِ

---

(١) صحيح البخاري (٤٠٩٦) .

(٢) صحيح البخاري (٤٠٩٠) .

(٣) البخاري (٤٠٨٨) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

أَلاَ أَبْلِغْ رَبِيعَةَ ذَا ٱلْمَسَاعِي فَمَا أَحْدَثْتَ فِي ٱلْحَدَثَانِ بَعْدِي
أَبُوكَ أَبُو ٱلْحُرُوبِ أَبُو بَرَاءٍ وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بْنُ سَعْدِ

ثم إن ربيعة بن أبي براء حمل علىٰ عامر بن الطفيل فطعنه طعنةً أرداه عن فرسه ، فقال عامر : هـٰذا عمل أبي براء ، إن أَمُتْ . . فدمي لعمي ، فلا يُتْبعنَّ به ، وإن أعش . . فسأرىٰ رأيي فيما أُتي إلي ، وعاش عامر بعدها حتىٰ قدم على النبي صلى الله عليه وسلم هو وأربد بن ربيعة وكانا قد تمالآ على الفتك به ، فحين منعهما الله تعالىٰ من ذلك . . انصرفا متهددين ، فدعا عليهما النبي صلى الله عليه وسلم ، فهلك أربد بالصاعقة وعامر بالطاعون قبل أن يصلا إلىٰ أهلهما ، والله أعلم .

فَصْلٌ

في فضل شهداء بئر معونة
وفضل الشهداء ومَنْ هم مما خرجه الشيخان سوىٰ ما تقدم في شهداء أحد

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآيات ، قيل : نزلت فيهم ، وقيل : في شهداء أحد .

وقال أنس : (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين غداةً ـ وفي رواية : أربعين ـ وأنزل فيهم قرآن قرأناه ثم نُسِخَ بعدُ : بَلِّغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) رواه البخاري[1] .

وروي أيضاً : أن عامر بن الطفيل قال لعمرو بن أمية الضَّمْري : مَنْ هـٰذا ؟ وأشار إلىٰ قتيل ، فقال : هـٰذا عامر بن فهيرة ، فقال : لقد رأيته رفع إلى السماء حتىٰ أني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى ٱلأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ ٱلشَّهِيدُ ، يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى ٱلدُّنْيَا فَيُقْتَلُ عَشْرَ مَرَّاتٍ ؛ لِمَا يَرَىٰ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ » متفق عليه[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالاً مِنْ أُمَّتِي لاَ تَطِيبُ

---

(١) البخاري (٢٨١٤) .
(٢) البخاري (٢٨١٧) ، ومسلم (١٨٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ . . مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا » رواه البخاري[1] ، ونحوه أو قريب منه في « مسلم »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَأَلَ ٱللهَ ٱلشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ . . بَلَّغَهُ ٱللهُ مَنَازِلَ ٱلشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ »[3] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ . . مَاتَ عَلَىٰ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلنِّفَاقِ » رواهما مسلم[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا تَعُدُّونَ ٱلشَّهِيدَ فِيكُمْ ؟ » قالوا : يا رسول الله ؛ من قتل في سبيل الله . . فهو شهيد، قال : « إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذاً لَقَلِيلٌ » قالوا : فمن هم يا رسول الله؟ قال : « مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ . . فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ . . فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ فِي ٱلطَّاعُونِ . . فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي ٱلْبَطْنِ . . فَهُوَ شَهِيدٌ، وَٱلْغَرِيقُ شَهِيدٌ» روياه[5] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اَلشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ : ٱلْمَطْعُونُ ، وَٱلْمَبْطُونُ ، وَٱلْغَرِيقُ ، وَصَاحِبُ ٱلْهَدْمِ ، وَٱلشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ » خرجه البخاري في ترجمة بابٌ : الشهادةُ سبعٌ سوى القتل في سبيل الله[6] ، وكأنه أشار إلىٰ أن الحديث المطابق للترجمة ليس علىٰ شرطه ، وقد خرجه مالك والنسائي بسند جيد[7] ، فذكر المطعون والمبطون والغريق والحريق وصاحب ذات الجنب ، والذي يموت تحت الهدم ، والمرأة تموت بِجُمْع ؛ وهي التي تميتها الولادة ، وقيل : هي التي تموت بكراً ، والله أعلم[8] .

---

(١) البخاري (٢٧٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) مسلم (١٨٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) مسلم (١٩٠٩) عن سهل بن حنيف رضي الله عنه .
(٤) مسلم (١٩١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البخاري (٦٥٤) ، ومسلم (١٩١٥) .
(٦) البخاري (٢٨٢٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٧) الموطأ (١/ ٢٣٤) ، والنسائي (٤/ ١٤) .
(٨) قال الإمام السيوطي رحمه الله في « الديباج » (٤/ ٥٠٨) : (هم أكثر من ذلك ، وقد جمعتهم في كراسة فبلغوا ثلاثين ، وأشرت إليهم في « شرح الموطأ » اهـ
قال القرطبي : ولا تناقض ؛ ففي وقت أوحي إليه أنهم خمسة ، وفي وقت آخر أوحي إليه أنهم أكثر) .

السنة الرابعة وما في طيها من الحوادث

فيها : قصرت الصلاة ، فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية ، وظاهرها يدل علىٰ أن رخصة القصر مشروطة[1] بالخوف ، ودلت السنة على الترخيص مطلقاً ، فقيل : نزلت الآية علىٰ غالب أسفار النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أكثرها لم تخل عن خوف .

ثم لا يبعد أن يبيح الله الشيء في كتابه بشرط ثم يبيحه علىٰ لسان نبيه بانحلال ذلك الشرط ، وهو من باب نسخ القرآن بالسنة ، وظاهر الآثار يدل علىٰ ذلك ؛ روينا في « صحيح مسلم » عن يعلى بن أمية قال : قلت لعمر بن الخطاب : إنما قال الله تعالىٰ : ﴿ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فقد أمن الناس ! فقال عمر : عجبتُ مما عجبتَ منه ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ »[2] .

وروينا في « موطأ مالك » رحمه الله تعالىٰ عن رجل من آل خالد بن أَسِيد : أنه سأل عبد الله بن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمـٰن ؛ إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ، ولا نجد صلاة السفر! فقال ابن عمر : (يا بن أخي ؛ إن الله تبارك وتعالىٰ بعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئاً ، فإنما نفعل كما رأيناه يفعل)[3] .

وقال آخرون : تم الكلام عند قوله تعالىٰ : ﴿ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ متصلٌ بما بعده من صلاة الخوف ، ورووا عن أبي أيوب الأنصاري : أن بين نزولهما حولاً ، وهـٰذا لا يبعد إن صح به نقل ، ومثله : قوله تعالىٰ حكايةً عن امرأة العزيز : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، ثم قال تعالىٰ إخباراً عن يوسف : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

وأما مسافة القصر . فقال الشافعي ومالك وفقهاء المحدثين : هي مرحلتان معتدلتان ،

---

(١) في هامش (ب) : نسخة (مشروعة) .
(٢) مسلم (٦٨٦) .
(٣) الموطأ (١/ ١٤٥) .

وذلك ثمانية وأربعون ميلاً ، والميل : ستة آلاف ذراع ، والذراع : أربع وعشرون إصبعاً معترضةً ، والإصبع : ست شَعيرات معترضات ، وقدر الميل أيضاً بأربعة آلاف خطوة ، أو اثني عشر ألف قدم ، والله أعلم .

وللقصر شروط : أحدها : أن تكون الصلاة رباعيةً مؤداةً ، وأن يكون سفره في غير معصية ، وأن ينوي القصر مع الإحرام ، فإذا كانت مسافته مسافة قصر . . جاز له أن يجمع بين الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، في وقت أيهما شاء ، والسنة إذا كان سائراً في وقت الأولىٰ أن يؤخرها إلى الثانية ؛ وإلاَّ . . قدم الثانية إليها .

ويجوز للحاضر أن يجمع في المطر في وقت الأولىٰ منهما .

وفيها : تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة هندَ بنت أبي أمية المخزومية ، وكانت قبله عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، روينا في « صحيح مسلم » عنها قالت : (لما مات أبو سلمة . . أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ؛ إن أبا سلمة قد مات ، قال : « قُولِي : ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِي وَلَهُ ، وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَىٰ حَسَنَةً » فقلت : فأعقبني الله تعالىٰ من هو خير لي منه ؛ محمداً صلى الله عليه وسلم[1] .

وفيه أيضاً عنها من روايات : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها . . أقام عندها ثلاثاً ، فلما أراد أن يخرج . . أخذت بثوبه فقال : « إِنَّهُ لَيْسَ بِكِ عَلَىٰ أَهْلِكِ هَوَانٌ ، إِنْ شِئْتِ . . سَبَّعْتُ لَكِ ، وَإِنْ سَبَّعْتُ لَكِ . . سَبَّعْتُ لِنِسَائِي ، وَإِنْ شِئْتِ . . ثَلَّثْتُ ثُمَّ دُرْتُ » قالت : ثلِّث[2] .

فقيل : إن ذلك حق للمرأة ، فيثبت لها ذلك ، سواء كان عند الزوج غيرها أم لا ، ونقله ابن عبد البر عن الجمهور ، واختاره النووي[3] ، وقيل : إنما يثبت هـٰذا للجديدة إذا كان عنده غيرها ، أما المنفردة . . فلا يتصور في حقها ذلك ، ورجحه القاضي عياض ، وبه جزم البغوي من أصحابنا .

---

(١) مسلم (٩١٩) .

(٢) مسلم (١٤٦٠ـ١٤٦٠/٤٢) .

(٣) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٠/ ٤٤) .

وقد تقرر من حديث أم سلمة وغيرها : أن الثيب الداخلة علىٰ غيرها . . مخيرة بين ثلاث بلا قضاء وسبع بالقضاء ، والبكر تستحق سبعاً بلا قضاء ، والله أعلم .

وفيها : ولد الحسين بن علي السبط رضي الله عنهما ، قيل : حملت به أمه بعد مولد أخيه الحسن بخمسين ليلةً ، وولد لخمس خلون من شعبان ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

وفيها : أمر رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم له كتاب يهود ؛ ليكتب له إليهم ويقرأ له كتبهم .

وفيها : نزل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ في شأن ابن أبَيْرِقٍ ، وكان من خبر ذلك : أن ابن أُبيرق أو بني أُبيرق سرقوا درعاً لقتادة بن النعمان أو لعمه رفاعة بن زيد ، وألقوا تهمتها علىٰ زيد بن السمين اليهودي ، فلما وجدت عنده . . قال : دفعها إليَّ طعمة بن أُبيرق ، ففشا ذلك وكبر علىٰ قومه بني ظفر ، فجاؤوا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ؛ ذهب هـٰؤلاء إلىٰ أهل بيت منا أهل صلاح فرموهم بالسرقة ، وكرروا عليه ذلك ، حتىٰ غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ قتادة بن النعمان وعمه ، وهم أن يجادل عن بني أُبيرق علىٰ ظاهر الأمر ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآيات[1] ، فتضمنت التشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وحفظه عن الهم والتفويض إليه ، والتقويم له على الجادة في الحكم ، والتأنيب له فيما هم به .

قيل : ولما افتضح ابن أبيرق . . هرب إلىٰ مكة ، ثم إلىٰ خيبر ، فنقب بيتاً للسرقة ، فسقط عليه فمات مرتداً .

وفيها : توفي عبد الله بن عثمان من رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بلغ ست سنين ، نقره ديك في عينه فكان سبب موته ، والله أعلم .

وفيها : توفيت فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً ، ولدت لأبي طالب عقيلاً وجعفراً وعلياً وأم هانىء وجمانة رضي الله

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٨٥) ، والترمذي (٣٠٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٩/ ١٠) عن سيدنا قتادة بن النعمان رضي الله عنه .

عنهم ، وكان بين كل واحد من بنيها الرجال وبين أخيه عشر سنين .

وكانت محسنةً إلى النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان في حجر عمه أبي طالب ، فلما ماتت . . تولىٰ دفنها ، واضطجع في قبرها ، وأشعرها قميصه ، وقال : « اِضْطَجَعْتُ فِي قَبْرِهَا لأُخَفِّفَ عَنْهَا مِنْ ضَغْطَةِ ٱلْقَبْرِ ، وَأَلْبَسْتُهَا لَتَلْبَسَ مِنْ ثِيَابِ ٱلْجَنَّةِ »[1] .

وفيها : كان من الغزوات **غزوة ذات الرقاع** إلىٰ نجد يريد غطفان ، واختلف في تسميتها بذلك علىٰ أقوال ، أصحها : ما ثبت في « صحيح البخاري » و« مسلم » عن أبي موسى الأشعري : أن أقدامهم نَقِبَتْ فلفوا عليها الخرق[2] ، ولهـٰذا قال البخاري : إنها بعد خيبر ؛ لأن أبا موسىٰ إنما جاء بعد خيبر ، وانتهىٰ صلى الله عليه وسلم فيها إلىٰ نخل ، ولقي جمعاً من غطفان ، فتقاربوا ولم يكن قتال ، وصلىٰ بهم النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف .

فروى ابن عباس وجابر : (أن المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابَه قاموا إلى الظهر يصلون جميعاً . . ندموا إلاَّ كانوا أكبوا عليهم ، فقالوا : دعوهم ؛ فإن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ـ يعني : صلاة العصر ـ فإذا قاموا فيها . . فشدوا عليهم فاقتلوهم ، فنزل جبريل عليه السلام عليهم بصلاة الخوف) رواه البغوي في « تفسيره »[3] .

وجملة القول في صلاة الخوف : أن العدوّ إذا كان في غير جهة القبلة . . فرقهم الإمام فرقتين : فرقةً في وجه العدوّ ، والأخرىٰ تصلي معه ركعةً ، فإذا قام إلى الثانية . . فارقته وأتمت لنفسها وذهبت إلىٰ وجه العدوّ ، ثم جاء الواقفون فاقتدوا به وصلىٰ بهم الثانية ، فإذا جلس للتشهد . . قاموا فأتموا ثانيتهم ولحقوه ، ويسلم بهم ، أو يصلي بكل فرقة مرةً ، وهاتان الكيفيتان رواهما الشيخان[4] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢٨٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٩٣١) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦) .

(٣) تفسير البغوي (١/ ٤٧٢) .

(٤) البخاري (٤١٢٩ ، ٤١٣٦) ، ومسلم (٨٤٢ ، ٨٤٣) عن صالح بن خوّات عمن صلَّىٰ مع رسول صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع ، وعن سيدنا جابر رضي الله عنه .

فإن كان العدوّ في جهة القبلة. . صلىٰ بهم جميعاً ، فإذا سجد. . سجد معه صف سجدتيه وحرس الآخر ، فإذا قاموا. . سجد من حرس ولحقوه ، وسجد معه الثانية من حرس أولاً وحرس الآخر ، فإذا جلس للتشهد. . سجد من حرس ، وسلم بهم جميعاً . رواهما مسلم[1] .

فالأولىٰ : صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع ، والثانية : ببطن نخل ، والثالثة : بعسفان ، وهـٰذه الثلاث من أصح وأشهر ما روي في صلاة الخوف ، ووراء ذلك من الكيفيات المتباينات والخلافات المتعددات بحسب اختلاف الروايات ما يطول ذكره ويعز حصره .

قال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلىٰ صلاة الخوف أربعاً وعشرين مرة .

وما ذكرنا من الكيفيات هو فيما إذا كان الخوف متراخياً ، أما إذا التحم القتال. . فيصلي كل منهم علىٰ حسب حاله كيف أمكنه ، رجالاً وركباناً ، مستقبلي القبلة ومستدبريها ، مع الكر والفر والضرب المتتابع .

قال علماؤنا رحمهم الله تعالىٰ : وله ذلك في كل قتال مباح وفرار من أمر يخافه علىٰ روحه .

قال المؤلف غفر الله زلته وأقال عثرته : ففي هـٰذا أدل دليل علىٰ أن الصلاة لا رخصة في تركها ، ولا تحويلها عن وقتها الموقت لها ؛ إذ لو كان ذلك. . لكان هـٰؤلاء المجاهدون لعدوِّ الإسلام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بذلك ، وبهـٰذا تميزت عن سائر العبادات ؛ إذ كلها تسقط بالأعذار ، ويترخص فيها بالرخص ، وتدخلها النيابات ، ولا يجب[2] القتل في ترك شيء منها ، وتارك الصلاة كسلاً يقتل حداً ، ولا يَحْقِن دَمَه إسلامُهُ .

ثم إن وجوبها منوط بالعقل لا بالقدرة ، بدليل ما ذكروا : أن العاجز عن القيام يصلي

---

(١) مسلم (٨٤٠، ٨٤٠/ ٣٠٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .
(٢) نسخة بهامش (ب) : (ولا يحل) .

قاعداً ، فإن عجز . . فمضطجعاً علىٰ جنبه الأيمن ، فإن عجز . . فمستلقياً علىٰ قفاه ويومىء بطرفه ، ولهٰذا شبهت بالإيمان الذي لا يسقط بحال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَ ٱلْعَبْدِ وَبَيْنَ ٱلشِّرْكِ وَٱلْكُفْرِ . . تَرْكُ ٱلصَّلاَةِ » رواه مسلم[1] ، وقال : « ٱلْعَهْدُ ٱلَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ . . تَرْكُ ٱلصَّلاَةِ ، فَمَنْ تَرَكَهَا . . فَقَدْ كَفَرَ » رواه الترمذي وصححه[2] ، والأحاديث الواردة في هٰذا المعنىٰ كثيرة ، ولو تتبعتها . . لبلغت كراريس ، وسأورد منها إن شاء الله تعالىٰ طرفاً صالحاً في (فصل الصلاة) من قسم الشمائل[3] .

قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ : لو جاء محرم من شُقَّة بعيدة[4] مكابداً أن يدرك عرفة قبل طلوع الفجر ليلة النحر ، وكان حينئذ لم يصل العشاء ، وبقي من وقتها ما لو اشتغل بأدائها فاته الحج . . قالوا : ليس له تركها ، ولا أن يصليها صلاة شدة الخوف على الأصح ؛ لأنها أفضل من الحج ، ووقتها مضيق والحج موسع بالعمر[5] .

ومن أخلاق العامة : عظيم إنكارهم على المفطر في رمضان من غير عذر ، وتركهم النكير علىٰ تارك الصلاة ، وليسوا في التغليظ سواءً .

ومن أخلاقهم أيضاً : إنكارهم علىٰ تارك الجمعات ولا ينكرون علىٰ تارك الجماعات وشأنهما واحد ، وما أجدر تارك الصلاة بأن يُجنَّب مساجد المسلمين ومحاضرهم الكريمة ، وتستقذر مؤاكلته ومناكحته ، ويُبكَّت ويُقرَّع ، ويُعرَّف سوءُ حاله ، وأنه مباح الدم ؛ فربما ينزجر بذلك ، والله ولي التوفيق .

وفي هٰذه الغزوة : كانت قصة غَوْرَث بن الحارث ، وهي ما رويناه في « صحيح

---

(١) مسلم (٨٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٢) الترمذي (٢٦٢١) عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه .
(٣) كما سيأتي (٥٣٤) .
(٤) **الشُّقة** : المسافة .
(٥) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (١/ ٢٣٦) : (وبقي في المسألة وجه ثالث لم يذكره المصنف ، وهو : وجوب تأخير الصلاة ليدرك الحج ، وهٰذا الوجه هو الذي رجحه الإمام النووي في « الروضة » [٢/ ٦٣] وقال : إنه الصواب ، وجزم به القاضي حسين في « تعليقه » وجرىٰ عليه ابن الرفعة والإسنوي وغيره من المتأخرين ، وهو المعتمد ، وذلك لأن قضاء الحج صعب بخلافها ، وقد عهد تأخيرها للجمع) .

البخاري » عن جابر : أنهم لما قَفَلُوا . . نزلوا منزلاً وتفرقوا في الشجر ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرَةٍ فعلق بها سيفه .

قال جابر : (فنمنا نومةً ، ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا ، فجئناه ؛ فإذا عنده أعرابي جالس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَـٰذَا ٱخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ ، فَٱسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتاً ، فَقَالَ لِي : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قُلْتُ : ٱللهُ ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ » ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم)[1] .

وروي : أن السيف سقط من يده ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » قال : كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه ، فجاء إلىٰ قومه فقال : جئتكم من عند خير الناس ، وأسلم[2] .

وفي هـٰذه الغزوة : ذكر ابن هشام بروايته عن ابن إسحاق حديث جابر في شراء النبي صلى الله عليه وسلم جَمَلَهُ ، وذلك مخالف لإحدىٰ روايات مسلم عن جابر : أن ذلك كان في إقبالهم من مكة إلى المدينة .

قلت : وحديث جابر هـٰذا جامع لأنواع من الفوائد ، وقد خرجه الشيخان بألفاظ تتفق وتفترق ، وقد جمع بينها الحفاظ ، وردوا بعضها إلىٰ بعض .

روينا في « صحيحيهما » واللفظ للبخاري : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في غَزاة ، فأبطأ بي جملي وأعيا ، فأتىٰ عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « جَابِرُ » فقلت : نعم ، قال : « مَا شَأْنُكَ ؟ » **قلت** : أبطأ عليَّ جملي وأعيا فتخلفتُ ، فنزل فحَجَنه بِمِحْجَنه[3] ثم قال : « ٱرْكَبْ » فركبت ، فلقد رأيته أكفُّه عن رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم .

قال : « تزَوَّجْتَ ؟ » قلت : نعم ، قال : « بِكْراً أَمْ ثَيِّباً ؟ » قلت : بل ثيباً ، قال : « أَفَلاَ جَارِيَةً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ ؟ » قلت : إن لي أخوات ، فأحببت أن أتزوج امرأةً تجمعهن

---

(١) البخاري (٤١٣٥) ، **وقَفَلَ** : رجع ، **وسَمُرَة** : ضرب من شجر الطلح ، **واخترط** : سَلَّ ، **وصلتاً** : مجرداً من غمده .

(٢) أخرجه « ابن حبان » (٢٨٨٣) .

(٣) **حَجَنَ** : طَعَنَ ، **المِحْجَنُ** : العصا المعوج .

وتَمشُطهن وتقوم عليهن ، قال : « أَمَا إِنَّكَ قَادِمٌ ، فَإِذَا قَدِمْتَ . . فَٱلْكَيْسَ ٱلْكَيْسَ » .

ثم قال : « أَتَبِيعُ جَمَلَكَ ؟ » قلتُ : نعم ، فاشتراه مني بأوقية ، ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْلي وقدمتُ بالغداة ، فجئنا إلى المسجد فوجدته علىٰ باب المسجد ، قال : « ٱلآنَ قَدِمْتَ ؟ » قلت : نعم ، قال : « فَدَعْ جَمَلَكَ وَٱدْخُلْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ » فدخلت فصليت ، وأمر بلالاً أن يَزِن لي أوقيةً ، فوزن لي بلال فأرجح في الميزان ، فانطلقتُ حتىٰ ولَّيتُ ، فقال : « ٱدْعُ لِي جَابِراً » فقلت : الآن يَرُد عليَّ الجملَ ، ولم يكن شيء أبغض إليّ منه ، قال : « خُذْ جَمَلَكَ وَلَكَ ثَمَنُهُ » فهـٰذه إحدىٰ روايات البخاري[1] ، وباقي رواياته وروايات مسلم تزيد وتنقص .

هـٰأنا أذكر ما سَنَحَ من فوائد مجموع رواياته إن شاء الله تعالىٰ .

من ذلك : اختلافهم في أصل الثمن من أوقية إلىٰ ست أواقي ، زاد البخاري : (بثمان مئة) ، وفي رواية : (بعشرين ديناراً) وأكثر الروايات : (أوقية) كما نقله البخاري عن الشعبي ، وعليها حملوا باقي الروايات .

ومنها : أن في إحدىٰ رواياته أنه اشترط حُملانه إلى المدينة ، ففيه حجة لمالك وأحمد ومن وافقهم في جواز مثل ذلك ، ومنعه الشافعي وأبو حنيفة ؛ لحديث النهي عن بيع وشرط ، والنهي عن بيع الثُّنْيَا[2] ، وتأولوا قصة جابر بأنها قضيّة عين يتطرق إليها احتمالات كثيرة .

ومنها : أن في رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ماكسه وطلب منه البيع . . قال جابر : فإن لرجل عليّ أوقية ذهب فهو لك بها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَخَذْتُهُ بِهَا »[3] ففيه دليل علىٰ أن البيع ينعقد بلفظه وما يؤدي معناه من الكنايات ، وقد يحتج به من يمنع انعقاده بالمعاطاة ، ولا حجة فيه ؛ فإن المختار انعقاد البيع بها ، وإنما يجوز مع حضور العوضين فيعطي ويأخذ .

---

(١) البخاري (٢٠٩٧) .
(٢) الثُّنْيَا : الاستثناء في البيع .
(٣) البخاري (٢٣٠٩) نحوه .

ومنها : أن في إحدىٰ رواياته : « أَمْهِلُوا حَتَّىٰ تَدْخُلُوا لَيْلاً ـ أي : عشاءً ـ كَيْ تَمْتَشِطَ ٱلشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ ٱلْمُغِيبَةُ »[1] ففيه استعمال مكارم الأخلاق والشفقة على المسلمين ، والنهي عن تتبع العورات ، وليس فيه معارضة لحديث النهي عن الطُّرُوق ليلاً[2] ؛ لأنه فيمن جاء بغتةً ، وأما هـٰؤلاء . . فقد تقدم خبر مجيئهم .

والكَيْسُ : كلمة مشتركة لمعان ، والمراد هنا : حثه علىٰ طلب الولد .

وفيه من الفوائد : جواز الوكالة في أداء الدين ، واستحباب إرجاح الوزن ، والزيادة في القضاء ؛ لأن في رواية : أنه زاده قيراطاً ، فقال جابر : (لا تفارقني زيادةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم)[3] فحفظه حتىٰ أصيب منه يوم الحَرَّة ، ففيه التبرك بآثار الصالحين .

وفيه جواز طلب البيع ممن لم يعرض سلعته والمماكسةِ له ، ففي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « أَتُرَانِي مَاكَسْتُكَ لِآخُذَ جَمَلَكَ ؟! ٱلْجَمَلُ وَٱلثَّمَنُ لَكَ »[4] .

وفيه : استحباب نكاح الأبكار ، وجواز ملاعبة النساء .

وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث انبعث جمل جابر رضي الله عنه بعد أن أعيا وكَلَّ ، فصار من أنشط الإبل .

وفيه منقبة لجابر ؛ حيث ترك حظ نفسه لما يصلح لحال أخواته .

وفيها : كانت **غزوة بني المُصْطَلق** من خُزاعة ، وهي **غزوة المُرَيسِيع** ، قال موسى بن عقبة : كانت سنة أربع ، وقال ابن إسحاق : سنة ست ، وصُوِّب الأول ، بدليل : أن فيها حديثَ الإفك ، وجرىٰ فيه ذكر سعد بن معاذ ، وسعد أصيب يوم الخندق ، والخندق على الأصح سنة أربع ، فعلم بهـٰذا أن المُرَيسِيع قبلها .

---

(١) البخاري (٥٠٧٩) ، **والمُغيبة** : التي غاب عنها زوجها .
(٢) **الطُّروق** : الدخول ليلاً لمن ورد من السفر .
(٣) البخاري (٢٣٠٩) .
(٤) أخرجه مسلم (٧١٥) بنحوه .

وكان من خبر بني المصطلق أنهم أجمعوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحين علم بهم . . خرج إليهم واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري ، فلقيهم النبي صلى الله عليه وسلم بالمُرَيسِيع من ناحية قُدَيد[1] ، فهزم الله بني المصطلق ، وقتل من قتل منهم ، ونفَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

وكان شعار المسلمين يومئذ : يا منصور أمت ، وأصيب يومئذ هشام بن صُبابة من المهاجرين بأيدي المسلمين خطأً ، فقدم أخوه مِقْيس من مكة وأظهر الإسلام ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه ، ثم عدا علىٰ قاتل أخيه فقتله ورجع إلىٰ مكة مرتداً ، ففي ذلك يقول : [من الطويل]

وَكَانَتْ هُمُومُ ٱلنَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ ... تُلِمُّ فَتَحْمِينِي وِطَاءَ ٱلْمَضَاجِعِ

حَلَلْتُ بِهِ وِتْرِي وَأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتِي ... وَكُنْتُ إِلَى ٱلْأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ

ثم إنه قتل عام الفتح وهو متعلق بأستار الكعبة ، ونزل فيه قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ الآية .

وفي هٰذه الغزوة : سبب نزول (سورة المنافقين) وذلك أنه اقتتل مهاجري وأنصاري ، فتداعى الفريقان ، فأنف عبد الله بن أبيّ وقال لقومه : لا تنفقوا علىٰ من عند رسول الله حتىٰ ينفضوا ، يقول : إنما حملهم علىٰ هٰذا نفقاتُكم التي تنفقونها عليهم ، فلو تركتموهم . . لاحتاجوا وانفضوا من حوله ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة . . ليخرجنّ الأعز منها الأذل . . . في كلام كثير قاله .

فحمل زيد بن أرقم الأنصاري مقالته إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم ، فحلف : ما قلت شيئاً من ذلك ، وإن زيداً لكاذب ، وصدقه من حضر من الأنصار ، وكذبوا زيداً ولاموه حتى استحىٰ وندم ، ووقع الخوض في ذلك ، فارتحل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار بهم يومهم وليلتهم وصدراً من يومهم الثاني ، ثم نزل بهم ، فلم يكن إلاَّ أن وجدوا مسَّ الأرض وَقَعُوا نياماً ، وإنما فعل ذلك ليشغلهم عن الحديث الذي كانوا فيه بالأمس .

---

(١) **قديد** : اسم موضع قرب مكة .

ولما وافىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . . نزلت عليه (سورة المنافقين) فلما نزلت . . أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد وقال : « يَا زَيْدُ ؛ إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ صَدَّقَكَ وَأَوْفَىٰ بِأُذُنِكَ »[1] .

وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة ، فلما أراد دخولها . . منعه ابنه عبد الله بن عبد الله وقال : والله ؛ لا تدخلها إلاَّ بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولتعلمن اليوم من الأعز من الأذل ، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن : خلِّ عنه ، فلم يلبث عبد الله بن أبي بعدها إلاَّ قليلاً ومات علىٰ نفاقه .

قالوا : ولما نزلت السورة . . قيل لعبد الله بن أبي : قد نزل فيك آيات شديدة ، فاذهب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لك ، فألوىٰ برأسه استكباراً ، فنزل فيه قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ .

ونزل قوله تعالىٰ : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : فلا يعطي أحد أحداً شيئاً إلاَّ بإذنه ، ولا يمنعه إلا بمشيئته .

وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

وقال الجنيد بن محمد البغدادي : خزائن السماوات : الغيوبُ ، وخزائن الأرض : القلوبُ .

وكان أبو بكر الشبلي يقول : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فأين تذهبون ؟! ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أنه إذا أراد أمراً يسره .

وكان من سبايا بني المصطلق : أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكان أبوها قائد الجيش يومئذ ، وصارت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، وكاتبته ، وجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها ، وكانت مُلاَّحة[2] ؛ مَنْ رآها . . أحبها ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكِ ؟ أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ » قالت : نعم ، قال : « قَدْ فَعَلْتُ » فتزوجها صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أخرج الشطر الأول البخاري (٤٩٠٠) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

(٢) المُلاَّحَةُ : بارعة الجمال .

ولما شاع في الناس خبر تزويجه لها. . أرسلوا ما بأيديهم من سبي بني المصطلق وقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت عائشة رضي الله عنها : (فما أعلم امرأةً كانت علىٰ قومها أعظم بركةً منها ؛ فلقد أُعتِق بسببها مئة أهل بيتٍ)[1] .

وبعد أن أسلم بنو المصطلق بعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط ليأتي بصدقاتهم ، فتلقوه للإكرام ، فخافهم ورجع ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم أرادوا قتله ، فجاؤوا خلفه وحلفوا ما أرادوا ذلك ، ثم بعد ذلك بعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره أن يخفي عنهم عسكره حتىٰ يتبين أمرهم ، فوجدهم طائعين مؤدين .

قيل : ونزل في الوليد بن عقبة قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ ﴾ .

وفي هـٰذه الغزاة : نزلت رخصة التيمم ، وسببها : ما رويناه في « الصحيحين » وغيرهما بألفاظ تختلف وتأتلف عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ إذا كنا بالبَيْداء أو بذات الجيش . . انقطع عِقْدٌ لي ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا علىٰ ماء ، وليس معهم ماء .

فأتى الناس إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : ألا ترىٰ ما صنعت عائشة ؟! أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس معه وليسوا علىٰ ماء ، وليس معهم ماء! .

فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضعٌ رأسَه علىٰ فخذي قد نام ، فقال : حبستِ رسول الله صلى الله عليه وسلم والناسَ وليسوا علىٰ ماء ، وليس معهم ماء ؟! قالت : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يَطْعُن بيده في خاصرتي ، ولا يمنعني من التحرك إلاَّ مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ فخذي .

فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أصبح علىٰ غير ماء ، فقام رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٧) بنحوه .

عليه وسلم حين أصبح علىٰ غير ماء[١] ، فأنزل الله تعالى آية التيمم ، فتيمموا ، فقال أسيد بن حضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت عائشة رضي الله عنها : فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه فوجدنا العِقد تحته[٢] .

اختلفوا في آية التيمم المذكورة في حديث عائشة رضي الله عنها ، فقيل : آية المائدة ، وقيل : آية النساء ، وقال ابن العربي : هـٰذه معضلة ما وجدت لدائها من دواء ، يعني : قول عائشة : (فنزلت آية التيمم)[٣] .

قلت : والأقرب أنها آية النساء ، وله دلائل كثيرة ، والله أعلم .

ويستفاد من حديث عائشة رضي الله عنها هـٰذا بعد مقصوده الأكبر وهو التيمم : جواز عارية الحلي وغيره ، والمسافرة به بإذن المعير ؛ ذلك لأن في إحدىٰ رواياته : أن العقد كان لأسماء أعارته عائشة ، وفيه الاعتناء بحفظ حقوق الناس وإن قلَّت ولَحِقَ مشقة في حفظها ، وفيه تأديب الرجل ابنته وإن كانت كبيرةً مزوجةً خارجةً عن بيته .

واعلم : أن التيمم مما خصت به هـٰذه الأمة ؛ توسعةً عليها وشرفاً لها لشرف نبيها ، قال صلى الله عليه وسلم : « فُضِّلْنَا عَلَى ٱلنَّاسِ بِثَلاَثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ ٱلْمَلاَئِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا ٱلأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً ، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُوراً »[٤] .

أما أحكام التيمم . . فإنه يجزىء عن كل حدث .

وشرائطه خمس : وجود العذر من سفر أو مرض ، ودخول الوقت ، وطلب الماء ، وتعذر استعماله ، والتراب الطاهر .

وفرائضه أربع : نية الفرض ، ومسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين فصاعداً ، والترتيب .

وسننه : التسمية ، وتقديم اليمنىٰ على اليسرىٰ ، والموالاة .

---

(١) في (ج) : (. . . ماء فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ غير ماء . . .) ، ولفظه في « الصحيحين » : « فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أصبح علىٰ غير ماء ، فأنزل الله . . . » .

(٢) البخاري (٣٦٧٢) ، ومسلم (٣٦٧) .

(٣) انظر « أحكام القرآن » (١/ ٥٦١) .

(٤) أخرجه مسلم (٥٢٢) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

ويبطله : ما أبطل الوضوء ، ووجود الماء في غير الصلاة .

وصاحب الجبائر يمسح عليها ولا يعيد إن كان وضعها علىٰ طهر ، ولا يصلي بتيمم واحد أكثر من فريضة ، ويتنفل ما شاء ، والله أعلم ، هـٰذا مذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، وسيأتي كيفية تيممه صلى الله عليه وسلم ، وما اختاره المحدثون من ذلك في قسم الشمائل إن شاء الله تعالىٰ ، وبالله التوفيق[١] .

وفي هـٰذه الغزوة : جرىٰ حديث الإفك ، وقد اتفق علىٰ تخريجه الشيخان وألفاظهم فيه متقاربة ، وقد كفاناها أبو عبد الله الحميدي في « الجمع بين الصحيحين » له ، فرواه عنهما من حديث الزهري عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقَّاص الليثي وعبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود من حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله تعالىٰ مما قالوا .

قال الزهري : وكلهم حدثني طائفةً من حديثها ، وبعضهم كان أوعىٰ له من بعض وأثبتَ له اقتصاصاً ، وقد وَعَيْتُ عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة رضي الله عنها ، وبعض حديثهم يُصدِّق بعضاً ؛ قالوا :

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً . . أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمُها . . خرج بها معه ، قالت : فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، فخرجتُ معه بعدما أُنزل الحجاب ، فأنا أُحمل في هَوْدجي وأُنزل فيه ، فسرنا حتىٰ إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة . . آذَنَ ليلةً بالرحيل[٢] ، فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتىٰ جاوزت الجيش ، فلما قضيت من شأني . . أقبلت إلى الرحل فلمست صدري ، فإذا عِقْد لي من جَزْع أظفار قد انقطع ، فرجعتُ فالتمستُ عِقْدي ، فحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هَوْدَجي فرحلوه علىٰ بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه ، وكان

---

(١) انظر (ص٥٣٣) .
(٢) آذَنَ : أعلم .

النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ، ومنهم من قال : لم يَهْبُلْن ولم يَغْشَهُنَّ اللحم[١] ، إنما يأكلن العُلْقة[٢] من الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوا ثقل الهودج ، ومنهم من قال : خفة الهودج ، فاحتملوه وكنت جاريةً حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا فوجدتُ عِقدي بعدما استمر الجيش ، فجئت منزلهم وليس فيه أحد ، ومنهم من قال : فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبينما أنا جالسة . . غلبتني عيناي فنمت .

وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج[٣] فأصبح عند منزلي ، فرأىٰ سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني ، فخمَّرْتُ وجهي بجلبابي ، ووالله ما يكلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه ، وهَوَىٰ حتىٰ أناخَ راحلته فوطيء علىٰ يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة حتىٰ أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين ، وفي رواية صالح بن كيسان وغيره : مُوغِرين في نحر الظهيرة .

قالت : فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولىٰ كبر الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت بها شهراً والناس يُفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر ، وهو يَرِيبُني في وجعي أني لا أرىٰ من النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم اللُّطْف الذي كنت أرىٰ منه حين أَشتكي ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : « كَيْفَ تِيكُمْ ؟ » ثم ينصرف ، فذلك يَرِيبني ولا أشعر بالشر حتىٰ نَقَهْتُ ، فخرجت أنا وأم مِسْطح قِبَلَ الْمَناصع وهو مُتَبَرَّزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلىٰ ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُفَ[٤] قريباً من بيوتنا ، وأَمرُنا أمر العرب الأُول في التبرز قِبَل الغائط ، وكنا نتأذىٰ بالكُنُف أن نتخذها عند بيوتنا .

فأقبلت أنا وأم مِسْطح ـ وهي ابنة أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أُثاثة بن عَبَّاد بن المطلب ـ حين

---

(١) **لم يَهْبُلْنَ** : لم يَثْقُلْنَ باللحم .
(٢) **العُلْقَةُ** : القَليل .
(٣) **أدلج** : سار أول الليل .
(٤) **الكُنُف** : الأمكنة التي أعدت لقضاء الحاجة .

فرغنا من شأننا نمشي ، فعثرتْ أم مِسْطح في مِرْطها[1] فقالت : تَعِس مِسْطح ، فقلتُ لها : بئس ما قلتِ ، أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟! فقالت : يا هَنْتَاه[2] ؛ ألم تسمعي ما قال ؟! قلتُ : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً علىٰ مرضي .

فلما رجعت إلىٰ بيتي . . دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم وقال : « كَيْفَ تِيكُمْ ؟ » فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت أبوي فقلتُ لأمي : يا أمتاه ؛ ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : يا بُنَيَة ؛ هَوِّني علىٰ نفسك الشأن ، فوالله ؛ لقلَّما كانت امرأة قط وضيئةً عند رجل يحبها ولها ضرائر . . إلاَّ أكثرن عليها ، فقلت : سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهـٰذا ؟!

قالت : فبكيت تلك الليلة حتىٰ أصبحتُ لا يرقأ لي دمعٌ ولا أكتحل بنومٍ ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله .

قالت : فأما أسامة . . فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم ، فقال أسامة : هم أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم والله إلاَّ خيراً ، وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ؛ لم يُضيِّق الله عليك ، والنساء سواها كثيرٌ ، وسَلِ الجارية . . تَصْدُقْك .

قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيرة فقال : « أَيْ بَرِيرَةُ ؛ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئاً يَرِيبُكِ ؟ » قالت له بَرِيرة : لا والذي بعثك بالحق ؛ إن رأيت منها أمراً أغمِصُه عليها[3] أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجنُ[4] فتأكله .

قالت : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن

---

(١) **المِرْطُ** : الإزار .
(٢) **يا هَنْتَاه** : يا هـٰذه .
(٣) **أَغْمِصُه عليها** : أعيبها به .
(٤) **الداجن** : الشاة التي تألف البيوت .

سلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : « مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ؟ فَوَٱللهِ ؛ مَا عَلِمْتُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلاَّ خَيْراً ، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْراً ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ أَهْلِي إِلاَّ مَعِي » .

قالت : فقام سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل فقال : يا رسول الله ؛ أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس . . ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج . . أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه[1] ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية ، ومنهم من قال : اجتهلته الحمية[2] ، فقال لسعد بن معاذ : كذبتَ لعمر الله ؛ و الله لا تقتله ولا تقدِر علىٰ ذلك ، فقام أُسَيد بن حُضَير وهو ابن عم سعدٍ ـ يعني ابن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة : كذبتَ ، لعمر الله ؛ لنقتلنه ؛ فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج ، حتىٰ هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضهم حتىٰ سكتوا وسكت .

قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوماً حتىٰ أظن أن البكاء فالقٌ كبدي .

قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي ؛ إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، فبينا نحن كذلك ؛ إذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها ، وقد مكث شهراً لا يوحىٰ إليه في شأني بشيء ، فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً . . فَسَيُبَرِّئُكِ ٱللهُ ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ . . فَٱسْتَغْفِرِي ٱللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ ٱلْعَبْدَ إِذَا ٱعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ . . تَابَ ٱللهُ عَلَيْهِ » .

---

(١) **الفَخِذُ** : الجماعة من الأقارب دون البطن والقبيلة .

(٢) **احتملته** : أغضبته ، **واجتهلته** : حملته على الجهل .

فلما قضىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته.. قَلَصَ دمعي حتىٰ ما أحس قطرةً ، وقلت لأبي : أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله ؛ ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قالت أمي : والله ؛ ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت : إني والله لقد علمتُ أنكم سمعتم ما تحدث به الناس حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلتُ : إني بريئة والله يعلم إني لبريئة.. لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفتُ لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة.. لتصدقني ، فوالله ؛ ما أجد لي ولكم مثلاً إلاّ أبا يوسف إذ قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت علىٰ فراشي وأنا والله حينئذٍ أعلم أني بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنتُ أظن أن يُنزل في شأني وحياً يتلىٰ ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلىٰ ، ومنهم من قال : فلأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم الله بالقرآن في أمري ، ولكن كنتُ أرجو أن يرىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يُبَرئني الله بها ، فوالله ؛ ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتىٰ أنزل الله علىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء[1] ، حتىٰ إنه ليتحدر منه مثل الجُمان من العرق[2] في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه .

قالت : فسُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « يَا عَائِشَةُ ؛ اِحْمَدِي ٱللهَ ـ ومنهم من قال : أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ ـ أَمَّا ٱللهُ. فَقَدْ بَرَّأَكِ » فقالت لي أمي : قومي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : لا والله ؛ لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله ؛ هو الذي أنزل براءتي ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ العشر الآيات .

---

(١) **البُرحاء** : شدة الكرب .

(٢) **يتحدَّر** : يَنْصب ، **والجُمَان** : اللؤلؤ الصغار ، وقيل : حبٌّ يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ .

فلما أنزل الله هـٰذا في براءتي . . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق علىٰ مِسْطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله ؛ لا أنفق علىٰ مِسْطح شيئاً أبداً بعدما قال لعائشة رضي الله عنها ما قال ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : بلىٰ والله ؛ إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلىٰ مِسْطح الذي كان يُجْري عليه وقال : والله ؛ لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة رضي الله عنها : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينبَ بنتَ جحش عن أمري فقال : « يَا زَيْنَبُ ؛ مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ ؟ » فقالت : يا رسول الله ؛ أحمي سمعي وبصري ، والله ؛ ما علمت عليها إلاَّ خيراً ، قالت عائشة رضي الله عنها : وهي التي كانت تساميني[1] من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله تعالىٰ بالورع ، قالت : وطفقتْ أختُها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

قال ابن شهاب : فهـٰذا الذي بلغني من حديث هـٰؤلاء الرهط[2] .

قلت : ووراء ذلك زيادات كثيرة ؛ ففي رواية : قالت عائشة رضي الله عنها : والله ؛ إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقولن : سبحان الله ، فوالذي نفسي بيده ، ما كشفت من كَنَف أنثىٰ ، قالت : ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله[3] .

قيل : كان حصوراً لا يأتي النساء ، وفي رواية : أن الذي تولىٰ كبره منهم عبد الله بن أبيّ ، وفي أخرىٰ : أنه حسان ، والذي سمي من عصبة أهل الإفك : عبد الله بن أبيّ وحسان ومسطح وحمنة ، وروى البخاري في (كتاب الاعتصام) من « جامعه » معلقاً وأسنده أبو داوود : (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلدهم الحد) يعني ثمانين[4] .

---

(١) تساميني : أي : تطاولني في الحظوة عنده .
(٢) الجمع بين الصحيحين (٣٢٣١) .
(٣) البخاري (٤١٤١) .
(٤) البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : قول الله تعالىٰ : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وأبو داوود (٤٤٧٤ ، ٤٤٧٥) .

فصل

في فوائد هٰذا الحديث بعد مقصوده الأعظم

وهو : تنزيه عائشة وبراءتها من قول أهل الإفك

قال النووي رحمه الله تعالىٰ : وهي براءة قطعية بنص القرآن ، فلو تشكك فيها إنسان والعياذ بالله . . صار كافراً بإجماع المسلمين ، قال ابن عباس وغيره : لم تزن امرأة نبي قط ، ففيه منقبة ظاهرة لعائشة رضي الله عنها ، وفضيلة لأبيها وأمها ، وفيه فضيلة لسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وزينب بنت جحش وصفوان بن المعطل ومسطح بن أثاثة رضي الله عنهم .

وفيه من الفوائد : جواز رواية الحديث الواحد عن جماعة عن كل واحد منهم قطعةً مبهمةً إذا كان كل واحد منهم بصفة العدالة .

وفيه : ثبوت القرعة ، وقد ثبت أصلها من الكتاب والسنة فصارت كالإجماع .

وفيه : أنه يستحب أن يستر عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم تكن فيه فائدة .

وفيه : حسن الأدب عند المَوْجِدة بحيث يقلل من اللطف المعهود منه ؛ ليتفطن له .

وفيه : كراهية الإنسان صديقه إذا آذىٰ أهل الفضل كما صنعت أم مسطح .

وفيه : فضيلة البدريين وتعظيمهم في قلوب الناس .

وفيه : أن الزوجة لا تذهب إلىٰ بيت أبويها إلاَّ بإذن زوجها .

وفيه : جواز البحث عن كل أمر يتعلق بالباحث ، وأما غيره . . فمنهي عنه ؛ إذ هو تجسس وفضول .

وفيه : جواز الاستشهاد بالآيات في الأمور العارضات .

وفيه : استحباب صلة الأرحام مع إساءتهم ، وأنه يستحب إذا حلف على القطيعة أن يكفِّر .

وفيه : إكرام حبيب الحبيب كما ورد في رواية : أن عائشة رضي الله عنها كانت تكرم حسان وترد علىٰ من ينهاها بأنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفيه : سب المتعصب لباطل كما صنع سعد بن معاذ بسعد بن عبادة رضي الله عنهما .

فصل

[في أحكام القذف]

أما **أحكام القذف** : فإن كل من رمىٰ غيره بالزنا . . وجب عليه الحد ، وذلك بثمان شرائط : ثلاث في القاذف وهو : أن يكون بالغاً ، عاقلاً ، غير والد للمقذوف ، وخمس في المقذوف وهو : أن يكون مسلماً ، بالغاً ، عاقلاً ، حراً ، عفيفاً .

ويسقط حد القذف بأربعة أشياء : إقامة البينة ، أو عفو المقذوف ، أو إقراره ، أو اللعان للزوجة .

ويعزر قاذف غير المحصن ، وتقبل شهادة القاذف إذا تاب عند الأكثرين .

فائدة

[في اعتذار حسان رضي الله عنه مما قال]

روىٰ أهل السير : أن صفوان بن المعطل عدا علىٰ حسان فضربه بالسيف ، فوثب ثابت بن قيس بن شماس علىٰ صفوان فجمع يديه إلىٰ عنقه بحبل ، وانطلق به يقوده ، فلقيه عبد الله بن رواحة فنهاه ، وانطلقوا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستوهب من حسان ما أصابه ، وأعاضه عن ذلك حائطاً ، ووهبه سيرين أمةً قبطيةً ، وهي أم ولده عبد الرحمـٰن ، وقال حسان بن ثابت يعتذر مما قال : [من الطويل]

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَىٰ مِنْ لُحُومِ ٱلْغَوَافِلِ (١)

عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... كِرَامِ ٱلْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ

مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ ٱللهُ خِيمَهَا ... وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ (٢)

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ ٱلَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَامِلِي

وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيتُ وَنُصْرَتِي ... لِآلِ رَسُولِ ٱللهِ زَيْنِ ٱلْمَحَافِلِ

---

(١) **حَصَانٌ** : محصنة عفيفة ، **رَزَانٌ** : كاملة العقل ، **تُزَنُّ** : تتهم ، **غرثىٰ** : جائعة ، **الغوافل** : العفيفات .

(٢) **الخِيمُ** : الطبيعة .

لَـهُ رَتَـبٌ عَـالٍ عَلَـى ٱلنَّـاسِ كُلِّهِـمْ   تَقَـاصَـرُ عَنْـهُ سَـوْرَةُ ٱلْمُتَطَـاوِلِ[1]
فَـإِنَّ ٱلَّـذِي قَـدْ قِيـلَ لَيْـسَ بِـلاَئِـطٍ   وَلَكِنَّـهُ قَـوْلُ ٱمْـرِىءٍ بِـي مَـاحِـلِ[2]

وفي المتفق عليه من حديث مسروق بن الأجدع قال : دخلت علىٰ عائشة وعندها حسان ينشدها شعراً فقال :

حَصَـانٌ رَزَانٌ مَـا تُـزَنُّ بِـرِيبَـةٍ   وَتُصْبِـحُ غَـرْثَـىٰ مِـنْ لُحُـومِ ٱلْغَـوَافِـلِ

فقالت له عائشة رضي الله عنها : لكنك لستَ كذلك ، قال مسروق : فقلت لها : أتأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ؟! قالت : وأي عذاب أشد من العمى ؟! وقالت : إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

وفي هـٰذه السنة ـ وقيل : في الخامسة ـ : كانت **غزوة الخندق** ، **وسببها علىٰ ما ذكروا** : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أجلىٰ بني النضير . . جعل رئيسهم حيي بن أخطب يسعىٰ بالغوائل ، وذهب إلىٰ مكة في رجال من قومه ، ودعوا قريشاً إلىٰ حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم أهدىٰ سبيلاً من النبي ، وفيهم نزل قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ الآية ، فلما أجابتهم قريش . . تقدموا إلىٰ قبائل قيس عيلان ، فدعوهم إلىٰ مثل ذلك فأجابوهم ، فسارت تلك القبائل .

ولما علم بهم النبي صلى الله عليه وسلم . . شرع في حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً ، فَجَهَدُوا أنفسهم في حفره متنافسين في الثواب ، لا ينصرف أحد منهم لحاجة إلاَّ بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يكابد معهم .

روينا في « صحيح البخاري » عن البراء بن عازب قال : رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل

---

(١) **رَتَبٌ** : ما ارتفع من الأرض ، **والسَّوْرَةُ** : الوثبة .
(٢) **لائطٌ** : لاَصِقٌ ، **والماحل** : الماشي بالنميمة .
(٣) البخاري (٤١٤٦) ، ومسلم (٢٤٨٨) ، **وينافح** : يدافع .

من تراب الخندق حتىٰ وَارَىٰ عني الغبارُ جِلدةَ بطنه ، وكان كثير الشعر ، وجعل يَرْتجز بشعر ابن رواحة :

وَٱللهِ لَــوْلاَ ٱللهُ مَــا ٱهْتَــدَيْنَــا ... وَلاَ تَصَــدَّقْنَــا وَلاَ صَلَّيْنَــا

فَــأَنْــزِلَــنْ سَكِينَــةً عَلَيْنَــا ... وَثَبِّــتِ ٱلأَقْــدَامَ إِنْ لاَقَيْنَــا

إِنَّ ٱلأُلَــىٰ قَــدْ بَغَــوْا عَلَيْنَــا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَــةً أَبَيْنَــا

ورفع بها صوته : « أبينا أبينا »[1] .

ولما رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحملون التراب علىٰ مُتونهم ، ورأىٰ ما بهم من النَّصَب والجوع . . قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنَّ ٱلْعَيْشَ عَيْشُ ٱلآخِرَةِ ، فَٱغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَٱلْمُهَاجِرَةِ » ، فقالوا مجيبين له :

نَحْــنُ ٱلَّــذِيــنَ بَــايَعُــوا مُحَمَّــدَا ... عَلَــى ٱلْجِهَــادِ مَــا بَقِينَــا أَبَــدَا[2]

ومرةً ارتجزوا باسم رجل من المسلمين كان اسمَه جُعَيْل ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَمْراً ، فقالوا :

سَمَّــاهُ مِــنْ بَعْــدِ جُعَيْــلٍ عَمْــرَا ... وَكَــانَ لِلْبَــائِــسِ يَــوْمــاً ظَهْــرَا

فيجيبهم النبي صلى الله عليه وسلم في قول : ظهراً عمراً[3] .

وجرىٰ في أثناء حفر الخندق معجزات باهرة وبركات ظاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كحديث جابر وأبي طلحة وضيافتهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وخبر الكُدْية التي عرضت لهم في الخندق[4] ، وغير ذلك مما ستراه مبيناً في قسم المعجزات من هٰذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ[5] .

---

(١) البخاري (٤١٠٦) .

(٢) البخاري (٤١٠٠) .

(٣) أي : إذا مرُّوا (بعمرو) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمراً » ، وإذا مرُّوا (بظهر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ظهراً » ، انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢١٧) .

(٤) **الكُدْية** : القطعة الصلبة .

(٥) انظر (ص ٤٤٧) .

ولما فرغوا من الخندق.. أقبلت جموع الأحزاب كما قال الله تعالىٰ : ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي : من قبل المشرق ، وهم : أسد وغ
طفان في ألف ، عليهم عوف بن مالك النصري[1] وعيينة بن حصن الفَزاري في قبائل أخر ، ونزلوا إلىٰ جانب أحد ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهم قريش وكنانة والأحابيش ومن انضاف إليهم من أهل تِهامة ، عليهم أبو سفيان بن حرب في عشرة آلاف ، فنزلوا بِرُومَةَ من وادي العقيق ، وخرج صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف ، وجعل ظهره إلىٰ سلع ، والخندق بينه وبين العدو ، وأمر بالنساء والذراري فرفعوا في الآطام .

ولما نزل جموع الأحزاب منازلهم.. اشتد الحصار على المسلمين ، ونجم النفاق ، واضطرب ضعفاء الدين كما قال الله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وما بعدها من الآيات إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ .

وزاد الأَمر اشتدادا : أنْ تقدم حيي بن أخطب إلىٰ كعب بن أسد سيد بني قريظة وسأله أن ينقض العهد الذي بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبىٰ عليه ، فلم يزل يخادعه بقول الزور ويمنيه أماني الغرور حتىٰ سمح له بالنقض علىٰ أن أعطاه العهد : لئن رجعت تلك الجموع خائبةً أن يرجع معه إلىٰ حصنه يصيبه ما أصابه .

ولما انتهىٰ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نقض بني قريظة.. بعث إليهم سعد بن معاذ ـ وكانوا حلفاءه في الجاهلية ـ وبعث معه سعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم : « إِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ نَاقِضِينَ . . فَٱلْحَنُوا لِي لَحْناً أَعْرِفْهُ وَلاَ تَفُهَمُهُ ٱلنَّاسُ ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ عَلَى ٱلْوَفَاءِ . . فَأَخْبِرُونِي ظَاهِراً » فوجدوهم علىٰ أخبث ما بلغهم عنهم ، وشاتموهم ، فلما رجعوا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. قالوا : عَضَلٌ والقارة[2] .

---

(١) قال ابن حجر العسقلاني في « الإصابة » (٣/ ١٨٠) : (والصواب : مالك بن عوف ، وقد نبَّه علىٰ وهمه في ذلك أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة مالك بن عوف من « تاريخه » [٥٦/ ٤٨٩]) .
(٢) أي : إن القوم غدروا كما غدرت عضل والقارة بأصحاب الرجيع .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلىٰ عيينة بن حصن الفَزاري والحارث بن عوف المري قائدَي غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة علىٰ أن يفرقا الجمع ، وبعد المراوضة في ذلك استشار صلى الله عليه وسلم السعدين سيدي الأنصار ، فقالا : يا رسول الله ؛ أمر أمرك الله به لا بد منه ، أم أمر تحبه فنصنعه ، أم لنا ؟ فقال : « بَلْ لَكُمْ ؛ رَأَيْتُ ٱلْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ شَوْكَتَهُمْ » فقال سعد بن معاذ : قد كنا نحن وهٰؤلاء على الشرك وهم لا يطمعون بتمرة منا إلاَّ قرىً أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟! والله ؛ لا نعطيهم إلاَّ السيف ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ وَذَاكَ » وترك ما كان هم به من ذلك .

ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدو ليس بينهم قتال إلاَّ الرمي بالنبل والحصا ، ومرةً جاء عكرمة بن أبي جهل وعمرو بن عبد وُدٍّ في فوارس من قريش ، فلما وقفوا على الخندق . . قالوا : إن هٰذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها! ثم أقحموا خيولهم مهزماً من الخندق ، وجالوا في السَّبخة ، فخرج إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين ، فأخذ عليهم الثَّغرة التي اقتحموا منها وأقبلت خيل قريش نحوهم ، فقتل علي عمرو بن عبد وُدٍّ ، وألقىٰ عكرمة بن أبي جهل رمحه وولَّوا منهزمين ، ففي ذلك قال حسان : [من المتقارب]

فَـــرَّ وَأَلْقَـــىٰ لَنَـــا رُمْحَـــهُ لَعَلَّـــكَ عِكْـــرِمَ لَـــمْ تَفْعَـــلِ
وَوَلَّيْـــتَ تَعْـــدُو كَعَـــدْوِ ٱلظَّلِيـــمِ مَـــا إِنْ يَحُـــورُ عَـــنِ ٱلْمَعْـــدِلِ [1]
وَلَـــمْ تُلْـــقِ ظَهْـــرَكَ مُسْتَـــأْنِساً كَـــأَنَّ قَفَـــاكَ قَفَـــا فُـــرْعُـــلِ [2]

وسقط نوفل بن عبد الله المخزومي في الخندق ، فنزل إليه علي فقتله ، وأصيب يومئذ سعد بن معاذ ؛ رماه حِبان بن العَرِقة بسهم في أَكْحَلِه[3] ، فقال سعد رضي الله عنه : اللهم ؛ إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئاً . . فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم . .

---

(١) **يَحُور** : يرجع ، **والظَّلِيمُ** : ذكر النعام .
(٢) **الفُرْعُل** : ولد الضبع .
(٣) **الأَكْحَلُ** : وريد في وسط الذراع .

فاجعله لي شهادةً ، ولا تمتني حتىٰ تُقِرَّ عيني من بني قريظة[1] .

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم على الأحزاب : « ٱللَّهُمَّ ، مُنْزِلَ ٱلْكِتَابِ ، سَرِيعَ ٱلْحِسَابِ ؛ اِهْزِمِ ٱلأَحْزَابَ ، ٱللَّهُمَّ ؛ اِهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ »[2] ، وقال أيضاً : « مَلأَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً كَمَا شَغَلُونَا عَنِ ٱلصَّلاَةِ ٱلْوُسْطَىٰ حَتَّىٰ غَابَتِ ٱلشَّمْسُ » رواهما البخاري[3] .

ثم كان من مقدمات اللطف : أن جاء نُعَيم بن مسعود الغطفاني ثم الأشجعي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وقال : يا رسول الله ؛ إن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذِّلْ عَنَّا إِنِ ٱسْتَطَعْتَ ؛ فَإِنَّ ٱلْحَرْبَ خُدْعَةٌ » والمعنىٰ : أن المماكرة هنا أنفع من المكاثرة ، وكما قالوا : رب حيلة أنفع من قبيلة .

ثم إن نعيم بن مسعود جاء إلى اليهود وأخبرهم أن قبائل العرب ينصرفون ويتركونكم ومحمداً ، ولا طاقة لكم به ، فيرجع الشؤم والوبال عليكم ، فاتخذوا منهم رهائن لئلا ينصرفوا حتىٰ يناجزوا محمداً ، فصدقوه في ذلك وتصادقوه .

ثم جاء إلىٰ قريش وأخبرهم أن اليهود قد ندموا وباطنوا محمداً ووعدوه أن يتخذوا منكم رهائن فيلقوا بهم إليه فيقتلهم ، وأخبر غطفان بمثل ذلك في كلام كثير زخرفه وزوقه ، وأوهم كلاً منهم في الآخر .

ولما أصبحوا . . حشدت العرب للحرب ، وأرسلوا إلى اليهود لينهضوا معهم ، فاعتذروهم بأنه يوم سبت ، وأنهم لا ينطلقون معهم حتىٰ يعطوهم رهائن تدعوهم للمناجزة ، فصدقوا نعيم بن مسعود فيما كان حدثهم به ، ووقع في قلوبهم الوهن والتخاذل ، وافترقت عزائمهم .

وأرسل الله سبحانه عليهم ريح الصبا في برد شديد ، فزلزلتهم وقلقلتهم ، وأسقطت كل

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢٢٧) .
(٢) البخاري (٢٩٣٣) عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه .
(٣) البخاري (٤١١١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قائمة لهم ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم ، حتىٰ كان سيد كل حي يقول : يا بني فلان ؛ هلم ، فإذا اجتمعوا عنده . . قال : النجاء النجاء ، أُتيتم ، ففي « صحيح البخاري » عنه صلى الله عليه وسلم قال : « نُصِرْتُ بِٱلصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِٱلدَّبُورِ »[1] .

وفيه أيضاً : « نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ »[2] .

وفيه أيضاً : عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ ؟ » فقال الزبير : أنا ، ثم قال : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ ؟ » فقال الزبير : أنا ، ثم قال : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ ؟ » فقال الزبير : أنا ، قال : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّ ، وَحَوَارِيَّ ٱلزُّبَيْرُ »[3] .

وكان آخرُ رسولٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم حذيفةَ بن اليمان كما روينا ذلك في « صحيح مسلم » عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة ، فقال رجل : لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قاتلت معه وأبليت ، فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟! لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةَ الأحزاب وأخذتْنا ريح شديدة وقُرٌّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ جَعَلَهُ ٱللهُ مَعِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : « أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ جَعَلَهُ ٱللهُ مَعِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » فسكتنا فلم يجبه منا أحد ، فقال : « قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ » فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم ، قال : « اِذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ ٱلْقَوْمِ ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » .

فلما وليتُ من عنده . . جعلت كأنما أمشي في حَمَّام ، حتىٰ أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يصطلي على النار ، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » ولو رميته . . لأصبته ، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام ، فلما أتيته فأخبرته خبر القوم وفرغت . . قُرِرْتُ ، فألبسني رسول الله صلى الله عليه

---

(1) البخاري (١٠٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(2) البخاري (٣٣٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(3) البخاري (٤١١٣) ، وحواريًّ : كذا منوّناً بدون ألف النصب .

وسلم من فضل عباءةٍ كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتىٰ أصبحت ، فلما أصبحت . . قال : « قُمْ يَا نَوْمَانُ »[1] .

ورواه ابن إسحاق بزيادات ، وفيه : فلما رأىٰ أبو سفيان ما فعلت الريح وجنود الله بهم ؛ لا تُقِر لهم قدراً ولا بناءً . . قام فقال : يا معشر قريش ؛ ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فلينظر من هو ، قال حذيفة : فأخذت بيد جليسي فقلت : من أنت ؟ فقال : سبحان الله ! أما تعرفني ؟! أنا فلان بن فلان ؛ فإذا رجل من هوازن ، فقال أبو سفيان : يا معشر قريش ؛ إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام ، لقد هلك الكُراع ، وأخلفتْنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هـٰذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلىٰ جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به علىٰ ثلاث ، فما أطلق عقاله إلاَّ وهو قائم ، فسمعتْ غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلىٰ بلادهم . . . وذكر تمام الحديث[2] .

ولما انتهىٰ إلى النبي صلى الله عليه وسلم خبر انصرافهم . . قال : « ٱلآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ »[3] ، وكان يقول في كثير من المواطن ؛ شكراً لله ، وتذكراً لما أولاه : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ ، أَعَزَّ جُنْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَغَلَبَ ٱلأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ »[4] .

وكان مدة حصار الخندق بضعاً وعشرين ليلةً قريباً من شهر ، وقيل : خمسة عشر يوماً ، **وكان شعار المسلمين فيها : حمّ لا يُنْصرون** .

واستشهد من المسلمين يومئذ ستة نفر ، وقتل من المشركين ثلاثة .

وممن أسلم في هـٰذا العام : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ، وقيل : أسلم ببدر ، وكان من أسراها ، ونوفل هـٰذا ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، وأعانه عند الخروج إليها بثلاثة آلاف رمح .

---

(١) مسلم (١٧٨٨) ، **والقُرُّ** : البرد ، **ولا تَذْعَرهم** : لا تفزعهم ، **ويَصْطَلي** : يَسْتدفىء ، **وكبد القوس** : وسطه ، **وقُرِرْتُ** : بردت .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢٣٢_٢٣٣) ، **والكُرَاعُ** : الخيل والسلاح .

(٣) أخرجه البخاري (٤١١٠) عن سليمان بن صُرَد رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٤١١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وفيها : غزوة بني قريظة ، وسببها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح من ليلة منصرف الأحزاب وكان وقت الظهر ، ووضع السلاح واغتسل . . أتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار فقال : وضعتَ السلاح ؟! والله ؛ ما وضعناه ، اخرج إليهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فَأَيْنَ ؟ » فأشار إلىٰ بني قريظة ، فنادىٰ منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ ٱلْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » .

وقدَّم النبي صلى الله عليه وسلم برايته علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم سار خلفه ، قال أنس : (كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زُقاق بني غَنْم موكبَ جبريل عليه السلام حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ بني قريظة) رواه البخاري[1] .

وأدركتهم صلاة العصر في الطريق ، فصلاها قوم أخذوا بمفهوم اللفظ ، وامتنع آخرون فلم يصلوها إلاَّ في بني قريظة ليلاً آخذين بظاهره ، فلم يعنف النبي صلى الله عليه وسلم أحداً منهم .

ولما نزل النبي صلى الله عليه وسلم بساحتهم واشتدت عليهم وطأته . . أرسلوا إليه : أن أرسل إلينا أبا لُبابة ، فأرسله إليهم ، فلما جاءهم . . تلقاه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فَرَقَّ لهم لولاءٍ له منهم ، فقالوا : أترىٰ أن ننزل علىٰ حكم محمد ؟ فقال : نعم ، وأشار بيده إلىٰ حلقه ، يعني : أنّ حكمه القتل .

ثم ندم أبو لبابة وعلم أنه قد خان الله ورسوله ، فلم يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، بل راح إلى المسجد وربط نفسه بسارية ، وأقام علىٰ ذلك سبعة أيام لا يذوق ذواقاً ، حتىٰ خر مغشياً عليه ، فتاب الله عليه ونزل فيه أولاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية ، وآية توبته : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية ، ولم يطأ بلد بني قريظة بعدها ، وكان له بها أموال وأشجان[2] .

وقد كان بنو قريظة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل منهم ما قبل من إخوانهم بني النضير ، فأبىٰ عليهم ، فحين تبين لهم أنه غير قابل منهم ، وانسدت عليهم أبواب

---

(١) البخاري (٤١١٨) .

(٢) **الأشجان** : الأشجار .

الحيل ، وانقطع رجاؤهم من كل أمل . . نزلوا علىٰ حكمه ، فجاء حلفاؤهم الأوس شافعين فيهم كما شفعت الخزرج في حلفائهم بني قينقاع .

وكان الأوس والخزرج متغايرين لا تصنع إحداهما شيئاً . . إلا صنعت الأخرىٰ مثلها ، من ذلك : أنه لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . سألت الخزرج قتل أبي رافع ، فقتلوه ، فلما شفعت الأوس في بني قريظة . . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « فَذَلِكَ إِلَىٰ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » وقد كان سعد جعله النبي صلى الله عليه وسلم في خيمة في جانب مسجده ليعوده من قريب ، فأتاه قومه فاحتملوه علىٰ حمار ، وأقبلوا به وهم يقولون له : يا أبا عمرو ؛ أحسن في مواليك ، فقال لهم : قد آن لسعد ألاَّ تأخذه في الله لومة لائم ، فحينئذ أيس قومه من بني قريظة ، ونعوهم إلىٰ أهليهم قبل أن يحكم ، ولما أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . قال لمن عنده : « قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُمْ » فقيل : أراد بها الأنصار خاصةً ، وقيل : عم الكل .

فحكم سعد بقتل الرجال ، وقسمة الأموال ، وسبي الذراري والنساء ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ ٱللهِ تَعَالَى » وربما قال : « بِحُكْمِ ٱلْمَلِكِ » فحبسهم النبي صلى الله عليه وسلم في بيت واحد ، وخدّ لهم أخاديد في موضع سوق المدينة[1] ، وخرج بهم أرسالاً تضرب أعناقهم ثم يلقون في الأخاديد ، وترك منهم من لم ينبت ، فممن ترك لعدم الإنبات : عطية القرظي جد محمد بن كعب المفسر ، الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم في حقه : « يَخْرُجُ مِنَ ٱلْكَاهِنَيْنِ رَجُلٌ يَدْرُسُ ٱلْقُرْآنَ دَرْساً لَمْ يَدْرُسْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَلاَ يَدْرُسُهُ أَحَدٌ بَعْدَهُ »[2] .

وحين كانوا يخرج بهم للقتل . . قالوا لكعب بن أسد : أين يذهب بنا ؟ فقال : أفي كل موطن لا تعقلون ، أما ترون الداعي لا يَنزِع ، وأن من ذَهب منكم لا يرجع ، هو والله القتل[3] .

---

(١) **الأخاديد** : الشقوق المستطيلة في الأرض .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١) عن أبي بردة رضي الله عنه ، **والكاهنان** : قريظة والنضير .

(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢٤١) ، **ولا يَنْزِع** : لا ينتهي .

ولما خرجوا بحيي بن أخطب . . نظر إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أما والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك ، ولكن من يَخذل الله يُخذل ، ففي ذلك قال جبل بن جَوَّال الثعلبي : [من الطويل]

لَعَمْـرُكَ مَـا لاَمَ ٱبْـنُ أَخْطَـبَ نَفْسَـهُ ... وَلَكِنَّـهُ مَـنْ يَخْـذُلِ ٱللهَ يُخْـذَلِ

لَجَاهَـدَ حَتَّىٰ أَبْلَـغَ ٱلنَّفْسَ عُـذْرَهَـا ... وَقَلْقَـلَ يَبْغِـي ٱلْعِـزَّ كُـلَّ مُقَلْقَـلِ

وكان عدد من قتل منهم ست مئة أو سبع مئة ، وقيل : بين الثمان مئة والتسع ، وكان مدة حصارهم خمساً وعشرين أو إحدىٰ وعشرين ليلة .

ثم قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموالهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً ، وأخرج منها الخمس ، وكان نساؤهم وذراريهم سبع مئة وخمسين ، وقيل : تسع مئة ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ببعضهم إلىٰ نجد ؛ ليشترىٰ له بها خيل وسلاح .

ولما انقضىٰ شأن بني قريظة . . استجاب الله دعوة سعد ، فانفجر جرحه ، فلم يَرُعهم وهم في المسجد إلاَّ والدم يسيل إليهم ، فقالوا : يا أهل الخيمة ؛ ما هٰذا الدم الذي يأتينا من قبلكم ؟! فإذا سعد يغذو جرحه دماً ، قالت عائشة : (فوالذي نفسي بيده ؛ إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر) .

وروي : أن جبريل عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : من هٰذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء ، واهتز له عرش الرحمٰن ؟! فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه مسرعاً ؛ فإذا سعد قد قبض ، وفي هٰذا المعنىٰ أنشدوا : [من الطويل]

وَمَا ٱهْتَزَّ عَرْشُ ٱللهِ مِنْ مَوْتِ هَالِكٍ ... سَمِعْنَـا بِـهِ إِلاَّ لِسَعْـدٍ أَبِـي عَمْـرِو

وفي حديث : أنه نزل في جنازته من الملائكة سبعون ألفاً ما وطئوا الأرض قبل ذلك ، ولما احتمل نعشه . . ندبته أمه كُبَيْشة بنت رافع الخدرية فقالت : [من مجزوء الرجز]

وَيْـلُ أُمِّ سَعْـدٍ سَعْـدَا ... صَـرَامَـةً وَجِـدّا

وَسُـؤْدَداً وَمَجْـدَا ... وَفَـارِسـاً مُعَـدَّا

سَـدَّ بِـهِ مَسَـدَّا ... يَقُـدُّ هَـامـاً قَـدَّا

قالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِلْقَبْرِ لَضَمَّةً ، لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْهَا نَاجِياً . . لَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ »[1] .

ومناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه كثيرة : ساد قومه علىٰ حداثة سنه ، وحين أسلم . . قال لهم : كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتىٰ تُسلموا ، فأسلموا جميعاً من يومهم ، وشهد بدراً وأحداً والخندق وما قبلها ، وله في نصر الإسلام مقامات جليلة ومشاهد جميلة ، وختم الله له بالشهادة ، فمات حميداً شهيداً فقيداً رضي الله عنه .

قال أهل التواريخ : وحرمت الخمر بعد الأحزاب بأيام ، وقيل : بعد أحد ، وكان تحريمها على التدريج ، قيل : والحكمة فيه : أنها قد كانت من أفضل معايشهم ، وأشربتها قلوبهم ، فلو فَجِئهم تحريمها والعزيمة في تركها دفعةً واحدةً . . لاستعظموه .

فنزل أولاً بمكة : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ .

ثم نزل بالمدينة جواباً لمن سأل عنها : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ، فمنهم من شربها بعد ذلك ومنهم من تركها .

ثم صنع عبد الرحمٰن بن عوف طعاماً ودعا رجالاً فسقاهم الخمر ، وحضرت الصلاة ، فصلىٰ بهم أحدهم بـ (قل يا أيها الكافرون) وحذف منها (لا) في جميعها ، فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ فكانوا بعدها يشربونها بعد العشاء فيصبحون وقد صحوا .

ثم صنع عبد الرحمٰن بن عوف ـ وقيل : عِتْبان بن مالك ـ طعاماً ودعا رجالاً ، فأكلوا وشربوا الخمر وتناشدوا الشعر ، وتطاول كل منهم على الآخر ، فأخذ أنصاري لَحْي بعير وضرب به رأس سعد بن أبي وقاص فشجه ، فأنزل الله تعالى العزيمة في تحريمها بقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وفي أثناء ذلك من مخازيها : ما اشتهر في « صحيح البخاري » وغيره من قصة حمزة مع

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٥٥) بنحوه .

علي رضي الله عنهما في أمر الشارفين ، وقد كان قبل تحريمها والتشويش فيها تركها كثيرون من أجل فقد العقل واللب ؛ تكرماً لا تديناً .

ثم أجمع المسلمون علىٰ تحريم الخمر ووجوب الحد في شربها ولو جرعةً واحدة لا تسكر ، وجلد صلى الله عليه وسلم فيها بالجريد والنعال ، وكذلك أبو بكر ، فلما كان عمر ووقع الرخاء وتتايع[1] الناس فيها . . استشار الناس ، فقال له عبد الرحمـٰن بن عوف : أرىٰ أن تجعلها كأخف الحدود ـ يعني حدَّ القذف ـ فجلد ثمانين .

قال الشافعي رحمه الله تعالىٰ : الذي لا بد منه أربعون ، وما زاد علىٰ ذلك موقوف علىٰ رأي الإمام .

واعلم : أن الخمر من الكبائر الجالبة للدوائر ، قال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، إِنَّ حَتْماً عَلَى ٱللهِ أَلاَّ يَشْرَبَهُ عَبْدٌ فِي الدُّنْيَا . . إِلاَّ سَقَاهُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنْ طِينَةِ ٱلْخَبَالِ ، هَلْ تَدْرُونَ مَا طِينَةُ ٱلْخَبَالِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ »[2] ، وقال أيضاً : « لَعَنَ ٱللهُ ٱلْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَٱلْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَآكِلَ ثَمَنِهَا »[3] ، وقال : « جُعِلَتِ ٱلْمَعَاصِي كُلُّهَا فِي بَيْتٍ ، وَجُعِلَ مِفْتَاحُهَا شُرْبَ ٱلْخَمْرِ »[4] .

السنة الخامسة وما انطوت عليه

فيها ـ وقيل : في السادسة أو التاسعة أو العاشرة ـ : افترض الحج ، فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ، وقد كان قبل ذلك مما تدين به الجاهلية مع أحداث أحدثوها فيه خلاف ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وقد حج معهم النبي صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، وخالفهم فيما خالفوه من شرع إبراهيم .

واعلم : أن الحج من أركان الإسلام ودعائمه العظام ، بدليل قوله عليه أفضل الصلاة

---

(١) **التتايع** في الشيء وعلى الشيء : التهافت فيه والمتابعة عليه والإسراع إليه ، وفي « النهاية » (١/ ٢٠٢) : **التتابع** : الوقوع في الشر من غير فكرة ولا رويَّة ، والمتابعة عليه ، ولا يكون في الخير . اهـ

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠٢) بنحوه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه أبو داوود (٣٦٧٤) ، وأحمد (٢/ ٩٧) . عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٧٠٦٨) عن أبان ـ وقد رفع الحديث ـ بنحوه .

والسلام : « بُنِيَ ٱلإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ ٱللهِ ، وَإِقَامِ ٱلصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَاةِ ، وَٱلْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ » رواه الأئمة واللفظ للبخاري[(١)] .

ورووا أيضاً ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ قَدْ فَرَضَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلْحَجَّ فَحُجُّوا » فقال رجل : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتىٰ قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ . . لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا ٱسْتَطَعْتُمْ » ثم قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ مَسَائِلِهِمْ ، وَٱخْتِلاَفِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ . . فَأْتُوا مِنْهُ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ . . فَدَعُوهُ »[(٢)] .

ثم إن وجوبه إجماع ، وأنكرته الملحدة حيث عرضوا أفعاله علىٰ عقولهم السخيفة كالتجرد عند الإحرام والوقوف والرمي والرّمل ، فحين لم يعرفوا وجه الحكمة فيها والمراد بها . . جانبوه جملةً ، فكفروا وجهلوا ؛ إذ لم يعلموا أن الواجب على العبيد امتثال أحكام المولىٰ فيما يريده ، وانقياد آراء العقول لما جاء به الرسول عُرف وجه الحكمة في ذلك أو جهل ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في تلبيته : « لَبَّيْكَ حَقّاً حَقّاً ، تَعَبُّداً وَرِقّاً ، لَبَّيْكَ إِلَـٰهَ ٱلْحَقِّ »[(٣)] .

ولا يجب الحج في العمر إلاَّ مرةً واحدةً ، وكذلك العمرة ، وقال قوم : يجب في كل خمسة أعوام مرةً ؛ لحديث : « إِنَّ عَبْداً وَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي ٱلرِّزْقِ لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ . . لَمَحْرُومٌ » وهو حديث لا يصح[(٤)] ، ويرده الإجماع أيضاً .

واعلم : أن وجوبه بعد الاستطاعة على التراخي ، وقال بعض المالكية : على الفور ، وقال بعضهم : إن أخره بعد ستين . . فسق وردت شهادته ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) البخاري (٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٢) مسلم (١٣٣٧) .
(٣) أخرجه المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٣/٣٠٩) وغيره .
(٤) أخرجه ابن حبان (٣٧٠٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٩٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٠٣١) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٨٨٢٦) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بنحوه .

« أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ ٱلسِّتِّينَ إِلَى ٱلسَّبْعِينَ »[1] فكأنه في هـٰذه العشر قد تضايق عليه الخطاب .

قلت : وهـٰذا قول حسن ، يؤيده قوله تعالىٰ : ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قال علي وابن عباس : هو ستون سنةً ، وروينا في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَعْذَرَ ٱللهُ إِلَى ٱمْرِىءٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّىٰ بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً »[2] .

وأحسن مما قالوا أن يقال : إنه بعد الستين يتضيق عليه الأمر ، ويتوجه عليه اللوم ، ولا يبقىٰ حاله فيما بعدها كما قبلها من غير تعدٍّ إلى الفسق والجرح ؛ لأنَّ جرح من صحت عدالته عسير ، والله أعلم .

قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ : **لوجوبه خمسة شروط** : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة .

أما الكافر والمجنون . . فلا يجب عليهما ولا يصح منهما ، وأما العبد والصبي . . فلا يجب عليهما ، ويصح منهما تطوعاً لا يسقط به فرض الإسلام ، وغير المستطيع لا يجب عليه ، ويصح منه ويجزئه عن الفرض .

والمستطيع نوعان : مستطيع بنفسه ، وبغيره ، فالمستطيع بنفسه : من قدر على الذهاب ووجد مؤنته ذهاباً وإياباً فاضلةً عمن تلزمه نفقتهم وعن دينه ، والمستطيع بغيره : أن يكون عاجزاً لكبر أو مرض لا يرجىٰ برؤه وله مال ، فيلزمه أن يستأجر من يؤدي عنه فرضه ، ولو لم يكن له مال ووجد من يطيعه . . لزمه أن يأمره .

وأركان الحج خمسة : الإحرام ، والوقوف ، وطواف الإفاضة ، والسعي ، والحلق .

وواجباته ستة : الإحرام من الميقات ، والجمع بين الليل والنهار بعرفات ، والمبيت بمزدلفة ليلة النحر ، والمبيت ليالي منىٰ للرمي ، والرمي ، وطواف الوداع ، ويسقط عن الحائض والنفساء .

فمن ترك ركناً . . لم يصح حجه ، ولا يحل من إحرامه حتىٰ يأتي به ، وثلاثة منها

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) البخاري (٦٤١٩) .

لا تفوت ما دام حياً ، وهي : الطواف والسعي والحلق ، وأما الواجبات : فمن ترك منها شيئاً . . صح حجه وعليه دم .

وأما سننه وتفاصيل أعماله ومحظوراته . . فهي واسعة ليس هـٰذا موضع بسطها ، وستأتي جمل من ذلك في حجة النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، والله أعلم .

ومن حوادث هـٰذه السنة : قدوم ضمام بن ثعلبة أخي بني سعد بن بكر أهل رضاع النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان قدومه سنة سبع أو تسع ، وقد روينا حديثه في « الصحيحين » بألفاظ ومعان مختلفة ، وحملني ذلك علىٰ أن آتي بكل منهما علىٰ حدته .

أما رواية البخاري . . فقال رحمه الله تعالىٰ : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث عن سعيد المقبُري ، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر : أنه سمع أنس بن مالك يقول : (بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ؛ دخل رجل علىٰ جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد ؟ والنبي صلى الله عليه وسلم متكىء بين ظهرانيهم ، فقلنا : هـٰذا الرجل الأبيض المتكىء ، فقال له الرجل : يا بن عبد المطلب ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَجَبْتُكَ » فقال الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم : إني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجدْ علي في نفسك ، فقال : « سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ » فقال : أسألك بربك وربِّ من قبلك ؛ آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ فقال : « ٱللَّهُمَّ نَعَمْ » فقال : أَنْشُدك بالله ؛ آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال : « ٱللَّهُمَّ نَعَمْ » قال : أنشدك بالله ؛ آلله أمرك أن نصوم هـٰذا الشهر من السنة ؟ قال : « ٱللَّهُمَّ نَعَمْ » قال : أنشدك بالله ؛ آلله أمرك أن تأخذ هـٰذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمَها علىٰ فقرائنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ نَعَمْ » فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول مَن ورائي مِن قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر)[١] .

وأما رواية مسلم . . فقال رحمه الله تعالىٰ : حدثني عمرو بن محمد بن بُكَيْر الناقد ، حدثنا هاشم بن القاسم أبو النَّضْر ، حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : نُهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء

---

(١) صحيح البخاري (٦٤) .

الرجل من أهل البادية العاقلُ فيسألَه ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ؛ أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال : « صَدَقَ » قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « ٱللهُ » قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « ٱللهُ » قال : فمن نصب هٰذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « ٱللهُ » قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هٰذه الجبال ؛ آلله أرسلك ؟ قال : « نَعَمْ » .

قال : وزعم رسولك أَنَّ علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ، قال : « صَدَقَ » قال : فبالذي أرسلك ؛ آلله أمرك بهٰذا ؟ قال : « نَعَمْ » قال : وزعم رسولك بأن علينا زكاةً في أموالنا ، قال : « صَدَقَ » قال : فبالذي أرسلك ؛ آلله أمرك بهٰذا ؟ قال : « نَعَمْ » قال : وزعم رسولك أَنَّ علينا صوم شهر رمضان في سَنتنا ، قال : « صَدَقَ » قال : فبالذي أرسلك ؛ آلله أمرك بهٰذا ؟ قال : « نَعَمْ » قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، قال : « صَدَقَ » قال : ثم ولّىٰ ، قال : والذي بعثك بالحق نبياً ؛ لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَئِنْ صَدَقَ . . لَيَدْخُلَنَّ ٱلْجَنَّةَ »(١) .

فمن فوائد هٰذا الحديث : حسن سؤال هٰذا الرجل ، وملاحة سياقته وترتيبه ؛ فإنه سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو ، ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع ، ثم لما وقف علىٰ رسالته وعلمها . . أقسم عليه بحق مرسله ، وهٰذا ترتيب يفتقر إلىٰ عقل رصين ، قاله صاحب « التحرير » .

قال ابن الصلاح : وفيه دلالة علىٰ صحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون ، وأنه يكتفىٰ منهم بمجرد اعتقاد الحق جزماً من غير شك وتزلزل ، خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قرر ضماماً علىٰ ما اعتمد عليه في تعرف رسالته وصدقه ومجرد إخباره إياه بذلك ، ولم ينكر عليه ذلك ، ولا قال : يجب عليك معرفة ذلك بالنظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة القطعية(٢) .

قال أبو عبد الله البخاري : واحتج بعضهم في القراءة على العالم بحديث ضِمام بن ثعلبة

---

(١) مسلم (١٢) .
(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١/ ١٧٠ـ١٧١) .

قال للنبي صلى الله عليه وسلم : آلله أمرك أن تصلي الصلوات ؟ قال : « نَعَمْ » قال : فهـٰذه قراءة على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر ضمام قومه بذلك فأجازوه[1] .

وفيه : الاكتفاء بخبر الواحد ، وفيه غير ذلك ، والله أعلم .

وفي هـٰذه السنة ـ أو في الثالثة ـ : زوج الله نبيه صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش الأسدية ، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، نطق بذلك التنزيل ، وكان لزواجها شأن جليل .

روى المفسرون : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خطبها أولاً لمولاه زيد بن حارثة الكلبي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعتقه وتبناه ، فكرهته زينب وترفعت عليه بنسبها وجمالها ، وتبعها أخوها عبد الله بن جحش علىٰ ذلك ، فأنزل الله فيهما : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فلما سمعا ذلك . . رضيا وجعلا الأمر إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنكحها النبي صلى الله عليه وسلم زيداً ، وأعطاها عشرة دنانير وستين درهماً ، وخماراً ودرعاً وإزاراً ومِلحفةً ، وخمسين مداً من طعام ، وثلاثين صاعاً من تمر .

فمكثت عند زيد حيناً ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكوها ويستشيره في طلاقها ، فقال له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، وَٱتَّقِ ٱللَّهَ » وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبره ربه تبارك وتعالىٰ قبل ذلك أنها ستكون من أزواجه ، ففي ذلك نزل قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي : بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يعني : بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وأخفىٰ في نفسه ما كان الله أعلمه به من أنها ستكون زوجته ، فعتب الله عليه يقول : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد علمت أنها ستكون من أزواجك ؟! هـٰذا معنىٰ ما روي عن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو أسدُّ الأقاويل ، وأليقها بحال الأنبياء ، وأكثرها مطابقةً لظاهر التنزيل ؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ قال : ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ولم يبد سبحانه غير تزويجها منه ، فقال : ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » (كتاب العلم ، باب ما جاء في العلم ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾) تعليقاً .

وإنما أخفاه صلى الله عليه وسلم استحياءً من زيد ، وخشيةَ أن يجد اليهود والمنافقون بذلك سبيلاً إلى التشنيع على المسلمين حيث يقولون : تزوج محمد زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء ، فعاتبه الله علىٰ ذلك ، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له كما عاتبه علىٰ مراعاة رضا أزواجه في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ﴾ فهـٰذا معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ »[١] .

وقد خطَّأ القشيري والقاضي عياض وغيرهما من روىٰ من المفسرين : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رآها أعجبته ووقع في قلبه حبها ، وأحب طلاق زيد لها .

قال القشيري : هـٰذا إقدام عظيم من قائله ، وقلة معرفةٍ بحق النبي صلى الله عليه وسلم وبفضله ، وكيف يقال : رآها فأعجبته ، وهي ابنة عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي زوجها لزيد ؟!

قال القاضي عياض : ولو كان ذلك . . لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مَدِّه عينيه إلىٰ ما نُهِيَ عنه من زَهْرة الحياة الدنيا ، ولكان هـٰذا نَفْسَ الحسد المذموم الذي لا يرضاه الله ، ولا يتسم به الأتقياء ، فكيف سيد الأنبياء[٢] ؟!

ولما طلقها زيد وانقضت عدتها منه . . بعثه النبي صلى الله عليه وسلم ليخطبها له ، قال زيد : (فلما رأيتها . . عظمت في صدري ، حتىٰ ما أستطيعُ أن أنظر إليها حين علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتُها ظهري ونَكَصْتُ علىٰ عقبي فقلت : يا زينب ؛ أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتىٰ أُوَامِرَ ربي ، فقامت إلىٰ مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل عليها بغير إذن) رواه مسلم[٣] .

قال أنس : (كانت زينب تفتخر علىٰ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : زوجكنّ أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات) .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) بنحوه .
(٢) انظر « الشفا » (ص٧٣٠) .
(٣) مسلم (١٤٢٨) ، ونَكَصْتُ : رجعت ، وأُوامِرُ : أستخير .

وقال الشعبي : كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : (إني لأُدلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدلُّ عليك بهن : جدي وجدك واحد ، وأنكحنيكَ الله من فوق سبع سماوات ، وأنَّ السفيرَ جبريلُ عليه السلام)[1] .

ومن مناقبها أيضاً : قوله صلى الله عليه وسلم لأزواجه : « أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقاً بِي أَطْوَلُكُنَّ يَداً »[2] يعني : الصدقة ، فكانت أولهن موتاً بعده .

وقال أنس رضي الله عنه : (ما أولم صلى الله عليه وسلم على امرأة من نسائه أكثر وأفضل مما أولم علىٰ زينب ، فقال له ثابت البناني : بم أولم ؟ قال : أطعمهم خبزاً ولحماً حتىٰ تركوه) رواه مسلم[3] .

وأما شأن الحجاب . . فروينا في « صحيح البخاري » عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أنه كان ابن عشر سنين مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ، قال : (فكان أُمَّهاتي يواظبنني علىٰ خدمته ، فخدمتُه عشر سنين ، وتوفي وأنا ابن عشرين سنةً ، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل ، وكان أول ما أنزل في مُبْتَنَىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ؛ أصبح النبي صلى الله عليه وسلم عروساً ، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا ، وبقي رَهْطٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأطالوا المُكْثَ ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا ، فمشى النبي صلى الله عليه وسلم ومشيت معه ، حتىٰ جاء عَتَبَةَ حجرة عائشة رضي الله عنها ، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه ، حتىٰ إذا دخل علىٰ زينب ؛ فإذا هم جلوس لم يقوموا ، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ورجعت معه ، حتىٰ إذا بلغ عتبة حجرة عائشة رضي الله عنها وظن أنهم قد خرجوا . . فرجع ورجعت معه ؛ فإذا هم قد خرجوا ، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينه الستر ، وأنزل الحجاب)[4] .

قال أبو عثمان عن أنس : فدخل ـ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ـ البيت وأرخى

---

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن كثير (٣/ ٢٧٩) ، **وأَدَلَّ عليه** : وثق بمحبته ، فأفرط عليه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٢) عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) مسلم (١٤٢٨/ ٩١) .

(٤) البخاري (٥١٦٦) .

الستر ، وإني لفي الحجرة وهو يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ .

وعن أنس قال : صنعتْ أمي أم سليم حَيْساً فجعلتْه في تَوْرٍ[١] ، فقالت : يا أنس ؛ اذهب بهـٰذا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل : بعثت بهـٰذا إليك أمي ، وهي تقرئك السلام وتقول : إن هـٰذا لك منا قليل يا رسول الله ، قال : فذهبت بها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمي تقرئك السلام وتقول : إن هـٰذا لك منا قليل يا رسول الله ، فقال : « ضَعْهُ » ثم قال : « اِذْهَبْ فَٱدْعُ لِي فُلاَناً وَفُلاَناً وَفُلاَناً وَفُلاَناً ، وَمَنْ لَقِيتَ . . . » وسمىٰ ، قال : فدعوت من سمىٰ ومن لقيت .

قال : قلت لأنس : عَدَدَ كَمْ كانوا ؟ قال : كانوا زُهاء ثلاث مئة ، وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَنَسُ ؛ هَاتِ التَّوْرَ » قال : فدخلوا حتى امتلأت الصُّفَّةُ والحُجرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ ، وَلْيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ » قال : فأكلوا حتىٰ شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ودخلت طائفة ، حتىٰ أكلوا كلهم ، فقال لي : « يَا أَنَسُ ؛ اِرْفَعْ » قال : فرفعت ، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت .

قال : وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وزوجته مُوَلِّية وجهَها إلى الحائط . . . وساق خبر الحجاب ، متفق عليه واللفظ لمسلم[٢] .

ففي إحدىٰ رواياته : أن ذلك كان في زواج زينب ، وقد سبق أنه أولم عليها بشاة ، قال القاضي عياض : وهو وهم من بعض الرواة ، وتركيب قضية علىٰ أخرىٰ ، وقال غيره : بل يصح ، فلعله اجتمع فيها الأمران[٣] .

---

(١) **الحيس** : الأقط والسمن والتمر يخلط ويعجن ، **والتور** : قدح كبير كالقدر ، يتخذ تارة من الحجارة وتارة من النحاس وغيره .

(٢) البخاري (في النكاح ، باب : الهدية للعروس) تعليقاً ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٤) .

(٣) انظر « إكمال المعلم » (٤/ ٦٠٢) .

قال المؤلف غفر الله زلته وأقال عثرته : وفي هـٰذه الجملة السابقة من شأن زواج زينب رضي الله عنها جمل من الفوائد :

منها : التنويه بقدر المصطفىٰ ، والإبانة عن عظيم مكانته عند ربه تعالىٰ ، وأنه يحب ما أحب ويكره ما كره ، وقد قالت له عائشة رضي الله عنها عند نزول قوله تعالىٰ : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ : (ما أرىٰ ربك إلا يسارع في هواك) .

وفيه : عظيم حيائه صلى الله عليه وسلم حيث دخل وخرج إرادة أن يخرجوا ، وأبىٰ أن يواجههم بما يكرهون ، حتىٰ نطق الحق عنه بالحق وحرم على الخلق أذاه صلى الله عليه وسلم ، وأوجب عليهم تعزيره وتوقيره ، وإيثاره فيما يحبه ويهواه ، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ في قسم الخصائص ما ذكره علماؤنا أنه صلى الله عليه وسلم متىٰ رغب في نكاح امرأة : فإن كانت مزوجة . . وجب علىٰ زوجها مفارقتها له ، وإن كانت خليةً . . وجب عليها الإجابة .

وفيه : مناقب جمة لزينب بنت جحش ، وفضيلة لأخيها أيضاً .

وفيه : منقبة ظاهرة لزيد بن حارثة رضي الله عنه ؛ حيث ذكره الله سبحانه في كلامه القديم مرتين : مرةً بالإشارة التي تنوب مناب الصريح ، ومرةً بالتصريح باسمه العلم ، وجعله قرآناً يتلىٰ في المحاريب علىٰ تداول القرون ، ولم يكن هـٰذا لغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

ومنها : أن الأدب لباعث الهدية أن يعتذر ويحقرها عند المبعوث إليه .

ومنها : تأكيد سنة الوليمة ، وألاَّ تهمل وإن دقت ، ووجوب إجابة داعيها .

ومنها : نزول الحجاب ، وفيه مصالح جليلة وعوائد في الإسلام جميلة ، ولم يكن لأحد بعده النظر إلىٰ أجنبية بشهوة أو بغير شهوة ، وعُفي عن نظرة الفجاءة ، والله أعلم .

ومن حوادث هـٰذه السنة : أنه صلى الله عليه وسلم ركب فرساً إلى الغابة فسقط عنه ، فجحش فخذه الأيمن[١] ، فأقام في البيت أياماً يصلي قاعداً ، وعاده أصحابه فصلوا خلفه قعوداً ، ثم نسخ ذلك ؛ ففي مرض موته صلى الله عليه وسلم صلىٰ قاعداً والناس خلفه قياماً .

---

(١) أي : انخدش .

وفيها : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم **غزوةَ دومةِ الجندل** ، واستعمل على المدينة سِباع بن عُرْفطة الغفاري ، ورجع صلى الله عليه وسلم من الطريق قبل أن يصل إليها .

وفيها : **غزوة بني لِحْيان** من هذيل بن مدركة ، بعد بني قريظة بثلاثة أشهر ، وكانت لطلب الثأر بخبيب بن عدي وأصحابه ، وخرج صلى الله عليه وسلم فيها مورياً بطريق الشام ، فلما بلغ البتراء . . صفَّق ذات اليسار[1] ، فلما بلغ منازلهم . . وجدهم قد حذِروا وتمنعوا في رؤوس الجبال ، فأخذ راجعاً .

السنة السادسة وتواريخها

مما ذكر فيها : الاستسقاء والكسوف ، وقد ثبت مشروعيتهما وكونهما سنةً بالأحاديث الصحيحة الصريحة .

أما الاستسقاء . . فثبت في « الصحيحين » عن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني الأنصاري قال : (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستسقىٰ واستقبل القبلة وقلب رداءه ، ثم صلىٰ ركعتين)[2] زاد البخاري : (جهر فيهما بالقراءة)[3] زاد أبو داوود بإسناد حسن : (وقلب رداءه ، وجعل ما على الأيمن على الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن ، وقلبه ظهراً لبطن)[4] وفي رواية له أيضاً : (أنه كان عليه خميصة سوداء ، فأراد أن يأخذ بأسفلها فيجعله أعلاها ، فلما ثقلت عليه . . قلبها علىٰ عاتقه)[5] .

قال العلماء : إذا أجدبت الأرض . . أمر الإمام الناس بالتوبة ، والخروج من المظالم ، وصيام ثلاثة أيام ، قال بعضهم : يتحتم هـٰذا الصيام ويجب ، واستدل بقوله تعالىٰ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

قلت : ولا يبعد أن يقاس عليه جميع ما يأمر به الإمام من المصالح .

---

(١) صَفَّق : رجع .

(٢) البخاري (١٠١٢) ، ومسلم (٨٩٤) .

(٣) البخاري (١٠٢٤) عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه .

(٤) أبو داوود (١١٦٣) بنحوه .

(٥) أبو داوود (١١٦٤) عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه .

ثم يخرج بهم في اليوم الرابع صياماً ؛ لأنه ورد أن دعوة الصائم لا ترد[1] ، ويخرجون في ثياب بِذلة واستكانة ، ويصلي بهم ركعتين كالعيد ، ثم يخطب بهم خطبتين ، ويجعل مكان التكبير فيهما الاستغفار فيقول : أستغفر الله الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، ويكثر من الاستغفار ويكرره ؛ فمدار الاستسقاء عليه .

ويقول في الخطبة الأولىٰ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱسْقِنَا غَيْثاً مُغِيثاً هَنِيئاً مَرِيئاً مَرِيعاً غَدَقاً مُجَلِّلاً سَحّاً عَامّاً طَبَقاً دَائِماً ، ٱللَّهُمَّ ؛ ٱسْقِنَا ٱلْغَيْثَ وَلاَ تَجْعَلْنَا مِنَ ٱلْقَانِطِينَ ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّاراً ، فَأَرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْنَا مِدْرَاراً ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنَّ بِٱلْخَلْقِ مِنَ ٱللأْوَاءِ وَٱلضَّنْكِ مَا لاَ نَشْكُوا إِلاَّ إِلَيْكَ[2] ، ٱللَّهُمَّ ؛ أَنْبِتْ لَنَا ٱلزَّرْعَ ، وَأَدِرَّ لَنَا ٱلضَّرْعَ ، وَٱسْقِنَا مِنْ بَرَكَاتِ ٱلسَّمَاءِ ، وَأَنْبِتْ لَنَا مِنْ بَرَكَاتِ ٱلأَرْضِ » ، روىٰ جميع ذلك الشافعي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم[3] .

ويستحب للعامة أن يُلِحُّوا علىٰ صلحائهم وأئمتهم ليسألوا الله لهم في المكتوبات والجُمَعِ وجميع الأحوال ؛ لما ورد في « الصحيحين » عن أنس : أن سليكاً الغطفاني دخل يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فقال : يا رسول الله ؛ هلكت المواشي وانقطعت السبل ، فادع الله أن يغيثَنا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال : « ٱللَّهُمَّ ٱسْقِنَا ، ٱللَّهُمَّ ٱسْقِنَا ، ٱللَّهُمَّ ٱسْقِنَا » .

قال أنس : (فلا والله ؛ ما نرىٰ في السماء من سحاب ولا قزعةً ولا شيئاً ، ولا بيننا وبين سَلْعٍ من بيت ولا دارٍ ، قال : فطلعتْ من ورائه سحابة مثل التُّرْس ، فلما توسطت السماء . . انتشرت ثم أمطرت ، قال : والله ؛ ما رأينا الشمس سَبْتاً ، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبله قائماً فقال : يا رسول الله ؛ هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله أن يمسكها ، قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا ، ٱللَّهُمَّ ؛ عَلَى

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) **اللأْواء** : الشدة .

(٣) انظر « الأم » (٢/ ٥٤٨) عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهم .

ٱلآكَامِ وَٱلْجِبَالِ وَٱلظِّرَابِ وَٱلأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ ٱلشَّجَرِ » فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس) هـٰذا لفظ البخاري[١] .

وفي رواية له : حتىٰ سال وادي قناةَ شهراً ، قال : فلم يجيء أحد من ناحيةٍ . . إلاَّ حَدَّث بالجَوْدِ[٢] ، وفي أخرىٰ : ثم لم ينزل عن منبره حتىٰ رأيت المطر يتحادر علىٰ لحيته صلى الله عليه وسلم[٣] ، وفي أخرىٰ : عن ابن عمر : وربما ذكرتُ قول الشاعر وأنا أنظر إلىٰ وجه النبي صلى الله عليه وسلم يَسْتسقي ، فما ينزل حتىٰ يَجيشَ كلُّ ميزاب : [من الطويل]

وَأَبْيَـضَ يُسْتَسْقَـى ٱلْغَمَـامُ بِـوَجْهِـهِ ثِمَـالُ ٱلْيَتَـامَـىٰ عِصْمَـةٌ لِـلأَرَامِـلِ[٤]

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لَوْ أَدْرَكَ أَبُو طَالِبٍ هَـٰذَا ٱلْيَوْمَ . لَسَرَّهُ » فقال له بعض أصحابه : كأنك يا رسول الله أردت لقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

قال : « أَجَلْ »[٥] .

ويستحب للإمام أن ينصب الصلحاء من أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن غيرهم عند الاستسقاء كما اشتهر في « صحيح البخاري » وغيره : أن عمر كان يستسقي بالعباس فيقول : (اللهم ؛ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فتَسْقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا صلى الله عليه وسلم فاسقنا) فيسقون[٦] .

ومما روي من دعاء العباس حينئذ : (اللهم ؛ إنه لم ينزل بلاء من السماء إلاَّ بذنب ، ولم يكشف إلاَّ بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذه أيدينا إليك بالذنوب مملوءة ، ونواصينا بالتوبة إليك خاشعة ، وأنت الراعي

---

(١) البخاري (١٠١٣) ، ومسلم (٨٩٧) ، والقزعة : القطعة من السحاب ، وسَلْع : جبل بالمدينة ، والسبتُ : القطعة من الزمن .

(٢) البخاري (١٠٣٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، والجَوْدُ : المطر الكثير .

(٣) البخاري (٩٣٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) البخاري (١٠٠٩) ، ويَجِيشُ : يَنْصَبُّ .

(٥) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٢٨١) .

(٦) البخاري (٣٧١٠) .

فلا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار مضيعة ، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوىٰ ، وأنت تعلم السر وأخفىٰ ، اللهم ؛ فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ؛ فإنه لا ييئس من روح الله إلاَّ القوم الكافرون) وما أتم كلامه حتىٰ أزجت السماء مثل الجبال ، وفي ذلك قال حسان بن ثابت رضي الله عنه : [من الكامل]

سَـأَلَ ٱلْخَلِيفَـةُ إِذْ تَتَـابَـعَ جَـدْبُـهُ ... فَسُقُـوا ٱلْغَمَـامَ بِغُـرَّةِ ٱلْعَبَّـاسِ

عَـمِّ ٱلنَّبِـيِّ وَصِنْـوِ وَالِـدِهِ ٱلَّـذِي ... وَرِثَ ٱلثَّنَـاءَ بِـذَاكَ دُونَ ٱلنَّـاسِ

أَحْيَـا ٱلْمَلِيـكُ بِـهِ ٱلْبِـلَادَ فَـأَصْبَحَـتْ ... مُخْضَـرَّةَ ٱلأَجْنَـابِ بَعْـدَ ٱلْيَـاسِ

وجاء في الاستسقاء بالصلحاء أخبار كثيرة .

ويستحب تكرير الاستسقاء ما لم يسقوا ، ولا يستبطئوا الإجابة ؛ ففي « الصحيحين » : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ فَيَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي »(١) .

قال بعضهم : يستحب الإلحاح والتكرار ، فإن لم تصلح نياتهم . . فعسىٰ يسقون لتحريهم لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وإحيائهم لها .

ويستحب أن يتمطروا ؛ لما رواه مسلم عن أنس قال : أصابنا مطر ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحسر صلى الله عليه وسلم ثوبه حتىٰ أصابه المطر ، فقلت : يا رسول الله ؛ لم صنعتَ هـٰذا ؟ فقال : « إِنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ »(٢) .

ويستحب أن يغتسل ويتوضأ في السيل ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سال الوادي . . قال : « أُخْرُجُوا بِنَا إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱللهُ طَهُوراً » فيتطهر منه ، ويحمد الله تعالىٰ عليه ، قال البيهقي : رواه الشافعي بإسناد منقطع(٣) .

ويستحب الدعاء عند نزول المطر ، والتسبيح عند الرعد والبرق ، وترك الإشارة إلى البرق والوَدْق ، وألاَّ يتبع بصره الكوكب إذا انقضَّ ؛ لأحاديث وآثار وردت في ذلك ، والله أعلم .

---

(١) البخاري (٦٣٤٠) ، ومسلم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) مسلم (٨٩٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، حَسَرَ : كشف .

(٣) انظر « الأم » (٢/٥٥٣) .

وأما الكسوف . . فروينا في « صحيح البخاري » و« مسلم » عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ ، لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ . . فَٱدْعُوا ٱللهَ تَعَالَىٰ ، وَكَبِّرُوا ، وَتَصَدَّقُوا »[1] .

وأما صفة صلاتها . . فهي ركعتان ، في كل ركعة قيامان وركوعان وسجودان ، والأكمل أن يقرأ في القيام الأول بعد (الفاتحة) : (البقرة) ، وفي الثاني دون ذلك ، والثالث دونهما ، والرابع دونه ، ويطيل التسبيح في كل ركوع دون القيام الذي قبله ، ويطول السجدة الأولىٰ كنحو الركوع الأول ، والثانية كالثاني ، ويجهر في كسوف القمر لا الشمس ، ويخطب خطبتين كالجمعة .

واعلم : أن الظاهر في مذهب الشافعي : أنه لا يطول السجود ، ولا يصح ذلك ؛ فقد ثبت في الأحاديث الصريحة في « الصحيحين » وغيرهما إطالته ، ونص الشافعي رحمه الله تعالىٰ في « البويطي » ما لفظه : (يسجد سجدتين تامتين طويلتين ، يقيم في كل سجود نحو ما أقام في ركوعه) هـٰذه عبارته ، فحينئذ لا يصح نسبة عدم التطويل إلى الشافعي مع أنه رحمه الله تعالىٰ قد تقدم في ذلك وأنصف كل الإنصاف حيث قال : (مذهبي الحديث ، إذا صح الحديث . . فاتركوا قولي) وقد كان له في الحديث اليد الطولىٰ والسابقة الأولىٰ[2] .

وثبت في « صحيح مسلم » تطويل الاعتدال أيضاً ، فينبغي العمل به ؛ فإن الزيادة من الثقة مقبولة ، والله أعلم .

قال أصحابنا : ولو صلاها بـ(الفاتحة) وحدها أو ركعتين من غير تكرار . . جاز ، والله أعلم .

ومن **حوادث هـٰذه السنة** : نزول حكم الظهار ، وسببه علىٰ ما ذكر المفسرون : أن خَوْلة

---

(١) البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (٩٠١) .

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « روضة الطالبين » (٢/ ٨٤) : (وهل يُطَوِّل السجود في هـٰذه الصلاة ؟ قولان : **أظهرهما** : لا يطول كما لا يطول التشهد ولا الجلوس بين السجدتين ، **والثاني** : يطول ، نقله البويطي ، والترمذي ، والمزني عن الشافعي رضي الله عنه .

قلتُ : الصحيح المختار : له أن يطول السجود في هـٰذه الصلاة ، وقد ثبت في إطالته أحاديث كثيرة في « الصحيحين » عن جماعة من الصحابة) .

بنت مالك بن ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت ، فأرادها للجماع فأبت منه ، فقال : أنت عليّ كظهر أمي ، وكان الظهار والإيلاء من طلاق الجاهلية ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة تغسل رأسه فقالت : يا رسول الله ؛ إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة ذات مال وجمال وأهل ، حتىٰ إذا أكل مالي وأفنىٰ شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني . . ظاهر مني ، وقد ندم ، فهل من شيء يجمعني وإياه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَرَاكِ إِلاَّ قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ » فجعلت تشكو وتردد ذلك ، فإذا ذكر لها رسول الله صلى الله عليه وسلم التحريم . . هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي ، وإن لي صبيةً صغاراً إن ضممتهم إليه . . ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ . . جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم ؛ أشكو إليك .

فأنزل الله علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة لم تفرغ الغسل بعد ، فقالت لها عائشة : أَقْصِري ، أما ترين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! وكان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي . . أخذه مثل السبات ، فلما قضي الوحي . . قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِدْعِي زَوْجَكِ » فدعته ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت عائشة رضي الله عنها : (تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها ؛ إني ليخفىٰ عَلَيَّ بعض كلامها) هـٰذا معنىٰ ما ذكر البغوي في « تفسيره »[١] .

ورواه أبو داوود علىٰ غير هـٰذا الوجه متضمناً لذكر الكفارة ، ففيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : « يُعْتِقُ رَقَبَةً » قالت : لا يجد ، قال : « فَيَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » قالت : يا رسول الله ؛ إنه شيخ كبير ما به من صيام ، قال : « فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً » قالت : ما عنده من شيء يتصدق به ، قال : « فَإِنِّي سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ » قلت : يا رسول الله ؛ وأنا سأعينه بعرق آخر ، قال : « قَدْ أَحْسَنْتِ ، اِذْهَبِي فَأَطْعِمِي بِهَا عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ، وَٱرْجِعِي إِلَى ٱبْنِ عَمِّكِ »[٢] .

---

(١) تفسير البغوي (٤/٣٠٣ـ٣٠٤) .

(٢) أبو داوود (٢٢١٤) بنحوه .

والعجب لِمَ لَمْ يروياه في « الصحيحين » وقد نطق به الكتاب المبين ، وإنما رويا حديث المحترق المجامع في نهار رمضان ، وقضيته شبيهة بهٰذه من حيث اتحاد الكفارة فيهما ، وتصدق النبي صلى الله عليه وسلم عليهما ؟!

واعلم : أن الظهار مُحرَّم في الجملة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ وقد كان طلاقاً في الجاهلية ، فنقل حكمه وبقي محله .

أما أحكامه في الإسلام : فإن من ظاهر من زوجته بأن قال : أنت علي كظهر أمي ، أو شَبَّه عضواً من أعضائها بعضو من أعضاء أمه أو محارمه الذين لم يطرأ تحريمهن ، ولم يتبعه بالطلاق من فوره . . صار عائداً ، ولزمته الكفارة ، ولا يحل له وطؤها حتىٰ يكفر ، هٰذا مقتضىٰ مذهب الشافعي، وفيه خلاف لغيره وتفريعات ليس هٰذا موضع بسطها ، والله أعلم .

واتفق في هٰذه السنة من الحوادث العظيمة الشأن : الفتح المبين **بصلح الحديبية وبيعة الرضوان** ، وذلك ما أخبرنا به شيخنا الإمام المسند ذو التصانيف العديدة المفيدة أبو الفتح المدني إجازةً ومناولةً من يده سنة خمس وثلاثين وثمان مئة ، بروايته لذلك عن جمال الدين إبراهيم بن محمد اللخمي وبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي قالا : أخبرنا المسند المعمر أحمد بن أبي طالب الحجار ، أخبرنا أبو عبد الله الزبيدي ، أخبرنا أبو الوقت عبد الأول الصوفي السجزي ، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمٰن بن محمد الداوودي قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموي قال : أخبرنا أبو عبد الله الفِرَبْري قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله قال : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، أخبرني الزهري قال : حدثنا عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروانَ يُصدق كل واحد منهما حديثَ صاحبه قالا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية ، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ خَالِدَ بْنَ ٱلْوَلِيدِ بِٱلْغَمِيمِ فِي خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً ، فَخُذُوا ذَاتَ ٱلْيَمِينِ » فوالله ؛ ما شعر بهم خالد حتىٰ إذا هم بقَتَرَة الجيش[1] ، فانطلق يَرْكُض نذيراً لقريش .

---

(١) القَتَرَةُ : الغبار الأسود .

وسار النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ إذا كان بالثَّنية التي يُهْبَط عليهم منها . . بركتْ به راحلته ، فقال الناس : حَلْ حَلْ ، فَألَحَّتْ ، فقالوا : خلأت القصواء[1] ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا خَلأَتِ ٱلْقَصْوَاءُ ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ ٱلْفِيلِ » ثم قال : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ ٱللهِ . . إلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا »[2] ثم زجرها فوثبت .

قال : فعدل عنهم حتىٰ نزل بأقصى الحديبية علىٰ ثمدٍ قليل الماء[3] يتربضه الناس تربضاً فلم يُلَبِّثه الناس حتىٰ نزحوه ، وشُكي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ؛ ما زال يَجِيش لهم بالرِّي حتىٰ صدروا عنه[4] .

فبينا هم كذلك ؛ إذ جاء بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعي في نفر من قومه من خُزاعة ، وكانوا عَيْبَةَ نُصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تِهامة[5] ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعدادَ مياه الحديبية ، معهم العُوذُ المطافيل[6] ، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا لَمْ نَجِىءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، وَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ نَهِكَتْهُمُ ٱلْحَرْبُ[7] وَأَضَرَّتْ بِهِمْ ، فَإِنْ شَاؤُوا . . مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرْ : فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ ٱلنَّاسُ . . فَعَلُوا ، وَإِلاَّ . . فَقَدْ جَمُّوا[8] ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا . . فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَىٰ أَمْرِي هَـٰذَا حَتَّىٰ تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي[9] ، وَلَيُنْفِذَنَّ ٱللهُ أَمْرَهُ » فقال بُديل : سأُبلِّغهم ما تقول .

---

(١) **حَلْ حَلْ** : كلمة تقال للناقة إذا بركت لتسير ، **وألحتْ** : أصرت ، **وخلأتْ** : أعيت .
(٢) **الخُطَّةُ** : الخصلة .
(٣) **الثَّمَدُ** : الحفرة .
(٤) **يَجِيشُ** : يفُورُ .
(٥) **العَيْبَةُ** : أي : موضع سره وأمانته .
(٦) **العُوذُ** : جمع عائذ ، وهي ذات اللبن من النوق ، **والمطافيل** : الأمهات .
(٧) **نهكتْ** : أضعفت .
(٨) **جَمُّوا** : استراحوا .
(٩) **السالفة** : صفحة العنق .

فانطلق حتىٰ أتىٰ قريشاً ، قال : إنا قد جئناكم من عند هـٰذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعْرِضه عليكم . . فعلنا ، فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء ، وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول ، قال : سمعته يقول كذا وكذا . . . فحدثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

فقام عروة بن مسعود فقال : أي قوم ؛ ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : أولستُ بالولد ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فهل أنتم تتهمونني ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظٍ فلما بَلَّحُوا علي[1] . . جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فإنَّ هـٰذا قد عرض عليكم خُطَّةَ رشدٍ ، اقبلوها ودعوني آتيه ، قالوا : ائته ، فأتاه ، فجعل يُكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبُدَيل .

فقال عروة عند ذلك : أي محمد ؛ أرأيتَ إن استأصلتَ أمر قومك . . هل سمعتَ بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟! وإن تكن الأخرىٰ . . فإني والله لأرىٰ وجوهاً وإني لأرىٰ أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويَدعوك ، فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : امصَصْ بَظْر اللات! أنحن نفر عنه وندعه ؟! فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر الصديق ، فقال : أَمَا والذي نفسي بيده ؛ لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها . . لأجبتُك .

قال : وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلما كلَّمه . . أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم علىٰ رأس النبي صلى الله عليه وسلم ومعه السيف وعليه المِغفر ، فكلما أهوىٰ عروة بيده إلىٰ لحية النبي صلى الله عليه وسلم . . ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع عروة رأسه فقال : من هـٰذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبة ، قال : أَيْ غُدَر ؛ ألستُ أسعىٰ في غَدرتك ؟! وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا ٱلإِسْلَامَ . . فَأَقْبَلُ ، وَأَمَّا ٱلْمَالَ . . فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ » .

ثم إن عروة جعل يَرمُق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه ، قال : فوالله ؛

---

(١) بَلَّحُوا : امتنعوا عليَّ .

ما تَنَخَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نُخامةً . . إلاَّ وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم . . ابتدروا أمره ، وإذا توضأ . . كادوا يقتتلون علىٰ وَضُوئه ، وإذا تكلم . . خَفَضُوا أصواتهم عنده ، ما يُحِدُّون إليه النظر ؛ تعظيماً له .

فرجع عروة إلىٰ أصحابه فقال : أَيْ قومِ ؛ والله لقد وفدتُ على الملوك ووفدتُ علىٰ قيصر وكسرىٰ والنجاشي ، والله ؛ إنْ رأيت ملكاً قط يُعظمه أصحابه ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمداً ، والله ؛ إن تنخم نخامةً . . إلاَّ وقعت في كف رجل منهم فدلكَ بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم . . ابتدروا أمره ، وإذا توضأ . . كادوا يقتتلون علىٰ وَضُوئه ، وإذا تكلم . . خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خُطةَ رُشدٍ فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة : دعوني آتيه ، فقالوا : ائته ، فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَـٰذَا فُلاَنٌ ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ ٱلْبُدْنَ ، فَٱبْعَثُوهَا لَهُ » فبعثت له واستقبله الناس يُلبُّون ، فلما رأىٰ ذلك . . قال : سبحان الله! ما ينبغي لهـٰؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، فلما رجع إلىٰ أصحابه . . قال : رأيت البُدْنَ قد قُلِّدت وأُشعِرت ، فما أرىٰ أن يُصَدُّوا عن البيت .

فقام رجل منهم يقال له : مِكرز بن حفص ، فقال : دعوني آتيه ، فقالوا : ائته ، فلما أشرف عليهم . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هَـٰذَا مِكْرَزٌ ، وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ » ، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يكلمه ؛ إذ جاء سهيل بن عمرو .

قال معمرٌ : فأخبرني أيوب عن عكرمة : أنه لما جاء سهيل . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ » قال معمرٌ : قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات أَكْتُبْ بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أُكْتُبْ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ » فقال سهيل : أما الرحمـٰن . . فوالله ؛ ما أدري ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم كما كنتَ تكتب ، فقال المسلمون : والله ؛ ما نكتبها إلاَّ : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أُكْتُبْ : بِٱسْمِكَ ٱللَّهُمَّ » .

ثم قال : « هَـٰذَا مَا قَاضَىٰ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » فقال سهيل : والله ؛ لو كنا نعلم أنك رسول الله . . ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَٱللهِ ؛ إِنِّي لَرَسُولُ ٱللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي ، اُكْتُبْ : مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ » .

قال الزهري : وذلك لقوله : « لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ ٱللهِ . . إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « عَلَىٰ أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ » فقال سهيلٌ : والله ؛ لا تتحدث العربُ أنا أُخِذنا ضُغْطةً[1] ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب .

فقال سهيل : وعلىٰ أنه لا يأتيك رجل منا وإن كان علىٰ دينك إلاَّ رددته إلينا ، قال المسلمون : سبحان الله! كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟! فبينما هم كذلك ؛ إذ جاء أبو جَنْدَل بن سُهيل بن عمرو يَرسُف في قيوده[2] ، قد خرج من أسفلِ مكة حتىٰ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هـٰذا يا محمدُ أول ما أُقاضيك عليه أن ترده إليّ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا لَمْ نَقْضِ ٱلْكِتَابَ بَعْدُ » قال : فوالله ؛ إذاً لا أصالحك علىٰ شيء أبداً ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فَأَجِزْهُ لِي » قال : ما أنا بمجيز ذلك ، فقال : « بَلَىٰ فَٱفْعَلْ » قال : ما أنا بفاعل ، قال مكرزٌ : بلىٰ قد أجزناه لك ، قال أبو جندل : أي معشر المسلمين ؛ أُردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟! ألا ترون ما قد لقيتُ ؟! وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ألستَ نبي الله حقاً ؟ قال : « بَلَىٰ » ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بَلَىٰ » قلت : فلمَ نعطي الدَّنيةَ في ديننا إذاً ؟! قال : « إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ ، وَهُوَ نَاصِرِي » قلتُ : أو ليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بَلَىٰ ، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ ٱلْعَامَ ؟ » قلتُ : لا ، قال : « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ » .

---

(١) **الضُّغْطَةُ** : القهر .
(٢) **يَرْسُفُ** : يمشي مشياً بطيئاً .

قال : فأتيتُ أبا بكر فقلتُ : يا أبا بكر ؛ أليس هـٰذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلىٰ ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلىٰ ، قلتُ : فلم نعطي الدَّنية في ديننا إذاً ؟ ! قال : أيها الرجل ؛ إنه لرسول الله ، وليس يعصي ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغَرْزِه[1] ، فوالله ؛ إنه على الحق ، قلتُ : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنَطَّوَّفُ به ؟ قال : بلىٰ ، قال : أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلتُ : لا ، قال : فإنك آتيه ومُطَّوِّف به .

قال الزهري : قال عمر : فعملتُ لذلك أعمالاً كثيرةً .

قال : فلما فرغ من قضية الكتاب . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « قُومُوا فَٱنْحَرُوا ثُمَّ ٱحْلِقُوا » قال : فوالله ؛ ما قام منهم رجلٌ حتىٰ قال ذلك ثلاث مرات .

فلما لم يقم منهم أحد . . دخل علىٰ أم سلمةَ رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ؛ أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمةً حتىٰ تَنْحر بُدْنك وتَدْعُوَ حالقك فيَحلقك ، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتىٰ فعل ذلك ؛ نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك . . قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتىٰ كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً .

ثم جاءه نِسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ حتىٰ بلغ : ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرىٰ صفوان بن أمية .

ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فجاءه أبو بَصير ، رجلٌ من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهدَ الذي جعلتَ لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتىٰ بلغا ذا الحليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله ؛ إني لأرىٰ سيفك هـٰذا يا فلانُ جيداً ، فاستله الآخر فقال : أجل ، والله إنه لجيد ، لقد جَرَّبْتُ به ثم جربت به ، فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتىٰ برد ، وفرَّ الآخر حتىٰ أتى المدينة ، فدخل المسجد يَعْدُو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه : « لَقَدْ رَأَىٰ هَـٰذَا ذُعْراً » فلما انتهىٰ إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . قال :

(١) أي : تمسك به واتبعه .

قُتل والله صاحبي ، وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير فقال : يا نبي الله ؛ قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ[1] لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ » فلما سمع ذلك . . عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتىٰ أتىٰ سِيف البحر .

قال : وينفلت منهم أبو جَنْدل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم . . إلاَّ لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عِصابة ، فوالله ؛ ما يسمعون بعيرٍ خرجت لقريش إلى الشام . . إلاَّ اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده اللهَ والرحم لما أرسل له فمن أتاه [منهم] فهو آمن ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتىٰ بلغ : ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ ، وكانت حميتهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبي الله ، ولم يقروا ببسم الله الرحمـٰن الرحيم ، وحالوا بينه وبين البيت . انتهىٰ ما رواه البخاري عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق شيخه ومولاه عبد الله بن محمد المسندي[2] .

ورواه عنهما أيضاً من طرق أخرى ، وهـٰذه أتمها وأوعبها ، وصرح في طريق يحيى بن بكير بأنهما أخبرا بذلك عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وروىٰ مسلم أطرافاً منه ، وصرح بسبب نزول الآية السابقة ، وهو ما روي عن أنس : أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على النبي صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم متسلحين يريدون غِرَّةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه ، فأخذهم سلماً فاستحياهم ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية[3] .

وفيه من رواية سلمة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ ٱلْفُجُورِ وَثِنَاهُ »[4] وصرح فيه من رواية البراء بن عازب رضي الله عنهما : أن

---

(١) ويل أمه : كلمة تقال للمدح ، ومِسْعر الحرب : المقدام في الحرب .

(٢) البخاري (٢٧٣٣) .

(٣) مسلم (١٨٠٨) .

(٤) مسلم (١٨٠٧) ، بدء الفجور وثِناه : أوله وآخره .

كاتب الكتاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم سأله أن يمحو اسم الرحمـٰن الرحيم واسم الرسالة حين أبوا منها ، فاستعظم ذلك وحلف ألاَّ يمحوها ، فمحاها النبي صلى الله عليه وسلم بيده .

فَصْلٌ

[في بيعة الرضوان]

وكان صلح الحديبية في ذي القعدة ، وكان عدد المسلمين ألفاً وأربع مئة ، وساقوا سبعين بدنةً ، واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم في مخرجه ذلك على المدينة نُمَيْلَة بن عبد الله الليثي .

وكان سبب بيعة الرضوان : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عثمان إلىٰ مكة ، فأشيع قتله ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أَمَا وَٱللهِ ؛ لَئِنْ قَتَلُوهُ . . لأُنَاجِزَنَّهُمْ » فدعا الناس إلى البيعة ، فبايع بعضهم على الموت ، وبعضهم علىٰ ألاَّ يفر ، والمعنىٰ واحد ، وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ وقال : « هَـٰذِهِ لِعُثْمَانَ » ، وبايع سلمة بن عمرو بن الأكوع ثلاث مرات متفرقات ، وبايع عبد الله بن عمر قبل أبيه ؛ وذلك أن أباه بعثه وهو يستلئم للقتال[1] ليأتيه بخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فوجده يبايع الناس فبايع ، ثم رجع فأخبر أباه .

وكان أول من بايع : سنان بن وهب الأسدي ، ولم يتخلف أحد ممن حضر عن البيعة إلاَّ الجَد بن قيس السلمي ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : لكأني أنظر إليه لاطئاً بإبط ناقته مستتراً بها[2] .

وأما الشجرة المذكورة . . فكانت سَمُرَةً ، وطلبت من العام المقبل فلم يُقْدر عليها ، فيتحدثون أنها رُفعت ، قال معقل بن يسار : لقد رأيتني رافعاً غصناً من أغصانها عن رأس النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يستلئم : يلبس لأمته .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٣١٦) ، ولاطئاً : لاصقاً .

فَصْلٌ

[في فضل أهل بيعة الرضوان ومزية شاهديها]

ثم إنه قد ثبت لشاهديها المزايا العظام ، والتنويه علىٰ سائر مشاهد الإسلام ، قال الله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وروينا في « صحيح البخاري » عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية : « أَنْتُمُ ٱلْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ ٱلأَرْضِ » وكنا ألفاً وأربع مئة ، ولو كنت أُبصر اليوم . . لأريتكم مكان الشجرة)[1] .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَدْخُلُ ٱلنَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ » رواه البغوي مسنداً[2] .

وقال الشعبي في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ : هم الذين شهدوا بيعة الرضوان .

وذهب أكثر المفسرين في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أنه صلح الحديبية ؛ وذلك أنها نزلت في منصرفهم منها وهم مخالطهم الحزن والكآبة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ ٱلدُّنْيَا جَمِيعِهَا »[3] ولما نزلت . . دعا النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقرأه إياها ، فقال : يا رسول الله ؛ أوفتح هو ؟ قال : « نَعَمْ » فطابت نفسه ورجع ، رواه مسلم[4] .

وروينا في « صحيح البخاري » عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : (تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية)[5] .

---

(١) البخاري (٤١٥٥) .
(٢) تفسير البغوي (٤/ ١٩٤) وأخرجه الترمذي (٣٨٦٠) ، وأبو داوود (٤٦٥٣) .
(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) مسلم (١٧٨٥) .
(٥) البخاري (٤١٥٠) .

قال الزهري : لم يكن فتح أعظم منه ، قال العلماء : ووجه ذلك : أن المشركين اختلطوا بالمسلمين في تلك الهدنة ، وسمعوا منهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم الباهرة ومعجزاته المتظاهرة ، وحسن سيرته وجميل طريقته ، وشاهدها كثير منهم ، فمالت نفوسهم إلى الإيمان ، وأسلم في تلك الأيام خلق كثير ، لذلك أجبرهم النبي صلى الله عليه وسلم على الصلح ، وقد كان رأي أكثرهم المناجزة ، وقرب لهم القول حيث قال لهم : « أَمَّا مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ . . فَأَبْعَدَهُ ٱللهُ ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ . . سَيَجْعَلُ ٱللهُ لَهُ فَرَجاً وَمَخْرَجاً »[1] .

هٰذا وقد قال أهل التحقيق والنظر الدقيق بجواز احتمال المفسدة اليسيرة لدفع أعظم منها ، أو لتحصيل مصلحة عظيمة تتوقع باحتمالها .

ثم إن مذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ : أنه يجوز مصالحة الكفار عند الحاجة في مدة لا تزيد علىٰ عشر سنين ، واستدل بصلح الحديبية ؛ فإنه كان علىٰ عشر سنين ، وذلك مصرح به في كتب السير ، وهٰذا إذا لم يكن الإمام مستظهراً ، فإن كان مستظهراً . . لم يزد علىٰ أربعة أشهر ، وقال مالك رحمه الله : لا حد لذلك ، بل هو منوط برأي الإمام ، والله أعلم .

ومن حوادث هٰذه السنة : إسلام خالد بن الوليد المخزومي ، وعمرو بن العاص السهمي ، وخبر ذلك : ما روي عن عمرو بن العاص : أنه لما رجع مع جموع الأحزاب . . ذهب إلى النجاشي ليقيم عنده مترقباً ما يكون من خبر النبي صلى الله عليه وسلم وقومه .

قال عمرو : فقدم علينا عمرو بن أمية الضَّمْري رسولاً من النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ، فلما خرج عمرو بن أمية الضَّمْري من عند النجاشي . . دخلتُ خلفه وسألته قتله ، فغضب النجاشي واستشاط وقال : تسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر ؟! فقلت أيها الملك : أكذلك هو ؟ قال : يا عمرو ؛ أطعني واتبعه ؛ فإنه والله على الحق ، وَلَيَظْهَرَنَّ علىٰ من خالفه كما ظهر موسىٰ علىٰ فرعون وجنوده ، فأسلم عمرو حينئذ علىٰ يد النجاشي ، ثم خرج عامداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال : فلقيت خالد بن الوليد وهو مقبل من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال :

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

والله ؛ لقد استقام المِيسَم وإن الرجل لنبي[1] ، اذهب إليه فأسلمْ ، فحتىٰ متى ؟! فقلت : ما جئتُ إلاَّ لذلك .

قال : فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم . . تقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فقلت : يا رسول الله ؛ إني أبايعك علىٰ أن يغفر الله لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بَايِعْ ، فَإِنَّ ٱلإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَإِنَّ ٱلْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا » .

قيل : وكان معهما عثمان بن طلحة العبدري ، ولما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم مقبلين . . قال لأصحابه : « رَمَتْكُمْ مَكَّةُ بِأَفْلاَذِ كَبِدِهَا » وكان إسلامهم بعد الحديبية وقبل خيبر والفتح[2] .

وفيها : إسلام عَقِيل بن أبي طالب الهاشمي رضي الله عنه ، ولما أسلم . . قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يَا أَبَا يَزِيدَ ؛ إِنِّي أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ : حُبّاً لِقَرَابَتِكَ مِنِّي ، وَحُبّاً لِمَا أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ »[3] .

وروىٰ عقيل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديثين ، وسكن البصرة ، ومات بالشام في خلافة معاوية .

وفي هـٰذه السنة : كانت **غزوة الغابة** ، وتسمىٰ أيضاً : **غزوة ذي قَرَد** ؛ للموضع الذي جرىٰ فيه القتال ، **وكان سببها** : أن لِقاح النبي صلى الله عليه وسلم كانت ترعىٰ بالغابة[4] ، وهي علىٰ بريد من المدينة من ناحية الشام ، فأخذها بنو فَزارة من غطفان في أربعين فارساً عليهم عُيينة بن حِصن وعبد الرحمـٰن الفَزاريان ، وكان أبو ذر وابنه في اللِّقاح ، فجاء الصريخ إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فبعث الطلب في آثارهم ، وأمر على الطلب سعد بن زيد الأنصاري ، ثم لحقهم صلى الله عليه وسلم في بقية الناس ، فجاء وقد استنقذوا اللِّقاح وقتلوا من قتلوا ، ولم يجىء الطلب إلاَّ وقد فعل سلمة بن عمرو بن الأكوع الأفاعيل ،

---

(١) **المِيسَمُ** : العلامة ، ومعناه : قد تبين الأمر ، وهناك من رواه بالنّون (المنسم) .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢٧٧ـ٢٧٨) .

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٧٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ١٩١) عن أبي إسحاق .

(٤) **اللِّقاح** : ذوات اللبن من الإبل .

وكان ممن أبلىٰ يومئذ أبو قتادة وعُكَّاشة بن مِحْصن والمقداد بن عمرو والأخرم الأسدي .

قلت : قد روى البخاري ومسلم حديث غزوة ذي قرد ، فروياها عن سلمة بألفاظ ومعان مختلفة ، ونحن نرويها من طريق مسلم ؛ حيث روىٰ ذلك عن سلمة متصلاً بحديث الحديبية ، قال سلمة رضي الله عنه : ثم قدمنا المدينة ـ يعني : من الحديبية ـ فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بظهره مع رَباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، وخرجتُ معه بفرس طلحة أُنَدِّيه مع الظَّهر[1] ، فلما أصبحنا . . إذا عبد الرحمٰن الفَزاري قد أغار علىٰ ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستاقه أجمع وقتل راعيه ، فقلت : يا رباح ؛ خذ هٰذا الفرس فأبلغه طلحة بن عبيد الله ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد أغاروا علىٰ سَرْحه ، قال : ثم قمت علىٰ أَكَمَةٍ فاستقبلت المدينة فناديت : يا صباحاه[2] ، ثم خرجتُ في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز وأقول :

أَنَا ٱبْنُ ٱلأَكْوَعِ ... وَٱلْيَوْمُ يَوْمُ ٱلرُّضَّعِ

فألحقُ رجلاً منهم فأَصُكُّ سهماً في رَحله حتىٰ خلَص نصلُ السهم إلىٰ كعبه، قال : قلتُ:

خُذْهَا وَأَنَا ٱبْنُ أَكْوَعِ ... وَٱلْيَوْمُ يَوْمُ ٱلرُّضَّعِ

قال : فوالله ؛ ما زلت أرميهم وأعقِر بهم ، فإذا رجع إلي فارس . . أتيت شجرةً فجلست في أصلها ثم رميته فعقرت به ، حتىٰ إذا تضايق الجبل فدخلوا في تضايقه . . علوت الجبل ، فجعلت أُرَدِّيهم بالحجارة ، قال : فما زلت كذلك أتبعهم حتىٰ ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلاَّ خلَّفته وراء ظهري وخَلَّوا بيني وبينه ، ثم أتبعهم أرميهم حتىٰ أَلْقَوا أكثر من ثلاثين بُرْدةً وثلاثين رُمحاً يستخِفُّون ، ولا يطرحون شيئاً . . إلاَّ جعلت عليه آراماً من الحجارة[3] يعرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتىٰ أتوا متضايقاً من ثنيةٍ ؛ فإذا هم قد أتاهم فلانُ بن بدر الفَزاري فجلسوا يتصبحون ـ يعني : يَتغدَّون ـ وجلستُ علىٰ رأس قرن .

---

(١) **أُنَدِّيه** : أَسقيه قليلاً ثم أرده .

(٢) **يا صباحاه** : كلمة تقال عند استنفار من هو غافل عن عدوه .

(٣) **الآرام** : الأعلام .

قال الفَزاري : ما هـٰذا الذي أرى ؟! قالوا : لقينا من هـٰذا البَرْحَ ، والله ؛ ما فارقنا منذ غلسٍ يرمينا حتى انتزع كلَّ شيءٍ في أيدينا ، قال : فليقم إليه نفر منكم أربعة ، قال : فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل ، قال : فلما أمكنوني من الكلام . . قال : قلت : هل تعرفونني ؟ قالوا : لا ، ومن أنت ؟ قلت : أنا سلمة بن الأكوع ، والذي كرَّم وجهَ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لا أطلب رجلاً منكم إلاَّ أدركته ، ولا يطلبني فيدركني ، قال أحدهم : أنا أظن .

قال : فرجعوا فما برحتُ من مكاني حتىٰ رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخللون الشجر ، قال : فإذا أولهم الأخرم الأسدي ، وعلىٰ إثره أبو قتادة الأنصاري ، وعلىٰ إثره المقداد بن الأسود الكندي ، قال : فأخذت بعِنان الأخرم ، قال : فولَّوا مدبرين ، قال : قلت : يا أخرم ؛ احذَرهم لا يقتطعوك حتىٰ تلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال : يا سلمة ؛ إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق . . فلا تَحُل بيني وبين الشهادة ، قال : فخليته ، فالتقىٰ هو وعبد الرحمـٰن ، قال : فعقر بعبد الرحمـٰن فَرَسَه ، فطعنه عبد الرحمـٰن فقتله وتحول علىٰ فرسه ، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبد الرحمـٰن فطعنه فقتله ، فوالذي كرَّم وجه محمد ؛ لتبعتُهم أعدو علىٰ رجليَّ حتىٰ ما أرىٰ ورائي من أصحاب محمد ولا غبارهم شيئاً حتىٰ يَعدِلوا قبل غروب الشمس إلىٰ شِعب فيه ماء يقال له : ذو قرد ؛ ليشربوا منه وهم عِطاش ، قال : فنظروا إليَّ أعدو وراءهم فحَلأَّتُهم عنه ، فما ذاقوا منه قَطْرةً ، قال : ويخرجون فيشتدون في ثنية ، قال : فأعدو عليهم ، فألحق رجلاً منهم فأصكُّه بسهم في نُغْضِ كتفيه[1] ، قال : قلت :

خُـذْهَـا وَأَنَـا ٱبْـنُ ٱلأَكْـوَعِ ... وَٱلْيَـوْمُ يَـوْمُ ٱلـرُّضَّـعِ

قال : يا ثكلتْه أمُّه ؛ أكوعُه بكرةَ[2] ، قال : قلت : نعم يا عدوَّ الله ، أكوعُك بكرةَ .

---

(١) النُّغْضُ : العظم الدقيق علىٰ طرف الكتف .

(٢) قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح صحيح مسلم » (١٢/ ١٨١) : (قوله : « أكوعه » هو برفع العين ؛ أي : أنت الأكوع الذي كنتَ بكرةَ هـٰذا النهار ، ولهـٰذا قال : نعم ، و« بكرة » : منصوب غير منون ، قال أهل العربية : يقال : « أتيته بكرةً » بالتنوين إذا أردت أنك لقيته باكراً في يوم غير معين ، قالوا : وإن أردت بكرة يوم بعينه . . قلت : « أتيته بكرة » غير مصروف ؛ لأنها من الظروف غير المتمكنة) .

قال : وأردَوْا فرسين على الثنية ، قال : فجئت بهما أسوقهما إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ولحقني عامر ـ يعني عمه ـ بسَطِيحةٍ فيها مَذْقَةٌ من لبن[1] ، وسطيحةٍ فيها ماء ، فتوضأتُ وشربتُ ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الماء الذي حلأتهم عنه ؛ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ تلك الإبل وكل شيءٍ استنقذتُه من المشركين ، وكل رمح وبُردةٍ ، وإذا بلال نحر ناقةً من الإبل التي استنقذتُ من القوم ، وإذا هو يشوي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كبدها وسَنامها .

قال : قلت : يا رسول الله ؛ خلِّني فأَنتخبُ من القوم مئة رجل فأتبع القوم فلا يبقىٰ منهم مخبر إلاَّ قتلته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ بدت نواجذه في ضوء النار ، فقال : « يَا سَلَمَةُ ؛ أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلاً ؟ » قلت : نعم والذي أكرمك ، قال : « إِنَّهُمُ ٱلآنَ لَيُقْرَوْنَ فِي أَرْضِ غَطَفَانَ » .

قال : فجاء رجل من غطفان ، قال : نحر لهم فلان جَزُوراً ، فلما كشفوا جلدها . . رأوا غباراً فقالوا : أتاكم القوم ، فولوا هاربين .

فلما أصبحنا . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا ٱلْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ » قال : ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم سهمين : سهم الفارس ، وسهم الراجل ، فجمعهما لي جميعاً ، ثم أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة[2] .

قال ابن عباس : (صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بذي قَرد) رواه البخاري[3] .

واستشهد في هـٰذه الغزاة : وقاص بن مُجَزِّز المُدلِجي ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أخاه علقمة طالباً بثأره ، فلما كان ببعض الطريق . . أذن لعبد الله بن حذافة في طائفة من الجيش فأمرهم فأوقدوا ناراً ، ثم أمرهم بدخولها ، فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خبرهم فقال : « لَوْ دَخَلُوهَا . . مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »[4] .

---

(١) السطيحة : إناء يعمل من الجلود ، والمَذْقَةُ : شيء قليل .

(٢) مسلم (١٨٠٧) .

(٣) البخاري (٤١٢٧) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٤٠) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بنحوه .

قصة العرنيين

وكانت بعد ذي قَرَد بستة أشهر ، وذكرها البخاري قبلها ، وقد روياها في « الصحيحين » من طرق عديدة عن أنس ، حاصلها : قال : إن نفراً من عكل أو عرينة ثمانية قدموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، واستوخموا المدينة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا في إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا فصَحُّوا ، فارتدوا ، وقتلوا راعيها واستاقوها ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم الطلب في آثارهم ، فما ترجل النهار حتىٰ جيء بهم ، فقُطِّعت أيديهم وأرجلهم ولم يُحسَموا ، وكُحِلت أعينهم ، وطرحوا بالحرة يستسقون فلا يسقون ، وكان أحدهم يَكدِمُ الأرض بفيه حتىٰ ماتوا .

قال أبو قلابة : قَتلوا وسَرقوا وحاربوا الله ورسوله وسَعَوا في الأرض فساداً[1] .

قلت : ورُوي خارج « الصحيحين » أنهم كحلوا الرعاة ، وقد ترجم البخاري عليه .

قال سعيد بن جبير : ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية ، قال الليث بن سعد : هي معاتبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتعليم له ؛ يقول : إنما كان جزاؤهم هـٰذا لا المثلة ، فلذلك ما قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً إلاَّ نهىٰ عن المثلة .

قلت : وثبت في « صحيح مسلم » : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أمَّر أميراً علىٰ جيش أو سرية . . أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالىٰ ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « أُغْزُوا بِٱسْمِ ٱللهِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِٱللهِ ، أُغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيداً »[2] .

ثم اختلف العلماء في ترديد (أو) في الآية الكريمة ، فقال مالك : هي على التخيير ، فيتخير الإمام بين هـٰذه الأمور إلاَّ القاتل فيتحتم قتله ، وقال أبو حنيفة : الإمام بالخيار وإن قتلوا ، وقال الشافعي : (أو) هنا للتقسيم ؛ فإن قتلوا ولم يأخذوا المال . . قتلوا ، وإن

---

(١) البخاري (٦٨٩٩) ، ومسلم (١٦٧١) .

(٢) مسلم (١٧٣١) ، **ولا تَغُلُّوا** : لا تخونوا في الغنيمة ، **ولا تَمْثُلُوا** : لا تشوهوا القتلىٰ بقطع الأنوف والآذان ونحو ذلك .

قتلوا وأخذوه . . صلبوا مع القتل ، وإن أخذوه ولم يقتلوا . . قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإن أخافوا الطريق ولم يأخذوا . . عزروا ، وهو النفي عنده .

قال أصحابنا : فكما تفاوت ضررها . . اختلفت عقوبتها .

وفي هٰذا الحديث حجة لمالك وأحمد حيث يقولان بطهارة بول كل مأكول اللحم وروثه ، وأجاب الشافعي والآخرون بأن هٰذا للتداوي ، وهو جائز بكل النجاسات سوى الخمر والمسكرات .

وفيها : غزا زيد بن حارثة بني فَزارة ، فأصيب أصحابه ، ونجا زيد جريحاً ، فحلف ألاَّ يغتسل من جنابة حتىٰ يغزوهم ، فغزاهم ثانيةً فظفر بهم ، وقتل أم قِرْفة ، وكانت في بيت شرف من قومها ، وتقول العرب : أعز من أم قِرْفة ، قيل : كان يعلق في بيتها خمسون سيفاً ، كلهم ذوو محرم لها .

وفي هٰذه السنة : ماتت أم رومان زوجة أبي بكر وأم ولديه عائشة وعبد الرحمٰن رضي الله عنهم ، ويقال : ماتت سنة أربع ، وهو وهم من حيث إنه جرىٰ ذكرها في حديث الإفك في « الصحيحين » والإفك بعد ذلك[1] ، ووهم كثيرون أيضاً من ادعاء موتها في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتصريح مسروق في « صحيح البخاري » بالسماع منها[2] ، وقوله : (سألت أم رومان) وقال الآخرون : صوابه (سئلت أم رومان) بالياء ، والله أعلم .

ولما ماتت أم رومان . . دخل النبي صلى الله عليه وسلم في قبرها ، واستغفر لها ؛ مراعاةً لأبي بكر وعائشة ، وقضاءً لحقها حيث إنها خَتَنَتُهُ[3] .

---

(١) في النسخ (قبل ذلك) ، والصواب ما أثبت ، وهو نسخة في هامش (ب) .

(٢) البخاري (٣٣٨٨ ، ٤١٤٣ ، ٤٦٩١ ، ٤٧٥١) .

(٣) قوله : (سألت أم رومان) ، وفي أخرىٰ أيضاً : (حدثتني أم رومان) فكيف يسألها ، أو تحدثه إذا كانت ماتت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يأت المدينة إلاّ بعد وفاته ، فتعين تأخر وفاتها عن وفاته صلى الله عليه وسلم ؛ إذ جاء ذلك في الأسانيد الصحيحة ، ويدل عليه ما في الصحيح : أن آية التخيير لما نزلت قال : « لاَ تَعْجَلِي حَتَّىٰ تُؤَامِرِي أَبَا بَكْرٍ » ، زاد أحمد في « مسنده » : « أَبَا بَكْرٍ وَأُمَّ رُومَانٍ » ، ولمسلم : « حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ » ، وكان نزولها سنة تسع . . . قال في « التوشيح » : وقد جزم الحربي بأن مسروقاً سمع منها وله خمس عشرة سنة .
=

وفي ذي الحجة منها : جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم رُسُلَه بكتبه إلىٰ ملوك الأقاليم الجبابرة يُرغِّبهم ويُرهِّبهم ، فبعث دِحية بن خليفة الكَلْبي إلىٰ قيصر ، وعبد الله بن حُذافة السَّهمي إلىٰ كسرىٰ ، وعمرو بن أمية الضَّمْري إلى النجاشي ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المُقَوْقِس ، وشُجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شِمْر الغساني ، وسَلِيط بن عمرو العامري إلىٰ هوذة بن علي الحنفي .

فمما اشتهر من ذلك واتفق عليه « الصحيحان » : كتابه إلىٰ هرقل ، وهو قيصر ، وقد فرقه البخاري في مواضع ، وأتىٰ به مسلم في موضع واحد كما هي عادته ، وكلاهما يرويه عن أبي سفيان صخر بن حرب ، وليس له في « الصحيحين » غيره .

ثم إنهما يرويانه من رواية عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال : حدثني أبو سفيان من فيه إلىٰ فيّ قال : انطلقتُ في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبينا أنا بالشام ؛ إذ جيء بكتاب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ هِرقلَ ، قال : وكان دِحية الكَلْبي جاء به ، فدفعه إلىٰ عظيم بُصْرىٰ ، فدفعه عظيم بصرىٰ إلىٰ هرقل .

قال : فقال هرقل : هل هٰهنا أحد من قوم هٰذا الرجل الذي يَزعمُ أنه نبي ؟ قالوا : نعم ، قال : فدُعِيتُ في نفر من قريش ، فدخلنا علىٰ هرقل ، فأجلسنا بين يديه فقال : أيكم أقرب نسباً من هٰذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت : أنا ، فأجلسوني بين يديه ، وأجلسوا أصحابي خلفي ، ثم دعا بِتَرْجُمانه فقال : قل لهم : إني سائل هٰذا عن هٰذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؛ فإن كَذَبني . . فكذِّبوه .

قال أبو سفيان : وايم الله ؛ لولا أَنْ يأثروا عليّ الكذب . . لكذبت .

ثم قال لتَرْجُمانه : سله : كيف حسبه فيكم ؟ قال : قلت : هو فينا ذو حسب ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلتُ : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول

= (وقال الآخرون : صوابه : سئلت) بالبناء للمفعول ، يرده ما في الرواية الثانية : (حدثتني أم رومان) اهـ « شرح البهجة » (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦) ، وانظر « فتح الباري » (٧/ ٤٣٧ـ ٤٣٨) ، و« عمدة القاري » (١٧/ ٢١٠ـ ٢١١) .

ما قال ؟ قلتُ : لا ، قال : فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال : قلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم يَنقصون ؟ قلت : لا ، بل يزيدون ، قال : هل يَرتدُّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخْطَةً له ؟ قال : قلت : لا ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلتُ : نعم ، قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قال : قلت : يكون الحرب بيننا وبينه سِجالاً ؛ يصيب منَّا ونُصيب منه ، قال : فهل يَغْدِر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه في هٰذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها ، قال : فوالله ؛ ما أمكنني من كلمةٍ أُدخل فيها شيئاً غير هٰذه ، قال : فهل قال هٰذا القول أحد قبله ؟ قلت : لا .

ثم قال لترجمانه : قل له : إني سألتك عن حسبه فيكم . . فزعمتَ أنه فيكم ذو حسب وكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها ، وسألتك : هل كان في آبائه ملك . . فزعمتَ أن لا ، فقلتُ : لو كان من آبائه ملك . . قلتُ : رجل يطلب مُلك أبيه ، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم . . فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال . . فزعمت أن لا ، فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهبَ فيكذبَ على الله ، وسألتك : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخْطَةً له . . فزعمتَ أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالط بَشاشةَ القلوب ، وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون . . فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتىٰ يتم ، وسألتك : هل قاتلتموه . . فزعمتَ أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم وبينه سِجالاً ؛ ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسل تُبتلىٰ ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك : هل يَغدِر . . فزعمتَ أنه لا يَغدر ، وكذلك الرسل لا تَغدر ، وسألتك : هل قال هٰذا القول أحد قبله . . فزعمت أن لا ، فقلتُ : لو كان قال هٰذا القول أحد قبله . . قلت : رجل ائتمَّ بقولٍ قيل قبله .

قال : ثم قال : بم يأمركم ؟ قال : قلتُ : يأمرنا بالصلاة والزكاة والصِّلة والعفاف ، قال : إن يك ما تقول حقاً . . فإنه نبيٌّ ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو أني أعلم أني أَخلُص إليه . . لأحببت لقاءه ـ وفي رواية في « البخاري » : لتجشمت لقاءه ـ ولو كنتُ عنده . . لغسلتُ عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي ، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فإذا فيه :

« بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ ٱلرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ .

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ ٱلإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ ٱللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ . . فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ ٱلأَرِيسِيِّينَ[1] و﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ » فلما فرغ من قراءة الكتاب . . ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللَّغط ، وأمر بنا فأُخرجنا .

قال : فقلتُ لأصحابي حين خرجنا : لقد أَمِر أَمْرُ ابن أبي كبشة[2] ؛ إنه ليخافه ملك بني الأصفر ، قال : فما زلتُ موقناً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر حتىٰ أَدخل اللهُ عليَّ الإسلام[3] .

زاد البخاري: قال الزهري : فدعا هرقل عظماء الروم فجمعهم في دار له فقال : يا معشر الروم ؛ هل لكم في الفلاح والرَّشَدِ آخر الأبد ، وأن يَثْبُت لكم مُلْككم ؟ قال : فحاصوا حيصةَ حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، قال : عليَّ بهم ، فدعا بهم فقال : إني اختبرتُ شدتكم علىٰ دينكم ، فقد رأيتُ منكم الذي أحببت ، فسجدوا له ورضوا عنه[4] .

وفي « صحيح البخاري » زوائد أخر تركناها اختصاراً .



في فوائد هـٰذا الحديث

قال الخطابي رحمه الله : إذا تأملت معاني ما استقرأه ـ يعني هرقل ـ من أوصافه صلى الله عليه وآله وسلم . . تبينت قوة إدراكه ، ولله دَرُّه من رجل لو ساعد معقولَه مقدورُه!

قال غيره : وإنما شَحَّ بالملك وأخلد إلى الرئاسة فآثرها على الإسلام ، ولو أراد الله

---

(١) **الأَرِيسيُّون** : الفلاَّحون والزراعون .

(٢) **أَمِرَ** : عظُمَ .

(٣) البخاري (٧ ، ٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣) .

(٤) البخاري (٤٥٥٣) .

هدايته . . لوفقه كما وفق النجاشي وما زالت عنه الرئاسة ، اللهم ؛ إنَّا نسألك التوفيق ، ونعوذ بك من الخِذلان والتعويق .

و(هِرَقل) : بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف كدمشق ، وهو اسم علم له لا ينصرف للعلمية والعجمة ، وأما (قيصر) : فهو لقب لكل من ملك الروم ، كما يقال لملك الفرس : (كسرىٰ) ، والحبشة : (النجاشي) ، والترك : (خاقان) ، والقبط : (فرعون) ، وحمير : (قَيْل) ، واليمن : (تُبَّع) .

وفي هـٰذا الحديث : أنه يستحب تصدير الكتاب ببسم الله الرحمـٰن الرحيم ، أو الحمد لله ، فكل سنةٌ ، وفيه : أن الكاتب يبدأ باسم نفسه ثم باسم المكتوب إليه ، قال قوم : هـٰذا في الكتاب ، أما في العنوان . . فبالعكس ، والصواب : لا فرق .

ومن فوائده : أنه يستحب في المكاتبات التوقي من المجازفات ، وخطاب كل علىٰ حسب ما يقتضيه حاله ، فلا يُفرِط ولا يُفرِّط ، وخيار الأمور أوسطها ؛ فقد أتىٰ صلى الله عليه وسلم في كتابه هـٰذا مع ما فيه من الزجر والردع بنوع من الإكرام والتلطف ؛ ممتثلاً ما أمر به من إلانة القول ، والدعاء إلىٰ سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع التوقي من المجازفة ؛ حيث قال : (عظيم الروم) ولم يقل : (ملكهم) لأنه لا ملك له ولا لغيره بحكم الإسلام .

وفي هـٰذا الحديث دليل علىٰ أن من كان سبباً لضلالة قوم . . كان إثمه كآثام جميعهم ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « فَإِنْ تَوَلَّيْتَ . . فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ ٱلأَرِيسِيِّينَ » ، وهم أتباعه الذين إسلامهم مرتب علىٰ إسلامه ، ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ ، وفيه غير ذلك ، والله أعلم .

وأما كتاب كسرىٰ . . ففي « صحيح البخاري » : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عبد الله أن يدفعه إلىٰ عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلىٰ كسرىٰ ، فلما قرأه . . مزقه ، فحسبت ابنَ المسيب قال : فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمزَّقوا كل ممزق[1] ، قيل : هلك منهم عند ذلك أربعة عشر ملكاً في سنة حتىٰ مَلَّكوا أمرهم امرأةً ، ولما سمع بذلك النبي

(١) البخاري (٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

صلى الله عليه وسلم . . قال : « لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ ٱمْرَأَةً »[1] ثم اندرس أمرهم آخر الأبد ، فلم يبق لهم ملك ولا مملكة كما بقي للروم ، ولقد أجاد القول في ذلك محمد بن سعيد الأبوصيري حيث يقول في فصل مولده صلى الله عليه وسلم في « البردة » : [من البسيط]

وَبَـاتَ إِيـوَانُ كِسْـرَىٰ وَهْـوَ مُنْصَـدِعٌ كَشَمْـلِ أَصْحَـابِ كِسْـرَىٰ غَيْـرَ مُلْتَئِـمِ

قيل : سقط من الإيوان ليلتئذ من الشرفات بعدد من ملك منهم بعد ذلك ، والله أعلم .

وأما النجاشي رضي الله عنه . . فقد كان أسلم ، وإنما بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْري في تزويج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأن يرسل إليه جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين ، فلما ورد الكتاب على النجاشي . . وضعه علىٰ عينيه ، ونزل عن سرير ملكه إجلالاً له ، ثم سارع إلىٰ ذلك .

وأرسل إلىٰ أم حبيبة علىٰ يد مولاته أَبْرَهة بأربع مئة دينار ، فأعطتها أم حبيبة خمسين ديناراً ، فردتها وقالت : أمرني الملك ألاَّ آخذ منك شيئاً ، وقالت : أنا صاحبة ذهب الملك وثيابه ، وقد آمنت بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحاجتي منك أن تقرئيه مني السلام ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك ما عندهن من عود وعنبر ، وولت أم حبيبة أمرها في التزويج خالد بن سعيد بن العاص ، ثم جهز النجاشي جميع من عنده من المسلمين في سفينتين بجميع ما يحتاجون إليه .

قالت أم حبيبة : فخرجنا إلى المدينة ، فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر ؛ فخرج من خرج إليه ، وأقمت بالمدينة حتىٰ قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخلت عليه فكان يسألني عن النجاشي ، وقرأت عليه من أبرهة السلام ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما المقوقس . . فقارب وهادن ، وبعث أنواعاً من الهدايا ، وسيأتي خبر رسله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الملوك وعددهم في فصل منفرد فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ[2] ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكيل والتعويل .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه .

(٢) (ص ٤١٢) .

السنة السابعة من الهجرة
وهي الستون من مولده صلى الله عليه وسلم

اتفق فيها فتح خيبر ، و(خيبر) : اسم جامع لجملة من الحصون والقرىٰ ، وبينها وبين المدينة ثلاث مراحل ، وكان من خبرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية وقد وعده الله سبحانه فتح خيبر ، إثابةً عما لحقهم من الانكسار يومئذ فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ الآية . . فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ذي الحجة ، وسار في المحرم إلىٰ خيبر فصبَّحها بكرةً علىٰ غِرَّة .

وروينا في « الصحيحين » واللفظ لمسلم عن أنس قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، فصلينا عندها صلاة الغداة بغَلَسٍ ، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وركب أبو طلحة ، وأنا رديف أبي طلحة ، فأجرىٰ نبي الله صلى الله عليه وسلم فرسه في زُقاق خيبر وإن ركبتي لتمس فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وانحسر الإزار عن فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم وإني لأرىٰ بياض فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل القرية . . قال : « ٱللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ . فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ » قالها ثلاث مرَّات .

قال : وقد خرج القوم إلىٰ أعمالهم فقالوا : محمد والخميس[1] ، يعنون الجيش .

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم . . سار من تلك النواحي من قبائل أسد وغطفان ليظاهروا اليهود فألقى الله الرعب في قلوبهم فرجعوا ، ثم هموا أن يخالفوا إلى المدينة ، فأعجزهم الله تعالىٰ وخَلَّوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حصون خيبر يفتتحها حصناً حصناً ، فافتتح أولاً حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة ، ألقيت عليه رحاً فقتلته ، ثم القَمُوص

---

(١) البخاري (٣٧١) ، ومسلم (١٣٦٥/ ٨٤) ، وخَرِبَتْ خيبرُ : إمّا دعاء تقديره : أسأل الله خرابها ، وإما إخبار بخرابها على الكفار وفتحها على المسلمين .

حصن بني أبي الحُقَيْق ، ومن سباياه صفية بنت حيي ، جاء بها بلال وبأخرىٰ معها ، فمر بهما على القتلىٰ ، فلما رأتهم التي مع صفية . . صاحت وصَكَّت وجهها ، وحَثت التراب علىٰ رأسها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال : « أَعْزِبُوا عَنِّي هَـٰذِهِ ٱلشَّيْطَانَةَ » وقال لبلال : « أَنُزِعَتْ مِنْكَ ٱلرَّحْمَةُ يَا بِلاَلُ حَيْثُ تَمُرُّ بِٱمْرَأَتَيْنِ عَلَىٰ قَتْلَىٰ رِجَالِهِمَا ؟! »[١] .

ثم افتتح صلى الله عليه وسلم حصن الصعب بن معاذ ، ومنه شبع الجيش طعاماً وودكاً[٢] بعد مخمصة شديدة ، ثم انتهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ حصنيهم : الوَطِيح وذي السِّلالم ، وكانا آخر حصونهم افتتاحاً ، وأوسعها أموالاً وأكثرها قتالاً ، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، وكان شعار المسلمين : يا منصور أمت أمت .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أخذته شقيقة فلم يخرج إلى الناس ، فأخذ الراية أبو بكر فقاتل قتالاً شديداً ، ثم رجع ولم يفتح عليه ، ثم عمر كذلك ، وكان الفتح علىٰ يد عليّ رضي الله عنهم أجمعين .

روينا في « الصحيحين » من طرق : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر وكان به رمد ، فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟! فخرج فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأُعْطِيَنَّ ٱلرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يَفْتَحُ ٱللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ، يُحِبُّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ » فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعْطاها .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما أحببت الإمارة إلاَّ يومئذ ، فتساورت لها رجاء أن أُدعىٰ لها ، فلما أصبح الناس . . غدوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : « أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ » فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٣٣٦) ، وأَعْزِبوا : أبعدوا .
(٢) الوَدَكُ : الدهن .

عينيه ، قال : « فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ » فأتي به ، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له ، فبرأ حتىٰ كأن لم يكن به وجع[1] ، وفي رواية عن سلمة : فإذا نحن بعلي وما نرجوه ، فقالوا : هـٰذا علي ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ، ففتح الله عليه[2] .

وروي : أنه لما دنا من حصنهم . . أشرف عليه رجل من اليهود فقال : من أنت ؟ فقال : علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل علىٰ موسىٰ[3] .

وروينا في « صحيح مسلم » : أنه خرج إليه مرحب وهو يقول : [من الرجز]

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي مَـرْحَـبُ شَـاكِـي ٱلسِّـلاَحِ بَطَـلٌ مُجَـرَّبُ

إِذَا ٱلْحُـرُوبُ أَقْبَلَـتْ تَلَهَّـبُ

فقال علي رضي الله عنه :

أَنَـا ٱلَّـذِي سَمَّتْـنِ أُمِّـي حَيْـدَرَهْ كَلَيْـثِ غَـابَـاتٍ كَـرِيـهِ ٱلْمَنْظَـرَهْ

أُوفِيهِـمُ بِـٱلصَّـاعِ كَيْـلَ ٱلسَّنْـدَرَهْ

فضرب رأس مَرْحبٍ فقتله ، ثم كان الفتح علىٰ يديه[4] .

وكان مَرْحبٌ قبل ذلك قد بارز عامر بن الأكوع ، فرجع سيف عامر عليه فقتله ، فقال الناس : حَبط عمله ، قال سلمة : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فقال : « كَذَبَ مَنْ قَالَهُ ، إِنَّ لَهُ أَجْرَيْنِ ـ وجمع بين إصبعيه ـ إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَىٰ بِهَا مِثْلَهُ »[5] .

وروي : أن علياً رضي الله عنه يومئذ بارز يهودياً مرحباً أو غيره ، فضرب اليهودي ترس علي فطرحه من يده ، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به ، فلم يزل في يده حتىٰ

---

(١) البخاري (٤٢١٠) مسلم (٢٤٠٥ ، ٢٤٠٦) ، **يَدُوكُون** : يخوضون ويتحدثون ، **تَسَاورت** : تطاولت .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٥) ، ومسلم (٢٤٠٧) .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٣٥) بنحوه .

(٤) مسلم (١٨٠٧) عن سلمة بن عمرو رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري (٦١٤٨) ، ومسلم (١٨٠٢) ، **جاهدٌ** : جادٌّ في أمره .

فتح الله عليه ، قال أبو رافع : لقد رأيتني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه[١] .

ثم برز بعد مرحب أخوه ياسر يرتجز ، فخرج إليه الزبير ، فقالت صفية بنت عبد المطلب : أيقتل ابني يا رسول الله ؟ قال : « اِبْنُكِ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ » فقتله الزبير .

قلت : وفي « سيرة ابن هشام » رواية عن ابن إسحاق : أن قاتل مرحب محمد بن مسلمة الأنصاري[٢] ، ولا يصح ذلك ؛ فما ثبت في الصحيح أولىٰ ، والله أعلم .

فلما أيقن أهل الوطيح والسّلالم بالهلكة . . استسلموا ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ففعل ، فسمع بهم أهل فَدَك ، فأرسلوا يطلبون ذلك ففعله لهم أيضاً ، فكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا رِكاب[٣] .

ثم عامل النبي صلى الله عليه وسلم اليهود علىٰ خيبر بشطر ما يخرج منها وقال : « نُقِرُّكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا شِئْنَا » وبقوا علىٰ ذلك إلىٰ خلافة عمر ، وأحدثوا أحداثاً ، فأجلاهم عمر إلىٰ تَيماء وأريحاء[٤] .

ولما حاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر وأعمالها . . أخذ يقسم المقاسم الجليلة ، ويعطي العطيات الجزيلة ، ورد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم ، وحدث لهم رخاء لم يكن معهم قبل ذلك .

وروينا في « صحيح البخاري » عن عائشة رضي الله عنها قالت : (لما فتحت خيبر . . قلنا : الآن نشبع من التمر)[٥] ، وفيه عن ابن عمر قال : (ما شبعنا حتىٰ فتحنا خيبر)[٦] .

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر نصفين : نصفاً لنوائبه وما ينزل به من

---

(١) انظر « عيون الأثر » (٢/ ١٧٥) .

(٢) « سيرة ابن هشام » (٢/ ٣٣٣) .

(٣) أَوْجَفَ دابّته : حَثَّهَا .

(٤) أخرجه البخاري (٣١٥٢) بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) البخاري (٤٢٤٢) .

(٦) البخاري (٤٢٤٣) .

الأمور المهمة ، ونصفاً بين المسلمين ، وجملتها : ستة وثلاثون سهماً ، وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَلْفَ سهمٍ وثمان مئة سهم برجالهم وخيلهم ، الرجال أربع عشرة مئة ، والخيل مئتا فرس ، فكان لكل فرس سهمان ، ولفارسه سهم ، وللراجل سهم ، وكانت أصول السهام ثمانية عشر سهماً ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم فرق رؤساء أصحابه سبعة عشر رأساً ، وأضاف إلىٰ كل واحد منهم مئةً ، والثامن عشر سهمُ اللفيف ، وهو سهم جمع قبائل شتىٰ .

ولم يغب أحد من أهل الحديبية عن خيبر إلاَّ جابر بن عبد الله ، فأسهم له رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن حضر ، وأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمهاجرة الحبشة ولم يحضروا .

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر . . أهدت له زينبُ بنت الحارث امرأةُ سلاَّم بن مِشْكم شاةً مَصْلِيةً[1] ، ودست له فيها سمّاً وأكثرت في الذراع ؛ لما أُخبرت أنها تُعجبه ، فوُضِعَتْ بين يديه ومعه بشر بن البراء فأكلا ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فلم يُسِغ لقمته ، وأما بشر فأساغها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْعَظْمَ لَيُخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُومٌ » ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : « مَا حَمَلَكِ عَلَىٰ ذَلِكَ ؟ » قالت : بلغت من قومي ما لم يَخْفَ عليك فقلتُ : إن كان مَلِكاً . . استرحت منه ، وإن كان نبياً . . فسيُخْبَر ، فتجاوز عنها[2] ، فلما مات بشر بن البراء . . قتلها قصاصاً ، قال أنس : (فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم)[3] .

وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه : « يَا عَائِشَةُ ؛ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ ٱلطَّعَامِ ٱلَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَـٰذَا أَوَانُ وَجَدْتُ ٱنْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ ٱلسُّمِّ » أخرج الشيخان أكثره[4] .

---

(١) المَصْلِيَّةُ : المشوية .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٣٣٧ـ٣٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦١٧) ، ومسلم (٢١٩٠) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (باب : مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته) تعليقاً .

وجملة من استشهد من المسلمين بخيبر أربعة عشر رجلاً ، وقيل : قريباً من عشرين رجلاً[1] .

قال ابن هشام : وذكر سفيان بن عيينة عن الأجلح عن الشعبي : أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح خيبر ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عينيه والتزمه وقال : « مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أُسَرُّ أَكْثَرَ ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ ؟ »[2] .

وقدم بقدوم جعفر أبو موسى الأشعري ورُفقته من الأشعريين ، وقد سبق ذلك في حديث أسماء بنت عميس في فضلهم عند ذكر هجرتهم[3] .

قال أهل السير : ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر . . انصرف إلىٰ وادي القرىٰ ، فحاصر أهله وفتحه الله عليه ، وأصيب به مولاه مِدْعَم ، فقال الناس : هنيئاً له الشهادة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كَلاَّ ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ إِنَّ ٱلشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا ٱلْمَقَاسِمُ . . لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَاراً »[4] .

ولما انتهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرجعه من وجهه ذلك إلىٰ سد الصهباء . . حلت له صفية بنت حيي ، فجهزتها له أم سليم ، ثم ضربت له قبة فدخل بها فيها ، فلما أصبح . . أمر بالأنطاع فبسطت[5] ، ثم دعا بفضولات الأزواد فأتي بها ، فحاسوا حيساً ، ثم دعا المسلمين فأكلوا ، فكانت تلك وليمتَه علىٰ صفية .

قيل لأنس : يا أبا حمزة ؛ ما أصدقها ؟ قال : نفسها ، أعتقها وجعل صداقها عتقها ، وقال الناس : لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد ؟ قالوا : إن حجبها . . فهي امرأته ، وإن لم يحجبها . . فهي أم ولد ، فلما أراد أن يركب . . حجبها ، فقعدت علىٰ عَجُز البعير ، فعرفوا أنه قد تزوجها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع ركبته لها إذا أرادت أن تركب ، فتضع صفية رجلها علىٰ ركبته ثم تصعد .

---

(١) في (ج) : (أربعين رجلاً) .

(٢) « سيرة ابن هشام » (٢/٣٥٩) .

(٣) انظر (٩٤) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٠٧) بنحوه .

(٥) **الأنطاع** : البُسُط من الجلد .

قال أنس : فانطلقنا ، حتىٰ إذا رأينا جُدُر المدينة . . هَشِشْنا إليها ، فرفعنا مطينا ورفع صلى الله عليه وسلم مطيته ، قال : وصفية خلفه قد أردفها ، فَعَثَرَتْ مطية رسول الله صلى الله عليه وسلم فصُرِع وصُرِعَتْ ، قال : فليس أحدٌ من الناس ينظر إليه ولا إليها حتىٰ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسترها ، قال : فأتيناه فقال : « لَمْ نُضَرَّ » قال : فدخلنا المدينة ، فخرج جواري نسائه يتراءينها ويَشْمَتن بصَرْعتها ، روي ذلك في « الصحيحين »[1] .

قال ابن عمر : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذر إلىٰ صفية في قتل أبيها ويقول : « يَا صَفِيَّةُ ؛ إِنَّ أَبَاكِ أَلَّبَ عَلَيَّ ٱلْعَرَبَ ، وَفَعَلَ وَفَعَلَ » حتىٰ ذهب ذلك من نفسها[2] .

قال أهل السير : وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق أن قمراً وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها علىٰ زوجها ، فقال : ما هٰذا إلاَّ أنك تمنين ملك الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمةً خضَّر عينها منها ، فأُتي بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه ، فأخبرته بذلك[3] ، فأُتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع ، فسأله عن كنز بني النضير وكان عنده ، فجحده ، فدفعه إلى الزبير يعذبه حتىٰ يخبرهم فأبىٰ ، ثم بعد ذلك دفعه إلىٰ محمد بن مسلمة فقتله بأخيه ، والله أعلم .

ورويناً في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من غزوة خيبرَ . . سار ليله ، حتىٰ إذا أدركه الكَرَىٰ . . عرَّس[4] وقال لبلال : « اِكْلأْ لَنَا ٱللَّيْلَ » .

فصلىٰ بلال ما قُدِّر له ، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلما تقارب الفجر . . استند بلال إلىٰ راحلته مُواجهَ الفجر ، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلىٰ راحلته ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٨٥) ، ومسلم (١٣٦٥) ، **وهَشِشْنا** : نَشَطْنا ، **ورفعنا مطينا** : أسرعنا دوابنا ، **ويتراءين** : ينظرن .

(٢) أخرجه ابن حبان (٥١٩٩) وغيره .

(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٣/٣٣٦) .

(٤) **عَرَّسَ** : نزل آخر الليل للنوم والاستراحة .

فلم يستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتىٰ ضربتهم الشمس ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم استيقاظاً ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أَيْ بِلَالُ » فقال بلال : أخذ بنفسي الذي أخذ ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ـ بنفسك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لِيَأْخُذْ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْسِ رَاحِلَتِهِ ؛ فَإِنَّ هَـٰذَا مَنْزِلٌ حَضَرَنَا فِيهِ ٱلشَّيْطَانُ » قال : ففعلنا ، ثم دعا بالماء فتوضأ ثم صلىٰ سجدتين ، ثم أقيمت الصلاة فصلى الغداة ، ثم قال : « مَنْ نَسِيَ الصَّلاَةَ . . فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ قَالَ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ » وكان ابن شهاب يقرؤها : (للذكرىٰ) . انتهىٰ مُلفقاً عن أبي هريرة[١] .

قال العلماء : والحكم في الفائتة بالنوم وغيره من الأعذار أيضاً كذلك ؛ فقد قال في حديث أبي قتادة الطويل المشتمل علىٰ معجزات لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ناموا عن صلاتهم ، قال : فجعل بعضنا يَهْمِس إلىٰ بعض : ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أَمَا لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ ؟! » ثم قال : « إِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلنَّوْمِ تَفْرِيطٌ ، إِنَّمَا ٱلتَّفْرِيطُ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يُصَلِّ ٱلصَّلاَةَ حَتَّىٰ يَجِيءَ وَقْتُ ٱلصَّلاَةِ ٱلأُخْرَىٰ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ . . فَلْيُصَلِّهَا حِينَ يَنْتَبِهُ لَهَا »[٢] .

قالوا : والفائتة بغير عذر كذلك أيضاً في وجوب القضاء ، وإنما يختلفان في جواز التأخير ، فيجوز تأخير الفائتة بعذر على الصحيح ، ولا يجوز تأخير الفائتة بغير عذر على الأصح ، وقال بعضهم : لا يجوز تأخير فائتة واحدة منهما ، واستدل بهـٰذه الأحاديث ، وهي حجة قوية ، وحملها الجمهور على الاستحباب .

وشذ بعض الظاهرية فقال : لا يجب قضاء الفائتة بغير عذر ، وزعم أنها أعظم من أن تخرج من وبال معصيته بالقضاء ، والله أعلم .

وممن أسلم بخيبر : أبو هريرة رضي الله عنه ، واسمه عبد الرحمـٰن بن صخر على الأصح من نحو ثلاثين قولاً كما قاله النووي ، وكُنِّي بهريرة وهي هرة كان يربيها .

---

(١) مسلم (٦٨٠) .

(٢) مسلم (٦٨١) عن أبي قتادة رضي الله عنه .

ورويناً في « صحيح البخاري » عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر بعدما افتتحوها فقلت : يا رسول الله ؛ أسهِم لي ، فقال بعض بني سعيد بن العاص : لا تُسهم له يا رسول الله ، فقال أبو هريرة : هـٰذا قاتل ابن قَوْقلٍ ، فقال ابن سعيد بن العاص : واعجباً لوَبْرٍ تدلَّىٰ علينا من قَدُوم ضأنٍ! يَنعَىٰ عليَّ قتل رجل مسلم أكرمه الله علىٰ يدي ولم يُهِنِّي علىٰ يديه ؟! قال : فلا أدري أسهم له أو لم يسهم له[1] .

ورواه البخاري في موضع آخر أبين من هـٰذا علىٰ غير هـٰذا الوجه ، لكن رواه معلقاً بصيغة التمريض فقال : ويذكر عن الزُّبَيْدِي عن الزهري قال : أخبرني عَنْبَسة بن سعيد أنه سمع أبا هريرة يُخْبِر سعيد بن العاص قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبانَ علىٰ سرية من المدينة قِبَلَ نجدٍ ، قال أبو هريرة : فقدم أبانُ وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر بعدما افتتحها وإنَّ حُزُمَ خيلهم الليفُ ، قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله ؛ لا تَقسِم لهم ، قال أبان : وأنت بهـٰذا يا وَبْرُ تحدَّرَ من رأس ضال[2]! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَانُ ؛ ٱجْلِسْ » فلم يَقسم لهم[3] .

قلت : وأبان هـٰذا : هو أبان بن سعيد بن العاص ، وهو الذي أجار عثمان يوم الحديبية حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ مكة ، وأسلم بُعيد ذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم . . قلت في الطريق : [من الطويل]

يَا لَيْلَةً مِنْ طُولِهَا وَعَنَائِهَا ... عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ دَارَةِ ٱلْكُفْرِ نَجَّتِ[4]

قال : وأبق مني غلام في الطريق ، قال : فلما قدمتُ على النبي صلى الله عليه وسلم . .

---

(١) البخاري (٢٨٢٧) ، **والوَبْرُ** : الدابة الصغيرة ، **وتَدَلَّىٰ** : نزل من أعلىٰ إلىٰ أسفل ، **والقَدُوم** : الطرف ، **وينعىٰ عليَّ** : يذكر لي .

(٢) نسخة في هامش (ب) : (ضأن) .

(٣) البخاري (٤٢٣٨) .

(٤) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ في « الفتح » (٥/١٦٣) : (قوله في الشعر : « يا ليلة » كذا في جميع الروايات ، قال الكرماني : ولا بد من إثبات فاء أو واو في أوله ليصير موزوناً ، وفيه نظر ؛ لأن هـٰذا يسمىٰ في العروض : الخَرْمَ بالمعجمة المفتوحة والراء الساكنة وهو أن يحذف من أول الجزء حرف من حروف المعاني ، وما جاز حذفه لا يقال : لا بد من إثباته ، وذلك أمر معروف عند أهله) .

فبايعته ، فبينا أنا عنده ؛ إذ طلع الغلام ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ هَـٰذَا غُلاَمُكَ ؟ » قلت : هو حرٌّ لوجه الله ، فأعتقته[1] .

وروينا في « صحيح مسلم » عنه قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي ، قلت : يا رسول الله ؛ إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبىٰ علي ، فدعوتُها اليوم فأَسمعتني فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ » فخرجت مستبشراً بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جئت فصِرتُ إلى الباب . . فإذا هو مُجافٌ ، فسمعتْ أمي خَشْفَ قدمي فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضةَ الماء ، قال : فاغتسلت ولبست دِرعها وعَجِلت عن خمارها وفتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة : أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قال : فرجعت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكي من الفرح ، قال : قلت : يا رسول الله ؛ أبشر ؛ قد استجاب الله دعوتك وهدىٰ أم أبي هريرة ، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه وقال خيراً .

قال : قلت : يا رسول الله ؛ ادعُ الله لي أن يحببني أنا وأمي إلىٰ عباده المؤمنين ويحببهم إلينا ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَـٰذَا ـ يعني أبا هريرة ـ وَأُمَّهُ إِلَىٰ عِبَادِكَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » فما خَلق الله مؤمناً يسمع بي ولا يراني إلاَّ أحبني[2] .

ومع تأخر إسلامه فقد روى العدد الكثير ، وروىٰ عنه الجم الغفير ، حتىٰ لا يعلم في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحفظ ولا أوسع منه روايةً ؛ وذلك لخَصِيصة خاصة حصلت له ، وهي : ما رويناه في « الصحيحين » عنه واللفظ لمسلم قال : يقولون : إن أبا هريرة قد أكثر ، واللهُ المَوْعِدُ ، ويقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون

---

(١) البخاري (٢٥٣١) .

(٢) مسلم (٢٤٩١) ، ومُجَافٌ : مُغلق ، والخضخضة : صوت تحريك الماء .

بمثل أحاديثه ؟! وسأخبركم عن ذلك : إنَّ إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ مِلءِ بطني ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : « أَيُّكُمْ يَبْسُطُ ثَوْبَهُ فَيَأْخُذُ مِنْ حَدِيثِي هَـٰذَا ثُمَّ يَجْمَعُهُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْسَ شَيْئاً سَمِعَهُ ؟ » فبسطت بردةً كانت علىٰ جنبي حتىٰ فرغ من حديثه ، ثم جمعتها إلىٰ صدري ، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئاً حدثني به ، فلولا آيتان أنزلهما الله في كتابه . . ما حدثت شيئاً أبداً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ إلىٰ آخر الآيتين[1] .

ومع ذلك فقد أمسك عن بعض ما سمع خشية الفتنة ، وألا تبلغه الأفهام ، روي عنه قال : (أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ، أما أحدهما . . فبثثته ، وأما الآخر : فلو أخرجته . . قطع مني البُلْعوم)[2] .

وحكي عن أحمد ابن حنبل قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله ؛ ما روىٰ أبو هريرة عنك حق ؟ قال : نعم[3] .

وقد ذكرنا نبذاً من مناقبه في كتابنا « الرياض المستطابة » والله أعلم .

وذكر البخاري رحمه الله بعد غزوة خيبر : **غزوة زيد بن حارثة** ، وهي التي أغار فيها علىٰ جُذام[4] .

وسببها : أن دحية بن خليفة الكلبي جاء بتجارة من الشام ، وذلك مرجعه من عند قيصر حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إليه ، فلما كان ببلاد جذام . . أغار عليه الهُنَيْد الجذامي ثم الصُّلَيْعي ، وأخذ جميع ما معه ، وكان رفاعة بن زيد الجذامي قد قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية وأسلم ، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب أمن لقومه ، فقدم علىٰ قومه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم كثير منهم .

---

(١) مسلم (٢٤٩٢) .
(٢) البخاري (١٢٠) بنحوه .
(٣) أخرجه محمد بن أبي يعلىٰ في « طبقات الحنابلة » (١/ ٣١٩) .
(٤) انظر « البخاري » كتاب المغازي ، باب : غزوة زيد بن حارثة .

فلما سمع المسلمون منهم بفعل الهنيد.. أغاروا عليه وحاربوه ، واستنقذوا ما كان لدحية وردوه عليه .

فلما قدم دحية علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم.. استسقاه دم الهنيد ، فجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه زيد بن حارثة ، فقتل الهنيد وابنه ورجالاً من قومه ، وجمع السبايا والأموال من بلاد جذام ممن كان قد أسلم ولحقه أمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه رجال من جذام وأخبروه بإسلامهم ، فصدقهم ، وأمر الجيش ألاَّ يهبطوا واديهم ، ثم سألوه السبايا التي عنده ، فهمَّ أن يردها عليهم ، ثم صرفه عن ذلك تهمة سمعها منهم ، فانطلقوا إلىٰ رفاعة بن زيد ـ وكان كل ذلك لم يعلم به ـ فقالوا له : إنك تحلب المِعْزا ونساء جذام أسارى ؟!

فسار مشتكياً إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ركب معه رجال من قومه ، فقطعوا الطريق في ثلاث ليالٍ ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الناس.. ألاح إليهم بيده أن تعالوا ، فدفع رفاعة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابه الذي كان كتبه له وقال : دونك يا رسول الله قديماً كتابه حديثاً غدره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِقْرَأْ يَا غُلَامُ وَأَعْلِنْ » فقرأه ، ثم استخبرهم فأخبروه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ أَصْنَعُ بِٱلْقَتْلَى ؟ » ثلاث مرات ، فقال رفاعة : أنت أعلم يا رسول الله ، لا نحرم عليك حلالاً ولا نحل لك حراماً ، فقال أبو زيد بن عمرو الجذامي : أطلق لنا يا رسول الله من كان حيّاً ، ومن قتل.. فهو تحت قدمي هٰذه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صَدَقَ أَبُو زَيْدٍ ، اِرْكَبْ مَعَهُمْ يَا عَلِيُّ » فقال علي كرم الله وجهه : إن زيداً لا يطيعني ، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم سيفه ، فلما خرجوا ؛ إذا رسول زيد قد استقبلهم علىٰ ناقة من إبلهم ، فأخذوها ثم تقدموا فلقوا زيداً بفَيْفاء الفحلتين ، فأخذوا كل شيء معه من مالهم ، والله أعلم .

وفي هٰذه السنة ـ وقيل : في الثامنة ـ **غزوة ذات السلاسل** ، سميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم ببعض خشية أن يفروا ، وقيل : سميت باسم ماء انتهت غزوتهم إليه في أرض بني عُذْرة ، وكان أميرها : عمرو بن العاص ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يستنفر العرب

إلى الإسلام ، فلما كان بأرض بني عذرة من جذام . . خاف وأرسل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فأمده بأبي عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين ؛ فيهم أبو بكر وعمر ، فكان عمر يصلي بهم حتى انصرفوا .

وفي هٰذه الغزوة : جرىٰ حديث رافع بن أبي رافع الطائي ، وقوله لأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين صحبه : إنما صحبتك لينفعني الله بك ، فانصحني وعلمني ، فأمره أبو بكر بجُمل من شرائع الإسلام ، ونهاه عن الإمارة ، فأجاب بالطواعية في كل ما أمره به حتىٰ قال : وأما الإمارة . . فإني رأيت الناس يا أبا بكر لا يَشْرُفون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند الناس إلاَّ بها ، فلم تنهاني عنها ؟ قال : إنما استجهدتني لأجهد لك ، وسأخبرك عن ذلك إن شاء الله تعالىٰ :

إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهٰذا الدين ، فجاهد عليه حتىٰ دخل الناس فيه طوعاً وكرهاً ، فلما دخلوا . . كانوا عُوّاذاً لله وجيرانه في ذمته ، فإياك أن تُخْفِر الله في جيرانه فيتبعك الله في خفرته ، فإن أحدكم يخفر في جاره فيظل ناتئاً عضله غضباً لجاره إن أصيبت له شاة أو أصيب له بعير ، فاللهُ أشدُّ غضباً لجاره .

قال : ففارقته علىٰ ذلك ، فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُمِّر أبو بكر على الناس . . قال : قدمت عليه فقلت : يا أبا بكر ؛ ألم تك نهيتني أن أتأمر على اثنين ؟! قال : بلىٰ ، وأنا الآن أنهاك عن ذلك ، قال : فقلت له : فما حملك علىٰ أن تلي أمر الناس ، قال : لا أجد من ذلك بداً ، وخشيت علىٰ أمة محمد الفُرقة[1] .

قلت : وفي معنىٰ ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً ، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، فَلاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى ٱثْنَيْنِ ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ »[2] ، وعنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ ألا تستعملني ، فضرب بيده علىٰ منكبي فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى ٱلَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » رواهما مسلم[3] .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٢٤) .
(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٦) .
(٣) مسلم (١٨٢٥) بنحوه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى ٱلْإِمَارَةِ ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » رواه البخاري[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَا عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنَ سَمُرَةَ ؛ لاَ تَسْأَلِ ٱلْإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ . . أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ . . وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَىٰ يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا . فَأْتِ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ » روياه[2] .

والأحاديث في التنفير من التعرض للرياسة والوعيد لأهلها وأمرهم بالاستقامة . . كثيرة في الصحاح وغيرها ، من ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ ٱللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ . . إِلاَّ حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ » متفق عليه[3] ، وفي رواية : « فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ . . لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ ٱلْجَنَّةِ »[4] ، وفي رواية لمسلم : « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أُمُورَ ٱلْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ . . إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ ٱلْجَنَّةَ »[5] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي هـٰذا يقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ . . فَٱرْفُقْ بِهِ » رواه مسلم[6] .

ودخل عائذ بن عمرو علىٰ عبيد الله بن زياد فقال : أي بني ؛ إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِن شَرَّ ٱلرِّعَاءِ ٱلْحُطَمَةُ ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » متفق عليه[7] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ . . خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي ، وَسَيَكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ » قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : « فُوا بِبَيْعَةِ ٱلْأَوَّلِ ، ثُمَّ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ ، وَٱسْأَلُوا ٱللهَ ٱلَّذِي لَكُمْ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ يَسْأَلُهُمْ عَمَّا ٱسْتَرْعَاهُمْ » رواه البخاري ومسلم[8] .

---

(١) البخاري (٧١٤٨) .

(٢) البخاري (٦٦٢٢) ، ومسلم (١٦٥٢) عن عبد الرحمـٰن بن سمرة رضي الله عنه .

(٣) البخاري (٧١٥١) ، ومسلم (١٤٢) عن معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٤) أخرجها البخاري (٧١٥٠) بنحوه عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، **لم يَحُطْها** : لم يصنها .

(٥) مسلم (١٤٢/٢٢٩) عن معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٦) مسلم (١٨٢٨) .

(٧) مسلم (١٨٣٠) ، **والحُطَمَةُ** : العنيف الذي لا يرفق .

(٨) البخاري (٣١٩٦) ، ومسلم (١٨٤٢) .

ودخل أبو مريم الأزدي علىٰ معاوية فقال له : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ وَلاَّهُ ٱللهُ شَيْئاً مِنْ أُمُورِ ٱلْمُسْلِمِينَ فَٱحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ . . اِحْتَجَبَ ٱللهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » فجعل معاوية رجلاً علىٰ حوائج الناس ، رواه أبو داوود والترمذي[١] .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا بَعَثَ ٱللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلاَ ٱسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ . . إِلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ : بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِٱلشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَٱلْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ ٱللهُ » رواه البخاري[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِٱلأَمِيرِ خَيْراً . . جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ ؛ إِنْ نَسِيَ . . ذَكَّرَهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ . . أَعَانَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِهِ غَيْرَ ذَٰلِكَ . . جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ ؛ إِنْ نَسِيَ . . لَمْ يُذَكِّرْهُ ، وَإِنْ ذَكَرَ . . لَمْ يُعِنْهُ » رواه أبو داوود بإسناد جيد علىٰ شرط مسلم[٣] .

ومما ينخرط في هـٰذا السلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، ٱلإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَٱلرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَٱلْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَٱلْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » رواه البخاري ومسلم[٤] .

أما إذا عدل الوالي وسَدَّد وقارب . . فقد قال صلى الله عليه وسلم : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ ٱللهِ تَعَالَىٰ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي ٱلْمَسَاجِدِ[٥] ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي ٱللهِ ٱجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ٱمْرَأَةٌ

---

(١) أبو داوود (٢٩٤٨) ، و الترمذي (١٣٣٢) ، **والخَلَّةُ** : الحاجة .

(٢) البخاري (٧١٩٨) .

(٣) أبو داوود (٢٩٣٢) .

(٤) البخاري (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح صحيح مسلم » (٧/ ١٢١) (ومعناه : شديد الحب لها ، والملازمة للجماعة فيها ، وليس معناه دوام القعود في المسجد) .

ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ ٱللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » رواه البخاري ومسلم[1] ، فقدم الإمام عليهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَهْلُ ٱلْجَنَّةِ ثَلاَثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ ٱلْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ » رواه مسلم[2] .

وقال الإمام كبير الشأن رفيع الذكر أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ : الناس في هٰذه الدنيا علىٰ خمسة أصناف : العلماء هم ورثة الأنبياء ، والزهادُ هم الأدلاء ، والغزاةُ هم أسياف الله ، والتجارُ هم أمناء الله ، والملوكُ هم رعاة الخلق ، فإذا أصبح العالم طامعاً ، والدالُّ جامعاً . . فبمن يقتدىٰ ، وإذا أصبح الزاهد راغباً . . فبمن يستدل ويهتدىٰ ، وإذا أصبح الغازي مرائياً والمرائي لا عمل له . . فمن يظفر بالعدىٰ ، وإذا كان التاجر خائناً . . فمن يؤمن ويرتضىٰ ، وإذا أصبح الملك ذئباً ضارياً . . فمن يحفظ الغنم ويرعىٰ ، والله ؛ ما أهلك الناس إلاَّ العلماء المداهنون ؛ والزهاد الراغبون ، والغزاة المراؤون ، والتجار الخائنون ، والملوك الظالمون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وفي معنىٰ ذلك أنشد الشيخ الإمام العالم العامل ذو السياحات والرياضات والبركات عبد العزيز الدِّيْرِيني الدَّمِيري لنفسه رحمه الله تعالى : [من الوافر]

إِذَا مَـا مَـاتَ ذُو عِلْـمٍ وَتَقْـوَىٰ ... فَقَـدْ ثُلِمَـتْ مِـنَ ٱلإِسْـلاَمِ ثُلْمَـةْ
وَمَـوْتُ ٱلْعَـابِـدِ ٱلْمَـرْضِـيِّ نَقْـصٌ ... فَفِـي مَـرْآهُ لِـلأَسْـرَارِ نَسْمَـةْ
وَمَـوْتُ ٱلْعَـادِلِ ٱلْمَلِـكِ ٱلْمُـوَلَّـىٰ ... لِحُكْـمِ ٱلْحَـقِّ مَنْقَصَـةٌ وَقَصْمَـةْ
وَمَـوْتُ ٱلْفَـارِسِ ٱلضِّـرْغَـامِ هَـدْمٌ ... فَكَـمْ شَهِـدَتْ لَـهُ بِـٱلنَّصْـرِ عَـزْمَـةْ
وَمَـوْتُ فَتَـىً كَثِيـرِ ٱلْجُـودِ مَحْـلٌ ... فَـإِنَّ بَقَـاءَهُ خِصْـبٌ وَنِعْمَـةْ
فَحَسْبُـكَ خَمْسَـةٌ تَبْكِـي عَلَيْهِـمْ ... وَمَـوْتُ ٱلْغَيْـرِ تَخْفِيـفٌ وَرَحْمَـةْ

(١) البخاري (٦٨٠٦) ، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حِمار رضي الله عنه .

ولبعضهم أيضاً : [من الوافر]

إِذَا جَـارَ ٱلأَمِيـرُ وَكَـاتِبَـاهُ ... وَقَـاضِـي ٱلأَرْضِ دَاهَـنَ بِـٱلْقَضَـاءِ
فَـوَيْـلٌ لِـلأَمِيـرِ وَكَـاتِبَيْـهِ ... وَقَاضِي ٱلأَرْضِ مِنْ قَاضِي ٱلسَّمَاءِ

ومن آفات الرياسة : أن يتصدىٰ لها ويدخل فيها قبل الاستعداد والتأهل ، فيُعَرِّض نفسه للفتن والمحن ، ويفتضح ولا يفلح ، وأنشد بعضهم : [من مجزوء الكامل]

ٱلْكَلْـبُ أَحْسَـنُ عِشْـرَةً ... وَهُـوَ ٱلنِّهَـايَـةُ فِـي ٱلْخَسَـاسَـةْ
مِمَّـنْ يُنَـازِعُ فِـي ٱلـرِّئَـا ... سَـةِ قَبْـلَ أَوْقَـاتِ ٱلـرِّئَـاسَـةْ

وقال بعضهم : من تصدر قبل أوانه . . تصدىٰ لهوانه .

وقد تمادىٰ بنا الكلام في هـٰذه الغزوة رجاء الفائدة ، ولم يذكر البخاري رحمه الله تعالىٰ فيها غيرَ حديث واحد ، وخرجه مسلم أيضاً ، وهو : ما رويا عن أبي عثمان النهدي : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص علىٰ جيشِ ذاتِ السَّلاسل ، قال : (فأتيتهُ فقلت : أي الناس أحب إليك ؟ قال : « عَائِشَةُ » قلتُ : من الرجال ؟ قال : « أَبُوهَا » قلت : ثم من ؟ قال : « عُمَرُ . . . » فعدَّ رجالاً ، فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم)[1] ، وفي هـٰذا الحديث مَنقبة لعائشة وأبيها وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين .

وأما عمرو بن العاص . . فإنه وإن لم يكن هـٰذا مقامه فلا يلزم من ذلك حط مرتبته ، ولا نقص من منزلته ؛ فقد وردت له فضائلُ :

منها : تأمير النبي صلى الله عليه وسلم له في هـٰذه الغزاة علىٰ كثير من جُلَّة المهاجرين الأولين ، فكان يصلي بهم حتىٰ رجعوا ، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في حديث تحدث به : « أَسْلَمَ ٱلنَّاسُ وَآمَنَ عَمْرٌو »[2] .

ومنها : ما رويناه في « صحيح مسلم » عن ابن شَمَاسة المهري قال : حَضَرْنا عمرو بن

---

(١) البخاري (٤٣٥٨) ، ومسلم (٢٣٨٤) .
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه .

العاص وهو في سياقة الموت ، فبكىٰ طويلاً وحَوَّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ما يبكيك ؟! أما بَشَّرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ؟! أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ؟! قال : فأقبل بوجهه فقال : إنَّ أفضل ما نُعِدُّ : شهادةُ أن لا إلـه إلاَّ الله وأَنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إني كنتُ علىٰ أطباق ثلاث :

لقد رأيتني وما أحد أشدَّ بُغضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم منِّي ، ولا أحبَّ إليّ أن أكون قد استمكنتُ منه فقتلتهُ ، فلو مُتُّ علىٰ تلك الحال.. لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي.. أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فقلتُ : ابسُط يمينك فلأُبايعْك ، فبسط يمينه ، قال : فقبضت يَدِي ، قال : « مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟! » قال : قلت : أردتُ أن أشترط ، قال : « تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟ » قلتُ : أن يُغفر لي ، قال : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَنَّ ٱلْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، وَأَنَّ ٱلْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟! » .

وما كان أحد أَحبَّ إليَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أَجلَّ في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عينَيَّ منه إجلالاً له ، ولو سُئلتُ أن أصفه.. ما أَطقتُ ؛ لأني لم أكن أَملأ عينيَّ منه ، ولو مُتُّ علىٰ تلك الحال.. لرجوتُ أن أكون من أهل الجنة .

ثم وَلِينا أشياء ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا مُتُّ.. فلا تَصْحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني.. فشنُّوا عليَّ التراب شَنّاً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحر جَزُور ويقسم لحمها ؛ حتىٰ أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رُسُل ربي[1] .

نصيحة عرضت

وهي : أن ثَمَّ من يقع في عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهما من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم ، أو ممن شمله اسم الصحبة التي لا يوازيها عمل وإن جَلَّ ، ويتسببون إلىٰ سبهم لِهَنَاتٍ[2] صدرتْ منهم مما تقدم إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام فيها وأخبر بوقوعها منهم ، ثم نهىٰ عن سبهم على الإطلاق فقال : « لاَ تَسُبُّوا أَحَداً مِنْ أَصْحَابِي ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ

---

(١) مسلم (١٢١) ، **الأطباق** : الأحوال ، **شنُّوا** : صبُّوا .

(٢) **الهَنَات** : صغائر الأمور التي لا تضرُّ بفضل صاحبها ، والمقصود هنا : الأمور التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم .

أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً . . مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ »[(١)] وقال : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي »[(٢)] وقال : « لاَ يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئاً ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ ٱلصَّدْرِ »[(٣)] واعتذر عن حاطب وقد بدرت منه عظيمة[(٤)] ، وعن مالك بن الدُّخْشُم وقد تعرض قوم لسبه علىٰ ظاهر الحال ، ولم يرخص لبعضهم في بعض أبداً ، وقال تعالىٰ بعد أن أثنىٰ عليهم أحسن الثناء : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ .

فليت مَنْ جاء بعدهم إذ لم يستغفروا لهم ويترحموا عليهم لم يسبوهم ، وليتهم إذ لم يصيبوا أجرهم لم يقعوا في شرهم ، ووَكَلُوا أمورهم إلىٰ عالم سرائرهم ؛ فهو أعلم بهم ، قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَسُبُّوا ٱلأَمْوَاتَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا »[(٥)] .

وقد حذَّر علماء السنة المحتاطون لدينهم من النظر في الكتب الحاكية تشاجر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ؛ لما فيه من المفسدة وعدم الفائدة .

وافترضتُ هٰهنا مسألةً لا ينكرها إلاَّ مباهت[(٦)] ، وهي أن نقول : رجل علمنا توحيده وأُشيع فسقه وبدعته شيوعاً يكاد يبلغ القطع ، فصار الناس فيه فرقتين : فرقة تجترىء عليه بالسَّب واللعن ، وتوقفت الأخرىٰ ، فمن أَقرب إلى السلامة من الفرقتين ؟ فنقول : إن المجترئين داخلون في الخطر والوبال علىٰ كل حال ؛ فإنَّ السابَّ مُناقَش ومُحاسَب حتىٰ يخرج مما قال في يوم لا قصاص فيه إلاَّ بالحسنات والسيئات ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٨) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٩٦) ، وأبو داوود (٤٨٦٠) .

(٤) وذلك أنه كتب إلىٰ قريش يُخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح .

(٥) أخرجه البخاري (١٣٩٣) عن عائشة رضي الله عنها .

(٦) **المُبَاهِت** : المفتري الكذاب .

في جواب الذي سأله عن الغيبة فقال : يا رسول الله ؛ أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ . . فَقَدِ ٱغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ . . فَقَدْ بَهَتَّهُ »[(١)] .

والفرقة المتوقفة سالمة في الحالين ؛ فإنك لو لم تلْعن وتَسُبَّ من عُلم كفره وشقاوته في دهرك . . لما خفت أن تُعاقَب علىٰ ذلك ، ولا خطر فيه ، وإنما الخطر والوبال أن تُصوِّب ضالاً في ضلاله ، وتُحسِّن فعله كفعل يزيد وشيعته بالإمام الحسين وآله عليهم السلام ، لا أن تَصُون لسانك عن لعنهم وسبهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ ٱلْمُؤْمِنُ بِٱلطَّعَّانِ وَلاَ ٱللَّعَّانِ وَلاَ ٱلْفَاحِشِ وَلاَ ٱلْبَذِيءِ »[(٢)] .

انتهت النصيحة علىٰ حد القصور والتقصير ، فإذا تحققتَ أيها الناظر ما ذكرناه . . فاختر لنفسك ما فيه صلاحك وفلاحك ، والله ولي التوفيق .

وفي ذي القَعْدَة من هـٰذه السنة : اعتمر صلى الله عليه وسلم عمرة القضاء[(٣)] ، فلما سمع المشركون به مُقبلاً . . خرجوا عنه ، فدخل صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته يقول : [من الرجز]

خَلُّوا بَنِي ٱلْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... خَلُّوا فَكُلُّ ٱلْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ ... أَعْرِفُ حَقَّ ٱللهِ فِي قَبُولِهِ[(٤)]

وقال المشركون : إنه يَقْدَم عليكم قوم قد وهنتْهم حُمَّىٰ يَثْرِبَ ، فأمرهم النبي صلى الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٧٧) ، اختلفوا في جواز لعنه بخصوص اسمه ، فأجازه قوم ، منهم ابن الجوزي . . . وقال آخرون : لا يجوز لعنه إذ لم يثبت عندنا ما يقتضيه ، وبه أفتى الغزالي وأطال في الانتصار له ، وهـٰذا هو اللائق بقواعد أئمتنا وبما صرحوا به ؛ من أنه لا يجوز أن يلعن شخص بخصوصه إلاّ إن علم موته على الكفر اهـ « الصواعق المحرقة » (٢/ ٦٣٤ـ ٦٣٧) .

(٣) قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرح صحيح مسلم » (١٢/ ١٣٥) : (وغلَّطوا من قال : إنها سميت عمرة القضاء لقضاء العمرة التي صُدَّ عنها ؛ لأنه لا يجب قضاء المصدود عنها إذا تحلل بالإحصار كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في ذلك العام) .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) بلفظ :

خَلُّوا بَنِي ٱلْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... ٱلْيَوْمَ نَضْرِبْكُمْ عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ
ضَرْباً يُزِيلُ ٱلْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ... وَيُذْهِلُ ٱلْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

عليه وسلم أن يَرْمُلوا الأشواط الثلاثةَ ، وأن يمشوا بين الركنين ، وكان المشركون من قبل قُعَيْقِعان[1] ، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يَرْمُلوا الأشواط كلها إلاَّ الإبقاء عليهم[2] ، وكان الناس يظنون أن الرَّمل خاص بتلك السنة ، فلما رمل في حجة الوداع . . علموا أن السنّة قد مضت علىٰ ذلك .

ولما أقام صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . . أتى المشركون علياً رضي الله عنه فقالوا : قل لصاحبك : اخرج عنَّا ، فقد مضى الأجل ، فخرج صلى الله عليه وسلم ، فتبعتهم أمامة بنت حمزة تُنادي : يا عمِّ يا عمِّ ، فتناولها عليٌّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونكِ بنت عمكِ فاحمليها ، فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر ، فقال عليٌّ : أنا أخذتها وهي ابنة عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد : بنت أخي ، فقضىٰ بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال : « ٱلْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلأُمِّ » وقال لعليٍّ : « أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ » وقال لجعفر : « أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي » وقال لزيد : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا » وقال عليٌّ : ألا تتزوج ابنة حمزةَ ، قال : « إِنَّهَا ٱبْنَةُ أَخِي مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ »[3] .

وتزوج صلى الله عليه وسلم في سفره هـٰذا ميمونةَ بنت الحارث الهلالية ، تزوجها بسرِف وهو مقبل إلىٰ مكة ، ودخل بها فيه في رجوعه ، وماتت به أيضاً بعد موته صلى الله عليه وسلم .

واختلفوا : هل تزوجها وهو محرم أو حلال ؟ وبحسب ذلك اختلفوا في صحة نكاح المحرم ، وأسدُّ الأقوال : أنه تزوجها وهو محرم ، وأن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

وفي عمرة القضاء نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ الآية في شأن الحُطَيْم البكري ، والله أعلم .

---

(١) اسم جبل بمكة يقابل جبل أبي قبيس ، وهما الأخشبان .
(٢) أخرجه البخاري (١٦٠٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، **وَهَنَتْهم** : أضعفتهم ، **والإبقاء** : الرفق والشفقة .
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٥١) عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

السنة الثامنة وما اتفق فيها من عيون الحوادث

فيها : قدم وفد عبد القيس ، ومعنى الوفد : أن تختار القبيلةُ جماعةً منهم للقاء الكبراء في الأمور المهمات ، وكان جملة وفد عبد القيس أربعة عشر راكباً ، رئيسهم الأشج العصري ، واسمه المنذر بن عائذ .

وكان سبب وفادتهم : أن منقذ بن حبان ـ رجلاً منهم ـ قدم المدينة تاجراً ، فمر به النبي صلى الله عليه وسلم يوماً ، فنهض إليه منقذ وسمع كلامه ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن أشراف قومه رجل رجل[1] بأسمائهم ، فأسلم وتعلم (الفاتحة) و(سورة اقرأ باسم ربك) وكتب معه النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ قومه ، وكانوا ينزلون البحرين الخَطَّ وأعنانها[2] وسُرَّة القَطيف والسفار والظَّهران إلى الرَّمْل ، إلى الأَجرع ما بين هَجَرَ إلىٰ قَصر وبَيْنُونة ، ثم الجوف والعيون والأحساء إلىٰ حد أطراف الدَّهناء .

فلما قدم منقذ علىٰ قومه . . كتمهم الكتاب وطفق يصلي ويقرأ ، فقالت زوجته وهي بنت الأشج لأبيها : إني أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب ، إنه يغسل أطرافه ، ويستقبل الجُمَّة ـ يعني القبلة ـ فيحني ظهره مرةً ويضع جبينه مرةً ، ذلك ديدنه منذ قدم ، فتلاقيا فأخبره الخبر ، فأسلم الأشج .

ثم ثار علىٰ قومه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم من أسلم منهم ، ثم تجهزوا وافدين ، وذلك قبل الفتح ، ولما دنوا من المدينة . . قال النبي صلى الله عليه وسلم لجلسائه : « أَتَاكُمْ وَفْدُ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ خَيْرُ أَهْلِ ٱلْمَشْرِقِ وَفِيهِمُ ٱلأَشَجُّ ٱلْعَصَرِيُّ » وإنما سماه النبي صلى الله عليه وسلم الأشج ؛ لأثر كان في وجهه .

أما خطابهم مع النبي صلى الله عليه وسلم . . ففي « الصحيحين » من روايات حاصلها : أنهم لما دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم . . قال : « مَرْحَباً بِٱلْقَوْمِ ـ أو بالوفد ـ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ النَّدَامَىٰ » قالوا : يا رسول الله ؛ إنا حي من ربيعة ، وبيننا وبينك كفار مُضر ، ولا نقدر عليك إلاَّ في أشهر الحرم ، فمرنا بأمر نَأمرْ به من وراءنا ونَدخلُ به الجنة إذا

---

(١) في (ج) : (رجلاً رجلاً) .
(٢) **الأعنان** : النواحي .

نحن أخذنا به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : اُعْبُدُوا ٱللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ ، وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ ، وَصُومُوا رَمَضَانَ ، وَأَعْطُوا ٱلْخُمُسَ مِنَ ٱلْمَغَانِمِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنِ ٱلدُّبَّاءِ وَٱلْحَنْتَمِ وَٱلْمُزَفَّتِ وَٱلنَّقِيرِ » قالوا : يا نبي الله ؛ ما علمك بالنقير ؟ قال : « بَلَىٰ ؛ جِذْعٌ تَنْقُرُونَهُ فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنَ ٱلْقُطَيْعَاءِ أَوِ ٱلتَّمْرِ ، ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنَ ٱلْمَاءِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ . . شَرِبْتُمُوهُ ، حَتَّىٰ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَضْرِبُ ٱبْنَ عَمِّهِ بِٱلسَّيْفِ » وفي القوم رجل أصابته جِراحة كذلك ، قال : وكنت أخبئها حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا : ففيم نشرب يا رسول الله ؟ قال : « في أَسْقِيَةِ ٱلأَدَمِ ٱلَّتِي يُلاَثُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهَا » قالوا : يا نبي الله ؛ إن أرضنا كثيرة الجِرذان ، ولا تبقىٰ بها أَسقية الأَدَم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَإِنْ أَكَلَتْهَا ٱلْجِرْذَانُ ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا ٱلْجِرْذَانُ ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا ٱلْجِرْذَانُ » .

وقال للأشج : « إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ تَعَالَىٰ : ٱلْحِلْمُ وَٱلأَنَاةُ » انتهت روايتهما ومعظمها لمسلم[1] .

وإنما أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على الأشج بالحلم والأناة ؛ لما روي : أنهم لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم . . ابتدروا إليه وتركوا ركابهم ، فجمعها الأشج وعقل ناقته ، ولبس أحسن ثيابه ، فلما جاء . . أجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ جنبه ، ثم قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « تُبَايِعُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَقَوْمِكُمْ ؟ » فقال القوم : نعم ، وقال الأشج : يا رسول الله ؛ إنك لم تُزاول الرجل علىٰ شيء أشدَّ عليه من دينه ، نبايعك علىٰ أنفسنا ، ونرسل من يدعوهم ، فمن اتبعنا . . كان منا ، ومن أبىٰ . . قاتلناه ، قال : « صَدَقْتَ ، إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ » قال : يا رسول الله ؛ أكانتا فِيَّ أَمْ حدثتا ؟ قال : « بَلْ قَدِيمٌ » قال : الحمد لله الذي جبلني علىٰ خلقين يحبهما الله .

فكان أول من دان بالدين ، وأقام شرائعه من الآفاقيين قبائل عبد القيس .

---

(١) البخاري (٤٣٦٩) ، ومسلم (١٨) ، **الدباء** : القرع اليابس ، أي : الوعاء منه ، **الحنتم** : جرار خُضْر ، **المُزَفَّتُ** : الإناء المَطْليُّ بالزِّفت ، **القطيعاء** : نوع من التمر صغار ، **يُلاَثُ** : يُلَفُّ ، **الحلم** : العقل ، **الأناة** : التثبت وترك العجلة .

وروينا في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أول جُمُعة جُمِّعَتْ بعد جمعة جمعت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . في مسجد عبد القيس بِجُوَاثَىٰ من البحرين)[1] .

ثم لما مات النبي صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب . . لم يكن يسجد لله تعالىٰ في بسيط الأرض إلاَّ في ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس ، ففي ذلك يقول شاعرهم مفتخراً : [من البسيط]

وَٱلْمَسْجِدُ ٱلثَّالِثُ ٱلشَّرْقِيُّ كَانَ لَنَا ... وَٱلْمِنبَرَانِ وَفَصْلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْخُطَبِ

أَيَّامَ لاَ مِنْبَرٌ لِلنَّاسِ نَعْرِفُهُ ... إِلاَّ بِطَيْبَةَ وَٱلْمَحْجُوجِ ذِي ٱلْحُجُبِ

فكان هٰؤلاء من ربيعة محصورين ببلدهم إلىٰ أن قتل الله كَبْش الردة مسيلمة ، وفتح على المسلمين ، فقال شاعرهم يستنجد أبا بكر الصديق رضي الله عنه والمسلمين : [من الوافر]

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسُولاً ... وَفِتْيَانَ ٱلْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا

فَهَلْ لَكُمُ إِلَىٰ قَوْمٍ كِرَامٍ ... قُعُودٍ فِي جُوَاثَىٰ مُحْصَرِينَا

كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ فِي كُلِّ فَجٍّ ... دِمَاءُ ٱلْبُدْنِ تَغْشِي ٱلنَّاظِرِينَا

تَوَكَّلْنَا عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَّا ... وَجَدْنَا ٱلنَّصْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَا[2]

وفي هٰذا العام : ماتت أكبر بنات النبي صلى الله عليه وسلم زينب ، وهي زوجة أبي العاص بن الربيع ، ففي « الصحيحين » واللفظ لمسلم : عن أُم عطية قالت : لما ماتت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِغْسِلْنَهَا وِتْراً ثَلاَثاً أَوْ خَمْساً ، وَٱجْعَلْنَ فِي ٱلْخَامِسَةِ كَافُوراً ، فَإِذَا غَسَلْتُنَّهَا . . فَأَعْلِمْنَنِي » قالت : فأعلمناه ، فأعطانا حِقْوه فقال : « أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ » قالت : فَضَفَرْنَا شعرها ثلاثةَ أثلاثٍ قَرْنَيْها وناصيتها ، وقال لهن : « اِبْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ ٱلْوُضُوءِ مِنْهَا »[3] .

---

(١) البخاري (٤٣٧١) .
(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١/٢٠٢) .
(٣) مسلم (٩٣٩) ، **والحِقْوُ** : الإزار .

وبعد وفاتها . . تزوج النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت الضحاك ، ولما نزلت آية التخيير واختارت الدنيا . . فارقها صلى الله عليه وسلم ، وكانت بعد ذلك تَلْقُط البعر وتقول : أنا الشقية ؛ اخترت الدنيا[1] .

وفيه : وقع غلاء في المدينة ، فقالوا : يا رسول الله ؛ سَعِّر لنا ، فقال : « إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْمُسَعِّرُ ، ٱلْقَابِضُ ٱلْبَاسِطُ ٱلرَّازِقُ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى ٱللهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلاَ مَالٍ » رواه أبو داوود[2] .

وروي أيضاً : أن رجلاً قال : يا رسول الله ؛ سعر لنا ، فقال : « بَلْ أَدْعُو » ثم جاءه آخر فقال : يا رسول الله ؛ سعر ، فقال : « بَلِ ٱللهُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى ٱللهَ وَلَيْسَ لأَحَدٍ عِنْدِي مَظْلَمَةٌ »[3] .

وفيه : اتخذ صلى الله عليه وسلم المنبر ، فكان من حديثه : ما رويناه في « صحيح البخاري » عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن امرأةً من الأنصار قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ؛ ألا أجعل لك شيئاً تَقْعُد عليه ؛ فإنَّ لي غلاماً نجاراً ، قال : « إِنْ شِئْتِ » .

قال : فعمِلتْ له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة . . قعد النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر الذي صُنِع ، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتىٰ كادت أن تنشق ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ أخذها فضمها إليه ، فجعلت تَئِنُّ أنين الصبي الذي يُسَكَّتُ حتى استقرت ، قال : « بَكَتْ عَلَىٰ مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ ٱلذِّكْرِ »[4] .

ورواه البخاري أيضاً عن سهل بن سعد ، وفيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم سألها ذلك[5] ، قيل : والجمع بينهما : أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم أولاً ، ثم

---

(١) انظر « الاستيعاب » (٣٤١٢) ، و« الإصابة » (٤/ ٣٧١) .

(٢) أبو داوود (٣٤٥١) .

(٣) أبو داوود(٣٤٥٠) .

(٤) البخاري (٢٠٩٥) .

(٥) البخاري (٩١٧) .

أضربت وكأنها لم تفهم منه الرضا ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم صواباً . . استنجزها وعدها .

واسم هٰذا النجار : مينا ، وقيل : باقُوم ، أو باقُول ، وقيل غير ذلك ، ولم أقف على اسم المرأة ، والله أعلم .

وذكر أهل التواريخ : أن عدد درجات هٰذا المنبر ثلاث بالمقعد ، وأن سماءه ذراعان وثلاث أصابع ، وعرضه ذراع في ذراع ، وتربيعه سواء ، وطول رمانتيه اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين إذا جلس شبر وإصبعان ، وأنه بقي كذلك في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأربعة الخلفاء رضي الله عنهم ، فلما كان في زمن معاوية رضي الله عنه . . زاد من أسفله ست درجات ، وكساه قبطية ، فلما كان زمن المهدي بن المنصور . . هَمَّ أن يعيده إلىٰ حاله الأول ، فقال له الإمام مالك بن أنس : إنما هو من طرفاء ، وقد شد إلىٰ هٰذه العيدان وسمر ، فمتىٰ نزعته . . خفت أن يتهافت ، فتركه .

ثم ذكر أنه تهافت علىٰ طول الزمان فجدده بعض الخلفاء العباسيين ، واتخذ من بقايا أعواد منبر النبي صلى الله عليه وسلم أمشاطاً للتبرك بها .

ثم لما احترق المسجد الشريف واحترق ما فيه واشتغل الناس عنه باستيلاء التتار على البلاد وقَتْلِ الخليفة أبي أحمد عبد الله المستعصم بالله وذلك سنة ست وخمسين وست مئة . . أرسل الملك المظفر اليمني منبراً رمانتاه من الصندل ، فنصب مكان المنبر الأول النبوي ، وبقي إلىٰ أن حوله الملك الظاهر بيبرس الصالحي وذلك سنة ست وستين وست مئة ، والله أعلم .

ذكر فضل المنبر المنيف وما بينه وبين القبر الشريف

روينا في « الصحيحين » من روايات : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ ٱلْجَنَّةِ ، وَمِنْبَرِي عَلَىٰ حَوْضِي »[1] ، وفي حديث خارج عنهما : « مَا بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي »[2] وفي حديث : « مَا بَيْنَ حُجْرَتِي إِلَىٰ مِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ

(١) البخاري (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٦٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ٱلْجَنَّةِ ، وَإِنَّ مِنبَرِي عَلَىٰ تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ ٱلْجَنَّةِ »[1] والروايات متفقة ؛ فبيته صلى الله عليه وسلم وقبره وحجرته واحد ، وبينها وبين المنبر ثلاثة وخمسون ذراعاً .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قَوَائِمُ مِنبَرِي رَوَاتِبُ فِي ٱلْجَنَّةِ »[2] وسيأتي خبر الجذع وجماع الروايات فيه في قسم المعجزات إن شاء الله تعالىٰ .

وفي جمادى الأولىٰ من هـٰذا العام : كانت **غزوة مؤتة** ، وهي قرية من قرى البلقاء دون دمشق ، انتهت غزوتهم إليها ، روينا في « صحيح البخاري » عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في غزوة مؤتة وقال : « إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ . . فَجَعْفَرٌ ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ . . فَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ رَوَاحَةَ » .

قال عبد الله : كنت معهم في تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب . . فوجدناه في القتلىٰ ، ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين بين طَعْنَةٍ ورَمْيةٍ[3] .

وكان من خبرهم في غزوتهم : أنهم لما بلغوا مَعَانَ[4] . . بلغهم أن هرقل نزل مَآب من أرض البلقاء[5] في مئة ألف من الروم ، ومئة ألف من المستعربة لَخْمٍ وجُذام والقَيْنِ وبَهراءَ وبَلِيّ ، وكان المسلمون ثلاثة آلاف ، فتشاوروا أن يراجعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمرهم بأمره ، فشجع الناسَ عبدُ الله بن رواحة وقال : يا قوم ؛ إنما هي إحدى الحسنيين : إما نصر وإما شهادة ، فقال الناس : صدق عبد الله ، فمضوا حتىٰ التقوا بمؤتة ، فقاتل زيد بالراية حتىٰ قُتل ، ثم أخذها جعفر فقاتل شديداً ، ثم نزل عن فرسه فعقرها فكان أول من عقر في الإسلام وجعل يقول : [من الرجز]

يَـا حَبَّـذَا ٱلْجَنَّـةُ وَٱقْتِـرَابُهَـا ... طَيِّبَـةً وَبَـارِداً شَـرَابُهَـا

وَٱلـرُّومُ رُومٌ قَـدْ دَنَـا عَـذَابُهَـا ... كَـافِـرَةٌ بَعِيـدَةٌ أَنْسَـابُهَـا

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٩) عن أم سلمة رضي الله عنها ، **والرواتب** : الثوابت .

(٣) البخاري (٤٢٦١) .

(٤) **مَعَانُ** : مدينة في جنوب الأردن .

(٥) **البلقاء** : محافظة أردنية قاعدتها السلط .

ثم قاتل حتىٰ قطعت يمينه فأخذ الراية بشماله ، فقطعت أيضاً فاحتضنها بعضديه ، فعوضه الله عن ذلك جناحين يطير بهما في الجنة[1] .

روينا في « صحيح البخاري » : أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا حيا ابن جعفر . . قال : سلام عليك يا بن ذي الجناحين[2] ، وقتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة أو إحدىٰ وأربعين ، ثم أخذ الراية بعدهما عبد الله بن رواحة وجعل يقول : [من الرجز]

يَـا نَفْـسُ إِلاَّ تُقْتَلِـي تَمُـوتِـي ... هَـٰذَا حِمَـامُ ٱلْمَـوْتِ قَـدْ صَلِيـتِ

وَمَـا تَمَنَّيْـتِ فَقَـدْ أُوتِيـتِ ... إِنْ تَفْعَلِـي فِعْلَهُمَـا هُدِيـتِ

ثم قاتل حتىٰ قتل ، ثم اصطلح الناس بعدهم علىٰ خالد بن الوليد ، فأخذ الراية وقاتل قتالاً شديداً ، ودافع عن المسلمين حتى انحازوا .

روينا في « صحيح البخاري » عن ابن أبي حازم قال : سمعتُ خالد بن الوليد يقول : (لقد انقطعتْ في يدي يوم مؤتةَ تسعةُ أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية)[3] .

وكان جميع من استشهد بمؤتة : ثمانية رجال فيما ذكر ابن إسحاق ، وذكر ابن هشام عن الزهري أربعةً أيضاً أخوين وأخوين .

روينا في « صحيح البخاري » عن أنس رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم نَعَىٰ زيداً وجعفراً وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَخَذَ ٱلرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَهَا ٱبْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ ـ وعيناه صلى الله عليه وسلم تذرفان ـ حَتَّىٰ أَخَذَ ٱلرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ »[4] وفي رواية أخرىٰ قال : « ثُمَّ أَخَذَهَا خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ مِنْ غَيْرِ إِمْرَةٍ فَفَتَحَ ٱللهُ لَهُ » وقال : « مَا يَسُرُّنَا ـ أو قال : مَا يَسُرُّهُمْ ـ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا » وعيناه تذرفان[5] .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٣٧٥ ، ٣٧٨) .
(٢) البخاري (٤٢٦٤) .
(٣) البخاري (٤٢٦٥) ، **الصفيحة** : العريضة من السيوف .
(٤) البخاري (٣٧٥٧) .
(٥) البخاري (٢٧٩٨) .

ويذكر : أن أبا بكر رضي الله عنه لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنْ أُصِيبَ فُلاَنٌ . . فَفُلاَنٌ . . . » قال : حسبك يا رسول الله ، فلو لم يقلها وتتابع القول . . لأصيبوا عن آخرهم .

وروي عن أسماء بنت عميس زوجة جعفر قالت : لما أصيبوا . . دخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم فاستدعىٰ بَنِيَّ ، فأتيته بهم ، فتشممهم وذرفت عيناه ، فقلتُ : يا رسول الله ؛ بأبي أنت وأمي ما يُبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : « نَعَمْ ، أُصِيبُوا هَـٰذَا ٱلْيَوْمَ » قالت : فقمتُ أصيح واجتمع إليَّ النساء ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهله ، فقال : « لاَ تَغْفُلُوا عَنْ آلِ جَعْفَرٍ مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَاماً ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ شُغِلُوا بِأَمْرِ صَاحِبِهِمْ »[1] .

وروينا في « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قَتْلُ زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . . جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعْرَفُ فيه الحزنُ ، قالت : وأنا أنظر من صائرِ الباب شَقِّ الباب ، فأتاه رجل فقال : يا رسول الله ؛ إن نساء جعفر . . . وذكر بكاءهن ، فأمره أن يذهب فينهاهن ، فذهب ثم أتاه وذكر أنهن لم يطعنه ، فأمره الثانية أن ينهاهن فذهب ، ثم أتاه فقال : والله ؛ لقد غلبننا يا رسول الله ، قال : فزعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اِذْهَبْ فَٱحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ مِنَ ٱلتُّرَابِ » قالت عائشة : فقلت : أَرْغَمَ الله أنفك! والله ؛ ما تفعل ما أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما تركتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العَناء[2] ، هذا لفظ مسلم .

ولما دنوا من المدينة راجعين . . تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جعفر بين يديه والمسلمون معه ، فعيرهم الناس بالفِرَار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَيْسُوا بِٱلْفُرَّارِ ، وَلَكِنَّهُمُ ٱلْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٠) .
(٢) البخاري (١٢٩٩) ، ومسلم (٩٣٥) .
(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٣٨٢) .

ورثاهم حسان وكعب بن مالك بمراثٍ ، منها : قول حسان بن ثابت في جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : [من الكامل]

وَلَقَدْ بَكَيْتُ وَعَزَّ مَهْلِكُ جَعْفَرٍ ... حِبِّ ٱلنَّبِيِّ عَلَى ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا

وَلَقَدْ جَزِعْتُ وَقُلْتُ حِينَ نُعِيتَ لِي ... مَنْ لِلْجِلَادِ لَدَى ٱلْعُقَابِ وَظِلِّهَا[1]

بِٱلْبِيضِ حِينَ تُسَلُّ مِنْ أَغْمَادِهَا ... ضَرْباً وَإِنْهَالِ ٱلرِّمَاحِ وَعَلِّهَا

بَعْدَ ٱبْنِ فَاطِمَةَ ٱلْمُبَارَكِ جَعْفَرٍ ... خَيْرِ ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا وَأَجَلِّهَا

رُزْءاً وَأَكْرَمِهَا جَمِيعاً مَحْتِداً ... وَأَعَزِّهَا مُتَظَلِّماً وَأَذَلِّهَا

لِلْحَقِّ حِينَ يَنُوبُ غَيْرَ تَنَحُّلٍ ... كَذِباً وَأَبْدَاهَا يَداً وَأَقَلِّهَا

فُحْشاً وَأَكْثَرِهَا إِذَا مَا يُجْتَدَىٰ ... فَضْلاً وَأَنْدَاهَا نَدىً وَأَبَلِّهَا

بِٱلْعُرْفِ غَيْرَ مُحَمَّدٍ لاَ مِثْلُهُ ... حَيٌّ مِنَ ٱحْيَاءِ ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا

ومما ذكر في هٰذه السنة قبل الفتح : غزوة سيف البحر ، وكان من خبرها ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مئة راكبٍ أميرنا أبو عبيدة بن الجراح نَرْصُد عِيرَ قريش ، فأقمنا بالساحل نصف شهر ، فأصابنا جوعٌ شديد حتىٰ أكلنا الخَبَطَ ، فسُمي ذلك الجيش جيش الخَبَطِ ، فألقىٰ لنا البحر دابةً يقال لها : العنبر ، فأكلنا منه نصف شهر وادهنَّا من وَدكِه حتىٰ ثَابَتْ إلينا أجسامُنا ، فأخذ أبو عبيدة ضِلعاً من أضلاعه فنصبه وأخذ رجلاً وبعيراً فمر تحته ، وكان رجلٌ في القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه) رواه البخاري[2] .

والرجل : قيس بن سعد بن عبادة ؛ ففي « صحيح البخاري » من رواية أخرىٰ : أن قيس بن سعد قال لأبيه : كنتُ في الجيش فجاعوا ، قال : انحَرْ ، قال : نحرتُ ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحَر ، قال : نحرتُ ، قال : ثم جاعوا ، قال : انحَرْ ، قال : نحرتُ ، ثم جاعوا ، قال : انحر ، قال : نُهيتُ[3] .

---

(١) **الجِلَادُ** : الإبل القوية ، أو الفرسان الأقوياء ، **العقاب** : الراية .

(٢) البخاري (٤٣٦١) ، **الخَبَطُ** : ما سقط من ورق الشجر بالخَبْطِ .

(٣) البخاري (٤٣٦١) .

وفي رمضان من هـٰذه السنة : كان **فتح مكة** ، ويسمىٰ : فتح الفتوح ؛ لأن العرب كانت تنتظر بإسلامها إسلام قريش ويقولون : هم أهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل ، فإن غلبوا . . فلا طاقة لأحد به ، فلما فتح الله مكة . . دخلوا في دين الله أفواجاً قبائل علىٰ جُمَلها ، بعد أن كانوا يدخلون أفراداً ، ولم يقم للشرك قائمة بعده .

روينا في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ ، فقال بعضهم : لم يدخل هـٰذا الفتىٰ معنا ولنا أبناءٌ مثلُه ؟! فقال : إنه ممن قد علمتم ، قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، وما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا لِيُريهم ، قال : ما تقولون في قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ ؟ فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذ فُتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلتُ : لا ، قال : فما تقول ؟ قلتُ : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له ، قال : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ وذلك علامة أجلك . . ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلاَّ ما تقول[1] .

وكان سبب غزوة الفتح علىٰ ما ذكر أهل السير : أنه كان بين خُزاعة وبني بكر عداوة وترات[2] ، وقد كانت خزاعة دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش ، فمكثوا علىٰ ذلك ثمانية عشر شهراً ، ثم بيتت بنو بكر خزاعة علىٰ ماء لهم يسمى الوتير ناحية عُرَنة ، وأعانتهم قريش مختفين في سواد الليل ، فقتلوا رجلاً من خزاعة ، فلما كان ذلك منهم . . ركب عمرو بن سالم الخزاعي الكعبي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقف عليه وهو في المسجد بين ظهراني الناس وأنشد : [من الرجز]

يَـا رَبِّ إِنِّـي نَـاشِـدٌ مُحَمَّـدا ... حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ ٱلأَتْلَـدَا

قَـدْ كُنْتُـمُ وُلْـداً وَكُنَّـا وَالِـدَا ... ثُمَّـتَ أَسْلَمْنَـا فَلَـمْ نَنْـزِعْ يَـدَا

فَـٱنْصُـرْ هَـدَاكَ ٱللهُ نَصْـراً أَعْتَـدَا ... وَٱدْعُ عِبَـادَ ٱللهِ يَـأْتُـوا مَـدَدَا

---

(١) البخاري (٤٩٧٠) .

(٢) أي : حروب .

فِيهِـمْ رَسُـولُ ٱللهِ قَـدْ تجَـرَّدَا   إنْ سِيـمَ خَسْفـاً وَجْهُـهُ تَـرَبَّـدا
فِـي فَيْلَـقٍ كَـٱلْبَحْـرِ يَجْـرِي مُـزْبِـدَا   إنَّ قُـرَيْشـاً أَخْلَفُـوكَ ٱلْمَـوْعِـدَا
وَنَقَضُـوا مِيثَـاقَـكَ ٱلْمُـؤَكَّـدَا   وَجَعَلُـوا لِـي فِـي كَـدَاءٍ رَصَـدَا
وَزَعَمُـوا أَنْ لَسْـتُ أَدْعُـو أَحَـدَا   وَهُـمْ أَذَلُّ وَأَقَـلُّ عَـدَدَا
هُـمْ بَيَّتُـونَـا بِـٱلْـوَتِيـرِ هُجَّـدَا   وَقَتَلُـونَـا رُكَّعـاً وَسُجَّـدَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنَ سَالِمٍ » وعرضت سحابة في السماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَـٰذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ » .

وغير بعيد أن جاء أبو سفيان يبتغي تأكيد العقد والمزايدة في المدة ، فأبىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجبه بشيء يعمل عليه ، فانصرف كمن لم يجيء .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجَهاز ، وآذن من حوله من الأعراب وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ خُذِ ٱلْعُيُونَ وَٱلأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ نَبْغَتَهَا فِي بِلاَدِهَا » .

ثم إن حاطب بن أبي بلتعة كتب كتاباً إلىٰ قريش يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

روينا في « صحيح البخاري » عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا مَرْثَد الغَنَوي والزبيرَ بنَ العوَّام ـ وفي رواية : والمقداد بن الأسود الكندي ـ وكلنا فارس ، قال : « اِنْطَلِقُوا حَتَّىٰ تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ؛ فَإِنَّ بِهَا ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى ٱلْمُشْرِكِينَ » فأدركناها تسير علىٰ بعير لها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما مَعَنا الكتاب ، فأَنَخْناها فالتمسنا فلم نَرَ كتاباً .

قلنا : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لَتُخرجِنَّ الكتابَ أو لَنُجردنَّكِ ، فلما رأت الجِدَّ . . أهوتْ إلىٰ حُجْزَتها وهي مُحتجزة بكِساءٍ فأخرجتْهُ ، وفي رواية : أنها أخرجته من عِقاصها .

فانطلقنا بها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : يا رسول الله ؛ قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدَعْني فلأضربْ عنقه ، فقال : « مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ ؟ » قال : والله ؛ ما بي ألا أكون مؤمناً بالله ورسوله ، أردتُ أن يكون لي عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هُناك من عشيرته من يدفع اللهُ به عن أهله وماله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صَدَقَ ، ولاَ تَقُولُوا لَهُ إِلاَّ خَيْراً » فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدَعْني فلأضرب عنقه ، فقال : « أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ؟! » فقال : « لَعَلَّ ٱللهَ ٱطَّلَعَ عَلَىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ؛ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ ٱلْجَنَّةُ » أو : « فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » فدمعتْ عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم[1] .

هٰذه إحدىٰ روايات البخاري ، وباقي رواياته وروايات مسلم مقاربة لها .

ونزل في أمر حاطب قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ الآيات ، وتضمنت مَنْقَبةً لحاطب ؛ حيث خوطب بالإيمان وهو أمر باطن ، ففيه دليل علىٰ أن كبائر الذنوب لا تَسْلِب الإيمان ، ولا يكفر أهلها .

وثبت لحاطب أيضاً مَنْقَبَةٌ أخرىٰ ، وهي : ما رويناه في « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه : أَنَّ عبداً لحاطب جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطباً ، فقال : يا رسول الله ؛ لَيَدْخُلَنَّ حاطب النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَذَبْتَ ، لاَ يَدْخُلُهَا ؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً وَٱلْحُدَيْبِيَةَ »[2] .

رجعنا إلى القصة ، قال أهل السير : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغ من جَهازه وخرج لعشرٍ مضين من رمضان ، واستعمل على المدينة كُلْثُوم بن حُصَيْن الغِفاري ، فلما بلغ الجُحفة . . لقيه عمه العباس مهاجراً ببنيه ، وقد كان بعد إسلامه مقيماً بمكة علىٰ سقايته ، وعذره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقيه أيضاً ببعض الطريق أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ، فكلمته أم سلمة

---

(١) البخاري (٣٩٨٣) ، **روضة خاخ** : موضع بقرب المدينة في طريق مكة ، **الحُجْزَةُ** : معقد الإزار ، **العِقَاصُ** : الخيط الذي تشدُّ به المرأة أطراف ذوائبها .

(٢) مسلم (٢٤٩٥) .

فيهما فقالت : يا رسول الله ؛ ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، فقال : « لاَ حَاجَةَ لِي بِهِمَا ، أَمَّا ٱبْنُ عَمِّي . . فَهَتَكَ عِرْضِي ، وَأَمَّا ٱبْنُ عَمَّتِي وَصِهْرِي . . فَإِنَّهُ قَالَ لِي بِمَكَّةَ مَا قَالَ » فقال أبو سفيان : والله ؛ لتأذنَّ لي أو لآخذن بيد بُنَيِّي هـٰذا ثم لنذهبنَّ في الأرض حتىٰ نموت عطشاً وجُوعاً ، فرَقَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلا عليه وأسلما[1] ، وأنشده أبو سفيان قصيدته التي يقول فيها : [من الطويل]

لَعَمْـرُكَ إِنِّـي يَـوْمَ أَحْمِـلُ رَايَـةً ... لِتَغْلِـبَ خَيْـلَ ٱلـلاَّتِ خَيْـلُ مُحَمَّـدِ

لَكَـٱلْمُـدْلِـجِ ٱلْحَيْـرَانِ أَظْلَـمَ لَيْلُـهُ ... فَهَـٰذَا أَوَانِـي حِيـنَ أُهْـدَىٰ وَأَهْتَـدِي

هَـدَانِـيَ هَـادٍ غَيْـرُ نَفْسِـي وَنَـالَنِـي ... مَـعَ ٱللهِ مَـنْ طَـرَّدْتُ كُـلَّ مُطَـرَّدِ

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ طَرَّدْتَنِي كُلَّ مُطَرَّدٍ ؟! » .

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم الكَدِيد . . أفطر وأمر الناس بذلك[2] ، ثم مضىٰ حتىٰ نزل مَرَّ الظَّهران في عشرة آلاف ، ثم إن العباس لحقته رأفة بقريش ، فخرج علىٰ بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يصادف أحداً يبعثه إليهم فيستأمنوا ، فلقي أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيل بن وَرْقاء وقد كانوا خرجوا يتجسسون الأخبار ، فأخبرهم الخبر ، فقال له أبو سفيان : فما الحيلة ؟ قال : اركب خلفي حتىٰ آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك ، فأردفه ورجع صاحباه .

فلما مر به العباس علىٰ منزل عمر . . لحقه عمر مُحرِّشاً عليه[3] ، ومُذكِّراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم سالف إساءته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : « اِذْهَبْ بِهِ إِلَىٰ رَحْلِكَ ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ . . فَأْتِنِي بِهِ » فلما أصبح . . جاء به ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ، فتلكّأ قليلاً ثم أسلم .

فقال العباس : يا رسول الله ؛ إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، فقال :

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٠٠) .

(٢) **الكَدِيدُ** : الماء الذي بين قُدَيْدٍ وعُسفانَ .

(٣) **مُحَرِّشاً** : مُحرِّضاً .

« نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ . . فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ . . فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ ٱلْمَسْجِدَ . . فَهُوَ آمِنٌ » .

وروينا في « صحيح البخاري » : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار . . قال للعباس : « اِحْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ ٱلْخَيْلِ ـ وفي رواية : عِنْدَ خَطْمِ ٱلْجَبَلِ ـ حَتَّىٰ يَنْظُرَ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ » فحبسه العباس ، فجعلت القبائلُ تَمرُّ مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تمر كتيبةً كتيبةً علىٰ أبي سفيان ، فمرت كتيبةٌ فقال : يا عباس ؛ من هـٰذه ؟ قال : هـٰذه غِفَارُ ، قال : ما لِي ولِغفار ، ثم مرت جُهَينةُ ، قال مثل ذلك ، ثم مرت سَعْدُ بن هُذَيم فقال مثل ذلك ، ثم مرت سليم فقال مثل ذلك ، حتىٰ أقبلت كتيبة لم يَرَ مثلَها ، قال : من هـٰذه ؟ قال : هـٰؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ، فقال سعد بن عبادة : يا أبا سفيان ؛ اليوم يوم المَلْحَمةِ ، اليوم تُستحلُّ الكعبة ، فقال أبو سفيان : يا عباس ؛ حبذا يومُ الذِّمار .

ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب ـ يعني : أقلهم عدداً وهي أجلهم قدراً ـ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وراية رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الزبير ، فلما مر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان . . قال : ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة ؟ قال : ما قال ؟ قال : كذا وكذا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « كَذَبَ سَعْدٌ ، وَلَكِنْ هَـٰذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ ٱللهُ فِيهِ ٱلْكَعْبَةَ ، وَيَوْمٌ تُكْسَىٰ فِيهِ ٱلْكَعْبَةُ » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُركَز رايته بالحَجُون(١) .

وقال عبد الله بن مُغفَّل : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة علىٰ ناقته وهو يقرأ (سورة الفتح) يُرجِّع فيها . انتهت روايتنا عن البخاري(٢) .

وروي : أن أبا سفيان لما مرت به القبائل وكانت قد أوعبت في تلك الغزاة فألَّفت مزينة وسبَّعت سليم ـ وقيل : ألَّفت ـ وفي كل القبائل عدد . . قال للعباس : يا أبا الفضل ؛ لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، قال العباس : فقلت له : ويحك! إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً ، قلت : الحق الآن بقومك فحذرهم ، فخرج سريعاً فقال لهم : من دخل دار

---

(١) البخاري (٤٢٨٠) ، **حطم الخيل** : ازدحامها ، **خطم الجبل** : أنف الجبل ؛ أي : طرفه ، **يوم الملحمة** : أي : يوم المقتلة العظمىٰ ، **يوم الذِّمار** : يريد الحرب ؛ لأن الإنسان يقاتل علىٰ ما يلزمه حفظه .

(٢) البخاري (٤٢٨١) .

أبي سفيان . . فهو آمن ، قالوا : وما يغني عنا دارُك ؟! قال : ومن دخل المسجد . . فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه . . فهو آمن ، فتفرق الناس .

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلىٰ مكة ولم يعرض له قتال ، وأمر خالد بن الوليد في عدد من المسلمين فدخلوا من أسفلها ، فعرض لهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بالخَنْدَمَةِ ، فهزمهم خالد وقتل منهم اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً ، ولم يقتل من خيل خالد إلاَّ سلمة بن الميلاء الجهني ، وأمّا كُرْز بن جابر الفهري وحُبَيْش بن الأشعر . . فشَذَّا عن خالد وسلكا طريقاً غير طريقه فقُتلا جميعاً ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلىٰ أُمرائه ألاَّ يقاتلوا إلاَّ من قاتلهم ، إلاَّ أنه أمر بقتل جماعة سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، فقتل بعضهم واستؤمن لبعضهم .

ولما انتهىٰ صلى الله عليه وسلم إلى البيت . . طاف به سبعاً علىٰ راحلته ، فاستلم الركن بمحجن في يده وهو مُنكس رأسه ؛ تواضعاً لله تعالىٰ ، ولما فرغ من طوافه . . دعا بالمفتاح وكان بيد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الحَجبي العَبْدَري وبيد ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة ، فأُتي به ففتح ودخل وركع ركعتين ، وكسر ما فيه من الأوثان ، وطمس الصور ، وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ فخرج وهو يتلوها ، قال عمر : وما كنت سمعتها قبل منه ، فدعا عثمان وشيبة فأعطاهما المفتاح وقال : « خُذَاهَا خَالِدَةً تَالِدَةً ، لاَ يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلاَّ ظَالِمٌ »[1] وكان العباس سأله أن يجمع له السِّدانة إلى السقاية .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : ودخل صلى الله عليه وسلم وحول البيت ستون وثلاث مئة نُصُب ، فجعل يطعنها بعود ويقول : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾ ، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ روياه[2] .

وقام صلى الله عليه وسلم علىٰ باب الكعبة وقال : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ ٱلأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلاَ إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعَىٰ . . فَهُوَ

---

(١) أخرجه الطبراني (١١/٩٨) بنحوه ، **تالدةً** : يتعاقبون عليها ولداً بعد ولد .
(٢) البخاري (٢٤٧٨) ، ومسلم (١٧٨١) .

تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلاَّ سِدَانَةَ ٱلْبَيْتِ وَسِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ[1] ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ إِنَّ ٱللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَا بِٱلآبَاءِ ، اَلنَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ » ثم تلا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ الآية ، ثم قال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ » قالوا : خيراً ، أخٌ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اِذْهَبُوا فَأَنْتُمُ ٱلطُّلَقَاءُ »[2] فلذلك سمي مُسلِمةُ الفتح : الطلقاء ، وكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان .

فَصْلٌ

في ذكر شيء من الواردات يوم الفتح مما ذكره أبو عبد الله البخاري وكثير منها في « مسلم »

من ذلك : ما روي عن أم هانىء قالت : ذهبت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تَستره ، فسلمت عليه فقال : « مَنْ هَـٰذِهِ ؟ » فقلت : أنا أم هانىء بنت أبي طالب ، فقال : « مَرْحَباً بِأُمِّ هَانِىءٍ » فلما فرغ من غُسله . . قام فصلىٰ ثماني ركعات مُلتحفاً في ثوب واحد ، فقلت : يا رسول الله ، زعم ابن أمي عليٌّ أنه قاتل رجلاً قد أجرته ؛ فلانَ ابن هُبَيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِىءٍ » قالت : وذلك ضحىً[3] .

وعن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح وعلىٰ رأسه المِغفر ، فلما نزعه . . جاء رجل فقال : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال : « اُقْتُلْهُ »[4] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلىٰ أخيه سعد بن أبي وقاص أَنَّ ابن وليدةِ زمعةَ مني فاقبِضه ، قالت : فلما كان عام الفتح . . أخذه سعد بن أبي وقاص وقال : ابن أخي قد عهد إلي فيه ، فقام عبد بن زمعة فقال : أخي وابن وليدة أبي وُلِد علىٰ فراشه ، فتساوقا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال سعد : يا رسول الله ؛ ابن أخي كان قد عهد إليَّ فيه ، فقال عبد بن زمعة : أخي وابن وليدة أبي وُلِد علىٰ فراشه ،

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٥٤٧) .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤١٢) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٧) .
(٤) أخرجه البخاري (٤٢٨٦) وغيره .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنَ زَمْعَةَ » ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱلْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ ٱلْحَجَرُ » ثم قال لسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : « اِحْتَجِبي مِنْهُ » لما رأىٰ من شَبَهِهِ بعتبة ، فما رآها حتىٰ لقي الله عز وجل(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في غزوة الفتح فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ ٱللهِ ؟! » ثم قام فاختطب ثم قال : « إِنَّمَا أَهْلَكَ ٱلَّذِينَ قَبْلَكُمْ : أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ ٱلشَّرِيفُ . . تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ ٱلضَّعِيفُ . . أَقَامُوا عَلَيْهِ ٱلْحَدَّ ، وَٱيْمُ ٱللهِ ؛ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ . . لَقَطَعْتُ يَدَهَا »(٢) .

وعن أبي شُرَيح الخزاعي الكعبي : أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يَبْعث البعوث إلىٰ مكة : ائذن لي أيها الأمير أُحدِّثْك قولاً قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغدَ من يوم الفتح ، سمعتْه أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به : إنه حمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ثم قال : « إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا ٱللهُ تَعَالَىٰ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا ٱلنَّاسُ ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِىءٍ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَماً ، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ ٱللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا ٱلْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِٱلأَمْسِ ، وَلْيُبَلِّغِ ٱلشَّاهِدُ ٱلْغَائِبَ » خرَّجاه متفقين علىٰ لفظه(٣) .

وإنما قال صلى الله عليه وسلم هـٰذا القول حين قتلت خزاعة رجلاً من هذيل بمكة ثاني يوم الفتح ، فوداه النبي صلى الله عليه وسلم .

ومما سبق به من الشعر قبل الفتح : قول حسان رداً علىٰ أبي سفيان بن الحارث : [من الوافر]

أَلاَ أَبْلِـــغْ أَبَـــا سُفْيَـــانَ عَنِّـــي ... فَـــأَنْـــتَ مُجَـــوَّفٌ نَخِـــبٌ هَـــوَاءُ

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٣) ، وتَساوقا : سارا بسرعة ، والعاهر : الزاني .
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) .
(٣) البخاري (١٠٤) ومسلم (١٣٥٤) .

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ ٱللهِ فِي ذَاكَ ٱلْجَزَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّداً بَرّاً حَنِيفاً ... رَسُولَ ٱللهِ شِيمَتُهُ ٱلْوَفَاءُ

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

ثَكِلْتُ بُنَيَّتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ ٱلنَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَدَاءِ (١)

يُبَارِينَ ٱلأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ ... عَلَىٰ أَكْتَافِهَا ٱلأَسَلُ ٱلظِّمَاءُ (٢)

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بِٱلْخُمُرِ ٱلنِّسَاءُ (٣)

فَإِنْ أَعْرَضْتُمُ عَنَّا ٱعْتَمَرْنَا ... وَكَانَ ٱلْفَتْحُ وَٱنْكَشَفَ ٱلْغِطَاءُ

وَإِلاَّ فَٱصْبِرُوا لِضِرَابِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ ٱللهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَقَالَ ٱللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْداً ... يَقُولُ ٱلْحَقَّ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

وَقَالَ ٱللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ ٱلأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا ٱللِّقَاءُ (٤)

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنُحْكِمُ بِٱلْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ ٱلدِّمَاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ ٱللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ ٱللهِ فِينَا ... وَرُوحُ ٱلْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

رواه مسلم إلا الثالث والثالث عشر ؛ فمن « سيرة ابن هشام » .

---

(١) **تثير النقع** : ترفع الغبار ، وكنفي : جانبي ، **وكداء** : ثنية علىٰ باب مكة ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٦/ ٥٠) : (علىٰ هٰذه الرواية في هٰذا البيت إقواء مخالف لباقيها ، وفي بعض النسخ : غايتها كداء ، وفي بعضها : موعدها كداء) . والإقواء : هو اختلاف الإعراب في القافية كأن يأتي الشاعر بقافية مضمومة وأخرىٰ مكسورة في القصيدة نفسها .

(٢) **الأعنة** : الخيل .

(٣) **جيادنا متمطرات** : خيولنا مسرعات ، **تلطمهن** : تمسحهن .

(٤) **يسرت** : هيأت ، **العُرضة** : المطلوب والمقصود .

قال : وبلغني عن الزهري أنه قال : لما رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء يَلْطِمن الخيل بالخُمُر . . تبسم إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه وقال : « قَدْ سَيَّرْتُ جُنْداً » وفي رواية : « قَدْ يَسَّرْتُ جُنْداً »[1] ولم تصح الرواية بـ (يسرت) .

واتصل بالفتح **غزوة حنين** ، وكان من خبرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من الفتح . . أُخبر أَنَّ هوازنَ أقبلت لحربه ، وكان الذي جمعها مالك بن عوف النصري ، فاجتمع إليه ثقيف ونصر وجُشَم وسعد بن بكر وقليل من بني هلال ، ولم يشهدها أحد من قيس عَيْلان إلاَّ هـٰؤلاء ، وجملتهم أربعة آلاف ، وساروا معهم بدُرَيْد بن الصِّمَّة الجُشَمي متيمنين برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان قد قارع الخطوب وأبلىٰ في الحروب ، وله يومئذٍ مئة وستون أو مئة وعشرون سنةً ، وكان أشار بتمنيع الذراري والأموال ولقاء الرجال بالرجال ، وقال : إنَّ المنهزم لا يرده شيء ، فأبىٰ مالك إلاَّ المسير بهم ، وقال دريد : هـٰذا يوم لم أشهده ولم يَفتني ، وأنشد : [من مجزوء الرجز]

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

ولما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إليهم . . أرسل إلىٰ صفوان بن أمية بن خلف يستعير منه السلاح واللأمة ، وكان صفوان بن أمية حينئذ مشركاً ، فقال : أغصباً يا محمد ؟ قال : « بَلْ عَارِيَةً مَضْمُونَةً » قال : ليس بهـٰذا بأس ، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السلاح ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم بجيش الفتح وألفين من الطلقاء ، واستخلف علىٰ مكة عَتَّاب بن أسيد الأموي ، فكانت مدة إقامته بمكة بعد الفتح إلىٰ أن خرج لحنين خمسة عشر أو سبعة عشر أو ثمانية عشر أو تسعة عشر يوماً ، يقصر الصلاة لذلك .

قال أصحابنا : إن المسافر إذا دخل بلداً ونوى الخروج منها في كل وقت . . قصر إلىٰ ثمانية عشر يوماً ثم يتم ، وقال بعضهم : يقصر أبداً ما دام علىٰ هـٰذه النية ، وتعليله متجه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقفت حاجته علىٰ هـٰذه المدة ، والظاهر : أنه لو زادت حاجته . . لبقي علىٰ ترخصه ، يؤيده أيضاً : ما روىٰ أبو داوود وصححه ابن حبان عن

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٢٤) .

جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة(١) ، ويروىٰ : أن ابن عمر أقام بأَذْرَبِيجان ستة أشهر يقصر الصلاة(٢) .

ولما انتهىٰ صلى الله عليه وسلم إلىٰ حنين وهو وادٍ بين مكة والطائف ، وكان المشركون قد سبقوا إليه فكَمَنُوا في أحنائه وشِعابه(٣) ، فلما تصوب المسلمون إليه في عَماية الصُّبح(٤) . . شَدُّوا عليهم شدةَ رجلٍ واحد ، وانشمر(٥) المسلمون راجعين لا يَلْوِي أحد علىٰ أحد ، وكان رجل من المسلمين قد قال حين رأىٰ تكاثر الجيش : لن نُغلَب اليوم عن قلة! فلم يرض الله قوله ، ووُكِلوا إلىٰ كلمته ، ووَلَّوا مدبرين . هـٰذا معنىٰ ما ذكر ابن إسحاق .

وفي « صحيح البخاري » عن البراء بن عازب وقد سأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لكنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، كان هوازنُ رماةً ، وإنَّا لما حملنا عليهم . . انكشفوا فأكبَبْنَا على الغنائم فاستُقْبِلنا بالسهام ، ولقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ بغلته البيضاء وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول : « أَنَا ٱلنَّبِيُّ لاَ كَذِبْ »(٦) وفي رواية : « أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبْ »(٧) ، وفي رواية : فما رُئي في الناس يومئذ أشد منه(٨) .

وروينا في « صحيح مسلم » عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نُفارقه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ بَغْلة له بيضاء أهداها له فَرْوَةُ بن نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ ، فلما التقى المسلمون والكفار . . ولَّى المسلمون مدبرين ، فطفِق رسول الله صلى الله عليه وسلم يَرْكُض بَغْلَتَه قِبل الكفار وأنا آخذ بلِجام بغلة رسول الله

---

(١) ابن حبان (٢٧٤٩) ، أبو داوود (١٢٣٥) .
(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٥٣٣) .
(٣) **أحناؤه** : جوانبه .
(٤) **عَمايةُ الصبح** : ظلمته الباقية .
(٥) **انْشَمَرُوا** : انفضوا وانهزموا .
(٦) البخاري (٤٣١٧) .
(٧) البخاري (١٧٧٦) .
(٨) البخاري (٣٠٤٢) .

صلى الله عليه وسلم أَكفُّها إرادة ألاَّ تُسرع ، وأبو سفيان آخذ بركابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيْ عَبَّاسُ ؛ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ » وكان العباس رجلاً صيِّتاً ، فقلت بأعلىٰ صوتي : أين أصحاب ٱلسَّمُرة ؟

قال : فوالله لكأنَّ عَطفتَهم عليَّ حين سمعوا صوتي عطفة البقر علىٰ أولادها ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك ، فاقتتلوا والكفارَ ، والدعوةُ في الأنصار يقولون : يا معشر الأنصار ، ثم قُصِرت الدعوةُ علىٰ بني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو علىٰ بغلته كالمتطاول عليها إلىٰ قتالهم فقال : « هَـٰذَا حِينَ حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ » .

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حَصياتٍ فرمىٰ بهنّ في وجوه الكفار ثم قال : « اِنْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ » قال : فوالله ؛ ما هو إلاَّ أن رماهم بحصياته . . فما زِلْتُ أرىٰ حَدَّهم كليلاً وأمرهم مدبراً[1] .

وروي : أن العباس رضي الله عنه لما ناداهم . . جعل الرجل منهم يثني بعيره فلا يقدر عليه ، فيقتحم عنه ويَؤُمُّ الصوت ، حتى اجتمع منهم مئة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ألف ، فاستعرضوا الناس وساروا قُدماً حتىٰ فتح الله عليهم وكانت الهزيمة ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ .

قال سعيد بن جبير : أمده الله يومئذ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .

قيل : لم تقاتل الملائكة يومئذ ، وإنما أنزلت لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين .

وروي : أنه لما انهزم المسلمون . . شمت كثير من الطلقاء وانجفلوا بالناس ، وقال كَلَدَةُ بن الحنبل : الآن بطل السحر ، فقال له أخوه صفوان بن أمية : اسكت فض الله فاك ، فوالله ؛ لأن يَرُبَّني رجل من قريش أحب إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوزان .

---

(1) مسلم (١٧٧٥) ، **أصحاب السمرة** : أصحاب الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان ، **مازلتُ أرىٰ حَدَّهم كليلاً** : ما زلت أرىٰ قوتهم ضعيفةً .

قال الزهري : وبلغني أن شيبة بن عثمان ـ يعني الحجبي ـ قال : استدبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن طلحة وعثمان بن طلحة ، وكانا قد قتلا يوم أحد ، فأَطْلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما في نفسي ، فالتفتَ إليَّ وضرب في صدري وقال : « أُعِيذُكَ بِٱللهِ يَا شَيْبَةُ » فارتعدتْ فرائصي[1] ، فنظرت إليه فهو أحب إليّ من سمعي وبصري ، فقلت : أشهد أنك رسول الله ، وأن الله قد أطلعك علىٰ ما في نفسي[2] .

وروينا في « الصحيحين » واللفظ للبخاري : عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : لما كان يوم حنين . . نظرتُ إلىٰ رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين ، وآخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله ، فأسرعت إلى الذي يَخْتِلُه فرفع يده ليضربني وأضربُ يده فقطعتها ، ثم أخذني فضمني ضماً شديداً حتىٰ تخوفت ، ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته .

وانهزم المسلمون وانهزمتُ معهم ؛ فإذا بعمر بن الخطاب في الناس ، فقلت له : ما شأن الناس ؟ فقال : أمرُ الله ، ثم تراجع الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَقَامَ بَيِّنَةً عَلَىٰ قَتِيلٍ قَتَلَهُ . . فَلَهُ سَلَبُهُ » فقمت لألتمس بينةً علىٰ قتيلي ، فلم أر أحداً يشهد لي ، فجلست ، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل من جلسائه : سلاح هـٰذا القتيل الذي يذكره عندي فأَرْضِه منه ، فقال أبو بكر : كَلاَّ لا تُعطه أُصَيبغَ من قريش وتَدَعَ أسداً من أُسْد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأداه إليَّ ، فاشتريت به خِرافاً ، فكان أولَ مال تأثلته في الإسلام[3] .

وروينا في « صحيح مسلم » عن سلمة بن الأكوع قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً ، فلما واجهنا العدوَّ . . تقدمتُ فأعلو ثنيةً ، فاستقبلني رجل من العدو فأرميه بسهم فتوارىٰ عني ، فما دَرَيْتُ ما صنع ، ونظرت إلى القوم ؛ فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرىٰ ، فالتقوا هم وصحابةُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فولّىٰ صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأرجعُ منهزماً وعليَّ بردتان مُتزراً بإحداهما مرتدياً بالأخرىٰ ، فاستطلق إزاري

---

(١) **ارتعدت** : اضطربت ، **والفرائص** : عضلات الصدر .

(٢) انظر « تفسير البغوي » (٢/ ٢٧٨ـ ٢٧٩) .

(٣) البخاري (٤٣٢٢) ، ومسلم (١٧٥١) ، **وأُصَيْبِغ** : نوع من الطير أو نبات ضعيف يقال له : الصّبغاء .

فجمعتهما جميعاً ، ومررتُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزماً وهو علىٰ بغلته الشهباء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ رَأَى ٱبْنُ ٱلأَكْوَعِ فَزَعاً » فلما غَشُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. . نزل عن البغلة ثم قبض قبضةً من تراب من الأرض ، ثم استقبل به وجوههم فقال : « شَاهَتِ ٱلْوُجُوهُ » فما خلق الله منهم إنساناً إلاَّ ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة ، فولَّوا مدبرين ، فهزمهم الله ، وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين[1] .

وممن ثبت يومئذ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته : علي بن أبي طالب والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان وربيعة ابنا الحارث بن عبد المطلب وأيمن ابن أم أيمن أخو أسامة بن زيد ، ومن رؤساء المهاجرين : أبو بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين .

قال ابن إسحاق : فلما انهزمت هوازنُ. . استحرَّ القتل[2] من ثقيف في بني مالك ، فقتل منهم تحت رايتهم سبعون رجلاً ، وتفرق المشركون في الهزيمة ، فلحق مالك بن عوف في آخرين بالطائف ، وتركوا أولادهم وأموالهم ، واحتبس كثير منهم بأوطاس علىٰ أموالهم ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وتبعت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك في نخلة ولم تتبع من سلك الثنايا .

فأدرك ربيعة بن رُفَيْع السلمي دُرَيد بن ٱلصِّمَّة وهو في شجار له ، فأناخ به ثم ضربه ، فلم تغن شيئاً ، فقال : بئس ما سلَّحتك أمك! خذ سيفي هـٰذا من مؤخر الرحل ، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ؛ فإني كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيتَ أمك. . فأخبرها : أني قتلتُ دُرَيْد بن ٱلصِّمَّة ، فربَّ والله يوم قد منعتُ فيه نساءك[3] .

ويقال : إنه أنشد حين تحققت الهزيمة : [من الطويل]

أَمَـرْتُهُـمُ أَمْـرِي بِمُنْعَـرَجِ ٱللِّـوَىٰ ... فَلَمْ يَسْتَبِينُوا ٱلرُّشْدَ إِلاَّ ضُحَى ٱلْغَدِ

وَمَـا أَنَـا إِلاَّ مِـنْ غَـزِيَّـةَ إِنْ غَـوَتْ ... غَـوَيْـتُ وَإِنْ تَـرْشُـدْ غَـزِيَّـةُ أَرْشُـدِ

---

(١) مسلم (١٧٧٧) .
(٢) اسْتَحَرَّ : اشتدَّ .
(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٥٣) .

غزوة أوطاس

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أَمَّر أبا عامر الأشعري علىٰ جيش من المسلمين وبعثه في آثار من توجه قِبل أوطاس ، فأدرك بعض من انهزم فناوشوه القتال ، فقُتِل أبو عامر وأخذ الراية بعده ابن أخيه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، ففتح الله عليه ، وقتل قاتل أبي عامر ، وهزمهم وغنم أموالهم(١) .

روينا في « صحيح البخاري » عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : لما رُمي أبو عامر . . قلت : يا عم ؛ من رماك ؟ فأشار إلىٰ أبي موسىٰ ، قال : ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدتُ له فلحقته ، فلما رآني . . ولَّىٰ ، فاتَّبعته وجعلتُ أقول له : ألا تستحيي ؟! ألا تَثْبُت ؟! فكفَّ ، فاختلفنا ضَربتين بالسيف فقتلتُه ، ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك ، قال : فانزع هـٰذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء ، قال : يا بن أخي ؛ أقرىء النبي صلى الله عليه وسلم السلامَ وقل له : استغفرْ لي .

واستخلَفني أبو عامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بيته علىٰ سرير مرمل وعليه فراش قد أثَّر رمال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر ، وقوله : قل له : استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِعُبَيْدِكَ أَبِي عَامِرٍ » ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ وَمِنَ ٱلنَّاسِ » فقلت : ولي فاستغفر ، فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيماً » قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر ، والأخرىٰ لأبي موسىٰ(٢) .

وروى ابن هشام عمن يثق به من أهل العلم : أن أبا عامر الأشعري لقي يوم أوطاس عشرةَ إخوة من المشركين ، فحمل عليه أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم ؛ اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم كذلك واحداً بعد واحد ، حتىٰ قتل تسعةً

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٥٤ـ ٤٥٥) .

(٢) البخاري (٤٣٢٣) ، **نزَا منه الماء** : جرَىٰ وظهر ، **المُرَمَّل** : المعمول بالرمال ، وهي الحِبال التي تُضَفَّر بها الأَسرة .

وبقي العاشر ، فحمل علىٰ أبي عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم ؛ اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم ؛ لا تشهد عليّ ، فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه . . قال :

« هَـٰذَا شَرِيدُ أَبِي عَامِرٍ » .

واستشهد من المسلمين يوم حنين وأوطاس : أيمن بن عبيد الهاشمي وهو ابن أم أيمن الهاشمي ، قتل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيد بن زمعة بن الأسود الأسدي ، جَمَح به فرسه الذي يقال له : (الجنَاح) فقتل ، وسراقة بن الحارث الأنصاري ، وأبو عامر الأشعري أربعة رجال .

ولأبي الفضل عباس بن مرداس السُّلمي في يوم حنين جملة من الشعر ، وكان إسلامه قبيل ذلك ، ولإسلامه خبر عجيب سيأتي قريباً إن شاء الله تعالىٰ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بسبايا هوازن وأموالها فحبست له بالجِعرَّانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ، وقيل : أبا سفيان بن حرب الأموي ، وقيل : أبا جَهْم بن حذيفة العدوي ، وكانت سباياهم ستة آلاف رأس ، ومن الإبل والشاة ما لا يعد .

ومن توابع الفتح أيضاً : **غزوة الطائف** ، وكان من خبرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من الفتح وحنين وأوطاس وتحصن شُرّاد حنين بالطائف . . توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوهم في عَدَدِهِ وعُدَدِهِ ، ففي ذلك يقول كعب بن مالك في قصيدة له : [من الوافر]

قَضَيْنَـا مِـنْ تِهَـامَـةَ كُـلَّ رَيْـبٍ ... وَخَيْبَـرَ ثُـمَّ أَجْمَمْنَـا ٱلسُّيُـوفَـا

تُخَبِّـرُنَـا وَلَـوْ نَطَقْـتَ لَقَـالَـتْ ... قَـوَاطِعُهُـنَّ دَوْسـاً أَوْ ثَقِيفَـا

فسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ قَرْن مهلٍّ أهل نجد ، ثم علىٰ وادي لِيَّةَ وابتنىٰ به مسجداً ، وقتل هناك رجلاً من بني ليث بقتيل قتله من هذيل ، **وهو أول دم أقيد به في الإسلام** ، وأمر بحصن مالك بن عوف النصري فهدم ، ثم سلك من لِيَّةَ علىٰ نخب ، ونزل تحت سدرة تسمى الصادرة ، وخرب حائط رجل من ثقيف .

ثم ارتحل فنزل علىٰ حصن الطائف ، فقتل جماعة من أصحابه بالنبل فانتقل بعيداً منه ،

وضرب هناك قبّتين لعائشة وأم سلمة ، وصلىٰ بينهما وهو موضع مسجده الذي بالطائف اليوم ، وفي ركنه الأيمن القبلي قبر حَبْر الأمة أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ثم حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطع أعنابهم ورماهم بالمَنْجَنيق ، ودخل ناس من أصحابه تحت دبابة ثم زحفوا تحتها إلىٰ جدار الحصن فرمتهم ثقيف بالنار فاحترقت الدبابة ، فخرجوا من تحتها فرموهم بالنبل(١) .

روينا في « الصحيحين » واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عمر أو ابن عمرو رضي الله عنهما قال : (لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم شيئاً . . قال : « إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ » فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟! فقال : « ٱغْدُوا عَلَى ٱلْقِتَالِ » ، فغدوا فأصابهم جراح ، فقال : « إِنَّا قَافِلُونَ غَداً إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ » فأعجبهم ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٢) .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأىٰ رؤيا فقصها علىٰ أبي بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر : ما أظن أن تدرك منهم يومك هٰذا ما تريد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَأَنَا لاَ أَرَىٰ ذَلِكَ »(٣) .

وروي : أن خولة بنت حكيم السُّلَمية سألته إن فتح الله عليه الطائف حلي بادية بنت غَيْلان أو الفارعة بنت عقيل ، فقال لها : « وَإِنْ كَانَ لَمْ يُؤْذَنْ لِي فِي ثَقِيفٍ يَا خُوَيْلَةُ ؟ » فأخبرت عمر بذلك ، فقال عمر : أفلا أُؤذِّن بالرحيل يا رسول الله ؟ قال : « بَلَىٰ » فأذَّن عمر بالرحيل(٤) .

ويقال : إنما انصرف عنهم حين هلَّ ذو القعدة ، وهو شهر حرام ، وكان مدة حصارهم بضعاً وعشرين ليلةً ، ويقال : سبع عشرة ، واستشهد بها من المسلمين اثنا عشر أو ثلاثة عشر رجلاً ، سبعة من قريش وأربعة من الأنصار وواحد من بني ليث ، وعد منهم عبد الله بن

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٢ـ٤٨٣) ، الحَبْرُ : العالم ، المَنْجَنيق : آلة من آلات الحرب يُرمىٰ بها .
(٢) البخاري (٤٣٢٥) .
(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٤) .
(٤) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٤) .

أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وكان أصابه سهم فمات منه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم .

ومنهم : خَتَن النبي صلى الله عليه وسلم وابن عمته عبد الله بن أبي أمية المخزومي ، وهو الذي قال له هِيتُ المخنث : يا عبد الله ، أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً . . فعليك بابنة غَيْلان ؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَدْخُلَنَّ هَؤُلاَءِ عَلَيْكُمْ » رواه البخاري[1] ، زاد السهيلي بعد قوله : (وتدبر بثمان) : مع ثغرٍ كالأُقْحُوان ، وثدي كالرمان ، إن قامت . . تثنَّت ، وإن قعدت . . تبنَّت ، وإن تكلمت . . تغنَّت ، وهي هيفاء شَموع نَجلاءُ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَاتَلَكَ ٱللهُ! لَقَدْ أَمْعَنْتَ ٱلنَّظَرَ »[2] .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم نفاه إلى روضة خاخ ، فقيل له : إنه يموت بها جوعاً ، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس ، وكان المخنثون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةً : هِيت ، وهَرِم ، وماتع ، وأَنَّة ، ولم يكن واحد منهم يرتكب الفاحشة الكبرىٰ ، وإنما هو التشبه بالنساء فقط .

وفي « صحيح البخاري » : أن أبا بكرة نُفَيع بن الحارث تدلىٰ من حصن الطائف علىٰ بكرة ، ونزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثالثَ ثلاثةٍ وعشرين من عبيد أهل الطائف[3] .

وروي : أن أهل الطائف لما أسلموا . . كلموا النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ، فقال : « هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ ٱللهِ » وجعل ولاءهم لهم[4] .

وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انصرف عن أهل الطائف . . قيل له : ادع عليهم ، فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱهْدِ ثَقِيفاً ، وَأْتِ بِهِمْ »[5] .

---

(١) البخاري (٤٣٢٤) ، **تُقبِل بأربع وتُدبر بثمان** : معناه أَنَّ لها أَربعَ عُكَن تُقبِل بهن ، من كل ناحية ثنتان ، ولكل واحدة طرفان ، فإذا أدبرت . . صارت الأطراف ثمانيةً .

(٢) الروض الأنف (٧/ ٣٤٠) ، **تبنّت** : جلست جلسة المفترش ، **هيفاء** : ضامرة البطن دقيقة الخصر ، **شَموع** : كثيرة المزاح ، **نجلاء** : واسعة العين .

(٣) البخاري (٤٣٢٧) .

(٤) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٥) .

(٥) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٨) .

خبر غنائم حنين

ولما رجع صلى الله عليه وسلم من الطائف ونزل الجِعرَّانة . . قسم بها الغنائم ، فأعطى الطلقاء ورؤساء العرب ومن ضَعُف إيمانه يتألفهم ويتألف بهم ، ووكل آخرين إلىٰ إيمانهم ويقينهم منهم الأنصار .

روينا في « صحيح مسلم » عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال : أعطىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كلَّ إنسان منهم مئةً من الإبل، وأعطىٰ عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال شعراً : [من المتقارب]

أَتَجْعَـــلُ نَهْبِـــي وَنَهْـــبَ ٱلْعُبَيْـ ـــدِ بَيْـــنَ عُيَيْنَـــةَ وَٱلأَقْـــرَعِ

فَمَـــا كَـــانَ حِصْـــنٌ وَلاَ حَـــابِـسٌ يَفُـــوقَـــانِ مِـــرْدَاسَ فِـــي ٱلْمَجْمَـعِ

وَمَـــا كُنْـــتُ دُونَ ٱمْـــرِىءٍ مِنْهُمَـــا وَمَـــنْ تَخْفِـــضِ ٱلْيَـــوْمَ لاَ يُـــرْفَـعِ

فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مئة من الإبل[1] ، وذكر خارج « الصحيحين » جماعة من أهل المئين سوىٰ هٰؤلاء ، وآخرين دون ذلك ، وأعطىٰ من الشاء بغير عدد[2] .

وفي الحديث : أن أعرابياً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين ، فلما رجع إلىٰ قومه . . قال : أسلموا ؛ فإن محمداً صلى الله عليه وسلم يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة[3] ، وقد أتىٰ علىٰ هٰذا المعنىٰ في مدحه صلى الله عليه وسلم أحد المحبين عفيف الدين عبد الله بن جعفر اليمني رحمه الله فقال : [من الكامل]

أَلْقَـــاسِـــمُ ٱلآبَـــالِ رُبَّ هُنَيْـــدَةٍ بِحُنَيْـــنَ جَـــادَ بِهَـــا عَلَـــى ٱلْعُـــرْبَـــانِ

وَٱلْقَـــاسِـــمُ ٱلأَغْنَـــامِ لاَ عَـــدَّ لَهَـــا إِلاَّ بِمَـــا يَلْطُـــفُ بِـــهِ ٱلْجَبَـــلاَنِ

ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم هٰذه المقاسم الجليلة وأعطى العطايا الحفيلة[4] . . استشره حفاة الأعراب ، وأحفوه في المسألة حتى اضطروه إلىٰ سمرةٍ ،

---

(١) مسلم (١٠٦٠) .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٢) .

(٤) **الحفيلة** : الكثيرة المجموعة .

فخطِفَتْ رداءَه ، فقال : « أَعْطُونِي رِدَائِي ، فَلَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَـٰذِهِ ٱلْعِضَاهِ نَعَماً . . لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً »[1] وحتىٰ قال له أعرابي : ألا تُنْجز لي ما وعدتني ؟ فقال : « أَبْشِرْ » فقال : أكثرت عليَّ من « أَبْشِرْ »[2] وقال له آخر : إن هـٰذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ، فقال : « رَحِمَ ٱللهُ مُوسَىٰ ؛ قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَـٰذَا فَصَبَرَ »[3] وقال له آخر : اعدل يا محمد ، قال : « وَيْحَكَ ! فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟! »[4] .

ولما لم يُصب الأنصارَ من هـٰذه المقاسم قليلُ شيءٍ ولا كثيره . . وجدوا وَجْداً عظيماً ، ووقع في أنفسهم ما لم يقع قبل ذلك ، وقالوا : يغفر الله لرسول الله ؛ يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟! وقالوا : إذا كانت شديدة . . فنحن ندعىٰ ويعطى الغنيمةَ غيرُنا !

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر مَوْجِدتهم . . جمعهم فخطبهم فقال : « يَا مَعْشَرَ ٱلأَنْصَارِ ؛ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ ٱللهُ بِي ؟! وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ ٱللهُ بِي ؟! وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ ٱللهُ بِي ؟! » كلما قال شيئاً . . قالوا : الله ورسوله أمنُّ ، قال : « مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم ؟ » كلما قال شيئاً . . قالوا : الله ورسوله أمنُّ ، قال : « لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ : جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا ، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّاةِ وَٱلْبَعِيرِ وَتَذْهَبُونَ بِٱلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ رِحَالِكُمْ ؟ لَوْلاَ ٱلْهِجْرَةُ . . لَكُنْتُ ٱمْرَأً مِنَ ٱلأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ ٱلنَّاسُ وَادِياً أَوْ شِعْباً . . لَسَلَكْتُ وَادِيَ ٱلأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا ، ٱلأَنْصَارُ شِعَارٌ وَٱلنَّاسُ دِثَارٌ ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ تَلْقَوْنِي عَلَى ٱلْحَوْضِ » روىٰ جميع ذلك البخاري[5] .

وفي رواية فيه : أنه صلى الله عليه وسلم جمعهم في قبة من أَدَم ولم يَدْعُ معهم غيرهم ، فلما اجتمعوا . . قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟! » فقال فقهاء الأنصار : أما رؤساؤنا يا رسول الله . . فلم يقولوا شيئاً ، وأما ناس منا حديثةٌ أسنانهم . . فقالوا : يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢١) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه .
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٤) أخرجه البخاري (٦٩٣٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٥) البخاري (٣١٤٧ ، ٤٣٣٠ ، ٤٣٣٧) .

تقطرُ من دمائهم ؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلنَّاسُ بِٱلأَمْوَالِ وَتَذْهَبُونَ بِٱلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ رِحَالِكُمْ ؟ فَوَٱللهِ ؛ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ » قالوا : يا رسول الله ؛ قد رضينا[1] .

وفي رواية أخرىٰ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلنَّاسُ بِٱلدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ ٱللهِ تَحُوزُونَهُ إِلَىٰ بُيُوتِكُمْ ؟ » قالوا : بلىٰ .

وفيها قال هشام لأنس : يا أبا حمزة ؛ وأنت شاهد ذاك ؟ قال : وأين أغيب عنه[2] .

وروي خارج « الصحيحين » : أن سعد بن عبادة وحسان بن ثابت انطلقا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بموجدة الأنصار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة : « هَلْ وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئاً كَمَا وَجَدَ قَوْمُكَ ؟ » فقال : والله يا رسول الله ؛ ما أنا إلاَّ رجل من قومي ، فأطرق صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يفكر ؛ إذ اندفع حسان يقول : [من البسيط]

هَامَ ٱلشَّجِيُّ فَدَمْعُ ٱلْعَيْنِ يَنْحَدِرُ ... سَحّاً عَلَىٰ وَجْنَتَيْهِ هَاطِلٌ دِرَرُ
وَجْداً بِسَلْمَىٰ وَقَدْ شَطَّ ٱلْمَزَارُ بِهَا ... وَغَيَّرَتْهَا نَوَىً فِي صَرْفِهَا غِيَرُ
غَرَّاءُ وَاضِحَةُ ٱلْخَدَّيْنِ خَرْعَبَةٌ ... مَا عَابَهَا أَوَدٌ فِيهَا وَلاَ قِصَرُ[3]
كَأَنَّ رِيقَتَهَا مِنْ بَعْدِ رَقْدَتِهَا ... مِسْكٌ يُدَافُ بِخَمْرٍ حِينَ يُعْتَصَرُ
فَدَعْ سُلَيْمَةَ إِذْ شَطَّ ٱلْمَزَارُ بِهَا ... وَٱصْرِفْ مَدِيحَكَ فِيمَنْ فِيهِ يُفْتَخَرُ
ذَاكَ ٱلرَّسُولُ رَسُولُ ٱللهِ أَكْرَمُنَا ... وَمَنْ بِطَلْعَتِهِ يُسْتَنْزَلُ ٱلْمَطَرُ
إِئْتِ ٱلرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُنْتَخَبٍ ... وَزَيْنَ مَنْ يُرْتَجَىٰ جُوداً وَيُنْتَظَرُ
عَلاَمَ تُعْطِي قُرَيْشاً وَهْيَ نَازِحَةٌ ... أَنْفَالَ قَوْمٍ وَهُمْ آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا
سَمَّاهُمُ ٱللهُ أَنْصَاراً لِنَصْرِهِمُ ... دِينَ ٱلْهُدَىٰ وَعَوَانُ ٱلْحَرْبِ تَسْتَعِرُ
هُمْ بَايَعُوكَ وَأَهْلُ ٱلأَرْضِ كُلُّهُمُ ... فِي حَالَةِ ٱلشِّرْكِ لاَ سَمْعٌ وَلاَ بَصَرُ

---

(١) البخاري (٤٣٣١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٤٣٣٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٣) امرأة خَرْعَبةٌ : رقيقة العظم كثيرة اللحم ناعمة .

نَحْـنُ ٱلْحُمَـاةُ لِـدِيـنِ ٱللهِ نَنْصُـرُهُ ... بِـالْمَشْـرَفِيَّـةِ وَٱلأَكْبَـادُ تَنْفَطِـرُ

نُجَـالِـدُ ٱلنَّـاسَ لاَ نَخْشَـىٰ غَـوَائِلَهُـمْ ... وَلاَ نَهَـابُ ٱلْعِـدَىٰ يَـوْمـاً وَإِنْ كَثُـرُوا

وَقَـدْ رَأَيْـتَ بِبَـدْرٍ وَٱلسُّيُـوفُ لَهَـا ... وَقْـعٌ تَطِيـرُ لَـهُ مِـنْ حَـرِّهِ[1] ٱلشَّـرَرُ

وَنَحْـنُ جُنْـدُكَ يَـوْمَ ٱلشِّعْـبِ مِـنْ أُحُـدٍ ... بِـٱلْمَشْـرَفِيَّـةِ مَـا فِـي عُـودِنَـا خَـوَرُ

وَٱلنَّـاسُ أَلْـبٌ عَلَيْنَـا فِيـكَ لَيْـسَ لَنَـا ... إِلاَّ ٱلسُّيُـوفُ وَأَطْـرَافُ ٱلْقَنَـا وَزَرُ[2]

لاَ نَنْثَنِـي عَـنْ لِقَـا ٱلأَعْـدَاءِ كُلِّهِـمِ ... وَلَيْـسَ يَـزْجُـرُنَـا عَـنْ حَـرْبِهِـمْ زَجَـرُ

وَيَـوْمَ سَلْـعٍ وَقَـدْ خَـافَتْ[3] وَقَـدْ نَكَلَـتْ ... مِـنْ خَـوْفِ أَسْيَـافِنَـا لَمَّـا أَتَـتْ مُضَـرُ

وَكَـمْ مَقَـامٍ لَنَـا فِـي ٱلْحَـرْبِ تَعْلَمُـهُ ... قُمْنَـا وَأَوْجُهُنَـا فِـي ذَاكَ تَـزْدَهِـرُ

مَـا إِنْ ضَجِـرْنَـا وَلاَ رَاثَـتْ[4] كَتَـائِبُنَـا ... عَنِ ٱلْعُدَاةِ وَأَهْلُ ٱلشِّرْكِ قَدْ ضَجِرُوا

صَخْـرٌ وَعَمْـرٌو وَصَفْـوَانٌ وَعِكْـرِمَـةٌ ... وَآخَـرُونَ وَقَـوْمٌ مَـا لَهُـمْ خَطَـرُ

فَكَيْـفَ قَـدَّمْتَهُـمْ يَـا خَيْـرَ مُـؤْتَمَـنٍ ... وَقَـدْ تَبَيَّـنَ مِنَّـا فِيهِـمُ ٱلأَثَـرُ

إِلَـى ٱلْعَطَـاءِ ٱلَّـذِي قَـدَّمْتَـهُ لَهُـمُ ... وَلَـمْ يَكُـنْ لَـكَ فِـي سَـادَاتِنَـا نَظَـرُ

هٰذا ما ذكره محمد بن الحسن الكَلاَعي في « سيرته »[5] ، وحذفت بعض القصيدة اختصاراً ، وقد ذكر ابن إسحاق شيئاً من ذلك ، وتشاركا في بعض الألفاظ[6] ، وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع ذلك . . بكىٰ ، وأمر سعداً أن يجمع قومه فجمعهم ، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فكلمهم بما قدمناه ، والله أعلم .

ثم إن وفد هوازن جاؤوا مسلمين ومناشدين النبي صلى الله عليه وسلم لرضاعه فيهم ، فقال له قائلهم : يا رسول الله ؛ لو أنا مَلَحْنا للحارث بن أبي شِمْر الغساني أو النعمان بن

---

(١) في (ج) : (حده) .
(٢) الناس ألب : أي مجتمعون ، والوَزَرُ : الملجأ .
(٣) في (أ) و (ج) : (حامت) .
(٤) في هامش (ب) : (نسخة : رابت) .
(٥) انظر « الاكتفاء » (٢/ ٢٦٣) .
(٦) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٩٧) .

المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلتَ به.. رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين[1]، وأنشد زهير بن صُرَد الجشمي السعدي وهو أحد سراتهم: [من البسيط]

أُمْنُـنْ عَلَيْنَـا رَسُـولَ ٱللهِ فِـي كَـرَمٍ ... فَـإِنَّـكَ ٱلْمَـرْءُ نَـرْجُـوهُ وَنَنْتَظِـرُ

أُمْنُـنْ عَلَـىٰ بَيْضَـةٍ قَـدْ عَـاقَهَـا قَـدَرٌ ... مُشَتَّـتٌ شَمْلُهَـا فِـي دَهْـرِهَـا غِيَـرُ[2]

يَـا خَيْـرَ طِفْـلٍ وَمَـوْلُـودٍ وَمُنْتَخَـبٍ ... فِـي ٱلْعَـالَمِيـنَ إِذَا مَـا حُصِّـلَ ٱلْبَشَـرُ

إِنْ لَـمْ تُـدَارِكْهُـمُ نَعْمَـاءُ تَنْشُـرُهَـا ... يَـا أَرْجَـحَ ٱلنَّـاسِ حِلْمـاً حِيـنَ تُخْتَبَـرُ

أُمْنُـنْ عَلَـىٰ نِسْـوَةٍ قَـدْ كُنْـتَ تَـرْضَعُهَـا ... إِذْ فُـوكَ يَمْلَـؤُهُ مِـنْ مَحْضِهَـا ٱلـدُّرَرُ[3]

إِذْ أَنْـتَ طِفْـلٌ صَغِيـرٌ كُنْـتَ تَـرْضَعُهَـا ... وَإِذْ يَـزِينُـكَ مَـا تَـأْتِـي وَمَـا تَـذَرُ

لاَ تَجْعَلَنَّـا كَمَـنْ شَـالَـتْ نَعَـامَتُـهُ ... وَٱسْتَبْـقِ مِنَّـا فَـإِنَّـا مَعْشَـرٌ زُهُـرُ[4]

إِنَّـا لَنَشْكُـرُ لِلنُّعْمَـا إِذَا كُفِـرَتْ ... وَعِنْـدَنَـا بَعْـدَ هَـٰذَا ٱلْيَـوْمِ مُـدَّخَـرُ

فَـأَلْبِسِ ٱلْعَفْـوَ مَـنْ قَـدْ كُنْـتَ تُـرْضَعُـهُ ... مِـنْ أُمَّهَـاتِـكَ إِنَّ ٱلْعَفْـوَ مُشْتَهَـرُ[5]

يَا خَيْرَ مَنْ مَرِحَتْ كُمْتُ ٱلْجِيَادِ بِهِ ... عِنْـدَ ٱلْهِيَـاجِ إِذَا مَـا ٱسْتُـوقِـدَ ٱلشَّـرَرُ[6]

إِنَّـا نُـؤَمِّـلُ عَفْـواً مِنْـكَ تُلْبِسُـهُ ... هَـادِي ٱلْبَـرِيَّـةِ إِذْ تَعْفُـو وَتَنْتَصِـرُ

فَـٱغْفِـرْ عَفَـا ٱللهُ عَمَّـا أَنْـتَ رَاهِبُـهُ ... يَـوْمَ ٱلْقِيَـامَـةِ إِذْ يُهْـدَىٰ لَـكَ ٱلظَّفَـرُ

فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم هـٰذا الشعر.. قال: «مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ.. فَهُوَ لَكُمْ» وقالت قريش: ما كان لنا.. فهو لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه

---

(١) **ملحنا**: أرضعنا، **والحارث بن أبي شمر**: ملك الشام من العرب، **والنعمان بن المنذر**: ملك العراق من العرب، **والعائدة**: الفضل.

(٢) **البيضة**: الأهل والعشيرة.

(٣) **المحض**: اللبن الخالص.

(٤) **شالت نعامته**: هلكت، **والنعامة**: باطن القدم، **وشالت**: ارتفعت، ومن هلك ارتفعت رجلاه وسكن رأسه فظهرت نعامة قدمه.

(٥) **مشتهر**: ظاهر.

(٦) **مرحت**: نشطت وخفت. **والهياج**: القتال.

وسلم ، وقالت الأنصار : ما كان لنا . . فهو لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم[1] .

وروينا ذلك من عوالي شيخنا الإمام الحافظ تقي الدين محمد ابن فهد القرشي الهاشمي العلوي ـ كان الله له ـ قراءةً مني عليه لجميعها بالمسجد الحرام سنة خمس وثلاثين وثمان مئة ، فروىٰ ذلك بسنده إلى الحافظ أبي القاسم الطبراني قال : ثنا عبد الله بن رُمَاحِس القيسي بزيادة رملة سنة أربع وسبعين ومئتين قال : ثنا أبو عمرو زياد بن طارق وكان قد أتت عليه عشرون ومئة سنة قال : سمعت أبا جرول زهير بن صُرَد الجشمي . . . فذكر الشعر وما بعده ، وذكر ما قبله ابن إسحاق ولم يذكر الشعر في رواية ابن هشام عنه ، وذكره في رواية إبراهيم بن سعد عنه ، وفيه زيادة ونقص ، وقد اخترنا من ذلك البيت الثالث بدلاً عن بيت أخرجناه من رواية شيخنا[2] .

وروينا في « الصحيحين » عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين ، فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال لهم : « إِنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ ، وَأَحَبُّ ٱلْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ ، فَٱخْتَارُوا إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ : إِمَّا ٱلْمَالَ وَإِمَّا ٱلسَّبْيَ ، وَقَدْ كُنْتُ ٱسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ » وفي رواية : وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظرهم بضع عشرة ليلةً حين قفل من الطائف .

فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين . . قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين ، فأثنىٰ على الله بما هو أهله ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ جَاؤُونَا تَائِبِينَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ . . فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ حَظِّهِ حَتَّىٰ نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ ٱللهُ عَلَيْنَا . . فَلْيَفْعَلْ » فقال الناس : طَيَّبْنَا ذلك يا رسول الله ، فقال لهم في ذلك : « إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ ، فَٱرْجِعُوا حَتَّىٰ يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ » فرجع الناس ، فكلَّمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلىٰ رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه النسائي في « المجتبىٰ » (٦/ ٢٦٢) ، والبيهقي (٦/ ٣٣٦) ، والطبراني في « الكبير » (٥/ ٢٧٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) انظر « لسان الميزان » (٥/ ٣٢٤) وفيه : (حدثنا عُبيد الله بن رُمَاحِس بِرَمَادة الرملة سنة ٢٧٤ . . .) وهو الصواب .

عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طَيَّبُوا وأذنوا)[1] فهٰذا الذي بلغنا من شأن سبي هوازن .

وروي : أنه كان في السبي الشيماء بنت الحارث ، وهي بنت حليمة ، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم فتعرفت له بالأخوة ، فلما عَرَفها . . بسط لها رداءه ووهبها عبداً وجاريةً ، فزوجت العبد الجارية ، فلم يزل فيهم من نسلها بقية[2] .

وقال أبو الطفيل ـ **وهو آخر الصحابة موتاً** ـ رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام ؛ إذ أقبلت امرأة حتىٰ دنت منه ، فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلتُ : من هٰذه ؟ قالوا : أمه التي أرضعته[3] .

ولما انصرف وفد هوازن . . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أَخْبِرُوا مَالِكَ بْنَ عَوْفٍ أَنَّهُ إِنْ أَتَانِي مُسْلِماً . . رَدَدْتُ إِلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِئَةً مِنَ ٱلإِبِلِ » فلما أخبروه . . خرج من الطائف مستخفياً ، ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فأدركه بالجعرانة أو بمكة ، فأعطاه ما كان وعده به ، وأسلم وحسن إسلامه ، وقال حين أسلم : [من الكامل]

مَـا إِنْ رَأَيْـتُ وَلاَ سَمِعْـتُ بِمِثْلِـهِ ... فِـي ٱلنَّـاسِ كُلِّهِـمِ بِمِثْـلِ مُحَمَّـدِ
أَوْفَـىٰ وَأَعْطَـىٰ لِلْجَـزِيـلِ إِذَا ٱجْتُـدِي ... وَمَتَـىٰ تَشَـأْ يُخْبِـرْكَ عَمَّـا فِـي غَـدِ[4]
وَإِذَا ٱلْكَتِيبَـةُ عَـرَّدَتْ أَنْيَـابُهَـا ... بِـالسَّمْهَـرِيِّ وَضَـرْبِ كُـلِّ مُهَنَّـدِ[5]
فَكَـأَنَّـهُ لَيْـثٌ عَلَـىٰ أَشْبَـالِـهِ ... وَسْـطَ ٱلْهَبَـاءَةِ خَـادِرٌ فِـي مَـرْصَـدِ[6]

فاستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ قومه ، فحارب بهم ثقيفاً حتىٰ ضيق عليهم ، ففي ذلك يقول أبو محجن الثقفي : [من المديد]

هَـابَـتِ ٱلأَعْـدَاءُ جَـانِبَنَـا ... ثُـمَّ تَغْـزُونَـا بَنُـو سَلِمَـةْ[7]

---

(١) البخاري (٢٣٠٨) ، **استأنيت** : انتظرت .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٥٨) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٥١٤٤) .
(٤) **اجتُدي** : طُلِبَتْ منه عطية .
(٥) **عَرَّدتْ** : قدَّت وقطعت .
(٦) **الهباءة** : غبار الحرب ، **خادر** : متخذٌ الهباءة خدراً .
(٧) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٩١) .

ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الجعرانة معتمراً ، فلما فرغ من عمرته . . انصرف راجعاً إلى المدينة ، وانقطعت الهجرة ، واستعمل علىٰ أهل مكة عتَّاب بن أُسيد ، وخلف معه معاذ بن جبل ، يفقِّه الناس ويعلمهم أمر دينهم ، فحج عتَّاب ذلك العام بالناس ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في آخر ذي القعدة أو في ذي الحجة ، وبقي أهل الطائف علىٰ شركهم إلىٰ رمضان من سنة تسع[1] ، وأوفدوا قوماً منهم بإسلامهم علىٰ ما سيأتي في تواريخ السنة التاسعة إن شاء الله تعالىٰ .

ومما اتصل بالفتح من البعوث : بعث خالد بن الوليد إلىٰ بني جذيمة من كنانة ، وذلك ما رويناه في « صحيح البخاري » عن عبد الله بن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلىٰ بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتل ويأسِر ، ودفع إلىٰ كل رجل منا أسيره ، حتىٰ إذا كان يوم . . أمر خالدٌ أن يقتل كل رجل منَّا أسيره ، فقلت : والله ؛ لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره ، حتىٰ قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكرناه ، فرفع يديه فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ » مرتين[2] .

قال أهل السير : ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لتلافي[3] خطأ خالد ، وبعث معه بمال ، فودىٰ لهم الدماء والأموال حتىٰ ميلغة الكلب[4] ثم بقيت من المال بقية فقال : أعطيكم هـٰذه احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون .

فلما رجع علي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر . . قال له : « أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ » .

وإنما أنكر النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ خالد حيث لم يتثبت في أمرهم ، ثم عذره في إسقاط القصاص ؛ لأن هـٰذا ليس بصريح في قبولهم الدين ، وقد سأل عمر أبا بكر في خلافته

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٠٠ـ ٥٠١) .
(٢) البخاري (٤٣٣٩) ، **صَبَأْنَا** : خرجنا من دين إلىٰ دين .
(٣) **التلافي** : التدارك .
(٤) **الميلغة** : ما يُحفر من خشب ، ويجعل ليلغ فيه الكلب إذا شرب ، ويكون عند أصحاب الغنم وأهل البادية .

قتل خالد بن الوليد حين قتل مالك بن نُويرة فقال : لا أفعل ؛ لأنه متأول ، ثم سأله عزله فقال : لا أغمِد سيفاً سلَّه الله تعالىٰ على المشركين ، ولا أعزل والياً ولاَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما ذكر هنا أيضاً : بعث خالد بن الوليد لهدم العُزَّىٰ ، وكانت بنخلةَ ، وكان سدنتَها وحجابها بنو شيبان من بني سليم ، فهدمها خالد ثم رجع إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

وبعث صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلىٰ سُوَاعٍ صنم هذيل فهدمه .

روينا في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح عليه السلام في العرب بعدُ ، أما (وَدٌّ) . . فكانت لكلب بدومة الجَنْدَل ، وأمَّا (سُوَاعٌ) . . فكانت لهذيل ، وأما (يَغُوثُ) . . فكانت لمرادٍ ، ثم لبني غطيف بالجَوْفِ عند سبأ ، وأما (يَعُوقُ) . . فكانت لهمدانَ ، وأما (نسرٌ) . . فكانت لحميرَ لآل ذي الكَلاَع[2] .

وكانت للعرب أصنام أخر ، فاللات لثقيف ، ومناة لقُدَيْد ، وإسافٌ ونائلةٌ وهبلُ لأهل مكة ، وذو الخَلصَة لخثعم ودَوْس ، فهدمها صلى الله عليه وسلم جميعها .

ومما ذكر أيضاً : إسلام عباس بن مرداس ، ذكره ابن هشام عقيب فراغه من قصة الفتح ، وكان من خبره : أنه كان لأبيه مرداس صَنَمٌ يعبده يقال له : ضِمارٌ ، فأوصاه به عند موته وقال له : اعبد ضِماراً ؛ فإنه ينفعك ويضرك ، فبينا عباس يوماً عنده إذ سمع منادياً من جوفه يقول : [من الكامل]

قُـلْ لِلْقَبَـائِـلِ مِـنْ سُلَيْـمٍ كُلِّهَـا ... أَوْدَىٰ ضِمَـارُ وَعَـاشَ أَهْـلُ ٱلْمَسْجِـدِ

إِنَّ ٱلَّـذِي وَرِثَ ٱلنُّبُـوَّةَ وَٱلْهُـدَىٰ ... بَعْـدَ ٱبْـنِ مَـرْيَـمَ مِـنْ قُـرَيْـشٍ مُهْتَـدِي

أَوْدَىٰ ضِمَـارُ وَكَـانَ يُعْبَـدُ مَـرَّةً ... قَبْـلَ ٱلْكِتَـابِ إِلَـى ٱلنَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٣٦ـ٤٣٧) .

(٢) البخاري (٤٩٢٠) .

فحرَّقه عباس ولحق بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم[١] .

ومما ذكر هنا أيضاً : قصة كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني ، وكان ممن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤذيه ، وكان أخوه بُجَيرٌ قد أسلم ، ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف . . كتب بُجَيرٌ إلىٰ كعب يخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة . . فَطِرْ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، وكان كعب قد كتب إلىٰ بجيرٍ أبياته التي يقول فيها : [من الطويل]

شَـرِبْـتَ مَـعَ ٱلْمَـأْمُـونِ كَـأْسـاً رَوِيَّـةً ... فَـأَنْهَلَـكَ ٱلْمَـأْمُـونُ مِنْهَـا وَعَلَّكَـا

وَخَـالَفْـتَ أَسْبَـابَ ٱلْهُـدَىٰ وَٱتَّبَعْتَـهُ ... عَلَـىٰ أَيِّ شَـيْءٍ وَيْـبَ غَيْـرِكَ دَلَّكَـا

عَلَـىٰ خُلُـقٍ لَـمْ تُلْـفِ أُمّـاً وَلاَ أَبـاً ... عَلَيْـهِ وَلَـمْ تُـدْرِكْ عَلَيْـهِ أَخـاً لَكَـا

فلما جاءت بجيراً . . أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع قوله : (المأمون) . . قال : « صَدَقَ وَإِنَّهُ لَكَذُوبٌ ، أَنَا ٱلْمَأْمُونُ » وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأمين والمأمون ، وصدقه أيضاً في البيت الآخر فقال : « أَجَلْ ، لَمْ تُلْفِ عَلَيْهِ أَبَاهُ وَلاَ أُمَّهُ » .

ثم إن بجيراً كتب إلىٰ كعب أبياتاً يخوفه فيها ، فلما بلغته . . ضاقت به الأرض ، وأشفق علىٰ نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره ، فسار حتىٰ قدم المدينة فنزل علىٰ صديق له من جهينة ، فذهب به إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوافاه في صلاة الصبح ، فلما انقضت الصلاة . . قال له الجهني : هـٰذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام كعب فجلس بين يديه ووضع يده في يده وقال : يا رسول الله ؛ إن كعب بن زهير قد جاء مسلماً تائباً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَعَمْ » قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ؛ دعني أضربْ عنقه ،

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٢٧) .

فقال : « دعْهُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً نَازِعاً » ، ثم أنشد : [من البسيط]

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي ٱلْيَوْمَ مَتبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلاَّ أَغَنُّ غَضِيضُ ٱلطَّرْفِ مَكْحُولُ (١)

هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً ... لاَ يُشْتَكَىٰ قِصَرٌ مِنْهَا وَلاَ طُولُ

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إِذَا ٱبْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِٱلرَّاحِ مَعْلُولُ (٢)

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَىٰ وَهْوَ مَشْمُولُ (٣)

تَنْفِي ٱلرِّيَاحُ ٱلْقَذَا عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ ... مِنْ صَوْبِ غَادِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ (٤)

سُقْيَاً لَهَا (٥) خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ ... مَوْعُودَهَا أَوْ لَوَ ٱنَّ ٱلنُّصْحَ مَقْبُولُ

لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا ... فَجْعٌ وَوَلْعٌ وَإِخْلاَفٌ وَتَبْدِيلُ (٦)

فَمَا تَدُومُ عَلَىٰ حَالٍ تَكُونُ بِهَا ... كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوَابِهَا ٱلْغُولُ (٧)

وَلاَ تَمَسَّكُ بِٱلْعَهْدِ ٱلَّذِي زَعَمَتْ ... إِلاَّ كَمَا تُمْسِكُ ٱلْمَاءَ ٱلْغَرَابِيلُ

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ... وَمَا مَوَاعِيدُهُ إِلاَّ ٱلأَبَاطِيلُ

أَرْجُو وَآمُلُ أَنْ يَعْجَلْنَ فِي أَمَدٍ ... وَمَا لَهُنَّ إِخَالُ الدَّهْرَ تَعْجِيلُ

فَلاَ يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ ... إِنَّ ٱلأَمَانِيَّ وَٱلأَحْلاَمَ تَضْلِيلُ

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لاَ يُبَلِّغُهَا ... إِلاَّ ٱلْعِتَاقُ ٱلنَّجِيبَاتُ ٱلْمَرَاسِيلُ (٨)

---

(١) **غداة البين** : غداة يوم الفراق ، **أَغَنُّ** : ولد البقرة الوحشية ، **غضيض الطرف** : فاتر النظر .

(٢) **العوارض** : ما يبدو من الفم عند الضحك ، **الظَّلْمُ** : بريق الأسنان ، **مُنْهَلٌ بالراح** : مشرب بالخمرة ، **المعلول** : الذي سقي مرتين .

(٣) **شُجَّتْ** : مُزِجَتْ ، **الشَّبَمُ** : البَرْدُ ، **المَحْنِيَةُ** : منعطف الوادي ، **الأبطح** : المسيل الواسع فيه رمل ودقاق الحصىٰ ، **المشمول** : المبرد بريح الشمال .

(٤) **أفرطه** : مَلأَهُ ، **البيضُ اليعاليلُ** : الجبال الشديدة البياض ينحدر عليها ماءُ المطر .

(٥) في (ب) : (أكرم بها) ، وفي (و) : (ويل أمها) .

(٦) **سيط من دمها** : خلط في دمها ، **الفَجْعُ** : ما يُفجع من المصائب والنوازل ، **الوَلْعُ** : الكذب .

(٧) **الغُولُ** : ساحرة الجن .

(٨) **العِتاق** : الخيل الكريمة ، **النجيبات** : الكريمات ، **المراسيل** : النُّوق الخفاف .

وَلَــنْ يُبَلِّغَهَــا إِلاَّ عُــذَافِــرَةٌ فِيهَــا عَلَــى ٱلأَيْـنِ إِرْقَـالٌ وَتَبْغِيـلُ(1)

مِنْ كُلِّ نَضَّاخَةِ ٱلذِّفْرَىٰ إِذَا عَرِقَتْ عُـرْضَتُهَـا طَـامِسُ ٱلأَعْـلاَمِ مَجْهُـولُ(2)

تَـرْمِـي ٱلنِّجَـادَ بِعَيْنَـيْ مُفْـرَدٍ لَهَـقٍ إِذَا تَـوَقَّـدَتِ ٱلْحُـزَّانُ وَٱلْمِيـلُ(3)

ضَخْـمٌ مُقلَّـدُهَـا فَعْـمٌ مُقَيَّـدُهَـا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ ٱلْفَحْلِ تَفْضِيلُ(4)

غَلْبَـاءُ وَجْنَـاءُ عُلْكُـومٌ مُـذَكَّـرَةٌ فِـي دَفِّهَـا سَعَـةٌ قُـدَّامَهَـا مِيـلُ(5)

وَجِلْـدُهَـا مِـنْ أَطُـومٍ لاَ يُـؤَيِّسُـهُ طِلْـحٌ بِضَـاحِيَـةِ ٱلْمَتْنَيْـنِ مَهْـزُولُ(6)

حَـرْفٌ أَخُـوهَـا أَبُـوهَـا مِـنْ مُهَجَّنَـةٍ وَعَمُّهَـا خَـالُهَـا قَـوْدَاءُ شِمْلِيـلُ(7)

يَمْشِـي ٱلْقُـرَادُ عَلَيْهَـا ثُـمَّ يُـزْلِقُـهُ مِنْهَــا لَبَــانٌ وَأَقْـرَابٌ زَهَـالِيـلُ(8)

عَيْرَانَةٌ قُذِفَتْ بِٱلنَّحْضِ عَنْ عُرُضٍ مِـرْفَقُهَـا عَـنْ بَنَـاتِ ٱلـزَّوْرِ مَفْتُـولُ(9)

قَنْـوَاءُ فِـي حُـرَّتَيْهَـا لِلْبَصِيـرِ بِهَـا عِتْـقٌ مُبِيـنٌ وَفِـي ٱلْخَـدَّيْـنِ تَسْهِيـلُ(10)

---

(١) **العذافرة** : النوق الشديدة ، **الأَيْنُ** : النصب والإعياء ، **الإِرقالُ** : الإسراع ، **التبغيل** : من ضروب مشي الإبل .

(٢) **النضاخة** : الغزيرة ، **الذِّفْرىٰ** : العظم الشاخص خلف الأذن ، **العُرْضة** : الهمة ، **طامس الأعلام** : الطريق المتغير الذي لا يهتدىٰ فيه .

(٣) **النِّجاد** : ما أَشرف من الأَرض ، **اللهق** : ذو البياض الشديد ، **الحُزَّان** : الأرض الغليظة ، **المِيلُ** : مَدُّ البصر .

(٤) **الفعْمُ** : المُمْتَلِىءُ .

(٥) **غَلْبَاءُ** : غليظة العنق ، **وَجْنَاءُ** : عظيمة الوجنتين ، **العُلكوم** : الشديدة ، **في دفها سعة** : هي واسعة الجنبين .

(٦) **الأَطُومُ** : السلحفاة البحرية غليظة الجلد ، **يُؤَيِّسُهُ** : يُذلِّله أو يؤثر فيه ، **الطِّلْحُ** : القُرَاد ؛ دُوَيبةٌ يلزق بالدواب ، **الضاحية** : الناحية .

(٧) **الحرف** في الأصل : القطعة الخارجة من الجبل ، شبه الناقة بها في القوة ، **المهجنة** : الإبل النجيبة ، **القوداء** : الطويلة العنق ، **الشِّمليل** : السريعة الخفيفة .

(٨) **يُزلقه** : يسقطه ، **اللَّبان** : الصدر ، **الأَقراب** : الخواصر ، **زهاليل** : جمع زهلول وهو الأَملس .

(٩) **عيرانة** : صلبة ، **عن عُرُض** : عن كل ناحية ، **بنات الزور** : عضلتا العضدين اللتان تحاذان الزور ، **والزور** : عظام الصدر ، **المفتول** : المتباعد .

(١٠) **القنواء** : المرتفعة الأنف ، وهو عيب في الفرس ، **الحُرَّتان** : الأُذنان ، **العِتق** : الكرم ، **التسهيل** : السهولة واللين .

كَـأَنَّمَـا فَـاتَ عَيْنَيْهَـا وَمَـذْبَحَهَـا مِـنْ خَطْمِهَـا وَمِـنَ ٱللَّحْيَيْـنِ بِـرْطِيلُ[1]

تُمِـرُّ مِثْـلَ عَسِيـبِ ٱلنَّخْـلِ ذَا خُصَـلٍ فِـي غَـارِزٍ لَـمْ تَخَـوَّنْـهُ ٱلأَحَـالِيلُ[2]

تَهْـوِي عَلَـىٰ يَسَـرَاتٍ وَهْـيَ لاَهِيَـةٌ ذَوَابِـلٍ وَقْعُهُـنَّ ٱلأَرْضَ تَحْلِيـلُ[3]

سُمْرُ ٱلْعُجَايَاتِ يَتْرُكْنَ ٱلْحَصَىٰ زِيَماً لَـمْ يَقِهِـنَّ رُؤُوسَ ٱلأُكْـمِ تَنْعِيـلُ[4]

يَـوْمـاً يَظَـلُّ بِـهِ ٱلْحِـرْبَـاءُ مُـرْتَبِيـاً كَـأَنَّ ضَـاحِيَـهُ بِـٱلنَّـارِ مَمْلُـولُ[5]

وَقَـالَ لِلْقَـوْمِ حَـادِيهِـمْ وَقَـدْ جَعَلَـتْ وُرْقُ ٱلْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ ٱلْحَصَىٰ قِيلُوا[6]

كَـأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَـا وَقَـدْ عَـرِقَـتْ وَقَـدْ تَلَفَّـعَ بِـٱلْقُـورِ ٱلْعَسَـاقِيـلُ[7]

أَوْبُ يَـدَيْ فَـاقِـدٍ شَمْطَـاءَ مُعْـوِلَـةٍ قَـامَـتْ فَجَـاوَبَهَـا نُكْـدٌ مَثَـاكِيـلُ[8]

نَـوَّاحَـةٌ رِخْـوَةُ ٱلضَّبْعَيْـنِ لَيْـسَ لَهَـا لَمَّـا نَعَـىٰ بِكْـرَهَـا ٱلنَّـاعُـونَ مَعْقُـولُ[9]

تَفْـرِي ٱللَّبَـانَ بِكَفَّيْهَـا وَمِـدْرَعُهَـا مُشَقَّـقٌ عَـنْ تَـرَاقِيهَـا رَعَـابِيـلُ[10]

تَمْشِـي ٱلْغُـوَاةُ بِجَنْبَيْهَـا وَقَـوْلُهُـمُ إِنَّـكَ يَـا بْـنَ أَبِـي سُلْمَـىٰ لَمَقْتُـولُ[11]

وَقَـالَ كُـلُّ صَـدِيـقٍ كُنْـتُ آمُلُـهُ لاَ أُلْهِيَنَّـكَ إِنِّـي عَنْـكَ مَشْغُـولُ

---

(١) **الخَطْمُ** : الأَنف ، **اللحيان** : العظمان اللذان تنبت عليهما لحية الإنسان ، **البرطيل** : حجر طويل .

(٢) **عَسيبُ النخل** : جريدة النخل المستقيمة الدقيقة ، **ذا خُصَل** : أراد ذيلاً له لفائف من الشعر ، **الغارز** : ضرع الناقة إذا قلَّ لبنه ، **لم تَخوَّنه** : لم تنقصه ، **الأحاليل** : مخارج اللبن .

(٣) **اليسراتُ** : القوائم الخفاف ، **اللاهية** : غير المبالية ، **ذوابل** : الرماح الصلبة ، شبه قوائمها بالرماح ، **التحليل** : الحقيقة .

(٤) **العُجايات** : الأَعصاب المتصلة بالحافر ، **الزيمُ** : المتفرق ، **الأُكْمُ** : الأراضي المرتفعة .

(٥) **مُرتبياً** : مرتفعاً ، **الضَّاحِي** : ما برز منه للشمس ، **المملول** : الموضوع في الملَّة ، وهي الرماد الحار .

(٦) **الوُرْقُ** : الإبل التي يضرب لونها إلى السواد ، **الجنادب** : الجراد .

(٧) **الأَوب** : رجع القوائم في السير ، **القور** : الجبال الصغار ، **العساقيل** : جمع العسقل ، وهو السَّراب .

(٨) **الفاقد** : التي فقدت ولدها ، **الشمطاء** : التي خالطها الشيب ، **المعولة** : الرافعة صوتها بالبكاء ، **النُّكُدُ** : قليلات الأولاد ، **المثاكيل** : اللاتي فقدن أولادهن .

(٩) **رِخوَةُ الضَّبعين** : مسترخية العضدين ، **الناعون** : المخبرون بالموت .

(١٠) **تفري** : تقطع أو تشق ، **المدرع** : القميص أو ثوب المرأة في البيت ، **التراقي** : العظمان اللذان بين ثغرة النحر والعاتق ، **الرعابيل** : المتمزقة .

(١١) **الغُواة** : المفسدون .

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لاَ أَبَا لَكُمُ … فَكُلُّ مَا قَدَّرَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَفْعُولُ

كُلُّ ٱبْنِ أُنْثَىٰ وَإِنْ طَالَتْ سَلاَمَتُهُ … يَوْماً عَلَىٰ آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ (١)

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَوْعَدَنِي … وَٱلْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ مَأْمُولُ (٢)

مَهْلاً هَدَاكَ ٱلَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ ٱلْـ … ـقُرْآنِ فِيهِ مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلُ

لاَ تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ ٱلْوُشَاةِ وَلَمْ … أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِيَّ ٱلأَقَاوِيلُ (٣)

لَقَدْ أَقُومُ مَقَاماً لَوْ يَقُومُ بِهِ … أَرَىٰ وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ ٱلْفِيلُ

لَظَلَّ يُرْعِدُ مِنْ وَجْدٍ بَوَادِرُهُ … إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ تَنْوِيلُ

حَتَّىٰ وَضَعْتُ يَمِينِي لاَ أُنَازِعُهَا … فِي كَفِّ ذِي نَقِمَاتٍ قَوْلُهُ ٱلْقِيلُ

فَلَهْوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إِذْ أُكَلِّمُهُ … وَقِيلَ : إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْؤُولُ

مِنْ ضَيْغَمٍ بِضِرَاءِ ٱلأَرْضِ مُخْدَرُهُ … فِي بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دُونَهُ غِيلُ (٤)

يَغْدُو فَيُلْحِمُ ضِرْغَامَيْنِ عَيْشُهُمَا … لَحْمٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَعْفُورٌ خَرَادِيلُ (٥)

إِذَا يُسَاوِرُ قِرْناً لاَ يَحِلُّ لَهُ … أَنْ يَتْرُكَ ٱلْقِرْنَ إِلاَّ وَهْوَ مَفْلُولُ (٦)

مِنْهُ تَظَلُّ حَمِيرُ ٱلْوَحْشِ نَافِرَةً … وَلاَ تَمَشَّىٰ بِوَادِيهِ ٱلأَرَاجِيلُ (٧)

وَلاَ يَزَالُ بِوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ … مُطَرَّحَ ٱلْبَزِّ وَٱلدِّرْسَانِ مَأْكُولُ (٨)

إِنَّ ٱلرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ … مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ ٱللهِ مَسْلُولُ

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ … بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

---

(١) **الحدباءُ** : المرفوعة علىٰ مناكب الرجال .

(٢) في (أ) و(ج) : (نُبِّئْتُ) .

(٣) **الوشاةُ** : النَّمَّامُون .

(٤) **الضَّيْغَمُ** : الأسد ، **ضِراءُ الأرض** : الأرض التي فيها شجر ، **المُخْدَرُ** : غابة الأسد ، **عَثَّرَ** : اسم مكان مشهور بكثرة السباع ، **الغِيلُ** : الشجر الكثير الملتف .

(٥) **يُلْحِمُ** : يطعم اللحم ، **المَعْفُورُ** : المُلقىٰ في التراب ، **الخَرَادِيلُ** : القطع الصغار .

(٦) **يساور** : يواثب ، **القِرْنُ** : النظير والكفء ، **المَفْلُولُ** : المكسور .

(٧) **الأَراجيلُ** : الصيادون .

(٨) **المُطرَّحُ** : المطروح ، **البَزُّ** : السلاح ، **الدِّرْسَان** : ثوبان خلقان .

زَالُـوا فَمَـا زَالَ أَنْكَـاسٌ وَلاَ كُشُـفٌ ... عِنْـدَ ٱللِّقَـاءِ وَلاَ مِيـلٌ مَعَـازِيـلُ [1]

يَمْشُونَ مَشْيَ ٱلْجِمَالِ ٱلزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ... ضَـرْبٌ إِذَا عَـرَّدَ ٱلسُّـودُ ٱلتَّنَـابِيـلُ [2]

شُـمُّ ٱلْعَـرَانِيـنِ أَبْطَـالٌ لَبُـوسُهُـمُ ... مِـنْ نَسْجِ دَاوُودَ فِـي ٱلْهَيْجَا سَرَابِيلُ [3]

بِيضٌ سَـوَابِغُ قَـدْ شُكَّـتْ لَهَـا حَلَـقٌ ... كَـأَنَّهَـا حَلَـقُ ٱلْقَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ [4]

لاَ يَفْـرَحُـونَ إِذَا نَـالَـتْ رِمَـاحُهُـمُ ... قَـوْمـاً وَلَيْسُـوا مَجَـازِيعـاً إِذَا نِيلُـوا

لاَ يَقَـعُ ٱلطَّعْـنُ إِلاَّ فِـي نُحُـورِهِـمُ ... وَمَـا لَهُـمْ عَـنْ حِيَاضِ ٱلْمَـوْتِ تَهْلِيـلُ [5]

هٰذا ما ذكره ابن هشام من هٰذه القصيدة ، وزاد علىٰ ما رواه عن ابن إسحاق سبعة أبيات ، وقد اختلفت النسخ في ضبطها ، وكثر اعتناء الفضلاء بها ؛ ما بين شارح وموشح ومعارض ، فشرفت بشرف من صُنِّفتْ فيه وأُنشِدَتْ بين يديه .

وذُكر : أنه لما أتىٰ حين إنشادها علىٰ قوله :

إِنَّ ٱلـرَّسُـولَ لَنُـورٌ يُسْتَضَـاءُ بِـهِ ... مُهَنَّـدٌ مِـنْ سُيُـوفِ ٱللهِ مَسْلُـولُ

نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أصحابه كالمعجب لهم من حسن القول وجودة الشعر ، وأنه صلى الله عليه وسلم خلع عليه بردته وقال له : « لَوْلاَ ذَكَرْتَ ٱلأَنْصَارَ بِخَيْرٍ ؛ فَإِنَّهُمْ أَهْلٌ لِذَلِكَ » فقال أبياتاً يعدِّد فيها مناقب الأنصار [6] .

وكان كعب هٰذا وأبوه وأولاده من فحول الشعراء ، ومن قوله في النبي صلى الله عليه وسلم : [من البسيط]

تُحْـدَىٰ بِـهِ ٱلنَّـاقَـةُ ٱلأَدْمَـاءُ مُعْتَجِـراً ... بِـٱلْبُـرْدِ كَـٱلْبَـدْرِ جَلَّـىٰ لَيْلَـةَ ٱلظُّلَـمِ

---

(١) **الأنكاس** : الرجال الضعاف ، **الكُشُفُ** : الذين ينهزمون في المواقف ، **المِيلُ** : الذين لا يثبتون على السرج ، **المعازيل** : الضعفاء الذين لا يمتلكون سلاحاً .

(٢) **الزُّهْرُ** : البيض ، **عرَّد** : فرَّ ، **التنابيل** : القصار .

(٣) **العَرانين** : الأنوف .

(٤) **بيض سوابغ** : دروع طويلة سابغة ، **القَفْعَاءُ** : شجرة ذات ثمار وأوراق ، **المجدول** : محكم الصنعة .

(٥) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٠٣ـ ٥١٣) و« السيرة النبوية » لابن كثير (٣/ ٧٠١ـ ٧٠٥) .

(٦) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥١٥) .

فَفِـي عِطَـافَيْـهِ أَوْ أَثْنَـاءِ بُـرْدَتِـهِ ... مَـا يَعْلَـمُ ٱللهُ مِـنْ خَيْـرٍ وَمِـنْ كَـرَمِ

ومما يستجاد من قوله أيضاً : [من البسيط]

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لأَعْجَبَنِي ... سَعْـيُ ٱلْفَتَـىٰ وَهْـوَ مَخْبُـوءٌ لَـهُ ٱلْقَـدَرُ

يَسْعَـى ٱلْفَتَـىٰ لأُمُـورٍ لَيْـسَ يُـدْرِكُهَـا ... فَـٱلنَّفْـسُ وَاحِـدَةٌ وَٱلْهَـمُّ مُنْتَشِـرُ

وَٱلْمَـرْءُ مَـا عَـاشَ مَمْـدُودٌ لَـهُ أَمَـلٌ ... لاَ تَنْتَهِـي ٱلْعَيْـنُ حَتَّـىٰ يَنْتَهِـي ٱلأَثَـرُ

ومنه أيضاً : [من السريع]

مَقَـالَـةُ ٱلسُّـوءِ إِلَـىٰ أَهْلِهَـا ... أَسْـرَعُ مِـنْ مُنْحَـدَرٍ سَـائِـلِ

وَمَـنْ دَعَـا ٱلنَّـاسَ إِلَـىٰ ذَمِّـهِ ... ذَمُّـوهُ بِـٱلْحَـقِّ وَبِـٱلْبَـاطِـلِ

ومن النوازل في سفر الفتح : قصة مُحلِّم بن جثَّامة الليثي ، وخبرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان بعث عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي في جيش ، فلما كانوا ببطن إضْم . . مَرَّ بهم عامر بن الأضبط الأشجعي ، فسلم عليهم ، فكف القوم عنه ، فحمل عليه مُحلِّم فقتله لعداوة كانت بينهما وذلك قبل الفتح ، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه . . عظم ذلك عليه ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ الآية .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين . . جاءه عيينة بن حصن يطلب القود من مُحلِّم ؛ لكونه يومئذ رئيس غطفان ، وجاءه الأقرع بن حابس يدافع عن محلِّم ؛ لكونه وإياه من خندف ، فاختصما في ذلك ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بالدية ، فقال عيينة بن حصن : والله ؛ لا أدعه حتىٰ أذيق نساءه من الحر ما أذاق نسائي ، فقام رجل يقال له : مُكَيتِل أو مُكَيثِر ، فقال : يا رسول الله ؛ ما وجدتُ لهـٰذا القتيل مثلاً في غرة الإسلام إلاَّ كغنم وردَتْ فرميت أُولاها فنفرت أُخراها ، اسنُنِ اليومَ وغَيِّر غداً ، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده وقال : « بَلْ تَأْخُذُونَ ٱلدِّيَةَ ، خَمْسِينَ فِي سَفَرِنَا هَـٰذَا ، وَخَمْسِينَ إِذَا رَجَعْنَا » فقبلوا .

فقام مُحلِّم بن جثامة فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر له ، فقال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمَّنْتَهُ بِٱللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ ؟! » ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ لاَ تَغْفِرْ لِمُحَلِّمِ بْنِ جَثَّامَةَ » ثلاثاً ، فقام وهو يتلقىٰ دمعه بفضل ردائه ، فمكث بعدها سبعاً ومات ، فدفنوه ثلاثَ مرات ، فلم تقبله الأرض ، فألقوه بين جبلين ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره . . قال : « إِنَّ ٱلأَرْضَ لَتَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، وَلَكِنَّ ٱللهَ أَرَادَ أَنْ يَعِظَكُمْ فِي حُرَمِ مَا بَيْنَكُمْ بِمَا أَرَاكُمْ مِنْهُ » رواه ابن إسحاق وأبو داوود وابن عبد البر[1] ، وتفاوتت ألفاظهم فيه .

وروىٰ كثيرٌ من المفسرين في سبب نزول هـٰذه الآية غير هـٰذا ، ولا خلافَ أن الذي لفظته الأرض محلِّم بن جثَّامة ، والله أعلم .

وفي هـٰذه السنة : ولد إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان مولده في ذي الحجة مَرْجِعَ أبيه من سفر الفتح ، وكانت قابلته سلمىٰ مولاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمه مارية بنت شَمْعُون القبطية من هدايا المُقَوْقِس ، واسترضع عند أبي سَيف القَيْن[2] وامرأته أم سيف ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذهب إليه ويزوره عنده .

وفي الصحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وُلِدَ لِيَ ٱللَّيْلَةَ وَلَدٌ فَسَمَّيْتُهُ بِٱسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ »[3] ، وإنه دخل عليه في مرضه فوجده يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان ، فقال له عبد الرحمـٰن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟! فقال : « يَا بْنَ عَوْفٍ ؛ إِنَّهَا رَحْمَةٌ » ثم أتبعها بأخرىٰ فقال : « إِنَّ ٱلْعَيْنَ تَدْمَعُ ؛ وَٱلْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَىٰ رَبُّنَا ، وَإِنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ »[4] .

وكان عمره سبعين ليلة ، وقيل : سبعة أشهر ، وقيل : ثمانية عشر شهراً[5] ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لَهُ مُرْضِعاً فِي ٱلْجَنَّةِ »[6] وكسفت الشمس يوم مات ، فقال

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٢٦ـ٦٢٨) ، أبو داوود (٤٥٠٣) ، و« الاستيعاب » (ص ٧٠٦) .
(٢) القَيْنُ : الحداد .
(٣) مسلم (٢٣١٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) البخاري (١٣٠٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٥) في (ج) : (ثمانية أشهر) .
(٦) البخاري (١٣٨٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

الناس : كسفت لموت إبراهيم ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « إِنَّ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ »[1] .

فَصْلٌ

أذكر فيه شيئاً من السرايا والبعوث مما جُهِل موضعُه من الزمان وعُلِم بأدنىٰ قرينة وقوعُه قبل الفتح ؛ حِرصاً علىٰ تمام الفائدة ، ولئلا يشذ شيء منها عن كتابنا ، والله ولي التوفيق

من ذلك : ما رويناه في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً قِبل نجدٍ ، فجاءت برجل من بني حَنيفة يقال له : ثُمامة بن أُثالٍ ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ » فقال : عندي خير يا محمدُ ، إن تقتل . . تقتل ذا دم ، وإن تُنعم . . تنعم علىٰ شاكر ، وإن كنتَ تريد المال . . فسل منه ما شئتَ ، فتركه حتىٰ كان الغد ثم قال : « مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ » قال : عندي ما قلتُ لك ؛ إن تُنعم . . تُنعم علىٰ شاكر ، فتركه حتىٰ إذا كان بعد الغد فقال له : « مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ » قال : عندي ما قلتُ لك ، قال : « أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ » فانطلق إلىٰ نَجْلٍ قريبٍ من المسجد[2] ، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يا محمدُ ؛ ما كان علىٰ وجه الأرض وجهٌ أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليّ ، والله ؛ ما كان من دينٍ أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إليّ ، والله ؛ ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة . . قال له قائل : صَبَوْتَ ؟ قال : لا ، ولكن أسلمتُ مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا والله ؛ لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حنطةٍ حتىٰ يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم[3] .

وكان ثُمامة هـٰذا من رؤساء بني حَنيفة .

---

(١) البخاري (١٠٦١) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .
(٢) **النَّجْلُ** : الماء القليل النابع .
(٣) البخاري (٤٣٧٢) .

وروي : أنه لما جاؤوا به أسيراً . . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « أَتَدْرُونَ مَنْ أَسَرْتُمْ ؟ هَـٰذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ ، أَحْسِنُوا إِسَارَهُ » وهو أول من دخل مكة مُلبياً بالتوحيد ، وفي ذلك يقول شاعر بني حَنيفة مفتخراً : [من الطويل]

وَمِنَّـا ٱلَّـذِي لَبَّـىٰ بِمَكَّـةَ مُعْلِنـاً بِرَغْمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي ٱلأَشْهُرِ ٱلْحُرُمْ[1]

ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم وارتدت بنو حنيفة[2] . . قام فيها مَقاماً حميداً ، وأطاعه منهم ثلاثة آلاف ، فانحاز بهم إلى المسلمين .

وذكر بعضهم : أن أمير هـٰذه السرية التي أسرت ثمامة : العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وذكر ابن إسحاق أيضاً أن ثمامة هـٰذا هو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « اَلْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعىً وَاحِدٍ ، وَٱلْكَافِرُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ »[3] ولا أرىٰ يستقيم شيء من ذلك ، والله أعلم .

ومن ذلك : سرية غالب بن عبد الله الليثي ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في جيش وأمره أن يشن الغارة علىٰ بني المُلَوَّح وهم بالكَدِيد ، فبيتوهم ليلاً وقتلوا من قتلوا واستاقوا نعمهم ، فلما أصبحوا . . أغاروا خلفهم ، فلما أدركوهم . . جاء وادي قُدَيد بسيل عظيم ، فحال بينهم وبينهم ، فانطلقوا علىٰ مهلهم حتىٰ قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم[4] .

ومن ذلك : غزوة عبد الله بن رواحة لقتل اليُسَيْر بن رِزام ، وكان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة في نفر من أصحابه منهم عبد الله بن أُنَيْس ، فلما قدموا عليه . . قربوا له القول ووعدوه أن يستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج معهم ، فلما كانوا بالقَرْقَرَة . . ندم ، ففطن له عبد الله بن أنيس وهو يريد السيف ، فاقتحم به وكان رديفه ثم ضربه بالسيف فقطع رجله ، وضربه اليسير في رأسه فأَمَّهُ ، ثم مالوا علىٰ أصحابه من اليهود فقتلوهم إلاَّ رجلاً فر

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٣٨ـ٦٣٩) .
(٢) في (ب) : (وارتدت العرب) ، في هامشها : (نسخة : بني حنيفة) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٣٩٣) .
(٤) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦١١) .

علىٰ رجليه ، فلما قدموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . تفل علىٰ شَجَّة عبد الله بن أنيس فلم تَقَح[1] .

ومن ذلك : غزوة عبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان الهذلي ، وكان بنخلةَ يجمع الناس لغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عبد الله بن أنيس لا يعرفه ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم تعريفه فقال : « إِنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ . . أَذْكَرَكَ ٱلشَّيْطَانَ ، وَآيَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَهُ . . وَجَدْتَ لَهُ قُشَعْرِيرَةً » فلما انتهىٰ إليه ووجد العلامة التي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال له : قد جئتك حين سمعتُ بجمعك لهٰذا الرجل ، قال : أجل ، إنا في ذلك ، قال عبد الله : فمشيت معه ساعة حتىٰ إذا أمكنني حملت عليه بالسيف فقتلته ، فلما قدمتُ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآني ، قال : « أَفْلَحَ ٱلْوَجْهُ » ثم أدخلني بيته فأعطاني عصاً ، فخرج بها عبد الله بن أنيس ثم رجع فقال : يا رسول الله ؛ لم أعطيتني هٰذه العصا ، قال : « آيَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » فصحبها عبد الله بن أنيس حتىٰ مات ، وأمر بها أن تدفن معه ، وفي ذلك يقول عبد الله بن أنيس رضي الله عنه : [من الطويل]

تَرَكْتُ ٱبْنَ ثَوْرٍ كَٱلْحُوَارِ وَحَوْلَهُ ... نَوَائِحُ تَفْرِي كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ

وَقُلْتُ لَهُ خُذْهَا بِضَرْبَةِ مَاجِدٍ ... حَنِيفٍ عَلَىٰ دِينِ ٱلنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

وَكُنْتُ إِذَا هَمَّ ٱلنَّبِيُّ بِكَافِرٍ ... سَبَقْتُ إِلَيْهِ بِٱللِّسَانِ وَبِٱلْيَدِ[2]

ومن ذلك : غزوة عُيَيْنَةَ بن حصن بني العَنْبَرِ من تميم ، فأصاب منهم ناساً وسبىٰ منهم سبياً ، ثم قدم بهم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء بعد ذلك رجالهم يطلبون مفاداتهم ، وجعلوا ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلف الحجر : يا محمد ؛ اخرج إلينا ، وهم الذين نزل فيهم قول الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ثم خرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ففادىٰ نصفهم وأعتق نصفهم .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٦١٨) ، **وأَمَّهُ** : أصاب أُم دماغه .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٦١٩ـ٦٢٠) ، **الحُوَارُ** : ولد الناقة ما دام يرضع ، **تفري** : تقطع .

قال مقاتل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي : كنت أعتقت جميعهم .

وذكر ابن إسحاق فيمن قدم بسبب السبايا : القعقاع بن معبد وقيس بن عاصم والأقرع بن حابس ، وفي ذلك قال الفرزدق : [من الطويل]

وَعِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ قَامَ ٱبْنُ حَابِسٍ ... بِخُطَّةِ سَوَّارٍ إِلَى ٱلْمَجْدِ حَازِمِ

لَهُ أَطْلَقَ ٱلأَسْرَى ٱلَّتِي فِي حِبَالِهِ ... مُغَلَّلَةً أَعْنَاقُهَا فِي ٱلشَّكَائِمِ[1]

وروى البخاري في سياق هٰذه الغزاة عن عبد الله بن الزبير أنه قال : قدم ركب من بني تميم ، فقال أبو بكر : أَمِّر القعقاعَ بن مَعبد بن زُرارة ، قال عمر : بل أَمِّر الأقرعَ بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردتَ إلاَّ خلافي ، قال عمر : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية والتي بعدها[2] .

ومن ذلك : سرية زيد بن حارثة إلىٰ مدين ، وهو ما رواه عبد الله بن الحسن المثنىٰ عن أمه فاطمة بنت الحسين رضوان الله عليهم قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث زيد بن حارثة نحو مدينَ ، فأصاب سبياً من أهل مِينا وهي السواحل وفيها جُمَّاع[3] من الناس ، فبيعوا ففرق بينهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقال : « مَا لَهُمْ » فقيل : يا رسول الله ؛ فرق بينهم ، فقال : « لاَ تَبِيعُوهُمْ إِلاَّ جَمِيعاً » يعني : الأولاد وأمهاتهم[4] .

قال أبو عبد الله البخاري : باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحُرُقات من جهينة ، ثم روىٰ بسنده عن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرَقَة ، فصبَّحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ،

---

(١) انظر : « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٢١-٦٢٢) .
(٢) البخاري (٤٣٦٧) .
(٣) **الجُمَّاعُ** : جماعات من الناس .
(٤) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٣٥) .

فلما غشيناه . . قال : لا إلـٰه إلا الله ، فكف الأنصاري عنه ، فطعنته برمحي حتىٰ قتلته ، فلما قدمنا . . بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي : « يَا أُسَامَةُ ؛ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ؟! » فقلت : كان متعوذاً ، فما زال يكررها حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1] . . . وذكر بعده غزوة الفتح .

ورواه مسلم أيضاً وزاد : (قال : قلت : يا رسول الله ؛ إنما قالها خوفاً من السلاح ، فقال : « أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَقَالَهَا خَوْفاً أَمْ لاَ ؟! » وفيها : فقال سعد يعني بن أبي وقاص : وأنا والله ؛ لا أقتل مسلماً حتىٰ يقتله ذو البُطَيْن ، يعني : أسامة)[2] .

ومعنىٰ ذلك : ما رواه ابن إسحاق عن أسامة قال : قلت : أنظرني يا رسول الله ؛ إني أعاهد الله ألاَّ أقتل رجلاً يقول : (لا إلـٰه إلا الله) أبداً ، قال : « تَقُولُ بَعْدِي يَا أُسَامَةُ ؟ » قال : قلتُ : بعدك[3] ، ولهـٰذا اعتزل أسامة رضي الله تعالىٰ عنه الحروب التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم فلم يخالط شيئاً منها .

وذكر ابن إسحاق : أن أمير هـٰذه السرية غالب بن عبد الله الكلبي ، والله أعلم ، وهـٰذا الحديث وما سبق قبله من قصة خالد بن الوليد مع بني جذيمة من أعظم الزواجر على الاجتراء علىٰ إراقة الدماء مع قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَزَالُ ٱلْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً »[4] وانظر كيف لم يعذر النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم هـٰؤلاء وقد كان فعلهم في نصر دين الإسلام وقبل تقرر الأحكام ـ وتأولوا: إنما قيلت في هـٰذه الحال خوفاً من القتل ، وهو الذي يقرب إلى الأفهام ـ فلم يعذرهم بشيء من ذلك صلى الله عليه وسلم بل قال لأسامة : « أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ » ومعناه : لو فعلت . . لم يفدك ذلك ، ولم يكن لك سبيل إلىٰ معرفة ما هنالك ، فلم يبق إلا أن يبين عنه لسانه[5] ،

---

(١) البخاري (٤٢٦٩) .
(٢) مسلم (٩٦) .
(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٦٢٣) .
(٤) أخرجه البخاري (٦٨٦٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٥) في (ح) : (ما يبين عنه . . .) .

ففي هٰذا : أن الأحكام الشرعية تناط بالمظان والظواهر لا على القطع واطلاع السرائر ، والله سبحانه أعلم .

السنة التاسعة

وتسمىٰ سنة الوفود ؛ لأن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم لما افتتح مكة . . أيقنت العرب بظهوره ، فبعثت كلُّ قبيلة جماعةً من رؤسائها بإسلامهم .

وأصح أحاديث الوفود : حديث وفد عبد القيس ووفد بني تميم ووفد بني حنيفة وأهل نجران .

أما حديث وفد عبد القيس . . فسبق في مظنته وحديث وفد بني تميم تقدم أيضاً ، مر قريباً في ذكر سرية عيينة بن حصن ، وذكر البخاري في ترجمة وفد بني تميم حديثاً واحداً ، وهو ما روي عن عمران بن حصين قال : أتىٰ نفر من بني تميم النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم فقال : « اِقْبَلُوا ٱلْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ » قالوا : يا رسول الله ؛ قد بشرتنا فأعطنا ، فرئي ذلك في وجهه ، فجاء نفر من اليمن فقال : « اِقْبَلُوا ٱلْبُشْرَىٰ إِذْ لَمْ تَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ » فقالوا : قد قبلنا يا رسول الله[1] .

وذكر أهل السير لوفد بني تميم جملة من الأخبار ، منها : أنه لما قام خطيبهم وشاعرهم . . قام ثابت بن قيس وحسان فأجاباهم ، فقال الأقرع بن حابس : إن محمداً لمؤتَّىٰ له خطب خطيبنا ، فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أحسن من شاعرنا ، ثم أسلم ، فقال له رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « مَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَـٰذَا »[2] .

وذكر في وفدهم عُطارد بن حاجب ، وهو صاحب الحلة التي جرىٰ ذكرها في الصحيح ، وكان أبوه حاجب بن زرارة وفد علىٰ كسرىٰ ، فكساه إياها ، وظهر من متفرقات الأحاديث : أن مجيء بني تميم مرات ، والله أعلم .

وأما وفد بني حنيفة . . ففي « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم

---

(١) البخاري (٤٣٦٥) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١٠٥٦) ، وانظر « تاريخ مدينة دمشق » (٩/ ١٩٠) .

مسيلمة الكذاب علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده . . تبعته ، وقدمها في بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شمَّاس وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعة من جريد ، حتىٰ وقف علىٰ مسيلمة في أصحابه فقال : « لَوْ سَأَلْتَنِي هَـٰذِهِ ٱلْقِطْعَةَ . . مَا أَعْطَيْتُكَهَا ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ ٱللهِ فِيكَ ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ . . لَيَعْقِرَنَّكَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، وَإِنِّي لأَرَاكَ ٱلَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ ، وَهَـٰذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي » ثم انصرف عنه ، قال ابن عباس : فسألت عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ أُرَى ٱلَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ » فأخبرني أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ . . رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِ ٱنْفُخْهُمَا ، فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي ، أَحَدُهُمَا ٱلْعَنْسِيُّ ، وَٱلآخَرُ مُسَيْلِمَةُ »[١] .

فأما مسيلمة . . فعظم أمره بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان داعيةَ أهلِ الردة ، فندب أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد ، فقتله وأفنىٰ قومه قتلاً وسبياً ، وقتل وهو ابن مئة وخمسين سنة ، وكان مولده قبل مولد عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم ، وسُمي رحمانَ اليمامة ، فكان ذلك من أعظم أسباب فتنته ، وكان صاحب نَيْرُجات[٢] وتمويهات واختلاق ، وتزوج أيضاً سَجَاحِ ، فاختلط الكذابان ، وأسلمت سَجَاح في خلافة عمر رضي الله عنه .

وأما العنسي واسمه الأسود ولقبه عَبْهَلَة . . فاتبعه قبائل من مَذْحِج واليمَن ، وغلب علىٰ صنعاء ، فقتله فَيرُوزُ الدَّيلمي غِيلَةً[٣] بمواطأة من زوجته ، وكانت مسلمة ، وكانت تُحدِّث أنه لا يغتسل من جنابة ، وبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتله في مرض موته .

ومسيلمة والعنسي وابن صياد أول الدجاجلة الذين أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (٤٣٧٤) .

(٢) قال الزبيدي رحمه الله تعالىٰ في « تاج العروس » (٦/ ٢٣٦) : (وعن الليث : **النِّيرَنْجُ** ، بالكسر ، هـٰكذا في سائر النسخ ، والمنقول عن نص كلام الليث : **النِّيرَجُ** ، بإسقاط النون الثانية : أُخَذٌ جمع أُخْذَةٍ : ما يحتال به في السحر ، بضم ففتح كالسِّحر ، وليس به) .

(٣) **الغيلة** : الخفية .

وسلم بقوله : « لاَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيباً مِنْ ثَلاَثِينَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ ٱللهِ »[1] .

وأما أهل نجران . . فإنما جاؤوا للمحاجة في نبوة عيسىٰ ، ونزل بسببهم قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ الآية ، ونزلت فيهم أيضاً آية المباهلة وهي قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ، ولما نزلت . . جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالحسن والحسين وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفهما وهو يقول لهم : « إِنْ أَنَا دَعَوْتُ . . فَأَمِّنُوا » وهو معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي : نتضرع في الدعاء ، والبَهْلُ : اللعن أيضاً ، فلما فعل ذلك النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم . . تلاوموا بينهم وقالوا : إن فعلتم . . اضطرم عليكم الوادي ناراً ، ثم قالوا له : أما تَعرِض علينا سوىٰ هـٰذا ، فقال : « ٱلإِسْلاَمَ أَوِ ٱلْجِزْيَةَ أَوِ ٱلْحَرْبَ » فصالحوه على الجزية في كل عام ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب .

روينا في « صحيح البخاري » عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله ؛ لئن كان نبياً فلاعننا . . لا نفلح نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلاَّ أميناً ، فقال : « لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِيناً حَقَّ أَمِينٍ » فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ ٱلْجَرَّاحِ » فلما قام . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَـٰذَا أَمِينُ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ »[2] .

ومن الوفود : وفد طيء ، ورئيسهم زيد الخيل ، وسمي بذلك لخمسة أفراس كانت له مشهورة ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير وقال : « مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ ثُمَّ جَاءَنِي . . إِلاَّ رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ ، إِلاَّ زَيْدَ ٱلْخَيْلِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ كُلَّ مَا فِيهِ » وكتب له بإقطاع

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٤٣٨٠) ، **استشرف** : رغب .

أرضين ، ولما انصرف راجعاً . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَيُّ رَجُلٍ إِنْ لَمْ تُدْرِكْهُ أُمُّ كَلْبَةَ »[1] فمات منها بالطريق .

وأما عدي بن حاتم الطائي . . فإنه لما سمع بخيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وطئت أطراف بلادهم . . ارتحل ببنيه ، فلحق بأهل دينه من النصارىٰ وترك أخته في الحي ، فجاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصبَّحتهم ، واحتملوا ابنة حاتم وجعلوها في حظيرة بباب المسجد كانت السبايا تحبس فيها ، فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ؛ هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن عليَّ منَّ الله عليك ، قال : « وَمَنْ وَافِدُكَ ؟ » قالت : عدي بن حاتم ، قال : « ٱلْفَارُّ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ ؟ » فمنَّ عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساها وأعطاها نفقةً ، فلما قدمت علىٰ أخيها . . طفقت تصخب عليه وتلومه أن تركها خلفه ، وتلومه أيضاً علىٰ تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه وذهب به إلىٰ بيته ، وأخبره بأشياء مما يستقبل من الزمان[2] .

ولم يرو البخاري في ترجمة وفد طيء غير حديث واحد ، وهو ما روي بسنده عن عدي بن حاتم قال : أتينا عمر في وفد ، فجعل يدعونا رجلاً رجلاً يسميهم ، فقلت : أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلىٰ ، أسلمت إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا ، فقال عدي : فلا أبالي إذاً[3] .

وفي رواية مسلم : إن أول صدقة بيَّضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه أصحابه . . صدقة طيء ؛ حيث جيء بها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] .

ومن شر الوفود وفادة : عامر بن الطفيل وأربد بن قيس ، وكانا قد تمالآ على الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما منعهما الله من ذلك ولم يجبهما النبي صلى الله

---

(١) أم كَلْبة : الحُمَّىٰ .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٥٧٨ـ٥٨٠) ، تَصْخَبُ : تصيح ، وفي (أ) و(ج) : (تسخب) ، وهو بمعناه .

(٣) البخاري (٤٣٩٤) .

(٤) مسلم (٢٥٢٣) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

عليه وسلم إلىٰ ما سألا . . قال عامر : لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً ، فجعل أسيد بن حضير يضرب في رؤوسهما ويقول : اخرجا أيها الهِجْرِسان[1] ، فقال له عامر : ومن أنت ؟ فقال : أنا أسيد بن حضير ، فقال : أحضير بن سماك ؟ قال : نعم ، قال : أبوك كان خيراً منك ، فقال : بل أنا خير منك ومن أبي . يعني بالإسلام ، وقد سبق شيء من ذلك وخبر منيتهما في ذكر بئر معونة ، والله أعلم[2] .

ثم قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود اليمن أرسالاً ، وفيهم قال النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « أَتَاكُمْ أَهْلُ ٱلْيَمَنِ ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوباً ، وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً ، ٱلإِيمَانُ يَمَانٍ ، وَٱلْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ »[3] .

فمنهم : فَروة بن مُسَيك المُرادي اليمني ، ولما قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم. . قال له : « هَلْ سَاءَكَ مَا أَصَابَ قَوْمَكَ يَوْمَ ٱلرَّدْمِ ؟ » وهو يوم كان لهمدان علىٰ مراد ، قال : يا رسول الله ؛ من ذا يصيب قومَه مثلُ ما أَصاب قومي يوم الردم لا يسوءه ذلك ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم له : « أَمَا إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ قَوْمَكَ فِي ٱلإِسْلاَمِ إِلاَّ خَيْراً » واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ مراد وزُبَيْد ومَذْحِج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فأقام عنده حتىٰ توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن قول فَروة بن مُسَيك في يوم الرَّدْم : [من الوافر]

فَإِنْ نَغْلِبْ فَغَلاَّبُونَ قِدْماً ... وَإِنْ نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغَلَّبِينَا

وَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ ... مَنَايَانَا وَطُعْمَةُ آخَرِينَا

كَذَاكَ ٱلدَّهْرُ دَوْلَتُهُ سِجَالٌ ... تَكُرُّ صُرُوفُهُ حِيناً فَحِينَا

ومنهم : عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وبايع ، ثم ارتد زمن الردة ، ثم أسلم وحسن إسلامه[4] .

---

(١) **الهِجْرِسُ** : ولد الثعلب أو القرد .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٥٦٧ـ٥٦٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) في المطبوع هنا زيادة ، وهي : (وأسلم بعد ذلك ، وكان له المقامات المشهورة في وقت عمر بن الخطاب ، وهلك بأرض فارس بعد أن عمّر كثيراً) .

ومنهم : صُرَد بن عبد الله الأزدي ، قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم سار علىٰ أهل جُرَش فحاصرهم قريباً من شهر ، ثم انصرف عنهم راجعاً فتبعوه ، فكرّ عليهم فقتلهم قتلاً شديداً ، وكان رجلان منهم بالمدينة ، فنعىٰ إليهما النبي صلى الله عليه وسلم قومهما في ذلك الحين ، فسألاه أن يدعو الله لهم فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱرْفَعْ عَنْهُمْ » ثم قدم وفد جُرَش بعد ذلك فأسلموا ، وحمىٰ لهم النبي صلى الله عليه وسلم حِمىً حول قريتهم ، والله أعلم(١) .

ومنهم : وفد كندة ، وهم ثمانون أو ستون راكباً عليهم الأشعث بن قيس ، فدخلوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده وقد رَجَّلُوا جُمَمَهم وتكحّلوا ولبسوا جياد الحِبَرَات مكففة بالحرير ، فقال لهم : « أَلَمْ تُسْلِمُوا ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « فَمَا بَالُ هَـٰذَا ٱلْحَرِيرِ ؟! » فنزعوه ، ثم قال الأشعث : يا رسول الله ؛ نحن بنو آكِلِ المُرار ، وأنت ابن آكل المُرار ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « نَاسِبُوا بِهَـٰذَا ٱلنَّسَبِ رَبِيعَةَ بْنَ ٱلْحَارِثِ وَٱلْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ » وكانا تاجرين ، فكانا إذا سارا في أرض العرب فسئلا ممن أنتما . . قالا : بنو آكل المُرار ؛ ليتعززا بذلك في العرب ؛ لأن بني آكل المرار من كندة كانوا ملوكاً ، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ ، نَحْنُ بَنُو ٱلنَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ ، لاَ نَقْفُوا أُمَّنَا وَلاَ نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا »(٢) .

ومنهم : وفد همدان ، فيهم مالك بن نَمط ذو المِشعار ، وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك وعليهم الحِبَرات والعمائم العدنية على المَهْرية والأرحبية وهم يرتجزون : [من الرجز]

هَمْـــدَانُ خَيْـــرُ سُـــوقَـــةٍ وَأَقْيَـــالْ ... لَيْــسَ لَهَــا فِــي ٱلْعَــالَمِيــنَ أَمْثَــالْ(٣)

مَحَلُّهَــا ٱلْهَضْــبُ وَمِنْهَــا ٱلأَبْطَــالْ ... لَهَـــا إِطَـــابَـــاتٌ بِهَـــا وَآكَـــالْ(٤)

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٨٧ـ٥٨٨) .

(٢) **لا نقفوا أمنا** : لا نتبع نسب أمنا .

(٣) **السُّوقة** : مَن دون الملوك من الناس ، **والأقيال** : الملوك دون الملك الأكبر .

(٤) **الهَضْبُ** : ما ارتفع من الأرض ، **والإطابات** : الأموال الطيبة ، **والآكال** : ما يأخذه الملك من رعيته .

ويقول آخر :

إِلَيْـكَ جَـاوَزْنَ سَـوَادَ ٱلـرِّيـفِ ... فِـي هَبَـوَاتِ ٱلصَّيْـفِ وَٱلْخَـرِيـفِ

مُخَطَّمَـاتٍ بِحِبَـالِ ٱللِّيـفِ[1]

ثم قال مالك بن نمط : يا رسول الله ؛ نَصِيَّةٌ من همدان[2] من كل حاضر وباد ، أتوك علىٰ قُلُص نَوَاج[3] ، متصلة بحبال الإسلام ، لا تأخذهم في الله لومة لائم من مِخْلاف خارفٍ وَيام وشاكر ، أهل السَّود والقَود[4] ، أجابوا دعوة الرسول ، عهدُهم لا يُنقض ما أقامت لَعْلَعُ[5] ، وما جرى اليعفور[6] بصلع ، فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، هَـٰذَا كِتَابٌ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمِخْلَافِ خَارِفٍ وَيَامٍ أَهْلِ جَنَابِ ٱلْهَضْبِ وَحِقَافِ ٱلرَّمْلِ : أَنَّ لَهُمْ فِرَاعَهَا وَوِهَاطَهَا ، يَأْكُلُونَ عِلَافَهَا وَيَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا مَا أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ ، لَهُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ ٱللهِ ، وَشَاهِدُهُمُ ٱلْمُهَاجِرُونَ وَٱلأَنْصَارُ » ، ومن قول مالك بن نمط رضي الله عنه : [من الطويل]

حَلَفْـتُ بِـرَبِّ ٱلـرَّاقِصَـاتِ إِلَـىٰ مِنـىً ... صَـوَادِرَ بِـٱلـرُّكْبَـانِ مِـنْ هَضْـبِ قَـرْدَدِ

بِـأَنَّ رَسُـولَ ٱللهِ فِينَـا مُصَـدَّقٌ ... رَسُولٌ أَتَىٰ مِنْ عِنْدِ ذِي ٱلْعَرْشِ مُهْتَدِي

فَمَـا حَمَلَـتْ مِـنْ نَـاقَـةٍ فَـوْقَ رَحْلِهَـا ... أَشَـدَّ عَلَـىٰ أَعْـدَائِـهِ مِـنْ مُحَمَّـدِ

وَأَعْطَـىٰ إِذَا مَـا طَـالِـبُ ٱلْعُـرْفِ جَـاءَهُ ... وَأَمْضَـىٰ بِحَـدِّ ٱلْمَشْـرَفِـيِّ ٱلْمُهَنَّـدِ

ووافاه أيضاً مقدمه من تبوك كتاب ملوك حمير بإسلامهم ، فكتب إليهم رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى ٱلْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ وَنُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ وَٱلنُّعْمَانِ قَيْلِ ذِي رُعَيْنٍ وَمَعَافِرَ وَهَمْدَانَ ، أَمَّا بَعْدُ : ذَلِكُمْ فَإِنِّي

---

(١) **الهبوات** : الغبار .

(٢) **النصية** : خيار القوم .

(٣) **القُلُص** : الإبل الفتية ، **ونواج** : مسرعة .

(٤) **المخْلاف** : الإقليم بلغة اليمن ، **خارف ويام وشاكر** : البطون ، **أهل السَّود والقَود** : أهل السيادة والقيادة .

(٥) **اللَّعلع** : جبل .

(٦) **اليعفور** : ولد الظبية .

أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ ٱللهَ ٱلَّذِي لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ، وَقَدْ وَقَعَ بِنَا رَسُولُكُمْ مُنْقَلَبَنَا مِنْ أَرْضِ ٱلرُّومِ ، وَأَنْبَأَنَا بِإِسْلاَمِكُمْ وَقَتْلِكُمُ ٱلْمُشْرِكِينَ » ثم كتب لهم نصب الزكاة والفريضة التي افترضها الله عليهم فيها ، وقال : « فَمَنْ زَادَ . . فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ » وكتب إلىٰ زرعة بن ذي يزن : « أَنْ إِذَا أَتَاكُمْ رُسُلِي . . فَأُوصِيكُمْ بِهِمْ خَيْراً ؛ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ زَيْدٍ ، وَمَالِكُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَعُقْبَةُ ابْنُ نَمِرٍ ، وَمَالِكُ بْنُ مُرَارَةَ ، وَأَصْحَابُهُمْ ، وَأَنِ ٱجْمَعُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ ٱلْجِزْيَةِ مِنْ مَخَالِيفِكُمْ وَأَبْلِغُوهَا رُسُلِي ، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، فَلاَ يَنْقَلِبَنَّ إِلاَّ رَاضِياً »[١] .

روينا في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْماً أَهْلَ كِتَابٍ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ . . فَٱدْعُهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ ٱللهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ . . فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ . . فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ . . فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَٱتَّقِ دَعْوَةَ ٱلْمَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱللهِ حِجَابٌ »[٢] .

وروينا فيه أيضاً عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال : (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسىٰ ومعاذ بن جبل إلى اليمن ، قال : وبعث كل واحد منهما علىٰ مخلاف ، قال : واليمنُ مخلافان ، ثم قال : « يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا » فانطلق كل واحد منهما إلىٰ عمله ، قال : وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه وكان قريباً من صاحبه . . أحدث به عهداً فسلم عليه ، فسار معاذ بن جبل في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسىٰ ، فجاء يسيرُ علىٰ بغلته حتى انتهىٰ إليه ؛ وإذا هو جالس وقد اجتمع إليه الناس ، فإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلىٰ عنقه ، فقال له معاذ : يا عبد الله بن قيس ؛ أيما هـٰذا ؟ قال : هـٰذا رجل كفر بعد إسلامه ، قال : لا أنزل حتىٰ يُقتلَ ، فأمر به فقتل ، ثم نزل فقال : يا عبد الله ؛ كيف تقرأ القرآن ؟ قال : أتفوّقه تفوقاً ، قال : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٨٩ـ٥٩٠) ، و« السيرة النبوية » لابن كثير (٤/ ١٤٥ـ١٤٦) .

(٢) البخاري (٤٣٤٧) .

الليل ، فأقوم وقد قضيتُ جزئي من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي)[1] .

وروينا فيه أيضاً عن عمرو بن ميمون : أن معاذاً لما قدم اليمن . . صلىٰ بهم الصبح فقرأ : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرَّتْ عين أم إبراهيم[2] .

ومنهم : بنو نهد ، قالوا : يا رسول الله ؛ جئناك من غَوْرَىٰ تهامة بأكوار المِيس تَرتمي بنا العيس ، وشكوا عليه جدب بلادهم فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لِبَنِي نَهْدٍ فِي مَحْضِهَا وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا ، وَٱبْعَثْ رَاعِيَهَا فِي ٱلدَّثْرِ ، وَٱفْجُرْ لَهُمُ ٱلثَّمَدَ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي ٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ ٱلصَّلاَةَ . . كَانَ مُسْلِماً ، وَمَنْ آتَى ٱلزَّكَاةَ . . كَانَ مُحْسِناً ، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ . . كَانَ مُخْلِصاً ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ ٱلشِّرْكِ وَوَضَائِعُ ٱلْمِلْكِ ، لاَ تُلْطِطْ فِي ٱلزَّكَاةِ ، وَلاَ تُلْحِدْ فِي ٱلْحَيَاةِ ، وَلاَ تَتَثَاقَلْ عَنِ ٱلصَّلاَةِ »[3] .

ولأهل اليمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار طويلة فيما قالوا وقيل لهم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب كل وفد بلغتهم ، ويجاوبهم علىٰ مقتضىٰ فصاحتهم .

وممن وافاه مقدمه من تبوك : وفد ثقيف ، وكان من حديثهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عنهم . . تبعه عروة بن مسعود ، فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم وأخذ راجعاً إلىٰ قومه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ » فقال : يا رسول الله ؛ أنا أحب إليهم من أبصارهم ، وكان محبباً إليهم مطاعاً فيهم ، فلما جاءهم . . دعاهم إلى الله تعالىٰ ، فرموه بالنبل من كل ناحية ، فأصابه سهم فقتله ، فقال لهم : ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل

---

(١) البخاري (٤٣٤٢) .

(٢) البخاري (٤٣٤٨) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٩٧٢) ، وانظر « الشفا » (١١٧) ، **والأكوار** : جمع كور ، وهو مقدم الرحل ، **المِيس** : المتحركات من السير ، **العِيس** : من الإبل ما خالط بياضها شقرة ، **محضها** : خالص لبنها ، **مخضها** : ما تمخض من اللبن ، **مذقها** : الممزوج بالماء ، **الدَّثْرُ** : المال الكثير ، **الثَّمَدُ** : الماء القليل ، **لا تُلْطِطْ** : لا تمنع .

عنكم ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره . . قال : « إِنَّ مَثَلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ يَس » ، ثم أقامت ثقيف بعد قتله أشهراً ، وسقط في أيديهم ، ورأوا أن لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، فأوفدوا جماعةً منهم بإسلامهم ، ولما نزلوا قناةً . . ألفوا بها المغيرة بن شعبة يرعى الإبل وكان يوم نوبته ، فلما رآهم . . ترك الركاب وانصرف مسرعاً مبشراً ، فلقيه أبو بكر رضي الله عنهما فأخبره ، فقال له أبو بكر : أقسمت عليك بالله لا تسبقني بخبرهم ، ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقدومهم ، ثم خرج المغيرة فتلقاهم وعلمهم التحية فلم يفعلوا إلاَّ بتحية الجاهلية ، ثم ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبةً في المسجد ، فكان فيما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع لهم اللات ثلاث سنين فأبىٰ عليهم ، ثم سألوه شهراً فأبىٰ عليهم ، ثم سألوه أن يعفيهم من الصلاة وألاَّ يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال لهم : « أَمَّا كَسْرُ ٱلأَوْثَانِ . . فَسَنَعْفِيكُمْ مِنْهُ ، وَأَمَّا ٱلصَّلاَةُ . . فَلاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لاَ صَلاَةَ فِيهِ » فقالوا : فسنؤتيكها وإن كانت دناءةً ، ثم أسلموا وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابهم ، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سناً ، وإنما أمره عليهم ؛ لأنه رآه أكثرهم سؤالاً عن معالم الدين ، وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمان اللات .

وكان قدومهم على النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان مرجعه من تبوك ، رُوِيَ عن بعض وفدهم قال : كان بلال يأتينا بعد أن أسلمنا بسَحورنا ، وإنا لنقول : إن الفجر قد طلع ، فيقول : قد تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسحر ، ويأتينا بفَطورنا وإنا لنقول ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فيقول : ما جئتكم حتىٰ أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يضع يده في الجُفْنة فيلتقم منها[1] .

وكان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ عِضَاهَ وَجٍّ وَصَيْدَهُ لاَ يُعْضَدُ ، مَنْ وُجِدَ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً . . فَإِنَّهُ يُجْلَدُ وَتُنْزَعُ ثِيَابُهُ » وكتب خالد بن سعيد بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ، وشهد علىٰ ذلك علي وابناه الحسن والحسين رضي الله عنهم .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٣٧_٥٤١) .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٤٢_٥٤٣) ، **العضاه** : شجر له شوك ، **وَجٌّ** : موضع بالطائف .

وذكروا : أن المغيرة لما أراد هدم اللات . . قام أهل بيته دونه خشية أن يصيبه ما أصاب عروة بن مسعود ، ولما شرع في الهدم . . صاح وخر مغشياً عليه مستهزئاً بهم ، فارتجت المدينة فرحاً ، فقام المغيرة يضحك منهم ويقول : يا خبثاء ؛ ما قصدت إلاَّ الهزء بكم ، ثم أقبل علىٰ هدمها حتى استأصلها وأخذ مالها وحليها وفرغ من أمرها .

وممن ذكر في وفود هـٰذه السنة : وفد فَزارة بضعة عشر رجلاً ، ووفد تُجيب ثلاثة عشر رجلاً ، ووفد بني أسد ، قيل : وفيهم نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ ووفد كِلاب ، ووفد بَلِي ، ووفد الداريين من لخم وهم عشرة ، ووفد سعدِ هُذَيْمٍ .

غزوة تبوك

وهي الفردة ؛ لأنه لم يكن في عامها غيرها ، ولم يغز صلى الله عليه وسلم بعدها حتىٰ توفي ، وسماها الله تعالىٰ : ساعةَ العُسرةِ ؛ لوقوعها في شدة الجَدْب والحَرِّ وقلة الزاد والظَّهر ، وكان من خبرها : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من جهاد العرب . . أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وحث المياسير علىٰ إعانة المعاسير ، فأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه فيها ألف دينار ، وحمل علىٰ تسع مئة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً ، ولذلك قيل له : مجهز جيش العسرة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱرْضَ عَنْ عُثْمَانَ ؛ فَإِنِّي عَنْهُ رَاضٍ » وقال : « مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ » .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جدَّ به الجد فخرج وضرب معسكره علىٰ ثنية الوداع ، وأوعب معه المسلمون فكان عددهم سبعين ألفاً ، وقيل : ثلاثين ألفاً ، وتخلف عبد الله بن أبيّ ومن معه جبناً ونفاقاً ودخلاً[1] ، وفيهم نزلت (سورة براءة) وسماها ابن عباس رضي الله عنهما (الفاضحة) قال : ما زالت تنزل فيهم ومنهم حتىٰ ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم . . إلا ذكر فيها[2] ، وتخلف آخرون لا عن نفاق وريبة ، بل إخلاداً إلى الظل وكسلاً ، وهم الذين تاب الله عليهم ، وتخلف آخرون ممن عذر الله تعالىٰ في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ الآية ، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك : « إِنَّ

---

(١) الدَّخَلُ : الخيانة .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٨٢) عن سعيد بن جبير رضي الله عنه .

بِٱلْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا قَطَعْنَا وَادِياً وَلاَ شِعْباً . . إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ ؛ حَبَسَهُمُ ٱلْعُذْرُ »[١] .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم الخميس ، وكان يحب أن يخرج فيه ، وذلك لخمس خلون من رجب ، واستخلف علىٰ خاصته ومن ترك علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فعيره المنافقون بالتخلف ، فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره وقال : أتخلِّفني في الصبيان والنساء ؟! فقال : « أَلاَ تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ ، إِلاَّ أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي »[٢] ومضىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجهه ، فلما مر بالحجر ديار ثمود . . قال : « لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ؛ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ » ثم قنَّع رأسه وأسرع السير حتىٰ أجاز الوادي[٣] .

ولما انتهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ تبوك وهي أدنىٰ بلاد الروم . . أتاه يُحنَّة بن رُؤبة وأهل جَرْبا وأذرُح ، فصالحهم على الجزية ، وكتب ليُحَنَّة : « بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، هَـٰذَا أَمَنَةٌ مِنَ ٱللهِ وَمُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ رَسُولِ ٱللهِ لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ سُفُنِهِمْ وَسَيَّارَتِهِمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، لَهُمْ ذِمَّةُ ٱللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ ٱلنَّبِيِّ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّامِ وَأَهْلِ ٱلْيَمَنِ وَأَهْلِ ٱلْبَحْرِ ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثاً . . فَإِنَّهُ لاَ يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ وَلاَ طَرِيقاً يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ »[٤] .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بتبوك خالد بن الوليد إلىٰ أُكَيْدِر بن عبد الملك الكِندي صاحب دومة الجندل وقال : « إِنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ ٱلْبَقَرَ » فمضىٰ خالد حتىٰ إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة . . أقام ، وجاءت بقر الوحش حتىٰ حكت قرونها بباب القصر ، فخرج إليهم أُكَيْدِر في جماعة من خاصته ، فتلقتهم خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذوا أُكَيْدِر وقتلوا أخاه حسان ، فحقن رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه وصالحه على الجزية ، وكان نصرانياً .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .
(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٤) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦) .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها ، ثم أخذ راجعاً إلى المدينة ، ولما كان ببعض الطريق . . مات ذو البجادين المزني ليلاً ، قال ابن مسعود : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته وهو يقول لأبي بكر وعمر : « أَدْنِيَا إِلَيَّ أَخَاكُمَا » فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه . . قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ قَدْ أَمْسَيْتُ رَاضِياً عَنْهُ فَٱرْضَ عَنْهُ » قال ابن مسعود حينئذ : يا ليتني كنت صاحب الحفرة[1] .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : (أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل وهو بتبوك فقال : يا محمد ؛ اشهد جنازة معاوية بن معاوية المزني ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرعاً ، ونزل جبريل عليه السلام في سبعين ألفاً من الملائكة ، فوضع جناحه الأيمن على الجبال فتواضعت ، ووضع جناحه الأيسر على الأرض فتواضعت ، حتىٰ نظر إلىٰ مكة والمدينة ، فصلىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل والملائكة عليهم السلام ، فلما فرغ . . قال : « يَا جِبْرِيلُ ؛ بِمَ بَلَغَ مُعَاوِيَةُ هَـٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ » قال : بقراءته « قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ » قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً) رواه ابن السني والبيهقي[2] .

ولما نزل صلى الله عليه وسلم بذي أوان قريباً من المدينة . . أتاه جبريل بخبر أهل مسجد الضرار ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخشم ومَعْن بن عدي وأخاه وعامر بن السكن ووحشي بن حرب قاتل حمزة وقال لهم : « اِنْطَلِقُوا إِلَىٰ هَـٰذَا ٱلْمَسْجِدِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهُ فَٱهْدِمُوهُ وَحَرِّقُوهُ » فخرجوا سِراعاً حتىٰ أتوه وفيه أهله ، فحرقوه وهدموه ، وتفرق عنه أهله ، واتخذ موضعه كُناسةً يلقىٰ فيها الجيف .

وقدم صلى الله عليه وسلم المدينة في شهر رمضان ، ولما قدمها . . بدأ بالمسجد فصلىٰ فيه ركعتين ، وكانت تلك عادته ، ثم جلس للناس ، وجاءه المخلفون يعتذرون إليه بالباطل ويحلفون عليه ، فقبل منهم ووكل سرائرهم إلىٰ خالقهم ، وفيهم نزل قوله تعالىٰ : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ الآية وما بعدها .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٥٢٦ـ٥٢٨) .

(٢) عمل اليوم والليلة (ص٩٤) ، السنن الكبرىٰ (٤/٥١) ، وأخرجه الطبراني أيضاً في « الكبير » (٨/١١٦) .

حديث الثلاثة الذين خلفوا

وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومُرارة بن الربيع ، قال بعض الشارحين : أول أسمائهم مكة ، وآخر أسماء آبائهم عكة .

روينا في « الصحيحين » واللفظ للبخاري عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلاَّ في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها ؛ إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عِيرَ قريش ، حتىٰ جمع الله بينهم وبين عدوهم علىٰ غير ميعاد ، ولقد شهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أنَّ لي بها مشهدَ بدر وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها ، كان من خبري أني لم أكن قط أقوىٰ ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ؛ ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قطُّ حتىٰ جمعتهما في تلك الغزاة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوةً إلاَّ ورَّىٰ بغيرها[1] ، حتىٰ كانت تلك الغزوةُ غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرٍّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلَّىٰ للمسلمين[2] أمرهم ؛ ليتأهبوا أُهبةَ غزوهم[3] فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوانَ ـ قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلاَّ ظن أنه سيخفىٰ له ما لم ينزل فيه وحي الله ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال ، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادىٰ بي حتى اشتد بالناس الجِد ، فأصبح رسول الله صلى الله تعالىٰ عليه وسلم والمسلمون معه ولم أقض من جَهازي شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتىٰ أسرعوا وتفارط الغزوُ ، وهممت أن

---

(١) **وَرَّىٰ** : أوهم غيرها .
(٢) **جَلَّىٰ** : أوضح .
(٣) **الأُهبة** : ما يحتاج إليه في السفر والحرب .

أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم يُقدَّر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفتُ فيهم . . أحزنني أني لا أرىٰ إلاَّ رجلاً مغموصاً عليه النفاق[1] ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « مَا فَعَلَ كَعْبٌ ؟ » فقال رجل من بني سَلِمة : يا رسول الله ؛ حبسه بُرداه ونظره في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلتَ ، والله يا رسول الله ؛ ما علمنا عليه إلاَّ خيراً ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلاً . . حضرني همي ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ، واستعنت علىٰ ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً . . زاح عني الباطلُ ، وعرفت أني لم أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعت صِدقه ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدِم من سفر . . بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك . . جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويَحلِفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالىٰ ، فجئته ، فلما سلمتُ عليه . . تبسم تبسم المغضَب ثم قال : « تَعَالَ » فجئت أمشي حتىٰ جلست بين يديه ، فقال لي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ٱبْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » فقلتُ : بلىٰ إني والله يا رسول الله ؛ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا . . لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكني والله ؛ لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضىٰ به عني . . ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه[2] إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ؛ ما كان لي من عذر ، والله ؛ ما كنتُ قط أقوىٰ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا هَـٰذَا . . فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّىٰ يَقْضِيَ ٱللهُ فِيكَ » فقمت ، وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ؛ ما علمناك كنتَ أذنبت ذنباً قبل هـٰذا ، ولقد عجزتَ ألاَّ تكون اعتذرتَ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلَّفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله

---

(١) **المغموص عليه** : المطعون عليه في دينه متهماً بالنفاق .

(٢) **تجد عليّ** : تغضب علي .

صلى الله عليه وسلم لك ، فوالله ؛ ما زالوا يؤنبونني حتىٰ أردت أن أرجع فأُكذِّب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هـٰذا معي أحد ؟ قالوا : رجلان قالا مثل ما قلتَ ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك ، فقلتُ : من هما ؟ قالوا : مُرارة بن الربيع العَمْرِي وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ، حتىٰ تنكرتْ في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا علىٰ ذلك خمسين ليلةً ، فأما صاحباي . . فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا . . فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، وكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت إلىٰ صلاتي . . أقبل إليَّ ، وإذا التفت نحوه . . أعرض عني ، حتىٰ إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس . . مشيتُ حتىٰ تسورتُ جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ ، فسلمت عليه ، فوالله ؛ ما رد عليَّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ؛ أنشُدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ، فسكت ، فعدت إليه فنشدته فسكت ، فعدتُ إليه فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليتُ حتىٰ تسورت الجدار .

قال : فبينا أنا أمشي بسوق المدينة ؛ إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل علىٰ كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إليَّ ، حتىٰ إذا جاءني . . دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان ؛ فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغني أن صاحبك جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ ، فالحقْ بنا نواسك ، فقلت لمَّا قرأتها : وهـٰذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التَّنُّور فسجَرْته بها[1] .

حتىٰ إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين ؛ إذا رسول لرسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فيقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلىٰ صاحبيَّ مثل ذلك ، فقلت

---

(١) تيممت : قصدت ، سجرت : أوقدت .

لامرأتي : الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتىٰ يقضي الله في هـٰذا الأمر .

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ؛ إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لاَ ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ » قالت : إنه والله ما به حركة إلىٰ شيء ، والله ؛ ما زال يبكي مذ كان من أمره ما كان إلىٰ يومه هـٰذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله ؛ لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟!

فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتىٰ كَمَلَتْ لنا خمسون ليلةً من حين نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبحَ خمسين ليلةً وأنا علىٰ ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكرها الله تعالىٰ قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت . . سمعت صارخاً أَوْفىٰ علىٰ جبل سَلْعٍ بأعلىٰ صوته : يا كعبُ بنَ مالك ؛ أبشر ، قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرجٌ ، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلىٰ صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبل صاحبيَّ مبشرون ، وركض رجل إليَّ فَرَساً وسعىٰ ساعٍ من أسلم فأوفىٰ على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني . . نزعتُ له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ؛ ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني بالتوبة يقولون : لِتَهْنِكَ توبة الله عليك .

قال كعب : حتىٰ دخلت المسجد ؛ فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتىٰ صافحني وهنأني ، والله ؛ ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور : « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ » قال :

قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لاَ ، بَلْ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سرَّ. . استنار وجهه حتىٰ كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه. . قلت : يا رسول الله ؛ إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلىٰ رسوله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ. . فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، فقلت : يا رسول الله ؛ إن الله إنما نجَّاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدِّث إلاَّ صدقاً ما بقيت ، فوالله ؛ ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني ، وما تعمدت مذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ يومي هـٰذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ، وأنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله : ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلىٰ قوله : ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فوالله ؛ ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ أكون كذبتُه فأهلِك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحيَ شرَّ ما قال لأحد ؛ فقال الله عز وجل : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلىٰ قوله : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1] .

فَصْلٌ

[في فوائد حديث كعب بن مالك رضي الله عنه]

واعلم أن في حديث كعب هـٰذا فوائد :

منها : استحباب رد غيبة المسلم كما فعل معاذ بن جبل رضي الله عنه .

ومنها : ملازمة الصدق وإن شق ؛ فإن عاقبته إلىٰ خير .

ومنها : استحباب ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر قبل كل شيء .

ومنها : أنه يستحب للقادم من سفر إذا كان مقصوداً أن يجلس لمن يقصده في موضع بارز كالمسجد ونحوه .

ومنها : جريان أحكام الناس على الظاهر والله يتولى السرائر .

---

(١) البخاري (٤٤١٨) .

ومنها : هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة وترك السلام عليهم ؛ تحقيراً لهم وزجراً .

ومنها : استحباب بكائه علىٰ نفسه إذا بَدَتْ منه معصية ، وحق له أن يبكي .

ومنها : جواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالىٰ لمصلحة كما فعل عثمان رضي الله عنه .

ومنها : أن كنايات الطلاق كقوله : الحقي بأهلك لا يقع إلاَّ بالنية .

ومنها : جواز خدمة المرأة زوجها من غير إلزام ووجوب .

ومنها : استحباب سجود الشكر عند حصول نعمة أو اندفاع نقمة ظاهرتين ، والتصدق عند ذلك .

ومنها : استحباب التبشير والتهنئة ، وإكرام المبشر بكِسوة ونحوها .

ومنها : استحباب القيام للوارد إكراماً له إذا كان من أهل الفضل بأي نوع كان ، وجواز سرور المقوم له بذلك كما سر كعب بقيام طلحة رضي الله عنهما ، وليس بمعارض لحديث : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ ٱلرِّجَالُ قِيَاماً . فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ ٱلنَّارِ»[1] لأن هٰذا الوعيد للمتكبرين ، ومن يغضب إن لم يقم له ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم لفاطمة رضي الله عنها سروراً بها ، وتقوم هي له كرامة ، وكذلك كل قيام أثمره الحب في الله تعالىٰ والسرور لأخيك بنعمة الله والبر بمن يتوجه بره ، والأعمال بالنيات ، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وفي هٰذا العام ـ وقيل : فيما قبل الحجاب ـ اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فكان من خبر ذلك : ما رويناه في « الصحيحين » واللفظ للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم أزل حريصاً علىٰ أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالىٰ فيهما : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ حتىٰ حج وحججتُ معه ، وعدل وعدلت معه بإداوةٍ ، فتبرَّز ثم جاء فسكبتُ علىٰ يديه منها فتوضأ ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ؛ من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله تعالىٰ فيهما : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال : واعجباً لك يا بن عباس! هما عائشةُ وحفصة ، ثم استقبل عمر الحديثَ يسوقه قال : كنت أنا وجار

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٠٠) ، والترمذي (٢٧٥٥) .

لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فينزل يوماً وأنزل يوماً ، فإذا نزلتُ . . جئته بما حَدَثَ من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره ، وإذا نزل . . فعل مثل ذلك ، وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار ؛ إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، فصخِبتُ على امرأتي فراجعتْني ، فأنكرتُ أن تراجعني ، فقالت : ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله ؛ إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه ، وإن إحداهن لَتَهْجُره اليوم حتى الليل ، فأفزعني ذلك وقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن ، ثم جمعت عليَّ ثيابي فنزلت ، فدخلت علىٰ حفصة فقلت لها : أَيْ حفصةُ ؛ أتغاضب إحداكن النبي صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل ؟ قالت : نعم ، قلت : قد خِبْتِ وخَسِرت ، أفتأمنين أن يَغْضَب الله تعالىٰ لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتَهلكي لا أبا لك ؟! لا تستكثري النبي صلى الله عليه وسلم ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه ، وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ وأحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ يريد عائشة .

قال عمر رضي الله عنه : وكنا قد تَحَدَّثنا أن غسان تُنْعِلُ الخيلَ لغزونا ، فنزل صاحبي الأنصاري في يوم نوبته ، فرجع إلينا عشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً فقال : أَثَمَّ هو ؟ ففزعتُ ، فخرجت إليه فقال : قد حدث اليوم أمر عظيم ، قلتُ : ما هو ؟ أجاء غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأهول ، طلَّق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت : خابت حفصة وخسرت ، قد كنتُ أظن هـٰذا يُوشِك أن يكون ، فجمعتُ عليَّ ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مَشرُبةً له فاعتزل فيها ، ودخلت علىٰ حفصة ؛ فإذا هي تبكي ، فقلت : ما يبكيكِ ؟ ألم أكن حَذَّرتك هـٰذا ؟! أطلقكن النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لا أدري ها هو ذا معتزل في المشربة ، فخرجت فجئت إلى المنبر ؛ فإذا حوله رهط يَبْكي بعضهم ، فجلست معهم قليلاً ، ثم غلبني ما أجد ، فجئت المَشْرُبة التي فيها النبي صلى الله عليه وسلم فقلت لغلام له أسودَ : استأذِن لعمر ، فدخل الغلام فكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع فقال : كلمت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرتك له فصمت ، فانصرفتُ حتىٰ جلستُ مع الرهط الذين هم عند المنبر ، ثم غلبني ما أجد ، فجئت فقلت للغلام : استأذن لعمر ، فدخل ثم رجع فقال : قد ذكرتك له

فصمت ، فرجعت فجلست مع الرهط الذين هم عند المنبر ، ثم غلبني ما أجد ، فجئت الغلام فقلت : استأذن لي ، فاستأذن ثم رجع إليَّ فقال : قد ذكرتك له فصمت ، فلما وليت منصرفاً . . قال : إذا الغلام يدعوني فقال : قد أذن لك النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإذا هو مضطجع علىٰ رِمالِ حصيرٍ ليس بينه وبينه فراش قد أثر الرمال بجنبه ، متكئاً علىٰ وسادةٍ من أَدَمٍ حشوها ليف ، فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم : يا رسول الله ؛ أطلقت نساءك ؟ فرفع إليّ بصره فقال : « لا » فقلت : الله أكبر ، ثم قلت وأنا قائم أَستأنس : يا رسول الله ؛ لو رأيتنا وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة ؛ إذا قوم تغلبهم نساؤهم ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قلت : يا رسول الله ؛ لو رأيتني وقد دخلت علىٰ حفصة فقلت لها : لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ يريد عائشة ـ فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم تَبَسُّمة أخرىٰ ، فجلست حين رأيته تبسم ، فرفعت بصري في بيته فوالله ؛ ما رأيت في بيته شيئاً يَرُدّ البصر غير أَهَبَةٍ ثلاثةٍ ، فقلت : يا رسول الله ؛ ادع الله فليوسع علىٰ أمتك ؛ فإن فَارِسَ والروم قد وُسع عليهم وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله! فجلس النبي صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً فقال : « أَوَ فِي هَـٰذَا أَنْتَ يَا بْنَ ٱلْخَطَّابِ ؟! إِنَّ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا » فقلت : يا رسول الله ؛ استغفر لي ، فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلىٰ عائشة تسعاً وعشرين ليلة ، وكان قال : « مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْراً » من شدة موجِدته عليهن حين عاتبه الله ، فلما مضت تسعٌ وعشرون ليلة . . دخل علىٰ عائشة فبدأ بها ، فقالت له عائشة : يا رسول الله ؛ إنك كنت قد أقسمت ألاَّ تدخل علينا شهراً ، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلةً أعدُّها عدّاً ، فقال : « ٱلشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً » فكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلةً ، قالت عائشة : ثم أنزل الله تعالىٰ آية التخيُّر ، فبدأ بي أولَّ امرأة من نسائه فاخترته ، ثم خير نساءه كلَّهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة[1] ، رضي الله عنهن أجمعين .

قلت : اختلفت الروايات في سبب اعتزاله صلى الله عليه وسلم لأزواجه ، وإيلائه منهن شهراً ، وأصحها ما ثبت في « الصحيحين » أن سببه : تظاهر عائشة وحفصة ؛ غيرةً عليه ؛

---

(١) البخاري (٥١٩١) .

أن شرب عند زينب عسلاً ، فقالت له كلّ واحدة منهما : أكلتَ مغافيرَ ، وهي شيء تشبه رائحتُه رائحةَ الخمر ، قال : « لاَ ، وَلَكِنْ شَرِبْتُ عَسَلاً ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ حَلَفْتُ ، لاَ تُخْبِرِي أَحَداً »[1] .

وقيل : سببه : تحكمهن عليه في سؤال النفقة ، ثبت ذلك في الصحيح أيضاً .

ثم اختلفوا في التحريم الذي عاتبه الله تعالىٰ عليه ، فقيل : هو تحريمه للعسل ، وقيل : تحريمه لمستولدته مارية حين وطئها في بيت حفصة ، فأرضاها بأن حرمها ، وقيل : تحريمه لأم شريك ؛ إذ وهبت نفسها له ، فلم يقبلها لأجل أزواجه ، وأصحها الأول ، ثم الثاني ، وعليه أكثر المفسرين ، لكنه لم يُخرَّج في الصحيح وسنده مرسل ، وأما الثالث : فضعيف إسناداً ومتناً .

واختلفوا أيضاً في الحديث الذي أسره إلىٰ بعضهن ، فقيل : قوله : « بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً » ، وقيل : تحريمه مارية علىٰ نفسه ؛ رضاءً لحفصة ، وإخبارها بأن أباها وأبا بكر يليان الأمر من بعده .

والكلام في هـٰذه القصة مشتبه ، والخلاف منتشر والله سبحانه وتعالى بحقائق الأمور أعلم .

أما ما يترتب علىٰ هـٰذه الجملة من الأحكام : فقال علماؤنا رحمهم الله تعالىٰ : إذا حرم الإنسان علىٰ نفسه طعاماً ، أو غيره . . لم يحرم بذلك ، ولا شيء عليه ، لكنه ارتكب محظوراً ، فيستغفر الله .

وإن حرم أمته ، فإن نوىٰ عتقها . . عتقت ، وإن نوىٰ تحريم ذاتها وجملتها ، أو أطلق . . فعليه كفارة يمين .

وإن حرم زوجته ، فإن نوىٰ به الطلاق ، أو الظهار . . وقع ما نواه ، وإن نوىٰ تحريم ذاتها ، أو أطلق . . فعليه كفارة يمين بنفس اللفظ ، هـٰذا مذهب الشافعي .

وحكى القاضي عياض في تحريم الزوجة أربعة عشر مذهباً .

أما التخيير . . فإن مذهب الجمهور : أن من خير زوجته أو زوجاته فاختارته . . لا يكون

---

(١) البخاري (٦٦٩١) مسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها .

ذلك شيئاً ، ولو اختارت نفسها . . وقعت طلقة ، وحكي عن بعضهم أنه يقع به طلقة بائنة وإن اختارته ، ولا حجة لهم[1] .

وأما الإيلاء المذكور في هـٰذا الحديث . . فليس بالإيلاء المذكور في القرآن ، وليس له ما له من الأحكام ، وإنما المعنيُّ هنا اليمين فقط ، والله أعلم .

وفي هـٰذه السنة : لاعن النبي صلى الله عليه وسلم بين أخوي بني عجلان ، ثم نقل القاضي عياض عن ابن جرير الطبري أن قصة اللعان في شعبان منها[2] ، ولا وجه له ؛ فقد ذكر أهل السير أنه صلى الله عليه وسلم خرج لغزوة تبوك في رجب ولم يرجع إلاَّ في رمضان[3] ، وكان من حديث العجلانيين : ما رويناه في « صحيح مسلم » عن ابن شهاب الزهري : أن سهل بن سعد الساعدي أخبره : أن عويمراً العجلاني جاء إلىٰ عاصم بن عدي الأنصاري فقال له : أرأيتَ يا عاصمُ لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ سل لي عن ذلك يا عاصم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المَسائل وعابها ، حتىٰ كبر علىٰ عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رجع عاصم إلىٰ أهله . . جاءه عويمرٌ فقال : يا عاصم ؛ ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عاصم لعويمرٍ : لم تأتني بخير ، قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة التي سألتُه عنها ، قال عويمرٌ : والله ؛ لا أنتهي حتىٰ أسأله عنها ، فأقبل عويمرٌ حتىٰ أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال : يا رسول الله ؛ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ نَزَلَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ ، فَٱذْهَبْ فَأْتِ بِهَا » قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغا . . قال عويمرٌ : كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها ، فطلَّقها ثلاثاً قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن شهاب : فكانت سُنَّةَ المتلاعنَيْنِ[4] .

---

(١) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٠/٧٩) .

(٢) انظر « إكمال المعلم بفوائد مسلم » (٥/٨٦) .

(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٥١٥) .

(٤) مسلم (١٤٩٢) .

وخرج البخاري معناه وزاد : ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُنْظُرُوا : فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ ٱلْعَيْنَيْنِ عَظِيمَ ٱلأَلْيَتَيْنِ خَدَلَّجَ ٱلسَّاقَيْنِ . . فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إِلاَّ قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ . . فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إِلاَّ قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا » فجاءت به على النعت الذي نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمرٍ ، فكان بعد ذلك ينسب إلىٰ أمه[١] .

هٰذه إحدى الروايات في « الصحيحين » وهي أتمها ، وثم زيادات فيهما حذفتها اختصاراً .

فصل

[في اللعان وما يتعلق به من الأحكام]

واختلف العلماء في نزول آية اللعان : هل هي بسبب عويمرٍ العجلاني أم بسبب هلال بن أمية الواقفي ؟ مع اتفاقهم أنه لم يلاعن في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم غيرهما ، وفي متن الحديثين دلالة على الأمرين ، والأكثرون علىٰ أنها نزلت بسبب هلال بن أمية[٢] .

والداعي إلى اللعان : أن يقذف رجل زوجته بالزنا ويعجز عن إقامة البينة ، فيجب عليه حد القذف ثمانون ، فيلاعن لدفعه ، فيقول عند الحاكم في ملأ من الناس أربع مرات ويتحرىٰ لهما شرف الزمان والمكان : أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانةَ من الزنا ، ويقول في الخامسة : وعليّ لعنة الله إن كنتُ من الكاذبين .

ويتعلق بلعانه خمسة أحكام : سقوط حد القذف عنه ، ووجوب حد الزنا عليها ، وزوال الفراش ، ونفي الولد إن كان ، والتحريم المؤبد .

ويسقط الحد عنها بأن تلاعن فتقول : أشهد بالله أن فلاناً هٰذا لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا (أربع مرات) وتقول في الخامسة : وعليَّ غضب الله إن كان من الصادقين ، ويسن أن يعظهما الحاكم ويبالغ عند الخامسة ، ويُعرفهما أنها الموجبة .

---

(١) البخاري (٤٧٤٥) ، **أسحم** : أسود ، **أدلج** : شديد سواد العين ، **خدلج الساقين** : عظيمهما ، **الوَحَرَةُ** : دويبة حمراء .

(٢) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٠/١١٩) .

قال العلماء : وجوّز اللعان[1] لحفظ الأنساب ، ودفع المضرة عن الأزواج ، قالوا : وليس شيء تتعدد فيه اليمين ويكون في جانب المدعي إلاَّ اللعان والقسامة ، والله أعلم .

ومن حوادث هـٰذه السنة : قصة الغامدية ، وقد رواها مسلم متصلة بقصة ماعز بن مالك الأسلمي ، فروىٰ رحمه الله تعالىٰ بسنده عن عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه : أن ماعز بن مالك الأسلمي أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ إني قد ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تُطهرني ، فرده ، فلمَّا كان من الغد . . أتىٰ فقال : يا رسول الله ؛ إني قد زنيت ، فرده الثانية ، فأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ قومه فقال : « هَلْ تَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْساً تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئاً ؟ » فقالوا : ما نعلمه إلاَّ وفيَّ العقل من صالحينا فيما نُرَىٰ ، فأتاه الثالثةَ ، فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه ، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلمَّا كان الرابعةَ . . حَفَرَ له حفرةً ، ثم أَمَرَ به فرُجِم .

قال : فجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله ؛ إني قد زنيت فطهرني ، وإنه ردها ، فلما كان الغد . . قالت : يا رسول الله ؛ لم تردني ؟ لعلك أَنْ تَرُدَّني كما رددتَ ماعزاً ، فوالله ؛ إني لحبلىٰ ، فقال : « إِمَّا لاَ . . فَٱذْهَبِي حَتَّىٰ تَلِدِي[2] » ، فلما ولدتْ . . أتته بالصبي في خِرقة فقالت : هـٰذا قد ولدتُه ، قال : « اِذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّىٰ تَفْطِمِيهِ » فلما فطمتْه . . أتته بالصبي في يده كِسرةُ خبزٍ فقالت : هـٰذا يا نبي الله قد فطمتُه وقد أكل الطعامَ ، فدفع الصبي إلىٰ رجل من المسلمين ، ثم أَمَر بها فَحُفِرَ لها إلىٰ صدرها ، وأَمَرَ الناس فرجموها ، فيُقبل خالد بن الوليد بحجرٍ فرمىٰ رأسها ، فتنضَّح الدم علىٰ وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله صلى الله عليه وسلم سبَّه إياها فقال : « مَهْلاً يَا خَالِدُ ؛ فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ . . لَغُفِرَ لَهُ » ثم أَمَرَ بها فصلىٰ عليها ودفنت[3] .

وفي رواية : فقال له عمر : تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت ؟! فقال : « لَقَدْ تَابَتْ

---

(١) في (ج) : (وجوب اللعان) .

(٢) قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١١/٢٠٣) : (ومعناه : إذا أبيت أن تستري علىٰ نفسك وتتوبي وترجعي عن قولك . . فاذهبي حتىٰ تلدي فترجمين بعد ذلك) .

(٣) مسلم (١٦٩٥) .

تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ . لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى »(١) .

فَصْلٌ

[في التحذير من فاحشة الزنا وبيان حدها]

واعلم : أن الزنا فاحشة من أقبح الذنوب الداعية إلىٰ سخط علام الغيوب ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ » قلتُ : ثم أيٌّ ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَزْنِي ٱلْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَقْتُلُ حِينَ يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » قال عكرمة : قلت لابن عباس : كيف يُنْزع الإيمان منه ؟ قال : (هكذا) وشبك بين أصابعه ثم أخرجها فإن تاب . . عاد إليه (هكذا) وشبك بين أصابعه . رواهما البخاري(٢) ، والآيات والأحاديث في هٰذا الباب كثيرة معلومة .

ثم إنه ثبت في الكتاب والسنة : أن التوبة الصادقة والحد يكفرانه ، وحد المحصَن الرجم حتىٰ يموت ، وغير المحصَن حده جلدُ مئة وتغريب عام .

وشرائط الإحصان أربعة : البلوغ ، والعقل ، والحرية ، ووجود الوطء في نكاح صحيح ، وحد المملوك نصف حد الحر ، ودل مجموع الكتاب والسنة علىٰ أن حده الجلد في الحالين .

ولا يثبت الحد إلاّ بإقرار الزاني ، أو البينة ، وبينته : أربعة ذكور عدول يشهدون برؤية الفرج في الفرج كالميل في المكحلة ، وهٰذا الحكم ثابت في التوارة والإنجيل والقرآن ،

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٦٨٠٩ـ٦٨١١) .

فجعل الله سبحانه شهادة الزنا أربعةً خاصةً له ؛ تغليظاً علىٰ مدعيه وزجراً له عن تعاطيه ؛ رحمةً للعباد وستراً عليهم ، ولو لم يكمل نصاب الشهادة حُدَّ الشهود وبرىء المقذوف ، وقد كان في صدر الإسلام عقوبة الزناة الإمساك في البيوت ، وهو الحبس حتىٰ يتوفاهن الموت ، ثم نسخ بالأذىٰ وهو التوبيخ والتعيير ، ثم نسخ بالجلد والرجم ، وتقرر الحكم وصار إجماعاً .

أما الجلد . . فصريح في آية النور ، وأما الرجم . . فإنه مما نسخ لفظه من القرآن وبقي حكمه وبينته السنة ، روينا في « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أُقرِىء رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمـٰن بن عوف ، فبينما أنا في منزله بمنىً وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حَجة حجها ؛ إذ رجع إليَّ عبد الرحمـٰن فقال : لو رأيتَ رجلاً أتىٰ أمير المؤمنين اليوم فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هل لك في فلان يقول : لو قد مات عمر . . لقد بايعت فلاناً ، فوالله ؛ ما كان بيعة أبي بكر إلاّ فَلْتَةً[1] فتمت ، فغضب عمر ثم قال : إني إن شاء الله لقائمٌ العشيةَ في الناس فمحذِّرهم هـٰؤلاء الذين يريدون أن يَغصبوهم أُمورَهم ، قال عبد الرحمـٰن : فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لا تفعل ؛ فإن الموسم يجمع رَعَاعَ الناس وغَوغاءهم[2] ، وإنهم هم الذين يغلبون علىٰ قُربك حين تقوم في الناس ، وإني أخشىٰ أن تقوم فتقول مقالةً يطير بها عنك كل مُطيِّر ، وألاَّ يَعُوها ، وألاَّ يضعوها علىٰ مواضعها ، فأمهل حتىٰ تقدَم المدينة ؛ فإنها دار الهجرة والسنة ، فتخلُص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلتَ متمكناً ، فيعي أهل العلم والفقه مقالتك ، ويضعونها علىٰ مواضعها ، فقال : أما والله إن شاء الله تعالىٰ لأقومنّ بذلك أول مقام أقومه بالمدينة .

قال ابن عباس : فقدِمنا المدينة في عُقْب ذي الحجة ، فلما كان يوم الجمعة . . عَجَّلتُ الرواح حين زاغت الشمس حتىٰ أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ جالساً إلىٰ ركن المِنبر ، فجلست حوله تمسُّ ركبتي ركبته ، فلم أَنْشَب[3] أن خرج عمر بن الخطاب ، فلما رأيتُه مقبلاً . . قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : ليقولن العشيةَ مقالةً لم يقلها منذ استخلف ،

---

(١) **الفلتةُ** : الفجأةُ من غير تردد .

(٢) **الرَّعاع** : الجهلة الرذلاء ، **الغوغاء** : السفلة المسرعون إلى الشرِّ .

(٣) **أنشب** : ألبث .

فأنكر عليٌّ وقال : ما عسيتَ أن يقول ما لم يقل قبله ، فجلس عمر على المنبر ، فلما سكت المؤذنون . . قام فأثنىٰ على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإني قائل لكم مقالةً قد قُدِّر لي أن أقولها ، لا أدري لعلها بين يدي أجلي ، فمن عقلها ووعاها . . فليحدِّث بها حيث انتهت به راحلته ، ومن خشي ألاَّ يعقلها . . فلا أُحل لأحد أن يكذب عليَّ ، إن الله تعالىٰ بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل الله آيةُ الرجم ، فقرأناها وعقَلناها ووعيناها ، ورَجَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشىٰ إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ؛ ما نجد آية الرجم في كتاب الله ، فَيَضِلوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم في كتاب الله حق علىٰ من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة ، أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف ، ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله : ألاَّ ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم أو إنّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ألا ثُم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ[1] ، وَقُولُوا : عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُولُهُ » ثم إنه بلغني أن قائلاً منكم يقول : والله ؛ لو قد مات عمر بايعت فلاناً ، فلا يغترن امرؤٌ أن يقول : إنما كانت بيعة أبي بكر فَلتةً وتمت ، ألا وإنها قد كانت كذلك ، ولكن الله وقىٰ شرها وليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر ، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين . . فلا يبايَعُ هو ولا الذي بايعه تَغِرَّةً أن يقتلا[2] ، وإنه قد كان من خبرنا حين توفى اللهُ نبيه صلى الله عليه وسلم : أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة ، وخالف عنا عليٌّ والزبير ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلىٰ أبي بكر ، فقلت لأبي بكر : يا أبا بكر ؛ انطلق بنا إلىٰ إخواننا هـٰؤلاء من الأنصار ، فانطلقنا نريدهم ، فلما دنونا منهم . . لقينا منهم رجلان صالحان ، فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلنا : نريد إخواننا هـٰؤلاء من الأنصار ، فقالا : لا عليكم ألاّ تقربوهم ، اقضوا أمركم ، فقلت : والله ؛ لنأتينهم ، فانطلقنا حتىٰ أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ؛ فإذا رجل مزمَّل بين ظهرانيهم ، فقلت : من هـٰذا ؟ فقالوا : هـٰذا سعد بن عبادة ،

---

(١) **الإطراء** : المبالغة في الوصف .

(٢) **تغرةً** : حذراً من القتل .

فقلت : ما له ؟ فقالوا : يوعك[١] ، فلما جلسنا قليلاً . . تشهد خطيبهم فأثنىٰ على الله تعالىٰ بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام[٢] ، وأنتم معشر المهاجرين رهط[٣] ، وقد دفَّت دافة[٤] من قومكم ؛ فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، وأن يَحْضُنونا[٥] من الأمر ، فلما سكت . . أردتُ أن أتكلم وكنت قد زوَّرتُ مقالةً أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر ، وكنت أُداري منه بعض الحد ، فلما أردت أن أتكلم . . قال أبو بكر : علىٰ رِسلك[٦] ، فكرهت أن أغضبه ، فتكلم أبو بكر ، فكان هو أحلمَ مني وأوقر ، والله ، ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلاّ قال في بديهته مثلَها أو أفضل منها حتىٰ سكت ، فقال : ما ذَكرتُم فيكم من خير . . فأنتم له أهل ، ولن يُعرف هـٰذا الأمر إلاّ لهـٰذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضيت لكم أحد هـٰذين الرجلين فبَايعوا أيَّهما شئتم ، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا ، فلم أكره مما قال غيرها ، كان والله أن أُقدَّم فتُضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إليّ من أن أتأمَّر علىٰ قوم فيهم أبو بكر ، اللهم إلاّ أن تُسوِّل لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن ، فقال قائلُ الأنصار : أنا جُذَيلها المُحكَّك وعُذَيْقُها المرجَّب[٧] ، منا أميرٌ ومنكم أمير يا معشر قريش ، فكثر اللَّغَطُ وارتفعت الأصوات حتىٰ فرِقتُ من الاختلاف[٨] ، فقلت : ابسُط يدك يا أبا بكر فبسط يده ، فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعتْه الأنصار ، ونزوْنا علىٰ سعد بن عبادة[٩] ، فقال قائلٌ منهم : قتلتم سعد بن عبادة ؟! فقلت : قتلَ اللهُ سعد بن عبادة ، قال عمر : وإنّا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوىٰ من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقْنا القومَ ولم تكن بيعةٌ أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا ، فإمَّا بايعناهم علىٰ ما لا نرضىٰ وإما أن

---

(١) **يُوعَك** : يحصل له الوعك ؛ أي : الحُمَّىٰ .
(٢) **الكتيبة** : الجيش المجتمع .
(٣) **الرهط** : القليل .
(٤) **الدافة** : العدد القليل .
(٥) **يختزلونا** : يقتطعونا ، **يَحضُنونا** : يخرجونا .
(٦) **علىٰ رِسْلك** : علىٰ مَهَلك .
(٧) **الجِذْلُ** : عود ينصب للإبل الجربىٰ لتحتك ، **والعَذْقُ** : النخل ، **المرجب** : المعظَّم .
(٨) **فَرِقتُ** : خفتُ .
(٩) **نَزَوْنا** : وثبنا .

نخالفهم فيكون فساداً ، فمن بايع رجلاً علىٰ غير مشورةٍ من المسلمين . . فلا يُتابَع هو ولا الذي بايعه تغرةً أن يُقتلا[١] .

وروينا فيه أيضاً عن الزهري قال : أخبرني أنس بن مالك : أنه سمع خطبة عمر الأخيرة حين جلس على المنبر وذلك الغدَ من حين توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم ، قال : كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ يَدْبُرنا ـ يريد بذلك أن يكون آخرَهم ـ فإن يَكُ محمد قد مات . . فإن الله عز وجل قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به هُدَى الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثاني اثنين ، وإنه أولى المسلمين بأموركم فقوموا فبايعوه ، وكان طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة ، وكانت بيعةُ العامة على المنبر ، قال أنس : سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ : اصْعَدِ المنبر ، فلم يزل به حتىٰ صعد المنبر فبايعه الناس عامة[٢] ، قال القاسم بن محمد : فما كان من خطبتهما من خطبة إلاَّ نفع الله بها ، لقد خوَّف عمر الناس ، وإن فيهم لنفاقاً فردهم الله بذلك ، ثم لقد بَصَّر أبو بكر الناس الهُدَىٰ وعرفهم الحقَّ الذي عليهم ، وخرجوا به يتلون : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلىٰ ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٣] .

ثم كانت بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه بعد موت فاطمة ، وعاشت فاطمة بعد موت أبيها ستة أشهر ، ولما ماتت . . أرسل علي إلىٰ أبي بكر أن ائتنا ، فأتاهم ، فتشهد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ثم قال : إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ، ولم نَنْفَس عليك خيراً ساقه الله إليك ، ولكنك استبددتَ علينا بالأمر ، وكنا نحن نرىٰ لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يكلم أبا بكر حتىٰ فاضت عينا أبي بكر ، فلما تكلم أبو بكر قال : والذي نفسي بيده ؛ لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليَّ أن أصل من قرابتي ، وأما الذي شجر بيني وبينكم من هـٰذه الأموال . . فإني لم آلُ فيها عن الحق ، ولم أترك أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه فيها إلاّ صنعته ، فقال

---

(١) البخاري (٦٨٣٠) .
(٢) البخاري (٧٢١٩) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٠) .

علي لأبي بكر رضي الله عنهما : موعدك العشية للبيعة ، فلما صلىٰ أبو بكر صلاة الظهر . . رَقِي على المنبر فتشهد وذكر شأن عليٍّ وتخلُّفَه عن البيعة ، وعُذْرَه بالذي اعتذر إليه ، ثم استغفر ، وتشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فعظَّم حق أبي بكر رضي الله عنه ، وأنه لم يحمله على الذي صنع نَفَاسةً علىٰ أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضَّله الله به ، ولكنا كنا نرىٰ لنا في هـٰذا الأمر نصيباً فاستبِدَّ علينا به ، فوجدنا في أنفسنا ، فسُرَّ بذلك المسلمون وقالوا : أصبتَ ، وكان المسلمون إلىٰ عليٍّ قريباً حين راجع الأمرَ المعروفَ ، رواه مسلم[1] .

وإنما ذكرت الحديث الأول متمماً في بيان حكم الرجم وكانت الدلالة علىٰ ذلك تتم دون تمامه ؛ لما فيه وفي الحديثين بعده من الدلالة علىٰ أصل بيعة الصديق ، وأنها كانت إجماعاً من الصحابة الذين تقررت عصمتهم من الاجتماع على الضلال والخطأ والتمالؤ عليهما ، وأنه قد كان من علي رضي الله عنه بعض تردد أول الأمر ، ثم شرح الله صدره فاعتذر في تخلفه تلك الأيام وبايع وتابع ، فأدَّى الطاعة لأبي بكر رضي الله عنهما ، والخلفاء بعده إلىٰ أن انتهت النوبة إليه ، وتعين القيام عليه فقام بها علىٰ أحسن الوجوه وأكملها وأعدلها ، وقاتل من غلا في محبته كما قاتل من خرج عن طاعته ، ولم يعنف من تخلف عن نصرته ، وختم الله له بالسعادة والشهادة .

هـٰذا وقد تعصب قوم له فادعوا له الخلافة ابتداءً ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصىٰ إليه بذلك وتعاموا عن دلائل كثيرة صريحة أو كالصريحة علىٰ خلافة أبي بكر أقواها بعد الإجماع : نيابته في الصلاة أياماً بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمحضر من علي رضي الله عنهما ، وكانت الصلاة أعظم شعار في الإسلام ، وأول أمر أحوج إلى النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال علي رضي الله عنه : رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا .

وأعظم ما وقع فيه هـٰؤلاء من الأخطار : تفسيقهم للصحابة رضوان الله عليهم ، ونسبتهم إلى الخطأ ، ولزم من ذلك دخول علي معهم حيث ألقىٰ بيديه ودخل في بيعة لا يعتقد صحتها ، وألزم نفسه طاعة من لا يستحقها ، وقد كان له من قوة الجَنان[2] واشتداد الأركان

---

(١) مسلم (١٧٥٩) عن عائشة رضي الله عنها .
(٢) **الجَنَانُ** : القلب .

ما لو اجتمعت الأمة بأسرها في جانب باطل . . لم يتابعهم ، وقد جهل قدره من ظن به ذلك ، ومن عظيم خطئهم : اعتقادهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصىٰ إلىٰ عليّ بالخلافة فخالفوه وجرى الأمر علىٰ خلاف ما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاشا ، فلم يوجد في جميع ما أخبر عنه من المغيبات خلف ولا تغيير ، وما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلاَّ وحي يوحىٰ ، **وبالجملة** : فهـٰذا أمر قد طُوي بساطه ، وفرغ منه علىٰ ما انطوىٰ عليه ، وما أسعد من أحب علياً لما مهد الله له من الفضائل ، وعرف لبقية الصحابة حقهم وأنزلهم منازلهم ، وأخسر من لا يصفو له حبه إلاَّ بالتناول من غيره ، وعلىٰ كل تقدير : فالواقع علىٰ جانب من الخطر والوبال ، والساكت سالم علىٰ كل حال ، وطريقة السلامة واضحة لمن ارتادها ، والعوائد السَّنية[١] لازمة لمن اعتادها ، والله ولي التوفيق .

ومن الحوادث في هـٰذه السنة : موت أم كلثوم ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي الثانية من زوجتي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، روينا في « صحيح البخاري » عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : شهدنا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس على القبر فرأيت عينيه تدمعان ، فقال : « هَلْ فِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ لَمْ يُقَارِفِ ٱللَّيْلَةَ » فقال أبو طلحة : أنا ، قال : « فَٱنْزِلْ فِي قَبْرِهَا » فنزل في قبرها[٢] صحح ابن عبد البر أنها أم كلثوم ، ولا يصح قول من زعم أنها رقية ؛ لأن رقية ماتت والنبي صلى الله عليه وسلم غائب ببدر ، والله أعلم .

ومعنىٰ : (لم يُقارف) : لم يكتسب ذنباً ، وقيل : لم يجامع ، وأنكره الطحاوي وقال : معناه : لم يقاول الليلة ؛ لأنهم كانوا يكرهون الحديث بعد العشاء .

وفي شهر رجب منها : توفي النجاشي ، واسمه أصحمة ، ومعناه بالعربية : عطية ، روينا في « صحيح البخاري » عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ تُوُفِّيَ ٱلْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنَ ٱلْحَبَشِ ، فَهَلُمَّ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » قال : فصففنا ، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم ونحن صفوف ، قال جابر : كنت في الصف

---

(١) **العوائد** : ما يعود على الإنسان نفعه ، **السَّنية** : السامية .

(٢) البخاري (١٣٤٢) .

الثاني[(١)] ، وفي رواية في « الصحيحين » : أنه كبر عليه أربع تكبيرات[(٢)] .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : اختلفت الآثار في ذلك ، فجاء من رواية ابن أبي خيثمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكبر أربعاً وخمساً وستاً وسبعاً وثمانياً ، حتىٰ مات النجاشي فكبر عليه أربعاً ، وثبت علىٰ ذلك حتىٰ توفي صلى الله عليه وسلم[(٣)] ، قال أصحابنا : فإن خمس . . لم تبطل في الأصح[(٤)] .

واتخذ العلماء صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على النجاشي أصلاً في الصلاة على الغائب ، وقال الخطابي من أصحابنا : لا يصلىٰ عليه إلاّ إذا كان في موضع لا يصلىٰ عليه كما وقع للنجاشي[(٥)] ، واستحسنه الروياني في « البحر »[(٦)] والكلام في الغائب عن البلد ، أما الحاضر . . فلا يصلىٰ عليه صلاة غائب سواء كبرت البلد أم صغرت ، والله أعلم .

وفيها : مات عبد الله بن أبي بن سلول ، وذلك بعد مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وروي : أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو مريض فقال له : « أَهْلَكَكَ حُبُّ يَهُودَ »[(٧)] ولما مات أتاه النبي صلى الله عليه وسلم بعدما أدخل ، فأمر به فأخرج ، فوضعه علىٰ ركبته ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه ، رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما[(٨)] .

وروي أيضاً عن عمر قال : لما مات عبد الله بن أبي . . دُعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وَثَبْتُ إليه فقلت : يا رسول الله ؛ أتصلي على ابن أُبي وقد قال يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟! أُعدِّد عليه قوله ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ » فلما أكثرت عليه . . قال :

---

(١) البخاري (١٣٢٠) .
(٢) البخاري (١٣٣٣) ومسلم (٩٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) انظر « شرح صحيح مسلم » للنووي (٧/ ٢٣) .
(٤) انظر « منهاج الطالبين » (ص١٥٢) وشروحه .
(٥) معالم السنن (١/ ٣١٠) .
(٦) بحر المذهب (٣/ ٣٥٨) .
(٧) انظر « فتح الباري » (٨/ ٣٣٤) .
(٨) البخاري (١٣٥٠) .

« إِنِّي خُيِّرْتُ فَٱخْتَرْتُ ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدتُ عَلَى ٱلسَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ . . لَزِدْتُ عَلَيْهَا » قال : فصلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلاَّ يسيراً حتىٰ نزلت الآيتان من براءة : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، قال : فعجبت بعد من جُرأتي علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، والله ورسوله أعلم[1] .

قيل : فَعل به النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل إكراماً لولده حيث سأله ذلك ، وما سئل شيئاً قط فقال : لا ، وأما القميص . . فألبسه إياه مكافأة له ؛ لأنه ألبس العباس يوم بدر قميصاً .

خاتمتها : حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان من خبر ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم من تبوك في رمضان . . أقام بالمدينة إلىٰ ذي القعدة ، وأراد الحج ، فذكر مخالطة المشركين وما اعتادوه من الجهالات في حجهم ، وأن الأشهر الحرم والعهود التي لهم تمنع من منعهم ، فساءه ذلك ، وأمَّر أبا بكر على الحجاج ، وبعث معه بـ(سورة براءة) حاصلها : التبرؤ من عهود المشركين ، والتأجيل لهم أربعة أشهر ذهاباً في الأرض أينما شاؤوا ، ومن كان له عهد إلىٰ مدة ولم ينقص المسلمين شيئاً ولم يظاهر عليهم أحداً كبعض بني بكر . . فهو إلىٰ مدته ، فيما تضمنه أربعون آية من صدر (سورة براءة) ، ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعده علي بن أبي طالب رضي الله عنه علىٰ ناقته العضباء ، وأمره أن يتولىٰ نبذ العهود ، ويقرأ على الناس صدر (سورة براءة) فلما أدرك علي أبا بكر . . قال له أبو بكر : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا ، ويقال : إن أبا بكر لما لحقه علي رجع فقال : يا رسول الله ؛ بأبي أنت وأمي ، أنزل في شأني شيء ؟ قال : « لاَ ، وَلَكِنْ لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُبَلِّغَ هَـٰذَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي ، أَمَا تَرْضَىٰ يَا أَبَا بَكْرٍ أَنَّكَ كُنْتَ مَعِي فِي ٱلْغَارِ ، وَأَنَّكَ صَاحِبِي عَلَى ٱلْحَوْضِ » قال : بلىٰ ، فكان أبو بكر أمير الناس ، وعلي يؤذن ببراءة ، ويؤذن المؤذنون بها عن أمره[2] ، روينا في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة قال : (بعثني

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٦) ، قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (٢/ ٦٩) : (**فائدة** : قال ابن العربي : وافق عمرُ ربَّه تلاوةً ومعنىً في أحد عشر موضعاً منها هـٰذه القصة . . .) ثم ذكر كل المواضع .

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن كثير (٤/ ٦٨ـ٦٩) .

أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنىً : ألاَّ يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان)[1] وروي عنه أنه قال : أمرني علي أن أطوف في المنازل من منىً ببراءة ، وكنت أصيح حتىٰ صَحِل حَلْقي ، فقيل له : بم كنت تنادي ؟ فقال بأربع : ألاَّ يدخل الجنة إلاَّ مؤمن ، وألاَّ يحج بعد العام مشرك ، وألاَّ يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد . . فله أجل أربعة أشهر ثم لا عهد له[2] .

قال العلماء : وكان السبب في بعث علي بعد أبي بكر : أنه قد كان في عرف العرب : ألاَّ يتولىٰ عقد العهود ونقضها إلاَّ سيدهم أو رجل من رهطه ، فبعث علياً إزاحةً للعلة[3] ؛ لئلاَّ يقولوا : هـٰذا خلاف ما نعرفه ، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أن يأتي حجه من قابل علىٰ أمر قد تقرر وتمهد ، فنسخ الله سبحانه بابتداء (سورة التوبة) عهدَ كل ذي عهد بالشرط السابق ، ومن لم يكن له عهد . . فأجله انسلاخ شهر الله المحرم ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وهـٰذه الآية من أعاجيب القرآن ؛ لأنها نسخت من القرآن مئةً وأربعاً وعشرين آيةً ، ثم نسخت بقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ .

السنة العاشرة في رمضان منها : أسلم سيد بَجِيلة أبو عبد الله جرير بن عبد الله البَجَلي الأحمسي رضي الله عنه ، روينا في « الصحيحين » عنه قال : (بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[4] وفيهما أيضاً عنه قال : (ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ، ولا رآني إلاَّ ضحك)[5] وكان عمر يسميه : يوسف هـٰذه الأمة ؛ لفرط جماله ، وكان طِوالاً يقتحم في ذِروة البعير ، وكان نعله ذراعاً ، ومع تأخر إسلامه فقد أخذ في نصر الإسلام بحظ وافر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغْزِيه مرةً ويبعثه أخرىٰ .

روينا في « الصحيحين » عنه واللفظ لمسلم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (٤٦٥٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٩/ ٢٢٥) بنحوه ، صَحِلَ : بَحَّ .

(٣) **الإزاحة** : الإماطة .

(٤) البخاري (٥٧) ومسلم (٩٧/ ٥٦) .

(٥) البخاري (٣٨٢٢) ومسلم (٢٤٧٥) .

وسلم : « يَا جَرِيرُ ؛ أَلاَ تُرِيحُنِي مِنْ ذِي ٱلْخَلَصَةِ بَيْتٍ لِخَثْعَمَ كَانَ يُدْعَىٰ كَعْبَةَ ٱلْيَمَانِيَّةِ ؟ » قال : فنفرتُ إليه في خمسين ومئة فارس ، وكنت لا أثبت على الخيل ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بيده في صدري وقال : « اَللَّهُمَّ ؛ ثَبِّتْهُ وَٱجْعَلْهُ هَادِياً مَهْدِيّاً » قال : فانطلق فحرقها بالنار ، ثم بعث جرير إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يبشره يُكْنىٰ أبا أرطاةَ ، فأتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ؛ ما جئتك حتىٰ تركْناها كأنها جمل أجرب ، فبرَّك رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ خيل أحمسَ ورجالِها خمسَ مرات[1] .

ثم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قُبيل موته ، فلقي بها ذا كَلاَع وذا عمرو ، قال جرير : فجعلت أحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي ذو عمرو : لئن كان الذي تذكر من أمر صاحبك لقد مر علىٰ أجله منذ ثلاثٍ ، قال : وأقبلا معي حتىٰ إذا كنا في بعض الطريق . . رُفع لنا ركب من قبل المدينة ، فسألناهم فقالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخلف أبو بكر ، والناس صالحون ، فقالا : أخبر صاحبك أنا قد جئنا ولعلنا سنعود إن شاء الله ، ورجعا إلى اليمن ، فأخبرت أبا بكر بحديثهم ، قال : أفلا جئتَ بهم ؟! قال : فلما كان بعد . . قال لي ذو عمرو : يا جرير ؛ إن لك عليَّ كرامةً ، وإني مخبرك خبراً : إنكم يا معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تأمَّرتم في آخرَ ، فإذا كانت بالسيف . . كانوا ملوكاً يغضبون غضب الملوك ، ويرضون رضا الملوك ، رواه البخاري[2] .

وذُكر أن ذا الكَلاع لما أتاه جرير . . أسلم وأعتق ثمانية عشر ألف عبد ، وقيل : اثنا عشر ألف بيت ، والله أعلم .

وفي شوال منها : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد بني الحارث بن كعب أهل نجران وفيهم قيس بن الحصين ذو الغُصَّة ، سمي بذلك لغُصَّة كانت في حلقه[3] ، وفيه قال عمر بن الخطاب يوماً وقد خطب الناس : لا تُزادُ امرأةٌ في صَداقها علىٰ كذا وكذا ولو كانت

---

(١) البخاري (٤٣٥٧) ومسلم (٢٤٧٦) .

(٢) البخاري (٤٣٥٩) .

(٣) **الغُصَّةُ** : ما يختنق به .

بنت ذي الغُصَّة ، وفيهم يزيد بن عبد المَدَان وآخرون ، وكان سبب وفادتهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهم خالد بن الوليد ، وأمره أن يدعوهم ثلاثة أيام ثم يقاتلهم بعدها ، فلما قدم عليهم خالد . . أسلموا ، فكتب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقدم بهم معه ، فقدم بهم خالد ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال : « مَنْ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَأَنَّهُمْ رِجَالُ ٱلْهِنْدِ ؟ » فلما وقفوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قالوا : نشهد إنك لرسول الله وأن لا إلـٰه إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَأَنِّي رَسُولُ ٱللهِ » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتُمُ ٱلَّذِينَ إِذَا زُجِرُوا . . ٱسْتُقْدِمُوا » كررها عليهم ثلاثاً ، كل ذلك لا يجيبونه ، فقال له يزيد بن عبد المَدَان في الرابعة : نعم يا رسول الله ؛ نحن الذين إذا زُجِروا . . استُقدموا ـ قالها ثلاث مرات ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ أَنَّ خَالِداً لَمْ يَكْتُبْ أَنَّكُمْ أَسْلَمْتُمْ وَلَمْ تُقَاتِلُوا . . لأَلْقَيْتُ رُؤُوسَكُمْ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ » فقال يزيد بن عبد المَدَان : أما والله ما حمِدناك ولا حمِدنا خالداً ، قال : « فَمَنْ حَمِدْتُمْ ؟ » قالوا : حمِدنا الله الذي هدانا بك ، قال : « صَدَقْتُمْ » ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بِمَ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ؟ » قالوا : لم نكن نغلب أحداً ، قال : « بَلَىٰ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ » قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ، ولا نبدأ أحداً بظلم ، قال : « صَدَقْتُمْ » وأمَّر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ذي الغصة ، ولم يمكثوا بعد أن رجعوا إلىٰ قومهم إلاَّ أربعة أشهر حتىٰ توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انصرفوا من عنده بعث إليهم عمرو بن حزم ، وكتب له كتاباً فيه جمل من الأحكام[1] .

وفي هـٰذه السنة : نزل قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ الآية وما بعدها في قصة مشهورة ، وهي أنه خرج تميم بن أوس الداري وعدي بن بداء النصرانيان في تجارة لهما إلى الشام ، وخرج معهما بديل مولىٰ عمرو بن العاص وكان مسلماً ، فمرض بديل وأوصىٰ إليهما ، وكتب جميع ما معه في رقعة وجعلها في جوالقه ولم يخبرهما بذلك ، فلما مات . .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٩٢ـ٥٩٤) ، و« السيرة النبوية » (٤/ ١٨٨ـ١٩٠) .

أخذا من متاعه إناء من فضة منقوشاً بالذهب ، ثم قدما ببقية المتاع علىٰ أهله ففتشوه فوجدوا الكتاب، وفقدوا مما ذكر فيه الإناءَ الذي أخذه الوصيان، فسألوهما عنه فجحداه ، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأصرا على الإنكار وحلفا ، فأنزل الله هـٰذه الآية .

واختلف المفسرون في حكمها : فقالت جماعة منهم : كانت شهادة أهل الذمة مقبولةً فنسخت ، وناسخها قوله تعالىٰ : ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ، وذهب قوم إلىٰ أنها ثابتة ، وأنه إذا لم يجد مسلمين . . فيشهد كافرين .

ولما نزلت الآية . . دعا النبي صلى الله عليه وسلم تميماً وعدياً فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر ، فحلفا وخلّىٰ سبيلهما ، ثم ظهر الإناء بعد ذلك بمكة ، فرفعوهما إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي : إثماً بخيانتهما وأيمانهما الكاذبة ﴿ فَـَٔاخَرَانِ﴾ من أولياء الميت ﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني : مقام الوصيين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي : فيهم ولأجلهم الإثم ، وهم ورثة الميت استحق الحالفان بسببهم الإثم و(علىٰ) بمعنىٰ (في) ، والأوليان هنا : نعت لقوله : ﴿ فَـَٔاخَرَانِ﴾ ففيه جواز نعت المعرفة للنكرة ، وهما تثنية الأولىٰ ، والأولىٰ هو الأقرب .

ولما نزلت الآية بانتقال اليمين إلىٰ أولياء الميت . . قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا ، ودفع الإناء إليهما ، وكان تميم الداري بعدما أسلم يقول : صدق الله ورسوله ؛ أنا أخذت الإناء ، فأتوب إلى الله وأستغفره .

وإنما انتقلت اليمين إلى الأولياء ؛ لأن الوصيين حين وجدا الإناء . . ادعيا أنهما ابتاعاه منه ، وهـٰذا الحكم مستمر ، والله أعلم .

وفيها : بعث فَروة بن عمرو الجُذَامي إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً بإسلامه ، وأهدىٰ له فرساً وبغلةً ، وكان فَروة عاملاً للروم علىٰ من يليهم من العرب ، وكان منزله مُعان ، ولما بلغ الروم خبر إسلامه . . أخذوه فحبسوه حيناً ثم ضربوا عنقه ، ولما قدموه للقتل . . أنشد : [من الكامل]

أَبْلِـغْ سَـرَاةَ ٱلْمُسْلِمِيـنَ بِـأَنَّنِـي ... سِلْـمٌ لِـرَبِّـي أَعْظُمِـي وَمَقَـامِـي [1]

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٥٩١ـ٥٩٢) .

وفيها : بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب إلىٰ نَجران خلف خالد بن الوليد ، روينا في « صحيح البخاري » عن البراء بن عازب قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع خالد بن الوليد إلى اليمن ، قال : ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه فقال : « مُرْ أَصْحَابَ خَالِدٍ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ أَنْ يُعَقِّبَ مَعَكَ . . فَلْيُعَقِّبْ ، وَمَنْ شَاءَ . . فَلْيُقْبِلْ » فكنت فيمن عقَّب معه ، قال : فغنمت أواق ذوات عدد[1] .

وروينا فيه أيضاً عن بُريدة بن الحصيب الأسلمي قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً إلىٰ خالدٍ ليقبض الخمس ، وكنت أُبغض علياً ، وقد اغتسل فقلت لخالد : ألا ترىٰ إلىٰ هـٰذا ؟ فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم . . ذكرت ذلك له فقال : « يَا بُرَيْدَةُ ؛ أَتُبْغِضُ عَلِيّاً ؟ » فقلت : نعم ، فقال : « لاَ تُبْغِضْهُ ؛ فَإِنَّ لَهُ فِي ٱلْخُمُسِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ »[2] ومعنىٰ ذلك : أنه رآه أخذ جاريةً من المغنم واغتسل منها ، فظن أنه غلَّ ، فلما أعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخذ أقل من حقه . . أحبه ، وكان بُريدة بعدها ممن يحب علياً ويتولاه .

وروي خارج « الصحيحين » : أن الجارية وقعت في الخمس ، ثم خمس فصارت في سهم ذوي القربىٰ ، ثم صارت في سهم عليّ رضي الله عنه[3] وبهـٰذا يزول الإشكال ، فعليّ كرم الله وجهه أتقىٰ وأورع من أن تستفزه غلبة الشهوة على ارتكاب محارم الله ، وقد اجتمع فيه من الدين المتين والورع الحاجز والزهادة في الدنيا واجتماع الفضائل ما لم يجتمع لأحد سواه .

وقد أبغضته فرقةٌ تسمى الناصبة ففرطوا في دينهم ، وشَقُوا بسببه ، وأحبه آخرون فأفرطوا حتىٰ أبغضوا بسببه كثيراً من الصحابة ، وقد تقدم إليه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال : « يَا عَلِيُّ ؛ إِنَّ فِيكَ مَثَلاً مِنِ ٱبْنِ مَرْيَمَ ؛ أَبْغَضَهُ ٱلْيَهُودُ حَتَّىٰ بَهَتُوا أُمَّهُ ، وَأَحَبَّهُ ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ أَنْزَلُوهُ ٱلْمَنْزِلَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ بِهَا »[4] ، وتنكب أهل السنة والجماعة[5] عن

---

(١) البخاري (٤٣٤٩) .
(٢) البخاري (٤٣٥٠) .
(٣) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٨٤٢٨) ، وأحمد (٥/ ٣٥٠) .
(٤) أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ١٣٦) بنحوه .
(٥) في (أ) و(و) : (وسكت) .

الطرفين ، فأحبوا علياً وتولوا جميعهم ، ونشروا محاسنهم ، وجانبوا معايبهم وكذّبوا نقلتها ، واعتذروا عما صح منها ؛ فالمؤمن يتحرى المعاذير ، والمنافق يتبع العورات ، ومن سَلَّم . . سَلِم ، ومن أطلق لسانه بالثلب . . ندم ، ومِن حسن إسلام المرء . . تركه ما لا يعنيه ، والله ولي التوفيق .

وروينا في « صحيح البخاري » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بعث عليٌّ رضي الله عنه إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذُهَيْبَة في أديمٍ مَقْروظ لم تُحصَّل[1] من ترابها ، قال : فقسمها بين أربعة نفرٍ ؛ بين عُيينة بن بدر وأقرع بن حابس وزيد الخيل والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل ، فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهٰذا من هٰؤلاء ، قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أَلاَ تأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ ٱلسَّمَاءِ صَبَاحاً وَمَسَاءً ؟! » قال : فقام رجل غائر العينين مُشرف الوجنتين ناشز الجبهة كَثُّ اللحية محلوق الرأس مُشمَّر الإزار[2] فقال : يا رسول الله ؛ اتق الله ، قال : « وَيْلَكَ! أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ ٱلأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ ٱللهَ ؟! » قال : ثُم ولّى الرجل ، قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ؛ ألا أضرب عنقه ؟ قال : « لاَ ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي » فقال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ » قال : ثم نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُقفٍّ فقال : « إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِىءِ هَـٰذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ رَطْباً لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ ٱلدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ ٱلسَّهْمُ مِنَ ٱلرَّمِيَّةِ » وأظنه قال : « لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ . . لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ »[3] .

ووافىٰ عليّ مقدمه من اليمن النبي صلى الله عليه وسلم بمكة في حجة الوداع ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « بِمَ أَهْلَلْتَ ؛ فَإِنَّ مَعَنَا أَهْلَكَ » قال : أهللتُ بما أهلّ به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « أَمْسِكْ ؛ فَإِنَّ مَعَنَا هَدْياً » رواه البخاري[4] .

---

(١) **الذُّهيبة** : تصغير ذهبة ، **المقروظ** : مدبوغ بالقَرَظ ، **لم تُحصَّل** : لم تخلص من تراب المعدن .

(٢) **غائر العينين** : منخفضهما ، **مشرف الوجنتين** : مرتفعهما ، **ناشز الجبهة** : مرتفعها ، **كَثُّ اللحية** : كثيرها .

(٣) البخاري (٤٣٥١) .

(٤) البخاري (٤٣٥٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وفي آخر هٰذه السنة : قدم رسولاَ مسيلمة بكتابه وفيه : من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله السلام عليك ، أما بعد : فإني قد أُشركت في الأمر معك ، ولنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسوليه : « فَمَا تَقُولاَنِ أَنْتُمَا ؟ » قالا : نقول كما قال ، فقال : « أَمَا وَٱللهِ ؛ لَوْلاَ أَنَّ ٱلرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ . . لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا »[1] ثم كتب إليه : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ ٱلْكَذَّابِ ، ٱلسَّلاَمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱلأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[2] .

وممن ذكر في هٰذه السنة من الوفود : وفد الرهاويين ، ووفد عبس ، ووفد خولان وهم عشرة .

خاتمتها : حجة الوداع

وسميت بذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم ودع الناس فيها وقال : « خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ ؛ فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَـٰذَا »[3] قال ابن عمر : (كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ما ندري ما حجة الوداع) رواه البخاري[4] .

وكان جملة من حضرها من الصحابة : أربعين ألفاً ، وقد اختلفت روايات الصحابة في صفة حجته صلى الله عليه وسلم هل كان قارناً أو مفرداً أو متمتعاً ، وبحسب ذلك اختلف من بعدهم ، قال الإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : وطريق الجمع بين الروايات : أنه صلى الله عليه وسلم كان أولاً مفرداً ، ثم صار قارناً ، فمن روى الإفراد . . فهو الأصل ، ومن روى القران . . اعتمد آخر الأمر ، ومن روى التمتع . . أراد التمتع اللغوي وهو الانتفاع والارتفاق ، وقد ارتفق بالقران كارتفاق المتمتع وزيادة وهي

(١) أخرجه أبو داوود (٢٧٦١) عن نعيم بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٠٠) وهو عند الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٤٣) .
(٣) أخرجه النسائي (٣٠٦٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٤) البخاري (٤٤٠٣) .

الاقتصار علىٰ فعل واحد ، قال : وبهٰذا الجمع تنتظم الأحاديث كلها[1] .

وقال القاضي عياض رحمه الله : قد أكثر الناس الكلام علىٰ هٰذه الأحاديث ، فمن مجيد منصف ، ومن مقصر متكلف ، ومن مطيل مكثر ، ومن مقتصر مختصر ، قال : وأوسعهم في ذلك نَفَساً أبو جعفر الطحاوي الحنفي ؛ فإنه تكلم في ذلك في زيادة علىٰ ألف ورقة .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : وأولىٰ ما يقال في هٰذا علىٰ ما فحصناه من كلامهم واخترناه من اختياراتهم مما هو أجمع للروايات وأشبه بمساق الأحاديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم أباح للناس فعل هٰذه الأنواع الثلاثة ؛ ليدل علىٰ جواز جميعها ؛ إذ لو أمر بواحد منها . . لكان غيره يظن أنه لا يجزىء ، فأضيف الجميع إليه ، وأخبر كل واحد بما أمره به وأباحه له ، ونسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إما لأمر به ، وإما لتأويل عليه[2] .

وأجمع الأحاديث في سياق حجة الوداع : حديث جابر ، وهو مما انفرد مسلم بإخراجه فقال رحمه الله تعالىٰ : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم جميعاً عن حاتِم ، قال أبو بكر : حدثنا حاتِم ابن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : دخلنا علىٰ جابر بن عبد الله ، فسأل عن القوم حتى انتهىٰ إليَّ فقلتُ : أنا محمد بن علي بن حسين ، فأهوىٰ بيده إلىٰ رأسي فنزع زِرِّي الأعلىٰ ثم نزع زِرِّي الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثَديَيَّ وأنا يومئذ غلامٌ شاب فقال : مرحباً بك يا ابن أخي ، سل عما شئتَ ، فسألتُه وهو أعمىٰ . وحضر وقت الصلاة ، فقام في ساجة[3] ملتحفاً بها كُلَّما وضعها علىٰ مَنكبه . . رَجَعَ طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلىٰ جنبه على المِشجب[4] ، فصلىٰ بنا فقلتُ : أخبرني عن حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بيده فعقد تسعاً فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسعَ سنين لم يحج ، ثم أذَّن في الناس في العاشرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجٌّ ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر شرح « صحيح مسلم » (٨/ ١٣٥) .

(٢) انظر شرح « صحيح مسلم » للنووي (٨/ ١٣٦) .

(٣) الساجة : ثوب كالطيلسان .

(٤) المِشجب : اسم لأعواد يوضع عليها الثياب ومتاع البيت .

وسلم ويعملَ مثل عمله ، فخرجنا معه حتىٰ إذا أتينا ذا الحُليفة . . فولدت أسماءُ بنت عُميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف أصنع ؟ قال : « اِغْتَسِلِي وَٱسْتَثْفِرِي[1] بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي » فصَلَّىٰ ركعتين ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد ، ثم ركب القَصواء حتىٰ إذا استوت به ناقته على البيداء . . نظرتُ إلىٰ مدِّ بصري بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثلَ ذلك ، وعن يساره مثلَ ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يَعرف تأويله ، وما عمل به من شيء . . عملنا به ، فأهلَّ بالتوحيد : « لَبَّيْكَ ٱللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ ٱلْحَمْدَ وَٱلنِّعْمَةَ لَكَ وَٱلْمُلْكَ ، لاَ شَرِيكَ لَكَ » وأهلَّ الناس بهـٰذا الذي يُهلون به اليوم ، فلم يَرُدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم شيئاً منه ، ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلبيته .

قال جابر : لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتىٰ إذا أتينا البيتَ معه . . استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشىٰ أربعاً ، ثم نفذ إلىٰ مقام إبراهيم فقرأ : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت ، فكان أبي يقول ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم : كان يقرأ في الركعتين (قل هو الله أحد) و(قل يا أيها الكافرون) ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا . . قرأ « ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ ٱللهُ بِهِ » فبدأ بالصفا فرقي عليه ، حتىٰ رأى البيت . . فاستقبل القبلة ، فوحَّد الله وكبره وقال : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ ٱلأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ثم دعا بين ذلك قال مثلَ هـٰذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى انصبَّتْ قدماه في بطن الوادي [سعىٰ] ، حتىٰ إذا صعدنا . . مشىٰ حتىٰ أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا ، حتىٰ إذا كان آخر طوافه على المروة . . قال : « لَوْ أَنِّي ٱسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا ٱسْتَدْبَرْتُ . . لَمْ أَسُقِ ٱلْهَدْيَ ، وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ . . فَلْيَحِلَّ وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً » فقام سُراقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يا رسول الله ؛

---

(١) **الاستثفار** : أن تَشُدَّ في وسطها شيئاً ، وتأخذ خرقةً عريضةً تجعلها محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها .

ألعامنا هـٰذا أم للأبد ؟ فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه واحدةً في الأخرىٰ وقال : « دَخَلَتِ ٱلْعُمْرَةُ فِي ٱلْحَجِّ » مرتين « لاَ ، بَلْ لِأَبَدٍ أَبَدٍ » .

وقدم عليّ رضي الله عنه من اليمن ببُدْن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حلَّ ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : أبي أمرني بهـٰذا ، قال : فكان عليٌّ يقول بالعراق : فذهبتُ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُحرِّشاً علىٰ فاطمة[1] الذي صنعت ، مستفتياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكرتْ عنه ، وأخبرته أني أنكرتُ ذلك عليها فقال : « صَدَقَتْ صَدَقَتْ ، مَاذَا قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ ٱلْحَجَّ ؟ » قال : قلت : اللهم ؛ إني أُهِلُّ بما أهل به رسولك ، قال : « فَإِنَّ مَعِيَ ٱلْهَدْيَ فَلاَ تَحِلَّ » فكان جماعةُ الهدي الذي قدم به عليّ من اليمن والذي أتىٰ به النبي صلى الله عليه وسلم مئة .

قال : فحل الناس كلهم فحلقوا وقَصَّرُوا إلاَّ النبي صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدي ، فلما كان يوم التروية . . توجهوا إلىٰ منىً فأهلوا بالحج ، وركب النبي صلى الله عليه وسلم فصلىٰ بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلاً حتىٰ طلعت الشمس ، وأمر بقُبَّةٍ من شَعَرٍ ضربت له بنَمِرةَ ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تشك قريش إلاَّ أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أتىٰ عرفة فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة فنزل بها ، حتىٰ إذا زاغت الشمس . . أمر بالقصواء فرُحلت له ، فأتىٰ بطنَ الوادي ، فخطب الناس وقال : « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هَـٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هَـٰذَا ، أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ، وَدِمَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا : دَمُ ٱبْنِ رَبِيعَةَ بْنِ ٱلْحَارِثِ ـ كَانَ مُسْتَرْضَعاً فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ ـ وَرِبَا ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رِباً أَضَعُهُ مِنْ رِبَانَا : رِبَا ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ ، وَٱتَّقُوا ٱللهَ فِي ٱلنِّسَاءِ ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ ٱللهِ ، وَٱسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ ٱللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلاَّ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَٰلِكَ . . فَٱضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ

---

(١) التحريش : الإغراء ، والمراد به هنا : أن يذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ما يقتضي عتابها .

ٱعْتَصَمْتُمْ بِهِ ؛ كِتَابَ ٱللهِ ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُتها إلى الناس : « ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ ، ٱللَّهُمَّ ٱشْهَدْ » ثلاث مرات .

ثم أذّن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصَّخَرات ، وجعل حَبْلَ المُشاة[1] بين يديه واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتىٰ غربت الشمس وذهبت الصُّفرة قليلاً حتىٰ غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شَنَقَ للقصواء الزِّمام حتىٰ إن رأسها ليصيب مَوْرِك رجله ويقول بيده اليمنىٰ : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ ٱلسَّكِينَةَ ٱلسَّكِينَةَ » كلما أتىٰ حَبْلاً من الحبال[2] . . أرخىٰ لها قليلاً حتىٰ تَصْعَد ، حتىٰ أتى المزدلفة فصلىٰ بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يُسبِّح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتىٰ أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، فدعاه وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفاً حتىٰ أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن العباس خلفه ، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مرت به ظُعُن يَجْرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الكريمة علىٰ وجه الفضل ، فحول الفضلُ وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحوَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الشق الآخر علىٰ وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر ، حتىٰ أتىٰ بطن محسر ، فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرىٰ حتىٰ أتى الجمرة التي عند الشجرة ، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها كل حصاة مثل حصى الخَذْف ، رمىٰ من بطن الوادي ، ثم انصرف إلى المَنْحَر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطىٰ علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قِدْرٍ فطبخت ، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاض إلى البيت ، فصلىٰ بمكة الظهر ، فأتىٰ

---

(١) **حَبْلُ المشاة** : مجتمعهم .

(٢) **الحَبْلُ** : التل اللطيف من الرمل الضخم .

بني عبد المطلب يَسْقون علىٰ زمزم فقال : « اِنْزِعُوا بَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، فَلَوْلاَ أَنْ يَغْلِبَكُمُ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ سِقَايَتِكُمْ . . لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ » فناولوه دلواً فشرب منه[1] . انتهىٰ حديث جابر رضي الله عنه ، وهو حديث عظيم الفوائد ، وقد اشتمل علىٰ جمل من مهمات القواعد .

قال القاضي عياض رحمه الله : وقد تكلم الناس علىٰ ما فيه من الفقه وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً ، وخرج فيه من الفقه مئة ونيفاً وخمسين نوعاً ، قال : ولو تقصىٰ . . لزيد علىٰ هـٰذا العدد قريب منه[2] ، والله أعلم .

فصل

[من الواردات في حجة الوداع]

ومن الواردات في حجة الوداع : نزول قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ وكان نزولها بعد العصر يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات علىٰ ناقته العضباء ، فحين نزولها كاد عضد الناقة أن يندق[3] من شدة ثقلها فبركت ، روينا في « صحيح البخاري » عن طارق بن شهاب قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً ، فقال عمر رضي الله عنه : إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت ؛ أنزلت يوم عرفة وإنّا والله بعرفة[4] ، قال ابن عباس : كان ذلك اليوم خمسة أعياد : جمعة ، وعرفة ، وعيد اليهود ، وعيد النصارىٰ ، والمجوس ، ولم يجتمع أعياد أهل الملل في يوم قبله ولا بعده[5] .

وروىٰ هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت هـٰذه الآية . . بكىٰ عمر ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ ؟ » قال : بكائي أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا

---

(١) مسلم (١٢١٨) .
(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤/ ٢٦٥) .
(٣) يندق : ينحطم .
(٤) البخاري (٤٦٠٦) .
(٥) انظر « تفسير البغوي » (٢/ ١٠) .

كمل . . فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، قال : « صَدَقْتَ »[1] فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ولا شيء من الفرائض والأحكام .

وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها أحداً وثمانين يوماً ، فكأنها كانت في معنى النعي له صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك : ما رويناه في « الصحيحين » واللفظ للبخاري عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع في وجع أَشْفَيتُ منه على الموت ، فقلت : يا رسول الله ؛ بلغ بي من الوجع ما ترىٰ ، وأنا ذو مال ولا يرثني إلاَّ بنت لي واحدة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لاَ » قلت : أفأتصدق بشطره ؟ قال : « لاَ » قلت : فالثلث ؟ قال : « وَٱلثُّلُثُ كَثِيرٌ ، وَإِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ . . خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ ٱلنَّاسَ ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ ٱللهِ . . إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى ٱللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي ٱمْرَأَتِكَ » قلت : يا رسول الله ؛ أُخلَّف بعد أصحابي ؟ قال : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ ٱللهِ . . إِلاَّ ٱزْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً ، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّىٰ يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ ، اَللَّهُمَّ ؛ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ ، وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ ، لَكِنِ ٱلْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ » رثىٰ له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توفي بمكة[2] .

ومنها : ما رويناه في « صحيح البخاري » : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير : « اِسْتَنْصِتِ ٱلنَّاسَ » فقال : « لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »[3] وقال أيضاً : « أَلاَ إِنَّ ٱلزَّمَانَ قَدِ ٱسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ ، ٱلسَّنَةُ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ : ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو ٱلْقَعْدَةِ وَذُو ٱلْحِجَّةِ وَٱلْمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ شَهْرُ مُضَرَ ٱلَّذِي بَيْنَ جُمَادَىٰ وَشَعْبَانَ ، أَيُّ شَهْرٍ هَـٰذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : « أَلَيْسَ ذَا ٱلْحِجَّةِ ؟! » قلنا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَـٰذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتىٰ ظننَّا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال :

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٥٤٩) ، وانظر « تفسير الطبري » (٦/ ٨٠) .

(٢) البخاري (٤٤٠٩) ، **أشفيت** : أشرفت ، **عالة** : فقراء ، **يتكففون** : يسألون بأكفهم ، **رَثَىٰ** : توجع .

(٣) البخاري (٤٤٠٥) .

« أَلَيْسَ ٱلْبَلْدَةَ ؟! » قلنا : بلىٰ ، قال : « فَأَيُّ يَوْمٍ هَـٰذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أَلَيْسَ هَـٰذَا يَوْمَ ٱلنَّحْرِ ؟! » قلنا : بلىٰ ، قال : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ـ قال محمد : وأحسبه قال : وَأَعْرَاضَكُمْ ـ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا فِي بَلَدِكُمْ هَـٰذَا فِي شَهْرِكُمْ هَـٰذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَلاَ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلاَّلاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، أَلاَ لِيُبَلِّغِ ٱلشَّاهِدُ ٱلْغَائِبَ ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ ، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ »[1] .

ومعنى استدارة الزمان : أنهم كانوا في الجاهلية يَنْسَؤُون الشهر الحرام ؛ أي : يؤخرونه إذا احتاجوا إلى القتال فيه ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، فربما يجعلون المحرم صفراً ، فإذا احتاجوا إلىٰ تأخير تحريم صفر . . أخروه إلىٰ ربيع ، هٰكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم إلى السنة كلها ، وتحولت الشهور عن أماكنها ، فوافق حجة الوداع شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة ، فأعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم أن أشهر الحج قد تناسخت باستدارة الزمان ، وعاد الأمر إلىٰ ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السماوات والأرض ، وأمرهم بالمحافظة عليه ؛ لئلا يتبدل في مستأنف الأيام .

ومن ذلك : ما روى ابن إسحاق وغيره ومعناه في « الصحيحين » عن عمرو ابن خارجة قال : بعثني عتاب بن أسيد إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة ، فبلغته ، ثم وقفت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لعابها ليقع علىٰ رأسي ، فسمعته وهو يقول : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ قَدْ أَدَّىٰ إِلَىٰ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَإِنَّهُ لاَ يَجُوزُ وَصِيَّةٌ لِوَارِثٍ ، وَٱلْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ ٱلْحَجَرُ ، وَمَنِ ٱدَّعَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ تَوَلَّىٰ غَيْرَ مَوَالِيهِ . . فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً »[2] .

وصدر صلى الله عليه وسلم من حجته[3] وقد أرىٰ الناسَ مناسكَهم ، وعلمهم معالم دينهم وحذر وأنذر ، فكانت حجة البلاغ وحجة الوداع ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٦) ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكرة رضي الله عنه .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٠٥) .
(٣) صدر : رجع .

السنة المخترمة بوفاة النفس الزكية المكرمة

وهي سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة ، وثلاث وعشرين من النبوة ، وثلاث وستين من المولد ، وكأنها آخر الدنيا .

قال ابن إسحاق : ثم قفَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعني من حجة الوداع ـ فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر ، وضرب على الناس بعثاً إلى الشام وأمّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه ، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يُوطىء الخيل تُخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين[١] ، وروىٰ كثيرون أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يغير علىٰ أُبْنَىٰ صباحاً وأن يُحرِّق ، وأُبْنَىٰ : هي القرية التي عند مؤتة حيث قتل أبوه زيد ، وإنما أمره ليدرك ثأره .

وطعن ناس في إمارته ؛ لكونه مولىً ، ولحداثة سنه ، وكان إذ ذاك ابن ثماني عشرة سنة[٢] ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ . فَقَدْ كُنْتُمْ قَبْلُ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ ، وَٱيْمُ ٱللهِ ؛ إِنْ كَانَ لَخَلِيقاً لِلإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ هَـٰذَا لَمِنْ أَحَبِّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ » رواه البخاري[٣] .

وروى ابن إسحاق عن رجاله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استبطأ الناسَ في بعث أسامة بن زيد وهو في وجعه ، فخرج عاصباً رأسه حتىٰ جلس على المنبر وقد كان الناس قالوا : أَمَّر غلاماً علىٰ جلة المهاجرين والأنصار ، فحمد الله وأثنىٰ عليه بما هو أهله ثم قال : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ ، فَلَعَمْرِي ؛ لَئِنْ قُلْتُمْ فِي إِمَارَتِهِ لَقَدْ قُلْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإِنَّهُ لَخَلِيقٌ لِلإِمَارَةِ ، وَإِنْ كَانَ أَبُوهُ لَخَلِيقاً لَهَا » ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وانكمش الناس ـ أي : أسرعوا في جهازهم ـ واستعز برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه ، فخرج أسامة بجيشه حتىٰ نزل الجُرْفَ من المدينة علىٰ فرسخ ، فضرب به عسكره ، وتتامَّ إليه الناس ، وأقاموا ينتظرون ما الله قاض في رسوله .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٦٠٦) ، **التخوم** : الجوانب .

(٢) سيأتي قريباً (ص ٤٠٦) أنه إذ ذاك ابن عشرين سنة ، وذلك حسب الاختلاف الذي فيه .

(٣) البخاري (٣٧٣٠ ـ ٤٤٦٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

قال أسامة : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم.. هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة ، فدخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أُصمِتَ فلا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها عليّ ، أعرف أنه يدعو لي[1] .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشتغل أبو بكر بعد انتظام أمر الخلافة إلاَّ بتجهيز جيش أسامة ، وكُلِّم في استبقاء الجيش حتىٰ يتسق أمر الناس أو أن يولي عليهم غير أسامة ، فقال : والله ؛ لو لعبت الكلاب بخلاخل نساء المدينة.. ما رددت جيشاً أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عزلت والياً ولاه .

فَصْلٌ

في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفاته وما ورد في ذلك من الروايات مما أكثره في الصحاح

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

وخرج الدارمي في « مسنده » : أن العباس رضي الله عنه قال : لأعلمَنَّ ما بقاء النبي صلى الله عليه وسلم فينا ، فقال : يا رسول الله ؛ إني أراهم قد آذوك ، وآذاك غبارهم ، فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه ، فقال : « لاَ أَزَالُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ يَطَؤُونَ عَقِبِي وَيُنَازِعُونِي رِدَائِي حَتَّىٰ يَكُونَ ٱللهُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْرِجُنِي مِنْهُمْ » قال : فعلمت أن بقاءه فينا قليل[2] .

قال أهل التواريخ : ابتدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم مرضه في أول شهر ربيع الأول ، وأول ذلك : أنه خرج من جوف الليل إلى البقيع ، فدعا لهم واستغفر وتضرع كالمودع للأموات ، وأصبح مريضاً من يومه .

قالت عائشة : لما رجع من البقيع.. وجدني وأنا أقول : وارأساه! فقال رسول الله

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٥٠ـ٦٥١) .

(٢) مسند الدارمي (٧٦) .

صلى الله عليه وسلم : « ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ . . فَأَسْتَغْفِرَ لَكِ وَأَدْعُوَ لَكِ » فقلت : واثكلتاه! والله ؛ إني لأظنك تحب موتي ، ولو كان ذلك . . لظَلِلتَ آخر يومك مُعرِّساً ببعض أزواجك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ! لَقَدْ هَمَمْتُ أَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ وَٱبْنِهِ فَأَعْهَدَ أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ أَوْ يَتَمَنَّى ٱلْمُتَمَنُّونَ ، ثُمَّ قُلْتُ : يَأْبَى ٱللهُ وَيَدْفَعُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ، أَوْ يَدْفَعُ ٱللهُ وَيَأْبَى ٱلْمُؤْمِنُونَ » رواه البخاري[1] .

وروىٰ مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه : « اِدْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكِ وَأَخَاكِ حَتَّىٰ أَكْتُبَ كِتَاباً ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّىٰ مُتَمَنٍّ أَوْ يَقُولَ قَائِلٌ : أَنَا أَوْلَىٰ ، وَيَأْبَى ٱللهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ »[2] وهـٰذان الحديثان من أدل الدلائل علىٰ خلافة أبي بكر ، وقد ثبت أصلهما من « الصحيحين » كما ترىٰ والحمد لله .

وكان وجعه صلى الله عليه وسلم : الخاصرة ، وهو عرق في الكُلْية إذا تحرك . . أوجع صاحبه ، وقيل : الصداع .

وروى البخاري عن عائشة قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مرضه الذي مات فيه : « يَا عَائِشَةُ ؛ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ ٱلطَّعَامِ ٱلَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ ، فَهَـٰذَا أَوَانُ وَجَدْتُ ٱنْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَٰلِكَ ٱلسُّمِّ »[3] وغير مدافع أنه قد كان مع ذلك حمىٰ ، فيحتمل أن يكون مع وجودها تداعت أسباب هـٰذه الأوجاع كلها .

وكان وجعه صلى الله عليه وسلم شديداً ؛ روينا في « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَكُ ، فمسسته فقلت : إنك لتوعك وَعْكاً شديداً ؟! قال : « أَجَلْ ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ » قلت : ذلك بأن لك أجرين ؟ قال : « أَجَلْ ، ذَلِكَ كَذَلِكَ ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذىً شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا . . إِلاَّ كَفَّرَ ٱللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ ٱلشَّجَرَةُ وَرَقَهَا »[4] وفي معناه : قوله صلى الله

---

(١) البخاري (٥٦٦٦) .
(٢) مسلم (٢٣٨٧) .
(٣) البخاري (باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته) ، **الأَبْهَرُ** : عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب ، إذا انقطع . . مات صاحبه .
(٤) البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١) ، **الوَعْكُ** : الحُمَّىٰ ، **تَحُطُّ** : تلقي منتثراً .

عليه وسلم : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ بَلاَءً : ٱلأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ ٱلأَمْثَلُ ، فَٱلأَمْثَلُ »[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم في مرضه يدور علىٰ أزواجه وهن يومئذ تسع ، حتى اشتد به المرض في يوم ميمونة ، فدعاهن فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة ، فأذِنَّ له ، فخرج صلى الله عليه وسلم ويدٌ له علىٰ عليّ والأخرىٰ على الفضل بن عباس . وروينا في « الصحيحين » عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعدما دخل بيتها واشتد وجعه : « أَهَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى ٱلنَّاسِ » فأجلسناه في مِخْضب لحفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم طَفِقنا نصب عليه من تلك القِرب حتىٰ طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن ، قالت : ثم خرج إلى الناس فصلىٰ بهم وخطبهم[2] .

وروىٰ أهل السير : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم الخميس وقد شد رأسه بعصابة دسماء ، فرقي المنبر فجلس عليه مصفر الوجه ، وأمر بلالاً فنادىٰ في الناس أن اجتمعوا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا صغيرهم وكبيرهم ، وتركوا أبواب بيوتهم مفتحة ، وغص المسجد بمن فيه ، ثم قام فخطبهم خطبةً بليغةً ، وكان أول ما تكلم به أنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ علىٰ قتلىٰ أحد واستغفر لهم ، روينا في « صحيح البخاري » عن عقبة بن عامر قال : صلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ قتلىٰ أُحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : « إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ ٱلْحَوْضُ ، وَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَـٰذَا ، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا ، وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ عَلَيْكُمُ ٱلدُّنْيَا أَنْ تنافَسُوهَا » قال : فكانت آخر نظرة نظرتها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

ثم قال أيضاً ما رويناه في « صحيح مسلم » عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال : « إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ ٱللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ ٱلدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَٱخْتَارَ مَا عِنْدَهُ » فَبَكَىٰ أبو بكر وبَكَىٰ فقال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به ، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في باب : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) .

(٢) البخاري (٥٧١٤) ومسلم (٤١٨) ، واللفظ للبخاري ، **المِخْضَبُ** : إناء يغتسل فيه .

(٣) البخاري (٤٠٤٢) ، **الفَرَطُ** : هو الذي يتقدم الواردين فيهيىء لهم ما يحتاجون إليه .

صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَمَنَّ ٱلنَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ : أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً . . لَٱتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ ٱلإِسْلاَمِ ، لاَ تُبْقَيَنَّ فِي ٱلْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ »[1] .

وأوصىٰ يومئذ بإنفاذ جيش أسامة بن زيد ، وأوصىٰ بالأنصار فقال : « يَا مَعْشَرَ ٱلْمُهَاجِرِينَ ؛ اِسْتَوْصُوا بِٱلأَنْصَارِ خَيْراً ؛ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَزِيدُونَ وَإِنَّ ٱلأَنْصَارَ عَلَىٰ هَيْئَتِهَا لاَ تَزِيدُ ، وَإِنَّهُمْ كَانُوا عَيْبَتِيَ ٱلَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْهَا ، فَأَحْسِنُوا إِلَىٰ مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ »[2] ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتامَّ به وجعه ، ولم يخطب خطبة بعدها .

فَصْلٌ

[في عجزه صلى الله عليه وسلم عن الخروج للصلاة وآخر أحواله فيها]

وأول عجزه عن الخروج إلى الصلاة اجتمع الناس في المسجد وآذنوه بها ، فهم بالخروج فعجز ، فقال : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِٱلنَّاسِ » فقالت له عائشة : إن أبا بكر إذا قام في مقامك . . لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس ، فقال : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِٱلنَّاسِ » فقالت عائشة لحفصة : قولي له : إن أبا بكر إذا قام في مقامك . . لم يُسمِعِ الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس ، ففعلت حفصة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِٱلنَّاسِ » فقالت حفصة لعائشة : ما كنت لأصيب منك خيراً . رواه الشيخان[3] .

وفي رواية فيهما : أن عائشة قالت : لقد راجعت رسول الله في ذلك ، وما حملني علىٰ كثرة مراجعته إلاَّ أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً ، وإني كنت أُرىٰ أنه لن يقوم مقامه أحد إلاَّ تشاءم الناس به ، فأردت أن يَعْدِل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر .

وروياه أيضاً بإسناد واحد عن عبيد الله بن عبد الله قال : دخلت علىٰ عائشة فقلت لها :

---

(١) مسلم (٢٣٨٢) ، **الخوخة** : الباب الصغير بين البيتين .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٤) بنحوه ، **عيبتي** : خاصتي وموضع أسراري .

(٣) البخاري (٧٣٠٣) ومسلم (٤١٨/ ٩٥) عن عائشة رضي الله عنها .

ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : بلىٰ ، ثَقُل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَصَلَّى ٱلنَّاسُ ؟ » قلنا : لا ، وهُمْ ينتظرونك يا رسول الله[1] ، قال : « ضَعُوا لِي مَاءً فِي ٱلْمِخْضَبِ » قالت : ففعلنا ، فاغتسل به ، ثم ذهب لِيَنُوءَ فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « أَصَلَّى ٱلنَّاسُ ؟ » قلنا : لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله ، قال : « ضَعُوا لِي مَاءً فِي ٱلْمِخْضَبِ » قالت : ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « أَصَلَّى ٱلنَّاسُ ؟ » قلنا : لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله ، قالت : والناس عُكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ، قالت : فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ أبي بكر أن يصلي بالناس ، فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلي بالناس ، فقال أبو بكر ـ وكان رجلاً رقيقاً ـ : يا عمر ؛ صل بالناس ، فقال عمر : أنت أحق بذلك ، قال : فصلىٰ بهم أبو بكر تلك الأيام ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة ، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكر . . ذهب ليتأخر ، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم ألاَّ يتأخر ، وقال لهما : « أَجْلِسَانِي إِلَىٰ جَنْبِهِ » فأجلساه إلىٰ جنب أبي بكر ، وكان أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد[2] .

وقالت أم الفضل بنت الحارث : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بـ(المرسلات عرفاً) ثم ما صلىٰ لنا بعدها حتىٰ قبضه الله . رواه البخاري[3] .

وآخر أحواله في الصلاة : ما رويناه في « الصحيحين » واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك : أن أبا بكر كان يصلي بهم في وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه ، حتىٰ إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة . . كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم سِتر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكاً ، قال : فَبُهِتْنَا ونحن في الصلاة من فرح بخروج رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (٤٤٤٥) ، ومسلم (٤١٨/ ٩٣) .

(٢) البخاري (٦٨٧) ومسلم (٤١٨) ، **لينوء** : لينهض بجهد ، **عكوف** : مجتمعون منتظرون .

(٣) البخاري (٤٤٢٩) .

وسلم ، ونكص أبو بكر علىٰ عقبيه ليصِلَ الصف وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خارج للصلاة ، فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن أتموا صلاتكم ، قال : ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرخى الستر ، قال : فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ذلك[١] .

وفي رواية : قال أنس : فكانت آخر نظرة نظرتها إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

ثم روي خارج « الصحيحين » : أن آخر ما أوصىٰ به صلى الله عليه وسلم بأن قال : « اَلصَّلاَةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » حرك بها لسانه وما يكاد يبين[٣] ، قيل : أراد بما ملكت أيمانكم : الرفق بالمملوك ، وقيل : أراد الزكاة .

فَصْلٌ

في ذكر أمور عرضت في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

من ذلك : ما رواه الشيخان عن عروة عن عائشة قالت : دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة في شكواه التي قبض فيها فسارّها بشيء فبكت ، ثم دعاها فسارها فضحكت ، فسألتها عن ذلك فقالت : سارني النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت[٤] .

ورويناه أيضاً من حديث مسروق بن الأجدع عن عائشة قالت : (كنا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عنده لم تغادر منهن واحدة ، فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فلما رآها . . رحب بها وقال : « مَرْحَباً بِٱبْنَتِي » ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم سارَّها فبكت بكاءً شديداً ، فلما رأىٰ جزعها . . سارها الثانية فضحكت ، فقلت لها : خصك رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيننا بالسر ثم أنت تبكين ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : ما كنت لأفشي علىٰ رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (٦٨٠) ومسلم (٤١٩) ، **نكص** : رجع إلى الوراء .
(٢) أخرجها مسلم (٤١٩/٩٩) .
(٣) أخرجه أحمد (٣٢١/٦) بنحوه .
(٤) البخاري (٣٦٢٦) ومسلم (٢٤٥٠) .

وسلم سره ، قالت : فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قلت : عزمتُ عليك بما لي عليك من الحق لَمَا حدثتني ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : أمَّا الآن : فنعم ، أمَّا حين سارني في المرة الأولىٰ . . فأخبرني أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرةً ، وأنه عارضه الآن مرتين ، وإني لا أرى الأجل إلاّ قد اقترب ، فاتقي الله واصبري ؛ فإنه نعم السلف أنا لك ، قالت : فبكيت بكائي الذي رأيتِ ، فلما رأىٰ جَزَعي . . سارّني الثانية فقال : يا فاطمة ؛ أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هـٰذه الأمة ؟ قالت : فضحكت ضحكي الذي رأيت) هـٰذا لفظ مسلم[1] ، وليس لفاطمة في « الصحيحين » غير هـٰذا الحديث ، وهو داخل في مسند عائشة ، والله أعلم .

ومنه ما روياه ـ واللفظ لمسلم ـ عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس : (يومُ الخميس وما يوم الخميس ؟! ثم بكىٰ حتىٰ بلّ دمعه الحصىٰ ، فقلت : يا بن عباس ؛ وما يوم الخميس ؟ قال : اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه فقال : « اِئْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لاَ تَضِلُّوا بَعْدِي » فتنازعوا ـ وما ينبغي عند نبي تنازع ـ وقالوا : ما شأنه ، أهَجَرَ ؟ استَفهِمُوه ، قال : « دَعُونِي فَٱلَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ ، أُوصِيكُمْ بِثَلاَثٍ : أَخْرِجُوا ٱلْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ ، وَأَجِيزُوا ٱلْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ » قال : وسكت عن الثالثة ، أو قال : فنسيتها)[2] .

زاد في رواية أخرىٰ عن عبيد الله بن عبد الله قال : فكان ابن عباس يقول : (إن الرَّزية كلَّ الرَّزية : ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولَغَطِهم)[3] .

ومنه : ما رواه البخاري تعليقاً عن عائشة قالت : لَدَدْناه في مرضه ـ تعني النبي صلى الله عليه وسلم ـ فجعل يشير إلينا أن لا تلدُّوني ، فقلنا : كراهيةُ المريض للدواء ، فقال : « لاَ

(١) البخاري (٦٢٨٥) ومسلم (٢٤٥٠/٩٨) .
(٢) البخاري (٣٠٥٣) ومسلم (١٦٣٧) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٦٩) ومسلم (١٦٣٧) ، **الرزية** : المصيبة ، **اللغط** : اختلاف الأصوات .

يَبْقَىٰ أَحَدٌ فِي ٱلْبَيْتِ إِلاَّ لُدَّ وَأَنَا أَنْظُرُ ، إِلاَّ ٱلْعَبَّاسَ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ »[1] .

وإنما لدوه لأنهم ظنوا به ذات الجنب فلدوه بالقسط ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « فِيهِ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ يُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ ٱلْجَنْبِ ، وَيُسْعَطُ بِهِ مِنَ ٱلْعُذْرَةِ »[2] واللدود : جعل الدواء في جانب الفم ، ويحك بالأصبع قليلاً .

ومنه : ما رواه الشيخان عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم . . طفِق يَطرَح خميصةً له علىٰ وجهه ، فإذا اغتمَّ . . كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : « لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلْيَهُودِ وَٱلنَّصَارَىٰ ؛ ٱتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يحذر مثل ما صنعوا[3] .

ومنه : ما روياه عن عائشة : (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفُث علىٰ نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات ، فلما ثقل . . كنت أنفث عليه بهن ، وأمسح بيد نفسه ؛ لبركتها)[4] .

ومنه : ما رواه البخاري عن عبد الله بن كعب بن مالك : أن ابن عباس أخبره : أن عليّ بن أبي طالب خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفي فيه ، فقال الناس : يا أبا حسن ؛ كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبدُ العصا ، وإني والله لأرىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يتوفىٰ من وجعه هـٰذا ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، اذهب بنا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فلنسأله فيمن هـٰذا الأمر ، إن كان فينا . . علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا . . علمناه فأوصىٰ بنا ، فقال عليّ : إنا والله لإن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعناها . . لا يعطيناها الناسُ بعده ، وإني والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] .

---

(١) البخاري (٤٤٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٩٣) عن أم قيس رضي الله عنهما ، **القسط** : العود الهندي ، **والعذرة** : وجع في الحلق .

(٣) البخاري (٤٣٦) ومسلم (٥٣١) .

(٤) البخاري (٥٧٣٥) ومسلم (٢١٩٢/٥١) .

(٥) البخاري (٤٤٤٧) ، **عبد العصا** : كناية عمن يصير تابعاً لغيره .

قيل : وكان العباس قبل ذلك بيسير رأىٰ أن القمر رفع من الأرض إلى السماء ، فقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « هُوَ ٱبْنُ أَخِيكَ »[١] .

ومنه : ما روياه واللفظ للبخاري : أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : (إن من نعم الله عليّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في بيتي ، وفي يومي ، وبين سَحْري ونَحْري ، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته ؛ دخل عليَّ عبد الرحمـٰن وبيده سواك وأنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فناولته فاشتد عليه ، وقلت : أُلينه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فلينته فأمَرَّه ، وبين يديه رَكوة أو عُلبة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه يقول : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ » ثم نصب يده فجعل يقول : « فِي ٱلرَّفِيقِ ٱلأَعْلَىٰ » حتىٰ قُبض ومالت يده)[٢] . وفي رواية عنها قالت : (فلا أكره شدةَ الموت لأحد أبداً بعد النبي صلى الله عليه وسلم)[٣] .

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح : « إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرَ » فلما نزل به ورأسه علىٰ فخذي . . غُشي عليه ثم أفاق ، فأشخص بصره إلىٰ سقف البيت ثم قال : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱلرَّفِيقَ ٱلأَعْلَىٰ » فقلت : إذاً لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح ، قالت : فكانت آخرَ كلمة تكلم بها : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱلرَّفِيقَ ٱلأَعْلَىٰ »[٤] .

وروى البخاري أيضاً عن أنس قال : لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم . . جعل يتغشاه يعني الكرب ، فقالت فاطمة : واكَرْبَ أباه! فقال لها : « لَيْسَ عَلَىٰ أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ » فلما مات . . قالت : يا أبتاه! أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه! مَنْ جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ؛ إلىٰ جبريل ننعاه ، فلما دفن . . قالت فاطمة رضي الله عنها : يا أنس ؛ طابت أنفسكم أن تحثوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب[٥] ؟!

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥٨١) .

(٢) البخاري (٤٤٤٩) .

(٣) البخاري (٤٤٤٦) .

(٤) البخاري (٤٤٦٣) .

(٥) البخاري (٤٤٦٢) .

فصل

[في أثر وفاته صلى الله عليه وسلم علىٰ أصحابه وفرط ذهولهم ودهشهم]

ولما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفعت الرنة عليه.. دهش أصحابه دهشةً عظيمةً ، وركَّت عقولهم ، وطاشت أحلامهم ، وأفحموا واختلطوا ، وصاروا فِرقاً[1] ، فكان ممن اختلط عمر ، فجعل يصيح ويحلف : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهدد من قاله وكأنه لم يتقرر قبل عنده موته ، وأقعد علي فلم يستطع حراكاً ، وأخرس عثمان فكان يُذهب به ويجاء ولا يستطيع كلاماً ، وأضنىٰ عبد الله بن أنيس حتىٰ مات كمداً ، واضطرب الأمر وجل الخطب ، وفدحهم هول مصيبته[2] ، وحق لهم ، ولم يكن فيهم أثبت من العباس وأبي بكر رضي الله عنهم أجمعين ، روينا في « صحيح البخاري » عن عائشة رضي الله عنها قالت : (مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بالسُّنْح ، فقام عمر يقول : والله ؛ ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : وقال عمر : ما كان يقع في نفسي إلاَّ ذاك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيديَ رجال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبَّله وقال : بأبي أنت طبت حياً وميتاً ، والذي نفسي بيده ؛ لا يذيقك الله الموتتين أبداً ، ثم خرج فقال : أيها الحالف ؛ علىٰ رسلك ، فلما تكلم أبو بكر.. جلس عمر ، فحمد الله أبو بكر وأثنىٰ عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً.. فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله.. فإن الله حي لا يموت ، وقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ، قال : فنَشِج الناس يبكون)[3] .

وروينا فيه من رواية عائشة وابن عباس وعمر رضي الله عنهم : أن أبا بكر أقبل علىٰ فرس من مسكنه بالسُّنح حتىٰ نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتىٰ دخل علىٰ عائشة ، فتيمم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو مُغَشّىً بثوبِ حِبَرةٍ ، فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه فقبله وبكىٰ ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله ؛ لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي

---

(١) **الرنة** : الصيحة ، **ركت** : ضعفت ، **طاشت** : خفت .

(٢) **جل الخطب** : عظم الأمر ، **فدحهم** : أثقلهم .

(٣) البخاري (٣٦٧٠) ، نَشِجَ : بَكَوْا بصوت معه ترجيع .

كتبت عليك . . فقد مُتَّها ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، قال : اجلس يا عمر ، فأبىٰ عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد محمداً . . فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله . . فإن الله حي لا يموت ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ الآية إلىٰ ﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ، قال ابن عباس : والله ؛ لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هٰذه الآية حتىٰ تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أَسْمَعُ بشراً من الناس إلاَّ يتلوها ، قال عمر : والله ؛ ما هو إلاَّ أن سمعت أبا بكر تلاها . . فعقِرْتُ حتىٰ ما تُقلُّني رجلاي ، وحتىٰ أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها ؛ علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات[1] ، كل هٰذا من أبي بكر وعيناه تَهْمُلان ، وزفراته تردد في صدره ، وغصصه تتصاعد[2] .

وروي : أن أبا بكر لما فرغ يومئذ من خطبته . . التفت إلىٰ عمر وقال له : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ؟! فقال عمر : أشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الحديث كما حدَّث ، وأن الله تبارك وتعالىٰ حي لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقال فيما كان منه : [من الطويل]

لَعَمْـرِي لَقَـدْ أَيْقَنْـتُ أَنَّـكَ مَيِّـتٌ ... وَلَكِـنَّ مَـا أَبْـدَى ٱلَّـذِي قُلْتُـهُ ٱلْجَـزَعْ

وَقُلْـتُ يَغِيـبُ ٱلْـوَحْـيُ عَنَّـا لِفَقْـدِهِ ... كَمَا غَابَ مُوسَىٰ ثُمَّ يَرْجِعْ كَمَا رَجَعْ

وَكَـانَ هَـوَايَ أَنْ تَطُـولَ حَيَـاتُـهُ ... وَلَيْسَ لِحَيٍّ فِي بَقَا مَيِّتٍ طَمَعْ[3]

فَصْلٌ

في تغير الحال بعد موته صلى الله عليه وسلم

قال أنس رضي الله عنه : (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . . أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه . . أظلم منها كل شيء ،

(١) البخاري (٤٤٥٤) ، **عقرت** : هلكت ، **ما تُقلُّني** : ما تحملني .

(٢) **تهْمُلان** : تسيلان ، **الزفرة** : ما يسمع من جوف الباكي من الأزيز ، **الغصة** : ما يعرض للباكي من حلقه من الشجا .

(٣) انظر : « الروض الأنف » (٧/٥٨٦) .

وما نفضنا أيدينا عن التراب وإنا لفي دفنه حتىٰ أنكرنا قلوبنا) رواه الترمذي في « الشمائل » وابن ماجه في « السنن »[١] .

وروى ابن ماجه أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كنا نتقي الكلام والانبساطَ إلىٰ نسائنا علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن يُنزَل فينا القرآنُ ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . . تكلمنا)[٢] .

وأسند أيضاً عن أم سلمة ما معناه قالت : (كان الناس علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المصلون . . لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع قدميه ، فلما كان أبو بكر . . لم يعد بصر أحدهم موضع جبهته ، فلما كان عمر . . لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة ، فلما كان عثمان وكانت الفتنة . . التفت الناس في الصلاة يميناً وشمالاً)[٣] .

روينا في « صحيح مسلم » عن أنس قال : (قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : انطلق بنا إلىٰ أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما انتهينا إليها . . بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ، أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسوله ؟! فقالت : ما أبكي ألاَّ أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيَّجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها)[٤] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ . . فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ ٱلْمَصَائِبِ »[٥] .

ولما ذكر صلى الله عليه وسلم البشارة لمن يقدم بين يديه فرطاً من الأولاد . . قالت له عائشة : فمن لم يكن له فرط ؟ قال : « أَنَا فَرَطُهُ يَا مُوَفَّقَةُ »[٦] .

قال السهيلي : وكان موته صلى الله عليه وسلم خَطْباً كالحاً ، ورُزْءاً لأهل الإسلام

---

(١) الشمائل المحمدية (ص٦٥٤) ، ابن ماجه (١٦٣١) .
(٢) ابن ماجه (١٦٣٢) .
(٣) ابن ماجه (١٦٣٤) .
(٤) مسلم (٢٤٥٤) .
(٥) أخرجه ابن ماجه (١٥٩٩) عن عائشة رضي الله عنها .
(٦) أخرجه الترمذي (١٠٦٢) بنحوه .

فادحاً ، كادت تهُدُّ له الجبال وترَجُف الأرض وتَكسِف النيران لانقطاع خبر السماء ، وفقد من لا عوض منه ، مع ما آذن به موته من إقبال الفتن السُّحْم والحوادث الدُّهم والكرب المدلَهِمة والهزاهز المعضلة ، فلولا ما أنزل الله تعالىٰ من السكينة على المؤمنين ، وأسرج في قلوبهم نور اليقين ، وشرح صدورهم في فهم كتابه المبين. . لانقصفت الظهور ، وضاقت عن الكرب الصدور ، ولعاقهم الجزع عن تدبير الأمور ؛ فقد كان الشيطان أطلع إليهم رأسه ، ومد إلىٰ إغوائهم مطامعه ، فأوقد نار الشنآن ونصب راية الخلاف ، فأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ويعلي كلمته وينجز موعده حيث قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ فأطفأ نار الردة ، وحسم مادة الخلاف والفتنة علىٰ يد الصديق رضي الله عنه[1] ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات. . لهاضها ؛ ارتدت العرب ، واشرأب النفاق[2] ، وقال أبو هريرة : لولا أبو بكر. . لهلكت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد نبيها ، ولقد كان مَن قدم المدينة عقيب موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعُ لأهلها ضجيجاً ، وللبكاء في جميع أرجائها عجيجاً ، حتىٰ صَحِلَت الحُلوق ونَزِفت الدموع ، وحق لهم ذلك ولمن يأتي بعدهم إلىٰ يوم الدين .

كما روي عن أبي ذُؤيب الهُذلي قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليلٌ ، فاستشعرت حزناً وبتُّ بأطولِ ليلةٍ لا يَنْجاب دَيْجُورُها ولا يطلع نورها ، فظللت أقاسي حزناً طولها ، حتىٰ إذا كان قرب السحر. . أغفيتُ[3] ، فهتف بي هاتف وهو يقول : [من الكامل]

خَطْبٌ أَجَلُّ أَنَاخَ بِٱلإِسْلاَمِ	بَيْنَ ٱلنَّخِيلِ وَمَعْقِدِ ٱلآطَامِ
قُبِضَ ٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ فَعُيُونُنَا	تَذْرِي ٱلدُّمُوعَ عَلَيْهِ بِٱلتَّسْجَامِ

---

(١) الروض الأنف (٧/ ٥٩٥ـ٥٩٦) ، **الخطب** : الأمر العظيم ، **كالحاً** : شديداً ، **رُزْءاً** : نقصاً ، **فادحاً** : ثقيلاً ، **النيران** : الشمس والقمر ، **السُّحْم والدهم** : هما لون يضرب إلى السواد ، يوصف بهما كلّ أمر عظيم ، **المدلهمة** : المظلمة ، **المعضلة** : الضيقة الشديدة ، **انقصفت** : انكسرت ، **عاقهم** : شغلهم .

(٢) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥٨٨ـ٥٨٩) ، **هاض** : كسر وفتت .

(٣) **الضجيج** : الصوت العالي ، **العجيج** : مثله ، **صَحِلَتْ** : ابتحت ، **نَزِفت** : فرغت ، **الدَّيْجُور** : شدة الظلام ، **أغفيت** : نمت نوماً خفيفاً .

گ وذكر خبراً طويلاً قال فيه : وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلُّوا بالإحرام ، فقلت : مه ؟ فقالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت المسجد فوجدته خالياً ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت بابه مُرتجاً ، وقيل : هو مُسَجّىً قد خلا به أهله ، فقلت : أين الناس ؟ فقيل : في سقيفة بني ساعدة ، فجئتهم ، فتكلمت الأنصار فأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب ، وتكلم أبو بكر فلله دَره من رجل لا يطيل الكلام ، ويعلم مواقع فصل الخطاب ، والله ؛ لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع . . إلاَّ انقاد له ومال إليه ، ثم تكلم عمر دون كلامه ، ومد يده فبايعه وبايعوه ، ورجع أبو بكر ورجعت معه .

قال أبو ذؤيب : فشهدت الصلاةَ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدت دفنه ، ثم أنشد أبو ذُؤيب يبكي النبي صلى الله عليه وسلم : [من الكامل]

لَمَّـا رَأَيْـتُ ٱلنَّـاسَ فِـي عَسَـلاَنِهِـمْ ... مَـا بَيْـنَ مَلْحُـودٍ لَـهُ وَمُضَـرِّحِ

مُتَبَـادِريـنَ لِشَـرْجَـعٍ بِـأَكُفِّهِـمْ ... نَـصَّ الـرِّقَـابِ لِفَقْـدِ أَبْيَـضَ أَرْوَحِ

فَهُنَاكَ صِرْتُ إِلَى ٱلْهُمُومِ وَمَنْ يَبِتْ ... جَـارَ ٱلْهُمُـومِ يَبِيـتُ غَيْـرَ مُـرَوَّحِ

كَسَفَـتْ لِمَصْـرَعِـهِ ٱلنُّجُـومُ وَبَـدْرُهَـا ... وَتَـزَعْـزَعَـتْ آطَـامُ بَطْـنِ ٱلأَبْطَـحِ

وَتَـزَعْـزَعَـتْ آطَـامُ يَثْـرِبَ كُلُّهَـا ... وَنَخِيلُهَـا لِحُلُـولِ خَطْـبٍ مُفْـدِحِ

وَلَقَـدْ زَجَـرْتُ ٱلطَّيْـرَ قَبْـلَ وَفَـاتِـهِ ... بِمُصَـابِـهِ وَزَجَـرْتُ سَعْـدَ ٱلأَذْبَـحِ (١)

وقالت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تبكي أباها وقد اجتمع إليها النساء بعد دفنه : [من الكامل]

اِغْبَـرَّ آفَـاقُ ٱلسَّمَـاءِ وَكُـوِّرَتْ ... شَمْـسُ ٱلنَّهَـارِ وَأَظْلَـمَ ٱلْعَصْـرَانِ

وَٱلأَرْضُ مِـنْ بَعْـدِ ٱلنَّبِـيِّ كَئِيبَـةٌ ... أَسَفـاً عَلَيْـهِ كَثِيـرَةُ ٱلـرَّجَفَـانِ

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/٥٩٦ـ٥٩٨) ، مُرْتَجاً : مغلقاً ، مُسَجّىً : مغطىٰ ، **ملحود له** : محفور له في جانب القبر ، **مُضرَّح** : محفور له في وسط القبر ، **الشرجع** : من أسماء النعش ، **المُفدح** : المقطع .

فَلْيَبْكِهِ شَرْقُ ٱلْبِلَادِ وَغَرْبُهَا ... وَلْيَبْكِهِ مُضَرٌ وَكُلُّ يَمَانِي

وَلْيَبْكِهِ ٱلطَّوْدُ ٱلْمُعَظَّمُ جَوُّهُ ... وَٱلْبَيْتُ ذُو ٱلأَسْتَارِ وَٱلأَرْكَانِ

يَا خَاتِمَ ٱلرُّسْلِ ٱلْمُبَارَكُ ضَوْءُهُ ... صَلَّىٰ عَلَيْكَ مُنَزِّلُ ٱلْفُرْقَانِ (١)

وقالت صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم ترثيه : [من الطويل]

أَلاَ يَا رَسُولَ ٱللهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا ... وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً وَلَمْ تَكُ جَافِيَا

وَكُنْتَ رَحِيماً هَادِياً وَمُعَلِّماً ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ ٱلْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا

لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي ٱلنَّبِيَّ لِفَقْدِهِ ... وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَىٰ مِنَ ٱلْهَرْجِ آتِيَا

أَفَاطِمُ صَلَّى ٱللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَىٰ جَدَثٍ أَمْسَىٰ بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا (٢)

فِدَىً لِرَسُولِ ٱللهِ أُمِّي وَخَالَتِي ... وَعَمِّي وَآبَائِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا

صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ ٱلرِّسَالَةَ صَادِقاً ... وَمِتَّ صَلِيبَ ٱلْعُودِ أَبْلَجَ صَافِيَا (٣)

فَلَوْ أَنَّ رَبَّ ٱلنَّاسِ أَبْقَىٰ نَبِيَّنَا ... سَعِدْنَا وَلَكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا

عَلَيْكَ مِنَ ٱللهِ ٱلسَّلَامُ تَحِيَّةً ... وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ ٱلْعَدْنِ رَاضِيَا

أَرَىٰ حَسَناً أَيْتَمْتَهُ وَتَرَكْتَهُ ... يُبَكَّىٰ وَيَدْعُو جَدَّهُ ٱلْيَوْمَ نَائِيَا (٤)

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم يبكيه : [من الوافر]

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِيَ لاَ يَزُولُ ... وَلَيْلُ أَخِي ٱلْمُصِيبَةِ فِيهِ طُولُ

وَأَسْعَدَنِي ٱلْبُكَاءُ وَذَاكَ فِيمَا ... أُصِيبَ ٱلْمُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ

لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وَجَلَّتْ ... عَشِيَّةَ قِيلَ قَدْ قُبِضَ ٱلرَّسُولُ

وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا ... تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيلُ

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥٩٨ـ٥٩٩) .

(٢) **الجَدَثُ** : القبر ، **ثاوياً** : ماكثاً .

(٣) **صليب العود** : منبض الجسم ، والعود يكنىٰ به عن الجسم ، **أبلج** : مشرق .

(٤) والأبيات في « المعجم الكبير » (٢٤/ ٣٢٠) بنحوها ، **نائياً** : بعيداً .

فَقَدْنَا ٱلْوَحْيَ وَٱلتَّنْزِيلَ فِينَا ... يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ ... نُفُوسُ ٱلنَّاسِ أَوْ كَرَبَتْ تَسِيلُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو ٱلشَّكَّ عَنَّا ... بِمَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِينَا فَمَا نَخْشَىٰ ضَلاَلاً ... عَلَيْنَا وَٱلرَّسُولُ لَنَا دَلِيلُ
أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي ذَاكَ ٱلسَّبِيلُ
فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ ... وَفِيهِ سَيِّدُ ٱلنَّاسِ ٱلرَّسُولُ

وقال بعضهم : الجزع عند المصائب مذموم ، وتركه أحمدُ إلا علىٰ أحمدَ صلى الله عليه وسلم ، وأنشدوا في هٰذا المعنىٰ : [من الكامل]

فَٱلصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي ٱلْمَصَائِبِ كُلِّهَا ... إِلاَّ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

ولآخر : [من الطويل]

وَقَدْ كَانَ يُدْعَىٰ لاَبِسُ ٱلصَّبْرِ حَازِماً ... فَأَصْبَحَ يُدْعَىٰ حَازِماً حِينَ يَجْزَعُ

وقال حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم يرثيه : [من الكامل]

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّمَا ... كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ ٱلأَرْمَدِ (1)
حَزَناً عَلَى ٱلْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ ٱلْحَصَىٰ لاَ تَبْعُدِ
وَجْهِي يَقِيكَ ٱلتُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ ٱلْغَرْقَدِ
بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ ... فِي يَوْمِ ٱلاثْنَيْنِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْمُهْتَدِي
فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً ... مُتَلَدِّداً يَا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ
أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بِٱلْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ ... يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ سُمَّ ٱلأَسْوَدِ
أَوْ حَلَّ أَمْرُ ٱللهِ فِينَا عَاجِلاً ... فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ
فَتَقُومُ سَاعَتُنَا فَنَلْقَىٰ طَيِّباً ... مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ ٱلْمَحْتِدِ

---

(1) المآقي : مقدم العيون .

يَـا بِكْـرَ آمِنَـةَ ٱلْمُبَـارَكِ بِكْـرُهَـا ... وَلَـدَتْـهُ مُحْصَنَـةً بِسَعْـدِ ٱلأَسْعُـدِ
نُـوراً أَضَـاءَ عَلَـى ٱلْبَـرِيَّـةِ كُلِّهَـا ... مَـنْ يُهْـدَ لِلنُّـورِ ٱلْمُبَـارَكِ يَهْتَـدِي
يَـا رَبِّ فَـٱجْمَعْنَـا مَعـاً وَنَبِيَّنَـا ... فِـي جَنَّـةٍ تَثْنِـي عُيُـونَ ٱلْحُسَّـدِ
فِـي جَنَّـةِ ٱلْفِـرْدَوْسِ فَـٱكْتُبْهَـا لَنَـا ... يَـا ذَا ٱلْجَـلاَلِ وَذَا ٱلْعُلَـىٰ وَٱلسُّـؤْدَدِ
وَٱللهِ أَسْمَـعُ مَـا حَيِيـتُ بِهَـالِـكٍ ... إِلاَّ بَكَيْـتُ عَلَـى ٱلنَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ
يَـا وَيْـحَ أَنْصَـارِ ٱلنَّبِـيِّ وَرَهْطِـهِ ... بَعْـدَ ٱلْمُغَيَّـبِ فِـي سَـوَاءِ ٱلْمُلْحَـدِ
ضَـاقَـتْ بِـٱلأَنْصَـارِ ٱلْبِـلاَدُ فَـأَصْبَحَـتْ ... سُـوداً وُجُـوهُهُـمُ كَلَـوْنِ ٱلإِثْمِـدِ
وَلَقَــدْ وَلَــدْنَــاهُ وَفِينَـا قَبْـرُهُ ... وَفُضُـول نِعْمَتِـهِ بِنَـا لَـمْ نَجْحَـدِ
وَٱللهُ أَكْـرَمَنَـا بِـهِ وَهَـدَىٰ بِـهِ ... أَنْصَـارَهُ فِـي كُـلِّ سَـاعَـةِ مَشْهَـدِ
صَلَّـى ٱلإِلَـهُ وَمَـنْ يَحُـفُّ بِعَـرْشِـهِ ... وَٱلطَّيِّبُـونَ عَلَـى ٱلْمُبَـارَكِ أَحْمَـدِ (1)

فصل

[في تاريخ وفاته صلى الله عليه وسلم وغسله ودفنه وما يتعلق بذلك]

اتفقوا علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم توفي يوم الإثنين في ربيع الأول ، قيل : لليلتين خلتا منه ، ورجحه كثيرون ، وقيل : لثنتي عشرة ورجحه الأكثرون وذلك حين اشتد الضحىٰ ، قيل : في الساعة التي دخل فيها المدينة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ولد نبيكم يوم الإثنين ، وخرج من مكة يوم الإثنين ، ودخل المدينة يوم الإثنين ، وتوفي يوم الإثنين ، وكانت مدة مرضه اثني عشر يوماً .

وتوفي صلى الله عليه وسلم وقد بلغ من السن ثلاثاً وستين سنةً ، وقيل : خمساً وستين سنة ، وقيل : ستين ، والأول أصح .

وقيل : ومن عجائب الاتفاقات في التاريخ : أنه صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثاً وستين سنة ، وأبو بكر وعمر وعلي مثله ، ونحر بيده صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة ، وأعتق في عمره ثلاثاً وستين رقبة .

---

(1) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٦٠٤) .

وحين أرادوا غسله.. سمعوا قائلاً يقول : اغسلوه في ثيابه ، فغسلوه في قميصه ، وكانوا يرون أن القائل لهم الخضر ، وعزاهم حينئذ فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أهل البيت ، إن في الله عزاءً من كل مصيبة ، وخَلَفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ؛ فإن المصاب من حرم الثوابَ[1] .

وكان الذي تولىٰ غسله صلى الله عليه وسلم : علي والعباس والفضل وقُثَم ابنا العباس وأسامة بن زيد وشُقْران مولياه ، وحضرهم أوس بن خَوْلي الأنصاري ، ونفضه عليّ حين الغسل فلم يخرج منه شيء ، ولا تغيرت له رائحة علىٰ طول المكث ، وكان غسله من بئر لسعد بن خيثمة يقال لها : بئر الغَرْس .

وثبت في الصحيح : أنه كفن صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض سحولية ، ليس فيها قميص ولا عمامة[2] ، وكان في حنوطه المسك ، وخبأ منه علي شيئاً لنفسه .

وخرج ابن ماجه بإسناد جيد عن ابن عباس : أنهم لما فرغوا من جهاز النبي صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء.. وضع علىٰ سريره في بيته ، ثم دخل الناس أرسالاً يصلون عليه ، حتىٰ إذا فرغوا.. أدخلوا النساء ، حتىٰ إذا فرغوا.. أدخلوا الصبيان ، ولم يؤمَّ الناس علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ[3] ، وفي سبب ذلك أقوال لاتحقيق فيها ، إلاَّ أن مثل هـٰذا لا يكون إلاَّ عن توقيف ، والله أعلم .

واختلف أصحابه في موضع قبره ، فقال قوم : ندفنه في البقيع ، وقال آخرون : في المسجد ، وقال قوم : يحبس حتىٰ يحمل إلىٰ أبيه إبراهيم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا دُفِنَ نَبِيٌّ إِلاَّ حَيْثُ يَمُوتُ » أخرجه ابن ماجه ومالك في « الموطأ » وغيرهما[4] .

واختلفوا هل يلحد له أم لا ؟ وكان بالمدينة حافران : أحدهما يَلْحَد وهو أبو طلحة ، والآخر لا يلحد وهو أبو عبيدة ، فأرسلوا إليهما وقالوا : اللهم ؛ اختر لنبيك ، واتفقوا علىٰ

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥٨٠-٥٨١) ، وهو عنده بنحوه .
(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٣) ومسلم (٩٤١) عن عائشة رضي الله عنها .
(٣) ابن ماجه (١٦٢٨) ، وفي (ب) و(ج) : (أدخلوا النساء حتىٰ إذا فرغن...) .
(٤) ابن ماجه (١٦٢٨) الموطأ (١/ ٢٣١) وانظر « مصنف ابن أبي شيبة » (٣٨١٧٧) .

أن من جاء منهما أولاً . . عمل عمله فجاء أبو طلحة ، ثم روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اَللَّحْدُ لَنَا ، وَٱلشَّقُّ لِغَيْرِنَا »[1] فحفر له صلى الله عليه وسلم حول فراشه في منزل عائشة .

ودخل قبره علي والعباس وابناه الفضل وقُثَم وشُقْران ، قيل : وأدخلوا معه عبد الرحمٰن بن عوف ، وقيل : إن أوس بن خَوْلي الأنصاري ناشد علياً بالله كما ناشده حين الغسل فأدخله معهم ، وفرش شُقران في القبر الكريم قَطيفةً قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها فدفنها معه وقال : والله ؛ لا يلبسها أحد بعدك .

وكان المغيرة بن شعبة يزعم أنه أحدث الناس عهداً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه أسقط خاتماً من يده في القبر ، فنزل يلتمسه ، وأنكر علي رضي الله عنه ذلك وقال : أحدث الناس به عهداً قُثَم بن العباس .

وأطبق عليه صلى الله عليه وسلم تسع لبنات ، ودفن صلى الله عليه وسلم يوم الثلاثاء ، وقيل : ليلة الأربعاء ، وذلك في شهر أيلول .

روى ابن إسحاق وغيره مسنداً عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما علمنا بدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ سمعنا صوت المساحي من آخر الليل) فإن قيل : لم أخر دفنه صلى الله عليه وسلم وقد كان ينهىٰ عن ذلك ؟ قيل : لعدم اتفاقهم علىٰ موته ، فقد قال فريق منهم : إنما أخذه ما كان يأخذه حال الوحي وسيفيق ، وقيل : لاختلافهم في موضع قبره كما سبق ، وقيل : لأنهم اشتغلوا بما وقع بين المهاجرين والأنصار من الخلاف ، وخشوا تفاقم الأمر ، فنظروا فيها حتى اتسق الأمر وانتظم الشمل ، واستقرت الخلافة في نصابها فبايع أبا بكر بعضهم ، ثم بايعوه من الغد عن ملأ منهم ورضاً ، فكشف الله الكربة وانطفت نار الخلاف والحمد لله رب العالمين .

وهـٰذا ما استحضرته من الأخبار المتلقاة بالقبول في الإبانة عن موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعظمها من الصحاح ، وقد لفَّقَ بعض جهلة القصاص في ذلك أخباراً ركيكةً قدر كراسة ، وجاء فيها بما يعلم ببديهة العقل وضعه ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٤٥) وأبو داوود (٣٢٠٨) والنسائي (٢٠٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .



[فيما ورد من الفضائل والبركات لقبره صلى الله عليه وسلم]

خرج الدارمي : أن كعباً دخل علىٰ عائشة فذكروا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال كعب : ما من يوم يطلع إلاَّ نزل سبعون ألفاً من الملائكة ؛ حتىٰ يَحُفُّوا بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يضربون بأجنحتهم ، ويصلون عليه ، حتىٰ إذا أمسوا . . عرجوا وهبط مثلُهم فصنعوا مثل ذلك ، حتىٰ إذا انشقت عنه الأرض . . خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه[1] وفيه أيضاً : أن أهل المدينة قحطوا قحطاً شديداً ، فشكوا إلىٰ عائشة فقالت : انظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجعلوا منه كُوىً إلى السماء ؛ حتىٰ لا يكون بينه وبين السماء سقفٌ ، ففعلوا فمطروا مطراً حتىٰ نبت العشب وسمنت الإبل حتىٰ تفتقت من الشحم ، فسُمِّي عام الفَتْقِ[2] .

فصل

في ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكانت أمواله من ثلاثة أوجه : الصَّفيّ[3] ، والهدية تهدىٰ إليه في غير غزو ، وخمس خيبر وما أفاء الله عليه بالمدينة وفدك .

روينا في « صحيح البخاري » عن عمرو بن الحارث ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهماً ولا ديناراً ، ولا عبداً ولا أمة ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة)[4] ونحوه في « صحيح مسلم » عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهماً ، ولا شاة ولا بعيراً ، ولا أوصىٰ بشيء)[5] .

وفي المتفق عليه عنها : أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي رسول الله

---

(١) الدارمي (٩٥) ، عن نُبَيْه بن وهب رحمه الله تعالىٰ .

(٢) الدارمي (٩٣) عن أوس بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ .

(٣) الصَّفي : ما يختاره صلى الله عليه وسلم من الغنيمة قبل القسمة .

(٤) البخاري (٢٧٣٩) .

(٥) مسلم (١٦٣٥) .

صلى الله عليه وسلم أردن أن يبعثن عثمان إلىٰ أبي بكر يسألنه ميراثهن ، فقالت عائشة : أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ »[1] ؟!

وروينا في « كتاب الشمائل » لأبي عيسى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (جاءت فاطمة إلىٰ أبي بكر رضي الله عنهما فقالت : من يرثك ؟ فقال : أهلي وولدي ، فقالت : ما لي لا أرث أبي ؟! فقال أبو بكر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لاَ نُورَثُ » ولكني أعُولُ من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوله ، وأنفق علىٰ من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق عليه[2] .

وروينا في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ تَقْتَسِمُ وَرَثَتِي دِينَاراً ، مَا تَرَكْتُ بَعْدَ نَفَقَةِ نِسَائِي وَمُؤْنَةِ عَامِلِي . . فَهُوَ صَدَقَةٌ »[3] .

وروينا فيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : (توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتي من شيء يأكله ذو كَبد ، إلاَّ شطرُ شعيرٍ في رف لي ، فأكلت منه حتىٰ طال عليّ ، فكِلْته ففني)[4] .

وروينا في « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر وفَدَكٍ وصَدَقَتَه بالمدينة ، فأبىٰ أبو بكر عليها ذلك وقال : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به . . إلاَّ عملتُ به ، إني أخشىٰ إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ ، فأمَّا صدقته بالمدينة . . فدفعها عمر إلىٰ عليّ وعباسٍ ، وأما خيبر وفدك . . فأمسكها عمر وقال : هما صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانتا لحقوقه التي تَعْرُوه ونوائبه ، وأمرهما إلىٰ من وليَ الأمر ، قال : فهما علىٰ ذلك إلى اليوم[5] .

---

(١) البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨) .
(٢) الشمائل المحمدية (ص٦٧٢ـ٦٧٣) .
(٣) البخاري (٦٧٢٩) .
(٤) البخاري (٣٠٩٧) .
(٥) البخاري (٣٠٩٣) ومسلم (١٧٥٩) .

وروينا فيهما أيضاً من رواية مالك بن أوس بن الحدثان : (أن علياً والعباس استأذنا علىٰ عمر وعنده عثمان وعبد الرحمـٰن بن عوف والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، فقال عباس : يا أمير المؤمنين ؛ اقض بيني وبين هـٰذا ـ وهما يختصمان فيما أفاء الله علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم من مال بني النضير ـ فقال الرهط عثمانُ وأصحابه : يا أمير المؤمنين ؛ اقض بينهما وأرح أحدَهما من الآخر ، قال عمر : تَيِدَكم أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ؛ هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » يريد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نفسه ؟ قال الرهط : قد قال ذلك ، قال عمر : فإني أحدثكم عن هـٰذا الأمر ، إن الله قد خص رسوله صلى الله عليه وسلم في هـٰذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره ، ثم قرأ : ﴿ مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ قَدِيرٌ ﴾ فكانت هـٰذه خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ؛ ما اختارها دونكم ولا استأثرها عليكم ، قد أعطاكموها وبثَّها فيكم حتىٰ بقي منها هـٰذا المال ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنفق علىٰ أهله نفقةَ سنتهم من هـٰذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مَجْعَل مال الله ، فعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حياته ، أنشدكم بالله ؛ هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم ، ثم قال لعلي والعباس : أنشدكما الله ؛ هل تعلمان ذلك ؟ قال عمر : ثم توفَّى الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : أنا وليُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضها أبو بكر فعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله يعلم إنه فيها لصادق بارٌّ راشد تابع للحق ، ثم توفى الله أبا بكر ، فكنت أنا وليَّ أبي بكر ، فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عمل فيها أبو بكر ، والله يعلم إني لصادق بارٌّ راشد تابع للحق ، ثم جئتماني تكلماني وكلمتُكما واحدةٌ وأمركما واحد ، جئتني يا عباس تسألني نصيبك من ابن أخيك ، وجاءني هـٰذا ـ يريد علياً ـ يريد نصيب امرأته من أبيها ، فقلتُ لكما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت : إن شئتما دفعتها إليكما علىٰ أن عليكما عهدَ الله وميثاقَه لَتعملان فيها بما عمل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما عمل فيها أبو بكر ، وبما عملتُ فيها منذ وليتُها ، فقلتما : ادفَعْها إلينا ، فبذلك دفعتها إليكما ، فأنشدكم بالله ؛ هل دفعتُها إليهما بذلك ؟ فقال الرهط : نعم ، ثم أقبل علىٰ علي وعباس

فقال : أنشدكما بالله ؛ هل دفعتها إليكما بذلك ؟ قالا : نعم ، قال : فتلتمسان مني قضاءً غيرَ ذلك ؟ فوالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض ؛ لا أقضي فيها قضاءً غير ذلك ، فإن عجزتما عنها . . فادفعاها إليَّ ؛ فإني أكفيكُماها)[1] هـٰذا لفظ البخاري فيهما .

فَائِدَة

[في تأويل ما ورد من سؤال علي والعباس من عمر رضي الله عنهم قسمة مال بني النضير]

قال أبو داوود ما معناه : إنما سأل العباس وعلي من عمر أن يصيره بينهما نصفين وينفرد كل بنصيبه لا أنهما جهلا الحكم فكره عمر أن يجري عليهما اسم القَسم فيتوهم الملك[2] .

قال الخطابي : وما أحسن ما قاله أبو داوود في هـٰذا وما تأوله[3] ، وقد زاد البُرقاني من طريق معمر قال : فغلب علي عليها فكانت بيده ، ثم بيد ابنه الحسن ثم الحسين ، ثم علي بن الحسين ، ثم الحسن بن الحسن ، ثم زيد بن الحسن رضي الله عنهم ، قال معمر : ثم بيد عبد الله بن الحسن ، ثم وليها بنو العباس ، والله أعلم[4] .

فَصْلٌ

في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في النوم

روينا في صحيحي « البخاري » و« مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ رَآنِي فِي ٱلْمَنَامِ . فَسَيَرَانِي فِي ٱلْيَقَظَةِ ـ أو : كَأَنَّمَا رَآنِي فِي ٱلْيَقَظَةِ ـ لاَ يَتَمَثَّلُ ٱلشَّيْطَانُ بِي »[5] .

وفي « صحيح البخاري » : عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَآنِي فِي ٱلْمَنَامِ . . فَقَدْ رَآنِي ؛ فَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لاَ يَتَخَيَّلُ بِي ، وَرُؤْيَا ٱلْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ ٱلنُّبُوَّةِ »[6] وفيه أيضاً : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أنه سمع النبي

---

(١) البخاري (٣٠٩٤) ، تِيدَكم : اصبروا .

(٢) أبو داوود (٢٩٦٣) .

(٣) معالم السنن (٣/ ١٤) .

(٤) انظر « مشارق الأنوار » (٢/ ٤٠٤) .

(٥) البخاري (٦٩٩٣) ومسلم (٢٢٦٦) .

(٦) البخاري (٦٩٩٤) .

صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ رَآنِي . . فَقَدْ رَأَى ٱلْحَقَّ ؛ فَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لاَ يَتكَوَّنُنِي »[1] .

وروينا في « صحيح مسلم » عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ رَآنِي فِي ٱلْمَنَامِ . . فَقَدْ رَآنِي ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ فِي صُورَتِي » وقال : « إِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ . . فَلاَ يُخْبِرْ أَحَداً بِتَلَعُّبِ ٱلشَّيْطَانِ بِهِ فِي ٱلْمَنَامِ »[2] .

قال ابن الباقلاني : معنىٰ هـٰذه الأحاديث : أن رؤياه صلى الله عليه وسلم صحيحة ليست بأضغاث أحلام ، ولا من تشبيهات الشيطان[3] ، وقيل : المراد أن من رآه . . فقد أدركه حقيقة ، فلا مانع يمنع من ذلك ، والعقل لا يحيله فيضطر إلىٰ صرفه عن ظاهره ، قالوا : وقد يُرىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ خلاف صفته أو في مكانين معاً ، وذلك غلط في صفاته وتخيل لها علىٰ خلاف ما هي عليه ، فتكون ذاته صلى الله عليه وسلم مرئيةً وصفاته متخيلة غير مرئية ، فالإدراك لا يشترط فيه تحديق الأبصار ولا قرب المسافة ، ولا كون المرئي مدفوناً في الأرض ولا ظاهراً عليها ، وإنما يشترط كونه موجوداً ، ولم يقم دليل علىٰ فناء جسمه صلى الله عليه وسلم ، بل جاء في الأحاديث الصحيحة ما يقتضي بقاءه من جميع الأنبياء[4] ، وورد أيضاً : أنهم يصلون في قبورهم ، وتجري لهم أعمال البر كحياتهم[5] ، وورد أيضاً : أن سعيد بن المسيب في أيام الحرة حين هُجر المسجد النبوي كان لا يعرف وقت الصلاة إلاَّ بهمهمة كان يسمعها من داخل الحجرة

---

(١) البخاري (٦٩٩٧) .

(٢) مسلم (٢٢٦٨) .

(٣) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٥/ ٢٤) للنووي رحمه الله تعالىٰ .

(٤) من هـٰذه الأحاديث : ما أخرجه أحمد (٤/ ٨) وأبو داوود (١٠٤٧) وغيرهما عن أوس بن أوس : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ . . يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ ٱلنَّفْخَةُ ، وَفِيهِ ٱلصَّعْقَةُ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ ٱلصَّلاَةِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » فقالوا : يا رسول الله ؛ وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمْتَ ؟! يعني : وقد بَليت ، قال : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى ٱلأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ ٱلأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِمْ » .

(٥) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٢٥) وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢١٤) عن أنس رضي الله عنه .

المقدسة[1] ، ولا يبعد أن يكون ذلك خاصاً لهم ولمن شاء الله من خواص عباده ، والله أعلم .

قال العلماء : ولو رَأَىٰ صلى الله عليه وسلم يأمر أو ينهىٰ بخلاف ما تقرر في شرعه ، ورواه عنه الأثبات الثقات يقظة . . لم يعمل به ، وليس ذلك لشك في الرؤيا ، وإنما هو لانحطاط درجة النائم عن حالة الضبط والتيقظ المشترط في رواية الحديث ، والله أعلم .

* * *

(١) أخرجه الدارمي (٩٤) .

الباب الخامس

في ذكر بنيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وبناته وأزواجه ، وأعمامه ، وعماته ومرضعاته ، وإخوته من الرضاعة ، وأخواته ، وذكر مواليه وخدمه من الأحرار ، ومن كان يحرسه ، ورسله إلى الملوك ، وكتابه ورفقائه العشرة النجباء ، وأصحابه النقباء ، وأهل الفتوى في حياته

وفيه فصول حسبما تضمن من التراجم

الفصل الأول
في ذكر أولاده صلى الله عليه وسلم

وكان له من الولد : القاسم ؛ وبه كان يكنىٰ ، وعبد الله ؛ وهو الطيب ، والطاهر ، وقيل : اسمه الطيب فقط والطاهر آخر ، وإبراهيم ، والبنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وهلك البنون قبل النبوة إلاَّ إبراهيم وهم يرضعون ، وقيل : بلغ القاسم أن يركب على الدابة ويسير على النجيبة .

وأما البنات . . فأدركهن الإسلام وهاجرن وتوفين بالمدينة ، وأكبر بنيه صلى الله عليه وسلم القاسم ثم الطيب ثم الطاهر ثم إبراهيم ، وأكبر بناته زينب ثم رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة ، وفيه خلاف واسع ، والله أعلم .

وكل أولاده من خديجة إلاَّ إبراهيم فإنه من مستولدته مارية القبطية ، وكلهم مات قبله إلاَّ فاطمة ؛ فإنها عاشت بعده ستة أشهر لم تر فيها ضاحكةً .

وكانت زينب تحت أبي العاص بن الربيع العبشمي وهو ابن خالتها ، وفرق الإسلام بينهما ، فلما أسلم أبو العاص . . ردها عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالنكاح الأول ، وهـٰذا موضع تنازع بين العلماء في كيفية رده صلى الله عليه وسلم لزينب علىٰ أبي العاص ؛ لأن تلاحقهما كان بعد انقضاء العدة ، وزمن طويل قدر ست سنين ، والصحيح : أنه ردها

عليه بنكاح جديد ، وتأولوا الحديث الوارد في ردها عليه بالنكاح الأول أن معناه : علىٰ مثله ، والله أعلم .

وولدت زينب من أبي العاص أمامة وعلياً ، وكان عليّ بن أبي طالب تزوج أمامة بعد موت خالتها فاطمة ، وكانت رقية وأم كلثوم تحت عتبة وعتيبة ابني أبي لهب ، فطلقاهما في خبر يطول ذكره ، وتزوجهما عثمان بن عفان واحدةً بعد واحدة ، وماتتا عنده ، وتزوج البتولَ فاطمةَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فنشر الله منهما الخير الكثير ، ولا يُعلم للنبي صلى الله عليه وسلم ذرية إلاَّ من جهتهما ، وقد ذكرت أولادهم وتنزيل بطونهم في كتابي « الرياض المستطابة في جملة من روىٰ في الصحيحين من الصحابة » رضي الله عنهم .

فَصْلٌ
في ذكر أزواجه صلى الله عليه وسلم

وقد تقدم ذكر كثير منهن متفرقاً في حوادث السنين ، ونذكرهن هنا جملةً ، وبالله التوفيق .

أولهن وأولاهن بالذكر : خديجة بنت خويلد الأسدية ، وأمها فاطمة بنت زائدة العامرية ، تزوجها قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهي بكر عتيق بن عايذ المخزومي ، فولدت له جارية ثم هلك عنها ، فتزوجها أبو هالة النباش ابن زرارة التميمي ، فولدت له ابناً وبنتاً ثم هلك عنها ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وماتت عنده في التاريخ المتقدم ، ولم يتزوج عليها حتىٰ ماتت رحمة الله عليها ، ومذهب المحققين أنها أفضل من عائشة ، وأن فاطمة أفضل من الجميع .

ثم تزوج صلى الله عليه وسلم بعدها سودة بنت زمعة العامرية ، وكانت قبله تحت السكران بن عمرو العامري أخي سهيل بن عمرو ، وانفردت بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موت خديجة ثلاثة أعوام ، ولما أحست أن النبي صلى الله عليه وسلم رغب عنها وأراد طلاقها . وهبت نوبتها من القسم لعائشة ؛ تبتغي بذلك مرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبقاء في عصمة نكاحه ، فكانت إحدى التسع التي مات عنهن صلى الله عليه وسلم ، ماتت في آخر خلافة عمر ، وقيل : ماتت سنة خمس وخمسين ، وهو الصحيح .

وتزوج صلى الله عليه وسلم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر الصديق التيمية ، وكان عقد بها قبل الهجرة وهي بنت ست سنين ، وقيل : سبع ، ودخل بها في المدينة وهي ابنة تسع ، ودفع أبو بكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صداقها اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً[1] ، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم عنها وهي ابنة ثماني عشرة سنة ، وكانت أحظىٰ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عنده ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، وعنها قالت : (تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم فأتتني أمي فأدخلتني الدار ؛ فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلىٰ خير طائر ، فلم يرعني إلاَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحىً) رواه البخاري[2] .

توفيت بالمدينة سنة ثمان وخمسين عن خمس وستين سنة ، ودفنت بالبقيع ليلاً ، وصلىٰ عليها أبو هريرة .

قيل : إنها أسقطت من النبي صلى الله عليه وسلم سقطاً ، ولا يصح ذلك ، وإنما كناها النبي صلى الله عليه وسلم بابن أختها عبد الله بن الزبير كما رواه أبو داوود[3] وكانت قد تبنته ودعاها أمّاً ، والله أعلم .

وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية ، وكانت قبله تحت خُنيس بن حذافة السهمي البدري ، توفي عنها بالمدينة ، وقد سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقها ، فأمره جبريل عليه السلام بمراجعتها ، توفيت سنة خمس وأربعين ، وقيل : توفيت حين بويع لمعاوية وذلك سنة إحدىٰ وأربعين ، وصلىٰ عليها مروان ، ونزل في قبرها أخواها عبد الله وعاصم وابن أخيها سالم .

وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية ، وكانت قبله تحت عبيد الله بن جحش الأسدي ، وهاجرت معه إلى الحبشة فتنصر هنالك ، وأتم الله لها هجرتها ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بأرض الحبشة ، وأصدقها عنه النجاشي ، قيل : كان الولي في نكاحها عثمان بن عفان ، وقيل : خالد بن سعيد بن العاص ، وكانا من

---

(١) **والنَّشُّ** : وزن ، مقداره عشرون درهماً .

(٢) البخاري (٣٨٩٤) .

(٣) أبو داوود (٤٩٧٠) .

عشيرتها ، وقيل : النجاشي ، وكان للنبي صلى الله عليه وسلم خصائص في النكاح لا تصح لغيره ، ثم جدد النبي صلى الله عليه وسلم نكاحها ثانياً من أبيها أبي سفيان تطيباً لقلبه ، والله أعلم ، توفيت أم حبيبة بالمدينة سنة أربع وأربعين .

وتزوج صلى الله عليه وسلم أم سلمة هندَ ابنة أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، وكانت قبله تحت أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، وولدت له عمر وسلمة وزينب ودُرَّة ، وتوفي عنها بالمدينة ، وثبت في « صحيح مسلم » عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ ٱللهُ بِهِ : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اَللَّهُمَّ ؛ ٱؤْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا . . إِلاَّ أَخْلَفَ ٱللهُ لَهُ خَيْراً مِنْهَا » قالت : فلما مات أبو سلمة . . قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة ، أولُ بيت هاجر إلىٰ رسول الله ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فأرسل إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بَلْتعة يخطبني له ، فقلت : إن لي بنتاً وأنا غيور ، فقال : « أَمَّا ٱبْنَتُهَا فَنَدْعُو ٱللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا ، وَأَدْعُو ٱللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِٱلْغَيْرَةِ »[1] ، وتوفيت أم سلمة بالمدينة سنة اثنتين وستين ، وقيل : سنة تسع وخمسين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش الأسدية ، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبله عند مولاه زيد بن حارثة ، وكان لزواجها الشأن العظيم والخطب الجسيم ، وقد سبق ذكر ذلك ، توفيت بالمدينة سنة عشرين .

وتزوج صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار الخُزاعية المُصطلِقية ، وكان اسمها بَرَّة ، فحول رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمها وسماها جويرية ، وكانت قبله عند مُسافِع بن صفوان الخزاعي ، وكانت حين سبيت . . وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبها ، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها ، فأدىٰ عنها وتزوجها ، وذلك سنة ست من الهجرة ، توفيت بالمدينة في ربيع الأول سنة خمس أو ست وخمسين .

---

(١) مسلم (٩١٨) .

وتزوج صلى الله عليه وسلم صفية بنت حيي بن أخطب النَّضيرية ، وأمها برة بنت شِمْوال أخت رفاعة بن شموال ، وهي من سبط لاَوِي بن يعقوب ، ثم من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران صلى الله وسلم عليهما ، وكانت قبل النبي صلى الله عليه وسلم تحت كنانة بن أبي الحُقيق ، فقتله النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر واصطفاها لنفسه ، وأعتقها وتزوجها ، وقد تنوزع في كيفية زواجها ، توفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل سنة خمسين .

وتزوج صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وكانت قبله تحت أبي رُهْم العامري وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد ، وقد سبق أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها في عمرة القضاء بسَرِف ، ودخل بها فيه ، وماتت ودفنت فيه سنة إحدىٰ وخمسين .

فهـٰؤلاء غير خديجة جملة من مات عنهن النبي صلى الله عليه وسلم .

وتزوج صلى الله عليه وسلم أم المساكين زينب بنت خزيمة الهلالية ، وأقامت عنده شهرين أو ثلاثة ، وماتت معه ، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش ، وقيل : الطفيل بن الحارث .

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت الضحاك ، ولما نزلت آية التخيير . . فارقها ، وكانت ممن اختارت الدنيا ثم ندمت ، فلم يحل له الرجوع إليها .

قيل : وتزوج صلى الله عليه وسلم إساف أو شَرَاف بنت خليفة أخت دحية بن خليفة ، ولم تقم عنده إلاَّ يسيراً حتىٰ توفيت ، وقيل : هلكت قبل أن يدخل بها .

وذكر في أزواجه صلى الله عليه وسلم عالية بنت ظَبيان ، وطلقها حين أدخلت عليه ، وذكر في أزواجه صلى الله عليه وسلم خولة ـ وقيل : خويلة ـ بنت حكيم ، يقال : هي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الواهبة أم شريك ، ويجوز أن يكونا معاً ، وذكر فيهن بنت الصَّلْت ، وماتت قبل أن يدخل بها ، وتزوج صلى الله عليه وسلم امرأة من بني غفار ، فلما نزعت ثيابها . . رأىٰ بها برصاً فقال : « اِلْحَقِي بِأَهْلِكِ » .

واتفقوا علىٰ نكاح الجَوْنيَّةِ ثبت في « صحيح البخاري » : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليها . . قال : « هَبِي نَفْسَكِ لِي » قالت : وهل تهب الملكة نفسها لسوقَة ، فأهوىٰ بيده ليضع يده عليها لتسكن فقالت : « أَعُوذُ بِٱللهِ مِنْكَ » فقال : « قَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ » ثم قال

صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا أُسَيْدٍ ؛ اُكْسُهَا رَازِقِيَّيْنِ وَأَلْحِقْهَا بِأَهْلِهَا »[1] قيل : وكان قولها ذلك عن تعليم أزواجه ، قلن لها : إنه يحب ذلك .

وخطب صلى الله عليه وسلم امرأة ، فقال أبوها : أزيدك أنها لم تمرض ؛ يصفها بذلك ، فتركها ، وخطب امرأة إلىٰ أبيها فقال : إن بها برصاً ولم يكن بها ، فرجع ؛ فإذا هي برصاء .

وذكر ابن هشام وغيره تبعاً لابن إسحاق : أن جملة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة ، ست قرشيات ، وسبع عربيات ، وإسرائيلية[2] ، وذكر ابن سعد في « شرف النبوة » : أن جملتهن إحدىٰ وعشرون ، واتفقوا علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم دخل بإحدىٰ عشرة ، وماتت ثنتان قبله ، وتوفي عن تسع ، وكان يقسم لثمان ، وأكثر صداقٍ عقد به صلى الله عليه وسلم لنفسه وبناته خمس مئة درهم ، فهي سنة ، فينبغي تحريها والوقوف عليها والارتسام بها ، والله أعلم .

فصل
في ذكر الأعمام والعمات

ولم يذكر أحد له صلى الله عليه وسلم أخوالاً ولا خالات ، ولا إخوة ، وكانت عمومته صلى الله عليه وسلم أحد عشر ذكراً ، وست نسوة ، أولاهم بالذكر :

أولاً : أسد الله وأسد رسوله ، وأخوه من الرضاعة أبو يعلىٰ ، وقيل : أبو عُمارة ، حمزة بن عبد المطلب ، أسلم قديماً وعز الإسلام بإسلامه ، وشهد بدراً وأبلىٰ فيها ، واستشهد بأحد ، ولم يخلف إلاَّ ابنةً واحدةً ، ذكر ذلك المحب الطبري ، ولا يصح ذلك ؛ فقد ذكر مصعب الزبيري أن ابنه يعلى الذي كني به أعقب خمسةً من البنين ثم انقرضوا ، وذكر غيره أن له ابنة اسمها عمارة كني بها أيضاً ، وجرىٰ ذكرها في العتق في « سنن الدارقطني » ولها قصة ، وابنته أمامة وهي التي جرىٰ ذكرها في عمرة القضاء ، وتنازع فيها عليٌّ وجعفر وزيد ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا تتزوج بنت حمزة ، والله أعلم .

---

(١) البخاري (٥٢٥٧) ، **الرازقية** : ثياب من كتان .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٦٤٨) .

ثانيهم : أبو الفضل العباس ، كان أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين ، أسلم يوم بدر ، وقيل : لم يتعين وقت إسلامه ؛ لأنه كان من أول أمره مسدداً مقارباً ، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم العقبة ، وشدَّ له العقد مع الأنصار ، ولما أسلم . . استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، فقال له : « مُقَامُكَ بِمَكَّةَ خَيْرٌ لَكَ » فكان عوناً للمستضعفين من المسلمين ، وكان يكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأخبار المشركين ، ثم لقي النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً في سفر الفتح ، فرجع معه فشهد الفتح وحنيناً وأبلىٰ فيها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعظمه ويبجله ، وكذلك الخلفاء بعده ، مات سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان بعد أن كف بصره ، وكان له من الولد عشرة بنين وثلاث بنات ، وعد من الصحابة منهم الفضل وعبد الله وعبيد الله وقثم ، ولا يعلم بنو أم تباعدت قبورهم كبني العباس ؛ فقبر الفضل باليرموك من أرض الشام ، وعبد الله بالطائف ، وعبيد الله بالمدينة ، وقثم بسمرقند ، ومعبد بإفريقية رضي الله عنهم ورحمهم .

ثالثهم : أبو طالب ، واسمه عبد مناف ، وهو أخو عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم لأمه أمهم وأم عاتكة : فاطمة بنت عمرو المخزومي ، وله من الولد طالب وعقيل وجعفر وعليّ كلهم صحابيون إلاَّ طالباً اختطفته الجن ، فذهب ولم يعلم إسلامه ، قيل : ومن العجائب : أن بين كل واحد منهم وبين أخيه في السن عشر سنين ، وكان له من البنات أم هانىء ، واسمها فاختة ، وقيل : هند ، وذكر من بناته أيضاً : جمانة ، والله أعلم .

رابعهم : الحارث ، وهو أكبرهم في السن ، وإنما قدمت حمزة والعباس عليه ؛ لشرف الإسلام ، وقدمت أبا طالب لشرف كفالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا مزية لبقيتهم ، ومن ولد الحارث : أبو سفيان ، أسلم في سفر الفتح وحسن إسلامه ، وعاد يمدح النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كان يهجوه ، ولم يكن له عقب ، ونوفل بن الحارث ، أسلم أيام الخندق وهاجر ، وله عقب ، وعبد شمس بن الحارث ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ، عقبه بالشام .

خامسهم : قثم بن عبد المطلب ، مات صغيراً ، وهو أخو الحارث لأمه .

سادسهم : الزبير ، وكان من أشراف قريش ، وهو الذي سعىٰ في حلف الفضول ، وابنه

عبد الله بن الزبير شهد حنيناً ، وثبت يومئذ ، واستشهد بأَجنادين ، وجد إلىٰ جنب سبعة وقد قتلهم ثم قتل ، ومن ولده : ضباعة بنت الزبير صحابية ، وأم الحكم لها صحبة ورواية .

سابعهم : عبد الكعبة .

ثامنهم : الغَيْداق ، سمي بذلك لسخائه وجوده .

تاسعهم : مجل ، واسمه المغيرة .

عاشرهم : ضرار أخو العباس لأمه .

الحادي عشر : أبو لهب ، واسمه عبد العزىٰ ، كني بأبي لهب لحسن وجهه ، وكان من أسوإ أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم حالاً فيه ، وكفاه من الذم ما ورد في حقه في التنزيل ، وفي « صحيح البخاري » : أنه أُريه بعض أهله بشرِّ حيبةٍ ؛ أي : حال ، فقال : لم ألق بعدكم خيراً ، لكني سقيت في هـٰذه ـ يعني نُقرة الإبهام ـ بعتقي ثويبة[١] ، وقد سبق ذكر ذلك مبيناً عند ذكر مولده صلى الله عليه وسلم .

ومن أولاد أبي لهب : عتبة ومعتب ، ثبتا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، ودرة صحابية أيضاً ، وأما عتيبة . . فقتله الأسد بالزوراء من أرض الشام علىٰ كفره بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما العمات . . فست :

أولهن : صفية أم الزبير ، وهي أخت حمزة لأمه ، أسلمت وهاجرت ، وتوفيت بالمدينة في خلافة عمر .

ثانيتهن : عاتكة ، اختلف في إسلامها ، وهي صاحبة الرؤيا في يوم بدر ، وكانت عند أبي أمية المخزومي ، فولدت له أم المؤمنين أم سلمة وعبد الله وله صحبة ، وزهيراً ، وقُريبة الكبرىٰ .

ثالثتهن : أروىٰ ، وكانت عند عمير بن وهب العبدري ، فولدت له طُليب بن عمير ، وكان من المهاجرين الأولين ، شهد بدراً واستشهد بأَجنادين ، ولا عقب له .

---

(١) البخاري (٥١٠١) .

رابعتهن : أميمة ، كانت تحت جحش بن رئاب ، فولدت له زينب أم المؤمنين ، وعبد الله ، واستشهد بأحد ، ودفن مع خاله حمزة ، وأبا أحمد الأعمى الشاعر ، وأم حبيبة ، وحمنة ، وكلهم لهم صحبة ، وعبيد الله أسلم ثم تنصر بالحبشة ومات بها .

خامستهن : برة ، وكانت عند عبد الأسد بن هلال المخزومي ، فولدت له أبا سلمة زوج أم سلمة قبل النبي صلى الله عليه وسلم .

سادستهن : أم حكيم ، واسمها البيضاء ، وهي توءمة عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت عند كُريز بن ربيعة العبشمي ، فولدت له أروىٰ بنت كريز أم عثمان بن عفان رضي الله عنه .

فَصْلٌ
في مرضعاته وإخوته من الرضاعة

أرضعته صلى الله عليه وسلم أولاً ثويبة مولاة أبي لهب ، وكان إخوته منها عمه حمزة وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي وعبد الله بن جحش وابنها مسروح[1] وهو صاحب اللبن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف ذلك لثويبة ، ويصلها من المدينة ، ولما افتتح مكة . . سأل عنها وعن ابنها مسروح فأخبر أنهما ماتا ، وسأل عن قرابتهما فلم يجد أحداً منهم حيّاً ، وسبق قريباً ما حصل لأبي لهب بعتقه ثويبة .

ثم أرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية ، فكان بنوها إخوته وهم عبد الله والشيماء وأنيسة بنو الحارث بن عبد العزىٰ ، أسلموا كلهم ، وبسبب هـٰذا الرضاع أعتق صلى الله عليه وسلم سبي هوازن وكانوا ستة آلاف ، وذكر أهل السير : أن حليمة ردته إلىٰ أمه صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس سنين وشهر ، ثم لم تره بعدها إلا مرتين : **إحداهما** : بعد تزويجه لخديجة ؛ جاءته تشكو إليه جدب بلادهم ، فاستوهب لها من خديجة عشرين رأساً من الغنم وبَكرات ، **والثانية** : يوم حنين ، وذكر بعضهم في إخوته من حليمة ابن عمه أبا سفيان بن الحارث ، والله أعلم .

---

(١) في (ب) و(ج) : (مسروج) .

فَصْلٌ

في ذكر مواليه صلى الله عليه وسلم من الرجال والنساء

أما الذكور.. فأحد وثلاثون ، أولهم : زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي ، وكان من سبي العرب ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ثم وهبته للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، وكان يدعىٰ زيد ابن محمد ، وفيه نزل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ وثبت له منقبة لم تثبت لغيره من الصحابة ، وهي أنه ذكر في القرآن العظيم باسمه العلم فقال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ وقد سبقت الإشارة إلىٰ ذلك مع ما ثبت له في الإسلام من المشاهد الجميلة الجليلة ، وختم الله له بالشهادة ، فاستشهد بمؤتة سنة ثمان رضي الله عنه .

ثم ابنه أسامة بن زيد حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حِبه وابن أمه وابن أمته ، الخليق للإمارة ابن الخليق لها ، توفي أسامة بوادي القرىٰ وحمل إلى المدينة سنة أربع وخمسين ، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله عشرون سنة .

ثم ثوبان بن بُجْدُدٍ ، قيل : إنه من حمير ، أصابه سباء في الجاهلية ، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه ، ولازمه حتىٰ توفي ، وبعده انتقل إلى الشام ، وتوفي سنة خمس وأربعين ، وقيل : سنة أربع وخمسين .

ثم أبو كبشة ، وكان من مُولَّدي مكة شرفها الله تعالىٰ ، وقيل : من أرض دوس ، اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه ، وشهد بدراً ، توفي في أول يوم استخلف فيه عمر .

ثم أُنيسة من مولدي السَّراة ، اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه .

ثم شُقران ، واسمه صالح ، قيل : ورثه من أبيه ، وقيل اشتراه من عبد الرحمٰن بن عوف وأعتقه .

ثم رَباحٌ ، أسود نُوبيٌّ ، اشتراه من وفد عبد القيس وأعتقه .

ثم يسار ، نُوبيٌّ أيضاً ، أصابه في بعض الغزوات ، وهو الذي قتله العُرنيون ومثلوا به ، وحمل إلى المدينة ميتاً .

ثم أبو رافع القبطي ، واسمه أسلم ، وقيل : إبراهيم ، وهبه العباس للنبي صلى الله عليه

وسلم ، فأعتقه حين بشره بإسلام العباس ، وزوجه مولاته سلمىٰ ، فولدت له عبيد الله كاتب علي ، توفي أبو رافع بعيد عثمان ، وحديثه مع أبي لهب في خبر يوم بدر وانتصار أم الفضل له مشهور ، والله أعلم .

[ثم] أبو مُويهبة ، من مولّدي مُزينة ، اشتراه صلى الله عليه وسلم وأعتقه .

ثم فضالة ، نزل بالشام ومات بها .

ثم رافع ، كان لسعيد بن العاص فورثه ولده ، فأعتقه بعضهم وتمسك بعضهم ، فوهب له النبي صلى الله عليه وسلم ما أدىٰ قيمته ، فكان يقول : أنا مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم مِدْعَم ، وهبه له رِفاعة بن زيد الجذامي ، فقتل بوادي القرىٰ ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلشَّمْلَةَ ٱلَّتِي غَلَّهَا لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَاراً »[1] .

ثم كِركِرة ، وكان علىٰ ثقل النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان نوبياً ، أهداه له هَوذة بن علي الحنفي فأعتقه .

ثم زيد جد هلال بن يساف بن زيد .

ثم عُبيدة ، ثم طهمان . ثم مأبور القبطي من هدايا المقوقس ، وكان خصيّاً ، وهو ابن عم مارية أم إبراهيم .

ثم واقد أبو واقد[2] ، ثم هشام ، ثم أبو ضميرة ، كان من الفيء فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين .

ثم أبو عسيب ، واسمه أحمر ، ثم أبو عبيد .

ثم سفينة ، واسمه مهران وكنيته أبو أحمد[3] ، لقب سفينة لأنه حمل متاع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في بعض الأسفار ، قيل : وعبر بها بعض الأنهار ، فقال له النبي

---

(١) الحديث عند البخاري (٤٢٣٤) بلفظ (. . . إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تُصِبها المقاسمُ لتشتعل عليه ناراً. . .) .

(٢) في « السيرة النبوية » لابن كثير (٤/٦٣٢) : (ومنهم : واقد أو أبو واقد مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٣) كنيته المشهورة : أبو عبد الرحمـٰن.

صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَنْتَ سَفِينَةٌ » قال : فلو حُمِل عليَّ بعدها وِقْرُ سبعة أبعرة . . ما ثقل عليَّ إلاَّ أن يجفُو[1] ، وجرىٰ له مع الأسد معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه ركب سفينةً فانكسرت ، قال : فركبت لوحاً منها فطرحني إلى الساحل ، فلقيني الأسد ، فقلت : يا أبا الحارث ؛ أنا سفينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فطأطأ رأسه وجعل يدفعني بجنبه حتىٰ أوقفني على الطريق وهَمْهَمَ ، فظننت أنه يودعني ، وكان سفينة من مُولَّدي العرب ، وقيل : من أبناء فارس ، اشتراه النبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه ، وقيل : أعتقته أم سلمة وشرطت عليه خدمة النبي صلى الله عليه وسلم ، مات سفينة مع جابر بعد سبعين من الهجرة ، وذكر البخاري في « التاريخ » أنه بقي إلىٰ زمن الحجاج[2] ، وفيه نظر .

ثم أبو هند ، ابتاعه النبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية وأعتقه ، وهو الذي قال في حقه : « زَوِّجُوا أَبَا هِنْدٍ وَتزَوَّجُوا إِلَيْهِ »[3] .

ثم أَنْجَشة حادي القوارير .

ثم أَنَسَةُ وكان حبشياً فصيحاً ، شهد بدراً وما بعدها ، وأعتقه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ومات في خلافة أبي بكر .

ثم أبو لُبابة ، كان لبعض عماته ، فوهبته له فأعتقه النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم رُوَيفع ، سباه من هوازن فأعتقه .

هـٰؤلاء من ذكر المحب الطبري[4] ، وفي بعضهم تجوز ، وقد زدنا في تراجم بعضهم ونقصنا من بعضهم ، والله أعلم .

وأما الإماء . . فسبع : إحداهن : سلمىٰ أم رافع ، وسلمىٰ هي قابلة فاطمة وإبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي أم ولد أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم بركة أم أيمن ، وهي أم أسامة بن زيد ، ورثها من أبيه ، فحضنته بعد وفاة أمه ، فلما

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢١) عن سفينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) التاريخ الكبير (٤/ ٢٠٩) ، وقال : في إسناده نظر .

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٠٦٧) وأبو داوود (٢١٠٢) وغيرهما بلفظ : (أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه . . .) .

(٤) في « خلاصة سير سيد البشر » .

كبر صلى الله عليه وسلم . . أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة ، وكانت قبله عند عبيد الحبشي فولدت له أيمن الذي كنيت به ، وله في الإسلام مشاهد جميلة ، وهو الذي قال فيه حسان بن ثابت يوم خيبر معتذراً عنه حين تغيب عن خيبر وعيرته أمه فقال حسان : [من الطويل]

عَلَىٰ حِينِ أَنْ قَالَتْ لِأَيْمَنَ أُمُّهُ ... جَبُنْتَ وَلَمْ تَشْهَدْ فَوَارِسَ خَيْبَرِ

وَأَيْمَنُ لَمْ يَجْبُنْ وَلَكِنَّ مُهْرَهُ ... أَضَرَّ بِهِ شُرْبُ ٱلْمَدِيدِ ٱلْمُخَمَّرِ

ولأم أيمن مناقب جليلة منها : أنها حضنت النبي صلى الله عليه وسلم ونشأ في حجرها ، وكان يقول : « أُمُّ أَيْمَنَ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي »[1] وهاجرت علىٰ قدميها من مكة إلى المدينة منفردةً في حر شديد ، وعطشت فسمعت خفيقاً فوق رأسها ، فالتفتت ؛ فإذا دلو قد أُدليت إليها من السماء ، فشربت منها فلم تظمأ أبداً[2] ، وكان لها على النبي صلى الله عليه وسلم بسطة وإدلال كثير ، وكان يزورها إلىٰ بيتها ، وكذلك أصحابه بعده ، وكانت أول أهله لحوقاً به بعد فاطمة ، ولم يحصل لأسامة وأبيه الحظوة من النبي صلى الله عليه وسلم إلاَّ بسببها ، ومناقبها كثيرة شهيرة ، وكان أصلها من سبي الحبشة أصحاب الفيل ، والله أعلم .

ثم مارية القبطية من هدايا المقوقس ، وهي أم إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم ، ماتت سنة ست عشرة في خلافة عمر .

ثم ريحانة بنت عمرو القرظية ، اصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم من سبي بني قريظة .

ثم ميمونة بنت سعد ، ثم خَضْرة ، ثم رَضْوَىٰ .

فَصْلٌ

في ذكر خدمه من الأحرار صلى الله عليه وسلم

وهم أحد عشر ، أولهم وأولاهم بالذكر أولاً : أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي ، أهدته أمه أم سليم للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقبله وخدمه من حين قدم المدينة إلىٰ أن توفي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٦/٩) .
(٢) انظر « الروض الأنف » (٧/١٢٤) وفيه : (حفيفاً) بدل (خفيقاً) .

روي عنه قال : خدمته تسع سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : يا أنس لم فعلته[1] ، وقالت أمه أم سليم : يا رسول الله ؛ خادمك أنس فادع الله له ، فقال : « اَللَّهُمَّ ؛ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا آتَيْتَهُ » قال : فإني لمن أكثر الأنصار مالاً .

وحدثتني ابنتي أمينة أنه قال : دفن لصلبي إلىٰ مقدم الحجاج خمس وعشرون ومئة سوىٰ ولد ولدي ، وإن نخلي ليثمر في العام مرتين .

وعُمِّر كثيراً، وكان له وجه عند الخلفاء وغيرهم؛ لخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتىٰ جرىٰ له مع الحجاج واقعة تضمنت منقبةً لعبد الملك بن مروان ، وروىٰ أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثر ، وتوفي بالبصرة سنة تسعين ، وقيل : إحدىٰ وتسعين، وقيل : ثلاث وتسعين ، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو ابن عشر سنين .

ثم هند وأسماء ابنا حارثة الأسلميان .

ثم ربيعة بن كعب الأسلمي ، كان من أصحاب الصفة ، توفي سنة ثلاث وستين .

ثم عبد الله بن مسعود الهذلي ، كان صاحب نعلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا قام . . ألبسه إياهما ، وإذا جلس . . جعلهما في ذراعيه حتىٰ يقوم ، وكذلك كان يخبىء له سواكه حتىٰ يحتاجه ، وفي « الصحيحين » عن أبي موسى الأشعري قال : قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حيناً ما نُرى ابن مسعود وأمه إلاَّ من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ من كثرة دخوله ودخول أمه علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومهم له[2] ، مات عبد الله بالكوفة ـ وقيل : بالمدينة ـ سنة ثلاثين عن بضع وستين سنة .

ثم عقبة بن عامر الجهني ، كان صاحب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعيه ويقود به في الأسفار ، وتنبل بذلك فيما بعد فصار من سادات الصحابة أميراً شريفاً ، ولي مصر لمعاوية ، ومات بها سنة ثمان وخمسين .

ثم بلال بن رباح ، ويقال له أيضاً : ابن حمامة وهي أمه ، اشتراه أبو بكر حين كان يعذب في الله وأعتقه ، فخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولازمه حضراً وسفراً ، وتولى الأذان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٠) بنحوه .

(٢) البخاري (٤٣٨٤) ومسلم (٢٤٦٠) .

وهو أول من أذن في الإسلام ، وكان المؤذنون سواه : ابن أم مكتوم وأبا محذورة ، قال عمر رضي الله عنه : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا[1] .

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ذهب إلى الشام للجهاد ، وقدم مرةً المدينة زائراً ، فطلبوا منه أن يؤذن لهم ، فأذن لهم ولم يتم أذانه ، فلم يُرَ باكٍ أكثر من ذلك اليوم ، مات بدمشق سنة عشرين عن أربع وستين سنة .

ثم سعد مولىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، ثم ذو مَخمر ويقال : ذو مَخْبر ، ابن أخي النجاشي ، وقيل : ابن أخته .

ثم بكير بن شدَّاخ الليثي .

ثم أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أسلم قديماً ، وقصة إسلامه مشهورة في الصحيح ، ثم رجع إلىٰ بلده فأقام بها حتىٰ مضت الخندق وما قبلها ، ثم قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزمه حتىٰ توفي ، وسيَّره عثمان إلى الرَّبذة ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ، وصلىٰ عليه ابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين .

فَصْلٌ

فيمن كان يحرسه صلى الله عليه وسلم في غزواته

وهم ثمانية : سعد بن معاذ سيد الأنصار وأبركهم إسلاماً ، حرسه يوم بدر حين نام في العريش .

ثم ذكوان بن عبد الله بن قيس[2] .

ثم محمد بن مسلمة الأنصاري ، حرسه بأحد .

ثم الزبير بن العوام ، حرسه يوم الخندق .

ثم عباد بن بشر .

ثم سعد بن أبي وقاص .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) في (د) و(و): (ذكوان بن عبد الله بن عبد قيس)، وفي المصادر والمراجع: (ذكوان بن عبد قيس).

ثم أبو أيوب الأنصاري ، حرسه بخيبر حين دخل بصفية .

ثم بلال حرسه بوادي القرىٰ .

قال عبد الله بن شقيق عن عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتىٰ نزلت هـٰذه الآية : ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلما نزلت . . أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ ٱنْصَرِفُوا ، فَقَدْ عَصَمَنِيَ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[1] .

فصل

في رسله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك

وهم أحد عشر ، وقد سبق بعضهم في تاريخ السنة السادسة ، وذكرنا هناك ما ثبت من ذلك في « الصحيحين » ونذكرهم هنا جملة ؛ لتتم الفائدة .

ذكر ابن إسحاق في خبر متداخل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج علىٰ أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية فقال : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَكَافَّةً ، فَأَدُّوا عَنِّي يَرْحَمْكُمُ ٱللهُ ، وَلاَ تَخْتَلِفُوا عَلَيَّ كَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلْحَوَارِيُّونَ عَلَىٰ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ » قالوا : يا رسول الله ؛ وكيف كان اختلافهم ؟ قال : « دَعَاهُمْ لِمِثْلِ مَا دَعَوْتُكُمْ لَهُ ، فَأَمَّا مَنْ قَرُبَ بِهِ . . فَأَحَبَّ وَسَلَّمَ ، وَأَمَّا مَنْ بَعُدَ بِهِ . . فَكَرِهَ وَأَبَىٰ ، فَشَكَا ذَلِكَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ إِلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَصْبَحُوا وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِي وُجِّهَ إِلَيْهِمْ »[2] .

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ، وقد سبق أنه لما ورد عليه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم . . نزل عن سريره ، وأنصف كل الإنصاف ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ عليه يوم مات ، وروي أنه لا يزال يرىٰ علىٰ قبره النور[3] .

وأرسل دحية بن خليفة الكلبي إلىٰ قيصر ، وقد قدمنا ما ثبت من ذلك في الصحيح ، وأنه قارب الإسلام ، فلما رأىٰ نفرة الروم . . غلب عليه حب الرئاسة فتقعد إليها ، وروي : أنه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٨/٢٠) ، وانظر « سيرة ابن هشام » (٢/٦٠٦ـ٦٠٧) .

(٣) أخرجه أبو داوود (٢٥٢٣) عن عائشة رضي الله عنها .

وضع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قَصَبة من ذهب ، فهم يتوارثونه ويستفتحون به[١] ، وروي أيضاً : أنه أرسل إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع دحية : إني مسلم ولكني مغلوب ، فكذبه رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة إلىٰ كسرىٰ ، فمزق كتابه ، فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كلَّ ممزق[٣] ، واسم كسرى الذي مزق الكتاب : أَبْرَوِيز بن هُرْمُز بن أَنُوشِرْوان ، ومعنىٰ (أبرويز) بالعربية : المظفَّر .

وروى ابن هشام عن الزهري ما معناه : أن كسرىٰ كتب إلىٰ باذان عامله علىٰ صنعاء وهو الرابع من ملوكها بعد وَهْرِز فأمره أن يسير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويستتيبه ، فإن تاب وإلا . . بعث إليه برأسه ، فبعث بَاذان بكتاب كسرىٰ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَّ ٱللهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنْ يُقْتَلَ كِسْرَىٰ فِي يَوْمِ كَذَا » فلما ورد الكتاب علىٰ باذان . . توقف مترقباً صدق ذلك ، فقتله ابنه شِيرَوَيْه في ذلك اليوم ، فحينئذ بعث باذان إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه وإسلام من معه ، والله أعلم[٤] .

وبعث حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس ، واسمه جُريج بن مِينا ، وهو والي مصر والإسكندرية ، وكان متحكماً لهرقل ، ولما ورد عليه حاطب . . قال له : إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلىٰ ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ ؛ فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يُعتبر بك ، وإن لك ديناً لن تدعه إلاَّ لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سواه ، إن هـٰذا النبي دعا الناسَ فكان أشدَّهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارىٰ ، ولعمري ما بشارة موسىٰ بعيسىٰ إلاَّ كبشارة عيسىٰ بمحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلاَّ كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً . . فهُمْ من أمته ؛ فالحقُّ عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٤٠٠) .

(٢) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٣٩٨) .

(٣) والحديث بمعناه موجود عند البخاري برقم (٤٤٢٤) .

(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٦٩) .

هـٰذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ، فلما قال له ذلك . . قارب وسدد ، وأهدىٰ أنواعاً من الهدايا[١] .

وأرسل صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى الجُلَنْدي وأخيه مَلِكي عمان ، وهما من الأزد ، فقال الجُلَندي بعد أن وعظه عمرو وأبلغ : إنه والله لقد دلني علىٰ هـٰذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمر بخير إلاَّ كان أول من أخذ به ، ولا ينهىٰ عن شر إلاَّ كان أول تارك له ، وأنه يَغلب فلا يَبْطُر ، ويُغلب فلا يَضْجَر ، ثم أسلما وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بينهم ، فلم يزل عندهم حتىٰ توفي النبي صلى الله عليه وسلم[٢] .

وأرسل صلى الله عليه وسلم سليط بن عمرو العامري إلىٰ هَوْذة بن علي الحنفي ، فلما ورد عليه . . أكرمه ، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا خطيب قومي وشاعرهم ، فاجعل لي بعض الأمر ، فأبىٰ عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يسلم ومات زمن الفتح .

وبعث صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شِمْر الغساني ملك البلقاء ، قال شجاع : انتهيت إليه وهو بغوطة دمشق ، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رمىٰ به وقال : أنا سائر إليه ، وعزم علىٰ ذلك فمنعه قيصر .

ثم بعث أيضاً شجاع بن وهب الأسدي إلىٰ جَبَلَة بن الأيهم الغساني ، فقال جبلة : والله لوددت أن الناس اجتمعوا علىٰ هـٰذا النبي الأمي اجتماعهم علىٰ خلق السماوات والأرض ، ولقد سرني اجتماع قومي له ، وأعجبني قتله أهل الأوثان واليهود واستبقاؤه النصارىٰ ، ولقد دعاني قيصر إلىٰ قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه ، فانتدب مالك بن رافلة من سعد العشيرة فقتله الله ، ولكني لست أرىٰ حقاً ينفعه ولا باطلاً يضره ، والذي يمدني إليه أقوىٰ من الذي يختلجني عنه ، وسأنظر ، وأسلم جبلة بعدُ ، ثم تنصر من أجل لطمة حاكم فيها إلىٰ أبي عبيدة فحكم عليه بالقصاص ، فأنف واستكبر ومات علىٰ نصرانيته ، وله في ذلك خبر يطول ، وكان طول جبلة اثني عشر ذراعاً ، وكان يمسح برجليه الأرض وهو راكب .

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥١٤) .

(٢) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥١٦) ، وفي المصادر : (وأرسل عمرو بن العاص إلىٰ جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان) .

وبعث صلى الله عليه وسلم المهاجر ابن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كُلال الحميري أحد مقاولة اليمن ، فقال له المهاجر : يا حارث ؛ إنك كنت أول من عرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم فحظيت عنه ، وأنت أعظم الملوك قدراً ، فإذا نظرت في غلبة الملوك . . فانظر في غالب الملوك ، وإذا سَرَّكَ يومك . . فَخَفْ غدك ، وقد كان قبلك ملوكٌ ذهبت آثارُها وبقيت أخبارها ، عاشوا طويلاً وأَمَّلوا بعيداً وتزودوا قليلاً ، منهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النِّقَمُ ، فتردد الحارث ولم يسلم[1] .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوَى العبدي ملك البحرين ، فدفع إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا منذر ؛ إن هٰذه المجوسية شر دين ؛ ينكحون ما يستحىٰ من نكاحه ، ويأكلون ما يتكرم عن أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم في الآخرة ، فقال المنذر : قد نظرتُ في هٰذا الذي في يدي . . فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا ، فما يمنعني من دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ، ولقد عجبت أمس ممن يقبله وعجبت اليوم ممن يرده ، ثم أسلم[2] .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلىٰ أهل اليمن داعيين إلى الإسلام ، فأسلم عامة أهل اليمن ملوكهم وسوقتهم طوعاً من غير قتال .

فَصْلٌ
في كتّابه صلى الله عليه وآله وسلم

وهم خمسة وعشرون : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن الأرقم ، وأبيّ بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وأخوه أبان بن سعيد ، وحنظلة بن أبي عامر الأسيدي ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وشُرَحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول ، والزبير بن العوام ، ومُعَيقِيب بن أبي فاطمة الدَّوسي ، والمغيرة بن شعبة ، وخالد بن

---

(١) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥١٧) .
(٢) انظر « الروض الأنف » (٧/ ٥١٥) .

الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاص ، وجُهيم بن الصلت ، وعبد الله بن رواحة ، ومحمد بن مسلمة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرح .

فصل

في رفقائه صلى الله عليه وسلم العشرة النجباء الذي أخبر أنهم في الجنة

وهم أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان التيمي ، وأبو حفص عمر بن الخطاب العدوي ، وأبو عمرو عثمان بن عفان الأموي ، وأبو الحسن علي بن أبي طالب الهاشمي ، وأبو محمد طلحة بن عبيد الله التيمي ، وأبو عبد الله الزبير بن العوام الأسدي ، وأبو إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أُهيب الزهري، وأبو محمد عبد الرحمٰن بن عوف الزهري، وأبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل العدوي ، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري .

وقد جمعهم بعض الفضلاء في بيتين فقال : [من الوافر]

عَلِـيٌّ وَٱلثَّـلاَثَـةُ وَٱبْـنُ عَـوْفٍ وَسَعْـدٌ مِنْهُـمُ وَكَـذَا سَعِيـدُ

كَـذَاكَ أَبُـو عُبَيْـدَةَ فَهْـوَ مِنْهُـمْ وَطَلْحَـةُ وَٱلـزُّبَيْـرُ وَلاَ مَـزِيـدُ

وأنشدنا أيضاً فيهم الفاضل الأصيل الناسك النبيل أبو بكر محمد الصوفي : [من الوافر]

عَتِيـقٌ وَٱلْفَتَـىٰ عُمَـرُ ٱلتَّقِـيُّ وَعُثْمَـانٌ وَمَـوْلاَنَـا عَلِـيُّ

وَطَلْحَـةُ وَٱبْـنُ عَـوْفٍ وَٱبْـنُ زَيْـدٍ وَسَعْـدٌ مَـنْ بِهِـمْ فَخَـرَتْ لُـؤَيُّ

كَـذَاكَ أَبُـو عُبَيْـدَةَ فَهْـوَ مِنْهُـمْ وَلَيْثُهُـمُ ٱلْحَـوَارِيُّ ٱلْكَمِـيُّ

أُولاَكَ ٱلسَّـابِقُـونَ إِلَـى ٱلْمَعَـالِـي فَـدَعْ قَـوْلَ ٱلـرَّوَافِـضِ فَهْـوَ غَـيُّ

فصل

في أنصاره الاثني عشر النقباء

وقد سبق ذكرهم وما قيل فيهم من الشعر ، وقد جمعهم أيضاً الشيخ الإمام سيد الحفاظ وقدوة النبهاء الأيقاظ عليّ بن أبي بكر الداوودي الحسيني فقال : [من الرجز]

أَبْيَـاتُ شِعْـرٍ فِـي أَسَـامِـي ٱلنُّقَبَـا أَنْصَـارِ هَـذَا ٱلـدِّيـنِ لَمَّـا نُصِبَـا

عَيَّنَهُمْ جِبْرِيلُ لِلرَّسُولِ ... كَذَا عَنِ ٱلزُّهْرِيِّ فِي ٱلْمَنْقُولِ

فَأَسْعَدٌ نَقِيبُهُمْ لاَ يُجْهَلُ ... فَتَىٰ زُرَارَةٍ وَذَاكَ ٱلأَوَّلُ

وَٱبْنُ ٱلرَّبِيعِ وَفَتَىٰ رَوَاحَةْ ... وَرَافِعُ بْنُ مَالِكٍ جُنَاحَهْ

ثُمَّ ٱبْنُ مَعْرُورٍ وَذَلِكَ ٱلْبَرَا ... ثُمَّ أَبُو جَابِرَ فِيهِمْ ذُكِرَا

ثُمَّ عُبَادَةٌ سَلِيلُ ٱلصَّامِتِ ... ٱلْخَزْرَجِيُّ زَاكِيَ ٱلْمَنَابِتِ

وَٱبْنُ عُبَادَةٍ وَذَاكَ سَعْدُ ... وَٱلْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرِهِمْ مِنْ بَعْدُ

وَٱبْنُ حُضَيْرٍ ثُمَّ سَعْدُ خَيْثَمَةْ ... ثُمَّ رِفَاعَةٌ أَتَتْ مُنْتَظَمَةْ

فَٱلتِّسْعَةُ ٱلأُولَىٰ صَمِيمُ ٱلْخَزْرَجِ ... تَلِيهِمُ ٱلأَوْسُ كِرَامُ ٱلْمَنْهَجِ (١)

* * *

---

(١) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « البهجة » (٢/ ١٦٣) : (تنبيه : سقط على المصنف ذكر أهل الفتوىٰ في حياته صلى الله عليه وسلم مع أنه قد ترجم لهم ، وهم كما قال المحب الطبري في كتاب « مناقب العشرة » : الخلفاء الأربعة ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وابن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وأبو موسى الأشعري ، لكن لم يفت منهم بحضرته صلى الله عليه وسلم سوىٰ أبي بكر رضي الله عنه) .

الباب السادس

في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير ، ونعمه ، وغنمه وسلاحه ، وبيوته ، وملبوساته ، وغير ذلك من أنواع الآنية وفي عدد سراياه وغزواته صلى الله عليه وسلم

فصل
في ذكر دوابه من الخيل والبغال والحمير

كان له صلى الله عليه وسلم من الخيل عشرة أفراس : السَّكب ، وكان أدهم ، وهو أول فرس ملكه اشتراه من أعرابي من بني فزارة بعشر أواقي ، وكان تحته يوم أحد ، وكان اسمه عند الأعرابي الضَّرِس ـ بفتح الضاد وكسر الراء المهملة كالشرس وزناً ومعنىً ـ فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم السكب ، وكان أغر محجلاً طلق اليمين .

ثم سبحة ، وهو الذي سابق عليه فسبق ففرح به .

ثم المرتجز ، اشتراه من سواء بن الحارث المحاربي وانطلق لينقُده الثمن ، فأعطي أكثر من ذلك ، فجحد بيع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَشْهَدُ لِي » فقال خزيمة بن ثابت : أنا ، فقال : « كَيْفَ تَشْهَدُ وَلَمْ تَحْضُرْهُ ؟! » فقال : نصدقك في خبر السماء ولا نصدقك في خبر الأرض! فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ شَهِدَ عَلَيْهِ . فَحَسْبُهُ » فسمي ذا الشهادتين ، وثبت لخزيمة رضي الله عنه منقبة أخرىٰ وهي : أنه رأىٰ أنه يسجد علىٰ جبهة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فاضطجع له وسجد علىٰ جبهته ، رواه الإمام أحمد بسند جيد[1] ، وروي : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رد الفرس على الأعرابي وقال : « لاَ بَارَكَ ٱللهُ لَكَ فِيهَا » فأصبحت شائلةً برجلها[2] .

---

(١) أحمد (٥/٢١٦) عن عمارة بن خزيمة .

(٢) انظر « الروض الأنف » (٥/١٦٨) .

ثم لِزاز ، من هدايا المقوقس ، وكان يعجبه ويركبه في أكثر غزواته .

ثم اللَّحيف ، أهداه له ربيعة بن أبي البراء ، فأثابه فرائض من نعم بني كلاب .

ثم الظَّرِب ، أهداه له فَروة بن عمرو الجُذامي .

ثم الوَرْد ، أهداه له تميم الداري ، فأعطاه عمر ، فحمل عليه عمر في سبيل الله ثم أضاعه الذي حمله عليه عمر ، وأخرجه للبيع ، فأراد عمر أن يشتريه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَشْتَرِهِ وَإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ ؛ فَإِنَّ ٱلْعَائِدَ فِي هِبَتِهِ كَٱلْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ »[١] ، والورد من ألوان الخيل : الذي لونه بين الكُمَيْت والأشقر[٢] .

ثم الصَّرِم بفتح أوله وكسر ثانيه .

ثم مُلاوح ، وكان لأبي بردة بن نِيار .

ثم البحر ، اشتراه من تجار قدموا من البحرين فسبق عليه ثلاث مرات ، فمسح صلى الله عليه وسلم وجهه وقال : « مَا أَنْتَ إِلاَّ بَحْرٌ » .

وثبت في الصحاح : أنه وقع فزع بالمدينة ليلاً ، فركب صلى الله عليه وسلم فرساً لأبي طلحة عرياً يقال له : مندوب ، وكان بطيئاً ، فاستبرأ الخبر ثم رجع ، فتلقاه الناس وقال : « مَا وَجَدْنَا مِنْ فَزَعٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْراً »[٣] فكان بعد ذلك لا يجارىٰ ، والله أعلم .

وكان له صلى الله عليه وسلم بغلة شهباء يقال لها : دُلْدُل ، من هدايا المقوقس ، وهي أول بغلة ركبت في الإسلام ، وعاشت بعده حتىٰ كبرت وزالت أضراسها ، فكان الصحابة يضيفونها ويَجُشُّون لها الشعير[٤] ، وبقيت إلىٰ زمن معاوية وماتت بينبع ، ونقل بعضهم الإجماع علىٰ أن الدلدل كان ذكراً ، والله أعلم .

وكان له صلى الله عليه وسلم بغلة أخرىٰ يقال لها : فضة ، وُهِبها من أبي بكر ، وبغلة أخرىٰ يقال لها : الأيلية ، أهداها له ملك أيلة ، وبغلة أخرىٰ أهداها له فَروة بن نُفاثة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٣) مطولاً .

(٢) **الكُمَيْتُ** : الفرس الشديد الحمرة .

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٦٢) .

(٤) **يَجُشُّونَ** : يدقون ويطحنون .

الجُذامي ، وكانت بيضاء ، وهي التي ركبها يوم حنين ، ولما أخذ القبضة التي رمىٰ بها وجوه الكفار . . تطأطأت به حتىٰ بلغ بطنها الأرض .

وكان له حمار يقال له : يعفور ، أهداه له فَروة بن عمرو الجُذامي ، مات في حجة الوداع ، وقيل : بقي بعده ، وألقىٰ نفسه في بئر يوم موته صلى الله عليه وسلم .

وعُفَير ، أهداه له المقوقس .

وأما الحمار الذي ذكر أنه أصابه بخيبر وكلمه بكلام طويل ، وأنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم تردىٰ في بئر . . فقال الحفاظ : هو حديث منكر إسناداً ومتناً .

فَصْلٌ
في ذكر نعمه صلى الله عليه وسلم

ولم يذكر أنه اقتنىٰ من البقر شيئاً ، وكان له صلى الله عليه وسلم عشرون لِقحةً بالغابة[1] يراح له منها كل ليلة بقربتين عظيمتين لبناً ، منهن : الحَنَّاء والسمراء والعريس والسعدية والبَغُوم واليسيرة والرناء[2] وبُردة ومَهْرِية .

وكانت ناقته التي يركبها : القصواء ، وهي الجدعاء والعضباء ، وكل هـٰذه الألقاب لنقص يكون في الأذن ، ولم يكن بناقة النبي صلى الله عليه وسلم شيء من ذلك ، وإنما هي ألقاب لزمتها ، وكان لا يحمل النبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي غيرُها .

وثبت في سبب ملكها ما رويناه في « صحيح مسلم » : أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أسروا رجلاً من بني عُقيل وأصابوا معه العَضباء ، فأتىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الوَثاق فقال : يا محمد ، بم أخذتني ؟ وبم أخذت سابقةَ الحاج ؟ فقال : « أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ مِنْ ثَقِيفٍ . . . »[3] وذكر الحديث ، وفيه قصة .

وقال آخرون : دَلَّ تَعَدُّدُ الأسماء علىٰ تعدد المسميات ، وإن القصواء ابتاعها من أبي بكر يوم الهجرة ، والله أعلم .

---

(١) **اللِّقحة** : الناقة الحلوب .

(٢) في « طبقات ابن سعد » (١/ ٤٢٥) : (الدّبّاء) ، وفي « تاريخ الطبري » (٣/ ١٧٥) : (الرَّيَّا) .

(٣) مسلم (١٦٤١) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

وكان له صلى الله عليه وسلم مئة من الغنم لا يزيد عليها زيادةً ، فإذا راح الراعي بسخلة . . ذبح مكانها أخرىٰ ، وكان له شاة يختص بشرب لبنها تدعىٰ : غيثة ، وكان له ديك أبيض .

فَصْلٌ
في ذكر سلاحه صلى الله عليه وسلم

كان له أربعة أرماح ثلاثة أصابها من سلاح بني قينقاع ، وواحد يقال له : المنثني ، وكان له عَنَزَةٌ ، وهي حَرْبة دون الرمح ، كان يمشي بها في يده ، وتحمل بين يديه في العيدين حتىٰ تركز أمامه فتكون سترته ، وكان له مِحْجَن قدر الذراع يتناول به الشيء(١) ، وكان له مِخْصَرة(٢) تسمى العُرْجون ، وقضيب يسمى الممشوق ، وكان له أربع قِسي : اثنتان من شَوْحط(٣) يسميان : الروحاء والبيضاء ، وأخرىٰ من نَبع تسمىٰ : الصفراء ، وأخرىٰ تسمىٰ : الكَتُوم ، كسرت يوم بدر(٤) .

وكان له صلى الله عليه وسلم جُعْبَة تسمى الكافور(٥) ، وكان له صلى الله عليه وسلم ترس عليه تمثال عُقاب ، أُهدي له ، فوضع يده عليه فأذهبه الله تعالىٰ .

وكان له صلى الله عليه وسلم تسعة أسياف : ذو الفَقَار ، تنفله يوم بدر ، وهو الذي رأىٰ فيه الرؤيا ، وكان قبله لمنبه بن الحجاج السهمي ، وثلاثة أسياف من سلاح بني قينقاع أحدها سيف قلعي ، وآخر يدعىٰ : البَتَّار ، وآخر يدعىٰ : الحَتْف ، وكان له سيف يدعىٰ : المِخْذم ، وسيف يسمىٰ : الرَّسُوب ، وآخر ورثه من أبيه ، وكان له سيف يقال له : العَضْب ، أعطاه إياه سعد بن عبادة ، وسيف يدعىٰ : القضيب ، وهو أول سيف تقلده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) **المِحجن** : العصا محنية الرأس .
(٢) **المِخْصرة** : العصا أو نحوها ، يُتوكأ عليها .
(٣) **الشَّوْحَطُ** : شجر له شوك ، يتخذ منه القسي .
(٤) في « طبقات ابن سعد » (٢/ ٢٧) : (أنها كسرت يوم أحد) .
(٥) **الجُعْبَة** : الكنانة التي يكون فيها السهام ، تتخذ من الجلود .

قال أنس : كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة وقَبِيعَته من فضة ، وما بين ذلك حلق الفضة[1] .

وكان له صلى الله عليه وسلم تسعة أدراع : أحدها : تسمى الخرنق ، سميت به للينها ، وأخرىٰ تسمىٰ : البتراء ؛ لقصرها ، وذات الفضول ؛ لطولها ، وهي التي مات وهي مرهونة ، وذات الوشاح ، وذات الحواشي ، وفضة ، والسعدية ، قيل : وهي درع داوود التي كانت عليه حين قتل جالوت ، ودرعان أصابهما من بني قينقاع ، ذكر ذلك الكمال الدميري[2] .

قلت : ودرعه الخَطْمِية التي سلحها علياً وأمره أن يجعلها صداقاً لفاطمة[3] ، وروي : أنه أمره أن يبيعها في جهازها ، فباعها بأربع مئة وثمانين درهماً .

وظاهر صلى الله عليه وسلم يوم أحد ويوم حنين بين درعين ، وكان له صلى الله عليه وسلم مِغْفر يقال له : السَّبُوغ ، ومِنطقة من أدم فيها ثلاث حلق فضة ، وكانت له راية سوداء مُخَمَّلة يقال لها : العقاب ، وكان له لواء أبيض ، وربما جعلت الألوية من خمر نسائه صلى الله عليه وسلم .

فَصْلٌ

[في بيوته صلى الله عليه وسلم]

وكان له يوم مات صلى الله عليه وآله وسلم تسعة أبيات ، فكان بعضها من جريد مطين بالطين ، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض[4] ، وسقف الجميع جريد النخل ، وكان سماؤها قامةً وبسطةً ، وكان لكل بيت حجرة من أكسية الشعر مربوطة في خشب عَرْعَرٍ[5] .

---

(١) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٩٧٢٧) ، **والقَبِيعة** : ما علىٰ مقبض السيف .

(٢) « حياة الحيوان الكبرىٰ » (٢/ ٢١٣) .

(٣) في « السيرة النبوية » (٢/ ٥٤٣) لابن كثير : (الحُطَمِيّة) بالحاء ، وبذلك ورد الحديث الذي رواه أبو داوود (٢١٢٥) والنسائي (٣٣٧٥ـ٣٣٧٦) ، ولفظ أبي داوود : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما تزوج علي فاطمة . . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطها شيئاً » قال : ما عندي شيء ، قال : « أين درعك الحُطَمية ؟ » .

(٤) **المرضومة** : المطروحة بعضها فوق بعض .

(٥) **العَرْعَرُ** : نوع من الشجر ، يقال له : السَّرْوُ .

وبعد وفاة أمهات المؤمنين . . خلط الوليد بن عبد الملك البيوت والحجر في المسجد ، ولما ورد كتابه بذلك . . ضج أهل المدينة بالبكاء كيوم وفاته صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك علىٰ يدي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

فَصْلٌ

في ملبوساته صلى الله عليه وسلم وغيرها من أنواع آلاته

ترك صلى الله عليه وسلم يوم مات ثوبي حِبَرةٍ[١] ، وإزاراً عُمَانياً ، ورداءً أخضر حضرمياً يشهد فيه العيدين ، طوله أربعة أذرع وشبر ، وعرضه ذراعان ، وثوبين صُحاريين[٢] ، وقميصاً صحارياً ، وقميصاً سَحُولياً ، وجبةً يمانيةً ، وخميصةً ، وكساءً أبيض مُلبَّداً ، وقَلانس صغاراً لاطئةً ثلاثاً ، أو أربعاً ، وإزاراً طوله خمسة أشبار ، ومِلحفةً مُورِسةً ، وكانت له عمامة سوداء ، وأخرىٰ يقال لها : السحاب ، كساها علياً[٣] .

وكان صلى الله عليه وسلم يلبس ما وجد ؛ مرةً شَمْلةً ، ومرةً حِبَرةً يمانيةً ، ومرةً جبةً ، ومرةً قَباءً ، وتوشح مرةً بثوب قِطْري ، ومرة ببُرْد نجراني غليظ الحاشية .

وكان أحب الثياب إليه : القميص والحِبَرة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اِلْبَسُوا ٱلْبَيَاضَ ؛ فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ »[٤] .

وأهدىٰ له النجاشي خفين ساذجين[٥] فلبسهما ، وأهدىٰ له أيضاً دحية خفين فلبسهما حتىٰ تخرقا ، وكان له نعلان جَرْداوان لهما قِبالان مثني شراكهما[٦] .

واتخذ صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب ثم نبذه ولم يراجعه ، وكان له خاتم من ورق فَصُّه حبشي ، وكان له خاتم من ورق نقشه (محمد رسول الله) وهو الذي كان يختم به كتبه ، وكان بيد أبي بكر بعده ، ثم بيد عمر ، ثم بيد عثمان حتىٰ سقط في بئر أَرِيس فنزحوها

---

(١) **الحِبَرَةُ** : نوع من برود اليمن .

(٢) **صُحار** : بلدة باليمن .

(٣) **الملبد** : المرقع ، **واللائطة** : اللاصقة بالرأس ، **والوَرْسُ** : نبت أصفر يصبغ به .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨١٠) عن سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٥) **الساذج** : كلمة معربة بمعنىٰ : غير منقوش ولا شعر عليه .

(٦) **الجَرْدَاوان** : اللذان لا شعر عليهما .

فلم يوجد ، ومن بعد ذلك اختلف الناس عليه ، ورأىٰ صلى الله عليه وسلم علىٰ رجل خاتماً من شَبَهٍ فقال : « مَا لِي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ ٱلأَصْنَامِ ؟! » فطرحه ، ثم جاء وعليه خاتم من حديد ، فقال : « مَا لِي أَرَىٰ عَلَيْكَ حِلْيَةَ أَهْلِ ٱلنَّارِ ؟! » فطرحه ، فقال : يا رسول الله ؛ من أي شيء أتخذه ؟ قال : « اِتَّخِذْهُ مِنْ وَرِقٍ وَلاَ تُتِمَّهُ مِثْقَالاً »[1] .

وكان له رَبْعة فيها مرآة تسمىٰ : المُدِلَّة[2] ، ومشط عاج ، ومكحلة ، ومقراض ، وسواك .

وكان له وسادة من أدم حشوها ليف ، وكان له سرير مُرمَّل بشريط ، وكان له قبة يضربها في أسفاره تَسَعُ أربعين رجلاً .

وكان له سفرة يأكل عليها ، وكان له قَصْعَة يقال لها : الغراء ، يحملها أربعة رجال لها أربع حلق ، وكان له قدح من خشب مضبب بثلاث ضبات من فضة ـ وقيل : من حديد ـ وفيه حلقة يعلق بها ، وكان بعده عند أنس ، ثم عند بنيه بعده ، وكان له قدح من زجاج ، وقدح آخر يدعىٰ : الرَّيَّان ، وتور من حجارة ، ومخضب من شَبَه يكون فيه الحناءُ والكَتْم يوضع علىٰ رأسه إذا وجد حراً ، وكان له مغتسل من صُفْر[3] ، وصاع يخرج به فطرته صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم .

فصل

في عدد الغزوات والسرايا

وبين علماء التواريخ في عددها تنازع واختلاف ، وأقل ما قيل في ذلك : ما روي في الصحاح عن زيد بن أرقم : أنهن تسع عشرة[4] ، وعن بريدة : أنهن ست عشرة[5] ، وأكثر ما قيل : إنهن سبع وعشرون[6] ، وفيما بين العددين خلاف واسع ، وليس في ذكر الأقل نفي الأكثر ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٢٢٣) عن بريد بن الحصيب رضي الله عنه ، **والشبه** : النحاس الأصفر .

(٢) **الربعة** : إناء من الخشب .

(٣) **الصفر** : مثل الشَّبه النحاس الأصفر .

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٤٩) ومسلم (١٢٥٤) .

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٧٣) ومسلم (١٨١٤) .

(٦) انظر « الطبقات الكبرىٰ » (٢/ ٥) .

وكان القتال في تسع منها ، وهي : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، وعد بعضهم وادي القرىٰ والغابة .

والسرايا والبعوث ست وخمسون ، وقيل : خمسون ، وقيل : ثمان وثلاثون ، والله أعلم .

وقد تم قسم السير الغراء وعيون الواردات علىٰ سني عمر المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم علىٰ أحسن وجوه الاختصار ، متضمناً لصحيح الأخبار مما أغفله قدماء المؤرخين ونقله أئمة الحديث بعدهم ، مع ذكر جمل من أصول الأحكام وبيان الحلال والحرام والفوائد التوام ، وقد تركت كثيراً مما علم وروده قطعاً وجهلت محله زماناً ؛ لإخلاله بشرطي ، وهو : أني لا أخرِّج إلاَّ ما علمت محله من السنين ولو مع الخلاف ، والله أعلم .

* * *

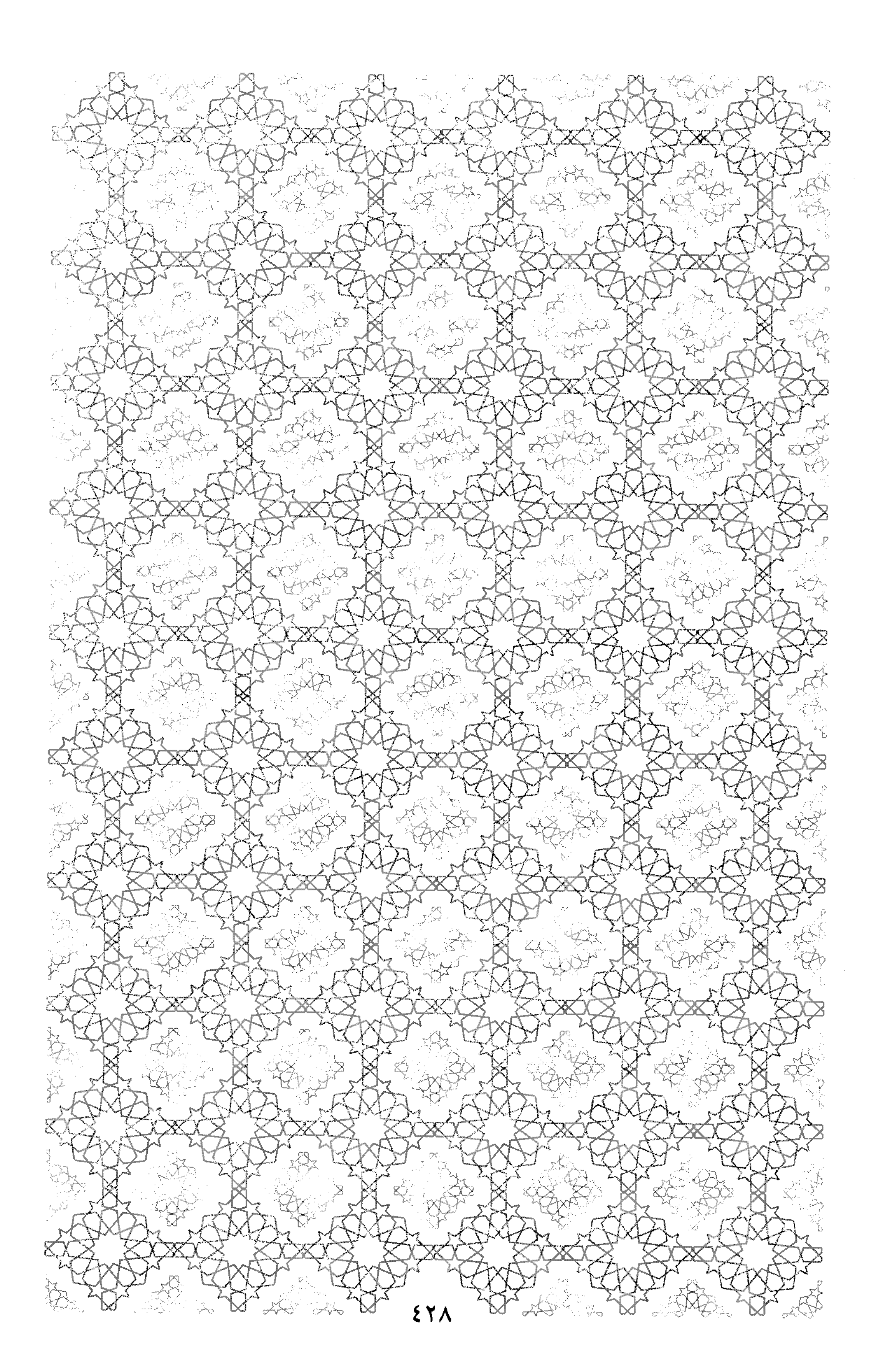




القسم الثاني

في أسمائه الكريمة، وخلقته الوسيمة وخصائصه، ومعجزاته، وباهر آياته صلى الله عليه وسلم

وفيه أربعة أبواب كما سبق



الباب الأول

في الأسماء وما تضمنت من المناسبات

اعلم رحِمك الله وإياي : أن هـٰذا الباب واسع جداً ، وقد أفرده غير واحد بالتصنيف ، فمن أوعب[1] التصانيف في ذلك : كتاب الشيخ الفاضل أبي الحسن الحراني المغربي ؛ فإنه جاء بتسعة وتسعين اسماً منبئة عن أوصاف جميلة ، وشرحها شرحاً شافياً ، وأنا أنقل منه ومن غيره مستعيناً بالله وبه التوفيق .

فمن أجلِّ الأسماء وأعظمها مطابقةً للمسمىٰ وأحقها بالتقديم : ما ثبت في القرآن العظيم ، وهو اسمه أحمد ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما متضمنان للمدحة وعظيم المنحة ، أما أحمد . . فأفعل مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد وتكرره مرة بعد مرة مثل ممدح ، ثم إنه لم يكن محمداً حتىٰ كان أحمد ؛ وذلك أنه حمد ربه فنبّأه وشرفه فلذلك تقدم فذكر في الكتب السالفة بأحمد ، وكان حمده لربه قبل حمد الناس له ، فكان صلى الله عليه وسلم أجل من حَمِدَ ربه ، وأتم من ألقي عليه الحمد في نفسه ، فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين ، وهـٰذا من عظيم العناية أن تضمنت أسماؤه الثناء عليه .

فمن مناسبات هـٰذين الاسمين : أن أنزلت عليه (سورة الحمد) ، وجعل بيده لواء الحمد ، وخص بالمقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون ، ويفتح عليه فيه من المحامد ما لم يعط غيره ، وشرع له ولأمته الحمد عند افتتاح الأمور وختامها ، وعند تجدد النعم وتطاور النقم ، ولذلك ورد وصفهم في كتب الله القديمة بالحمادين لله علىٰ كل حال ، ولم يزل مولاه يرقيه في محامد الأخلاق ومكارم الشيم حتىٰ بلغ أعلاها مرتبةً ، وتكاملت له المحبة من الخالق والخليقة ، وظهر معنى اسمه فيه على الحقيقة ، فهو اللبنة التي استتم بها

---

(١) في (أ) و(ج) : (أول) .

البناء ، وقد أتىٰ علىٰ هـٰذا المعنىٰ عباس بن مرداس حيث يقول فيه : [من الكامل]

إِنَّ ٱلْإِلَـٰـهَ بَنَـىٰ عَلَيْـكَ مَحَبَّـةً فِـي خَلْقِـهِ وَمُحَمَّـداً سَمَّـاكَـا

وقال ابن جعفر : [من البسيط]

سُمِّـي مُحَمّـدُ أَنَّ ٱلْحَمْـدَ مُجْتَمِـعٌ فِيـهِ وَفِـي ٱلإِسْـمِ لِـلأَخْـلاَقِ تَـأْوِيـلُ

ثم إنه قد ظهر من هـٰذين الاسمين اشتقاق من اسم مولاه، فمن أسمائه جل وعلا: الحميد، ومعناه المحمود ، ومحمد بمعنىٰ : محمود ، وكذا وقع اسمه في الزبور ، وأحمد بمعنىٰ : أكثر من حمد وأجل من حمد، وقد أشار إلىٰ هـٰذا المعنىٰ حسان بن ثابت حيث يقول: [من الطويل]

وَشَـقَّ لَـهُ مِـنْ إِسْمِـهِ لِيُجِلَّـهُ فَـذُو ٱلْعَـرْشِ مَحْمُـودٌ وَهَـٰذَا مُحَمَّـدُ

ثم إن تسمية أهله له بهـٰذا الاسم علىٰ جاهليتهم وجهالتهم لم يكن إلا عن عناية ربانية وحكمة إلـٰهية ، قيل : إن أمه رأت قائلاً يقول لها : إنك قد حملت بسيد هـٰذه الأمة فسميه محمداً[1] .

ثم من عجائب خصائصه : أن منع الله هـٰذين الاسمين علىٰ شهرتهما في كتبه القديمة فلم يسم بهما أحد قبل زمانه ؛ لئلا يدخل لبس أو شك علىٰ ضعفاء القلوب إلىٰ أن شاع قبيل وجوده علىٰ ألسنة الأحبار والرهبان والكهان أن نبياً قد أظل زمانه واسمه محمد ، فسمىٰ قوم من العرب أبناءهم بذلك ، ولم يدع أحد ممن تسمىٰ بها النبوة ، ولا ادعاها له أحد ، وصار بعضهم من أتباعه وصحابته .

فصل

[من أسمائه صلى الله عليه وسلم وصفاته في القرآن الكريم]

ومن أسمائه وصفاته في القرآن العظيم : الرؤوف الرحيم ، ورحمة للعالمين ، ومزكيهم ، ومعلمهم الكتاب والحكمة ، وهاديهم إلى صراط مستقيم ، والمزمل ، والمدثر ، والرسول الكريم ، والنور ، والمنذر ، والشاهد ، والمبشر ، والنذير ، والداعي إلى الله بإذنه ، والسراج المنير ، وعبد الله ، ورسول الله ، وخاتم النبيين ، والرسول النبي

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ١٥٧) و« السيرة النبوية » (١/ ٢٠٦) لابن كثير .

الأمي ، وطه ، ويس ، والنجم الثاقب ، والشهيد ، والرسول المبين ، وقدم الصدق ، ونعمة الله ، والعروة الوثقىٰ ، والرسول الأمين .

قال الشيخ[1] الإمام الحافظ برهان الدين إبراهيم بن حسن النحوي رحمه الله تعالىٰ : أخبرني شيخي الإمام الحافظ علي بن أحمد الزينبي فيما قرأته عليه إن شاء الله تعالىٰ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعىٰ في السماء أحمد ، وفي الأرض محمداً ، وقيل : في القرآن محمداً ، وفي الإنجيل أحمد ، وفي التوراة أبا القاسم ، والله أعلم .

فصل

[من أسمائه صلى الله عليه وسلم في الكتب القديمة]

ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم في كتب الله القديمة :

المتوكل ، والمختار ، ومقيم السنة ، والمقدس ، وقثم ؛ وهو الجامع الكامل ، وصاحب القضيب ؛ وهو السيف ، ويحتمل أنه القضيب الممشوق الذي كان يمسكه بيده ، وصاحب الهِراوة ؛ وهي العصا ، وصاحب التاج ؛ وهو العمامة ، وروح الحق ؛ وهو معنى البَارِقْلِيط في الإنجيل ، وقيل : هو الذي يفرق بين الحق والباطل ، ومَاذمَاذ ؛ ومعناه طيب طيب ، وحَمَّطايا ، والخاتِم والخاتَم ، الأول بكسر التاء والثاني بفتحها ، ومعناه بالفتح : أحسن الأنبياء خلقاً وخلقاً ، ويسمىٰ بالسريانية : مُشَقَّح ، والمَنْحَمِنَّا .

واسمه في التوراة : أُحْيَد ، وفي أول سفر منها في وصف إسماعيل : وسيلد عظيماً لأمة عظيمة ، وفيها أيضاً : يا أيها النبي ؛ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتىٰ يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إلـه إلاَّ الله ، ويفتح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً .

وفي حديث آخر : ولا صخب في الأسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوال للخنا ، أسدده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوىٰ ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ،

---

(١) في (ب) : (شيخنا) .

والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدي إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلِّم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأسمِّي به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

فَصْلٌ

[من أسمائه التي سمىٰ بها نفسه]

ومن أسمائه التي سمىٰ بها نفسه صلى الله عليه وسلم :

ما رواه مسلم وغيره عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ لِي أَسْمَاءً ، أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا ٱلْمَاحِي ٱلَّذِي يَمْحُو ٱللهُ بِيَ ٱلْكُفْرَ ، وَأَنَا ٱلْحَاشِرُ ٱلَّذِي يُحْشَرُ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ قَدَمَيَّ ، وَأَنَا ٱلْعَاقِبُ ٱلَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ »[1] .

وروي في حديث آخر : « لِي عَشَرَةُ أَسْمَاءٍ . . . » وذكر هـٰذه الخمسة وزاد : « وَأَنَا رَسُولُ ٱلرَّحْمَةِ ، وَرَسُولُ ٱلرَّاحَةِ ، وَرَسُولُ ٱلْمَلاَحِمِ ، وَأَنَا ٱلْمُقَفِّي ، قَفَّيْتُ ٱلنَّبِيِّينَ ، وَأَنَا قَيِّمٌ »[2] .

وروينا في « صحيح مسلم » أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء فقال : « أَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ ، وَٱلْمُقَفِّي ، وَٱلْحَاشِرُ ، وَنَبِيُّ ٱلتَّوْبَةِ ، وَنَبِيُّ ٱلرَّحْمَةِ »[3] .

ومن ذلك : القاسم وأبو القاسم كما ورد في الصحاح النهي عنهما لغيره فقال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ قَاسِماً أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ »[4] وفي رواية : « فَإِنِّي أَنَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ »[5] .

وللعلماء في جواز التسمي بالقاسم والتكني بأبي القاسم مذاهب كثيرة ، أقربها إلى الصواب : أن النهي مختص بمدة حياته صلى الله عليه وسلم ؛ لئلا يشتبه اسمه باسم غيره فيتأذىٰ بذلك عند النداء ، وذلك مصرح به في الحديث .

---

(١) مسلم (٢٣٥٤) .

(٢) انظر « الشفا » (ص٢٨٨ـ٢٨٩) ، قَفَّيْتُ : اتبعت .

(٣) مسلم (٢٣٥٥) .

(٤) أخرجه البخاري (٣١١٤) ومسلم (٢١٣٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٥) أخرجها مسلم (٢١٣٣/٥) .

ومن ذلك : الأمين ، والمأمون ، والولي ، وسيد ولد آدم ، وسيد الناس يوم القيامة ، ودعوة إبراهيم ، وأول من تنشق عنه الأرض ؛ كما ورد ذلك في أحاديث متفرقة أنه تسمىٰ بها .

فصل

[فيما اشتهر علىٰ ألسنة الأمة من سماته وصفاته صلى الله عليه وسلم]

ومما اشتهر علىٰ ألسنة الأمة وورثه الخلف عن السلف : المصطفىٰ ، والمجتبىٰ ، والشفيع ، والمشفع ، والمتقي ، والمصلح ، والطاهر ، والصادق المصدوق ، وإمام المتقين ، وقائد الغر المحجلين ، وحبيب رب العالمين ، وصاحب الحوض المورود واللواء المعقود والمقام المحمود والمحضر المشهود ، وصاحب الأزواج الطاهرات والعلو والدرجات ، العربي القرشي التهامي المكي المدني الأبطحي ، سيد المرسلين ، شفيع المذنبين ، قائد الوافدين علىٰ رب العالمين .

هٰذا وجميل صفاته وجليل سماته باب واسع لا يوقف علىٰ نهايته ، وتكبو خطا الأفكار دون بلوغ غاياته ؛ نقل أبو بكر ابن العربي في كتابه « الأحوذي في شرح الترمذي » عن بعضهم : أن لله تعالىٰ ألف اسم ، وللنبي صلى الله عليه وسلم ألف اسم أيضاً[1] ، وذكر القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ فيما منح الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم من أسمائه الحسنىٰ ووصفه به من صفاته العلا فصلاً مستقلاً ، جاء فيه بنحو من ثلاثين اسماً ، وذكر أنه لم يسبق إلىٰ مثل ذلك ، ثم ذيله بفصل آخر رأينا إثباته جملةً ؛ لما فيه من عظيم الفائدة .

قال رحمه الله تعالىٰ : وها أنا أذكر نكتةً أذيِّل بها هٰذا الفصل ، وأختم بها هٰذا القسمَ وأُزيح الإشكال بها فيما تقدم عن كل ضعيف الوهم سقيم الفهم ؛ تُخلِّصه من مهاوي التشبيه ، وتزحزحه عن شبه التمويه ، وهو أن يعتقد أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسن أسمائه وعليِّ صفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يشبَّه به ، وأنّ ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق . . فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي ؛ إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق ، فكما أن ذاته تعالىٰ لا تشبه الذوات . . كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين ؛ إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض ، وهو

---

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٨١) .

تعالىٰ منزه عن ذلك ، بل لم يزل بصفاته وأسمائه ، وكفىٰ في هـٰذا قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ولله درُّ من قال من العلماء العارفين المحققين : التوحيد : إثبات ذاتٍ غير مُشبِهة للذوات ، ولا معطَّلة من الصفات .

وزاد هـٰذه النكتة الواسطي رحمه الله تعالىٰ بياناً ، وهي مقصودنا فقال : ليس كذاته ذاتٌ ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة ، إلاَّ من جهة موافقة اللفظ اللفظَ ، وجلت الذاتُ القديمة أن يكون لها صفة حديثة ، كما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة ، وهـٰذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم .

وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله قوله هـٰذا ليزيده بياناً فقال : هـٰذه الحكاية تشتمل علىٰ جوامع مسائل التوحيد، وكيف تشبه ذاته ذاتَ المحدثات وهي بوجودها مستغنية؟! وكيف يُشبه فعلُه فعلَ الخلق وهو لغير جَلْبِ أُنسٍ أو دفع نقص حصل، ولا بجواهر وأعراض وُجِد ، ولا بمباشرة ومعالجة ظهر ، وفعل الخلق لا يخرج عن هـٰذه الوجوه .

قال : وقال آخر من مشايخنا : ما توهمتموه بأوهامكم أو أدركتموه بعقولكم. . فهو محدث مثلكم ، وقال الإمام أبو المعالي الجويني : من اطمأن إلىٰ موجود انتهىٰ إليه فكره. . فهو مُشبِّهٌ ، ومن اطمأن إلى النفي المحض. . فهو معطل ، ومن قطع بموجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته. . فهو مُوحِّدٌ .

وما أحسن قولَ ذي النون المصري : حقيقة التوحيد : أن تعلم أن قدرة الله تعالىٰ في الأشياء بلا علاج ، وصنعه لها بلا مِزاج ، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وما تصور في وهمك. . فالله بخلافه .

وهـٰذا كلام عجيب نفيس مُحقَّق ، والفصل الآخر تفسير لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ والثاني تفسير لقوله : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ والثالث تفسير لقوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات والتنزيه ، وجنبنا طرفي الضلالة والغواية من التعطيل والتشبيه ، بمنه وكرمه ورحمته[1] .

* * *

---

(١) انظر « الشفا » (ص٣٠٤ـ٣٠٦) .

الباب الثاني

في صفة خَلْقه الوسيم، وتناسب أعضائه، واستواء أجزائه وما جمع الله فيه من الكمالات

اعلم رحمك الله وإياي : أنه ورد في كثير من الأحاديث عن جمع من الصحابة دخل حديث بعضهم في بعض : أنه صلى الله عليه وسلم كان رَبْعة من القوم ؛ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، أزهر اللون[1] ، وفي رواية : أبيض مشرباً بحمرة ، وسيماً قسيماً ، في عينيه دَعَجٌ ، وفي بياضهما عروق رقاق حمر ، أنجل ، أهدب الأشفار ، أبلج ، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنىٰ ، أفلج ، أشنب ، سهل الخدين ، مدور الوجه ، واسع الجبين ، ظاهر الوضاءة ، معتدل الأجزاء ، ليس بمُطَهَّم ولا مُكَلْثم ، كث اللحية تملأ صدره ، عظيم الهامة ، رجل الشعر كأنه مشط فتكسر قليلاً ، يبلغ مرةً إلىٰ منكبيه ، ومرة إلىٰ أصول أذنيه ، ومرة إلىٰ فروعهما ، ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرةً بيضاء يواريهن الدهن ، في صوته صحل ، وفي عنقه سطع كأنه جِيد دُمية في صفاء الفضة ، بادناً متماسكاً ، ويَفْتَرُّ عن مثل سنا البرق ، أو عن مثل حب الغمام ، يخرج نور من بين ثناياه ، وإذا تكلم . . يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، إن صمت . . فعليه الوقار ، وإن تكلم . . سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب ، حلو المنطق ، فصل لا نَزْر ولا هَذَر ، كأن منطقه خرزات نظمن ، دقيق المسرُبة من لبته إلىٰ سرته كالخط[2] أو كالقضيب ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، سواء البطن والصدر ، مسيح الصدر ضخم العظام ، عَبْل العضدين والذراعين والأسافل ، بعيد ما بين المنكبين ، طويل الزَّندين ، رحب الراحة ، شَثَن الكفين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٧) ومسلم (٢٣٤٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، **الأمهق** : شديد البياض ، **الآدم** : الأسمر .

(٢) في (ب) و(ج) : (كالخيط) .

والقدمين[1] ، واسعهما ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال.. زال تقلعاً ، ويخطو تكفُّؤاً ، ويمشي هوناً ، ذريع المشية إذا مشىٰ.. كأنما ينحط من صبب .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : (إنا لنجهد أنفسنا وإنه غير مكترث ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، وإذا التفت.. التفت جميعاً ، إذا عرق.. تحدر مثل الجمان في رائحة المسك ، من رآه بديهةً.. هابه وفرق لرؤيته ، ومن خالطه معرفةً.. أحبه ، ويقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله) .

قال البراء بن عازب : (ما رأيت من ذي لِمَّة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2] .

وقال أبو هريرة : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه)[3] ، (وإذا ضحك.. تلألأ وجهه في الجُدُر)[4] .

وقال جابر بن سمرة وقد قال له رجل : كان وجهه صلى الله عليه وسلم مثل السيف ، فقال : (لا ، بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً)[5] .

وقال أنس رضي الله عنه : (ما مَسِسْتُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت رائحةً قط أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم)[6] .

---

(١) **الدعج** : شدة سواد الحدقة ، **الأنجل** : واسع العينين ، **أهدب الأشفار** : كثير شعر الأجفان ، **أبلج** : مشرق اللون ، **أزج** : مقوس الحاجب مع طول في طرفه ، **أقنىٰ** : القنا في الأنف : طوله ورقة أرنبته مع حدب في وسطه ، **أفلج** : الفَلَج : فرجة ما بين الثنايا والرَّباعيات ، **أشنب** : الشَّنَب : البريق والبياض والتحديد في الأسنان ، **المطهم** : المنتفخ الوجه ، **المكلثم** : المستدير الوجه ، **الجيد** : العنق ، **الدمية** : الصورة المصورة ، شبه عنقه صلى الله عليه وسلم بالفضة في صفائها ، **يفتر** : يتلألأ ، **لا نزر ولا هذر** : لا قليل الكلام ولا كثيره ، **المسربة** : ما دَقَّ من شعر الصدر ، **عبل العضدين** : ضخم العضدين ، **الزندان** : الساعد والذراع ، **الشثن** : الخشونة ، هـٰذا إذا عمل صلى الله عليه وسلم في الجهاد أو مهنة أهله.. صار كفه خشناً ، وإذا ترك ذلك.. رجع إلىٰ أصل جبلته من النعومة .

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣٧) ، **اللِّمَّةُ** : الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذنين .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٤٨) .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٦٠) .

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٤٤) .

(٦) أخرجه البخاري (٣٥٦١) .

وكان أبو بكر رضي الله عنه ينشد عند رؤيته : [من الوافر]

أَمِينٌ مُصْطَفَىً بِٱلْخَيْرِ يَدْعُو كَضَوْءِ ٱلْبَدْرِ زَايَلَهُ ٱلظَّلَامُ[1]

وقد أسلم غير واحد لبديهة رؤيته . وقد قال نفطويه في قوله تعالىٰ : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ : إنه مثل ضربه الله لنبيه ؛ يقول : يكاد منظره يدل علىٰ نبوته وإن لم يَتْلُ قرآناً ، كقول ابن رواحة : [من البسيط]

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِٱلْخَبَرِ[2]

وقد كان عمر ينشد بين جلسائه قول زهير بن أبي سلمىٰ في هرم بن سنان : [من الكامل]

لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَىٰ بَشَرٍ كُنْتَ ٱلْمُضِيءَ لِلَيْلَةِ ٱلْبَدْرِ

ثم يقول عمر رضي الله عنه وجلساؤه : كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن كذلك غيره[3] .

وقيل : إن امرأة استأذنته في المدح فأذن لها فقالت : [من الوافر]

وَأَنْظَرَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ ٱلنِّسَاءُ

حَسُنْتَ مَلَاحَةً وَشَرُفْتَ ظُرْفاً كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وقالت له عائشة : بأبي أنت وأمي لو رآك الشاعر . . لعلم أنك أحق بقوله : [من الكامل]

وَمُبَرَّأً مِنْ كُلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغْيِلِ[4]

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ بَرَقَتْ كَمِثْلِ ٱلْبَارِقِ ٱلْمُتَهَلِّلِ

وقال شرف الدين الأبوصيري رحمه الله تعالىٰ : [من البسيط]

أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ بِٱلْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِٱلْبِشْرِ مُتَّسِمِ

كَٱلزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَٱلْبَدْرِ فِي شَرَفٍ وَٱلْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَٱلدَّهْرِ فِي هِمَمِ

---

(١) انظر « تاريخ مدينة دمشق » (٣/٣٥٨) .
(٢) انظر « الشفا » (ص٣٠٩) .
(٣) انظر « تاريخ مدينة دمشق » (٣/٣٥٨) .
(٤) في (و) : (وداء معضل) .

وقال أيضاً :

كَـأَنَّمَـا ٱللُّـؤْلُـؤُ ٱلْمَكْنُونُ فِـي صَـدَفٍ ... مِـنْ مَعْـدِنَـيْ مَنْطِـقٍ مِنْـهُ وَمُبْتَسَـمِ

وقال أيضاً :

مُنَـزَّهٌ عَـنْ شَـرِيـكٍ فِـي مَحَـاسِنِـهِ ... فَجَـوْهَـرُ ٱلْحُسْـنِ فِيـهِ غَيْـرُ مُنْقَسِـمِ

وقال أيضاً :

أَقْسَمْـتَ بِـالْقَمَـرِ ٱلْمُنْشَـقِّ إِنَّ لَـهُ ... مِـنْ قَلْبِـهِ نِسْبَـةً مَبْـرُورَةَ ٱلْقَسَـمِ[1]

والأخبار والأشعار في نعوت خلقته الجليلة كثيرة منتشرة ، ولو ذهبت في تتبعها . . لخرجت عن المقصود ، فسبحان من جمع له المحاسن التامة ، وجعله رحمةً للناس عامةً ، وقرن محبته بمحبته وطاعته بطاعته ، وجعل فلاح الدارين منوطاً باتباعه ، ولقد أحسن من قال : [من السريع]

هَـٰذَا هُـوَ ٱلْمَجْـدُ ٱلَّـذِي قَـدْ غَـدَا ... لاَ يَصِـلُ ٱلْكُـلُّ إِلَـىٰ بَعْضِـهِ

سَمَـاؤُهُ فِـي أَرْضِـهِ وَهْـيَ لَـمْ ... تَكُـنْ لِتَعْلُـو سِـوَىٰ أَرْضِـهِ

فَكُـلُّ مَـنْ قَـامَ بِـهِ حُبُّـهُ ... قَـامَ بِفَـرْضِ ٱللهِ فِـي فَـرْضِـهِ

عَيْـنُ رِضَـا ٱللهِ رِضَـاهُ فَمَـنْ ... أَرَادَ يُـرْضِـي ٱللهَ فَلْيُـرْضِـهِ

فَصْلٌ
في صفة خاتم النبوة

فهو من جملة أجزائه الخلقية صلى الله عليه وآله وسلم ، وأوله : أن الملكين لما شقا قلبه ولأماه . . وضعا الخاتم حينئذ[2] ، والحكمة فيه : أنه لما ملىء حكمةً وإيماناً . . ختم عليه كالوعاء المملوء مسكاً أو دراً ثم يختم عليه .

---

(١) انظر « البردة » مع شرحها للعلامة الباجوري (ص٨٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٠) .

(٢) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ : (سبق أول الكتاب (١/ ٤٣) أن هـٰذا قول عياض رحمه الله ، وأن النووي قال : إنه ضعيف باطل ، وذكرت الجمع بينهما) .

ومحله : أسفل من غُضْرُوف كتفه اليسرىٰ[1] ، وهو الموضع الذي يوسوس منه الشيطان من غيره ، وهو بَضْعة ناشزة[2] لونها كلون جسده ، عليها خِيلان[3] .

والخلاف في صفته منتشر نحو عشرين قولاً ، منها : كزِرِّ الحَجَلَةِ[4] ، وكبيضة الحمامة ، وكالسلعة ، وكالْجُمعِ ، وكأثر المحجمة القابضة على اللحم ، وكالتفاحة ، وقد سبق أنه لم يكن لنبي قبله ، وأن فيه إشارةً إلى أنه خاتم النبيين .

* * *

---

(١) **الغُضْرُوفُ** : رأس لوح الكتف ، ويقال فيه : غُرْضُوفٌ بتقديم الراء .

(٢) **بَضْعَةٌ ناشزة** : قطعة لحم مرتفعة .

(٣) **الخِيلاَن** : جمع خال ، وهو : الشامة في الجسد .

(٤) **الحَجَلَةُ** : بيت كالقُبة لها أزرار كبار وعُرىً .

الباب الثالث

في خصائصه صلى الله عليه وسلم

وهي نوعان حسبما تقدم

النوع الأول

فيما اختص به صلى الله عليه وسلم هو وأمته من الفضائل وأنواع الكرامات

وهـٰذا باب واسع يستدعي الكلام فيه إلىٰ مجلدات ، ومحله التتبع والنقل ، ونحن نذكر من ذلك طرفاً صالحاً من عيونه إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك : شفاعته العظمىٰ في إراحة الناس من موقف يوم القيامة ، حين يموج الناس بعضهم في بعضهم ، ويذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ، ويلجم بعضهم إلجاماً ، فيفزع إليه الأولون والآخرون بعد فزعهم إلى الأنبياء قبله ، واعتذار كل واحد منهم وقوله : نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، حتىٰ يقول آخرهم عيسىٰ صلوات الله عليه : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول : « أَنَا لَهَا » ويخر ساجداً شافعاً ، فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ، سَلْ . . تُعْطه ، واشفع . . تُشَفَّع ، فيوضع الصراط ويحاسب الناس ويراحون ، وهـٰذا هو المقام المحمود الذي وعده الله به ؛ يحمده فيه الأولون والآخرون .

روينا في « صحيح البخاري » عن آدم بن علي قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول : (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كل أمة تَتْبع نبيها ، فيقولون : يا فلانُ اشفع لنا ، يا فلان اشفع لنا ، حتىٰ تنتهي الشفاعةُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود)[1] وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا سَيِّدُ ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ،

---

(١) البخاري (٤٧١٨) .

وَتَدْرُونَ لِمَ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ ٱللهُ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ[1] . . . » وذكر حديث الشفاعة .

ودل متفرقات الأحاديث علىٰ أن له صلى الله عليه وسلم سوىٰ هـٰذه الشفاعة شفاعاتٍ أربعاً :

إحداهن : في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة ، وهم سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً .

الثانية : فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم .

الثالثة : فيمن قال : لا إلـٰه إلا الله .

الرابعة : في رفع درجات ناس في الجنة .

وورد في حديث : « لاَ أَزَالُ أَشْفَعُ حَتَّىٰ يَقُولَ خَازِنُ ٱلنَّارِ : يَا مُحَمَّدُ ؛ مَا تَرَكْتَ لِغَضَبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ نِقْمَةٍ »[2] .

ومن خصائصه يوم القيامة : ما رواه الترمذي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَوَّلُ ٱلنَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا ، وَأَنَا قَائِدُهُمْ إِذَا وَفَدُوا ، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا أَنْصَتُوا ، وَأَنَا شَفِيعُهُمْ إِذَا حُبِسُوا ، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُبْلِسُوا ، لِوَاءُ ٱلْكَرَمِ بِيَدِي ، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَىٰ رَبِّي وَلاَ فَخْرَ ، وَيَطُوفُ عَلَيَّ أَلْفُ خَادِمٍ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَأُكْسَىٰ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ ٱلْجَنَّةِ ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ ٱلْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْخَلاَئِقِ يَقُومُ ذَلِكَ ٱلْمَقَامَ غَيْرِي »[4] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ ٱلْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ ٱلأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ »[5] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٧) .
(٣) الترمذي (٣٦١٠) والدارمي (٤٩) بنحوه ، وانظر « الشفا » (ص٢٥٨) .
(٤) أخرجه الترمذي (٣٦١١) .
(٥) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) .

وفي حديث : « وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلاَ فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ ٱلْجَنَّةِ فَيُفْتَحُ لِي فَأَدْخُلُهَا فَيَدْخُلُهَا مَعِي فُقَرَاءُ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَلاَ فَخْرَ ، وَأَنَا أَكْرَمُ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ وَلاَ فَخْرَ »(١) .

وفي حديث آخر : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ وَعِيسَىٰ فِيكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ؟ » ثم قال : « إِنَّهُمَا فِي أُمَّتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، أَمَّا إِبْرَاهِيمُ . . فَيَقُولُ : أَنْتَ دَعْوَتِي وَذُرِّيَّتِي فَٱجْعَلْنِي مِنْ أُمَّتِكَ ، وَأَمَّا عِيسَىٰ . . فَٱلأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ بَنُو عَلاَّتٍ ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ ، وَأَنَّ عِيسَىٰ أَخِي لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِهِ »(٢) .

ومن خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة : اختصاصه بالوسيلة ، وهي أعلىٰ درجة في الجنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَأَلَ ٱللهَ لِيَ ٱلْوَسِيلَةَ . . حَلَّتْ لَهُ ٱلشَّفَاعَةُ »(٣) .

ومن ذلك : اختصاصه بالحوض ، والكوثر ؛ وهو نهر يسيل في حوضه ، حافتاه قباب اللؤلؤ ، ومجراه على الدر والياقوت ، وماؤه أحلىٰ من العسل وأبيض من الثلج .

ومن خصائصه : ما روىٰ أبو ذر وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وجابر بن عبد الله أنه قال : « أُعْطِيتُ خَمْساً ـ وفي بعضها : سِتّاً(٤) ـ لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ ٱلأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ ٱلصَّلاَةُ . . فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ ٱلْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلِي ، وَبُعِثْتُ إِلَى ٱلنَّاسِ كَافَّةً ، وَأُعْطِيتُ ٱلشَّفَاعَةَ »(٥) وفي رواية أخرىٰ : « وَقِيلَ لِي : سَلْ تُعْطَهُ »(٦) وفي أخرىٰ : « وَعَرَضَ عَلَيَّ أُمَّتِي فَلَمْ يَخْفَ عَلَيَّ ٱلتَّابِعُ مِنَ ٱلْمَتْبُوعِ »(٧) وفي حديث : « نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ ، وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٦) والدارمي (٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) انظر « الشفا » (ص٢٥٩ـ ٢٦٠) ، والحديث موجود مختصراً في البخاري برقم (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) وأبي داوود (٤٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١) وغيرهما .

(٦) أخرجها أحمد (٥/ ١٤٥) عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٧) أخرجها البيهقي مطولاً في « دلائل النبوة » (٢/ ٤٠٣) .

ٱلْكَلِمِ ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ ؛ إِذْ جِيءَ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ ٱلأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي »[1] وفي رواية : « وَخُتِمَ بِيَ ٱلنَّبِيُّونَ »[2] .

وفي حديث عن ابن وهب أنه قال : « قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : سَلْ يَا مُحَمَّدُ ، فَقُلْتُ : مَا أَسْأَلُ يَا رَبِّ ، اِتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَلَّمْتَ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ، وَٱصْطَفَيْتَ نُوحاً ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : مَا أَعْطَيْتُكَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ، أَعْطَيْتُكَ ٱلْكَوْثَرَ ، وَجَعَلْتُ ٱسْمَكَ مَعَ ٱسْمِي يُنَادَىٰ بِهِ فِي جَوْفِ ٱلسَّمَاءِ ، وَجَعَلْتُ ٱلأَرْضَ طَهُوراً لَكَ وَلِأُمَّتِكَ ، وَغَفَرْتُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَأَنْتَ تَمْشِي فِي ٱلنَّاسِ مَغْفُوراً لَكَ ، وَلَمْ أَصْنَعْ ذَلِكَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ ، وَجَعَلْتُ قُلُوبَ أُمَّتِكَ مَصَاحِفَهَا ، وَخَبَّأْتُ لَكَ شَفَاعَتَكَ وَلَمْ أُخَبِّئْهَا لِنَبِيٍّ غَيْرِكَ »[3] .

وفي حديث : « أَعْطَانِي رَبِّي أَلاَّ تَجُوعَ أُمَّتِي وَلاَ تُغْلَبَ ، وَأَعْطَانِيَ ٱلنَّصْرَ وَٱلْعِزَّةَ ، وَٱلرُّعْبَ يَسْعَىٰ بَيْنَ يَدَيْ أُمَّتِي شَهْراً ، وَأَحَلَّ لَنَا كَثِيراً مِمَّا شَدَّدَ عَلَىٰ مَنْ قَبْلَنَا ، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »[4] .

ومن خصائصه : أن جعل الله أمته خير الأمم ، ونسخ بشريعته جميع الشرائع ، فلا يسع أحداً بعدها التمسك بغيرها ، وجعل الله معجزته القرآن ، وحَفِظه من التحريف والتبديل ، وجعله معجزةً باقيةً ببقاء الدنيا ، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ولم يشاهدها إلاَّ الحاضر لها ، ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عياناً لا خبراً إلىٰ يوم القيامة ، وعصم الله أمته من الاجتماع على الضلال ، وجعلت صفوفهم كصفوف الملائكة .

ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم : أنه كان لا ينام قلبه إذا نامت عيناه ، ولا ينتقض وضوءه بالنوم ، ويرىٰ من وراء ظهره كما يرىٰ من أمامه ، وتطوعه بالصلاة قاعداً كتطوعه قائماً في الثواب ، ويتعين على المصلي إجابته ، ولا تبطل الصلاة بخطابه ، وكان يتبرك

---

(١) أخرجه مسلم (٧/٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجها مسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) انظر « الشفا » (ص٢١٩) ، وهو جزء من الحديث الذي أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٢/٤٠٣) .

(٤) أخرجه أحمد (٥/٣٩٣) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

ويستشفىٰ ببوله ودمه ، ويُقرُّ ذلك ولا ينكره ، وبهـٰذا استدل علىٰ طهارتهما منه ، ويُكفَّر شانئه ومؤذيه ، ويقتل ولا يستتاب بخلاف غيره ، والله أعلم .

النوع الثاني

فيما اختص به دون أمته من الواجبات والمباحات والمحرمات

وجرىٰ عادة كثير من أصحابنا بذكرها في أول (كتاب النكاح) لأن أكثر الخصائص فيه ، وأول سابق إلىٰ ذلك المزني رحمه الله تعالىٰ في كتابه « المختصر »[1] ومنع أبو علي بن خيران رحمه الله تعالى الكلام في الخصائص قال : لأنه أمر انقضىٰ فلا معنىٰ للكلام فيه ، وخالفه سائر الأصحاب ، واستحسنوا الكلام فيها ؛ لما فيه من زيادة العلم ، قال النووي رحمه الله تعالىٰ : الصواب : الجزم بجواز ذلك ، بل باستحبابه ، ولو قيل بوجوبه.. لم يكن بعيداً ؛ لأنه ربما رأىٰ جاهل بعض الخصائص ثابتة في الحديث فعمل به أخذاً بأصل التأسي ، فوجب بيانها ؛ لتعرف فلا يعمل بها ، قال : وأي فائدة أهم من هـٰذه[2] ؟!

فأول ذلك : ما اختص به صلى الله عليه وسلم من الواجبات ، والحكمة فيه : زيادة الزُّلفىٰ والدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه : « لَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضْتُ عَلَيْهِ »[3] ، وفي حديث : « أَنَّ ثَوَابَ ٱلْفَرْضِ يَزِيدُ عَلَى ٱلنَّفْلِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً »[4] فمن ذلك : ركعتا الضحىٰ ، والأضحية ، والوتر ، والسواك ، والمشاورة ، والتهجد ؛ وهو أن يصلي بالليل وإن قل ، والأرجح : أنه غير الوتر ، وأنه نسخ عنه صلى الله

---

(١) مختصر المزني (ص١٦٢ـ١٦٣) .

(٢) روضة الطالبين (٧/ ١٧ـ١٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) قال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٥/ ٢١٦٠) : (**فائدة** : نقل النووي في « زيادات الروضة » عن إمام الحرمين ، عن بعض العلماء : أن ثواب الفريضة يزيد علىٰ ثواب النافلة بسبعين درجة ، قال النووي : واستأنسوا فيه بحديث اهـ
والحديث المذكور ذكره الإمام في « نهايته » [٧/١٢] وهو حديث سلمان مرفوعاً في شهر رمضان : « مَنْ تقرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ.. كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ ، وَمَنْ أَدَّىٰ فَرِيضَةً فِيهِ.. كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِي غَيْرِهِ » اهـ
وهو حديث ضعيف ، أخرجه ابن خزيمة [١٨٨٧] وعلق القول بصحته ، واعترض على استدلال الإمام به ، **والظاهر** : أن ذلك من خصائص رمضان ، ولهـٰذا قال النووي : استأنسوا ، والله أعلم) .

عليه وسلم كما نسخ عن غيره ، ومنه مصابرته العدو وإن كثر عددهم ؛ لأنه معصوم ، ومنه قضاء دين الميت المعسر ، وفي وجه : كان يجب عليه إذا رأىٰ شيئاً يعجبه أن يقول : لبيك إن العيش عيش الآخرة .

أما النكاح . . فقد أوجب الله سبحانه عليه تخيير نسائه كما حكته الآية الكريمة ، والمعنىٰ فيه : أنه صلى الله عليه وسلم آثر الفقر وصبر عليه ، فأمر بتخييرهن ؛ لئلا يكنَّ مكرهات علىٰ ما صبر عليه ، ولما اخترنه . . كافأهن الله علىٰ حسن صنيعهن ، فحرم عليه التزوج عليهن والتبدل بهن فقال تعالىٰ : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ثم نسخ ذلك ؛ لتكون المنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية ، وصحح كثيرون : أنه صلى الله عليه وسلم لم يحرم عليه طلاقهن بعدما اخترنه ، ومما يجب على الغير لأجله : أنه يجب علىٰ زوج من رغب النبي صلى الله عليه وسلم في نكاحها أن يطلقها له ، قال الغزالي رحمه الله : ولعل السرَّ فيه : امتحان الزوج من جهة إيمانه ، ومن جهة النبي صلى الله عليه وسلم ابتلاؤه ببلية البشر ، ومنعه من الإضمار الذي يخالف الإظهار .

وقد سبق فيه كلام عند ذكر زواج زينب أحسن من هـٰذا وأليق بحال النبي صلى الله عليه وسلم .

ويجب علىٰ من خطبها وهي خلية إجابته ، ويحرم علىٰ غيره خطبتها .

ويجب على الخلق اجتناب ما يؤذيه مطلقاً وإن كان في مباح ، كما في قصة علي رضي الله عنه وخطبته علىٰ فاطمة رضوان الله عليهما .

أما المحرمات . . فقد كان صلى الله عليه وسلم محرماً عليه الزكاة ، وكذا الصدقة علىٰ أظهر القولين ، ويحرم علىٰ أقربائه ومواليهم الزكاة فقط ، ويكره له الأكل متكئاً وأكل الثوم وما في معناه ، وقيل : يحرم ، ومنع من الخَطِّ والشِّعْر فكان لا يحسنهما ، وكان يكره إذا لبس لأمة الحرب أن ينزعها حتىٰ يقاتل ، فقيل : هي كراهية تحريم ، وقيل : تنزيه ، وهـٰذا علىٰ قاعدة قولهم : إنه لا يبتدىء تطوعاً إلاَّ لزمه إتمامه ، وذلك معارض بدخوله في الصوم تطوعاً ثم إفطاره أثناء نهاره .

وكان يحرم عليه مد عينيه بالاستحسان إلىٰ متع الدنيا الفانية ، وكان يحرم عليه الإيماء بالعقوبة خلاف ما يظهر وهي خائنة الأعين ؛ لمشابهته الخيانة ، ولا يحرم ذلك علىٰ غيره إلاَّ في محرم ، وكان صلى الله عليه وسلم يخدع في الحرب ويعمي عن وجه مقصده ، ومنع صلى الله عليه وسلم من المن ليستكثر ، ومعناه : أن يعطي شيئاً ليأخذ أكثر منه .

ومن المحرمات في النكاح : أن يمسك من كرهته ، وأن ينكح كتابية أو أمة مسلمة .

وأما المباحات والتخفيفات . . فقد كان صلى الله عليه وسلم يواصل في الصوم ، ويختار الصفي من الغنيمة ، ومنهن صفية بنت حيي ، وكان له خمس الخمس من الغنيمة وأربعة أخماس الفيء ، وكان له دخول مكة بغير إحرام ، ولم يورث صلى الله عليه وسلم ، فقيل : كان ما خلفه باقياً علىٰ ملكه ، وقيل : صدقة ، وهو ظاهر الخبر ، وأقر نساءه بعده علىٰ مساكنهن ، وأجري عليهن النفقة ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، ومحرمات على التأبيد ، ولأنهن كالمعتدات .

وكان له صلى الله عليه وسلم أن يشهد لنفسه ، ويقبل شهادة من شهد له ، ويحكم لنفسه وولده ؛ لثبوت عصمته ، وكان له صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الطعام والشراب عند الضرورة ممن هو محتاج إليهما ويفدي بنفسه نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم .

وكان يحل له في النكاح الزيادة علىٰ أربع ، ولا ينحصر في تسع على الأصح ، والأصح : أن طلاقه ينحصر في ثلاث كغيره ، وأن نكاحه ينعقد بلفظ الهبة ، وكان يجوز له عقد النكاح وهو محرم على المختار .

وقال الرافعي : والخلاف مبني علىٰ أن النكاح في حقه صلى الله عليه وسلم هل هو كالتسري في حقنا ؟ إن قلنا : نعم وهو الذي قطع به صاحب « البحر » . . لم ينحصر عدد المنكوحات والطلاق ، وانعقد بلفظ الهبة وبمعناها ، وبلا ولي وشهود ومهر ، ولم يجب القسم ، وإن قلنا : لا . . انعكس الحكم[1] ، والأصح : أن القسم كان واجباً عليه ، والله أعلم .

* * *

---

(١) انظر « روضة الطالبين » (٧/ ١٠) .

البَابُ الرَّابِع

فيما أيده الله به من المعجزات وخرق العادات

اعلم رحمك الله وإياي : أن هـٰذا الباب بحر واسع لا يعلم قدره ولا يبلغ قعره ، وكل سابح فيه حري أن ينسب نفسه إلى التقصير ؛ لتعلقه بأجل المقادير ، وأطول من علمت فيه باعاً وأقوى اتساعاً القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ ؛ فإنه جاء بجمل متكاثرات من أمهات ضروب المعجزات ، مع مقدمة قدمها وقواعد مهدها أبان فيها عن قوة علمه وبراعة فهمه ، جدير لمصنفي هـٰذا الفن أن يجعلوها في فاتحة كتبهم كالعنوان ، أو كالتاج علىٰ ذي سلطان ، وهـٰأنا أذكر إن شاء الله تعالىٰ محاسنها مع أن كلها حسن ، وأزِيد ما تيسر من ذكر عيون المعجزات بعدها ، وبالله التوفيق .

قال رحمه الله تعالىٰ : اعلم أن الله تعالىٰ جل اسمه قادر علىٰ خلق المعرفة في قلوب عباده ، والعلمِ بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ، ابتداءً دون واسطة لو شاء ، كما حُكي عن سنته في بعض الأنبياء ، وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة ، وتكون تلك الواسطة إما من غير البشر كالملائكة مع الأنبياء ، أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم ، ولا مانع لهـٰذا من حيث دليل العقل ، وإذا جاز هـٰذا ولم يستحل ، وجاءت الرسل بما دل علىٰ صدقهم من معجزاتهم . . وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به ؛ لأن المعجزة مع التحدي من النبي صلى الله عليه وسلم قائمة مقام قول الله تعالىٰ : صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه ، وشاهد علىٰ صدقه فيما يقوله ، قال : وهـٰذا كافٍ .

واختلف العلماء هل النبي والرسول بمعنىً أو بمعنيين ؟ فقيل : هما سواء ، وقيل : مفترقان من وجه ؛ إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب ، والإعلام بخواص النبوة وحَوْزِ درجتها ، وافترقا في زيادة الرسالة ؛ وهو الأمر بالإنذار والإعلام ، وذهب بعضهم إلىٰ أن الرسول : من جاء بشرع مبتدأ ، ومن لم يأت به . . نبي غيرُ رسولٍ وإن أمر بالإبلاغ والإنذار ، والصحيح والذي عليه الجم الغفير : أن كل رسول نبيّ ، وليس كل نبي رسولاً .

وأول الرسل : آدم ، وآخرهم : محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وفي حديث أبي ذر : عنه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلأَنْبِيَاءَ مِئَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ » وذكر أن الرسل منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر[1] ، هـٰذا ملخص ما ذكره القاضي .

قلت : ورأيت نظماً لبعض الفضلاء في أصحاب الشرائع منهم فقال الناظم : [من الطويل]

أَلاَ إِنَّ أَصْحَابَ ٱلشَّرَائِعِ خَمْسَةٌ ... مِنَ ٱلأَنْبِيَا وَٱلْمُرْسَلِينَ إِلَى ٱلْوَرَىٰ

فَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ وَبَعْدُ مُحَمَّدٌ ... وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلْخَلِيلُ بْنُ آزَرَا

وَخَمْسَتُهُمْ فِي آيَةٍ جَمَعَتْهُمُ ... وَفِي سُورَةِ ٱلشُّورَىٰ تَبِينُ لِمَنْ قَرَا

وَذُو ٱلْمُلْكِ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ قَدْ جَمَعْتُهُمْ ... فَأَصْغِ وَكُنْ نَدْباً أَرِيباً مُشَمِّرَا

سُلَيْمَانُ دَاوُدٌ وَيُوسُفُ يَا فَتَىٰ ... وَمُوسَىٰ وَهَارُونٌ وَقِفْ نَاقَةَ ٱلسُّرَى

وأصحاب الشرائع منهم هم أولو العزم ، وقد جمعهم بعضهم في بيت واحد فقال : [من الطويل]

أُولُو ٱلْعَزْمِ نُوحٌ وَٱلْخَلِيلُ كِلاَهُمَا ... وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدُ

فَصْلٌ
[في تسمية المعجزة بذلك وأنواعها]

وسميت المعجزة معجزةً لعجز الخلق عن الإتيان بمثلها ، وهي نوعان :

نوع في مقدور البشر فعجزوا عنه ، وتعجيز الله لهم عنه دال علىٰ صدق نبيّه ، كصرفهم عن تمني الموت ، وعن الإتيان بمثل القرآن علىٰ رأي من رأىٰ أنه كان في مقدورهم وأن الله صرفهم عنه .

والنوع الثاني : خارج عن قدرتهم ، كإحياء الموتىٰ ، وقلب العصىٰ حيةً ، وإخراج ناقة من صخرة ، وغيرها مما لا يمكن أن يفعله أحد إلاَّ الله تعالىٰ ، فتحدى النبي صلى الله عليه وسلم من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيزاً له ، وقد كانت معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من النوعين معاً ، وهي في كثرتها لا يحيط بها ضبط ؛ فإن واحداً منها وهو القرآن

---

(١) انظر « الشفا » (ص٣١٠ـ ٣١٢) ، وحديث أبي ذر رضي الله عنه أخرجه الحاكم (٢/ ٥٩٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٤) .

لا يُحصىٰ عدد معجزاته بألف ولا ألفين ، ولا أكثر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحداهم بسورة منه فعجزوا ، وأقصر السور : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزةٌ ، ثم فيها نفسها معجزات .

ثم معجزاته صلى الله عليه وسلم علىٰ قسمين : قسم منها قطعي كالقرآن ؛ فلا مرية فيه ، ولا خلاف بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم به ، وظهوره من قبله ، وإنكار معانديه كإنكار وجود محمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا .

ثم إنه قد علم على الجملة ضرورة أنه صلى الله عليه وسلم جرىٰ علىٰ يديه جمل من الآيات وخوارق العادات ، كما يعلم ضرورةً جُود حاتِمٍ ، وشجاعة عنترةَ ، وحِلم أَحْنَفَ ، وإن كان تفاصيل أخبارهم لا يبلغ هـٰذا المبلغ .

وقسم آخر لا يبلغ مبلغ الضرورة والقطع ، وهو علىٰ نوعين : نوع مشتهر منتشر ، وهو ما جرىٰ وقوعه في المحافل والجموع المتكاثرة من الصحابة ، ونقله إلينا عنهم الجمّ الغفير والعدد الكثير ، ونوع آخر اختص به الآحاد ولم يشتهر اشتهار ما قبله ، لكنه إذا جمع إلىٰ مثله . . اتفقا في المعنىٰ ، واتفقا على الإتيان بالمعجز ، ولحق بالمشتهر المنتشر من هـٰذا الوجه ، والله أعلم[(١)] .

قال القاضي رحمه الله تعالىٰ :



في إعجاز القرآن

اعلم وفقنا الله وإياك : أن كتاب الله العزيز منطوٍ علىٰ وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه :

أولها : حُسْنُ تأليفه ، والتئامُ كَلِمِه ، وفصاحتُه ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادةَ العرب ، وذلك أنهم كانوا أرباب هـٰذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحِكم ما لم يُخَص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذَرابة اللسان[(٢)] ما لم يُؤت إنسان ، ومن فصل

---

(١) انظر « الشفا » (ص٣١٣ـ٣١٥) .

(٢) **الذَّرابة** : الفصاحة .

الخطاب ما يقيد الألباب ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخِلقةً ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويُدلون به إلىٰ كل سبب ، فيخطبون بَدِيهاً في المقامات وشديد الخَطْبِ ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الألباب ، ويُذللون الصعاب ، ويذهبون الإحَن[(١)] ، ويهيجون الدِّمن[(٢)] ، ويُجرِّئون الجَبان ، ويبسطون يد الجَعْد البَنان[(٣)] ، ويصيِّرون الناقص كاملاً ، ويتركون النبيه خاملاً[(٤)] ، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل[(٥)] والقول الفصل ، والكلام الفخم والطبع الجهوري ، والمَنْزَع القوي ، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة[(٦)] والكلمات الجامعة ، والطبع السهل ، والتصرف في القول القليل الكُلفةِ الكثير الرَّونق الرقيق الحاشية[(٧)] ، وكلا البابين فلهما في البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة ، والقِدح الفالج[(٨)] والمَهْيَعُ الناهج[(٩)] ، لا يشكُّون أن الكلام طوعُ مرادهم ، والبلاغة مِلك قيادهم ، قد حَوَوْا فنونها واستنبطوا عيونها ، ودخلوا كل باب من أبوابها ، وعَلَوا صَرْحاً[(١٠)] ، لبلوغ أسبابها ، فقالوا في الخطير والمهين ، وتفننوا في الغَثِّ والسمين ، وتقاولوا في القُلِّ والكُثْرِ ، وتساجلوا في النظم والنثر ، فما راعهم إلاَّ رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، أُحكمت آياته وفصلت كلماته ، وبَهَرَتْ بلاغته العقولَ ، وظهرت فصاحته علىٰ كل مقول ، وتظافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل

---

(١) **الإحَنُ** : الأحقاد والضغائن .

(٢) **الدِّمَنُ** : الأحقاد الدائمة القديمة .

(٣) **الجَعْدُ البَنَانُ** : البخيل .

(٤) **النبيه** : من له صيت وذِكر ، **الخامل** : الساقط الذي لا ذِكر له .

(٥) **الجزل** : الفصيح الجامع .

(٦) **الناصعة** : الخالصة .

(٧) **الرونق** : الحسن ، **الرقيق الحاشية** : لين سهل .

(٨) **القِدْح الفالج** : السهم الفائز .

(٩) **المَهْيَعُ الناهج** : الطريق السالك .

(١٠) **الصَّرْحُ** : البناء العالي .

البيان جوامعُه وبدائعُه ، واعتدل مع إيجازه حسنُ نظمه ، وانطبق علىٰ كثرة فوائده مختار لفظه ، وهم أفسح ما كانوا في هٰذا الباب مجالاً ، وأشهر في الخطابة رجالاً ، وأكثر في السَّجْع والشعر ارتجالاً ، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً ، بلغتهم التي كانوا بها يتحاورون ومنازعهم التي عنها يتناضلون ، صارخاً بهم في كل حين ، ومُقرِّعاً لهم بضعاً وعشرين عاماً علىٰ رؤوس الملأ أجمعين : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ الآية ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ .

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يقرعهم أشد التقريع[١] ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفِّه أحلامهم ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم في كل هٰذا ناكصون[٢] عن معارضته مُحجِمون عن مماثلته[٣] ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والإغراء بالافتراء ، وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ و﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ و﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ و﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ . والمباهتة والرضا بالدنية كقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ و﴿ فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ و﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ والادعاء مع العجز بقولهم : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وقد قال لهم الله : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ فما فعلوا ولا قدروا ، ومن تعاطىٰ ذلك من سخفائهم كمسيلمة . . كشف عُواره[٤] لجميعهم ، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم ، وإلاَّ . . فلم يَخْفَ علىٰ أهل المَيْزِ منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا جنس بلاغتهم ، بل وَلَّوْا عنه مدبرين ، وأتوا مذعنين من بين مُهْتَدٍ وبين مَفْتُون[٥] .

هٰذا وقد أسلم كثير منهم عند بديهة سماعه ، وسجد آخرون دهشةً لقوته ، وبكىٰ ناس

---

(١) **يُقَرِّعُهم** : يوجعهم باللوم والعتاب .

(٢) **ناكصون** : راجعون .

(٣) **مُحْجِمُون** : متوقفون .

(٤) **العُوَارُ** : العيب .

(٥) انظر « الشفا » (ص٣١٧ـ ٣٢١) .

منهم فرقاً[1] واعترتهم روعة لمفاجأته ، وكلهم ممن لم يفهم معناه ولا تفاسيره ؛ وروي : أن نصرانياً سمع قارئاً فوقف يبكي وقال : بكيت للشَّجا والنظم[2] ، وأن أعرابياً سمع قارئاً يتلو : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فخرّ ساجداً وقال : سجدت لفصاحته[3] ، وفي « الصحيح » : عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بـ(الطور) فلما بلغ : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴾ كاد قلبي أن يطير[4] ، وكلم عتبة بن ربيعة النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه ، فتلا عليه : ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة بيده علىٰ في النبي صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكف .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : وأنت إذا تأملت قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا ﴾ الآية ، وأشباهها من الآي بل أكثر القرآن . . حقَّقت ما بينتُهُ من إيجاز ألفاظها ، وكثرة معانيها ، وديباجة عبارتها ، وحُسن تأليف حروفها ، وتلاؤم كلمها ، وأنَّ تحت كل لفظةٍ منها جملاً كثيرةً وفصولاً جمَّةً وعلوماً زواخر ، مُلئت الدواوين من بعض ما استفيد منها ، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها ، ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السالفة التي يضعف عن عادة الفصحاء عندها الكلام ، ويذهب ماء البيان آية لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض ، والتئام سرده وتناصف وجوهه ، كقصة يوسف عليه السلام علىٰ طولها ، ثم إذا ترددتْ قصة . . اختلفت العبارات عنها علىٰ كثرة ترددها ، حتىٰ تكاد كل واحدة تنسي في البيان صاحبتَها ، وتُناصف في الحسن وجه مقابلتها ، ولا نفور للنفس من ترديدها ، ولا معاداة لِمُعادها .

---

(١) **فرقاً** : خوفاً .

(٢) انظر « الشفا » (ص٣٣٦) ، **والشَّجا** : الحزن .

(٣) انظر « الشفا » (ص٣٢٢) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٥٤) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه .

الوجه الثاني من إعجازه : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصلُ كلماته إليه ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه ، بل حارت فيه عقولهم ، وتَدَلَّهتْ دونه أحلامهم[1] ، ولم يهتدوا إلىٰ مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم ، أو سَجْع أو رَجَز أو شعر ، ولهٰذا ما روي عن الوليد بن المغيرة وقد سئل عنه فقال : والله ؛ ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني ، والله ؛ ما يشبه الذي يقول شيئاً من هٰذا[2] ، وقال عتبة بن ربيعة : يا قوم ؛ قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلاَّ وقد علمته وقرأته وقلته ، والله ؛ لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة[3] ، ونحوه : ما روي في إسلام أبي ذر .

وقول أخيه أنيس له : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته علىٰ أقراء الشعر فلم يلتئم ، وما يلتئم علىٰ لسان أحد بعدي أنه شعر ، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون[4] .

والأخبار في هٰذا صحيحة كثيرة ، ومع ذلك فقد كانوا أحرص شيء علىٰ معارضته وإخفاء ظهوره وإطفاء نوره ؛ لقيام التحدي ، فما جَلَوْا في ذلك خبيئةً من بنات شفاههم ، ولا أتوا بنقطة من معين مياههم مع طول الأمد وكثرة العدد وتظاهر الوالد وما وَلَد ، بل أَبْلَسُوا فما نَبَسُوا ، ومُنعوا فانقطعوا[5] ، هٰذا وقد كانوا أعظم قرون الدنيا في الفصاحة والبلاغة وتوابعهما ، وكان ذلك همتهم وقصاراهم ، فكانوا يجتمعون في مواسمهم ومجامعهم للتفاخر بالخطابة والشعر ، وهٰذا كما قالوا : إن الله سبحانه وتعالىٰ لم يبعث رسولاً إلاَّ جعل معجزته بحسب الفن الذي يعظمه أهل زمانه ، وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وجملة معارف العرب وعلومها أربعة : الخطب ، والشعر ، والخبر ، والكهانة ،

---

(١) **تَدلَّهَتْ** : ذهبت .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٥٠٦ـ٥٠٧) .

(٣) انظر « الشفا » (ص٣٢٦ـ٣٢٧) و« السيرة النبوية » لابن كثير (١/ ٥٠٥) .

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٥) انظر « الشفا » (ص٣٢٨) ، **ما جَلَوْا** : ما أخرجوا ، **أَبْلَسُوا** : يئسوا ، **ما نَبَسُوا** : ما تكلموا بشيءٍ .

فأنزل الله عليه القرآن الخارق لهٰذه الأربعة ، فلم يهتدوا في المنظوم إلىٰ طريقه ، ولا علموا في أساليب الأوزان منهجه ، وأخبر عن الكوائن والأحداث ومخبآت الضمائر بما ظهر فيه صدقه ، واعترف المخبَرُ عنه بصحة ذلك وإن كان أعدى الأعادي ، وأبطل الكهانةَ التي تَصدُق مرةً وتكذب عشراً ، ثم اجتثها من أصلها برجم الشُّهُب ورَصْد النجوم ، وجاء من الأخبار عن القرون السالفة وأنباء الأنبياء والأمم البائدة والحوادث ما يعجز من تفرغ لهٰذا العلم عن بعضه[1] علىٰ ما سيأتي في الوجهين الآخرين إن شاء الله تعالىٰ .

الوجه الثالث من إعجازه علىٰ يد النبي صلى الله عليه وسلم : ما انطوىٰ عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع ، فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر ، كإخباره عن الفتح ، وعن غلبة الروم ، واستخلاف الله المؤمنين في الأرض ، وقوله تعالىٰ : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ ، ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وغير ذلك من كشف أسرار المنافقين واليهود وهتك أستارهم ، إلىٰ غير ذلك مما أخبر به من الكوائن والأحداث في العصور الآتية ، ومن آية ذلك : أنه لا يمر عصر ولا زمن . . إلاَّ ويظهر فيه صدقه بظهور مُخْبَرِه علىٰ ما أخبر ، فيتجدد الإيمان ويتظاهر البرهان ، وليس الخبر كالعيان ، والمشاهدة زيادة في اليقين ، والنفس أشد طمأنينةً إلىٰ عين اليقين منها إلىٰ علم اليقين وإن كان كل واحد عندها حقاً .

وسائر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم انقرضت بانقراضهم ، وعدمت بعدم ذواتها ، ومعجزة نبينا صلى الله عليه وسلم لا تبيد ولا تنقطع ، وآياته تجدد ولا تضمحل ، وإلىٰ هـٰذا أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : « مَا مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مِنَ ٱلآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ ٱلْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَا أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَاهُ ٱللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[2] .

الوجه الرابع من إعجازه : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة ، مما كان لا يَعْلَمُ منه القصةَ الواحدة إلاَّ الفذُّ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره

---

(١) انظر « الشفا » (ص٤٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

في تعلم ذلك ، وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة[1] ، وقد كان علماء أهل الكتاب يقترحون عليه السؤالات ، فينزل الوحي بأخبارهم كقصص الأنبياء مع قومهم ، وخبر موسىٰ والخضر ، ويوسف وإخوته ، وأصحاب الكهف ، وذي القرنين ، ولقمان وابنه ، وأشباه ذلك مما صدَّقه فيه علماءُ أهل الكتاب ، وأذعنوا له ، ولم يحك عن أحد منهم مع شدة عداوتهم وحسدهم أنه كذبه في شيء من ذلك ، ولا أظهر خلاف قوله من كتبه ، ولا أبدىٰ صحيحاً ولا سقيماً من صحفه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ الآيتين[2] .

هٰذا تلخيص ما ذكره القاضي من الوجوه الأربعة مع تقديم وتأخير وزيادة في بعض الألفاظ ونقص من بعضها ، وذكر هو وغيره وراء ذلك من براهينه وآياته وبركاته وجوهاً أخر :

منها : أن الله سبحانه حفظه من التحريف والتبديل والتغيير والزيادة والنقص علىٰ تطاول الدهور وانقضاء العصور وكثرة الحاسد والمعاند ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ .

ومنها[3] : الروعة التي تعتري سامعيه من الأبرار والفجار ، فأما الفاجر . . فيستثقله ويزيده نفوراً ، وأما المؤمن . . فيقشعر جلده ويكسبه ذلك هشاشةً[4] وبشاشة ، وقد مات كثيرون من الصلحاء عند سماعه ، واعترت جماعةً ممن رام معارضته روعة وهيبة حملتهم على التوبة[5] .

ومنها : آيٌ وردت بتعجيز قوم في قضايا خاصة بما هو في مقدورهم فلم يقدروا ، كقصة تمني الموت والمباهلة[6] .

---

(١) **المثافنة** : المجالسة والملازمة .
(٢) انظر « الشفا » (٣٣٨ـ٣٣٩) .
(٣) انظر « الشفا » (ص٣٣٨ـ ٣٣٩) .
(٤) **الهشاشة** : السرور .
(٥) انظر « الشفا » (ص٣٣٥ ـ ٣٣٦) .
(٦) **المباهلة** : الملاعنة .

ومنها : أنه لا يزال غضاً طرياً لا تَمجُّه الأسماع ولا تستثقله الطباع ، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن أي مبلغ يُمَلُّ مع الترديد ويعادىٰ إذا أعيد(١) .

ومنها : جمعه لعلوم ومعارف لم يُحط بها أحد من علماء الأمم ، ولا أحاطت بها كتبهم ، فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه علىٰ طريق الحجج العقليات ، والرد علىٰ فرق الأمة ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد ، كقوله تعالىٰ : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ و﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ إلىٰ ما حواه من علوم السير وأنباء الأمم والمواعظ والحكم ، وأخبار الدار الآخرة ، ومحاسن الآداب والشِّيم ، قال الله جلّ اسمه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ أَنْزَلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ آمِراً وَزَاجِراً ، وَسُنَّةً خَالِيَةً وَمَثَلاً مَضْرُوباً ، فِيهِ نَبَؤُكُمْ ، وَخَبَرُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، لاَ يُخْلِقُهُ طُولُ ٱلرَّدِّ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، هُوَ ٱلْحَقُّ لَيْسَ بِٱلْهَزْلِ ، مَنْ قَالَ بِهِ . . صَدَقَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ . . عَدَلَ ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ . . فَلَجَ ، وَمَنْ قَسَمَ بِهِ . . أَقْسَطَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ . . أُجِرَ ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ . . هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَمَنْ طَلَبَ ٱلْهُدَىٰ مِنْ غَيْرِهِ . . أَضَلَّهُ ٱللهُ ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِهِ . . قَصَمَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، هُوَ ٱلذِّكْرُ ٱلْحَكِيمُ ، وَٱلنُّورُ ٱلْمُبِينُ ، وَٱلصِّرَاطُ ٱلْمُسْتَقِيمُ ، وَحَبْلُ ٱللهِ ٱلْمَتِينُ ، وَٱلشِّفَاءُ ٱلنَّافِعُ ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ ٱتَّبَعَهُ ، لاَ يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمَ ، وَلاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ ٱلرَّدِّ »(٢) .

ومنها : تيسير حفظه ، لمتعلميه ، وتقريبه علىٰ متحفظيه ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ، وكتب الله القديمة كان لا يحفظها إلاَّ الواحد الفذ من أهلها ، والقرآن يتيسر حفظه للغلمان في أقرب مدة(٣) .

منها : مشاكلة بعض أجزائه بعضاً ، وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها ، وحسن التخلص من قصة إلىٰ أخرىٰ ، والخروج من باب إلىٰ غيره على اختلاف معانيه ، وانقسام

---

(١) انظر « الشفا » (ص٣٣٩ـ ٣٤٠) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦) ، والدارمي (٣١٩٨) عن الحارث بن عبد الله رحمه الله تعالىٰ .

(٣) انظر « الشفا » (ص ٣٤٢) .

السورة الواحدة علىٰ أمر ونهي ، وخبر واستخبار ، ووعد ووعيد ، وإثبات نبوّة وتوحيد وتقرير ، وترغيب وترهيب ، إلىٰ غير ذلك من فوائده وعوارفه ولطائفه التي لا تحصىٰ ولا تعد ولا تستقصىٰ[1] .

قال بعضهم : جميع كلمات القرآن نحو من سبع وسبعين ألف كلمة ونيف ، وأقل ما وقع به التحدي سورة (إنا أعطيناك الكوثر) وكلماتها عشر ، ونسبتها من القرآن أزيد من سبعة آلاف جزء ، كل واحد منها معجز في نفسه[2] ، ثم إعجاز كل جزء منها بوجهين : بطريق النظم وطريق البلاغة ، فيتضاعف العدد من هـٰذا الوجه إلىٰ غير ذلك من وجوه التضعيف التي يفهم من حاول إحصاءها أنها صفة من صفات الله لا تشبه الصفات ، كما أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات .

ولقد أحسن صاحب « البردة » حيث يقول في فصل وصف آيات القرآن العظيم وفي تحقيق معنىٰ ما قدمناه : [من البسيط]

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثَةٌ ... قَدِيمَةٌ صِفَةُ ٱلْمَوْصُوفِ بِٱلْقِدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنَا ... عَنِ ٱلْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ
مُحَكَّمَاتٌ فَمَا تُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ ... لِذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبْغِينَ مِنْ حَكَمِ
مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلاَّ عَادَ مِنْ حَرَبٍ ... أَعْدَى ٱلأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ ٱلسَّلَمِ
رَدَّتْ بَلاَغَتُهَا دَعْوَىٰ مُعَارِضِهَا ... رَدَّ ٱلْغَيُورِ يَدَ ٱلْجَانِي عَنِ ٱلْحُرَمِ
لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ ٱلْبَحْرِ فِي مَدَدٍ ... وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي ٱلْحُسْنِ وَٱلْقِيَمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلاَ تُحْصَىٰ عَجَائِبُهَا ... وَلاَ تُسَامُ عَلَى ٱلإِكْثَارِ بِٱلسَّأَمِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ ... لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ ٱللهِ فَٱعْتَصِمِ

(١) انظر « الشفا » (ص ٣٤٣) .
(٢) قال الإمام السيوطي في « الإتقان » (١/ ٢١٩) ، بعد ذكر الخلاف في عدد كلمات القرآن : (قيل : وسبب الاختلاف في عد الكلمات : أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ، ولفظ ورسم ، واعتبار كل منها جائز ، وكلٌّ من العلماء اعتبر أحد الجوائز) .

إِنْ تَتْلُهَـا خِيفَـةً مِـنْ حَـرِّ نَـارِ لَظَـىٰ   أَطْفَـأْتَ نَـارَ لَظَـىٰ مِـنْ وِرْدِهَـا ٱلشَّبِمِ

كَـأَنَّهَـا ٱلْحَـوْضُ تَبْيَضُّ ٱلْـوُجُـوهُ بِـهِ   مِـنَ ٱلْعُصَـاةِ وَقَـدْ جَـاؤُوهُ كَـٱلْحُمَـمِ

وَكَـٱلصِّـرَاطِ وَكَـٱلْمِيـزَانِ مَعْـدِلَـةً   فَٱلْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي ٱلنَّاسِ لَمْ يَقُمِ

لاَ تَعْجَبَـنْ لِحَسُـودٍ رَاحَ يُنْكِـرُهَـا   تَجَـاهُـلاً وَهْـوَ عَيْـنُ ٱلْحَـاذِقِ ٱلْفَهِمِ

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ   وَيُنْكِـرُ ٱلْفَمُ طَعْـمَ ٱلْمَـاءِ مِـنْ سَقَـمِ

فَصْلٌ

[في معجزاته صلى الله عليه وسلم في الآيات السماوية]

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم سوى القرآن العظيم : الآيات السماوية .

فمن ذلك : انشقاق القمر ، وهو مما أثبته القرآن العظيم ورواه العدد الكثير من الصحابة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ .

روينا في « صحيح البخاري » عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِشْهَدُوا »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين حتىٰ رأوا حِراءً بينهما)(٢) .

قال بعضهم : وفي انشقاق القمر له مناسبة لشق قلبه حين شقه الملكان ، ولذلك قال صاحب « البردة » :   [من البسيط]

أَقْسَمْـتُ بِـٱلْقَمَـرِ ٱلْمُنْشَـقِّ إِنَّ لَـهُ   مِـنْ قَلْبِـهِ نِسْبَـةً مَبْـرُورَةَ ٱلْقَسَـمِ

ومن ذلك : احتباس الشمس ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر قريشاً بقدوم عيرهم من الشام يوم الأربعاء ، فولى النهار ولم تجيء ، فدعا فزيد له في النهار ساعة ، وحبست عليه الشمس ، ومن ذلك : ما روت أسماء بنت عميس : أنه صلى الله عليه وسلم أوحي إليه

---

(١) البخاري (٤٨٦٤) .

(٢) البخاري (٣٨٦٨) .

ورأسه في حجر عليٍّ رضي الله عنه ، وفوّت عليٌّ صلاة العصر ؛ لمراعاته ، فلما أفاق صلى الله عليه وسلم . . قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنَّهُ كَانَ فِي طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رَسُولِكَ ، فَٱرْدُدْ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسَ » قالت أسماء : فرأيتها غربت ، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقفت على الجبال والأرض ، وذلك بالصهباء في خيبر(١) .

فصل

[من معجزاته صلى الله عليه وسلم في تكثير القليل من الطعام ونبع الماء بين أصابعه]

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم : تكثير القليل من الطعام ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتفجيره وتكثيره ببركته ، من ذلك : حديث أبي طلحة المشهور في الصحاح ، وإطعامه صلى الله عليه وسلم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس تحت إبطه(٢) .

ومنه حديث جابر أنه ذبح عناقاً وطحنت زوجته صاعاً من شعير ودعا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بجميع أهل الخندق وهم ألف ، فبصق صلى الله عليه وسلم في عجينهم وبُرْمَتهم وبرَّك ، قال جابر : (فأقسم بالله ؛ لأكلوا حتىٰ تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغطُّ كما هي وإن عجيننا ليخبز)(٣) .

قلت : هٰذا ما صح من حديث جابر ، وأما ما أولع به المداح من إحياء سِبطيه وشاته . . فهو حديث مختلق لا أصل له ، والله أعلم(٤) .

ومن ذلك : حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين اشتد به الجوع ، وجلس في طريق المسجد يتعرض لمن مرَّ به ويستقريهم الآيات ، فلم يقعوا علىٰ حاجته ، فلما مر به النبي صلى الله عليه وسلم ضحك في وجهه ، ثم استتبعه ، فوجد في بيته قَدَحَ لبنٍ قد أهدي له ،

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/١٥١) ، وانظر « المقاصد الحسنة » (ص٢٢٦) ، و« اللآلىء المصنوعة » (١/٣٣٦ـ ٣٣٩) ، و« المصنوع » (ص٢٦٥) ، وللعلماء خلاف حول الحكم على الحديث .

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٨) ومسلم (٢٠٤٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠٢) ومسلم (٢٠٣٩) ، **البُرْمَةُ** : القدر من الحجر ، **تَغِطُّ** : تغلي وتفور .

(٤) أخرج قصة إحياء الشاة أبو نعيم في « دلائل النبوة » (٥٦٠) ، وانظر « البداية والنهاية » (٦/١٦٢ـ ١٦٣) ، و« سبل الهدى والرشاد » (١٠/٢٢٠ـ ٢٢١) .

فقال له : « أُدْعُ أَهْلَ ٱلصُّفَّةِ » قال أبو هريرة : فقلت : ما هـٰذا اللبن فيهم ؟! كنت أحق أن أصيب منه شربةً أتقوىٰ بها ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدٌّ ، قال : فدعوتهم فشربوا حتىٰ رَوَوْا أجمعون ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اِشْرَبْ » فشربت وما زال يقولها له النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ قال : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم القدح ، فحمد الله وسمىٰ وشرب الفضلة(١) .

ومنه : حديث سمرة بن جندب قال : (أتي النبي صلى الله عليه وسلم بقصعة فيها لحم ، فتعاقبوها من غدوة حتى الليل ، يقوم قوم ويقعد آخرون)(٢) .

ومنه : حديث عبد الرحمـٰن بن أبي بكر قال : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومئة. . .) وذكر في الحديث أنه عُجِن صاعٌ من طعام وصنعت شاة فشوي سواد بطنها قال :(وايم الله ؛ ما من الثلاثين ومئة إلاَّ وقد حَزَّ له حُزَّةً من سواد بطنها ثم جعل منها قَصعتين فأكلنا أجمعون ، وفَضَلَ من القصعتين فحملته على البعير)(٣) .

ومنه : حديث سلمة بن الأكوع وأبي هريرة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم ذكروا : أن الناس أصابتهم مخمصةٌ شديدة في بعض الغزوات فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ببقية الأزواد ، فجاء الرجل بالحَثْيَةِ من الطعام وفوق ذلك ، وأعلاهم من جاء بالصاع من التمر ، فجمع علىٰ نِطْع ، قال سلمة : (فَحزَرْتُه كربضة العَنْزِ ، فما بقي في الجيش وعاء إلاَّ ملؤوه وبقي منه)(٤) .

ومنه : حديث أبي أيوب الأنصاري في أول الهجرة : أنه صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر من الطعام زُهاء ما يكفيهما ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أُدْعُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَشْرَافِ ٱلْأَنْصَارِ » فدعاهم ، فأكلوا حتىٰ تركوه ، ثم قال : « أُدْعُ سِتِّينَ » فكان مثلُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٢) والترمذي (٢٤٧٧) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٢٥) وغيره .

(٣) أخرجه البخاري (٢٦١٨) ومسلم (٢٠٥٦) ، **سواد البطن** : الكبد ، **الحُزَّةُ** : القطعة من اللحم .

(٤) حديث سلمة أخرجه البخاري (٢٤٨٤) ومسلم (١٧٢٩) ، وحديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٢٧) وحديث عمر بن الخطاب أخرجه أبو يعلىٰ (٢٣٠) ، وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٣٠٤) ، **المخمصة** : المجاعة ، **الحثية** : الغَرْفة ، **النِّطْعُ** : بساط من جلد ، حزرت : قدرت ، **ربضة العنز** : مركبها .

ذلك ، ثم قال : « أُدْعُ سَبْعِينَ » فأكلوا حتىٰ تركوا ، وما خرج منهم أحد حتىٰ أسلم وبايع ، قال أبو أيوب : (فأكل من طعامي مئة وثمانون رجلاً)[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أدعو له أهل الصفة ، فتتبعتهم حتىٰ جمعتهم ، فوُضعتْ بين أيدينا صحفةٌ ، فأكلنا ما شئنا وفرغنا وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع)[٢] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وكانوا أربعين ، منهم قوم يأكلون الجَذَعَةَ ويشربون الفَرَقَ ، فصنع لهم مدّاً من طعام ، فأكلوا حتىٰ شبعوا وبقي كما هو ، ثم دعا بِعُسٍّ فشربوا حتىٰ رَوَوْا وبقي كأنه لم يشرب)[٣] .

وأمر صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزودوا أربع مئة راكب من أَحْمَسَ من قليل تمر قدر الفصيل الرابض ، فزودهم منه وبقي بحاله[٤] .

ومن ذلك : حديث جابر و[قد] شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم اشتداد غرماء أبيه عليه في ديونهم ، وكان بذل لهم أصل ماله فلم يقبلوه ، وكان ثمره لا يفي بخلاصهم سنين ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يَجُدَّ تمره ، وأن يُبَيْدِر كل نوع علىٰ حدته ففعل ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم حول أعظمها بيدراً ، وأمره أن يوفيهم منه ، فأوفاهم الذي لهم وبقي كأنه لم ينقص منه تمرة ، وسَلِمت البيادر كلها[٥] .

ومنه : حديث أبي هريرة قال : (أصاب الناس مخمصة ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : « هَلْ مِنْ شَيْءٍ ؟ » قلت : نعم ، شيء من التمر في المِزْوَدِ ، قال : « فَأْتِنِي بِهِ » فأدخل يده فأخرج قبضةً فبسطها ، ودعا بالبركة ثم قال : « أُدْعُ عَشَرَةً » فأكلوا حتىٰ شبعوا ،

---

(١) أخرجه الأصبهاني في « دلائل النبوة » (٢/ ٥٤٩ـ ٥٥٠) وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ٣٠٣) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٢٣٦٩) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ٣٠٨) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٥٩) ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٣٠٢) ، **الفَرَقُ** : مكيال يسع اثني عشر مدًّا ، **العُسُّ** : القدح الكبير .

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٤) وغيره ، **الفصيل** : ولد الناقة أو البقرة ، **الرابض** : الجالس المقيم .

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٨١) بنحوه ، **أن يَجُدَّ** : أن يقطع ، **أن يُبَيْدِر** : أن يُكَوِّمَ في البيدر .

ثم عشرةً كذلك ، حتىٰ أطعم الجيش كلهم وشبعوا ، قال : « خُذْ مَا جِئْتَ بِهِ ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ وَٱقْبِضْ مِنْهُ وَلاَ تَكُبَّهُ » فقبضت علىٰ أكثر مما جئت به ، فأكلت منه وأطعمت حياةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، إلىٰ أن قتل عثمان فانتهب مني فذهب)[1] وفي رواية قال : (فقد حملتُ من ذلك التمر كذا وكذا من وَسْق في سبيل الله)[2] .

وهـٰذا الباب واسع وأكثره من الصحاح .

وكذلك معجزاته في الماء :

فمنها : حديث الاستسقاء ، وآيته عظيمة ، وقد سبق ذكره في تواريخ السنين .

ومنها : حديث أنس قال : (حانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوَضُوءَ فلم يجدوه ، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمرها ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتىٰ توضؤوا من عند آخرهم)[3] .

قال له قتادة : كم كنتم ؟ قال : (زُهاء ثلاث مئة)[4] ، ومثله عن ابن مسعود[5] .

وعن جابر قال : (عطش الناس يوم الحديبية ، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم رَكوة فيها ماء ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه وقالوا : ليس عندنا إلاَّ ما في رَكْوَتِك ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون) قال سالم بن أبي الجعد لجابر : كم كنتم ؟ قال : (لو كنا مئة ألف . . لكفانا ، كنا خمس عشرة مئة)[6] .

ونحوه عن جابر أيضاً في غزوة بُواط ، وذكر حديثها الطويل وفيه : قال : (قال لي

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « دلائل النبوة » (٣٤٢) ، والآجري في « الشريعة » (١٠٦٠) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ١١١) ، وانظر « الشفا » (ص٣٦٠ ـ ٣٦١) .

(٢) أخرجها الترمذي (٣٨٣٩) ، وأحمد (٢/ ٣٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري (١٦٩) ومسلم (٢٢٧٩/ ٥) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٧٢) ومسلم (٢٢٧٩/ ٧) .

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٧٩) .

(٦) أخرجه البخاري (٤١٥٢) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا جَابِرُ ؛ نَادِ بِٱلْوَضُوءِ » فأتي بقطرة في عَزْلاء شَجْبٍ ، فغمزه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكفيه وتكلم بشيء لا أدري ما هو وقال : « نَادِ بِجَفْنَةِ ٱلرَّكْبِ » فأتيت بها فوضعتها بين يديه ، وبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الجفنة وفَرَّق أصابعه وصَبَّ جابر عليه وقال [جابر] : باسم الله قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت ، وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتىٰ رووا ، فقلت : هل بقي أحد له حاجة ؟ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهي ملأىٰ)[١] .

قال الترمذي : وفي الباب عن عمران بن حصين[٢] .

وأما تفجير الماء . . فروىٰ معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك : أنهم وردوا العين وهي تبِضُّ بشيء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها ، فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال : « يُوشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَىٰ مَا هَهُنَا قَدْ مُلِىءَ جِنَاناً »[٣] .

ونحوه في غزوة الحديبية من رواية سلمة بن الأكوع والبراء بن عازب ، وفي الحديث أنهم وجدوا في بئرها ماءً قليلاً ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ جَبَاها وأتي بدلو فبصق ودعا فيها ، فجاشت ، فأَرْوَوْا أنفسهم وركابهم[٤] ، وفي رواية : أنه أخرج سهماً من كنانته فوضع في قَعْرِ قليب ليس فيه ماء ، فروي الناس حتىٰ ضربوا بِعَطَن[٥] .

ومن المشهور في الصحاح حديث مِيضَأة أبي قتادة[٦] ، وحديث صاحبة المزادتين[٧] .

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠١٣) بنحوه ، **بُوَاط** : جبل من جبال جهينة ، **عَزلاء شجب** : فم قربة بالية ، **جفنة الركب** : القصعة التي تشبعهم .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤) ومسلم (٦٨٢) .

(٣) أخرجه مالك في « الموطأ » (١/ ١٤٣ـ ١٤٤) .

(٤) حديث سلمة أخرجه مسلم (١٧٢٩) بنحوه ، وحديث البراء أخرجه البخاري (٣٥٧٧) .

(٥) انظر « الشفا » (ص ٣٥٣) **وضربوا بعطن** : رووا حتى استغنوا .

(٦) أخرجه مسلم (٦٨١) ، وأحمد (٥/ ٢٩٨) .

(٧) أخرجه البخاري (٣٤٤) ومسلم (٦٨٢) .

فَصْلٌ
في نطق الجمادات له صلى الله عليه وسلم

من ذلك : قصة حنين الجذع ، وهو حديث مشتهر منتشر متواتر ، رواه من الصحابة بضع عشرة ، ورواه عنهم أضعافهم من التابعين ، وقد قدمنا ذكره عند ذكر المنبر ، وفي الخبر عنه : أنه كان صلى الله عليه وسلم يخطب عليه ، فلما اتخذ المنبر وعدل عنه . . سمعوا له صوتاً كصوت العِشار[1] ، وارتج المسجد لخُواره ، وكثر بكاء الناس لما رأوا ما به ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه فسكت ، وقال : « إِنَّ هَـٰذَا بَكَىٰ لِمَا فَقَدَ مِنَ ٱلذِّكْرِ ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ . . لَمْ يَزَلْ هَكَذَا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ » تحزناً علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن تحت المنبر[2] .

وفي إحدىٰ رواياته : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « إِنْ شِئْتَ أَنْ أَرُدَّكَ إِلَى ٱلْحَائِطِ ٱلَّذِي كُنْتَ فِيهِ يَنْبُتْ لَكَ عُرُوقُكَ وَيَكْمُلْ خَلْقُكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَغْرِسْكَ فِي ٱلْجَنَّةِ فَيَأْكُلُ أَوْلِيَاءُ ٱللهِ مِنْ ثَمَرِكَ » ثم أصغىٰ إليه النبي صلى الله عليه وسلم يستمع ما يقول فقال : بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله ، وأكون في مكان لا أبلَىٰ فيه ، فسمعه من يليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ فَعَلْتُ » ثم قال : « اِخْتَارَ دَارَ ٱلْبَقَاءِ عَلَىٰ دَارِ ٱلْفَنَاءِ » .

وكان الحسن البصري إذا حدث بهـٰذا بكىٰ وقال : يا عباد الله ؛ الخشبة تحن إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه ، لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلىٰ لقائه[3] .

وعن عبد الله بن مسعود قال : (كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه)[4] .

وقال أنس : (أخذ النبي صلى الله عليه وسلم كفّاً من حصىً ، فسبَّحْنَ في يد رسول الله

---

(١) **العِشار** جمع عُشَراء ، وهي : الناقة الحامل التي مضت لها عشرة أشهر .
(٢) انظر « الشفا » (٣٧٠ـ ٣٧١) .
(٣) انظر « الشفا » (٣٧١) .
(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٣٣) .

صلى الله عليه وسلم حتىٰ سمعنا التسبيح ، ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن ، ثم في أيدينا فما سبحن)[1] .

ومثله تكليم الذراع له ، وإخباره بأن فيه السم[2] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (كنا بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إلىٰ بعض نواحيها ، فما استقبله شجرة ولا جبل إلاَّ قال له : السلام عليك يا رسول الله)[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لأَعْرِفُهُ ٱلآنَ »[4] .

وحديث العباس ؛ إذ اشتمل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعلىٰ بنيه بمُلاَءَةٍ ، ودعا لهم بالستر من النار كستره إياهم بملاءته ، فأَمَّنت أُسْكُفَّةُ الباب وحوائط البيت : آمين ، آمين[5] ، ويقرب من هـٰذا رجفان أُحُد[6] وحراء[7] به وبأصحابه ، وسقوط الأصنام التي كانت حول البيت لإشارته وقد كانت مشدودة بالرصاص[8] .

وروى ابن عمر : (أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ثم قال : « يُمَجِّدُ ٱلْجَبَّارُ نَفْسَهُ : أَنَا ٱلْجَبَّارُ ، أَنَا ٱلْجَبَّارُ ، أَنَا ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ » فرجف المنبر حتىٰ قلنا لَيَخِرَّنَّ عنه)[9] .

وأما المعجزات في الشجر وشهادتها له وانقيادها لأمره.. ففي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته ، فلم ير

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ١٢٠) ، وانظر « العلل المتناهية » (١/ ٢٠٧) بنحوه .
(٢) أخرجه أبو داوود (٤٥١٠) .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٢٦) والدارمي (٢٢) .
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (ص ٩٦ـ ٩٧) ، وأورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٧٣) .
(٦) أخرجه البخاري (٣٦٧٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٧) أخرجه مسلم (٢٤١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٨) أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٦/ ١٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٩) أخرجه البخاري (٧٤١٣) ، ومسلم (٢٧٨٨/ ٢٥) بنحوه ، وأحمد (٢/ ٧٢) بلفظه .

شيئاً يستتر به ؛ فإذا شجرتان بشاطىء الوادي ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال : « انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ ٱللهِ » فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده ، وفعل بالأخرىٰ كذلك ، حتىٰ إذا كان بالمَنْصَفِ قال : « الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ ٱللهِ » فالتأمتا)[1] وفي رواية : أنه صلى الله عليه وسلم أمر جابراً أن يأمر إحداهما أن تلحق بصاحبتها ، فلما قضىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته . . رجعت كل واحدة منهما إلىٰ منبتها .

وأمر صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد أن يأتي إلىٰ نخلات وأحجار فيأمرهن أن يتقاربن لقضاء حاجته ، فأمرهن ، قال أسامة : (فوالذي بعثه بالحق ؛ لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن ، والحجارة يتعاقدن حتىٰ صرن ركاماً خلفهن ، فلما قضىٰ حاجته . . قال لي : « قُلْ لَهُنَّ يَفْتَرِقْنَ » فوالذي نفسي بيده ؛ لرأيتهن والحجارة يفترقن حتىٰ عدن إلىٰ مواضعهن)[2] ، ومثله عن يعلى بن مُرَّة[3] وغيلان بن سلمة الثقفي[4] .

وفي خبر الجن أنهم قالوا : من يشهد لك ؟ قال : « هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ ، تَعَالَيْ يَا شَجَرَةُ » فجاءت تَجُرُّ عروقها لها قَعَاقِعُ[5] ، ونحوه في أعرابي قال له : من يشهد لك ؟ قال : « هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ » فأقبلت تَخُدُّ الأرضَ حتىٰ قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلىٰ مكانها[6] .

وسأله أعرابي آية ، فأمره [صلى الله عليه وسلم] أن يدعو له شجرةً هنالك ، فتمايلت من كل جانب فتقطعت عروقها ، ثم جاءت تَخُدُّ الأرض تجر عروقها مُغبرةً ، حتىٰ وقفت بين يديه فقالت : السلام عليك يا رسول الله ، قال الأعرابي : مرها فلترجع إلىٰ منبتها ، فرجعت

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠١٢) ، **البعير المخشوش** : البعير الذي جعل في أنفه عود ليشد به الحبل ؛ لينقاد بسهولة ، **المَنْصَفُ** : نصف المسافة .

(٢) انظر « الشفا » (ص ٣٦٥ـ ٣٦٦) .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٢) .

(٤) انظر « الشفا » (ص ٣٦٦) .

(٥) انظر « الشفا » (ص ٣٦٧) وأصل الحديث موجود عند البخاري (٣٨٥٩) ومسلم (٤٥٠/ ١٥٠) .

(٦) أخرجه البزار (٢٤١١) ، وأبو يعلىٰ (٥٦٦٢) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ١٣) .

فدلت عروقها فاستوت ، فقال الأعرابي : أتأذن لي أن أسجد لك ؟ قال : « لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ . . لأَمَرْتُ ٱلْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا » قال : فأذن لي أن أقبل يديك ورجليك ، فأذن له[1] .

وذكر أنه صلى الله عليه وسلم سار في غزوة الطائف ليلاً وهو وَسِنٌ ، فاعترضته سِدْرَةٌ ، فانفرجت له نصفين حتىٰ جاز بينهما وبقيت علىٰ ساقين وأصلها واحد[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم لأعرابي : « أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ هَـٰذَا ٱلْعِذْقَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّخْلَةِ . . أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ ؟ » قال : نعم ، فدعاه فجعل يَنْقُزُ حتىٰ أتاه ، فقال : « اِرْجِعْ » فعاد إلىٰ مكانه[3] .

فَصْلٌ

فيما جاء به من المعجزات في ضروب الحيوانات

من ذلك : ما روت عائشة رضي الله عنها قالت : (كان عندنا داجن ، فإذا كان عندنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قَرَّ وثبت مكانه فلم يجيء ولم يذهب ، فإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاء وذهب)[4] .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في محفل من أصحابه ؛ إذ جاء أعرابي قد صاد ضبّاً فقال : من هـٰذا ؟ قالوا : نبي الله صلى الله عليه وسلم ، قال : واللات والعزىٰ لا آمنت بك أو يؤمن بك هـٰذا الضب ، وطرحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا ضَبُّ » فأجابه بلسان مبين : لبيك وسعديك يا زيْنَ من وافى القيامة ، قال : « مَنْ تَعْبُدُ ؟ » قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عذابه ، قال : « فَمَنْ أَنَا ؟ » قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، قد أفلح من

---

(١) أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ١٠) وقال : رواه البزار وفيه صالح بن حيان ، وهو ضعيف .
(٢) انظر « الشفا » (٣٦٧) ، وَسِنٌ : نَعِسٌ .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٢٨) وغيره ، **العِذْقُ** : من التمر بمنزلة العنقود من العنب ، **يَنْقُزُ** : يَثِبُ .
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١١٢) ، وأبو يعلىٰ (٤٤٤١) وغيرهما ، **الداجن** : ما يألف البيوت من الطير وغيرها ، وعندهما (وحش) بدل (داجن) ، **قَرَّ** : سكن .

صدقك ، وخاب من كذبك ، فأسلم الأعرابي)[1] .

ومنه : قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري[2] وغيره ، وفيها طول واختلاف بين الرواة .

قال ابن عبد البر : كلم الذئب من الصحابة رافع بن عميرة وسلمة بن الأكوع وأُهبان بن أوس السلمي[3] .

قلت : وكلم أيضاً أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية حين كانا مشركين ، ومثله لأبي جهل بن هشام ، وتضمن كلام كلهم معجزةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنبيهاً لكل منهم علىٰ نبوّته ، وحثاً على اتباعه .

ومنه : حديث الجمل ، وهو حديث مشهور خرجه الحاكم وصححه[4] ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثعلبة بن مالك وجابر بن عبد الله ويعلى ابن مرة وعبد الله بن جعفر ، قال : وكان لا يدخل أحد الحائط. . إلاَّ شد عليه الجمل ، فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم. . دعاه فوضع مشفره في الأرض وبرك بين يديه ، فخطمه وقال : « مَا بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ شَيْءٌ إِلاَّ يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ ، إِلاَّ عَاصِيَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ »[5] .

وفي رواية : أنه جاء وعيناه تذرفان ، وفي أخرىٰ : أنه سجد ، وأخرىٰ : قال : « أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ ؟ زَعَمَ أَنَّهُ خَدَمَ مَوَالِيَهُ أَرْبَعِينَ ـ وفي أخرىٰ : عِشْرِينَ ـ حَتَّىٰ كَبِرَ ، فَنَقَصُوا مِنْ عَلَفِهِ وَزَادُوا فِي عَمَلِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ لَهُمْ عُرْسٌ أَرَادُوا أَنْ يَنْحَرُوهُ غداً » فأمرهم أن يحسنوا إليه حتىٰ يأتي أجله[6] .

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٩٣) ، و« الصغير » (٢/ ٦٤) عن شيخه محمد بن علي بن الوليد .
قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٩٧) قال البيهقي : والحمل في هٰذا الحديث عليه ، قلت : وبقية رجاله رجال الصحيح .
قال الذهبي في « الميزان » (٣/ ٦٥١) : خبر باطل .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٣ـ ٨٤) .

(٣) انظر « الاستيعاب » (ص ٥٠ ، ٢٢٨ ، ٣٠٥) .

(٤) المستدرك (٢/ ٩٩ـ ١٠٠) ووافقه الذهبي علىٰ تصحيحه .

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٠) .

(٦) أخرجه أبو نعيم في « دلائل النبوة » (٢٨٤) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ٧ـ ١٤) .

ومثله : انقياد الفحلين له وقد تغلبا علىٰ صاحبهما ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم . . بركا بين يديه ، فخطمهما ودفعهما إليه ، أخرجه أبو نعيم الحافظ[١] .

ومنه : ما روي : أنه صلى الله عليه وسلم لما أراد أن ينحر البدن . . ازدلفن إليه بأيهن يبدأ[٢] .

وروي : أن حمام مكة أظلت عليه يوم الفتح ، فدعا لها بالبركة[٣] ، وأن حمامتين وقفتا علىٰ فم الغار حين طلبه المشركون[٤] ، ونسجت علىٰ فمه العنكبوت[٥] .

ومنه : حديث الظبية ، وقد خرجه الدارقطني والطبراني والبيهقي بألفاظ مختلفة ، وحاصلها : أن النبي صلى الله عليه وسلم وجدها موثقة قد صادها أعرابي ، فسألته أن يطلقها حتىٰ ترضع أولادها وترجع ، فأطلقها فذهبت ورجعت ، فأوثقها ، فانتبه الأعرابي ، فشفع إليه في إطلاقها ، فأطلقها ، فخرجت تعدو في الصحراء وتقول : أشهد أن لا إلـٰه إلاَّ الله وأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦] .

ومنه : قصة الأسد مع سفينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي قصة مشهورة[٧] .

ومنه : قصة العضباء ونداء الوحوش لها : إنك لِمُحَمَّدٍ ، وروي : أنها لم تأكل بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ ماتت[٨] .

---

(١) دلائل النبوة (٢/ ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦) .

(٢) أخرجه أبو داوود (١٧٦٥) وأحمد (٤/ ٣٥٠) وغيرهما .

(٣) ذكره في « الشفا » (ص ٣٨٢) وعزاه لابن وهب .

(٤) أخرجه ابن سعد (١/ ١٩٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٤٨١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٤٤٣) .

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨) ، وعبد الرزاق (٩٧٤٣) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٣٢٢) ، قال الإمام ابن كثير في « البداية والنهاية » (٣/ ١٩٥) بعد إيراده الحديث بإسناد الإمام أحمد : (وهـٰذا إسناد حسن ، وهو أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت) .

(٦) الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٣٣١) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٣٤) .

(٧) أخرجها البزار في « مسنده » (٣٨٣٨) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٨٠ ـ ٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٦٩) .

(٨) انظر « الشفا » (ص٣٨٢) .

وكلام الحمار الذي أصابه بخيبر ، وقوله : اسمي يزيد بن شهاب ، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم يعفوراً ، وكان يوجهه إلىٰ دور أصحابه فيستدعيهم له ، وروي أنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم . . تردىٰ في بئر جزعاً وحزناً ، فمات[1] .

وحديث الناقة التي شهدت لصاحبها عند النبي صلى الله عليه وسلم أنه ما سرقها وأنها ملكه[2] ، والشاة التي حلبها لعسكره وهم زهاء ثلاث مئة فأروتهم ثم قال لرافع : « اِرْبِطْهَا وَمَا أَرَاكَ » فربطها فوجدها قد ذهبت فقال : « إِنَّ ٱلَّذِي جَاءَ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي ذَهَبَ بِهَا »[3] ، ونزل عن فرس له ليصلي وقال له : « لاَ تَذْهَبْ بَارَكَ ٱللهُ فِيكَ » فما حرك عضواً[4] ، وأخذ صلى الله عليه وسلم بأذن شاة فبقي أثر يده كالمِيسَم ، وكان في ذراريها[5] .

فصل
في كلام الموتىٰ والصبيان

روىٰ أنس : أن شاباً من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء ، قال : فسجَّيناه وعزيناها ، فقالت : مات ابني ؟ قلنا : نعم ، فقالت : اللهم ؛ إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلىٰ نبيك رجاء أن تعينني علىٰ كل شدة . . فلا تحمِلنَّ عليَّ هـٰذه المصيبة ، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه ، فطعم وطعمنا[6] .

واستشهد ثابت بن قيس بن شماس باليمامة ، فلما أدخل القبر . . سمعوه يقول : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر الصديق ، عمر الشهيد ، عثمان البرُّ الرحيم[7] .

---

(١) انظر « اللآلىء المصنوعة » (١/٢٥٣) ، و« الموضوعات » (١/٢١٧) ، و« الفوائد المجموعة » (ص ٣٢٤) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٦١٩ـ ٦٢٠) .

(٣) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١/١٥١) ، وأبو بكر الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٢/٢٨٢) عن نافع رضي الله عنه .

(٤) انظر « الشفا » (ص ٣٨٦) .

(٥) انظر « الشفا » (ص ٣٨٤) ، والمِيسم : العلامة .

(٦) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/٥٠) .

(٧) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/٥٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/٤٠٨) ، وأبو القاسم المقدسي في « تحفة الصديق » (ص٧٢) .

وحسر زيد بن خارجة الثوب عن وجهه بعد الموت وقال : محمد رسول الله النبي الأمي وخاتم النبيين ، ذلك في الكتاب الأول ، ثم قال : صدق صدق ، وذكر أبا بكر وعمر وعثمان ، ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، ثم عاد ميتاً[1] .

وأما كلام الأطفال :

فمنه : حديث مبارك اليمامة ، وفيه أنه كلم النبي صلى الله عليه وسلم يوم ولد ، ثم لم يتكلم بعدها حتىٰ شب ، فكان يسمىٰ : مبارك اليمامة[2] .

ومنه : حديث الصبيَّة التي طرحها أبوها بواد وأضلها ، فانطلق معه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الوادي وناداها : « يَا فُلَانَةُ ؛ أَجِيبِي بِإِذْنِ ٱللهِ تَعَالَىٰ » فخرجت وهي تقول : لبيك وسعديك ، فقال لها : « إِنَّ أَبَوَيْكِ قَدْ أَسْلَمَا ، فَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أَرُدَّكِ عَلَيْهِمَا » فقالت : لا حاجة لي بهما ؛ وجدت الله خيراً لي منهما[3] .

فَصْلٌ

في إبراء المرضىٰ وذوي العاهات

من ذلك : ما روىٰ أهل الصحاح : أنه صلى الله عليه وسلم تَفَلَ في عيني علي كرم الله وجهه يوم خيبر وبه رمد شديد ، فبرأ من حينه ولم يَرْمَد بعدها[4] ، ورد صلى الله عليه وسلم عين قتادة بن النعمان يوم أحد وقد برزت علىٰ خده ، فكانت أحسن عينيه ، ففي ذلك يقول أحد بنيه مفتخراً : [من الطويل]

أَنَا ٱبْنُ ٱلَّذِي سَالَتْ عَلَى ٱلْخَدِّ عَيْنُهُ ... فَرُدَّتْ بِكَفِّ ٱلْمُصْطَفَىٰ أَحْسَنَ ٱلرَّدِّ[5]

وروى الدارقطني : أن عينيه سقطتا معاً .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥/٢١٩) ، والبخاري في « الأوسط » (١٩٤) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/٥٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٦/٥٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/٣٨٧) .

(٣) انظر « الشفا » (ص٣٩١) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠١) ، ومسلم (٢٤٠٦/٣٤) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٣٠٣١) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣/٢٥٢) ، وانظر « الشفا » (ص٣٩٣) .

ومنه : حديث الأعمى الذي أمره أن يتوضأ ، ويصلي ركعتين ويتوجه إلى الله تعالىٰ به صلى الله عليه وسلم ، ففعل ، فرد الله عليه بصره[1] .

وأصاب ابن مُلاعِب الأسنة استسقاءٌ ، فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بيده حَثْوَةً من الأرض وتفل عليها ثم أعطاها رسوله ، فأتاه بها وهو علىٰ شَفاً ، فشربها ، فشفاه الله[2] .

وانكسرت رجل عبد الله بن عتيك حين قتل أبا رافع ، فلما انتهىٰ إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . مسح عليها ، قال : فكأنها لم أشتكها قط[3] .

ونفث صلى الله عليه وسلم علىٰ ضربة بساق سلمة بن الأكوع أصيبها يوم خيبر فبرئت[4] ، وأثقل خالد بن الوليد بالجراحة يوم حنين ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده يقول : « مَنْ يَدُلُّنِي عَلَىٰ رَحْلِ خَالِدٍ ؟ » فجاء وقد أسند إلىٰ مؤخرة رحله ، فنفث علىٰ جرحه فبرأ[5] ، وجاءته امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره ، فَثَعَّ ثَعَّةً ، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، فشفي[6] .

وكانت في كف شُرحْبِيل الجُعفي سِلعةٌ تمنعه القبض على السيف وعِنان الدابة ، فعركها صلى الله عليه وسلم بكفه حتى ارتفعت ولم يبق لها أثر[7] .

وسألته صلى الله عليه وسلم جارية طعاماً وهو يأكل ، فناولها من بين يديه وكانت قليلة الحياء فقالت : إنما أريد الذي في فيك ، فناولها ما في فيه ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ١٦٦) ، وانظر « الشفا » (ص٣٩٤) .

(٢) انظر « الشفا » (ص٣٩٥) **والاستسقاء** : تجمع سائل مَصلي في التجويف البريتوني ، لا يكاد يبرأ منه ، والاستسقاء الدماغي : مرض خِلقي في الغالب ، يزداد فيه السائل المخي الشوكي في بطون الدماغ ، فيمددها ويرققه . انظر « المعجم الوسيط » (١/ ٤٥٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٣٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٠٦) عن يزيد بن أبي عبيد رحمه الله تعالىٰ .

(٥) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٥٦٤) ، وأحمد (٤/ ٨٨) .

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٤) ، والدارمي (١/ ٢٤) ، وابن أبي شيبة (٢٤٠٤٦) ، **والثَّعُّ** : القيء .

(٧) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٣٠٦) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٩٨) ، و« الشفا » (ص٣٩٧) .

يسأل شيئاً فيمنعه ، فلما استقر في جوفها . . أُلقىٰ عليها من الحياء ما لم تكن بالمدينة امرأة أشد حياءً منها[١] .

فَصْلٌ
في إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم

قال حذيفة : (كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا لرجل . . أدركت الدعوة ولده وولد ولده)[٢] .

فمن ذلك : دعاؤه صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك ، وقد سبق ذلك[٣] .

ومنه : دعاؤه لعبد الرحمـٰن بن عوف بالبركة[٤] ، فاشتهر من يساره ما اشتهر ، حتىٰ صولحت إحدىٰ زوجاته الأربع ـ وهي التي طلقها في مرضه ـ علىٰ نيف وثمانين ألفاً ، وأوصىٰ بخمسين ألفاً ، هـٰذا بعد صدقاته الفاشية ونفقاته في سبيل الله تعالى الوافية ، أعتق يوماً واحداً ثلاثين عبداً ، وتصدق مرة بتسع مئة بعير بما تحمل من الخيرات ، وبأقتابها وأحلاسها[٥] .

ودعا صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص أن يكون مستجاب الدعوة ، فما دعا سعد لأحد أو عليه . . إلاَّ استجيب له[٦] .

ودعا بعز الإسلام بعمر أو بأبي جهل ، فاستجيب له في عمر[٧] .

وقال للنابغة : « لاَ يَفْضُضِ ٱللهُ فَاكَ »[٨] فعاش عشرين ومئة سنة لم يسقط له سن .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣١) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ٣١٢) ، و« الشفا » (٣٩٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٥ـ ٣٨٦) ، وابن أبي شيبة (٣٠٣٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٤٤) ، ومسلم (٢٤٨١/١٤٢) .

(٤) أخرجه البخاري (٥١٥٥) ، ومسلم (١٤٢٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) انظر « الشفا » (ص٣٩٩ـ ٤٠٠) ، **والقَتَبُ** : الرحل الصغير علىٰ قدر سنام البعير ، **والحِلْسُ** : كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسَّرج .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٥١) ، والحاكم (٣/ ٤٩٩) ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٧) أخرجه الترمذي (٣٦٨١) ، وأحمد (٢/ ٩٥) ، والحاكم (٣/ ٨٣) .

(٨) انظر « مجمع الزوائد » (٨/ ١٢٦) ، و« الشفا » (ص٤٠١) .

وقال لابن عباس : « اَللَّهُمَّ ؛ فَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ ٱلتَّأْوِيلَ »[1] فسمي بعد ذلك : البحر[2] ، وترجمان القرآن .

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه ، فما اشترىٰ شيئاً . . إلاَّ ربح فيه[3] ، ودعا بمثل ذلك للمقداد[4] ، وبمثله لعروة بن الجعد البارقي ، قال البخاري : وكان لو اشترى التراب . . ربح فيه[5] .

ودعا لعلي رضي الله عنه أن يُكْفَى الحر والقَرَّ ، فكان يلبس ثياب الشتاء في الصيف وعكسه ولا يبالي[6] .

ودعا لفاطمة ابنته رضي الله عنها ألاَّ يجيعها الله تعالىٰ، قالت: (فما جعت بعد ذلك)[7] .

ودعا علىٰ مضر بسبع كسبع يوسف ، فأخذتهم سنة حصّت كل شيء ، حتى استعطفوه فعطف عليهم[8] ، ودعا علىٰ كسرىٰ أن يمزق الله ملكه[9] ، فلم تبق له باقية ، ولا بقيت لفارس رئاسة ، وقال لرجل رآه يأكل بشماله : « كُلْ بِيَمِينِكَ » فقال : لا أستطيع ، فقال : « لاَ ٱسْتَطَعْتَ » فلم يرفعها إلىٰ فيه[10] ، ودعا علىٰ عتبة بن أبي لهب أن يسلط الله عليه كلباً من كلابه ، فافترسه الأسد[11] ، ودعا علىٰ قريش حين وضعوا السَّلا علىٰ رقبته وسمىٰ سبعةً منهم ، قال ابن مسعود : فلقد رأيتهم صرعىٰ يوم بدر ، ثم ألقوا في القليب[12] ، وكان

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦) ، وأخرجه البخاري (١٤٣) ، ومسلم (٢٤٧٧) بنحوه .
(٢) في (د): (الحبر).
(٣) أخرجه أبو داوود (٤١٨٩) ، وأحمد (١/ ٢٠٤) ، وغيرهما .
(٤) أخرجه البزار (٢١١٦) .
(٥) أخرجه البخاري (٣٦٤٣) .
(٦) أخرجه ابن ماجه (١١٧) عن عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ رضي الله عنه .
(٧) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٠١١) ، والبيهقي في « دلائل النبوة » (٦/ ١٠٨) عن سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنهما .
(٨) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٤٧٦) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٣/ ٣٥٥) .
(٩) أخرجه البخاري (٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(١٠) أخرجه مسلم (٢٠٢١) عن سلمة بن عمرو بن الأكوع .
(١١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٣٩) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٥/ ٢١١) .
(١٢) أخرجه البخاري (٢٤٠) ، ومسلم (١٧٩٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، **السَّلاَ من البهائم** : الجلدة التي يكون فيها الولد ، يقابل المشيمة من الآدميات .

الحكم بن أبي العاص يختلج بوجهه ويغمز النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه ، فقال : « كَذَلِكَ كُنْ » فلم يزل يختلج حتىٰ مات[1] ، ودعا علىٰ مُحَلِّم بن جَثَّامة ، فلم تقبله الأرض يوم مات[2] .

فصل

في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره صلى الله عليه وسلم

من ذلك : الآية الباهرة والعبرة الظاهرة ؛ وهو ما ثبت في الصحاح من خبر فرس أبي طلحة[3] ، وجمل جابر[4] ، وخفق صلى الله عليه وسلم فرساً لجُعَيْلٍ الأشجعي بمخفقة كانت معه فلم تملك رأسها نشاطاً ، وباع من بطنها باثني عشر ألفاً[5] ، وركب حماراً قَطُوفاً لسعد بن عبادة ، فكان بعد لا يُسايَرُ[6] ، وكانت شعرات من شعره في قلنسوة خالد بن الوليد ، فكان يستفتح بها في حروبه فيفتح عليه[7] ، وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه وكانا يبكيان عطشاً فسكتا[8] ، وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيكفيهم ريقه إلى الليل[9] .

وكاتب سلمان الفارسي مواليه علىٰ ثلاث مئة وَدِيَّةٍ يغرسها ويعمل عليها حتىٰ تطعم ، وعلىٰ أربعين أوقيةً من ذهب فغرسها صلى الله عليه وسلم بيده فأطعمت من عامها إلاَّ واحدةً غرسها غيره فقلعها صلى الله عليه وسلم ثم غرسها فَأَجَدَّتْ ، وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢١٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨١٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٦٧) ، ومسلم (٢٣٠٧) .

(٤) أخرجه البخاري (٢٧١٨) ومسلم (٧١٥/ ١٠٩) .

(٥) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٨٧٦٧) ، والروياني في « المسند » (١٥١٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٨٠) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٥/ ٢٦٥ـ٢٦٦) ، **المخفقة** : ما يضرب به من سوط ونحوه .

(٦) **القَطُوفُ** : البطيءُ المشي .

(٧) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٩٩) ، وأبو يعلىٰ (٧١٨٣) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ١٠٤ـ١٠٥) .

(٨) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٩) أخرجه أبو يعلىٰ (٧١٦٢) .

الذهب بعد أن أدارها علىٰ لسانه ، فوزن منها أربعين أوقيةً ، وبقي عنده مثل الذي أعطاهم[1] .

وقال حَنَشُ بن عقيل : سقاني رسول الله صلى الله عليه وسلم شربةً من سويق ، شَرِبَ أولها وشربت آخرها ، فما برحت أجد شِبَعَها إذا جعت ، ورِيَّها إذا عَطِشت ، وبردها إذا ظمئت[2] .

وانكسر سيف عكاشة يوم بدر ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جِذْلَ حَطَبٍ ، فصار في يده سيفاً صارماً يشهد به الحروب إلىٰ أن استشهد في قتال أهل الردة ، وكان هٰذا السيف يسمىٰ : العون ، ودفع صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش يوم أحد عرجوناً فرجع في يده سيفاً .

ومن بركته صلى الله عليه وآله وسلم : درة الحوائل كشاة أم معبد ، وغنم حليمة وشارفها ، وشاة المقداد .

ومسح صلى الله عليه وسلم علىٰ رأس قيس بن زيد الجذامي ودعا له ، فمات وهو ابن مئة سنة ورأسه أبيض وما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسودُ ، فكان يسمىٰ : الأغرَّ ، ومسح صلى الله عليه وسلم علىٰ بطن عتبة بن فَرْقَد وظهره ، فكان له طيب يعدل طيب نسائه ، وسَلَتَ الدمَ عن وجه عائذ بن عمرو وكان جرح يوم حنين ، فكانت له غرة كغرة الفرس[3] ، ومسح وجه قتادة بن ملحان ، فكان لوجهه بريق يتراءىٰ فيه كالمرآة[4] .

ونضح الماء في وجه ربيبته زينب بنت أم سلمة ، فأكسبها ذلك جمالاً عظيماً[5] ، وأمر آدر أن ينضحها من عَيْنٍ مَجَّ فيها ففعل ، فبرىء ، ومج في دلو وصُبَّتْ في بئر ، فكان يشم

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٤١ـ ٤٤٤) ، والطبراني في « الكبير » (٦/٢٢٢ـ ٢٢٦) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ٣٣٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/٣٨٦) وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ٤٠٠) ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله لم أعرفهم .

(٣) أخرجه المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٢٨٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٢٠) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ٤١٢) .

(٤) أخرجه أحمد (٥/٢٨ـ٢٩) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ٣١٩) .

(٥) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٢٨٢) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٦٢) .

منها رائحة المسك[1] ، وأحاديث هـٰذا الفصل واسعة ، وبركاته صلى الله عليه وسلم عظيمة عميمة .

روينا في « سنن أبي داوود » و« الترمذي » بإسناد جيد عن أبي جُرَيٍّ جابر بن سليم الهُجَيْمي رضي الله عنه قال : رأيت رجلاً يَصْدرُ الناسُ عن رأيه ، لا يقول شيئاً . . إلاَّ صدروا عنه ، قلت : من هـٰذا ؟ قالوا : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : عليك السلام يا رسول الله ـ مرتين ـ قال : « لاَ تَقُلْ عَلَيْكَ ٱلسَّلاَمُ ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ ٱلسَّلاَمُ تَحِيَّةُ ٱلْمَوْتَىٰ ، قُلْ : ٱلسَّلاَمُ عَلَيْكَ » قلت : أنت رسول الله ؟ قال : « أَنَا رَسُولُ ٱللهِ ٱلَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ . . كَشَفَهُ عَنْكَ ، وَإِذَا أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ . . أَنْبَتَهَا لَكَ ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ أَوْ فَلاَةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ . . رَدَّهَا عَلَيْكَ » قال : قلت : اعهد إلي ، قال : « لاَ تَسُبَّنَّ أَحَداً » قال : فما سببت بعده حراً ولا عبداً ، ولا بعيراً ولا شاةً ، قال : « وَلاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ شَيْئاً ، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِكَ ؛ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ ، وَٱرْفَعْ إِزَارَكَ إِلَىٰ نِصْفِ ٱلسَّاقِ ، فَإِنْ أَبَيْتَ . . فَإِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ، وَإِيَّاكَ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ ٱلإِزَارِ ؛ فَإِنَّهَا مِنَ ٱلْمَخِيلَةِ ، وَإِنَّ ٱللهَ لاَ يُحِبُّ ٱلْمَخِيلَةَ ، وَإِنِ ٱمْرُؤٌ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ . . فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ ؛ فَإِنَّمَا وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ »[2] .

وفي معنىٰ حديث أبي جُرَيٍّ : قول العفيف بن جعفر حيث يقول : [من البسيط]

لُـذْ بِـٱلنَّبِـيِّ إِذَا نَـابَتْـكَ نَـائِبَـةٌ ... فَعَقْـدُهَـا بِـرَسُـولِ ٱللهِ مَحْلُـولُ

فصل

[ما روي من إخباره صلى الله عليه وسلم بالغيوب]

وأما ما أخبر به من الغيوب . . فأمر مشتهر ، والخبر به متواتر ، والإتيان بجميعه متعذر .

روينا في « سنن أبي داوود » عن حذيفة قال : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلىٰ قيام الساعة . . إلاَّ حدَّثَهُ ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابي هـٰؤلاء ، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٦٥٩) ، وأحمد (٤/ ٣١٥) عن وائل بن حجر رضي الله عنه .

(٢) أبو داوود (٤٠٨٤) ، الترمذي (٢٧٢٢) ، وأخرجه أحمد (٣/ ٤٨٢) .

الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه . . عرفه)[1] ثم قال حذيفة : (ما أدري ، أنسي أصحابي أم تناسوا ؟ والله ؛ ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة إلىٰ أن تنقضي الدنيا يبلغ مَنْ معه ثلاث مئة فصاعداً . . إلاَّ وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته)[2] .

وقد خرج أهل الصحاح في ذلك أخباراً واسعةً ؛ من ذلك : إخباره أصحابه بالظهور علىٰ أعدائهم[3] وفتح مكة[4] وبيت المقدس[5] واليمن والشام والعراق[6] وبفتح خيبر علىٰ يد علي رضي الله عنه في غد يومه[7] .

واختلاف أمته وافتراقهم علىٰ ثلاث وسبعين فرقةً ، الناجية منها واحدة[8] ، وإخباره أن أمته إذا مَشَوْا المُطَيْطَاءَ وخدمتْهم بناتُ فارس والروم . . ردَّ الله بأسهم بينهم وسلط الله شِرارهم علىٰ خيارهم[9] ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « زُوِيَتْ لِيَ ٱلْأَرْضُ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي بِمَا زُوِيَ لِي مِنْهَا »[10] فامتد ملكهم في المشرق والمغرب أعظم من امتداده في الشام واليمن ، وإخباره بملك بني أمية ، واتخاذهم مال الله دُوَلاً وعباده خولاً ، وخروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكهم أضعاف ما ملكوا .

وخروج المهدي ، وما ينال أهل بيته وتقتيلهم وتشريدهم[11] ، وقوله صلى الله عليه وسلم لعليٍّ رضي الله عنه : « إِنَّ أَشْقَاهَا ٱلَّذِي يَخْضِبُ هَـٰذِهِ مِنْ هَـٰذِهِ »[12] أي : لحيته من

---

(١) أبو داوود (٤٢٤٠) ، وأخرجه البخاري (٦٦٠٤) ، ومسلم (٢٣/٢٨٩١) عن حذيفة رضي الله عنه .
(٢) أبو داوود (٤٢٤٣) عن حذيفة رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥٢) ، وأبو داوود (٢٦٤٩) ، وأحمد (٥/ ١١١) عن خباب رضي الله عنه .
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم .
(٥) أخرجه البخاري (٣١٧٦) عن عوف بن مالك رضي الله عنه .
(٦) أخرجه البخاري (١٨٧٥) ، ومسلم (١٣٨٨) عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه .
(٧) أخرجه البخاري (٣٧٠١) ، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .
(٨) أخرجه أبو داوود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وأحمد (٢/ ٣٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٩) أخرجه الترمذي (٢٢٦١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، **مشوا المُطَيْطَاءَ** : تبختروا في مشيتهم عجباً واستكباراً.
(١٠) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) ، وأبو داوود (٤٢٥٢) ، والترمذي (٢١٧٦) عن ثوبان بن بجدد رضي الله عنه .
(١١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٨٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٨٥) ، وابن أبي شيبة (٣٨٨٨٢) ، وانظر « الضعفاء » للعقيلي (٤/ ١٤٩٤_١٤٩٥) .
(١٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١/ ١٠٦) ، وابن أبي شيبة (٣٨٢٥٥) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ١٣٩).

رأسه بالدم ، وأن فيه مثلاً من ابن مريم : « أَبْغَضَتْهُ ٱلْيَهُودُ حَتَّىٰ بَهَتُوا أُمَّهُ ، وَأَحَبَّهُ ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ أَنْزَلُوهُ ٱلْمَنْزِلَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ بِهَا »[1] ، وأخبر بقتال الزبير له وهو ظالم له ، وبأن عماراً تقتله الفئة الباغية ، وقال لعبد الله بن الزبير : « وَيْلٌ لَكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ »[2] .

وقال في قُزمان ـ وكان قد أبلىٰ مع المسلمين وأعجب المسلمون بنفعه ـ : إنه من أهل النار ، فقتل نفسه .

وقال لجماعة من أصحابه : « آخِرُكُمْ مَوْتاً فِي ٱلنَّارِ » فكان آخر أولـٰئك موتاً سمرة بن جندب احترق في نار ومات فيها[3] .

وأخبر أن في ثقيف كذاباً ومُبيراً[4] ، وأن مسيلمة يعقره الله[5] ، وأن فاطمة أول أهله لحوقاً به[6] ، وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنةً ثم تكون ملكاً[7] ، فكانت كذلك بمدة الحسن .

وقال للحسن بن علي رضي الله عنهما : « إِنَّ ٱبْنِي هَـٰذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »[8] وأخبر بقتل الحسين بالطَّفِّ ، وأخرج بيده تربةً وقال : « فِيهَا مَضْجَعُهُ »[9] .

وأخبر بشأن أويس القرني[10] ، وبأن الأنصار يستأثر عليهم بالدنيا ، وبأنهم يقلون حتىٰ يكونوا كالملح في الطعام[11] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٦٠) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ١٣٦) .
(٢) أخرجه المقدسي في « المختارة » (٩/ ٣٠٩) والدارقطني (١/ ٢٢٨) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/ ١٧٧) ، وابن أبي شيبة في « مسنده » (٨٢٧) .
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) ، **الكذاب** : هو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، **المُبيرُ** : المُهْلِكُ ، وهو الحجاج بن يوسف .
(٥) أخرجه البخاري (٣٦٢٠) ، ومسلم (٢٢٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، **يعقره** : يهلكه .
(٦) أخرجه البخاري (٣٦٢٦) ، ومسلم (٢٤٥٠) عن عائشة رضي الله عنها .
(٧) أخرجه أبو داوود (٤٦٤٦) ، والترمذي (٢٢٢٦) عن سفينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٨) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) عن أبي بكرة رضي الله عنه .
(٩) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٠٧) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/ ١٩١) .
(١٠) أخرجه مسلم (٢٥٤٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(١١) أخرجه البخاري (٣٨٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأخبر بكتاب حاطب إلىٰ أهل مكة ينذرهم[١] ، وأخبر عمه العباس حين أسر ببدر بماله الذي تركه عند زوجته أم الفضل ، ولم يعلم به أحد[٢] ، وأخبر أنه يقتل أبي بن خلف ، فقتله بيده[٣] ، وأعلم بمصارع كفار بدر ، فما ماط أحد عن موضع يده[٤] .

وقال لسعد : « لَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّىٰ يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ »[٥] ، وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا[٦] ، وبموت النجاشي[٧] ، وأن أسرع أزواجه لحوقاً به أطولهن يداً[٨] ، فكانت زينب ، وكان طول يدها : الصدقة ، وقال في زيد بن صَوْحان : « يَسْبِقُهُ عُضْوٌ مِنْهُ إِلَى ٱلْجَنَّةِ » فقطعت يده في الجهاد[٩] .

وأخبر بأمارات القيامة وأشراطها ، فمنها : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان[١٠] ، وتقارب الزمان ، وقبض العلم ، وظهور الفتن والهرج[١١] ، وذهاب الأمثل فالأمثل من الناس[١٢] وخروج ثلاثين دجالاً كذاباً[١٣] آخرهم الدجال الأعظم .

وقال : « وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ ٱقْتَرَبَ »[١٤] إلىٰ ما أخبر به من أسرار المنافقين وهتك أستارهم ، حتىٰ قال بعضهم لصاحبه : اسكت ، فوالله ؛ لو لم يكن عنده من يخبره . .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١) .

(٤) أخرجه مسلم (١٧٧٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٠٩) ، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٦) أخرجه البخاري (١٢٤٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البخاري (١٢٤٥) ، ومسلم (٩٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٨) أخرجه البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢) عن عائشة رضي الله عنها .

(٩) أخرجه أبو يعلىٰ (٥١١) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٩/٤٠١) ، قال الهيثمي : رواه أبو يعلىٰ ، وفيه من لم أعرفهم .

(١٠) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١١) أخرجه البخاري (١٠٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٤) عن مرداس بن مالك رضي الله عنه .

(١٣) أخرجه البخاري (٣٦٠٩) ، ومسلم (١٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٦) ، ومسلم (٢٨٨٠) عن زينب بنت جحش رضي الله عنها .

لأخبرته حجارة البطحاء ، إلىٰ ما أخبر به من أحوال يوم القيامة وتطوره وأحداثه ، والله أعلم .

قال القاضي رحمه الله تعالىٰ :



[في جملة من معجزاته الباهرة]

ومن معجزاته الباهرة : ما جمعه الله له من المعارف والعلوم ، وخصه به من الاطلاع علىٰ جميع مصالح الدنيا والدين ، ومعرفته بأمور شرائعه وقوانين دينه ، وسياسة عباده ومصالح أمته ، وما كان في الأمم قبله ، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة والقرون الماضية من لدن آدم إلىٰ زمنه ، وحفظ شرائعهم وكتبهم ، وَوَعْي سيرهم ، وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم ، وصفات أعيانهم ، واختلاف آرائهم ، والمعرفة بمُدَدِهم وأعمارهم وحِكَم حكمائهم ، ومُحَاجَّة كل أمة من الكفرة ، ومعارضة كل فرقة من أهل الكتابِيِّين بما في كتبهم ، وإعلامهم بأسرارها ومُخَبَّآت علومها ، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه ، إلى الاحتواء علىٰ لغات العرب وغريب ألفاظ فرقها ، والإحاطة بضروب فصاحتها ، والحفظ لأيامها وأمثالها وحِكمها ومعاني أشعارها ، والتخصيص بجوامع كلمها ، إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة والحِكم البينة ؛ لتقريب التفهيم للغامض ، والتبيين للمشكل ، إلىٰ تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل ، مع اشتمال شريعته علىٰ محاسن الأخلاق ومحامد الآداب ، وكل شيء مستحسن مفصل ، لم يُنكِر منه مُلحدٌ ذو عقل سليم شيئاً إلاَّ من جهة الخِذلان ، بل كل جاحد وكافر من الجاهلية إذا سمع ما يدعو إليه . . صوَّبه واستحسنه دون [طلب] إقامة برهان عليه .

ثم ما أحل لهم من الطيبات وحرم عليهم من الخبائث ، وصان به أنفسهم وأعراضهم من المعاقبات ، والحدود عاجلاً ، والتخويف بالنار آجلاً ، إلى الاحتواء علىٰ ضروب العلوم وفنون المعارف كالطب والعبارة[1] والفرائض والحساب والنسب ، وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هـٰذه المعارف كلامه صلى الله عليه وسلم فيها قدوةً وأصولاً في علمهم ، كقوله

---

(١) **العبارة** : تأويل الرؤيا .

صلى الله عليه وسلم : « ٱلرُّؤْيَا لِأَوَّلِ عَابِرٍ[١] ، وَهِيَ عَلَىٰ رِجْلِ طَائِرٍ[٢] ، وَإِذَا تَقَارَبَ ٱلزَّمَانُ . . لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا ٱلْمُؤْمِنِ تَكْذِبُ »[٣] .

وقوله : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ : ٱلْبَرَدَةُ »[٤] ، و« خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ : ٱلسَّعُوطُ وَٱللَّدُودُ وَٱلْمَشِيُّ وَٱلْحِجَامَةُ »[٥] .

و« خَيْرُ ٱلْحِجَامَةِ يَوْمَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَتِسْعَ عَشْرَةَ وَإِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ »[٦] .

و« فِي ٱلْعُودِ ٱلْهِنْدِيِّ سَبْعَةُ أَشْفِيَةٍ »[٧] .

و« فِي ٱلْحَبَّةِ ٱلسَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلاَّ ٱلسَّامَ »[٨] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَصَبَّحَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً . . لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ سُمٌّ وَلاَ سِحْرٌ »[٩] .

وقوله في السَّنَا[١٠] : « إِنَّهُ حَارٌّ يَارٌّ »[١١] .

وسئل عن سبأ : أرجل هو أم امرأة أم أرض ؟ فقال : « رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً مِنَ ٱلْوَلَدِ ، تَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ ، وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَةٌ . . . »[١٢] الحديث بطوله .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩١٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داوود (٥٠٢٠) ، والترمذي (٢٢٧٨) عن لقيط بن صبرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (١٦٩٨) ، وذكره العقيلي في « الضعفاء » (١/ ١٨٧) ، **البَرَدَةُ** : التُّخَمَةُ وثِقَلُ الطعام على المعدة .

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٤٧) ، والديلمي في « الفردوس » (٢٩٢٤) ، **السَّعُوطُ** : الدواء الذي يدخل في الأنف ، **اللَّدُود** : الدواء الذي يصب في أحد جانبي فم المريض ويسقاه ، **المَشِيُّ** : المُسهل .

(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) أخرجه البخاري (٥٦٩٢) ومسلم (٢٨٧) عن أم قيس رضي الله عنها .

(٨) أخرجه البخاري (٥٦٨٧) ومسلم (٢٢١٥) .

(٩) أخرجه البخاري (٥٤٤٥) ومسلم (٢٠٤٧) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(١٠) **السنا** : نبت معروف من الأدوية ، له حمل ، إذا يبس وحركته الريح . . سمعت له زجلاً . اهـ « النهاية » (٢/ ٤١٥) .

(١١) أخرجه الترمذي (٢٠٨١) ، وأحمد (٦/ ٣٦٩) عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها .

(١٢) أخرجه أبو داوود (٣٩٨٨) ، والترمذي (٣٢٢٢) عن فروة بن مسيك رضي الله عنه .

وقال : « حِمْيَرُ رَأْسُ ٱلْعَرَبِ وَنَابُهَا ، وَمَذْحِجُ هَامَتُهَا وَغَلْصَمَتُهَا ، وَٱلأَزْدُ كَاهِلُهَا وَجُمْجُمَتُهَا ، وَهَمْدَانُ غَارِبُهَا وَذِرْوَتُهَا »[١] .

وتعليمه لكاتبه وتصوير الحروف بأسمائها مع كونه أمياً لا يكتب[٢] .

وأما جوابه لوفود العرب على اختلافهم ، وخطاب كل منهم بلغته ، وتكلمه بالرطانة في بعض الأحيان[٣] . . فأمر شائع ، هـٰذا كله وهو أمي لا يحسب ولا يكتب ، ولا عُلِّم ولا نُقل أنه اشتغل بمدارسة كتب ، ولا بمجالسة أحد مما علمها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

وهـٰذا تلخيص ما ذكره القاضي رحمه الله تعالىٰ مع زيادات زدتها .

وألحق بالمعجزات أيضاً : كفاية الله له وعصمته من الناس في حال اجتماعه وانفراده ، وكثرة الحاسد والمعاند ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وقال : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ وقال : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ ، والأخبار في أذى الكفار له صلى الله عليه وسلم وحرصهم على الفتك به وتظاهرهم علىٰ ذلك واسعة شائعة ، فلا نطول بسردها ، والله أعلم .

* * *

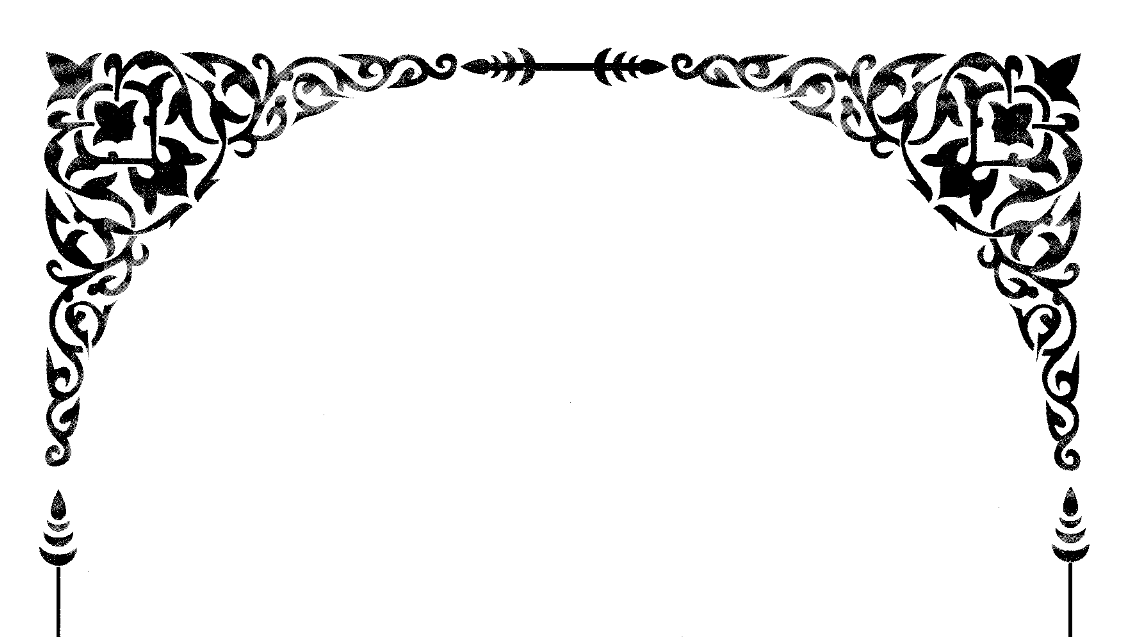
---

(١) أخرجه البزار (٤١٠) وانظر « مجمع الزوائد » (١٠/ ٤٤) ، **الناب** : السيد ، **الغلصمة** : رأس الحلقوم ؛ أي : إشارة إلىٰ تمكنهم في الشرف والمنزلة ، **الجمجمة** : السيد والرئيس ، **الغارب** : أعلىٰ كل شيءٍ .

(٢) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٨٥٣٣) والسمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (١/ ١٧٠) .

(٣) **الرَّطانة** : كلام لا يفهمه الجمهور ، والعرب تخص بها كلام العجم .

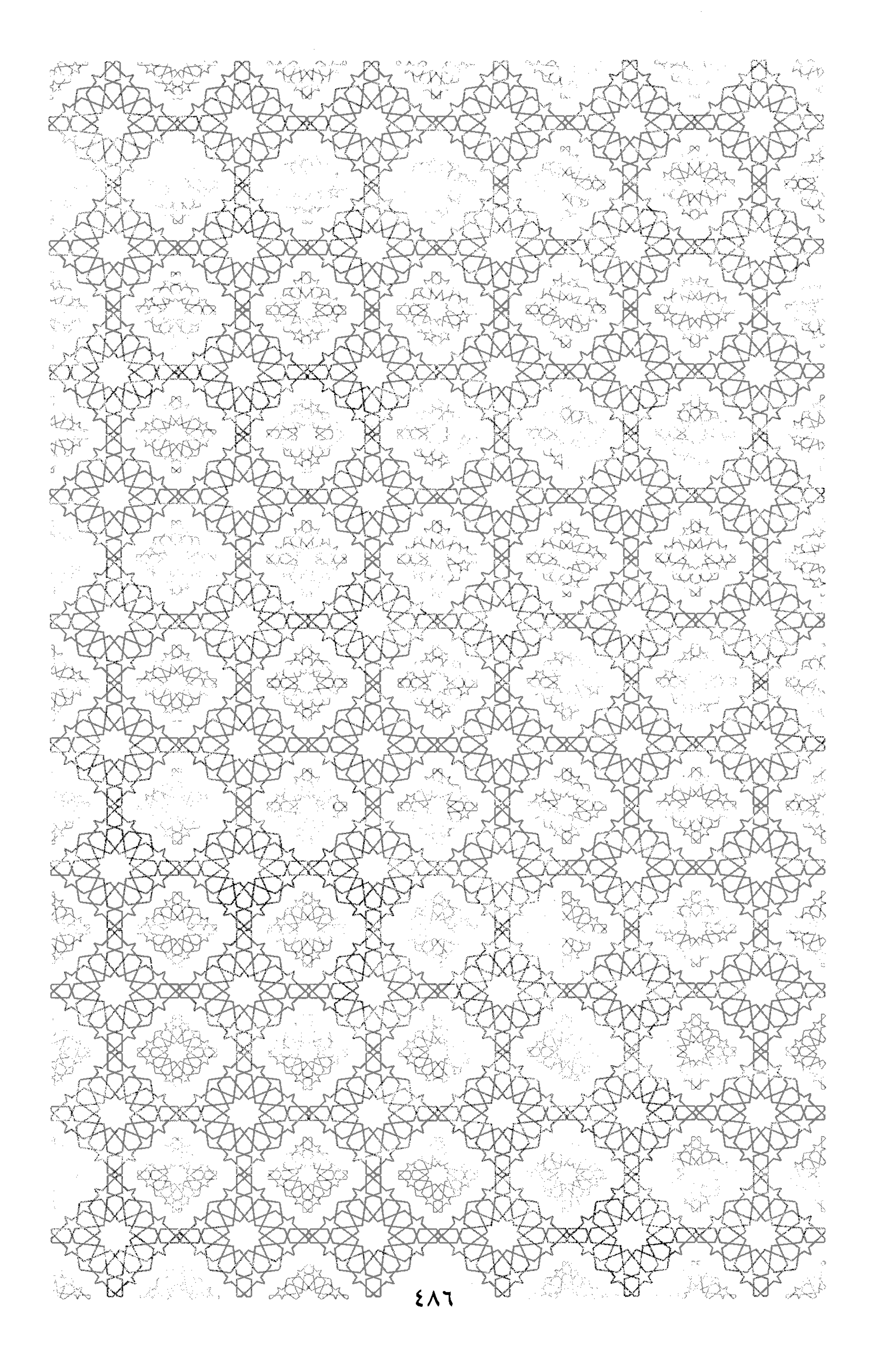




القسم الثالث

في شمائله، وفضائله، وأقواله وأفعاله في جميع أحواله

قال المؤلف كان الله له : لا خفاء علىٰ من مارس شيئاً من علوم النقل وزينه الله بأدنىٰ مُسكة من عقل . . أنه صلى الله عليه وسلم قد كان مجبولاً علىٰ أكرم الخصال ، وأحمدها في المآل ، وأنه قد كان يأتي منها على البديهة بما يشق علىٰ غيره ، وذلك من غير تأديب ولا تعليم ، بل فطرةً من العزيز العليم ، وكفىٰ في تقرير ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ولنلخص الكلام في هـٰذه الجملة في ثلاثة أبواب حسب ما تقدم .



البَابُ الأوّل

في عادته وسجيّته في المُباحات والمُعتادات والضّروريّات صلّى الله عليه وسلّم

وهي لاحقة في حقه بالطاعات وفي حق من قرنها بالنيات الصالحات .

فمن ذلك : عادته في الغذاء والنوم ، ولم تزل الحكماء والعلماء أهل الفطر السليمة يتمادحون بالتقلل منهما ، ويذمون بضده ؛ لما يتولد منه من الأذىٰ عاجلاً وآجلاً ، وأيضاً : فإن الدواعي الباعثة على التوسع فيهما رديئة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخذاً في ذلك بالطريقة المثلىٰ وما هو أولىٰ .

أما الطعام . . فكان يتناول منه علىٰ حد الضرورة وقوام الجسد ، من غير تنطع ولا تشبع ؛ قالت عائشة رضي الله عنها : (لم يمتلىء جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قطُّ ، وكان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه ؛ إن أطعموه . . أكل ، وما أطعموه . . قَبِل ، وما سقوه . . شرب[1] ، وكان أحب الطعام إليه ما كان علىٰ ضفف) ؛ أي : كثرة الأيدي .

وروى المقداد بن معدي كرب عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا مَلأَ ٱبْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنِهِ ، حَسْبُ ٱبْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ . . فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »[2] .

وفي المتفق عليه عنه صلى الله عليه وسلم قال : « طَعَامُ ٱلِاثْنَيْنِ كَافِي ٱلثَّلاَثَةِ ، وَطَعَامُ ٱلثَّلاَثَةِ كَافِي ٱلأَرْبَعَةِ »[3] .

وفي رواية لمسلم : « وَطَعَامُ ٱلأَرْبَعَةِ يَكْفِي ٱلثَّمَانِيَةَ »[4] .

---

(١) انظر « الشفا » (ص١٢٩) .
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) .
(٣) البخاري (٥٣٩٢) ومسلم (٢٠٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) مسلم (٢٠٥٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

وروىٰ أبو داوود عن وحشي بن حرب : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ؛ إنا نأكل ولا نشبع! قال : « فَلَعَلَّكُمْ تَتَفَرَّقُونَ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فَٱجْتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ ، وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللهِ . . يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ »(١) .

وكان صلى الله عليه وسلم يجلس على الطعام مستوفزاً مُقْعِياً ، وربما جثىٰ علىٰ ركبتيه ويقول : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ؛ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ ٱلْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ ٱلْعَبْدُ »(٢) .

وقال له أعرابي : ما هـٰذه الجلسة ؟! قال : « إِنَّ ٱللهَ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً »(٣) ، وقال : « أَمَّا أَنَا . . فَلاَ آكُلُ مُتَّكِئاً »(٤) .

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر مؤاكليه بحسن الأدب في الأكل ، كما قال لربيبه عمر بن أبي سَلَمة وكانت يده تطيش في الصَّحْفة : « سَمِّ ٱللهَ يَا غُلاَمُ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ »(٥) .

وقال : « ٱلْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسْطَ ٱلطَّعَامِ ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ وَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ »(٦) .

وأكل عنده رجل بشماله فقال : « كُلْ بِيَمِينِكَ » قال : لا أستطيع ، قال : « لاَ ٱسْتَطَعْتَ » ما منعه إلاَّ الكِبْر ، فما رفعها إلىٰ فيه ، رواه مسلم(٧) .

ونهى المتواكلين عن القِرَان في التمر ، إلاَّ أن يستأذن الرجل أخاه(٨) .

وكان من أدب أصحابه معه إذا وضع الطعام : لا يضعون أيديهم حتىٰ يضع يده ، وحضروا معه مرةً علىٰ طعام ، فجاءت جارية كأنها تُدْفَعُ ، فذهبتْ لتضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدها ، ثم جاء أعرابي كأنما يُدْفَعُ فأخذ بيده ، فقال

---

(١) أبو داوود (٣٧٦٤) .
(٢) أخرجه أبو يعلىٰ (٤٩٢٠) عن عائشة رضي الله عنها .
(٣) أخرجه أبو داوود (٣٧٧٣) ، وابن ماجه (٣٢٦٣) عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه .
(٤) أخرجه البخاري (٥٣٩٨) ، وأبو داوود (٣٧٦٩) ، والترمذي (١٨٣٠) عن أبي جُحيفة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البخاري (٥٣٧٦) ، ومسلم (٢٠٢٢) عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه الترمذي (١٨٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٧) مسلم (٢٠٢١) عن سلمة بن عمرو بن الأكوع رضي الله عنه .
(٨) أخرجه البخاري (٥٤٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، **القِرَانُ** : ضَمُّ تمرة إلىٰ تمرة لمن أكل مع الجماعة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ ٱلطَّعَامَ أَلاَّ يُذْكَرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَـٰذِهِ ٱلْجَارِيَةِ ، لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا ، فَجَاءَ بِهَـٰذَا ٱلأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدَيْهِمَا » ثم ذكر الله تعالى وأكل ، رواه مسلم[1] .

وروىٰ أبو داوود والنسائي عن أُمية بن مَخْشي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً ورجل يأكل ، فلم يسم الله حتىٰ لم يبق من طعامه إلاَّ لقمة ، فلما رفعها إلىٰ فيه . . قال : باسم الله أوله وآخره ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : « مَا زَالَ ٱلشَّيْطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ ، فَلَمَّا ذَكَرَ ٱسْمَ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . ٱسْتَقَاءَ مَا فِي بَطْنِهِ »[2] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل طعاماً في ستة من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمَا إِنَّهُ لَوْ سَمَّى ٱللهَ . . لَكَفَاكُمْ » رواه الترمذي وصححه[3] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع[4] ، قال أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاماً . . لعق أصابعه الثلاث ، وقال : « إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ . . فَلْيُمِطْ عَنْهَا ٱلأَذَىٰ ، وَلْيَأْكُلْهَا وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ » ، وأمرنا أن نَسْلُتَ القَصْعَةَ وقال : « إِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ ٱلْبَرَكَةُ » رواه مسلم[5] .

وكان يحب الدباء[6] ، ويتتبعه من حوالي القصعة[7] ، ويحب الحلواء والعسل[8] ، ويثني على الثريد والخل ، قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه

(١) مسلم (٢٠١٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .
(٢) أبو داوود (٣٧٦٨) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٧٥٨) ، وأحمد (٤/ ٣٣٦) .
(٣) الترمذي (١٨٥٨) .
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٣٢) عن كعب بن مالك رضي الله عنه .
(٥) مسلم (٢٠٣٤) ، أن نَسْلُتَ : أن نَمْسَحَ .
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٧) أخرجه البخاري (٢٠٩٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٨) أخرجه البخاري (٥٤٣١) ومسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها .

وسلم : « نِعْمَ ٱلإِدَامُ ٱلْخَلُّ »[1] وقالت أم هانىء رضي الله عنها : دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « أَعِنْدَكِ شَيْءٌ ؟ » فقلت : لا ، إلاَّ خبزٌ يابسٌ وخل ، فقال : « هَاتِي ، مَا أَقْفَرَ بَيْتٌ مِنْ أُدْمٍ فِيهِ خَلٌّ »[2] .

وكان يحب من الشاة ذراعها ، ولذلك سم فيه[3] ، وقال : « أَطْيَبُ ٱللَّحْمِ . لَحْمُ ٱلظَّهْرِ »[4] .

وكان يسمي أول الطعام ، ويحمد آخره فيقول : « ٱلْحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلاَ مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنَىً عَنْهُ رَبَّنَا »[5] وقال : « مَنْ أَكَلَ طَعَاماً فَقَالَ : ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي أَطْعَمَنِي هَـٰذَا ٱلطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلاَ قُوَّةٍ . . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[6] .

وحث علىٰ غسل اليد قبل الطعام وبعده[7] ، وربما مسح يده بالمنديل من غير غسل .

وكان يحب الثُّفْلَ من الطعام[8] ؛ يعني : البقايا ، وأخذ كِسرةً من خبز الشعير فوضع عليها تمرة وقال : « هَـٰذِهِ إِدَامُ هَـٰذِهِ »[9] وأكل صلى الله عليه وسلم البطيخ بالرطب[10] بكلتا يديه وقال : « هُمَا ٱلأَطْيَبَانِ »[11] . وقال : « بَرْدُ هَـٰذَا يَعْدِلُ حَرَّ هَـٰذَا ، وَحَرُّ هَـٰذَا يَعْدِلُ بَرْدَ هَـٰذَا »[12] وأكل القثاء بالملح .

وكان يشتد عليه أن توجد منه رائحة كريهة ، فلم يأكل ثوماً ولا بصلاً ولا كُرَّاثاً قطّ إلاَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥١) عن عائشة رضي الله عنها .
(٢) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (ص٢٩٢ـ٢٩٣) ، **أقفر** : خلا .
(٣) أخرجه أبو داوود (٣٧٨٠) ، وأحمد (١/ ٣٩٤) .
(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٣٠٨) عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه .
(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٥٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه أبو داوود (٤٠٢٣) عن معاذ بن أنس رضي الله عنه .
(٧) أخرجه أبو داوود (٣٧٦١) ، والترمذي (١٨٤٦) عن سلمان رضي الله عنه .
(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٩) أخرجه أبو داوود (٣٢٥٩) عن يونس بن عبد الله بن سلام رضي الله عنه .
(١٠) أخرجه أبو داوود (٣٨٣٦) عن عائشة رضي الله عنها .
(١١) أخرجه الطيالسي (١٧٦٢) عن جابر رضي الله عنه ، وفيه قال : كان صلى الله عليه وسلم يأكل الخبز بالرطب ويقول : « هُمَا ٱلأَطْيَبَانِ » .
(١٢) أخرجه أبو داوود (٣٨٣٦) عن عائشة رضي الله عنها .

مطبوخاً[1] ، وكان يَعَافُ أكل ما لم يتعوده ، ومع ذلك فلم يكن يذم ذواقاً ولا يمدحه ، وربما مدحه رافعاً عنه علة التحقير كما ورد أنه كان يعظم النعمة وإن دقت .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما يأتي عائشة فيقول : « أَعِنْدَكِ غَدَاءٌ ؟ » فتقول : لا ، فيقول : « إِنِّي صَائِمٌ » قالت : فأتىٰ يوماً فقلت : يا رسول الله ؛ أُهْدِيَت لنا هديةٌ ، قال : « وَمَا هِيَ ؟ » قلت : حَيْسٌ ، قال : « أَمَا إِنِّي أَصْبَحْتُ صَائِماً » ثم أكل[2] .

وكان يحب الهدية ولا يحقرها ، ويكافىء عليها[3] ، ويجيب من دعاه إلى الطعام ولو كان صائماً ، فربما أكل وربما لم يأكل[4] ، وكان إذا دعي إلىٰ طعام في عدد معين فتبعهم غيرهم . . استأذن له ، وكان ربما يغشىٰ بعض حوائط الأنصار عند الحاجة فيستضيفهم ، ويؤثر بذلك من يتأهل له ، قال جابر بن عبد الله : أتانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا ، فذبحنا له شاةً ، فقال : « كَأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّا نُحِبُّ ٱللَّحْمَ »[5] .

وكان في صفة أكله اللحم ربما رفع العضو إلىٰ فيه فانتهس منه[6] ، وربما احتز بالسكين ، وأكل الدجاج[7] والحُبارىٰ[8] .

وجاء الحسن بن علي وابن عباس وابن جعفر إلىٰ سلمىٰ مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لها : اصنعي لنا طعاماً مما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُحسن أكله ، فقالت : يا بُنَيَّ ؛ لا تَشْتهيه اليوم ، قالوا : بلى اصنعيه لنا ، قال : فقامت فطحنت شعيراً وجعلته في قدر ، وصبت عليه شيئاً من زيتٍ ، ودَقَّت الفُلْفُلَ والتَّوابلَ وقرَّبته إليهم وقالت : هـٰذا مما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحسن أكله[9] .

---

(١) **الكراث** : عشب ذات رائحة قوية .
(٢) أخرجه الترمذي (٧٣٤) عن عائشة رضي الله عنها .
(٣) أخرجه البخاري (٢٥٨٥) عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) أخرجه مسلم (١٤٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (ص٢٩٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٦) أخرجه أحمد (٦/٤١٩) عن ضباعة بنت الزبير رضي الله عنها ، وفي(د) و(و) : (فانتهش منه) .
(٧) أخرجه البخاري (٥٥١٧) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٨) أخرجه أبو داوود (٣٧٩٧) ، والترمذي (١٨٢٨) عن سفينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٩) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (٢٩٧ـ ٢٩٨) عن سلمى امرأة أبي رافع رضي الله عنها ، وفي (و): (لا تَشْتَهِنَّهُ اليومَ).

فَصْلٌ

[في هديه صلى الله عليه وسلم في الشراب]

وأما الشراب . . ففي « الصحيحين » : أنه صلى الله عليه وسلم كان يتنفس فيه ثلاثاً[(١)] وأنه نهىٰ أن يتنفس في الإناء[(٢)] ، وفي « جامع الترمذي » عنه صلى الله عليه وسلم : « لَا تَشْرَبُوا وَاحِداً كَشُرْبِ ٱلْبَعِيرِ ، وَلَكِنِ ٱشْرَبُوا مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ ، وَسَمُّوا إِذَا أَنْتُمْ شَرِبْتُمْ ، وَٱحْمَدُوا إِذَا أَنْتُمْ رَفَعْتُمْ »[(٣)] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا شرب . . أعطىٰ من علىٰ يمينه وإن كان مفضولاً ، وربما استأذنه لكون الحق له ؛ فإن أذن وإلاَّ . . أعطاه[(٤)] ، ونهىٰ عن الشرب من في السِّقاء[(٥)] ، وربما شرب منه نادراً لبيان الجواز ، ونهىٰ عن النفخ في الشراب ، فقال له رجل : القذاة أراها في الإناء ؟ قال : « أَهْرِقْهَا » قال : فإني لا أروىٰ بنفس واحد ، قال : « فَأَبِنِ ٱلْقَدَحَ إِذاً عَنْ فِيكَ » رواه الترمذي وصححه[(٦)] .

وروىٰ مسلم عن أنس : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ أن يشرب قائماً) قيل لأنس : فالأكل ؟ قال : (ذلك أشر وأخبث)[(٧)] وفي رواية فيه أيضاً : عن أبي هريرة : « لَا يَشْرَبَنَّ أَحَدُكُمْ قَائِماً ؛ فَإِنْ نَسِيَ . . فَلْيَسْتَقِئْ »[(٨)] ثم إن النهي هنا للتنزيه ، وتعليم الأفضل والأكمل ، وقد شرب صلى الله عليه وسلم قائماً في بعض الأحوال[(٩)] .

---

(١) البخاري (٥٦٣١) ومسلم (٢٠٢٨) عن أنس رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٥٦٣٠) ومسلم (٢٦٧) عن الحارث بن ربعي رضي الله عنه .
(٣) الترمذي (١٨٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٤) أخرجه البخاري (٢٣٥١) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البخاري (٥٦٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) الترمذي (١٨٨٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأحمد (١/٣٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٧) مسلم (٢٠٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٨) مسلم (٢٠٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٩) أخرجه البخاري (٥٦١٥) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سقىٰ أصحابه . . بدأ بهم قبل نفسه ، فربما قالوا له : يا رسول الله ؛ لو شربت ، فقال : « سَاقِي ٱلْقَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْباً »[1] .

ودخل صلى الله عليه وسلم علىٰ رجل من الأنصار فقال له : « إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَاءٌ بَاتَ فِي شَنَّةٍ وَإِلاَّ . . كَرَعْنَا » رواه البخاري[2] .

وكان أحب الشراب إليه : الحلو البارد[3] ، وكان رجل من الأنصار يبرد له الماء في أشجاب له علىٰ حِمارة من جريد[4] ، وربما استعذب له الماءُ من السُّقيا ، وهي عين بينها وبين المدينة يومان[5] .

وكان أحب الشراب إليه: اللبن ، وقال : « مَنْ أَطْعَمَهُ ٱللهُ طَعَاماً . . فَلْيَقُلْ : ٱللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لَنَا فِيهِ ، وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ ، وَمَنْ سَقَاهُ ٱللهُ لَبَناً . . فَلْيَقُلِ : ٱللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ » وقال : « لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِىءُ مَكَانَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ غَيْرُ ٱللَّبَنِ »[6] وشرب مرة لبناً ثم دعا بماء فمضمض وقال : « إِنَّ لَهُ دَسَماً »[7] .

وكان صلى الله عليه وسلم ينبذ له غُدْوةً فيشربه عشياً ، وينبذ له عشياً فيشربه غُدوةً[8] ، وربما شرب منه ثلاثة أيام ، ثم يسقى الخدم أو يهراق[9] ، والظاهر : أن تغيره بعد يوم وليلة يختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف وجنس المنبوذ ، قال أنس : (سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بهـٰذا القدح الشراب كله ؛ الماء والنبيذ والعسل واللبن ، فلولا أني رأيت أصابعه في هـٰذه الحلقة . . لجعلت عليها الذهب والفضة)[10] .

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨١) عن أبي قتادة رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٥٦١٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، **والكَرْعُ** : تناول الماء بالفم من غير إناء ولا كف .
(٣) أخرجه الترمذي (١٨٩٥) عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) أخرجه مسلم (٣٠١٤) .
(٥) أخرجه أبو داوود (٣٧٣٥) عن عائشة رضي الله عنها .
(٦) أخرجه ابن ماجه (٣٣٢٢) ، وأحمد (١/ ٢٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٧) أخرجه البخاري (٢١١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٨) أخرجه النسائي (٥٧٤٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٩) أخرجه مسلم (٢٠٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(١٠) أخرجه البخاري (٥٦٣٨) ومسلم (٢٠٠٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

ونهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة[1] وقال : « ٱلَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فِي آنِيَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ . . إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ »[2] .

فَصْلٌ

[في عادته وسجيته صلى الله عليه وسلم في النوم]

وأما النوم . . فدلت الأحاديث الصحيحة الصريحة أنه كان صلى الله عليه وسلم فيه علىٰ حد الاعتدال والإقلال ، ومن تأمل حاله في الغذاء . . علم ذلك ضرورةً ، وكان ينام على الجانب الأيمن[3] ؛ استظهاراً علىٰ قلة النوم ؛ لأن القلب والأعضاء الباطنة منوطة بالجانب الأيسر ، فإذا نام على الأيمن . . تعلقت ، ومنع ذلك الاستغراق ، ومع ذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي »[4] .

وكان فراشه من أَدَمٍ حشوه ليف[5] ، وسئلت حفصة : مَا كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك ؟ قالت : مِسْحٌ نَثْنِيه بِثِنْيَتَيْنِ فينام عليه ، فلما كان ذات ليلة . . قلت : لو ثَنَيْتُه بأربعِ ثِنْياتٍ . . كان أوطأ له ، فثنيناه بأربع ، فلما أصبح . . قال : « مَا فَرَشْتُمْ لِيَ ٱللَّيْلَةَ ؟ » قلنا : هو فراشك إلاَّ أنا ثنيناه بأربع ، قال : « رُدُّوهُ لِحَالِهِ ٱلأَوَّلِ ؛ فَإِنَّ وَطْأَتَهُ مَنَعَتْنِي صَلاَتِيَ ٱللَّيْلَةَ »[6] .

وكان أحياناً ينام علىٰ سرير مرمول بشريط بغير فراش[7] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا نام . . نفخ[8] ولا يغط غطيطاً ، وإذا رأىٰ في منامه ما يروعه . . قال : « هُوَ ٱللهُ رَبِّي لاَ شَرِيكَ لَهُ »[9] وقال : « إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ ٱلرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا . .

---

(1) أخرجه البخاري (٥٤٢٦) ومسلم (٢٠٦٧) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .
(2) أخرجه مسلم (٢٠٦٥) عن أم سلمة رضي الله عنها .
(3) أخرجه البخاري (٦٣١٥) عن البراء بن عازب رضي الله عنه .
(4) أخرجه البخاري (١١٤٧) ومسلم (٧٣٨) عن عائشة رضي الله عنها .
(5) أخرجه مسلم (٢٠٨٢) عن عائشة رضي الله عنها .
(6) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (٥٣٨_ ٥٣٩) في (د) و(و) : (يثنيه) .
(7) أخرجه البخاري (٤٣٢٣) ومسلم (٢٤٩٨) عن أبي موسى الأشعري .
(8) أخرجه البخاري (٦٩٨) ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(9) الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص ٩٣) .

فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثاً ، وَلْيَسْتَعِذْ بِٱللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ثَلَاثاً ، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ ٱلَّذِي كَانَ عَلَيْهِ »[1] .

وكان إذا أخذ مضجعه . . استقبل بوجهه القبلة ، ووضع كفه تحت خده وقال : « رَبِّ ؛ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ ، اَللَّهُمَّ ؛ بِٱسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا » وإذا استيقظ . . قال : « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ »[2] .

فصل

فيما ذكر عنه صلى الله عليه وسلم في النكاح والتعطر

قال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : اَلنِّسَاءُ ، وَٱلطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[3] .

فأما النكاح . . فلم يزل التمادح به عند الفضلاء والعقلاء عادةً جاريةً وسنةً مأثورةً ، وحسبك في ذلك ما خص به صلى الله عليه وسلم من القوة والعدد مما سبق ذكره في قسم الخصائص ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : (خير هٰذه الأمة . . أكثرها نساءً)[4] مشيراً إليه صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ لم يره العلماء مما يقدح في الزهد ، قال سهل بن عبد الله : قد حببن إلىٰ سيد المرسلين ، فكيف نزهد فيهن ؟! وقد كان زهاد الصحابة رضي الله عنهم كثيري الزوجات والسراري ، وقد كره غير واحد أن يلقى الله تعالىٰ عزباً .

قال أنس : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدور علىٰ نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدىٰ عشرة بغسل واحد ، وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين)[5] .

وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم : « فُضِّلْتُ عَلَى ٱلنَّاسِ بِأَرْبَعٍ : بِٱلسَّخَاءِ ، وَٱلشَّجَاعَةِ ، وَكَثْرَةِ ٱلْجِمَاعِ ، وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ »[6] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٦٢) عن جابر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٤) عن حذيفة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٣٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٦٩) .

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٨) .

(٦) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٨١٢) عن أنس رضي الله عنه .

قالت عائشة رضي الله عنها : (ما أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من نسائه إلاَّ مقنعاً ؛ يرخي الثوب علىٰ رأسه ، وما رأيته منه ولا رآه مني)[1] . وأمر مَنْ بَنَىٰ بامرأة أن يأخذ بناصيتها ثم ليقل : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ »[2] ، وقال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ . . قَالَ : بِسْمِ ٱللهِ ، اَللَّهُمَّ ؛ جَنِّبْنَا ٱلشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ ٱلشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ . . لَمْ يَضُرَّهُ ٱلشَّيْطَانُ أَبَداً »[3] .

وكانت سيرته صلى الله عليه وسلم مع أزواجه : يلطف بهن ويلاطفهن ، ويحتمل منهن علىٰ وجه الغيرة ما يعظم خطره في حق غيرهن ، فربما تساخبن وتشاتمن بمحضره ومنظره[4] ، وربما اغتابت إحداهن الأخرىٰ فينهاها[5] ، وأهدت إليه أم سلمة قصعة من ثريد وهو عند عائشة ، فضربت عائشة يد الخادم فسقطت القصعة وانكسرت وتبدد الخبز ، فجعل صلى الله عليه وسلم يجمع الخبز ويقول : « غَارَتْ أُمُّكُمْ ، غَارَتْ أُمُّكُمْ » ثم حَبَسَ الرسولَ وأعطاه قصعةً غيرها[6] .

وسمر ليلةً معهن ، فقالت إحداهن : كأَنَّ الحديثَ حديثُ خرافةَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَتَدْرُونَ مَا خُرَافَةُ ؟ إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ رَجُلاً مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ، أَسَرَتْهُ ٱلْجِنُّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، فَمَكَثَ فِيهِمْ دَهْراً ، ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى ٱلإِنْسِ ، فَكَانَ يُحَدِّثُ ٱلنَّاسَ بِمَا رَأَىٰ فِيهِمْ مِنَ ٱلأَعَاجِيبِ ، فَقَالَ ٱلنَّاسُ : حَدِيثُ خُرَافَةَ »[7] .

وقال لعائشة : « كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ »[8] .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٧٤٠) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٢١٦٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) وفي (ب) : (تصاخبن) ، **والصخب والسخب** : بمعنى الصياح ، والصاد والسين يجوز في كل كلمة فيها خاء .

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٢١) عن عائشة رضي الله عنها ، والنهي أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥) عن أنس رضي الله عنه .

(٦) أخرجه البخاري (٥٢٢٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه .

(٧) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٧) عن عائشة رضي الله عنها .

(٨) أخرجه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨) عن عائشة رضي الله عنها .

وأما **الطيب**. . فقد كان صلى الله عليه وسلم طيب الجملة ، وطابت منه الفضلات التي تستقذر من غيره ، ومع ذلك فقد كان يتطيب ؛ ليُقتدَىٰ به ، وللقاء الملائكة ، ولأنه من أقوى الأسباب المعينة على الجماع .

قال أنس : (كنا نعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل بطيب ريحه)[1] ، وما عرض عليه طيب فرده ، وكان يطلب الطيب في جميع رِباع نسائه[2] .

وعن عائشة قالت : (كان أحب الطيب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . العود ، وكان يتبخر به مع الكافور)[3] .

وكان يتطيب بأطيب ما يجد عنده إذا أراد أن يحرم[4] ، وقال : « طِيبُ ٱلرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ ، وَطِيبُ ٱلنِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ »[5] وقال : « إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُكُمُ ٱلرَّيْحَانَ . . فَلاَ يَرُدَّهُ ؛ فَإِنَّهُ خَرَجَ مِنَ ٱلْجَنَّةِ »[6] .

وكان يتطيب بالغالية وبالمسك حتىٰ يرىٰ وبيصه في مفارقه .

وكان صلى الله عليه وسلم يكتحل بالإثمد عند النوم في كل عين ثلاثاً[7] ، وربما اكتحل ثلاثاً في اليمين واثنين في اليسار ، وربما اكتحل وهو صائم[8] ، وقال : « عَلَيْكُمْ بِٱلإِثْمِدِ ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو ٱلْبَصَرَ وَيُنْبِتُ ٱلشَّعَرَ »[9] ، وقال : « خَيْرُ أَكْحَالِكُمُ ٱلإِثْمِدُ »[10] .

وكان يكثر دهن رأسه ولحيته ، ويسرحها ، ويكثر القناع حتىٰ كأن ثوبه ثوب

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢٧٧٢) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٢٢٥) عن أنس رضي الله عنه .

(٢) **الرِّباع** : المنازل .

(٣) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٦/ ٢٤٢) ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٢٣٧) .

(٤) أخرجه مسلم (١١٩٠) عن عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه أبو داوود (٢١٧٤) ، والترمذي (٢٧٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) أخرجه الترمذي (٢٧٩١) عن عبد الرحمـٰن بن مُلّ رحمه الله تعالىٰ .

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٣٥٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٨) أخرجه ابن ماجه (١٦٧٨) عن عائشة رضي الله عنها .

(٩) أخرجه الترمذي (١٧٥٨) ، وابن ماجه (٣٤٩٥) .

(١٠) أخرجه أبو داوود (٣٨٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

زيات[1] ، ونهىٰ عن الترجل إلا غِبّاً[2] ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ادهن بزيت غير مُفَتَّتٍ)[3] .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب التيمن في ترجله وتنعله وطهوره ، وفي شأنه كله ، وكانت يمينه لطهوره وطعامه ، وكانت اليسرىٰ لخلائه وما كان من أذىً .

وكان صلى الله عليه وسلم ينظر وجهه في المرآة ، وربما نظر وجهه في الماء وسواه ، ويقول : « اَللَّهُمَّ ؛ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي . . فَأَحْسِنْ خُلُقِي »[4] ، « وَحَرِّمْ وَجْهِي عَلَى ٱلنَّارِ ، اَلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي سَوَّىٰ خَلْقِي فَعَدَلَهُ ، وَأَحْسَنَ صُورَتِي ، وَزَانَ مِنِّي مَا شَانَ مِنْ غَيْرِي »[5] .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يفارقه في أسفاره قارورة الدهن ، والمكحلة ، والمرآة ، والمشط ، والمقراض ، والسواك ، والخيوط[6] ، والإبرة .

وكان صلى الله عليه وسلم يغسل رأسه بالسدر ، ويخضبه بالحناء والكتم .

فصل

[في حثه صلى الله عليه وسلم على الحجامة وأمره بالتداوي]

وكان صلى الله عليه وسلم يحتجم في الأخدعين ، وبين الكتفين ، واحتجم علىٰ ظهر قدمه[7] وهو محرم ، وكان صلى الله عليه وسلم يحتجم لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدىٰ وعشرين ، وقال : « إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَدَاوَيْتُمْ بِهِ : ٱلْحِجَامَةُ »[8] .

ونهىٰ عن كسب الحجام غير مُحَرِّمِهِ ، وكان إذا احتجم أو أخذ من شعره أو ظفره . . بعث

---

(1) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (ص١١٦ـ١١٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(2) أخرجه الترمذي (١٧٥٦) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .
(3) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(4) أخرجه ابن حبان (٩٥٩) ، وأحمد (١/ ٤٠٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، في (د) و(و): (فَحَسِّنْ خُلُقِي) .
(5) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥) .
(6) في (أ) : (الحنوط) .
(7) في (ب) : (قدميه) .
(8) أخرجه البخاري (٥٦٩٦) ومسلم (١٥٧٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

به إلى البقيع فدفنه فيه[1] ، وروي : أن عبد الله بن الزبير شرب دم حجامته . . فلم ينكر ذلك عليه[2] .

وأمر صلى الله عليه وسلم بالتداوي وقال : « إِنَّ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ ٱلدَّاءِ . . بَرِىءَ بِإِذْنِ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[3] .

ونهىٰ عن التداوي بالخمر وقال : « لَيْسَ بِدَوَاءٍ ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ »[4] .

وقال : « إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ . . فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ ، أو شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ »[5] ، وبعث صلى الله عليه وسلم إلىٰ أبي بن كعب طبيباً ، فقطع منه عرقاً ، ثم كواه عليه[6] .

وقال : « ٱلْحُمَّىٰ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِٱلْمَاءِ »[7] .

وقال : « ٱلتَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ ٱلْمَرِيضِ ؛ تَذْهَبُ بِبَعْضِ ٱلْحُزْنِ »[8] ، وقد سبق قوله في القُسْط والحبة السوداء[9] .

وأكل معه عليّ تمراً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « مَهْ يَا عَلِيُّ ؛ فَإِنَّكَ نَاقِهٌ » فكف عنه عليّ ، ثم جيء إليهم بمطبوخ سِلْقٍ وشعير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا عَلِيُّ ؛ مِنْ هَـٰذَا فَأَصِبْ ، فَإِنَّهُ أَوْفَقُ لَكَ »[10] ودنا ليأكل معه مرة رطباً وهو أرمد ، فقال له

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢٦١٧٤ـ٢٦١٧٧) .

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في « الأحاديث المختارة » (٩/٣٠٩) ، والبزار في « مسنده » (٢٢١٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣٣٠) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤) عن جابر رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم (١٩٨٤) .

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٨٣) ومسلم (٢٢٠٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، **شرطة محجم** : شق الجلد بالمحجم ، وهو : الحديدة التي يُشرط بها موضع الحجامة ؛ ليخرج الدم ، **اللّذعة** : القليل من حرق النار .

(٦) أخرجه مسلم (٢٢٠٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البخاري (٣٢٦١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٨) أخرجه البخاري (٥٦٨٩) ، ومسلم (٢٢١٦) عن عائشة رضي الله عنها ، **والتلبينة** : حَساء يتخذ من نُخالة ولبن وعسل ، في (د) و(و): (تُذْهِب بعضَ) .

(٩) (ص ٤٨٢) القسط : العود الذي يُتبخر به .

(١٠) أخرجه الترمذي (٢٠٣٧) عن سلمىٰ بنت قيس رضي الله عنها ، **نَاقِهٌ** : قريب العهد بالشفاء ، **السِّلْق** : نبت يطبخ .

النبي صلى الله عليه وسلم : « أَتَأْكُلُ ٱلْحُلْوَ وَأَنْتَ أَرْمَدُ ؟! » فتنحىٰ عليّ ناحية ، فرمىٰ إليه النبي صلى الله عليه وسلم برطبة ، ثم أخرىٰ حتىٰ بلغ سبعاً ، ثم قال : « حَسْبُكَ ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ مِنَ ٱلتَّمْرِ مَا أُكِلَ وِتْراً »[1] .

فَصْلٌ

في صفة جلسته صلى الله عليه وسلم منفرداً ومع أصحابه

قال أبو سعيد الخدري : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس . . احتبىٰ بيده)[2] وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً ، فربما احتبىٰ بيديه ، وربما احتبىٰ بثوبه ، وفي حديث قَيْلة بنت مَخْرمة قالت : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو قاعدٌ القُرْفُصَاءَ ، فلما رأيته . . أُرعدت من الفرق[3] . . . وذكرت الحديث .

وفي حديث جابر بن سمرة : أنه صلى الله عليه وسلم تربع[4] .

قال أهل الغريب : (الحُبوة) : بضم الحاء وكسرها ، وقد تبدل الياء من الواو ، وهي : أن يعقد ثوباً علىٰ مجموع ظهره وركبتيه ، وربما احتبىٰ صلى الله عليه وسلم بيديه ، وربما عقده على الركبتين فقط ، و(القُرْفُصَاءُ) : بضم القاف والفاء مع المد ، وبكسرهما مع القصر ، وفسرها البخاري بالاحتباء باليد ، و(التربع) : أن يخالف قدميه بين يديه ، ويجلس علىٰ وركيه متوطئاً .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما استند إلىٰ جدار[5] أو سارية[6] ، وربما اتكأ علىٰ أحد جانبيه ، وربما استلقىٰ علىٰ قفاه ووضع إحدىٰ رجليه على الأخرىٰ[7] ، وفي حديث جبريل حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أنه أسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه كالمتشهد[8] .

---

(١) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص :٨٨) .
(٢) أخرجه أبو داوود (٤٨٤٦) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٤٨٤٧) .
(٤) أخرجه أبو داوود (٤٨٥٠) .
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .
(٦) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٧٣٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٧) أخرجه البخاري (٤٧٥) عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه .
(٨) أخرجه البخاري (٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال المؤلف فسح الله في مدته ، وغفرله زلته ، وأقال عثرته ، وتولى سيرته ، وأسكنه بحبوح جنته : دل مجموع هـٰذه الأحاديث علىٰ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس كيفما تيسر ، وعلىٰ حسب ما اتفق ، وأن أكثر جلوسه . . الاحتباء كما سبق ، فدل ذلك علىٰ أن الاحتباء من أمثل الجلسات المختارة في الوحدة والجماعات ، ولهـٰذا اختارها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عند حديثهم عنه كما ورد في « صحيح البخاري » : أن ابن عباس أمر ابنه علياً ومولاه عكرمة أن يقصدا أبا سعيد الخدري ليسمعا منه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءا وهو يعمل في حائط له ، فلما كلماه في ذلك . . ترك العمل ، واحتبىٰ ، وجعل يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

هـٰذا وقد كره قوم الحُبوة في مجالس الحديث والعلم وحال الأذان ، ومنهم الصوفية في حال السماع ، ولا أعلم له دليلاً بالنقل ، ولا مقبحاً من العقل .

نعم ؛ روىٰ أبو داوود : (أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن الحبوة يوم الجمعة والإمام يخطب)[٢] ثم روىٰ أبو داوود بعده عن شداد بن أوس قال : شهدت مع معاوية بيت المقدس ، فجمَّع بنا ، فنظرت ؛ فإذا جُلُّ من في المسجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيتهم محتبين والإمام يخطب .

قال أبو داوود : وكان ابن عمر يحتبي والإمام يخطب ، وأنس بن مالك وشريح وصَعْصَعَةُ بن صُوحان ، وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ومكحول وإسماعيل بن محمد بن سعد ونعيم بن سلامة ، قال : ولا بأس بها ، ولم يبلغني أن أحداً كرهها إلا عُبادة بن نُسَيٍّ[٣] .

قلت : وعلىٰ تقدير النهي ؛ فقد قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالىٰ في « شرح السنن » : إنما نهىٰ عنه في ذلك الوقت ؛ لأنه يجلب النوم ، ويعرض الطهارة للانتقاض ، فنهىٰ عن ذلك وأمر بالاستيفاز[٤] ، وقد تبعه النووي رحمه الله علىٰ ذلك فقال : لأنه يجلب

---

(١) البخاري (٤٤٧) .

(٢) أبو داوود (١١١٠) عن معاذ بن أنس رضي الله عنه .

(٣) أبو داوود (١١١١) .

(٤) معالم السنن (١/٢٤٨) .

النوم ، فيفوت استماع الخطبة ، ويخاف انتقاض الوضوء[1] ، فَفُسِّر النهي بذلك ، وقد تتبعت الكلام عليه فلم أجد للنهي فائدةً سوىٰ ذلك ، وهو اللائق الموافق ؛ فلم يكن صلى الله عليه وسلم يلازم ما يكره أو يقبح ، أو ما هو خلاف الأولىٰ أو الأدب ، وكأن مدار من كرهها على الاستحسان العرفي الذي يختلف الأمر فيه باختلاف البلدان والأزمان ، ولا معول عليه ؛ فإنه ربما استقبح أهل زمن أو بلد شيئاً وهو مستحسن عند غيرهم ، وقد يكون مما استحسنه الشارع صلى الله عليه وسلم وتكرر منه ، كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يردف خلفه على الحمار رجلاً في المدينة من غير سفر ولا مشقة ، ويركب الفرس عرياً ، ولو فعل هـٰذا في قطرنا آحاد الناس فضلاً عن الأعيان . . لاستنكر منهم .

والمستقبح حقيقةً : هو ما استقبحه الشارع صلى الله عليه وسلم ، وليس بدعاً أن يستنكر الناس ما خالف عاداتهم ؛ فقد صح في « صحيح مسلم » عن طاووس قال : قلنا لابن عباس : إنا لنراه جفاءً بالرجل ـ يعني الإقعاء في الجلوس بين السجدتين ـ فقال : بل هي سنة نبيك صلى الله عليه وسلم[2] .

وقد فهمت مما تقدم كيف كان الحال ، وأن لا دليل على الكراهة ، وأما الحديث المذكور في الاحتباء يوم الجمعة . . فقد سبق تأويل العلماء له ، وأن النهي ليس لنفس الحبوة ، ولذلك لم يقولوا : لأنها جلسة تكبر وتجبر ، بل قالوا : لأنها جلسة وطيئة قد تجلب النوم فتفوت استماع الخطبة التي يتحتم سماعها على الحاضرين ، مع أن الحديث في نفسه ليس مما يقطع بصحته ويغلب علىٰ صحاح الأحاديث ، وقد جعله الترمذي في حيز الحسان .

وقال بعض من قبح الحبوة : وإن كان قد ورد في الاحتباء أثر . . فإنما هو دليل الجواز ، وإذا تأملت ما تقدم صدر هـٰذا الفصل وقولَهم : كان أكثر جلوسه محتبياً . . فهمت خلل هـٰذا الكلام .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يفعل الواجب والمندوب والمباح ، ولا يفعل المحرم

---

(١) انظر « رياض الصالحين » (ص : ٥٤١) .
(٢) مسلم (٥٣٦) ، في (د) و(و) : (نبيكم) .

ولا المكروه ، فإن فعل شيئاً مما كره تنزيهاً . . فإنما يفعله مرةً لبيان الجواز ، وطريقة الإنصاف أن يقال بجواز استعمال الجلسات الواردة عنه صلى الله عليه وسلم ، لا يوصف منها شيء بكراهة إلا ما دل عليه دليل ، ويغلب منها ما كان غالب أحواله صلى الله عليه وسلم .

وأقرب الجلسات إلى التواضع : جلسة الجاثي علىٰ ركبتيه كهيئة المتشهد ، والله أعلم بالصواب .

وأما الآداب المذكورة في مجالس الحديث وأكثرها عن مالك وأصحابه . . فما أحسن استعمالها ، لكن في بعضها إفراط في التغليظ ، وقد كانت مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم معمورة بالوحي والتنزيل ، آهلةً بحضور جبريل وميكائيل ، ثم إن بها جماع الفوائد والمراشد مبنية علىٰ أكمل الآداب وأتم العوائد ، ومع ذلك فقد كان صلى الله عليه وسلم ربما قام من مجلسه ؛ لورود من يتأهل للقيام ، وربما عرض بعض الجفاة في مجلسه بكلام ينافي آداب مجالسه ، فلم يعنفه ، وربما كان في كلام متسق فعرض غيره فقطع كلامه ، حتىٰ ورد أن قتلة ابن أبي الحقيق اليهودي انتهوا إليه وهو في خطبة الجمعة ، فأقبل عليهم يسألهم ، ثم عاد إلىٰ خطبته ، وأن الحسن والحسين رضي الله عنهما جاءا وهو يخطب الناس وعليهما قميصان ، وهما يعثران ويقومان ، فنزل صلى الله عليه وسلم وضمهما إليه ثم قال معتذراً عن ذلك : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ صَدَقَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي حِينَ رَأَيْتُ هَـٰذَيْنِ ٱلْوَلَدَيْنِ يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ ، حَتَّىٰ فَعَلْتُ بِهِمَا ٱلَّذِي رَأَيْتُمْ »[1] .

وقد كانت أموره صلى الله عليه وسلم كلها مبنية على القصد والاعتدال ؛ لا إفراط ولا تفريط ؛ وقال : « خَيْرُ ٱلأُمُورِ أَوْسَطُهَا »[2] « وَبُعِثْتُ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَةِ »[3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ .

والمعول على الآداب القلبية وصلاح النية ، وكل شيء بعدها مغتفر ، والله ولي التوفيق .

---

(١) أخرجه أبو داوود (١١٠٩) عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٢٧٦) عن مطرف رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه .



في صفة نطق رسول الله صلى الله عليه وسلم وفصاحته وسكوته

قالت عائشة رضي الله عنها : (ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم هـٰذا ، ولكنه كان يتكلم بكلام بيِّنٍ فصل ، يحفظه من جلس إليه)(١) ، وعن أنس قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثاً ؛ لتعقل عنه ، وإذا أتىٰ قوماً . . سلم عليهم ثلاثاً)(٢) ، وقال أبو الدرداء : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدث بحديث . . تبسم في حديثه)(٣) .

وفي حديث هند بن أبي هالة : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة ، طويل السَّكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلام ، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافي ولا المَهين ، إذا أشار . . أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب . . قلبها ، وإذا تحدث . . اتصل بها فضرب براحته اليمنىٰ بطن إبهامه اليسرىٰ)(٤) ، وفيه أيضاً : (كان سكوته صلى الله عليه وسلم علىٰ أربع : على الحلم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ، فأما تقديره . . ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره . . ففي ما يبقىٰ ويفنىٰ)(٥) .

وأما فصاحته صلى الله عليه وسلم : فمن تأمل حديثه وسيره وجوامع كلمه وأدعيته وبديهات خطبه ومخاطباته مع وفود العرب على اختلاف لغاتها ، وجواب كل منهم علىٰ نحو لغته ، ومنزع بلاغته . . علم ذلك ضرورةً وحققه معرفةً وكذلك كمل الله له ولجميع الأنبياء عليهم السلام الجوارح البدنية كما أتم لهم المحاسن المعنوية .

---

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١/٣٢٣) ، وأصل الحديث أخرجه البخاري (٣٥٦٨) ، ومسلم (٢٤٩٣) .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في « أخلاق النبي وآدابه » (٢٠٤) ، وأصل الحديث أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/٢٧٣) ، والترمذي (٣٦٤٠) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/١٩٩) عن أم الدرداء رضي الله عنها .

(٤) أخرجه الترمذي في « الشمائل » (٣٦٣ـ٣٦٩) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/١٥٦) .

(٥) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/١٥٩) .

من ذلك : ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يرىٰ من خلفه كما يرىٰ من بين يديه ، وبه فسر قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يستوي في نظره الضوء والظلمة ، وأنه كان يرىٰ من الثريا أحد عشر نجماً ، وكان موسىٰ صلى الله عليه وسلم بعد تجلي الله له يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ ، وصارع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركانة وكان أشد أهل وقته فصرعه ، وصارع أبا ركانة ثلاث مرات كل ذلك يصرعه صلى الله عليه وسلم .

فَصْلٌ

في صفة ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكائه وعلامة رضاه وسخطه

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضحك ، وجل ضحكه التبسم ، وغايته : أن تبدو نواجذه ، قالت عائشة : (ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتىٰ أرىٰ منه لهواته ، إنما كان يتبسم)(١) وسبق من حديث ابن أبي هالة : أنه كان يفترّ عن مثل سنا البرق، أو عن مثل حب الغمام ـ وهو البرد ـ وكان يرىٰ كالنور يخرج من بين ثناياه(٢) .

وأما بكاؤه صلى الله عليه وسلم . . فثبت عن عبد الله بن الشخير قال : (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء)(٣) ، وعن عبد الله بن مسعود قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِقْرَأْ عَلَيَّ » فقلت : يا رسول الله ؛ أقرأ عليك وعليك أنزل ؟! قال : « إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأت (سورة النساء) حتىٰ بلغت : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال : « حَسْبُكَ ٱلْآنَ » فالتفت ، فرأيت عينيه تهمِلان صلى الله عليه وسلم)(٤) .

وفي حديث الاستسقاء : أنه صلى الله عليه وسلم سجد ، فجعل ينفخ ويبكي ويقول :

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٢) ، **مستجمعاً ضاحكاً** : مبالغاً في الضحك .

(٢) ص (٤٣٥) .

(٣) أخرجه النسائي (١٢١٤) ، **الأزيز** : صوت من البكاء .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٢٥) .

« يَا رَبِّ ؛ أَلَمْ تَعِدْنِي أَلاَّ تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ ؟! أَلَمْ تَعِدْنِي أَلاَّ تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ؟! وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ »[١] .

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم بكىٰ عندما رُفع إليه ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه ، وعند موت ابن ابنته ، وعند تقبيله لعثمان بن مظعون وهو ميت ، وعند نعي أصحابه أهل غزوة مؤتة ، وكله من غير صوت .

وروي أنه لما أصيب زيد بن حارثة . . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ منزله ، فلما رأته ابنته أجهشت في وجهه ، فانتحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض أصحابه : ما هٰذا يا رسول الله ؟! فقال : « هَٰذَا شَوْقُ ٱلْحَبِيبِ إِلَىٰ حَبِيبِهِ »[٢] .

وأما علامة رضاه صلى الله عليه وسلم : فكان إذا سُرَّ . . استنار وجهه حتىٰ كأنه قطعة قمر[٣] ، وتبرق أسارير وجهه سروراً .

وأما علامة سخطه . . ففي حديث وصف ابن أبي هالة : أنه صلى الله عليه وسلم كان بين حاجبيه عرق يدره الغضب ، وأنه كان إذا غضب . . أعرض وأشاح بوجهه ، وإذا فرح . . غض طرفه ، وأنه كان يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يُؤْيس منه[٤] .

وفي غيره : أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا غضب . . احمر وجهه[٥] حتىٰ كأنه الصِّرف ، وربما خسف لونه واسود ، ويكثر عند غضبه من مس لحيته ، وعن عليّ كرم الله وجهه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأىٰ ما يكره . . قال : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ » وإذا رأىٰ ما يسره . . قال : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ ٱلصَّالِحَاتُ »[٦] .

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٠٠٩) ، والترمذي في « الشمائل » (ص٥٣٠ـ ٥٣١) وذلك عند انكساف الشمس .
(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٤٤) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٦) عن كعب بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٥٦ـ ١٥٨) .
(٥) أخرجه البخاري (٩١) عن زيد بن خالد رضي الله عنه .
(٦) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣) عن عائشة رضي الله عنها .

فصل

في صفة لباسه صلى الله عليه وسلم

الإزار ، والقميص ، والرداء ، والعمامة ، والخاتم ، والنعل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجد ثوباً . . لبسه يوم الجمعة ، ثم يسميه باسمه ؛ عمامةً أو قميصاً أو إزاراً أو رداءً ، ثم يقول : « اَللَّهُمَّ ؛ لَكَ ٱلْحَمْدُ كَمَا كَسَوْتَنِيهِ ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ »[1] .

وكان إذا اتَّزر . . يضع صَنَفة إزاره علىٰ فخذه اليسرىٰ[2] ، وكان إزاره إلىٰ نصف ساقيه ، قال حذيفة بن اليمان : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بِعَضَلَةِ ساقي أو ساقه فقال : « هَـٰذَا مَوْضِعُ ٱلإِزَارِ ، فَإِنْ أَبَيْتَ . . فَأَسْفَلَ ، فَإِنْ أَبَيْتَ . . فَلاَ حَقَّ لِلإِزَارِ فِي ٱلْكَعْبَيْنِ »[3] .

وكان قميصه فوق الكعبين مطلق الأزرار ، وكمه إلى الرسغ ، وكان يتقنع بردائه ، وربما خالف بين طرفيه علىٰ عاتقه الأيسر ، وكان إذا اعتم . . يدير كور العمامة علىٰ رأسه ويغرسها من ورائه ، ويرخي لها ذؤابةً بين كتفيه .

وكان يتختم في يمينه ويقول : « اَلْيَمِينُ أَحَقُّ بِٱلزِّينَةِ مِنَ ٱلشِّمَالِ » وكان يجعل فص الخاتم في باطن كفه ، وربما تختم في شماله .

وكان يبدأ في لبس نعليه وخفيه باليمين ، وفي الخلع باليسار ، ونهىٰ عن المشي في نعل واحدة أو خف واحد ، وأن ينتعل الرجل قائماً .

فصل

[في هديه صلى الله عليه وسلم في الحلق]

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحفاء الشوارب وإعفاء اللحىٰ ، فكان يجز شاربه ، ويقلم ظفره ، ويحلق عانته ، ويتحرىٰ لذلك يوم الجمعة ، ووقّت لهم في ذلك ألاَّ يتركوا

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٠٢٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) انظر « الكامل في ضعفاء الرجال » (٣/ ٢٢٥ـ٢٢٦) .

(٣) أخرجه الترمذي (١٧٨٣) ، **عضلة الساق** : المحل الضخم منه .

أكثر من أربعين يوماً ، وكان إذا احتجم أو أخذ من شعره أو من ظفره . . بعث به إلى البقيع فدفنه[1] .

فصل

[في هديه صلى الله عليه وسلم في حلق رأسه ونهيه عن القزع]

ولم يحلق صلى الله عليه وسلم رأسه إلا لحج أو عمرة ، ووفَّر في سائر أحواله ، فالحلق وإن كان مباحاً على الجملة . . فالتوفير أفضل منه ، ولم يكن عادتهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم الحلق إلا للأطفال ، وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في وصف الخوارج أنه قال : « سِيمَاهُمُ ٱلتَّحْلِيقُ »[2] وقد صار الغالب على القضاة والفقهاء والأعيان في هٰذه الأعصار في كثير من الأمصار الحلق ، وهو خارج عن نمط التسنن .

وأما ما اعتاد الناس أخذه من جانبي الوجه ، وهو الذي يسمى التحذيف ، ومنهم من يديره على الرأس كله . . فهو عادة سيئة وبدعة قبيحة ، إن لم يكن حراماً . . كان مكروهاً ؛ فقد صحح العلماء : أن موضع التحذيف من الرأس ، وصح : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهىٰ عن القزع[3] ، وأنه رأىٰ صبياً قد حلق بعض شعره وترك بعضه فقال : « اِحْلِقُوهُ كُلَّهُ ، أَوِ ٱتْرُكُوهُ كُلَّهُ »[4] ، وقد قال النووي رحمه الله تعالىٰ في « رياض الصالحين » :

باب **النهي عن القزع** : وهو حلق بعض الرأس دون بعض ففسره بذلك ، وأما ما أفتىٰ به الشيخ برهان الدين العلوي رحمه الله تعالىٰ بأنه لا بأس به للمتزوج ، وكأنه أدخله في باب تحسن الرجل لزوجته وجوزه لهٰذا المعنىٰ . . فلا يتابع علىٰ ذلك ، ولا دليل له ؛ فإن النساء هن اللاتي محل التحسين والتطرية للحسن ، وأبيح لهن في ذلك ما لا يباح للرجال ؛ فقد نهين عن الزيادة في شعورهن ، أو أخذ شيء منها لاجتلاب الحسن ؛ فصح في الصحاح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ ٱللهُ ٱلْوَاصِلَةَ وَٱلْمُسْتَوْصِلَةَ »[5] وأنه لعن الواشمات

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦١٧٥) .

(2) أخرجه البخاري (٧٥٦٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(3) أخرجه البخاري (٥٩٢٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(4) أخرجه أبو داوود (٤١٩٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(5) أخرجه البخاري (٥٩٣٥) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما .

والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله تعالىٰ[1] ، فإذا تقرر عندك ذلك . . فهمت أن الأجزاء الخلقية لا يقدم علىٰ تغيير شيء منها بمثل هـٰذا الخيال الفاسد ، مع أنه قد قام الدليل على المنع من حلق البعض وترك البعض ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا . . فَهُوَ رَدٌّ »[2] ونهىٰ عن نتف الشيب وتغييره بالسواد تطرية للحسن وإيهاماً للشباب ، وأمر بتغييره بالصفرة والحمرة ؛ لأنهما وإن غيرا لونه . . فقد أفهما أن ثَمَّ شيباً .

فَصْلٌ

[في هديه صلى الله عليه وسلم في العطاس وجملة من العادات]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس . . وضع يده أو ثوبه علىٰ فيه ، وخَفَض أو غَضَّ بها صوته ، وحمد وقال : « إِذَا تَثَاوَبَ أَحَدُكُمْ . . فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَىٰ فِيهِ ؛ فَإِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَدْخُلُ »[3] وقال : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ ٱلْعُطَاسَ ، وَيَكْرَهُ ٱلتَّثَاؤُبَ ، فَإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ ٱللهَ تَعَالَىٰ . . كَانَ حَقّاً عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ سَمِعَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ ، وَأَمَّا ٱلتَّثَاؤُبُ . فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ؛ فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ . . فَلْيَرُدَّهُ مَا ٱسْتَطَاعَ ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَثَاءَبَ . ضَحِكَ مِنْهُ ٱلشَّيْطَانُ » رواه البخاري[4] وفي رواية فيه : « فَلْيَقُلْ ـ يعني العاطس لمن يشمته ـ : يَهْدِيكُمُ ٱللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ »[5] .

وكان صلى الله عليه وسلم يتوكأ على العصا ، وقال : « اَلتَّوَكُّؤُ عَلَيْهَا مِنْ أَخْلَاقِ ٱلأَنْبِيَاءِ »[6] وربما اتكأ علىٰ غيره لضرورة ، ولا ينفك من عصاً يحملها معه ، فربما حمل عسيباً أو عرجوناً أو عنزةً أو محجناً .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة[7] ، ويقول : « مَا مِنَّا إِلاَّ مَنْ يَجِدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٣١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٢) أخرجه مسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها .
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٥) عن سعد بن مالك رضي الله عنه .
(٤) البخاري(٦٢٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) البخاري(٦٢٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) انظر« الأسرار المرفوعة » (١٧٩) .
(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّ ٱللهَ يُذْهِبُهُ بِٱلتَّوَكُّلِ »[1] وكان إذا جاءه ما يحب . . قال : « ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » وإذا جاءه ما يكره . . قال : « ٱلْحَمْدُ لِلهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ »[2] .

وكان صلى الله عليه وسلم يتمثل بالشعر[3] ، ويستنشده من غيره ويستزيده[4] .

وكان إذا أهمه أمر . . رفع رأسه إلى السماء فقال : « سُبْحَانَ ٱللهِ ٱلْعَظِيمِ » وإذا اجتهد في الدعاء . . قال : « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ »[5] وإذا استصعب عليه أمر . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ لاَ سَهْلَ إِلاَّ مَا جَعَلْتَهُ سَهْلاً ، وَأَنْتَ تَجْعَلُ ٱلْحَزْنَ إِذَا شِئْتَ سَهْلاً »[6] ، وقال : « مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا عَسِرَ عَلَيْهِ أَمْرُ مَعِيشَتِهِ أَنْ يَقُولَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ : بِٱسْمِ ٱللهِ عَلَىٰ نَفْسِي وَمَالِي وَدِينِي ، اَللَّهُمَّ رَضِّنِي بِقَضَائِكَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا قَدَّرْتَ لِي ؛ حَتَّىٰ لاَ أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ ، وَلاَ تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ »[7] .

وكان صلى الله عليه وسلم يعوِّذ الحسن والحسين : « أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ ٱللهِ ٱلتَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ » ويقول لهما : « إِنَّ أَبَاكُمَا ـ يعني إبراهيم ـ كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ »[8] صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خاف أن يصيب شيئاً بعينه . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ فِيهِ وَلاَ تَضُرَّهُ »[9] وقال : « مَا أَنْعَمَ ٱللهُ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً فِي أَهْلٍ وَمَالٍ وَوَلَدٍ فَقَالَ : مَا شَاءَ ٱللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ، فَيَرَىٰ فِيهَا آفَةً دُونَ ٱلْمَوْتِ »[10] ، وقال : « إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يُعْجِبُهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ . فَلْيُبَرِّكْ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ ٱلْعَيْنَ حَقٌّ »[11] .

---

(١) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١٧) ، وأبو داوود (٣٩١٠) ، والترمذي (١٦١٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٦٦٣) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٤٨) عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٥٥) عن الشريد بن سويد رضي الله عنه .
(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه المقدسي في « الأحاديث المختارة » (١٦٨٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٧) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٦٣٤٦) ، والطبراني في « الدعاء » (١/ ١٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٨) أخرجه البخاري (٣٣٧١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والترمذي(٢٠٦٠) واللفظ له .
(٩) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (ص١٧١) عن سعيد بن حكيم .
(١٠) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٩٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(١١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٧) .

وكان صلى الله عليه وسلم يؤتىٰ بالصبيان حين يولدون ، فيحنكهم بريقه مع التمر ، ويدعو لهم ، ويسميهم ، وأمر بتسمية المولود يوم سابعه ، ووضع الأذىٰ عنه ، والعَقِّ ، قال العلماء : السنة لمن أراد العق أن يؤخر التسمية ولغيره تقديمها ؛ جمعاً بين الأحاديث ، وذكر : أنه صلى الله عليه وسلم عق عن نفسه بعد النبوة(١) .

فَصْلٌ
في مزاحه صلى الله عليه وسلم

قال العلماء : المزاح فيه مباح ومذموم ، فالمذموم : ما دووم عليه وكان فيه إفراط في الضحك ؛ فإن كثرته تقسي القلب ، وتؤذن بالغفلة ، وتسقط المهابة والوقار ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تُمَارِ أَخَاكَ ، وَلاَ تُمَازِحْهُ ، وَلاَ تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ »(٢) .

وأما المباح . . فهو : ما كان على الندور لتطييب نفس وإيناس ، ويلحق بالطاعات ومكارم الأخلاق بحسب المقاصد ، وكذلك كان مزاحه صلى الله عليه وسلم .

روينا في « كتاب الترمذي » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إنك تداعبنا ؟ قال : « إِنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقّاً »(٣) فمن ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم لأخي أنس وكان له نغير يلعب به فمات فحزن عليه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « يَا أَبَا عُمَيْرٍ ؛ مَا فَعَلَ ٱلنُّغَيْرُ »(٤) ، وكان يقول لأنس : « يَا ذَا ٱلأُذُنَيْنِ »(٥) .

وأتاه رجل يستحمله فقال : « إِنِّي حَامِلُكَ عَلَىٰ وَلَدِ ٱلنَّاقَةِ » فقال : يا رسول الله ؛ وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ تَلِدُ ٱلإِبِلَ إِلاَّ ٱلنُّوقُ ؟! »(٦) .

---

(١) أخرجه المقدسي في « المختارة » (١٨٣٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٩٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) الترمذي (١٩٩٠) .
(٤) أخرجه البخاري (٦٢٠٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٥) أخرجه أبو داوود (٥٠٠٢) ، والترمذي (١٩٩٢) .
(٦) أخرجه الترمذي (١٩٩١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وجاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ؛ إن زوجي مريض ، وهو يدعوك ، فقال : « لَعَلَّ زَوْجَكِ ٱلَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بَيَاضٌ » فأخبرت زوجها فقال : ويحك! وهل أحد إلاَّ وفي عينيه بياض ؟![1] .

وجاءته أخرىٰ فقالت : يا رسول الله ؛ ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : « يَا أُمَّ فُلاَنٍ ؛ لاَ تَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ عَجُوزٌ » فولت المرأة وهي تبكي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لاَ تَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ وَهِيَ عَجُوزٌ ؛ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۞ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ »[2] قالت عائشة رضي الله عنها : سابقته صلى الله عليه وسلم أولاً فسبقته ، فلما كثر لحمي . . سابقته فسبقني ، فضرب كتفي وقال : « هَٰذِهِ بِتِلْكَ »[3] .

وكان رجل من أهل البادية اسمه زاهر بن حِزام ، وكان قصيراً جداً ، وكان يهدي للنبي صلى الله عليه وسلم من طُرف البادية ، فيجهزه بمثلها من الحاضرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ زَاهِراً بَادِيَتُنَا وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ » وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويداعبه ، فجاء يوماً وهو يبيع متاعاً له في السوق ، فاحتضنه من خلفه ووضع يده علىٰ عينيه ، فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم . . جعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي هَٰذَا ٱلْعَبْدَ » فقال الرجل : يا رسول الله ؛ إذاً تجدني كاسداً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَكِنَّكَ عِنْدَ رَبِّكَ لَسْتَ بِكَاسِدٍ »[4] .

ووجد الحسين بن علي رضي الله عنهما مع الصبيان ، فطلبه ، وجعل الحسين يفر هٰهنا وهٰهنا وهو يضاحكه ، حتىٰ أخذه ، فجعل إحدىٰ يديه تحت ذَقَنه والأخرىٰ فوق رأسه[5] .

---

(١) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص١٠٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٢٤٠) .
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٢٧٤) .
(٤) أخرجه المقدسي في « المختارة » (١٨٠٥) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٥٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٥) أخرجه ابن حبان (٦٩٧١) .

وكان ربما دخل علىٰ عائشة والجواري عندها . . فينقمعن منه ، فَيُسَرِّبُهنَّ إليها[1] ، وقال لها يوماً وهي تلعب بلعبها : « مَا هَـٰذَا يَا عَائِشَةُ ؟ » قالت : خيل سليمان بن داوود ، فضحك[2] ، وطلب الباب فابتدرته واعتنقته ، وكان ربما أدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي حمرة لسانه فَيَهَشُّ إليه .

وأكل صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه تمراً ، فجاء صهيب وقد غطىٰ علىٰ عينه وهو أرمد ، فسلم وأهوىٰ في التمر يأكل ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تَأْكُلُ ٱلْحُلْوَ وَأَنْتَ أَرْمَدُ ؟! » فقال : يا رسول الله ، صلى الله عليك ؛ إنما آكل بشق عيني الصحيحة ، فضحك صلى الله عليه وسلم[3] .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمازحون بالقول والفعل ، فربما تراموا بالبطيخ ، وتحاملوا الحجر لاختبار قوتهم .

فَصْلٌ

[في هديه صلى الله عليه وسلم في اللهو المباح]

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بملاعبة الزوجة ، والولد ، وتأديب الفرس ، وتعلم الرمي والسباحة ، وحث علىٰ ذلك ، ورخص في اللعب بالدف للعرس والعيد ، وقرر الجواري على اللعب بالأُرْجُوحة ، والتلعب بالبنات لعلة التدريب ، وقرر الحبشة أيضاً علىٰ لعبهم بالحراب والدَّرَقِ في المسجد ، وقام طويلاً يستر عائشة وهي تنظر إليهم ، فلما ملَّتْ . . قالت : حسبي ، قال : « فَٱذْهَبِي إِذَنْ »[4] .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٠) ، ومسلم (٢٤٤٠) عن عائشة رضي الله عنها ، **ينقمعن** : يتغيبن ، **يسربهن** : أي يرسلهن واحدة بعد أخرىٰ .

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٩٣٢) عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ مدينة دمشق » (٢٤/ ٢٣٠) .

(٤) أخرجه البخاري (٩٥٠) عن عائشة رضي الله عنها .

الباب الثاني

في الأخلاق المعنويات

التي حمدت شرعاً وعقلاً ، وشرف المتخلق بها أو بالواحد منها عرفاً وعادةً ، كالعلم والحلم والصبر والشكر ، والعدل والزهد والتواضع ، والعفو والعفة ، والجود والشجاعة ، والحياء والمروءة ، والصمت والتؤدة ، والوقار والرحمة ، وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها ، وهي التي جماعها : حسن الخلق الذي عظمه الله تعالىٰ من نبيه ، وأصلها : العقل الذي يحمل صاحبه على اقتناء الفضائل وتجنب الرذائل ، وبه ظهر شرف الحيوان الإنساني علىٰ سائر الحيوانات ، وبتفاوته تفاوتت درجات الرجال ، وقد نزل النبي صلى الله عليه وسلم منه منزلة لا يقدر قدرها ، ولا يرام سبرها ، قال وهب بن منبه : قرأت في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها : أن الله تعالىٰ لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل بين رمال الدنيا .

فصل

[في أنه صلى الله عليه وسلم كان مجبولاً على الأخلاق الحميدة]

اعلم : أن الأخلاق الحميدة تكون غريزية ومكتسبةً ، ومع الاكتساب لا بد أن يكون في أصل الجبلة شعبة من أصولها ، فتكون جالبة لبقيتها ، ثم إنها قد تكون دنيويةً إذا لم يرد بها وجه الله ، ولكنها تعد محاسن علىٰ كل حال ، باتفاق العقلاء ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محتوياً علىٰ كمالها ، مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته ، وكذلك سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يحصلوها بممارسة ولا رياضة ، بل بجود إلـٰهي وخصوصية ربانية .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ : وقد نجد غيرهم يطبع علىٰ بعض هـٰذه الأخلاق دون جميعها ، ويولد عليها فيسهل عليه اكتساب تمامها ؛ عنايةً من الله تعالىٰ ، كما نشاهد من خَلْقة بعض الصبيان علىٰ حسن السمت والشهامة وصدق اللسان والسماحة ، وكما نجد

بعضهم علىٰ ضدها ، فبالاكتساب يكمل ناقصها ، وبالرياضة والمجاهدة يُستجلب معدومها ويعتدل منحرفها ، وباختلاف هاذين الحالين يتفاوت الناس فيها[1] ، وكل ميسر لما خلق له ، وهاذا حين أذكرها مفصلةً من نبينا صلى الله عليه وسلم .

فصل

في علمه وحلمه واحتماله وعفوه وصبره صلى الله عليه وسلم

أما العلم . . فقال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

كلت الألسن عن وصف قدر منحته من العلم ، وأمر بسؤال الزيادة عليها ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قال القاضي رحمه الله تعالىٰ : ولما كان ما كاشفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا تُحيط به العبارات ولا تستقل بحمل سماع أدناه العقول . . رَمَزَ عنه تعالىٰ بالإيماء والكناية الدالة على التعظيم فقال : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ وقال في قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ : انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحىٰ ، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرىٰ[2] .

قال المؤلف كان الله له : وإذا أردت أن تعلم مكانته صلى الله عليه وسلم من العلم . . فانظر إلىٰ ما تضمنته شريعته من الأصول والفروع ، ودقائق الأحكام ، وأسرار المعاني التي جُهل وجه الحكمة في أكثرها ، ولزم الخلق الانقياد لها والتسليم فقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ ، إلىٰ علمه صلى الله عليه وسلم بكتب الله القديمة ، وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية ، وفنون العلم الثابتة كالعبارة والطب والحساب والفرائض والنسب وغير ذلك مما قدمنا الإشارة إليه في باب المعجزات .

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة والصبر علىٰ ما يكره ، ومعانيها متقاربة ، وهي مما تلقاها صلى الله عليه وسلم عن أمر ربه بالقبول والإقبال وبلغ فيها أعلىٰ درجات

---

(١) الشفا (ص : ١٤٤ ـ ١٤٥) .

(٢) الشفا (ص : ٧٩) .

الكمال ، فقال تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

روي : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه . . سأل جبريل عن تأويلها ، فقال له : حتىٰ أسأل العالِم ، ثم ذهب فأتىٰ فقال : يا محمد ؛ إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فغير خافٍ علىٰ من تأمل أحواله وأقواله وحققها معرفةً أنه صلى الله عليه وسلم قد نزل من هٰذه الأخلاق منزلة لا ترتقىٰ ، وامتطىٰ منها مطية لا تمتطىٰ ، وأنه كان لا تستخفه كثرة الأذىٰ ولا طيش الجهلاء ، ومن بعض كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي بكىٰ به النبي صلى الله عليه وسلم : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؛ لقد دعا نوح علىٰ قومه فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ولو دعوت علينا مثلَها . . لهلكنا من عند آخرنا ، فلقد وُطىء ظهرُك وأُدمي وجهُك وكُسرت رَباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلتَ : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »[2] .

فصل

[في جوده وكرمه وسماحته صلى الله عليه وسلم]

وأما جوده وكرمه وسخاؤه وسماحته صلى الله عليه وسلم وبين هٰذه الألفاظ فروق لطيفة ، ويجمعها : بذل المال علىٰ وجه التكرم ، وغير مدافع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خص من هٰذه الأخلاق بأتمها وأعمها وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا ، واشتهرت الأخبار بجوده وعطاياه في يوم حنين المئين من الإبل ، ورده يومئذٍ علىٰ هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف رأس ، وأعطى العباس عمه من الذهب ما لم يطق حمله ، وأعطىٰ رجلاً سأله غنماً بين جبلين فرجع إلىٰ قومه فقال : أسلموا ؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعت علىٰ حصير ، فما قام وثَمَّ منها درهم ، والأخبار بذلك واسعة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ ٱلْأَخْلَاقِ »[3] .

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (٦/ ١٩٣) ، و« الشفا » (ص١٤٧ ـ ١٤٨) .

(٢) انظر « الشفا » (ص١٤٩) .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فصل

في شجاعته ونجدته صلى الله عليه وسلم

لا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم قد كان أشجع الناس ، وأشدهم شكيمةً ، وأنه قد شهد جملةً من الحروب وأبلىٰ فيها ، وحفظت لكل من كماة أصحابه جولة سواه ، قال عليّ كرم الله وجهه : (كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق . . اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ به وهو أقربنا إلى العدو)[2] ، وقال أنس بن مالك : (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلةً ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً ؛ قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر علىٰ فرس لأبي طلحة عُرْي ، والسيف في عنقه وهو يقول : « لَنْ تُرَاعُوا »[3] ، وقصة قتله لأبي بن خلف مبينةٌ عن ثبات قلبه وقوة جأشه ، وقد سبق ذكرها في قسم السير[4] .

فصل

[في حيائه وإغضائه صلى الله عليه وسلم]

وأما حياؤه وإغضاؤه صلى الله عليه وسلم . . فقد كان أشد الناس حياءً ، وأكثرهم عن العورات إغضاءً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها ، وكان إذا كره شيئاً . . عرفناه في وجهه)[5] .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكره[6] ، ولا يثبت بصره في وجه أحد[7] ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٦) عن علي رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨٦) عن علي رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٣) .
(٤) (ص ١٦٦).
(٥) أخرجه البخاري (٣٥٦٢) ، ومسلم (٢٣٢٠) واللفظ له .
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٣) .
(٧) انظر « الشفا » (ص١٦٢) ، و« فيض القدير » (٥/ ١٩١) .

خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة[1] ، وكان يكني عما اضطره الكلام إليه مما يستحيى من ذكره ؛ كقوله : « تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ ٱلدَّمِ »[2] في نظائر له كثيرة ، قالت عائشة : (ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط)[3] .

فَصْلٌ

في حسن عشرته صلى الله عليه وسلم لأصحابه وحسن أدبهم معه

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس كرامةً لأصحابه ، يُؤلِّفهم ولا يُنفِّرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويُولِّيه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشره ولا خُلقه ، ويعطي كل جلسائه نصيبه ؛ حتىٰ لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، مَنْ جالسه أو قارَبَهُ لحاجةٍ . . صابره حتىٰ يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجةً . . لم يرده إلاَّ بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناسَ بسطه وخُلقُه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده في الحق سواءً ، بهٰذا وصفه ابن أبي هالة ، قال : وكان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ[4] ، وبذلك وصفه ربه فقال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وكان صلى الله عليه وسلم يمازحهم ، ويخالطهم ، ويداعب صبيانهم ويُجلسهم في حجره ، ويعود مرضاهم ، ويشهد موتاهم ، ويقبل عذر المعتذر منهم ، ويكنيهم ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم[5] ، ويقبل هداياهم ويكافىء عليها[6] ، ويجيب من دعاه إلىٰ طعام أو وليمة ويذهب إليها ، وكان يشيع مسافرهم ويودعهم ويوصيهم ، ويتلقىٰ قادمهم ، وإذا قدم من سفر . . تُلُقِّيَ بصبيان أهل بيته فيحملهم بين يديه وخلفه .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/١٥٦) .
(٢) أخرجه البخاري (٣١٤) عن عائشة رضي الله عنها .
(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٢٢) ، وأحمد (٦/ ١٩٠) عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) انظر « الشفا » (ص١٦٣) .
(٥) انظر « الشفا » (١٦٤ ـ ١٦٥) .
(٦) أخرجه البخاري (٢٥٨٥) عن عائشة رضي الله عنها .

وكان يتجمل لأصحابه فضلاً عن تجمله لأهله ؛ فإذا أراد أن يخرج إليهم . . نظر في الماء أو المرآة ، وسوّىٰ شعره ، وعدل عمامته ويقول : « إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلَ »[1] .

وكان يتفقد أصحابه ، فمن خاف أن يكون وجد في نفسه شيئاً . . قال : « لَعَلَّ فُلاَناً وَجَدَ عَلَيْنَا فِي شَيْءٍ أَوْ رَأَىٰ مِنَّا تَقْصِيراً ، اِذْهَبُوا بِنَا إِلَيْهِ » فينطلق إلىٰ منزله[2] .

وكان ينزل الناس منازلهم ، فيكرم أهل الشرف من غير تقصير في حق غيرهم ، وكان لا يدع أحداً يمشي ولا يجلس خلفه ويقول : « خَلُّوا ظَهْرِي لِلْمَلاَئِكَةِ »[3] .

ولا يمد رجليه بينهم ، ويوسع عليهم إذا ضاق المكان ، ولا يقدم ركبتيه أمام ركبهم ولا يدع أحداً منهم يمشي معه وهو راكب حتىٰ يحمله ، فإن أبىٰ . . قال : « تَقَدَّمْنِي » إلى المكان الذي يريده[4] ، وركب صلى الله عليه وسلم حماراً عرياً إلىٰ قباء ، وأراد أن يردف خلفه أبا هريرة ، فاستمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعاً ، ثم أراد أن يركب ثانيةً ، فاستمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعاً ، ثم عرض عليه الثالثة فقال : لا والذي بعثك بالحق ؛ لا صرعتك ثالثاً .

وكان صلى الله عليه وسلم يكرم الداخل عليه ، وربما بسط له ثوبه وآثره بالوسادة ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يجلس إليه أحد وهو يصلي . . إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته .

وكان له صلى الله عليه وسلم خدم وعبيد وإماء ، فكان لا يترفع عليهم في مأكل ولا ملبس ، ويخدم من خدمه ، قال أنس : (خدمته نحواً من عشر سنين ، فكانت خدمته لي أكثر من خدمتي له)[5] .

وأمر صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره بإصلاح شاة ، فقال رجل : عليَّ ذبحها ، وقال آخر : عليَّ سلخها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وَعَلَيَّ جَمْعُ ٱلْحَطَبِ » فقالوا :

---

(١) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص٨٥) .
(٢) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص٨٦) .
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٤) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص٨٦) .
(٥) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص٨٧) .

نحن نكفيك ، فقال : « قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تَكْفُونَنِي ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَتَمَيَّزَ عَلَيْكُمْ » ثم قام وجمع الحطب[1] .

وذهب مرةً ليعقل ناقته ، فقالوا : نحن نكفيك ، فقال : « لأَنْ يَسْتَغْنِيَ أَحَدُكُمْ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَوْ فِي قَضْمَةٍ مِنْ سِوَاكٍ »[2] .

وأما آداب أصحابه معه صلى الله عليه وسلم . . فسبق في حديث صلح الحديبية قول عروة بن مسعود لقريش : أي قوم ؛ والله لقد وفدتُ على الملوك ، ووفدتُ علىٰ قيصر و كسرىٰ والنجاشي والله ؛ إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، والله ؛ إن تَنخم نُخامةً إلاَّ وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم . . ابتدروا أمره ، وإذا توضأ . . كادوا يقتتلون علىٰ وَضوئه ، وإذا تكلم . . خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدُّون إليه النظر ؛ تعظيماً له[3] .

فصل
[في شفقته ورحمته صلى الله عليه وسلم بجميع الخلق]

وأما شفقته ورأفته ورحمته بجميع الخلق . . فقال الله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فمن شفقته صلى الله عليه وسلم . . تألفه لجفاة الأعراب ورؤساء القبائل بالعطاء ، حتىٰ كان سبب إسلامهم وفلاحهم ، قال صفوان بن أمية : والله ؛ لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إليَّ ، فما زال يعطيني حتىٰ إنه لأحب الخلق إليَّ[4] ، وأعطىٰ أعرابياً عطاءً ثم قال له : « أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، فزاده شيئاً ثم قال له : « أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ ؟ » قال : نعم ،

---

(١) ذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (ص٨٧) .

(٢) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٣٢٥٢) بنحوه ، وذكره المحب الطبري في « خلاصة سير سيد البشر » (٨٧) بلفظ : « لا يستعين أحدكم بالناس ، ولو في قضمة من سواك » .

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٤) .

(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٣) .

فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فأمره أن يخبرهم بذلك فأخبرهم ، ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : « مَثَلِي وَمَثَلُ هَـٰذَا . . كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ ، فَٱتَّبَعَهَا ٱلنَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلاَّ نُفُوراً ، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُهَا : خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي ؛ فَإِنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمَامِ ٱلأَرْضِ فَرَدَّهَا ، حَتَّىٰ جَاءَتْ وَٱسْتَنَاخَتْ وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَٱسْتَوَىٰ عَلَيْهَا ، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ ٱلرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ . . دَخَلَ ٱلنَّارَ »(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئاً ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ ٱلصَّدْرِ »(٢) .

ومن شفقته صلى الله عليه وسلم : سؤاله ربه التخفيف عن أمته ، وتركه أشياء خشية أن تفرض عليهم ، فيعجزوا عنها فيقعوا في الحرج .

وكان صلى الله عليه وسلم يدخل في الصلاة يريد إطالتها ، فيسمع بكاء الصبي فيخفف ؛ خشية أن يشق علىٰ أمه ، وربما أصغى الإناء للهرة فما يرفعه حتىٰ تروىٰ .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم لما تناهىٰ أذىٰ قريش وحرج صدره لذلك . . ناداه ملك الجبال وسأله أن يطبق عليهم الأخشبين ، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ ٱللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً »(٣) .

وقال ابن مسعود : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا)(٤) .

فَصْلٌ
[في خلقه صلى الله عليه وسلم في الوفاء والعهد وصلة الرحم]

وأما خلقه صلى الله عليه وسلم في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم . . فقد حاز السبق فيها ، وأبرز خافيها ، حتىٰ ورد في الصحاح أنه كان يكرم صدائق خديجة ، ويصلهن ويرتاح

---

(١) أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ١٩) وقال : فيه إبراهيم بن الحكم بن أبان ، وهو متروك .
(٢) أخرجه أبو داوود (٤٨٦٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١) عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) أخرجه البخاري (٦٨) .

لهن ، فسئل عن ذلك فقال : « إِنَّ حُسْنَ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلإِيمَانِ »[1] .

ومن ذلك : فعله بأمه وإخوته من الرضاعة كما سبق في غزوة حنين ، وأعتق بسببهم ستة آلاف رأس[2] .

ومنه : ما روي عن عبد الله بن أبي الحمساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يُبعث ، وبقيتْ له بقية ، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال : « ياَ فَتىً ؛ لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ ، أَنَا هَهُنَا مُنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُكَ »[3] .

ولقد صدقت فراسة خديجة فيه حيث قالت في ابتداء الوحي : (أبشر ، فوالله ؛ لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتعين علىٰ نوائب الحق)[4] .

فَصْلٌ
[في تواضعه صلى الله عليه وسلم]

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم علىٰ علو منصبه . . فأمر منتشر ، والخبر به مشتهر ، وحسبك أنه صلى الله عليه وسلم خُيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، فقال له إسرافيل : فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع .

وكان صلى الله عليه وسلم يجيب من دعاه وإن كان دنياً بـ« لَبَّيْكَ » ويعود المساكين ، ويسلم على الصبيان إذا مرَّ عليهم ، ويجالس الفقراء ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهىٰ به المجلس ، ويَعجب مما يعجبون ، ويضحك مما يضحكون .

وقالت عائشة : (كان في بيته في مهنة أهله ؛ يَفْلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ،

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٣/ ١٤) .
(٢) (ص ٣٠٧).
(٣) أخرجه أبو داوود (٤٩٩٦) .
(٤) أخرجه البخاري (٤٩٥٤) ومسلم (١٦٠) عن عائشة رضي الله عنها .

ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ويَهْنُؤُه)[1] .

ومر بغلام وهو يسلخ شاةً وما يحسن ، فقال له : « تنحَّ حَتَّىٰ أُرِيَكَ » فأدخل صلى الله عليه وسلم يده بين اللحم والجلد فدحس حتىٰ دخلت إلى الإبط .

وكان يذبح أضحيته وبُدنه ، ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

ودخل عليه صلى الله عليه وسلم رجل فارتعد من هيبته ، فقال : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ ٱلْقَدِيدَ »[2] .

ودخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح مطأطئاً رأسه ، حتىٰ كاد يمس قادمته ، وذلك حين عجت النفوس ، وحج في حجة الوداع علىٰ رحل رَثٍّ عليه قطيفةٌ ما تساوي أربعة دراهم ، وقال : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْهُ حَجّاً لاَ رِيَاءَ فِيهِ وَلاَ سُمْعَةَ »[3] وأهدىٰ فيها مئة بدنة .

وعن أنس أن امرأةً كان في عقلها شيء جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن لي إليك حاجةً ، قال : « اِجْلِسِي يَا أُمَّ فُلاَنٍ فِي أَيِّ طُرُقِ ٱلْمَدِينَةِ شِئْتِ . . أَجْلِسْ إِلَيْكِ »[4] قال : وكانت الأمة تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت[5] .

وقال أبو هريرة : اشترى النبي صلى الله عليه وسلم سراويل من السوق ، فذهبت لأحملها عنه فقال : « صَاحِبُ ٱلشَّيْءِ أَحَقُّ بِشَيْئِهِ أَنْ يَحْمِلَهُ »[6] .

ولما جاء أبو بكر بأبيه يوم الفتح . . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لِمَ عَنَّيْتَ ٱلشَّيْخَ ؟! أَلاَ تَرَكْتَهُ حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِي مَنْزِلِهِ »[7] .

---

(١) انظر « الشفا » (ص ١٧٦) ، ويهنؤه : يطعمه .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) عن عقبة بن عمرو رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أحمد (٣/١١٩) .

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٧٢) .

(٦) أخرجه أبو يعلىٰ (٦١٦٢) وغيره .

(٧) أخرجه الحاكم (٣/٤٦) ، وابن حبان (٧٢٠٨) ، والإمام أحمد (٦/٣٤٩) عن السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُولُهُ »[١] .

وقال : « لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ[٢] ، وَلَا تُفَضِّلُونِي عَلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ[٣] ، وَلَا تُخَيِّرُونِي عَلَىٰ مُوسَىٰ[٤] ، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي ٱلسِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ ثُمَّ جَاءَنِي ٱلدَّاعِي . لَأَجَبْتُهُ »[٥] .

فصل

[في عدله وأمانته وصدق لهجته صلى الله عليه وسلم]

وأما عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته وعفته وصدق لهجته . . فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، وأصدقهم لهجةً منذ كان اعترف بذلك مُحادُّوه وعِداه[٦] ، وكانوا يسمونه : الأمين ، ولذلك رضوه حكماً بينهم في وضع الحجر الأسود ، وفي سؤال هرقل لأبي سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، وقال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[٧] .

وفي وصف عليٍّ له : أصدق الناس لهجةً ، وألينهم عريكةً[٨] .

وكان صلى الله عليه وسلم أعف الناس ، لم تمس يده يد امرأة قط لا يملك رقها أو نكاحها ، أو تكون ذات رحم محرم ، وفي وصف عائشة له : ما خير بين أمرين . . إلاَّ اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً . . كان أبعد الناس منه[٩] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) عن عمر رضي الله عنه .
(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه .
(٤) أخرجه البخاري (٢٤١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) **مُحادُّوه** : مخالفوه ، **عِداه** : أعداؤه .
(٧) أخرجه الترمذي (٣٠٦٤) عن علي رضي الله عنه .
(٨) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨) عن علي رضي الله عنه .
(٩) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) .

قال المبرد : قسم كسرىٰ أيامه فقال : يصلح يومُ الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للحوائج ، قال ابن خالويه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزَّأ نهاره ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول : « أَبْلِغُونِي حَاجَةَ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ إِبْلاَغِي ؛ فَإِنَّهُ مَنْ أَبْلَغَ سُلْطاناً حَاجَةَ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ إِبْلاَغَهَا . . ثَبَّتَ ٱللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ »[١] .

فصل

[في وقاره صلى الله عليه وسلم وتؤدته وحسن هديه]

وأما وقاره صلى الله عليه وسلم وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه . . فكان صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه ، مجلسُهُ مجلس حلم وحياء وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تُؤْبَنُ فيه الحُرُمُ ، وإذا مشىٰ . . مشىٰ مجتمعاً ، يعرف في مشيته أنه غير غَرِضٍ ولا وَكِلٍ ، إن صمت . . فعليه الوقار ، وإن تكلم . . سما وعلاه البهاء .

وقال عبد الله بن مسعود : (إن أحسن الهدي هدي محمد)[٢] وفي وصف ابن أبي هالة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يُحسِّن الحسن ويُصوِّبه ، ويُقبِّح القبيح ويُوهِّنه ، معتدلَ الأمر ، غير مختلف ، لا يَغْفُل مخافة أن يغفلوا أو يَملُّوا ، لكل حال عنده عَتاد ، لا يُقصِّر عن الحق ولا يجاوزه إلىٰ غيره ، الذين يَلُونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده . . أعمهم نصيحةً ، وأعظمهم عنده منزلةً . . أحسنهم مواساةً ومؤازرةً ، وسبق في سيرته مع أصحابه صلى الله عليه وسلم كثير مما يدخل في هـٰذا الفصل .

---

(١) انظر « الشفا » (ص١٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٨) .

فَصْلٌ

[في زهده صلى الله عليه وسلم]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد الناس ، ويكفيك في تعريف ذلك : أن فقره صلى الله عليه وسلم كان فقر اختيار لا فقر اضطرار ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم فتحت عليه الفتوح وجلبت إليه الأموال ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله ، وهو يدعو ويقول : « اَللَّهُمَّ ؛ اَجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتاً »[1] .

وقالت عائشة : (ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتىٰ مضىٰ لسبيله ، ولو شاء لأعطاه الله ما لم يخطر ببال)[2] ، وعنها قالت : (ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا شاةً ولا درهماً ولا بعيراً)[3] ، ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رفٍّ لي[4] ، وقال لي : « إِنِّي عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً ، فَقُلْتُ : لاَ يَا رَبِّ ؛ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً ، فَأَمَّا ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي أَجُوعُ فِيهِ . . فَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ ، وَأَمَّا ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ . . فَأَحْمَدُكَ وَأُثْنِي عَلَيْكَ »[5] .

وعنها قالت : (إنْ كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً ، إن هو إلا التمر والماء)[6] .

وعنها قالت : لم يمتلىء جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قط ، ولم يَبُثَّ شكوىٰ إلىٰ أحد ، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنىٰ ، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع . . فلا يمنعه صيام يومه ، ولو شاء . . سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها ، ولقد كنت أبكي له رحمةً مما أرىٰ به ، وأمسح بيدي علىٰ بطنه مما به من الجوع ، وأقول : نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يَقُوتك ؟ فيقول : « يَا عَائِشَةُ ؛ مَا لِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٧٠/٢١ ، ٢٢) .
(٣) أخرجه مسلم (١٦٣٥) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٩٧) .
(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧) عن أبي أمامة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه البخاري (٦٤٥٨) ومسلم (٢٩٧٢) واللفظ له .

وَلِلدُّنْيَا ، إِخْوَانِي أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَـٰذَا ، فَمَضَوْا عَلَىٰ حَالِهِمْ ، فَقَدِمُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ ، وَأَجِدُنِي أَسْتَحِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقَصَّرَ بِي غَداً دُونَهُمْ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ ٱللُّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخِلاَّئِي » قالت : فما أقام بعدُ إلاَّ شهراً حتىٰ توفي صلى الله عليه وسلم)[1] .

فصل

[في خوفه صلى الله عليه وسلم لربه وشدة عبادته]

وأما خوفه صلى الله عليه وسلم لربه وطاعته له وشدة عبادته . . فعلىٰ قدر علمه به ، ولذلك قال فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ . . لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً »[2] زاد في رواية أبي ذر : « إِنِّي أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ ٱلسَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ؛ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ . . إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلهِ تَعَالَىٰ ، وَٱللهِ ؛ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ . . لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِٱلنِّسَاءِ عَلَى ٱلْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱلصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ »[3] .

ومن خوفه صلى الله عليه وسلم : بكاؤه عند تلاوة القرآن ، وفي تهجده ، وعند سماعه من غيره كما ورد في جملة من الأحاديث ، وفي حديث ابن أبي هالة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة[4] .

وقال : « إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ »[5] .

وجماع خلقه صلى الله عليه وسلم فيما رواه علي كرم الله وجهه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال : « اَلْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي ، وَٱلْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي ، وَٱلْحُبُّ أَسَاسِي ، وَٱلشَّوْقُ مَرْكَبِي ، وَذِكْرُ ٱللهِ أَنِيسِي ، وَٱلثِّقَةُ كَنْزِي ، وَٱلْحُزْنُ رَفِيقِي ، وَٱلْعِلْمُ

---

(١) انظر « الشفا » (ص١٨٧ـ١٨٨) .
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٥) .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٢) .
(٤) انظر « الشفا » (ص ١٩١) .
(٥) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) عن الأغرِّ المزني رضي الله عنه .

سِلَاحِي ، وَٱلصَّبْرُ رِدَائِي ، وَٱلرِّضَا غَنِيمَتِي ، وَٱلْعَجْزُ فَخْرِي ، وَٱلزُّهْدُ حِرْفَتِي ، وَٱلْيَقِينُ قُوَّتِي ، وَٱلصِّدْقُ شَفِيعِي ، وَٱلطَّاعَةُ حَسْبِي ، وَٱلْجِهَادُ خُلُقِي ، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[1] وفي حديث آخر : « وَثَمَرَةُ فُؤَادِي فِي ذِكْرِهِ ، وَغَمِّي لِأَجْلِ أُمَّتِي وَشَوْقِي إِلَىٰ رَبِّي »[2] .

فَصْلٌ

[في اجتماع ما مر من الخصال في النبي صلى الله عليه وسلم]

قال القاضي رحمه الله تعالىٰ : إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرنا ، ووجدنا الواحد منا يَشْرُف بواحدة منها أو اثنتين إن اتفقتا له في كل عصر حتىٰ يَعْظُم قدره وتُضرب باسمه الأمثال ، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أَثَرَةٌ ، وهو منذ عصور خَوَالٍ رَمَمٌ بَوَالٍ . . فما ظنك بعظيم قدر مَن اجتمعت فيه كل هـٰذه الخصال إلىٰ ما لا يأخذه عدّ ، ولا يعبر عنه مقال ، ولا يُنال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال ؛ من فضيلة النبوة والرسالة والخُلة والمحبة والاصطفاء ، والإسراء والرؤية والقرب والدنو والوحي ، والشفاعة والوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود ، والبُراق والمعراج ، والبعث إلى الأحمر والأسود ، والصلاة بالأنبياء والشهادة بينهم وبين أممهم ، وسيادة ولد آدم ، ولواء الحمد[3] ، والبشارة والنِّذارة ، والمكانة عند ذي العرش والطاعة ثَمَّ والأمانة والهداية ، ورحمة للعالمين ، وإعطاء الرضا والسُّؤْل ، والكوثر وسماع القول ، وإتمام النعمة ، والعفو عما تقدم وما تأخر ، وشرح الصدر ووضع الوِزر ، ورفع الذكر وعزة النصر ، ونزول السكينة ، والتأييد بالملائكة ، وإيتاء الكتاب والحكمة والسَّبْع المثاني والقرآن العظيم ، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله تعالىٰ وصلاة الله وملائكته عليه والحكم بين الناس بما أراه الله ووضع الإصر والأغلال عنهم والقَسَم باسمه وإجابة دعوته وتكليم الجمادات والعُجْم وإحياء الموتىٰ وإسماع الصُّمِّ ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير القليل ، وانشقاق القمر ، وردِّ

(١) انظر « الشفا » (ص١٩١) ، وذكره الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (٤/ ٣٦١) ، وقال العراقي رحمه الله تعالىٰ في تخريجه : ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ، ولم أجد له إسناداً .

(٢) انظر « الشفا » (ص١٩١) .

(٣) في (د) و(و): (واللواء والحمد).

الشمس ، وقلب الأعيان ، والنصر بالرعب ، والاطلاع على الغيب ، وظل الغمام ، وتسبيح الحصىٰ ، وإبراء الآلام ، والعصمة من الناس. . . إلىٰ ما لا يحويه مُحتفل ولا يحيط بعلمه إلاَّ مانحُه ذلك ومُفضِّله به لا إلـٰه غيره ، إلىٰ ما أعدّ له في الدار الآخرة من منازل الكرامة ، ودرجات القدس ومراتب السعادة ، والحسنىٰ والزيادة ، التي تَقِف دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم[1] .

* * *

(١) الشفا (ص : ٩٨ـ ١٠٠) .

الباب الثالث

في شمائله صلى الله عليه وسلم في العبادات المتكررات

اعلم علمنا الله وإياك : أن مما يُذم في التقليد : التعصب للمذاهب والجمود عليها ، واستثقال كل بخلاف ما وطن نفسه عليه من تبعية إمامه ، ولا يقبل غيره وإن قام الدليل علىٰ خلافه ، حتىٰ كأن الحق منحصر فيه ، أو كأن إمامه نبيه ، وكل ذلك لعدم الإنصاف ، وقد أنصف الشافعي رحمه الله تعالىٰ حيث قدم إلىٰ أصحابه ما معناه : إذا صح الحديث.. فاعملوا به ودعوا قولي ؛ إشفاقاً منه عليهم أن توقعهم العصبية في المخالفة ، وقد كان له تضلع في علم الحديث ، فلم يقم الدليل علىٰ خلاف مذهبه إلاَّ نادراً مما لا يعصم البشر عن وقوع مثله ، وربما اعتل بعض المقلدين عند قيام الحجة عليه فقال : لعل إمامي علم في ذلك ما لم أعلمه ، أو يرىٰ من يُنبِّهه علىٰ ذلك لا يتأهل للترجيح والاجتهاد ، وكل ذلك قصور وتقصير ؛ وقد نص جهابذة العلماء علىٰ أن الاجتهاد يتجزأ ، وأنه يجوز أن يكون الإنسان مجتهداً مرجحاً في مسألة أو باب دون غيره ، ومظنة الترجيح غلبة الظن بعد البحث في وجوه الأدلة ، وسيأتي في طي هـٰذا الباب ما يفهمك فائدة تقديم هـٰذه القاعدة ، جعلنا الله وإياك ممن يقبل الهدىٰ أينما كان ، وعلىٰ لسان من ظهر ، واصفين متصفين ، آمين .

ثم اعلم رحمك الله وإياي : أن هـٰذا الباب واسع جداً وموضع بسطه كتب الحديث ومبسوطات كتب الفقه ، وإنما أذكر هنا نكتاً وعيوناً من أسرار عوائده التي واظب عليها صلى الله عليه وسلم ، وكادت لكثرة التسهيل والإهمال أن يذهب أكثرها ، فأنبه علىٰ ذلك علىٰ وجه الاختصار والإيجاز مستعيناً بالله تعالىٰ ، وسائلاً منه التوفيق .

فمن ذلك : عادته صلى الله عليه وسلم في الوضوء : كان في غالب الأحوال يتوضأ لكل فريضة ، وقال : « مَنْ تَوَضَّأَ عَلَىٰ طُهْرٍ . كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ »[1] قال العلماء : وإنما يحصل هـٰذا الثواب لمن استعمل الوضوء الأول ، وربما صلىٰ صلى الله عليه وسلم في بعض الأوقات بوضوء واحد عدداً من الصلوات .

---

(١) أخرجه أبو داوود (٦٢) ، والترمذي (٥٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وكان صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد ، ونهىٰ عن كثرة استعمال الماء ، وقال لسعد بن أبي وقاص : « لاَ تُسْرِفْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَىٰ نَهْرٍ جَارٍ »[١] وقال : « إِنَّ لِلْوُضُوءِ شَيْطَاناً يُقَالُ لَهُ : ٱلْوَلَهَانُ ، فَٱتَّقُوا وَسْوَاسَ ٱلْمَاءِ »[٢] وقال : « إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي ٱلطَّهُورِ وَٱلدُّعَاءِ »[٣] ففي هـٰذه الأخبار : ذم الإسراف في صب الماء وأنه من الشيطان .

وقد صحت الأخبار عن محمد المختار أنه توضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة ، ومرتين مرتين ، وغالب أحواله ثلاثاً ثلاثاً ، وكره الزيادة عليها والنقصان منها ، فكأنها حد بين الإكثار والإقلال ، وقد كانت أموره صلى الله عليه وسلم علىٰ حد الاعتدال ، ويصلح لمن كان علىٰ بعض أعضائه أذىً أن يغسله قبل الوضوء ثم يتوضأ ؛ ليتم له الاقتصار على التثليث ، مع أنه قد صحح الأكثرون أن غسلةً واحدةً تنوب عنهما ، وربما ثلث صلى الله عليه وسلم في بعض الأعضاء ونقص في بعضها ، وربما ثلث في الكل وغسل الرجلين بغير عدد ، وأما الرأس . . فأكثر الروايات وأصحها على التوحيد في مسحه ، وروي التثليث في حديث حسن[٤] ، فينبغي التثليث من أجله ، وكان صلى الله عليه وسلم يعم جميع رأسه بالمسح ، ويقبل بيديه ويدبر ، وحيثما اقتصر علىٰ بعضه لعمامة ونحوها . . كمل بالمسح عليها ، ولم يقتصر علىٰ مسح بعض الرأس من غير تتميم على العمامة أبداً .

وأما المضمضة والاستنشاق . . فأصح الروايات علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم جمع بينهما بثلاث غرفات[٥] ؛ يتمضمض ويستنشق من كل واحدة منها بيمينه ويستنثر بشماله ، قال ابن الصلاح : ولم يثبت في الفصل شيء .

قلت : بل رواه أبو داوود بسند لم يضعفه[٦] ، فهو حجة عنده ، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الترمذي (٥٧) عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أبو داوود (٩٦) عن عبد الله بن مُغفّل رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو داوود (١٠٦) .

(٥) أخرجه البخاري (١٩٢) عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه .

(٦) أبو داوود (١٣٩) .

وكان صلى الله عليه وسلم يمسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما[1] ، قال شيخ شيوخنا القاضي مجد الدين الشيرازي : ولم يثبت في مسح الرقبة حديث .

تَنبِيه

[سُنتان قل من يعمل بهما]

في « سنن أبي داوود » من رواية ابن عباس عن عليّ رضي الله عنه[2] حين أراه كيفية وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففيه : أنه أدخل يديه في الإناء جميعاً فغسل بهما وجهه ثلاثاً ، وهو فعل حسن يعرف حسنه بالمشاهدة ، وفيه : أنه بعد غسل الوجه أخذ بكفه اليمنىٰ قبضةً من ماء فصبها علىٰ ناصيته فتركها تَسْتَنُّ علىٰ وجهه ، وكأنه والله أعلم فعل ذلك استظهاراً علىٰ غسل مقدم الوجه ، فهاتان سنتان قل من يعمل بهما ويثابر عليهما ، وفيه : أنه غسل رجليه في النعلين وفتلهما ؛ ليصل الماء إلىٰ ما تحت السيور قال ابن عباس رضي الله عنهما : قلت : وفي النعلين ؟ قال : وفي النعلين ، قال ذلك ثلاثاً ، ففيه تأييد لقوله صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَةِ »[3] .

وقد كان صلى الله عليه وسلم ربما صلىٰ في نعليه[4] ، وقال : « تَفَقَّدُوا نِعَالَكُمْ عِنْدَ أَبْوَابِ مَسَاجِدِكُمْ »[5] وقد صحح جماعة من أصحابنا جواز الصلاة في الخف المتنجس أسفله إذا دلك بالأرض حتىٰ تذهب العين .

وكان صلى الله عليه وسلم يرفّع في غسل أعضاء الوضوء وقال : « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ ٱلْوُضُوءِ، فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ . فَلْيَفْعَلْ » أخرجه الشيخان[6] ، والغرة : غسل مقدمات الرأس مع الوجه ، والتحجيل : غسل بعض العضدين مع الذراعين ، وبعض الساقين مع الرجلين ، وغايته : استيعاب العضد والساق .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أبو داوود (١١٧) .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٦٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقال : غريب من حديث مسعر ، لم نكتبه إلا من حديث السمومي ، وانظر « لسان الميزان » (١/ ٤٨٤) .

(٦) البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وأما أذكاره . . فكان صلى الله عليه وسلم يسمي الله أوله ، ووردت أحاديث تدل على التحتم في التسمية ، وكلها مؤولة أو ضعيفة ، وكان يقول في أثنائه ما رواه النسائي وابن السني بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فتوضأ ، فسمعته يقول : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي - وروي : فِي ذَاتِي - وَبَارِكْ لِي فِي رِزْقِي » فقلت : يا نبي الله ؛ سمعتك تدعو بكذا وكذا ، قال : « وَهَلْ تَرَكْنَ مِنْ شَيْءٍ ؟! »[1] .

وكان يقول بعد فراغه ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَضَّأَ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . . فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ ٱلْجَنَّةِ ٱلثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » رواه مسلم[2] ، وزاد الترمذي فيه : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱجْعَلْنِي مِنَ ٱلتَّوَّابِينَ ، وَٱجْعَلْنِي مِنَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ »[3] زاد النسائي : « سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »[4] .

وأما الدعاء المفرق على الأعضاء . . فقد ادعى الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ أنه لا أصل له ، واستدرك عليه في هـٰذه العبارة ؛ فقد روىٰ فيه ابن حبان حديثاً من جهة عباد بن صهيب[5] ، وقد قال أبو داوود فيه : إنه صدوق ، والله أعلم .

فَصْلٌ
في تيممه صلى الله عليه وسلم

أصح الأحاديث في كيفيته : ما اتفق الشيخان علىٰ تخريجه عن عمار بن ياسر قال : (بعثنا النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، فأجنبت فلم أجد الماء ، فتمرغت في الصعيد كما تتمرغ الدابة ، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : « إِنَّمَا كَانَ

---

(١) السنن الكبرىٰ (٩٨٢٨) ، عمل اليوم والليلة (٢٨) .
(٢) مسلم (٢٣٤) .
(٣) الترمذي (٥٥) .
(٤) السنن الكبرىٰ (٩٨٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٥) انظر « المجروحين » (٢/ ١٥٤) .

يَكْفِيكَ أَنْ تَضْرِبَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا » ثم ضرب بيديه الأرض ضربةً واحدةً ، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه[(١)] ، وفي رواية لهما : (وضرب بيديه الأرض ونفخ فيهما ، ثم مسح بهما وجهه)[(٢)] ففي هـٰذا الحديث أدل دليل علىٰ أنه لا يشترط فوق ذلك ولا يجزىء دونه ؛ لأنه خرج مخرج التعليم والإرشاد إلى القدر الكافي في التيمم ، وبه أخذ عامة المحدثين ، قيل : ولا يعلم في حديث يقطع بصحته اشتراط ضربتين ، ولا مجاوزة الكفين في المسح وبلوغ المرفقين ، ولا التحتيم في التيمم لكل فريضة ، ولا أنه لا يجزىء غير التراب الذي له غبار ، بل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « جُعِلَتْ لِيَ ٱلأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ ٱلصَّلاَةُ . . فَلْيُصَلِّ »[(٣)] وفي حديث : « فَحَيْثُمَا أَدْرَكَتْ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِيَ ٱلصَّلاَةُ . . فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ »[(٤)] والله أعلم .

فصل

[في عادته صلى الله عليه وسلم في الصلوات وما اشتملت عليه من الكيفيات والسنن]

في عادته صلى الله عليه وسلم في الصلوات وما اشتملت عليه صلاته من الكيفيات المختلفات والأسرار الخفيات .

اعلم : أن الصلاة أعظم شعار في الإسلام ، ولم يعبد بها أحد غير الله ، ولم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم إسلام أحد دونها ، ولهـٰذا ما ورد أن أهل الطائف سألوه أن يقبل إسلامهم ويحط عنهم الصلاة فأبىٰ عليهم وقال : « لاَ خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ »[(٥)] وقال : « أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ ٱلْعَبْدُ : ٱلصَّلاَةُ »[(٦)] فهي في هـٰذا الدين كالعنوان ، أو كأساس البنيان ، لذلك ما ذكر في أصل مشروعيتها من عظيم الشأن وترديد النبي صلى الله عليه وسلم بين موسىٰ وربه في التحطيط منها حتىٰ رجعت من خمسين إلىٰ خمس وقال تعالىٰ : « هِيَ خَمْسٌ

---

(١) البخاري (٣٤٧) ومسلم (٣٦٨) واللفظ له .
(٢) البخاري (٣٣٨) ومسلم (٣٦٨/ ١١٢) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨) عن أبي أمامة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه أبو داوود (٣٠٢٦) عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه .
(٦) أخرجه الترمذي (٤١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَهِيَ خَمْسُونَ ـ يعني في الثواب ـ كَمَا هُوَ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ ، مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[1] .

وقد نطق القرآن العظيم بفضلها وعظم موقعها وجلالة قدرها ، وجاءت السنة بأضعاف ذلك ، فمن مجموع ذلك : أنها مُعِينة علىٰ قضاء الحاجات المهمات ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ وتنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، وتضاعف الحسنات ، وتغسل أدران الذنوب ، وترفع الدرجات ، وجاء فيها أنها نور مطلق ، وشافعة للمصلي عند ربه ، ومسهلة عليه المرور على الصراط ، وكاشفة لكربه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر . . فزع إلى الصلاة ، ثم إنها جالبة للرزق كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وجاء أنها شفاء من وجع البطن ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه وقد شكا إليه وجع البطن : « قُمْ فَصَلِّ ؛ فَإِنَّ فِي ٱلصَّلَاةِ شِفَاءً »[2] .

وفضلها أجل من أن يحصر ، وأشهر من أن يذكر ، ولأجل ما استجمعت من الخيرات ودفع المكروهات . . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[3] ، وفي رواية : « ٱلْجَائِعُ يَشْبَعُ وَٱلظَّمْآنُ يَرْوَىٰ ، وَأَنَا لَا أَشْبَعُ مِنْ حُبِّ ٱلصَّلَاةِ »[4] وقال : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ يَا بِلَالُ وَأَرِحْنَا بِهَا »[5] وقد قدمنا ما يلحق مفوتها من الوبال والخزي والنكال في صلاة الخوف في طيِّ غزوة ذات الرقاع[6] .

ونشرع الآن في مهمات من وجوه تحسينها والأمور المؤدية إلىٰ قبولها :

فركنها الأعظم بعد النية وأعمالها الظاهرة التي لا تصح إلا بها : الخشوع والتدبر والخضوع ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩) عن أبي ذر رضي الله عنه بنحوه .
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٨) ، وأحمد (٢/ ٤٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٢٦٢٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٥) أخرجه أبو داوود (٤٩٨٥) .
(٦) (ص ١٨٧).

﴿ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ قال بعضهم : وإن كانت الآية في سكر الخمر ففي قوله تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ تنبيه علىٰ سكر الدنيا ، فكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول ولا يدري كم صلىٰ من استغراق همه بالوساوس الدنيوية ، وربما كانت في معصية فيكون الوبال فيها أعظم ، ومثل من انطوت صلاته علىٰ هٰذه القاذورات . . مثل من اتخذ صناديق المصاحف وعاءً للخمر والنجاسات ، وروي عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ يَنْظُرُ ٱللهُ إِلَىٰ صَلاَةٍ لاَ يُحْضِرُ ٱلرَّجُلُ فِيهَا قَلْبَهُ مَعَ بَدَنِهِ »(١)

وروي عن الحسن البصري أنه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع ، وقد أتىٰ علىٰ هٰذا المعنى الفقيه الفاضل شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقري في قصيدته الواعظة المشهورة فقال : [من الطويل]

ذُنُوبُكَ فِي ٱلطَّاعَاتِ وَهْيَ كَثِيرَةٌ ... إِذَا عُدِّدَتْ تَكْفِيكَ عَنْ كُلِّ زَلَّةِ

تُصَلِّي صَلاَةً يَعْلَمُ ٱللهُ أَنَّهَا ... بِفِعْلِكَ هَٰذَا طَاعَةٌ كَٱلْخَطِيئَةِ

وقد مثلت الصلاة في صورة حيوانية روحها النية والإخلاص وحضور القلب ، وبدنها الأعمال كالقيام والقعود ، ورأسها الركوع والسجود والأركان التي لا بد منها ، وجوارحها ووجوه تحسينها تجري مجرى الأبعاض والسنن ، ومثلوا المصلي في توجهه بها إلىٰ ربه كمثل من يهدي جارية إلىٰ ملك معظم ؛ فإن أداها بلا نية . . فهو كمن أهدى الجارية ميتةً ، وإن أداها فاقدةً الأركان . . فهو كمن أهداها مقطوعة الأعضاء ، وإن أداها فاقدة الأبعاض والآداب . . فهو كمن أهداها مشوهةً ، فيكون المهدي في جميع ذلك مستحقاً للعقوبة لا للمثوبة ؛ لأن هديته لمن يعظم قدره من هو بهٰذه الصفات المذمومة . . فيه نوع استهزاء وتهاون بقدر المهدىٰ إليه .

وروى البيهقي وغيره عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَبْلَغَ ٱلْوُضُوءَ ، ثُمَّ قَامَ إِلَى ٱلصَّلاَةِ فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَٱلْقِرَاءَةَ فِيهَا . . قَالَتْ : حَفِظَكَ ٱللهُ كَمَا حَفِظْتَنِي ، ثُمَّ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَلَهَا ضَوْءٌ وَنُورٌ ،

---

(١) لم أجده بهٰذا اللفظ ، وأخرجه بنحوه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (١٥٧) عن عثمان بن أبي دهرش مرسلاً ، والديلمي في « الفردوس » (٦٣٥٣) عن أبي بن كعب .

فَفُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ فَتَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا ، وَإِذَا لَمْ يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا وَلاَ ٱلْقِرَاءَةَ فِيهَا . . قَالَتْ : ضَيَّعَكَ ٱللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي ، ثُمَّ يُصْعَدُ بِهَا إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَعَلَيْهَا ظُلْمَةٌ ، فَتُغْلَقُ دُونَهَا أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ ، ثُمَّ تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ ٱلثَّوْبُ ٱلْخَلِقُ وَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا »(١) .

وخرج أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ذكرت السرقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَيَّ ٱلسَّرِقَةِ تَعُدُّونَ أَقْبَحَ ؟ » قالوا : الرجل يسرق من أخيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَقْبَحَ ٱلسَّرِقَةِ : ٱلَّذِي يَسْرِقُ صَلاَتَهُ » قالوا : وكيف يسرق أحدنا صلاته ؟ قال : « لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَلاَ خُشُوعَهَا »(٢) .

ومن تخريجه أيضاً مرفوعاً : « مَنْ أَحْسَنَ ٱلصَّلاَةَ حَيْثُ يَرَاهُ ٱلنَّاسُ وَأَسَاءَهَا إِذَا خَلاَ . . فَتِلْكَ ٱسْتِهَانَةٌ ٱسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ »(٣) .

ومن تخريجه أيضاً مرفوعاً : « إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيُصَلِّي ٱلصَّلاَةَ مَا لَهُ مِنْهَا إِلاَّ عُشْرُهَا ، تُسْعُهَا ، ثُمْنُهَا ، سُبْعُهَا ، سُدْسُهَا ، خُمْسُهَا ، رُبْعُهَا ، ثُلْثُهَا ، نِصْفُهَا »(٤) يعني : بقدر ما استحضر منها .

وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اَلصَّلاَةُ مِيزَانٌ ، فَمَنْ أَوْفَىٰ . . ٱسْتَوْفَىٰ »(٥) ونحوه عن سلمان موقوفاً : (الصلاة مكيال ، فمن وفىٰ . . أوفي له ، ومن نقص . . فقد علمتم ما قيل للمطففين)(٦) .

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خَمْسُ صَلَوَاتٍ ٱفْتَرَضَهُنَّ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ . . كَانَ لَهُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ . .

---

(١) شعب الإيمان (٢٨٧١) ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٠٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) شعب الإيمان (٢٨٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) شعب الإيمان (٢٨٥١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٤) شعب الإيمان (٢٨٥٢) ، وأخرجه أبو داوود (٧٩٦) عن عمار بن ياسر رضي الله عنه .
(٥) شعب الإيمان (٢٨٨٢) .
(٦) شعب الإيمان (٢٨٨١) .

فَلَيْسَ لَهُ عَلَى ٱللهِ عَهْدٌ ، إِنْ شَاءَ . . غَفَرَ لَهُ ، وَإِنْ شَاءَ . . عَذَّبَهُ » رواه أبو داوود وغيره[1] .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر : (إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل الله له صلاةً) قيل : وكيف ذلك ؟ قال : (لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله تعالىٰ فيها)[2] .

وكان الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ يقول : يا بن آدم ؛ أي شيء يعز عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك[3] ؟! ، وقال أيضاً : تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن ، فإن وجدتم وإلا . . فاعلموا أن الباب مغلق[4] .

والأحاديث والآثار في هٰذا المعنىٰ كثيرة معلومة ، فانظر يا أخي عظم موقع الصلاة من الدين ، وما ورد في أصل تفويتها من الوعيد الشديد المفضي إلىٰ شقاوة الدارين والعياذ بالله تعالىٰ ، ثم ما ورد في التساهل في أفعالها والتهاون بها من الخسران والخيبة والحرمان والله المستعان ، فينبغي للعاقل المتصف بالسنة أن يحيط بعلومها ، وأن يفرغ وسعه في تقويمها ، ويتعرف الآيات الواردة في فضلها والحث عليها ، ويراجع تفسيرها ، ويتأمل المأثور من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبذلك يتجوهر باطنه ، ويتزين بالشرع ظاهره ، ويتروح بالعبادات ، وتخف علىٰ قلبه كلف المجاهدات ، كما قال بعض السادة : جاهدت للصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها بقية العمر ، وهٰذا المقام الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[5] و : « يَا بِلَالُ ؛ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ وَأَرِحْنَا بِهَا »[6] .

واعلم : أن التفريط والتساهل في أفعال الصلاة إن جرىٰ من العلماء المقتدىٰ بهم الذين تلاحظ العامة أفعالهم . . عظم خطره وعم ضرره ؛ لأنهم سبب الهداية والضلال ، وطباع

(١) أبو داوود (٤٢٥) ، وأحمد (٥/٣١٧) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٨٣) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٩٠٧) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٣٤) بنحوه .
(٥) مر في الصفحة (٥٣٥) .
(٦) مر في الصفحة (٥٣٥) .

الناس إلى المتابعة في الأفعال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال ، ومثل من يأمر بالاستقامة وينحرف عنها . . كمن يكذب بعضه بعضاً ويتبع إبرامه نقضاً ، ويحل عليه مقت الله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . قال ابن السماك : وعظت الناس يوماً فأعجبني وعظي ، فسمعت هاتفاً يقول : [من الكامل]

يَـا أَيُّهَـا ٱلـرَّجُـلُ ٱلْمُعَلِّـمُ غَيْـرَهُ ... هَـلاَّ لِنَفْسِـكَ كَـانَ ذَا ٱلتَّعْلِيـمُ

اِبْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَـٱنْهَهَـا عَـنْ غَيِّهَـا ... فَـإِذَا ٱنْتَهَـتْ عَنْـهُ فَـأَنْـتَ حَكِيـمُ

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِـيَ مِثْلَـهُ ... عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ [1]

وقال صاحب « البردة » : [من البسيط]

أَمَرْتُـكَ ٱلْخَيْـرَ لَكِـنْ مَـا ٱئْتَمَـرْتُ بِـهِ ... وَمَا ٱسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ ٱسْتَقِمِ

وأعظم ما في زلة العالم من الخطر : أن تبقىٰ سنةً مأثورةً بعده ، ويدخل في قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً . . فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »[2] وطوبىٰ لمن مات وماتت معه ذنوبه ، ولذلك قيل : إن الصغائر من العلماء كالكبائر من العامة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ ٱلنَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ : عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ ٱللهُ بِعِلْمِهِ »[3] .

وإن كان التساهل في الصلاة والإخلال جرىٰ من العامة الجهال . . فينبغي للعلماء تعريفهم ؛ لما أخذ الله على الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه ، وقد ردَّد النبي صلى الله عليه وسلم المسيء صلاته ثلاث مرات ، كل ذلك يقول له : « اِرْجِعْ فَصَلِّ ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ »[4] وإنما لم يعلمه أول مرة؛ ليكون أبلغ في التبكيت وأوقع في النفس ، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل ممن صلىٰ خلفه : « يَا فُلاَنُ ؛ أَلاَ تُحْسِنُ صَلاَتَكَ ؟! أَلاَ يَنْظُرُ

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٧٨٠) .
(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .
(٣) أخرجه الطبراني في « الصغير » (٥٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) أخرجه البخاري (٧٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ٱلْمُصَلِّي إِذَا صَلَّىٰ كَيْفَ يُصَلِّي ؟! فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ ، وَإِنِّي وَٱللهِ لأُبْصِرُ مَنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مَنْ بَيْنَ يَدَيَّ »[1] .

ورأىٰ حذيفة رجلاً يصلي لا يتم ركوعه ولا سجوده ، فقال له حذيفة : منذ كم صليت ؟ قال : منذ أربعين سنة ، قال له حذيفة : ما صليت ؛ ولو قد مت . . مت علىٰ غير الفطرة التي فطر الله عليها محمداً صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك مروي في « الصحيحين »[2] .

وقال ميمون بن مهران : مثل الذي يرى الرجل يسيء صلاته فلا ينهاه . . مثل الذي يرى النائم تنهشه حية فلا يوقظه[3] .

واعلم : أن العالم الذي تنجع موعظته وتؤثر كلمته : هو الذي صلحت منه النية ، وحاز الوراثة النبوية ، وصدقت عليه الأوصاف الرسولية ، وصدق عليه المثل الأول من أمثال الغيوب السماوية[4] ، وكان مقامه في الخلق مقام الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ، ولذلك صار موته ثلمة في الإسلام ، قال بعضهم : إذا صدرت الموعظة من القلب . . وقعت في وسط القلب ، وإذا صدرت من ظاهر اللسان . . لم تجاوز الآذان ، وقيل لبعضهم : ما بال علماء السلف كانت تؤثر موعظتهم ، وليس كذلك علماء الوقت ؟ فقال : سبب ذلك أن علماء السلف كانوا أيقاظاً والناس نيام ، والمستيقظ يوقظ النائم ، وعلماء الوقت نيام والناس موتىٰ ، والنائم لا يوقظ الميت .

اللهم ؛ إنا نسألك التوفيق ، ونعوذ بك من الخذلان والتعويق .



فيما ذكر من صلاة السلف الصالحين رحمهم الله تعالى

من ذلك : ما روي أن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما كان يتغير عند كل وضوء ، ويصفر لونه ، فإذا قام إلى الصلاة . . أخذته رعدة ، فقيل له في ذلك فقال :

---

(١) أخرجه مسلم (٤٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) البخاري (٧٩١) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٨٧٨) .
(٤) في (ب) و(ج) و(د) : (الغيوث) .

ما تدرون بين يدي من أقوم ؟! ووقعت النار في بيت وهو ساجد فيه ، فجعلوا يصيحون به فلم يرفع رأسه ، حتىٰ وقعت النار في جانب البيت ولم تتعداه ، فلما رفع رأسه . . كلموه في ذلك فقال : ألهتني عنها النار الآخرة[1] .

وقال عبد الرزاق : ما رأيت أحداً أحسن صلاةً من ابن جريج ؛ يركد كأنه أسطوانة ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً .

وكان عبد الله بن الزبير إذا سجد . . تنزل العصافير علىٰ ظهره ، ولا تحسبه إلا جِذْم حائط[2] ؛ من طول السجود .

وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه : ثلاث أنا فيهن رجل ، وفيما سوىٰ ذلك فأنا واحد من الناس : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول شيئاً قط . . إلا علمت أنه الحق من عند الله لا شك فيه ، ولا صليت صلاةً قط فحدثتني نفسي بغيرها حتىٰ أفرغ منها ، ولا شهدت جنازةً قط فحدثتني نفسي بغير ما هي قائلة أو مقول لها .

قال الزهري رحمه الله تعالىٰ : رحم الله سعداً إن كان لمؤتمناً علىٰ ما قال ، ولقد بلغني أنها خصال لا يعطاهن إلا نبي ، أو من كان شبيهاً بنبي .

وقال أبو بكر الوراق : ربما أصلي فأنصرف منها وأنا أستحي من الله تعالىٰ حياء رجل انصرف من الزنا .

وحكي عن محمد بن يوسف الفرغاني : أنه رأىٰ حاتماً الأصم واقفاً يعظ الناس ، فقال : يا حاتم ؛ أراك تعظ الناس ، أفتحسن أن تصلي ؟ قال : نعم ، قال له : كيف تصلي ؟ قال : أقوم بالأمر ، وأمشي بالسكينة ، وأدخل بالهيبة ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل ، وأجلس للتشهد بالتمام ، وأسلم على السنة ، وأسلمها إلىٰ ربي ، وأحفظها أيام حياتي ، وأرجع باللوم علىٰ نفسي ، وأخاف ألاَّ تقبل مني ، وأرجو أن تقبل مني ، وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمني ، وأعلمها من سألني ، وأحمد ربي إذ هداني ، فقال له محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظاً .

---

(١) أخرجه الدولابي في « الكنى » (ص١٤٢) .
(٢) **جذم الحائط** : بقيته .

فرحم الله حاتماً ، ما أحسن ما وصف من حال صلاته! ولقد صدق عليه وعلىٰ أمثاله قوله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ .

وقال الشيخ الصالح القانت عبد الله بن خليل المقدسي قال : سمعت بعض العلماء المحدثين يثني علىٰ والدي بأنه يحسن الصلاة ، قال : فتغير باطني لها ؛ لما علمت من جلالة قدر والدي ، وغزارة علمه ومعرفته بالله تعالىٰ ، ثم بعد ذلك ظهر لي أنه قد أبلغ في الثناء .

قلت : وتصديق ذلك : ما روي عن بعض المحققين أنه قال : للصلاة ست مئة أدب ، فلا يحيط بذلك إلا من زين الله باطنه بالمراقبة والخشوع ، وظاهره باتباع السنة .

والآن نرجع إلىٰ ما نحن بصدده من تسيير صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحر المعارف ومعدن اللطائف ، فنذكرها على الولاء من التحرم إلى السلام ، ثم ما يتبعها من الأذكار عنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وبالله التوفيق .

وقبل ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ المؤذن من الإقامة وقام إلى الصلاة لا بد أن يتخذ سترةً بين يديه ؛ شاخصاً أو غيره ، وكأن المقصود من ذلك والله أعلم : تهيئة حريم لصلاته ؛ حتىٰ يمنع من مرّ دونها ، ويسكن في حركاته إليها ، وينكف بصره عليها .

ثم يأمرهم بتسوية الصفوف وتعديلها ، والتراص فيها ووصلها ، وسد الفرج وتقاربها ، ويحض علىٰ ذلك ويبالغ فيه بالقول والفعل ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والتهديد علىٰ من خالف ذلك ، حتىٰ ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يتخلل الصف من ناحية إلىٰ ناحية ، ويمسح بيده الشريفة مناكبهم وصدورهم ويقول : « لاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ »[1] ، وأنه عدلهم مرةً ، فلما أراد أن يكبر . . رأىٰ رجلاً بادياً صدره من الصف فقال : « عِبَادَ ٱللهِ ؛ لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ ٱللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ »[2] حتىٰ كان أحدهم يلصق منكبه بمنكب صاحبه وركبته بركبته وكعبه بكعبه ، والأحاديث الواردة في هـٰذا المعنىٰ كثيرة منتشرة ، فهي من السنن المؤكدة التي حض النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ فعلها ، ولم يرخص في تركها ، وواظب عليها الخلفاء الراشدون بعده ولما اتسعت دائرة الإسلام في

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٢) عن عقبة بن عمرو رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٧١٧) ومسلم (٤٣٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

خلافة عمر.. اتخذ معدلين للصفوف ، ولا يكبر حتىٰ يخبروه باستوائهم ، وكذلك فعل عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، وكان عليّ كرم الله وجهه يقول : تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، فينبغي للأئمة الاهتمام بذلك والحرص عليه ؛ اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتثالاً لأمره ، وفراراً من نهيه ، وألاَّ يكبروا حتىٰ يستكمل تعديل الصف .

كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأىٰ أن قد استووا.. كبر ، ولم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم منطوقاً ولا مفهوماً أنه تلفظ بالنية ولا بالمنْوي ، ولا دخل في الصلاة بغير التكبير ، وأما ما اعتاده الناس أمام التكبير من الشغل بالألفاظ التي تشترط نيتها كقصد فعل الصلاة وتعيينها ومفروضيتها.. فلا بأس به ، وقد قال العلماء : يستحب أن يساعد بلسانه قلبه ، ولا كلام أنه إن تكلم بلسانه من غير نية.. لم يجزه ، وإن نوىٰ بقلبه وتكلم بالتكبير فقط كما هو المنقول عنه صلى الله عليه وسلم.. أجزأه .

وبعض الناس يزيد في التحرم ألفاظاً ؛ فيذكر النية واستقبال القبلة وعدد الركعات في تطويل وتهويل أحدثوه مما لم يرد به كتاب ولا سنة ولا أثر عمن تتم به القدوة ، ومما أحدث أيضاً وعم العمل به حتىٰ توهم كثير من الناس أنه سنة أو واجب : ما اعتاده المأمومون بأجمعهم من التكبير لتكبير إحرام إمامهم ، ثم يعودون ينظمون الألفاظ ويكررونها لإحرام أنفسهم حتىٰ يطول الفصل ، وتفوتهم فضيلة إدراك تكبيرة إحرام الإمام ، وما أحسن تلك التكبيرة الزائدة لو كانت تكبيرة عقد إحرامهم وأدركوا بها الفضيلة ؛ فقد قال الإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : وإدراك تكبيرة الإحرام فضيلة ، وإنما تحصل بالاشتغال بالتحرم عقب تحرم إمامه[1] .

ثم إن طائفةً من الموسوسين استحكم عليهم تلبيس إبليس ، وعدلوا عن المعلوم إلى الموهوم ، وجانبوا المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتحققت منهم طاعة اللعين ، وصيرهم إلىٰ شبه المجانين ، فترىٰ أحدهم يلعب بيديه عند التكبير في الهوي ، وتارةً يعركها ويتلحىٰ ويبلو نفسه في ترديد عبارات الإحرام ، ويتلوىٰ حتىٰ كأنه يحاول أمراً فادحاً أو يتسوغ أجاجاً مالحاً حتىٰ تفوته فضيلة تكبيرة إحرام الإمام ، وربما فاتته (الفاتحة)

---

(١) انظر « منهاج الطالبين » (ص١١٨) .

فلم يطلقه شيطانه إلا علىٰ رأس الركوع ، وربما فاتته الركعة أو الصلاة جملةً ، فيقع في الخيبة والحرمان ، ويتحقق عليه استيلاء الشيطان ، حتىٰ تتأتىٰ منه التكبيرة بمشقة وصوت فاحش يتأذىٰ به من حوله ، وربما آذاهم وشوش عليهم بالجهر بالألفاظ السرية ، فلا يرىٰ أنه يسمع نفسه إلا بذلك ، فيتضاعف وزره مع مخالفته للسنة .

ومنهم من أنكر العيان ومسموع الأذان ، حتىٰ أنكر شيئاً صدر منه وسمعه غيره وشاهده فضلاً عنه ، حتىٰ أشبه بذلك مذهب السُّوفسطائية الذين أنكروا حقائق الموجودات والأمور المحسوسات الضروريات ، وربما عظم الضرر بأحد الموسوسين حتىٰ عجز عن النطق ضرورة كما قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالىٰ في كتابه الذي سماه : « كتاب ذم الوسواس وأهله » : قال لي إنسان منهم : قد عجزت عن قول : (السلام عليكم) فقلت له : قل مثل ما قد قلت الآن وقد استرحت ، ونحو هـٰذا وأصنافهم كثيرة ، قال : وقد بلغ الشيطان منهم إلىٰ أن عذبهم في الدنيا ، وأخرجهم عن اتباع نبيهم المصطفىٰ ، وأدخلهم في جملة المتنطعين الغالين في الدين ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

واعلم : أن مبادىء الوسواس ومنشأه سببه إما ضعف في العقل أو جهل بالسنة ، واقتداء الجاهلين بالمهملين .

روينا عن السيد الجليل أحمد بن عطاء الروذباري رحمه الله تعالىٰ ونفع به قال : كان فيَّ استقصاء في أمر الطهارة ، وضاق صدري ليلةً ؛ لكثرة ما صببت من الماء ولم يسكن قلبي ، فقلت : يا رب ؛ عفوك عفوك ، فسمعت هاتفاً يقول : العفو في العلم ، فزال عني ذلك .

ونعم ؛ لقد صدق رحمه الله تعالىٰ ، فلو تأمل طائفة الموسوسين أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرفوها إذ لم يعلموها من غيرهم ، وعرفوا يسره وتيسيره ، وأنه كان يؤاكل الصبيان ويأكل طعام عامة المسلمين وأهل الكتاب الذميين ، ويتوضأ في آنيتهم من غير بحث ، ويغتسل هو والمرأة من نسائه من الجنابة في إناء واحد دفعةً واحدةً تختلف أيديهم فيه ، وأنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ مرةً وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع علىٰ ظهره ؛ إذا قام . . حملها وإذا سجد . . وضعها ، وأنه كان يتوضأ بأسآر الدواب ، ويصغي وضوءه للهرة حتىٰ تشرب منه ، وتوضأ هو وأصحابه من مَزادة مشركة ، وأنه لم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم تردد

في التكبير ، ولا تلفظ بقول : أصلي وما بعده ، وقد أوجب الله تعالىٰ علينا اتباعه في الأفعال والأقوال علىٰ كل حال ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الآية وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ، وأخبرنا تعالىٰ أن الشيطان يقعد لنا في طرق الطاعات كما يرصد لنا في المخالفات فقال تعالىٰ مخبراً عنه : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ .

وقد عظمت عنية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم في الاعتناء بسنته ، وحملهم أنفسهم علىٰ هديه وطريقته ، فربما عرض لأحدهم عارض من باب التغليظ في الطهارة والتشديد في الدين ثم تركه ؛ لكون النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعله ، فروينا عن عمر رضي الله عنه أنه كان يهم بالأمر ويعزم عليه ، وإذا قيل له : لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. . انتهىٰ ، حتىٰ قال : لقد هممت أن أنهىٰ عن لبس الثياب المصبوغة ؛ فإنه بلغني أنها تصبغ ببول العجائز ، فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد لبسها ، ولبست في زمانه ، فصدق ذلك وترك ، وقال مرةً لابنه أو لغلامه : ابغني ثوباً لخلائي غير ثوب صلاتي ؛ فإني رأيت الذباب ربما يقع على الخلاء ثم يقع على الثوب ، ثم انتبه فقال : ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثوب واحد ، وترك ما همّ به ، وروي مثل ذلك لزين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما ، وهـٰذا ما تأملوه وفهموه من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ قربهم منه ، مع اعتبار قوله صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ بِٱلْحَنِيفِيَّةِ ٱلسَّمْحَةِ »[1] وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلدِّينَ مَتِينٌ ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ ، وَلاَ تُبَغِّضْ إِلَىٰ نَفْسِكَ عِبَادَةَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَإِنَّ ٱلْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَىٰ »[2] .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقي في « الكبرىٰ » (٤٥٢٠) ، والديلمي في « الفردوس » (٩٠٠) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/٦٧) : وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب ، وفي « صحيح البخاري » (٣٩) ما يغني عن هـٰذا الحديث ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إِنَّ ٱلدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ ٱلدِّينَ أَحَدٌ . . إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَٱسْتَعِينُوا بِٱلْغَدْوَةِ وَٱلرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ ٱلدُّلْجَةِ » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحْدَثَ حَدَثاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا . . فَهُوَ رَدٌّ »[1] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ »[2] وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي . . فَلَيْسَ مِنِّي »[3] .

وقد أمرنا الله سبحانه عند النزاع بالرجوع إلى الكتاب والسنة فقال تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾ .

فانظر كيف حتَّم الله على الخلق اتباعه في أحكام شريعته ، وحمل الأنفس وإن لم يقتضه هواها علىٰ هديه وسنته ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »[4] .

وقال السيد الجليل كبير الشأن الجنيد ابن محمد البغدادي : الطرق كلها مسدودة إلا علىٰ من اقتفىٰ أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] .

وقال الزهري : كان من مضىٰ من علمائنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة[6] ، وقال حسان بن عطية : ما ابتدع قوم بدعةً في دينهم . . إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلىٰ يوم القيامة[7] .

فإذا فهمت أيها الموسوس ما قررناه وحررناه ، وتقرر عندك أن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاة أصحابه وصلاة الطبقة الأولىٰ من التابعين قد كانت خالية عن مثل ما استحدثته بجهلك أو بسوء رأي من اقتديت به ، وعلمت بالنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مبادىء ذلك من الشيطان كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شيطان

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) عن عائشة رضي الله عنها .
(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٧٧٩١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .
(٥) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٥٧) .
(٦) أخرجه الدارمي (٩٦) .
(٧) أخرجه الدارمي (٩٨) .

الوضوء اسمه الوَلْهان[1] ، وشيطان الصلاة اسمه خَنْزَبٌ . .[2] علمت ركاكة الحال ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، وأي خير في صلاة اشتملت على بدعة أو خلاف سنة ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وروينا في « مسند الدارمي » عن هشام بن حُجير قال : كان طاووس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال له ابن عباس : اتركها ، قال : إنما نهي عنها أن تتخذ سُلَّماً ، قال ابن عباس : فإنه قد نهي عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري أتعذَّب عليها أم تؤْجر ؛ لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[3] .

وقال رجل لسعيد بن المسيب وقد نهاه عن ذلك : يا أبا محمد ؛ أيعذبني الله على الصلاة ؟ قال : لا ، ولكن يعذبك الله بخلاف السنة ، وكم من مريد للخير لم يصبه ، ومتقرب إلى الله تعالىٰ بما يباعده عنه ، ومتحبب إليه بما يبغضه عليه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ أعاذنا الله من ذلك ، وبصرنا بعيوبنا ، وجعلنا ممن يأمر ويأتمر ، وينهىٰ وينتهي ، ويقول ويفعل ، متبعين غير مبتدعين ، بجاه سيد المرسلين وخاتم النبيين .

وفيما ذكرنا وسطرنا كفاية لمن وفق وشرح الله صدره ، فأما من أشرب هواه وأتبع أولاه أخراه ، وحرج صدره فلم يسع غير مهواه . . فترَىٰ نفسَه وشيطانه قد تظاهرا عليه ، وحسنا له ما يدعوانه إليه ، فيعنف واعظه ويبذو عليه ، ويرىٰ أنه قد أسدىٰ إليه سيئةً فيكافئه بمثلها ويقول : لمثلي يقال هـٰذا ؟! فيتشبه حينئذٍ بوصف من قال الله فيه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ .

وكان طريقة السلف رحمهم الله إذا وعظ أحدهم فوضح له وجه الصواب . . شكر واعظه ، ورجع علىٰ نفسه باللوم والعتاب ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : (رحم الله من أهدىٰ إليّ عيوبي)[4] واعترضته امرأة في كلام تكلم به في ملأ من الناس ، فصاح علىٰ نفسه بالخطأ وقال : (شيخ جهل وامرأة علمت)[5] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٧) عن أبي بن كعب رضي الله عنه بنحوه .
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٣) عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه .
(٣) الدارمي (٤٣٥) .
(٤) أخرجه الدارمي (٦٤٧) .
(٥) أخرجه البيهقي (٧/ ٢٣٣) ، وسعيد بن منصور (٥٩٨) بمعناه .

فانظر يا أخي كيف كان حالهم في اقتدائهم بسنة نبيهم ، ورجوعهم إلى الحق بعد معرفته ، وذلك لقوة إيمانهم ، وضعف قوىٰ أنفسهم عند ظهور الحق وانخناس شياطينهم ، فدِنْ لله بما دانوا ، ومُتْ علىٰ ما ماتوا . . تَنْجُ وتسلم وتغنم ، وبالله التوفيق .

أما الوسواس في النية التي نحن بصددها . . فقد قال الشيخ الإمام عبد الله بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالىٰ : اعلم : أن النية هي القصد والعزم علىٰ فعل الشيء ، ومحلها القلب ، لا تعلق لها باللسان أصلاً ، ولذلك لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه في النية لفظ بحال ، ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك ، وهٰذه العبارات التي حدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة وجعلها الشيطان معتركاً لأهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها ، ويوقفهم في طلب تصحيحها ، فترىٰ أحدهم يكررها ويجهد نفسه في اللفظ بها حتىٰ كأنه يحمل ثقلاً يرفعه وليست من الصلاة أصلاً ، وإنما النية قصد فعل الشيء ، وكل عازم علىٰ فعل شيء فهو ناوٍ له ، فمن قصد الوضوء . . فقد نواه ، ومن قصد الصلاة فقد نواها ، ولا يكاد عاقل يقصد شيئاً من عباداته ولا غيرها بغير نية ، فالنية أمر لازم لأفعال الإنسان المقصودة لا تحتاج إلىٰ تعب ، ولو أراد إخلاء أفعاله عنها . . لعجز عن ذلك ، ولو كلفه الله تعالى الصلاة والوضوء بغير نية . . لكلفه ما لا يطيقه ولا يدخل تحت وسعه ، وما كان هٰكذا فما وجه التعب في تحصيله ؟ وإن شك في حصولها منه . . فهو نوع جنون ؛ فإن عِلْمَهُ بحال نفسه أمر يقيني ، فكيف يشك فيه عاقل ؟! هٰذا معنىٰ كلامه .

فَصْلٌ
في رقية الوسواس

روينا في « صحيح مسلم » عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي ، وقراءتي يَلْبسها عليَّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذَلِكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ : خَنْزَبٌ ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ . . فَتَعَوَّذْ بِٱللهِ مِنْهُ ، وَٱتْفِلْ عَلَىٰ يَسَارِكَ ثَلاَثاً » ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[1] .

وقال الإمام القطب محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : قال بعض العلماء : يستحب

---

(١) مسلم (٢٢٠٣) .

قول : (لا إلـٰه إلا الله) لمن ابتلي بالوسوسة في الوضوء والصلاة وشبههما ؛ فإن الشيطان إذا سمع الذكر . . خَنَسَ ، والله أعلم[1] .

فَصْلٌ
[في سنن التكبير وقراءة الفاتحة]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتدائه في تكبيرة الإحرام يرفع يديه حتىٰ تكونا حذو منكبيه ، ويحاذي بأطرافهما أذنيه ، ويستقبل ببطونهما القبلة ، فإذا فرغ من التكبير أرسلهما بأناة وقبض بيمينه علىٰ ظهر يساره وجعلهما تحت صدره .

ثم إن كانت الصلاة جهريةً . . سكت سكتةً طويلةً يأتي فيها بدعاء الاستفتاح ، وثبت في مجموعه أحاديث كثيرة يستحب الإتيان بجميعها ، ومن آثر الاختصار لغرض . . فيحسن اقتصاره علىٰ قوله : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين .

وهـٰذه إحدىٰ سكتاته الأربع صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال النووي : المختار أن يتعوذ في كل ركعة ويسر به في حال الجهر والإسرار ، ثم يقول : بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جهر بها وربما أخفاها ، وبين العلماء تنازع في وجوبها والجهر بها والإسرار .

ثم يقرأ (الفاتحة) ويرتلها ، ويقف عند آخر كل آية منها ، ويمد آخر الكلمة ، قال أصحابنا : وفيها أربع عشرة تشديدةً يتعين الإتيان بجميعها ، ويقول بعد الفراغ منها : آمين ، يجهر بها في موضع الجهر ، ويسر بها في موضع الإسرار .

واعلم : أن التأمين مستحب للإمام والمنفرد ، داخل الصلاة وخارجها، ووردت أحاديث كثيرة في فضله وعظيم أجره ، والسنة : أن يؤمن المأمومون بأسرهم لقراءة إمامهم ، ويقترن تأمينهم بتأمين إمامهم ، لا قبله ولا بعده ؛ لأنه صح : « أَنَّ ٱلْمَلاَئِكَةَ تُؤَمِّنُ لِقِرَاءَةِ ٱلإِمَامِ ،

---

(١) الأذكار (ص٢٣٠) .

فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ ٱلْمَلاَئِكَةِ . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[1] ، وليس في الصلاة موضع يستحب أن يقترن فيه قول المأموم بقول الإمام إلا التأمين ، وأما باقي الأقوال . . فيتأخر قول المأموم عن قول الإمام ، والسنة : أن يسكت الإمام بين (الفاتحة) والتأمين سكتةً لطيفةً ؛ ليعلم أن (آمين) ليست من (الفاتحة) .

فصل
[في ندب السكتة بعد التأمين]

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يسكت بعد التأمين سكتةً طويلةً بحيث يقرأ المأموم (الفاتحة) فهي سنة قلَّ من الأئمة من يستعملها ، فهي من السنن المهجورة .

فصل
[في القراءة عقب الفاتحة وما يندب فيها]

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح والأوليين من باقي الفرائض سورةً بعد (الفاتحة) فيجعلها في الصبح والظهر من طوال المفصل ، وفي العصر والعشاء من أوساطه ، وفي المغرب من قصاره ، وهـٰذا غالب عادته صلى الله عليه وسلم في الصلوات ، وربما غيرها بحسب الحاجات والضرورات ، فثبت أنه صلى الله عليه وسلم ربما دخل في الصلاة يريد إطالتها ، فيسمع بكاء الصبي وأمه من المقتدين به . . فيخفف ؛ مخافة أن يشق علىٰ أمه ، وغضب علىٰ معاذ غضباً شديداً حين طول بهم في العشاء ، وعين له (سورة الشمس وضحاها) و (سبح اسم ربك الأعلىٰ) و (الليل إذا يغشىٰ) وقال : « إِذَا أَمَّ أَحَدُكُمُ ٱلنَّاسَ . فَلْيُخَفِّفْ ؛ فَإِنَّ فِيهِمُ ٱلصَّغِيرَ وَٱلْكَبِيرَ وَٱلضَّعِيفَ وَٱلْمَرِيضَ وَذَا ٱلْحَاجَةِ ، فَإِذَا صَلَّىٰ وَحْدَهُ . فَلْيُصَلِّ كَيْفَ شَاءَ »[2] وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يطول في الأولىٰ ما لا يطول في الثانية ، ويبالغ في الإسرار في موضعه حتىٰ لا يعلمون قراءته إلا باضطراب لحيته ، وربما أسمعهم الآية أحياناً .

وكره صلى الله عليه وسلم للمأمومين الجهر بالقراءة خلف إمامهم ، فثبت في الصحيح :

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه بدون(وذا الحاجة) .

أنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ بهم الظهر أو العصر ، فلما سلم . . قال : « أَيُّكُمْ قَرَأَ خَلْفِي بِـ(سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ) » فقال رجل : أنا ، ولم أرد بها إلا الخير ، قال : « قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ بَعْضَكُمْ خَالَجَنِيهَا »[1] أي : نازعنيها ، لهٰذا الحديث قال العلماء : تستحب السورة التي بعد (الفاتحة) للمأموم كما تستحب للإمام والمنفرد ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عليه في رفع صوته لا في أصل القراءة .

وهٰذا كله فيما يسر به الإمام ، أما ما يجهر به الإمام . . فلا يزيد المأموم فيه علىٰ (الفاتحة) فإن لم يسمع قراءة الإمام أو سمع هينمةً[2] لم يفهمها . . استحب له السورة بحيث لا يشوش علىٰ غيره .

واعتاد كثير من الناس من الموسوسين وغيرهم الجهر بالقراءة خلف الإمام ، والتشويش علىٰ من بقربهم من المصلين ، وهي عادة سيئة ، وربما علم بعضهم النهي عن ذلك فلم ينته ، فيصير علمه حجةً عليه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « عِلْمٌ لاَ يُعْمَلُ بِهِ . . كَكَنْزٍ لاَ يُنْفَقُ مِنْهُ أَتْعَبَ صَاحِبُهُ نَفْسَهُ فِي جَمْعِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ نَفْعِهِ »[3] .

فَصْلٌ
[في ندب السكتة عقب القراءة وما يندب في الركوع]

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يسكت بعد الفراغ من القراءة سكتةً لطيفةً ، يفصل بها بين القراءة وتكبيرة الهويّ إلى الركوع ، ثم يكبر رافعاً يديه كإحرامه ، ثم يركع فيضع كفيه علىٰ ركبتيه ، ويفرق بين أصابعه ، ويجافي مرفقيه عن جنبيه ، ويسوي ظهره ورأسه من غير ترفيع ولا تنكيس ، وينصب ساقيه ولا يثني ركبتيه ، ثم يقول : « سُبْحَانَ رَبِّيَ ٱلْعَظِيمِ » ثلاثاً ، فقد جاء في كتب السنن : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ : سُبْحَانَ رَبِّيَ ٱلْعَظِيمِ ثَلاثاً . . فَقَدْ تَمَّ رُكُوعُهُ »[4] ، وثبت في « صحيح مسلم » أنه صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٨) عن عمران بن حصين رضي الله عنه .
(٢) الهَيْنمة : الصوت الذي لا يفهم .
(٣) أخرجه الدارمي (٥٧٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٩٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد أورده الذهبي في « ميزان الاعتدال » (٢/٥٣) .
(٤) أخرجه الترمذي (٢٦١) عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه .

كان يقول في ركوعه وسجوده : « سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ ٱلْمَلائِكَةِ وَٱلرُّوحِ »[1] ، وثبت في غيره بأسانيد صحيحة عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : قمت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً ، فقام فقرأ (سورة البقرة) لا يمر بآية رحمة . . إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب . . إلا وقف وتعوذ ، قال : ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه : « سُبْحَانَ ذِي ٱلْجَبَرُوتِ وَٱلْمَلَكُوتِ وَٱلْكِبْرِيَاءِ وَٱلْعَظَمَةِ »[2] .

وأذكار الركوع واسعة ، وذهب الإمام أحمد ابن حنبل وجماعة إلىٰ أن الذكر في الركوع واجب ، فينبغي المحافظة عليه ، للخروج من الخلاف ، ولحديث : « أَمَّا ٱلرُّكُوعُ . . فَعَظِّمُوا فِيهِ ٱلرَّبَّ »[3] .

واعلم : أن الركوع زمام الصلاة ، وبإدراكه تدرك الركعة ، وبفواته تفوت ، ولهٰذا قال العلماء : يستحب للإمام إذا أحس بداخل وهو راكع أن ينتظره ويمكث حتىٰ يعلم منه الإحرام والركوع والطمأنينة ، ولا ينتظره فيما بعده من الأركان إلا في التشهد الأخير ؛ فإنه يستفاد بإدراكه صلاة الجماعة .

فصل

[فيما يندب في الاعتدال]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال رفعه من الركوع يقول : « سَمِعَ ٱللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ »[4] ويرفع يديه كما يرفعهما للإحرام ، فإذا استوىٰ قائماً . قال : « رَبَّنَا لَكَ ٱلْحَمْدُ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ ، مِلْءَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ ٱلأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ »[5] .

---

(١) مسلم (٤٨٧) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه أبو داوود (٨٧٣) والنسائي (١١٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه البخاري (٧٣٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٥) قال العلامة الأشخر (٢/٣٢٣) : (هٰذا لم يرد أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوله ، بل سمع رجلاً قاله ، فلما انصرف . . قال : « من المتكلم ؟ » قال : أنا ، قال : « رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً » أخرجه الشيخان وأبو داوود والنسائي . . .) .

ووردت عنه صلى الله عليه وسلم في الاعتدال عن الركوع أذكار كثيرة ، وهٰذا أقل ما يقتصر عليه ، قال النووي رحمه الله تعالىٰ : فإن بالغ في الاقتصار.. اقتصر علىٰ (سَمِعَ ٱللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، ربنا لك الحمد) فلا أقل من ذلك[1] .

واعلم : أنه قد صحح كثيرون من أصحابنا : أن الاعتدال ركن قصير ، وهو خلاف المنقول ؛ فقد ثبت عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ».. قام حتىٰ يقول القائل : قد أوهم[2] ، وصحح النووي في « التحقيق » : أنه ركن طويل[3] ، والله أعلم .

واعلم : أن رفع اليدين عند الركوع والرفع منه سنة ثابتة رواها العدد الكثير من الصحابة ، منهم العشرة المبشرة رضي الله عنهم ، ورواها عنهم الجم الغفير من التابعين ، ومع ذلك فقل من يستعملها ويواظب عليها ، والله المستعان .

واختلفت عبارات العلماء في الحكمة في رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وما بعدها ، وأحسنها : ما روي عن الشافعي رحمه الله تعالىٰ أنه قال : فعلته إعظاماً لله ، واتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصل
[في سنن السجود]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من أذكار الاعتدال.. هوىٰ ساجداً مكبراً ، فيضع ركبتيه أولاً ، ثم يديه ، وربما وضع يديه أولاً ، رواه البخاري معلقاً موقوفاً على ابن عمر[4] ، ورواه ابن خزيمة والبيهقي موصولاً مرفوعاً[5] ، وهو أيسر استعمالاً وأليق حالاً ، ثم يضع جبهته وأنفه ، وكان يضع يديه حذو منكبيه مضمومة الأصابع بخلاف الركوع . وصح

---

(١) الأذكار (ص١١٦) .
(٢) أخرجه مسلم (٤٧٣) .
(٣) التحقيق (٢٤٦) ، قال فيه : (والمختار : لا تبطل إن أطاله بذكر) .
(٤) البخاري (كتاب الأذان ، باب : يهوي بالتكبير حين يسجد) .
(٥) ابن خزيمة (٦٢٧) ، والبيهقي (٢/ ١٠٠) .

أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد . . جَنَّح ـ وفي رواية : خَوّىٰ[1] ، وفي رواية : فرج ـ بين يديه حتىٰ يرىٰ بياض إبطيه[2] ، وفي رواية : حتىٰ لو شاءت بهيمة أن تمر . . لمرت[3] ، فلهـٰذا قال العلماء : يسن للمصلي أن يفرق بين ركبتيه ، ويجافي مرفقيه عن جنبيه وبطنه عن فخذيه ، قالوا : والحكمة فيه : أنه أشبه بالتواضع ، وأبعد من هيئة الكسالىٰ ، وأبلغ في تمكين الجبهة والأنف .

وينبغي للمتصف بالسنة أن يحرص علىٰ سنة المجافاة ، ويحمل نفسه علىٰ فعلها ؛ حتىٰ يعتادها فيأتيها بغير مشقة ، فليس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا استعمالها ، والله الموفق .

فصل

[في الدليل علىٰ طول الطمأنينة]

وثبت في « الصحيحين » عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال : حدثني البراء وهو غير كذوب قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « سَمِعَ ٱللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » . . لم يَحْنِ أحدٌ منا ظهره حتىٰ يقع رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً ، ثم نقع سجوداً بعده)[4] ففيه دليل طول الطمأنينة ، وتأخر أفعالهم عن فعله صلى الله عليه وسلم ، وحديث : « فَإِذَا رَكَعَ . . فَٱرْكَعُوا »[5] دليل علىٰ ذلك ، والله أعلم .

فصل

[في فضل السجود وأذكاره]

اعلم : أنه ورد في فضل السجود أحاديث كثيرة ، واختلف العلماء فيه وفي القيام في الصلاة أيهما أفضل ، فذهب الشافعي إلىٰ أن القيام أفضل ، وذهب غيره إلىٰ أن الركوع

---

(١) أخرجها مسلم (٤٩٧) عن ميمونة رضي الله عنها ، وخوّىٰ : أي جافىٰ بطنه عن الأرض ورفعها ، وجافىٰ عضديه عن جنبيه .

(٢) أخرجها البخاري (٣٩٠) عن عبد الله بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أخرجها مسلم (٤٩٦) عن ميمونة رضي الله عنها .

(٤) البخاري (٦٩٠) ومسلم (٤٧٤) .

(٥) أخرجه البخاري (٦٨٨) عن عائشة رضي الله عنها .

والسجود أفضل ، وقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالىٰ : ورد فيه حديثان ، ولم يقض فيه بشيء .

وأما أذكاره . . فوردت فيه أحاديث كثيرة ، وأدنى الكمال من ذلك : سبحان ربي الأعلىٰ ثلاثاً ، وروينا في « صحيح مسلم » عن عائشة رضي الله عنها قالت : افتقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فتحسست ؛ فإذا هو راكع أو ساجد يقول : « سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ »[١] ، وفي رواية فيه : فوقعت يدي علىٰ بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ »[٢] .

قال الخطابي : وفيه معنىً لطيف ؛ وذلك أنه استعاذ بالله وسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته ، والرضا والسخط ضدان متقابلان ، وكذلك المعافاة والمعاقبة ، فلما صار إلىٰ ذكر ما لا ضد له وهو الله سبحانه وتعالىٰ . . استعاذ به منه لا غير[٣] . وله شرح طويل .

واعلم : أن ركن السجود الأعظم : الدعاء ، كما أن ركن الركوع : تعظيم الرب ، والله سبحانه أعلم .

وفي « صحيح مسلم » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أُمِر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسجد علىٰ سبعة ، ونهي أن يكف شعره أو ثيابه)[٤] وفيه أيضاً عنه : أنه رأىٰ عبد الله بن الحارث يصلي ورأسه معقوص من ورائه ، فقام فجعل يُحلُّه ، فلما انصرف . . أقبل إلى ابن عباس فقال : ما لك ولرأسي ؟! فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّمَا مَثَلُ هَـٰذَا . . مَثَلُ ٱلَّذِي يُصَلِّي وَهُوَ مَكْتُوفٌ »[٥] .

---

(١) مسلم (٤٨٥) .
(٢) مسلم (٤٨٦) عن عائشة رضي الله عنها .
(٣) انظر « معالم السنن » (١/ ٢١٤) .
(٤) مسلم (٤٩٠) .
(٥) مسلم (٤٩٢) ، **ومعقوص** : مربوط ، **والمكتوف** : الذي شُدت يده إلىٰ خلف كتفيه موثقاً بحبل .

فانظر إلىٰ قوة إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتغييرهم وإنكارهم لما رأوه مخالفاً لهديه ، ومبالغتهم مرةً بالقول ومرةً بالفعل بحسب الحال والمقدرة ، رضي الله عنهم ونفعنا بهم .

فَصْلٌ

[في الجلوس بين السجدتين وما يندب فيه]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من السجود. . رفع مكبراً حتىٰ يستوي جالساً ، ويفترش رجله اليسرىٰ وينصب رجله اليمنىٰ ، وربما جلس مقعياً فجعل أليتيه علىٰ عقبيه ، وكل سنة ، وكان يجعل يديه بقرب ركبتيه منشورتين ثم يقول : « رَبِّ ؛ ٱغْفِرْلِي وَٱرْحَمْنِي وَٱجْبُرْنِي وَٱرْفَعْنِي وَٱرْزُقْنِي وَٱهْدِنِي وَعَافِنِي »[1] .

واعلم : أن الجلوس بين السجدتين ركن طويل مقصود ، ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم تطويله نحو الركوع والسجود ، وفي حديث : أنه كان يطوله حتىٰ يظن أنه نسي ، ولهٰذا اختار المحدثون من الفقهاء تطويله ، والله أعلم .

فَصْلٌ

[في جلسة الاستراحة وما يندب فيها]

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بعد السجدة الثانية حتىٰ يستوي جالساً ، والفقهاء يسمونها جلسة الاستراحة ، وجعلها بعضهم مسنونةً ، وحملها بعضهم على الحاجة ، ومعناه : أنها لا تسن في حق من لم يحتج إليها ، والصواب الأول ؛ فقد ثبت في « صحيح البخاري » عن مالك بن الحويرث : أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ؛ فإذا كان في وتر من صلاته . . لم ينهض حتىٰ يستوي قاعداً[2] ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »[3] .

---

(١) انظر الروايات والجمع بينها في « المجموع » (٣/ ٣٩٨) .

(٢) البخاري (٨٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١) .

قال في « التتمة » ويكون جلوسه فيها بقدر الجلوس بين السجدتين ، والصواب : دون ذلك ؛ فقد قالوا : الصحيح أنه يمد التكبير في الرفع من السجود إلىٰ أن يستوي قائماً ، ولا يتصور ذلك مع التطويل ، قالوا : ويسن فيها الافتراش ؛ لأنها جلسة استيفاز[1] ، والله أعلم .

فصل

[في كيفية قيامه صلى الله عليه وسلم من السجدة الثانية أو الجلوس في الصلاة]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من السجدة الثانية ومن كل جلوس في الصلاة . . اعتمد علىٰ يديه ، قال العلماء : وكيفيته أن يجعل بطونهما على الأرض ، فإذا استوىٰ قائماً . . شرع في القراءة من غير تمهل .

وكان صلى الله عليه وسلم يصلي الثانية كالأولىٰ ، إلا أن الأولىٰ تختص بتكبيرة الإحرام ، ودعاء الاستفتاح ، وزيادة في تطويل القراءة ، والله أعلم .

فصل

[في سنن التشهد والقيام منه]

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يفترش في التشهد الأول ويخففه ، حتىٰ ورد في حديث أنه كان إذا جلس فيه . . كأنما يجلس على الرَّضْف[2] ، فإذا قام منه . . قام مكبراً رافعاً يديه ، ويمد التكبير فيه إلىٰ أن يستوي قائماً ، ورفع اليدين هنا وإن لم يقل به أكثر الفقهاء فقد ثبت أنه سنة ، وصح في « صحيح البخاري » : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعله[3] ، وهو الموضع الرابع من مواضع الرفع باعتبار تكبيرة الإحرام ، وقد صنف البخاري رحمه الله تعالىٰ تصنيفاً عظيماً قرر فيه سنة الرفع في هـٰذه المواضع ، ورد فيه علىٰ منكريه ، وذكر أنه رواه سبعة عشر صحابياً ، وأنه لم يثبت عن أحد من الصحابة عدم الرفع ، وقد سبق نحو ذلك قريباً ، والله أعلم .

---

(١) استوفز في قعدته : قعد منتصباً غير مطمئن .

(٢) الرَّضْف : الحجارة المحماة .

(٣) البخاري (٧٣٩) .



[في سنته صلى الله عليه وسلم في الركعة الثالثة والرابعة]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتصر على (الفاتحة) في الثالثة والرابعة ، وقد يقرأ فيهما سورةً مختصرةً علىٰ سبيل الندور ، وثبت فيه حديث في « صحيح مسلم »[1] والله أعلم .

فصل

[في السنة في تكبيرات الصلاة]

ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يكبر في كل خفض ورفع في الصلاة ، إلا رفعه من الركوع ، وجملة التكبيرات في صلاة الصبح إحدىٰ عشرة ، وفي المغرب سبع عشرة ، وفي الرباعية اثنتان وعشرون .

والسنة أن يجهر الإمام بجميع التكبيرات بحيث يسمعه المأمومون ، ويسر المأموم بحيث يسمع نفسه ، والسنة في جميعها المد ، ومحله بعد اللام من (الله) ويبالغ في المد إلىٰ أن يصل إلى الركن الذي بعده ؛ لئلا يخلو جزء من صلاته عن الذكر ، وأما **تكبيرة الإحرام**. . فلا تمد ولا تمطط ، بل يقولها مدرجةً مسرعاً ، والله أعلم .

فصل

[في صفة جلوسه صلى الله عليه وسلم في التشهد]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتورك في التشهد الأخير بخلاف سائر الجلسات قبله ، وسببه : أنه جلوس لا تعقبه حركة ولا قيام ، بل يسن بعده المكث للتسبيحات والدعاء للحاضرين وانصراف النسوة ونحو ذلك .

وافترق الأئمة الأربعة في صفة جلوسه صلى الله عليه وسلم في التشهدين علىٰ أربعة أقوال ، المختار منها : ما قررناه أنه صلى الله عليه وسلم كان يفترش في الأول ويتورك في الثاني ، وهو الموافق للأحاديث الصحيحة ، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

---

(١) مسلم (٤٥٢/١٥٧) .

وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قعد في التشهد وضع يده اليسرىٰ علىٰ ركبته اليسرىٰ ، ووضع يده اليمنىٰ علىٰ ركبته اليمنىٰ وعقد ثلاثةً وخمسين وأشار بالسبابة ، رواه مسلم(١) ، وصفة هـٰذا العقد عند الحساب : أن يقبض أصابع يمناه ما عدا المسبحة ويجعل الإبهام تحت المسبحة ، وروى البيهقي أنه صلى الله عليه وسلم عقد في جلوسه للتشهد الخنصر والبنصر ، وحلق الوسطىٰ بالإبهام وأشار بالسبابة ، روى ابن حبان نحوه(٢) .

فصل

[في التشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه والدعاء بعده]

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في لفظ التشهد أحاديث كثيرة في « الصحيحين » وغيرهما ، وأفضلها عند الشافعي رحمه الله تعالىٰ : حديث ابن عباس رضي الله عنهما(٣) ، ولفظه : « اَلتَّحِيَّاتُ ٱلْمُبَارَكَاتُ ٱلصَّلَوَاتُ ٱلطَّيِّبَاتُ لِلهِ ، اَلسَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، اَلسَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ ٱللهِ ٱلصَّالِحِينَ ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ ٱللهِ » .

قال الرافعي رحمه الله تعالىٰ : والمنقول : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في تشهده : « وَأَنِّي رَسُولُ ٱللهِ » ذكره في (كتاب الأذان)(٤) .

واختلف العلماء في وجوب التشهدين ، فقال جمهور المحدثين : هما واجبان ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حافظ عليهما وقد قال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »(٥) وقال

---

(١) مسلم (٥٨٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) السنن الكبرىٰ (٢/ ١٣١) ابن حبان (١٩٤٥) عن وائل بن حجر رضي الله عنه .

(٣) قال العلامة الأشخر في « شرح البهجة » (٢/ ٣٣١) : **فائدة** : قال الترمذي وغيره : أصح حديث ورد في التشهد : حديث ابن مسعود ، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم من التابعين ، وقال به سفيان الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق ، قالوا : لأنه روي عنه من نيف وأربعين طريقاً ، ولأن الرواة عنه من الثقات لم يختلفوا في ألفاظه بخلاف غيره ، ولأنه تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم تلقيناً ، ولأنه ورد بصيغة الأمر ، ولأنه صلى الله عليه وسلم أمره أن يعلمه الناس ، أخرجه أحمد ، وإنما رجح الشافعي حديث ابن عباس ؛ لأنه أجمع ، إذ فيه زيادة (المباركات) وهو الموافق للفظ القرآن .

(٤) انظر « العزيز في شرح الوجيز » (١/ ٤٢٢) .

(٥) أخرجه البخاري (٦٣١) .

أبو حنيفة[1] ومالك وجمهور الفقهاء هما سنتان ، ومذهب الشافعي : أن الأول سنة والثاني واجب ، وهو أقواها دليلاً ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام عنه في بعض صلواته ولم يعد إليه وجبره بسجود السهو .

وأما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير . . فأوجبها الشافعي وأحمد وإسحاق وبعض أصحاب مالك ، وخالفهم الجمهور فجعلوها سنةً ، وقد تتبعت دليل الوجوب فلم يظهر لي كل الظهور ، وجميع روايات التشهد خالية عن ذكر ذلك ، والله أعلم ، ولا تجب في الأول بلا خلاف .

أما الدعاء بعد التشهد . . فثبت كونه سنةً بالأحاديث الصحيحة الصريحة ، وهو السابع من المواطن التي يسن فيها الدعاء في الصلاة ، ويجوز الدعاء فيه بأمور الآخرة والدنيا ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم حين علمهم التشهد : « ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ »[2] وفي رواية : « مَا شَاءَ »[3] .

ومن المأثور فيه : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ ٱلْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ ٱلْمُؤَخِّرُ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ » رواه مسلم[4] .

ومنه : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ ٱلْقَبْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْمَسِيحِ ٱلدَّجَّالِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْمَحْيَا وَٱلْمَمَاتِ ، اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْمَأْثَمِ وَٱلْمَغْرَمِ » رواه الشيخان[5] .

وفي « سنن أبي داوود » بإسناد صحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « كَيْفَ تَقُولُ فِي ٱلصَّلاَةِ ؟ » قال : أتشهد وأقول : اللهم ؛ إني أسألك الجنة وأعوذ بك من

---

(١) الصحيح عنده : أن القعود الأول واجب وكذا قراءة التشهد فيه ، وأما الأخير . . فهو فرض وقراءة التشهد فيه واجب .

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم (٤٠٢) ، والبيهقي (٢/ ١٥٣) ، وأحمد (١/ ٣٨٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٥) البخاري (٨٣٣) ومسلم (٥٨٩) عن عائشة رضي الله عنها .

النار ، أما إني لا أحسن دَنْدنتك ولا دندنة معاذ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ »[1] .

قال العلماء : وهـٰذا كله في التشهد الأخير ، أما الأول . . فيكره فيه الدعاء ؛ لأنه مبني على التخفيف ، قالوا : ويسن ألاَّ يزيد الدعاء علىٰ قدر التشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

فصل
[في التسليم من الصلاة]

ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد التشهد : « اَلسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ ٱللهِ »[2] مرتين ، يلتفت في الأولىٰ علىٰ جانبه الأيمن حتىٰ يرىٰ خده الأيمن ، وكذا في الجانب الأيسر ، وبه يخرج من الصلاة ، وعلىٰ هـٰذا لازم واستمر عمله حتىٰ توفاه الله سبحانه وتعالىٰ ، ورواه عنه العدد الكثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، وعليه واظبوا .

ثم إن مذهب الشافعي : أنه لا يجب إلا تسليمة واحدة ، والثانية سنة ، وعنده أيضاً : أن الالتفات إلى الجانبين مسنون غير واجب[3] ، وقال مالك وآخرون : تسن تسليمة واحدة[4] ، وقال أبو حنيفة : لا يجب السلام ، وعنده يحصل التحلل من الصلاة بكل شيء ينافيها[5] ، وينبغي الاحتياط واستعمال السلام مرتين والالتفات فيهما إلى الجانبين ؛ فهو المنقول عن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم دواماً ، وقد روى البخاري : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »[6] وقال الله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ

---

(١) أبو داوود (٧٩٢) .

(٢) في (أ) : (وبركاته) .

(٣) انظر « المجموع » (٣/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥) .

(٤) انظر « حاشية الدسوقي » (١/ ١٣٣) .

(٥) عند الحنفية لفظ السلام دون (عليكم) واجب ، وعليه : فلو خرج المصلي بفعل آخر غير السلام . . صحت صلاته مع الكراهة التحريمية وعليه الإعادة ما دام الوقت باقياً ، ولعله أراد بعدم الوجوب هنا الفرضية . انظر « الهداية » (١/ ١٣٧) .

(٦) البخاري (٦٣١) .

ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « تَحْرِيمُهَا ٱلتَّكْبِيرُ ، وَتَحْلِيلُهَا ٱلتَّسْلِيمُ »[1] والله أعلم .

فصل

[في أن الأدعية المروية عنه صلى الله عليه وسلم في الصلاة وردت بلفظ التوحيد]

جميع الأدعية المروية عنه صلى الله عليه وسلم في نفس الصلاة رويت بلفظ التوحيد ، قال شيخ شيوخنا القاضي مجد الدين الشيرازي رحمه الله تعالىٰ : فإن قيل : ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ يَؤُمُّ عَبْدٌ قَوْماً فَيَخُصَّ نَفْسَهُ بِدَعْوَةٍ دُونَهُمْ ، فَإِنْ فَعَلَ ذَٰلِكَ . . فَقَدْ خَانَهُمْ » ثم نقل عن ابن خزيمة أنه قال : هٰذا الحديث موضوع[2] ، قال : وقال بعض العلماء : إن ثبت هٰذا الحديث . . فيكون المراد به دعاء ورد بلفظ الجمع .

قلت : وظهر لي والله أعلم أن كل دعاء يدعو به الإمام ويدعو المأموم بمثله . . يكون بلفظ الإفراد ، وكل دعاء يؤمن فيه المأموم لدعاء إمامه . . يكون بلفظ الجمع ، فإن أفرد . . وقع في النهي ، وهٰذا أولىٰ مما ذكره القاضي مجد الدين ؛ لأن الحديث الذي نقل عن ابن خزيمة وضعه خرّجه أبو داوود ، والترمذي[3] وقال : حديث حسن .

فصل

[فيما ورد من سهوه صلى الله عليه وسلم في حديث ذي اليدين]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما سها في صلاته بزيادة أو نقص ، ولا يمنعه من البناء ما فعله علىٰ وجه السهو ، فثبت في حديث ذي اليدين : أنه صلى الله عليه وسلم سلم في الرباعية من اثنتين ، ومشىٰ إلى الجذع ، وخرج السرعان[4] ، ودخل منزله وخرج ، فلما تذكر . . رجع وبنىٰ علىٰ صلاته وأتمها[5] ، قال النووي عند الكلام علىٰ هٰذا الحديث :

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) صحيح ابن خزيمة (١٦٣٠) ، وأشار هناك إلىٰ عدم ثبوت الحديث ، وليس كذلك كما يأتي .

(٣) أبو داوود (٩٠) والترمذي (٣٥٧) عن ثوبان بن بجدد رضي الله عنه .

(٤) المراد بهم : أوائل الناس خروجاً من المسجد ، وهم أصحاب الحاجات غالباً .

(٥) أخرجه مسلم (٥٧٤) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما .

والمشهور في المذهب ـ يعني مذهب الشافعي ـ : أن الصلاة تبطل بذلك ، قال : وهـٰذا مشكل ، وتأويل الحديث صعب علىٰ من أبطلها ، والله أعلم[١] .

فَصْلٌ

[فيما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأذكار والدعوات عقب الصلاة]

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم . . يستغفر ثلاثاً ويقول : « اَللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ ٱلسَّلاَمُ وَمِنْكَ ٱلسَّلاَمُ ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا ٱلْجَلاَلِ وَٱلإِكْرَامِ »[٢] ، وكان يقول : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، اَللَّهُمَّ ؛ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا ٱلْجَدِّ مِنْكَ ٱلْجَدُّ »[٣] ، وقال : « مَنْ سَبَّحَ ٱللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَحَمِدَ ٱللهَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَكَبَّرَ ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَقَالَ تَمَامَ ٱلْمِئَةِ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ ٱلْبَحْرِ »[٤] .

وكان يقول دبر كل صلاة : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ ، لَهُ ٱلنِّعْمَةُ ، وَلَهُ ٱلْفَضْلُ ، وَلَهُ ٱلثَّنَاءُ ٱلْحَسَنُ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، وَلاَ نَعْبُدُ إِلاَّ إِيَّاهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ »[٥] .

وكان يتعوذ دبر الصلوات بهـٰؤلاء الكلمات : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْجُبْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلدُّنْيَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ ٱلْقَبْرِ »[٦] .

كل هـٰذه الأحاديث مروية في « الصحيحين » أو في أحدهما ، فينبغي الاعتماد عليها ،

---

(١) شرح صحيح مسلم (٥/ ٧٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١) عن ثوبان بن بجدد رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤) ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم (٥٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه مسلم(٥٩٤) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٢٢) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وأجلها حديث التسبيح ثلاثاً وثلاثين ؛ لكونه ورد في « الصحيحين » من طرق عديدة بوعود مختلفة ، وأحاديث هـٰذا الباب واسعة ليس هـٰذا موضع بسطها ، والله أعلم .

ويستحب الدعاء عقيب الصلاة ؛ لما روي عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الدعاء أسمع ؟ قال : « جَوْفُ ٱللَّيْلِ ٱلآخِرُ ، وَدُبُرُ ٱلصَّلَوَاتِ ٱلْمَكْتُوبَاتِ »[(١)] قال الترمذي : حديث حسن .

وروىٰ معاذ بن جبل قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي وقال : « يَا مُعَاذُ ؛ وَٱللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ، يَا مُعَاذُ ؛ لاَ تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ : ٱللَّهُمَّ ؛ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » رواه أبو داوود والترمذي بإسناد صحيح[(٢)] .

قال المؤلف كان الله له : وهـٰذا ما يسر الله ذكره من شرح صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ سبيل الاختصار ، وإلا . . فهي تحتمل مجلداً ضخماً ، بل مجلدات ، والذي قصدناه : التعريف بالعادات النبوية في الصلوات ، وما أهمل الناس فيها من السنن المأثورات .

فَصْلٌ

أذكر فيه أنواعاً من الصلوات وأقدم عليه ذكر شيء من رواتب المكتوبات

فمنه : ما اتفق عليه الشيخان : أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين خفيفتين قبل الفجر[(٣)] ، وركعتين قبل الظهر ، وكذا بعدها ، وركعتين بعد المغرب والعشاء والجمعة[(٤)] .

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يدع أربعاً قبل الظهر[(٥)] ، وروىٰ مسلم عنها : أنه كان يصليهن في بيته[(٦)] ، وروى الترمذي : أنه صلى الله عليه وسلم كان يصليهن وقال : « إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ ٱلسَّمَاوَاتِ ، وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٩٩) .
(٢) أبو داوود (١٥٢٢) ، وأخرجه النسائي (١٣٠٣) .
(٣) البخاري (٦١٩) ومسلم (٧٣٦) عن عائشة رضي الله عنها .
(٤) أخرجه البخاري (١١٦٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٥) البخاري (١١٨٢) .
(٦) مسلم (٧٣٠) .

لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ »[١] ، وروىٰ غيره : أنهن يعدلن بصلاة السحر ، وأنهن ليس بينهن تسليم[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ أَرْبَعٍ قَبْلَ ٱلظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا . . حَرَّمَهُ ٱللهُ عَلَى ٱلنَّارِ » رواه الترمذي والحاكم وصححه[٣] .

وروى الترمذي وحسنه : أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي أربعاً قبل العصر ، يفصل بينهن بالتسليم[٤] ، وروىٰ هو وأبو داوود : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَأً صَلَّىٰ قَبْلَ ٱلْعَصْرِ أَرْبَعاً » حسنه الترمذي وصححه ابن حبان وسكت عنه أبو داوود[٥] .

وحض النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ ركعتين قبل المغرب ، فروى البخاري : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « صَلُّوا قَبْلَ صَلاَةِ ٱلْمَغْرِبِ » قالها ثلاثاً ، وقال في الثالثة : « لِمَنْ شَاءَ » كراهة أن يتخذها الناس سنةً[٦] ، قال المحدثون: المراد : (بالسنة) هنا : الطريقة اللازمة ، لا المعنى المصطلح عليه ، ورواه أبو داوود ولفظه : « صَلُّوا قَبْلَ ٱلْمَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ »[٧] وفي « الصحيحين » : أن كبار الصحابة رضي الله عنهم كانوا يبتدرون السواري لهما إذا أذن للمغرب[٨] ، وفي رواية لمسلم : حتىٰ إن الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت ؛ من كثرة من يصليهما[٩] ، وفيهما أيضاً حديث : « بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلاَةٌ »[١٠] وهو ثابت في « الصحيحين » ، وهو دليل أيضاً على استحباب ركعتين قبل العشاء ، وبين يدي كل صلاة مكتوبة .

---

(١) الترمذي (٤٧٨) عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو القاسم الرازي في « الفوائد » (١/ ٢٣١) عن أبي أيوب رضي الله عنه .
(٣) الترمذي (٤٢٨) و« المستدرك » (١/ ٤٥٦) عن أم حبيبة رضي الله عنها .
(٤) الترمذي (٤٢٩) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٥) أبو داوود (١٢٧١) والترمذي (٤٣٠) صحيح ابن حبان (٢٤٥٣) .
(٦) أخرجه البخاري (١١٨٣) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .
(٧) أبو داوود (١٢٨١) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .
(٨) البخاري (٥٠٣) ومسلم (٨٣٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، ورواية مسلم بنحوه .
(٩) مسلم (٨٣٧) .
(١٠) البخاري (٦٢٧) ومسلم (٨٣٨) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .

قال العلماء : شرطهما ألاَّ تصليا بعد شروع المؤذن في الإقامة ، ولا تُفوّتان فضيلة تحرم الإمام .

قلت : تسن المواظبة علىٰ ما ذكرنا أولاً مما اتفق عليه الصحيحان ؛ فهو الموافق لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ . . بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي ٱلْجَنَّةِ » رواه مسلم[1] ، وفي رواية له : « أَرْبَعاً قَبْلَ ٱلظُّهْرِ ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ ٱلْمَغْرِبِ ، وَبَعْدَ ٱلْعِشَاءِ ، وَقَبْلَ صَلاَةِ ٱلصُّبْحِ »[2] وأخرج ركعتي الجمعة وهو موافق لهٰذا العدد أيضاً ، والله أعلم .

ومنه : الوتر ، وقد حض النبي صلى الله عليه وسلم عليه فقال : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ وِتْرٌ يُحِبُّ ٱلْوِتْرَ ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ ٱلْقُرْآنِ »[3] وقال : « إِنَّ ٱللهَ قَدْ أَمَدَّكُمْ بِصَلاَةٍ هِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ حُمْرِ ٱلنَّعَمِ ، وَهِيَ ٱلْوِتْرُ ، فَجَعَلَهَا فِيمَا بَيْنَ ٱلْعِشَاءِ إِلَىٰ طُلُوعِ ٱلْفَجْرِ »[4] رواهما أبو داوود والترمذي .

واختلفت عادات النبي صلى الله عليه وسلم في وقته ، فروت عائشة رضي الله عنها قالت : (من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ من أول الليل ، ومن أوسطه ، وآخره ، وانتهىٰ وتره إلى السحر) متفق عليه[5] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ خَافَ أَلاَّ يَقُومَ مِنْ آخِرِ ٱللَّيْلِ . . فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ . . فَلْيُوتِرْ آخِرَ ٱللَّيْلِ ؛ فَإِنَّ صَلاَةَ آخِرِ ٱللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ » رواه مسلم[6] .

واختلف العلماء في عدده بحسب اختلاف الروايات من ركعة إلىٰ ثلاث عشرة ، وغالب الأحوال ثلاث ، وعليه العمل أكثر .

---

(١) مسلم (٧٢٨) عن أم حبيبة رضي الله عنها .
(٢) مسلم (٧٣٠) .
(٣) أخرجه أبو داوود (١٤١٦) ، والترمذي (٤٥٣) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٤) أبو داوود (١٤١٨) والترمذي (٤٥٢) عن خارجة بن حذافة رضي الله عنه .
(٥) البخاري (٩٩٦) ومسلم (٧٤٥) .
(٦) مسلم (٧٥٥) .

واختلفوا : هل الوتر التهجد الذي أمر الله نبيه به أم هو غيره ؟ والصواب : أنه غيره ، وإنما لتلازمهما سمي أحدهما باسم الآخر توسعاً ، وأطلق علىٰ ذلك أكثر الروايات .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما فصله ، وربما وصله ، والفصل أكثر .

ومذهب الشافعي : أن أفضل الرواتب الوتر ، ثم ركعتا الفجر ، وقد قال بعض العلماء بوجوبهما ، وثبت في « صحيح مسلم » : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَفْضَلُ ٱلصَّلاَةِ بَعْدَ ٱلْمَكْتُوبَةِ : صَلاَةُ اللَّيْلِ »(١) .

فائدة

[في مشروعية القنوت]

يشرع القنوت في الفجر والوتر وفي سائر المكتوبات للنازلة ، ومحله قبل الركوع عند مالك وبعده عند الشافعي، ولكليهما حجة ثابتة في « الصحيحين »، وقد اختار بعض المحدثين أن يقنت في الفجر بعد الركوع وفي الوتر قبله ؛ عملاً بالأمرين ، ثم إن مذهب الشافعي أنه لا يندب في الوتر إلا في النصف الثاني من رمضان ، والمختار : استمراره في جميع السنة ؛ لإطلاق حديث الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما عن جده صلى الله عليه وسلم ، وهو ما رواه الحفاظ بالإسناد الصحيح عن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ . . . » وذكر الحديث ، قال الترمذي : ولا نعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم في القنوت شيئاً أحسن من هـٰذا(٢) ، قال محمد بن الحنفية : وهو الذي كان أبي يدعو به في صلاة الفجر .

فائدة أخرىٰ

[فيما يسن قوله بعد الوتر]

روىٰ أبو داوود وغيره بإسناد صحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد الوتر ثلاث مرات : « سُبْحَانَ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ » ويرفع صوته بالثالثة(٣) .

---

(١) مسلم (١١٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الترمذي (٤٦٤) .

(٣) أبو داوود (١٤٣٠) عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه ، والنسائي (٣/٢٤٧) عن عبد الرحمـٰن بن أبزىٰ رضي الله عنه .

وإذ قد فرغنا من المكتوبات ورواتبها[1] . . فنشرع الآن في ذكر الصلوات المتفرقات التي وعدنا بذكرها ، وأولاهن بالذكر :

أولاً : الجمعة ، وقد أمر الله بها ، وحض النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ فعلها ، وأوعد العقوبة في تركها ، وأطنب في وصف يومها ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى ٱلْجُمُعَةَ فَٱسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ . . غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجُمُعَةِ ٱلأُخْرَىٰ وَزِيَادَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ ٱلْحَصَىٰ . . فَقَدْ لَغَا »[2] .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اَلصَّلَوَاتُ ٱلْخَمْسُ ، وَٱلْجُمُعَةُ إِلَى ٱلْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ . . مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا ٱجْتُنِبَتِ ٱلْكَبَائِرُ »[3] .

وعنه وعن ابن عمر رضي الله عنهم : أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول علىٰ أعواد منبره : « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ ٱلْجُمُعَاتِ ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ »[4] .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ . . يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا »[5] .

وعنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال : « فِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ ٱللهَ تَعَالَىٰ شَيْئاً . . إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » وأشار بيده يقللها[6] ، روىٰ جميعها مسلم ، والأحاديث في هـٰذا المعنىٰ كثيرة معلومة .

وبالجملة : هو يوم عظيم مشتمل علىٰ فوائد وخصائص لا توجد في غيره ، ذكر بعضهم في خواصه اثنتين وثلاثين خاصيةً .

---

(١) في (د) و(و): (من المكتوبات وروايتها).
(٢) أخرجه مسلم (٨٥٧) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣) .
(٤) أخرجه مسلم (٨٦٥) .
(٥) أخرجه مسلم (٨٥٤) .
(٦) أخرجه مسلم (٨٥٢) .

واختلف العلماء فيه وفي يوم عرفة أيهما أفضل ؟ وذلك فيما لو قال لزوجته : أنت طالق في أفضل الأيام .

واختلفوا أيضاً في تعيين ساعة الإجابة فيه علىٰ أحد عشر قولاً ، أرجحها : ما ثبت في « صحيح مسلم » : أنها ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلىٰ أن تقضى الصلاة[1] ، ويتلوه في الرجحان : ما ثبت في حديث آخر صحيح : أنها بعد صلاة العصر ، وأنها آخر ساعة من النهار[2] ، وعلىٰ هٰذا أكثر الصحابة والتابعين ، والله أعلم .

فائدة

[في أوقات الإجابة وأماكنها]

حصر الشيخ الإمام الحافظ أبو الخير الجزري رحمه الله تعالىٰ في كتابه « العدة » أوقات الإجابة وأحوالها وأماكنها فقال : ليلة عرفة ، ويوم عرفة ، وليلة القدر ، وشهر رمضان ، وليلة الجمعة ، ويوم الجمعة ، وساعة الجمعة ـ وهي ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلىٰ أن تقضى الصلاة ، وقال : والأقرب أنها عند قراءته (الفاتحة) حتىٰ يؤمن ـ وجوف الليل ، ونصفه الثاني ، وثلثه الأول ، وثلثه الآخر ، ووقت السحر ، وعند النداء بالصلاة ، وبين الأذان والإقامة ، وبعد[3] الحيعلتين للمخبت المكروب ، وعند الإقامة ، وعند الصف في سبيل الله ، وعند التحام القتال ، ودبر الصلوات المكتوبات ، وفي السجود ، وعقيب تلاوة القرآن ؛ لا سيما الختم ، وعند قول الإمام : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، وعند شرب ماء زمزم ، و عند صياح الدِّيَكَةِ ، واجتماع المسلمين في مجالس الذكر ، وعند تغميض الميت ، وعند نزول الغيث ، وبين جلالتي (سورة الأنعام) ، وعند رؤية الكعبة ، وفي المساجد الثلاثة ، وفي الطواف ، وعند الملتزم ، وفي داخل البيت ، وعند زمزم ، وعند الصفا والمروة ، وخلف المقام ، وفي عرفات والمزدلفة ومنىٰ ، وعند الجمرات الثلاث ، وعند قبور الأنبياء ، ولا يصح قبر نبي بعينه سوىٰ قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقط بالإجماع ،

---

(١) مسلم (٨٥٣) .

(٢) أخرجه أبو داوود (١٠٤٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) في (أ) : (وبين) ، وفي (ج) : (وعند) .

وقبر إبراهيم عليه الصلاة والسلام داخل السور من غير تعيين .

قال : وجرب استجابة الدعاء عند قبور الصالحين بشروط معروفة .



[في وقت صلاة الجمعة واستحباب التبكير إليها]

وقت الجمعة : وقت الظهر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يبكر في الخروج إليها ؛ وكان خروجه متصلاً بالزوال ، وذلك بعد انقضاء الساعة السادسة ، وحض على التبكير ، فروى أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنِ ٱغْتَسَلَ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ غُسْلَ ٱلْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلأُولَىٰ . . فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلثَّانِيَةِ . . فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . . فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلرَّابِعَةِ . . فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلْخَامِسَةِ . . فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً ، فَإِذَا خَرَجَ ٱلإِمَامُ . . حَضَرَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ ٱلذِّكْرَ » خرجه البخاري ومسلم[1] .

قال مالك رحمه الله تعالىٰ وبعض أئمة الشافعية : المراد بالساعات : هنا لحظات لطيفة بعد الزوال ، ومذهب الجمهور : أنها من أول النهار ، وأنها من طلوع الفجر لا من طلوع الشمس .

وفي هـٰذا الحديث تأكيد غسل الجمعة ، وأنه يعم الرأس وجميع البدن كغسل الجنابة ، وقد أوجبه بعض الصحابة وكثيرون من السلف ، ومذهب الجمهور أنه سنة مؤكدة ، ولكلا المذهبين دليل ظاهر من الحديث ، والله أعلم .

ثم اختلف العلماء في العدد الذي تنعقد بهم الجمعة وأين تقام علىٰ أقوال كثيرة منتشرة غاية الانتشار ، مع اتفاقهم أنها لا تصح إلا في جماعة وبلد جامع ، قال ابن الصلاح وغيره من أئمة المحدثين : لم يثبت في تقدير عدد الجمعة خبر ثابت ، وأفتىٰ كثيرون من متأخري أصحاب الشافعي بإقامتها بدون الأربعين ، وهو قول قديم للشافعي ، واختار جماعة منهم أن تصلىٰ جمعةً ثم تعاد ظهراً ، وهو النهاية في الاحتياط ، والله أعلم .

---

(١) البخاري (٨٨١) ومسلم (٨٥٠) .

فائدة

[فيما يستحب يوم الجمعة وليلتها]

يستحب قراءة (سورة الكهف) في يوم الجمعة وليلتها ، وكثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيهما ، وأن يقول قبل صلاة الغداة في يومها : (أستغفر الله الذي لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه) ثلاث مرات ، وأن يجتهد في الدعاء في جميع يومها ؛ رجاء مصادفة ساعة الإجابة ، ويقرأ بعد صلاتها (الفاتحة) و(قل هو الله أحد) و (المعوذتين) سبعاً سبعاً ، وقد جاء في جميع ذلك أحاديث نبوية تركتها اختصاراً ، والله أعلم .

صلاة الجماعة

اعلم : أن صلاة الجماعة سنة مؤكدة ، وقيل : فرض كفاية للرجال ، وسنة للنساء ، وقيل : فرض عين وهـٰذان الأخيران قويان من حيث الدليل ، وعلىٰ كل حال لا رخصة في تركها إلا بالأعذار التي ترخص في ترك الجمعة .

دليله : ما رويناه في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ أعمىٰ فقال : يا رسول الله ؛ إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ، فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخص له فيصلي في بيته ، فرخص له ، فلما ولَّىٰ . . دعاه فقال : « هَلْ تَسْمَعُ ٱلنِّدَاءَ ؟ » فقال : نعم ، قال : « فَأَجِبْ »[1] .

وروىٰ أبو داوود بإسناد حسن : أن ابن أم مكتوم الأعمىٰ قال : يا رسول الله ؛ إن المدينة كثيرة الهوام والسباع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتَسْمَعُ حَيَّ عَلَى ٱلصَّلاَةِ حَيَّ عَلَى ٱلْفَلاَحِ . . فَحَيَّ هَلاَ »[2] .

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ، ثُمَّ آمُرَ بِٱلصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيَؤُمَّ ٱلنَّاسَ ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ »[3] .

---

(١) مسلم (٦٥٣) .

(٢) أبو داوود (٥٥٣) .

(٣) البخاري (٦٤٤) ومسلم (٦٥١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (من سَرَّه أن يلقى الله تعالىٰ غداً مسلماً . . فليحافظ علىٰ هـٰؤلاء الصلوات حيث ينادَىٰ بهن ؛ فإن الله عز وجل شرع لنبيكم سنن الهدىٰ ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هـٰذا المخالف في بيته . . لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم . . لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتىٰ به يهادىٰ بين الرجلين حتىٰ يقام في الصف) رواه مسلم[1] ، وفي رواية له عنه أيضاً قال : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا سنن الهدىٰ ، وإن من سنن الهدىٰ : الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه)[2] .

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَلْدَةٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ ٱلصَّلاَةُ . . إِلاَّ قَدِ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ ، فَعَلَيْكُمْ بِٱلْجَمَاعَةِ ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ ٱلذِّئْبُ ٱلْقَاصِيَةَ مِنَ ٱلْغَنَمِ » رواه أبو داوود[3] بإسناد حسن ، وكل هـٰذه الأحاديث في الصحيح ومايقاربه ، وكلها تدل على الحرج والضيق وعدم الرخصة .

هـٰذا وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة بوعود جليلة ، وفي صلاة الصبح والعشاء زيادة تخصيص ، من ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى ٱلْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ . . فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ ٱللَّيْلِ ، وَمَنْ صَلَّى ٱلصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ . . فَكَأَنَّمَا صَلَّى ٱللَّيْلَ كُلَّهُ » رواه مسلم[4] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَيْسَ صَلاَةٌ أَثْقَلَ عَلَى ٱلْمُنَافِقِينَ مِنَ صَلاَةِ ٱلْفَجْرِ وَٱلْعِشَاءِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا . . لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً » متفق عليه[5] .

صلاة الليل

قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، وقال

---

(١) مسلم (٦٥٤) .
(٢) مسلم (٦٥٤/٢٥٧) .
(٣) أبو داوود (٥٤٧) .
(٤) مسلم (٦٥٦) .
(٥) البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١) .

تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ ٱللَّيْلِ ؛ فَإِنَّهُ دَأْبُ ٱلصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ، وَمُكَفِّرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ ، وَمَنْهَاةٌ عَنِ ٱلإِثْمِ »[١] وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ فِي لَيْلَةٍ بِمِئَةِ آيَةٍ . . لَمْ يُكْتَبْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ ، وَمَنْ صَلَّىٰ فِي لَيْلَةٍ بِمِئَتَيْ آيَةٍ . . فَإِنَّهُ يُكْتَبُ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ٱلْمُخْلِصِينَ » رواهما الحاكم[٢] وقال : الأول علىٰ شرط البخاري ، والثاني علىٰ شرط مسلم .

والآيات والأحاديث في هـٰذا المعنىٰ كثيرة معلومة في « الصحيحين » وغيرهما ، ونشرع الآن في ذكر بيان وقته وعدده والمتلو فيه ، مع فوائد تتعلق بذلك كثيرة .

أما الوقت : ففي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : (من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ من أول الليل ، ومن أوسطه ، ومن آخره ، وانتهىٰ وتره إلى السحر)[٣] وقد سبق ذلك قريباً ، وموضع الدلالة منه : أن وتره صلى الله عليه وسلم كان ملازماً لتهجده ، وأفضل الأجزاء الليلية لذلك : السدس الرابع والخامس باعتبار قسمة الليل ستة أجزاء ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « أَحَبُّ ٱلصَّلَاةِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ : صَلَاةُ دَاوُودَ ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ ٱللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ » رواه الشيخان[٤] .

وأما العدد : فاختلفت الروايات عنه صلى الله عليه وسلم ، واختلافها يدل علىٰ تغاير أحواله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بحسب اختلاف الأوقات والأحوال وأغلب العادات النبوية في ذلك : ما رويناه في « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد في رمضان ولا غيره علىٰ إحدىٰ عشرة ركعةً ، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ؛ أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : « يَا عَائِشَةُ ؛ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) ، والحاكم (١/ ٤٥١) عن أبي أمامة رضي الله عنه .
(٢) الحاكم (١/ ٤٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) البخاري (٩٩٦) ومسلم (٧٤٥) .
(٤) البخاري (٣٤٢٠) ومسلم (١١٣٠) .

وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي »[1] ، وورد في كثير من الروايات ثلاث عشرة[2] ، وأكثر الروايات عن عائشة رضي الله عنها خمس عشرة[3] .

وقد كان للسلف عادات في التهجد ، منهم من كان ورده مئة ركعة ، وآخرون ألف ركعة ، ومنهم من قدره بقوته ؛ فلا يزال يتهجد حتىٰ يعجز فيأتي فراشه حبواً ، ذكره ابن خليل في « التحفة » .

قلت : وهـٰذا الأخير مذموم شرعاً ، وقد ورد في جملة من الأحاديث النهي عنه ، وتخطئة فاعله ، فينبغي للإنسان أن يأخذ نفسه بالتدريج أولاً بركعتين ، فقد ورد في الحديث أنهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم يدرجها في العمل حتىٰ ينتهي إلىٰ إحدىٰ عشرة ركعة ، أو عدد يقدر عليه فيلازمه ويتخذه ورداً يعتاده ، ويطالب نفسه بأدائه ، ويمرن على العمل به وإن فات عليه لعارض . . أصبح مهموماً عليه ، وتدارك قضاءَه في النهار ؛ فقد روينا في « صحيح مسلم » عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع وغيره . . صلىٰ من النهار ثنتي عشرة ركعةً[4] ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ ٱلْفَجْرِ وَصَلاَةِ ٱلظُّهْرِ . . كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ ٱللَّيْلِ » رواه مسلم[5] .

فينبغي للإنسان ألاَّ يهمل حظه من الليل ولو بركعتين ؛ فقد سبق قريباً ما ورد فيهما ، ومن لم يدرك الخير كله . . فلا يتركه كله ، والقليل يجر الكثير ، والله ولي التوفيق .

وليحذر كل الحذر أن يستحكم علىٰ رأسه عقد الشيطان ويبول في أذنيه فيمضي عليه كل الليل بفوائده العظيمة وخيراته العميمة ، ويصبح فقيراً منها خبيث النفس كسلان ، لا ينشط إلى خير ولا ينكف عن شر ، روينا في « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن

---

(١) البخاري (١١٤٧) ومسلم (٧٣٨) .
(٢) أخرجه مسلم (٧٣٧) .
(٣) أخرجه البخاري (١١٧٠) ، ومالك في « الموطأ » (١/ ١٢١) .
(٤) مسلم (٧٤٦) .
(٥) مسلم (٧٤٧) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَعْقِدُ ٱلشَّيْطَانُ عَلَىٰ قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ ، يَضْرِبُ عَلَىٰ كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا : عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَٱرْقُدْ ، فَإِنِ ٱسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ ٱللهَ تَعَالَىٰ . . ٱنْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ تَوَضَّأَ . . ٱنْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، فَإِنْ صَلَّىٰ . . ٱنْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا ، فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ ٱلنَّفْسِ ، وَإِلاَّ . . أَصْبَحَ خَبِيثَ ٱلنَّفْسِ كَسْلاَنَ »[1] .

وروينا فيهما أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل نام ليله حتىٰ أصبح ، فقال : « ذَلِكَ رَجُلٌ بَالَ ٱلشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ » أو قال : « فِي أُذُنِهِ »[2] .

وليحذر كل الحذر أيضاً من ترك تهجدٍ اعتاده ، والإعراض عنه بالكلية ، فيكون أسوأ حالاً ممن لم يتهجد رأساً ، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من الحور بعد الكور[3] ، وهو النقص بعد الزيادة ، والرجوع من حال سني إلىٰ حال دنيء ، نعوذ بالله من ذلك ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « يَا عَبْدَ ٱللهِ ؛ لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ كَانَ يَقُومُ ٱللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ ٱللَّيْلِ » متفق عليه[4] .

وأما ما يقرأ في صلاة الليل : فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهجد بالقرآن درساً ، فيقصر ويطيل ، ويجهر ويخفي ، ويراعي في كل وقت ما يناسبه ، وأطول ما ورد في ذلك : ما رويناه في « صحيح مسلم » عن حذيفة رضي الله عنه قال : صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فافتتح (البقرة) فقلت : يقف عند المئة ، ثم مضىٰ فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضىٰ فقلت : يركع بها ، ثم افتتح (النساء) فقرأها ، ثم افتتح (آل عمران) فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، إذا مر بآية فيها تسبيح . . سبح ، وإذا مر بسؤال . . سأل ، وإذا مر بتعوذ . . تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول : « سُبْحَانَ رَبِّيَ ٱلْعَظِيمِ » وكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : « سَمِعَ ٱللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا لَكَ ٱلْحَمْدُ » ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال : « سُبْحَانَ رَبِّيَ ٱلأَعْلَىٰ » فكان سجوده قريباً من قيامه[5] .

---

(١) البخاري (٣٢٦٩) ومسلم (٧٧٦) .
(٢) البخاري (٣٢٧٠) ومسلم (٧٧٤) .
(٣) أخرجه النسائي (٥٤٩٨) عن عبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنه .
(٤) البخاري (١١٥٢) ومسلم (١١٥٩) .
(٥) مسلم (٧٧٢) .

قال الإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : وأما الذين ختموا القرآن في ركعة . . فلا يحصون ؛ لكثرتهم ، فمنهم عثمان بن عفان ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبير[١] .

قلت: واستمر فعل كثيرين من السلف والخلف علىٰ سبع القرآن كل ليلة في ركعات التهجد .

وأحسن ما يمكن الدوام عليه بغير ملل ولا إخلال ويطيقه كل أحد في عموم الأحوال : اعتياد ختمتين في كل شهر ، إحداهما في صلاته بالليل لكل ليلة جزء ، والأخرىٰ خارج الصلاة ، والله ولي التوفيق .

هـٰذا في حق من يحفظ القرآن ، وأما غيره . . . فيقرأ من السور القصار وما أمكنه ، وأحسن الأوراد له : قراءة (قل هو الله أحد) في كل ركعة ثلاثاً ؛ فقد ورد في الصحاح : أن من قرأها ثلاثاً . . فكأنما قرأ القرآن كله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما قرأ السورة في ركعة واقتصر عليها ، وربما قرأ سورتين أو أكثر في ركعة كما في حديث حذيفة السابق وحديث : إني لأَعرف النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهن ، فذكر عشرين من المفصل في عشر ركعات[٢] .

وكان ربما غشيه البكاء في تهجده وخنقته العبرة ، وقام ليلةً حتىٰ أصبح بقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، وروي مثل ذلك عن عمر رضي الله عنه أنه صلىٰ بالناس صلاة الصبح ، فلما أتىٰ علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ . . خنقته العبرة وبكىٰ حتىٰ سمع نشيجه المأمومون ، وقام تميم الداري بقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ ، وقام سعيد بن جبير بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ، وقام النووي بقوله تعالىٰ : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ وهـٰذا علىٰ قدر ما يظهر لهم بدقائق الأفكار من لطائف المعارف وعجائب الأسرار .

قال السيد الجليل إبراهيم الخواص رضي الله عنه ونفع به : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

---

(١) انظر « التبيان » (ص ٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٧٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بنحوه .

تَنبِيه

[في كراهة قيام كل الليل وتخصيص ليلة الجمعة بقيام]

قال العلماء : يكره قيام كل الليل ؛ خشية أن يمل وينقطع عنه كله ، روينا في « الصحيحين » عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ ٱلنَّهَارَ وَتَقُومُ ٱللَّيْلَ ؟ » فقلت : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « فَلاَ تَفْعَلْ ، صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ وَنَمْ . . . »[1] وذكر الحديث .

قالوا : ويكره تخصيص ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ؛ لما ثبت في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ تَخُصُّوا لَيْلَةَ ٱلْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ ٱللَّيَالِي ، وَلاَ تَخُصُّوا يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ ٱلأَيَّامِ ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِي صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ »[2] .

قال الإمام القطب محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ في « شرحه لمسلم » عند الكلام علىٰ هـٰذا الحديث : (احتج به العلماء علىٰ كراهة هـٰذه الصلاة المبتدعة التي تسمى الرغائب ، قاتل الله واضعها ومخترعها ؛ فإنها بدعة منكرة من البدع التي هي ضلالة وجهالة ، وفيها منكرات ظاهرة ، وقد صنف جماعة من الأئمة مصنفات نفيسةً في تقبيحها ، وتضليل مصليها ومبتدعها ، ودلائل قبحها وبطلانها وتضليل فاعلها أكثر من أن تحصر)[3] هـٰذا كلامه بحروفه ، وله عليها في « فتاويه » كلام طويل .

قلت : اشتد نزاع العلماء في هـٰذه الصلاة وصلاة ليلة النصف من شعبان ، وطريقة الإنصاف البعيدة عن الاعتساف : أن يجتنب صلاة الرغائب ؛ لمصادمتها هـٰذا الحديث الصحيح الذي لا محيص عنه ، ولا معدل إلا بحديث يقاومه في الصحة ، ولا سبيل إليه ؛ فقد نص جهابذة المحدثين أهل النقد والصناعة في هـٰذا الفن : أن الحديث المذكور فيها باطل موضوع لا أصل له ، وأنها لم تحدث إلا في آخر القرن الخامس ببيت المقدس ، وأهل

---

(١) البخاري (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩) .

(٢) مسلم (١١٤٤) .

(٣) شرح صحيح مسلم (٨/ ٢٠) .

كل فن يسلم لهم في فنهم وإن شاركهم غيرهم فيه ، فإذا تحققت ذلك . . فلا تلتفت على من صلاها أو ذكرها ؛ فإن القدوة لا تتم إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك غيره صلى الله عليه وسلم ، وما يؤمن أن يحرص الإنسان على طاعة فيقع في خلاف سنة فلا تقاوم إحداهما الأخرىٰ ، وقد قدمنا عن سعيد بن المسيب أنه قيل له : يا أبا محمد ؛ أيعذبني الله على الصلاة ؟ قال : لا ، ولكن يعذبك الله بخلاف السنة ، وإذا تحققت ذلك . . فاختر لنفسك ما يترجح لك فيه النجاة والسلامة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

وأما صلاة ليلة النصف من شعبان . . فلا يتعلق فعلها بمأثم ؛ لخلوها عن النهي ، والأولىٰ لمن رغب فيها أن يصليها منفرداً ؛ لأن مثل هـٰذا الشعار الظاهر لا يقوم إلا بدليل ظاهر ، والله أعلم بالصواب .

صلاة التراويح وقيام رمضان

اعلم : أن قيام رمضان سنة بالإجماع ، وللعشر الأواخر منه زيادة تخصيص ، روينا في « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَٱحْتِسَاباً . . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[1] ، وروينا فيهما أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان . . أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر)[2] .

أما أصل استحبابها على هـٰذا الوجه الذي يفعله الناس اليوم . . فإنه ورد في الصحاح : أنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ بهم في رمضان ليالي في المسجد ، وكانوا في كل ليلة يتزايد جمعهم ، فلما رأىٰ ذلك صلى الله عليه وسلم . . أبىٰ أن يخرج إليهم ، وصلىٰ بقية الشهر في بيته ، واعتذر إليهم فقال : « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا »[3] ، قال في « صحيح البخاري » : فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر على ذلك ، ثم كان الأمر

---

(١) البخاري (٣٧) ومسلم (٧٥٩) .
(٢) البخاري (٢٠٢٤) ومسلم(١١٧٤) .
(٣) أخرجه مسلم (٧٦١) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .

علىٰ ذلك في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر رضي الله عنهما[1] ، معناه : استمر الأمر في هٰذه المدة علىٰ أن كل واحد يقوم رمضان في بيته منفرداً حتى انقضىٰ صدر من خلافة عمر ، ثم جمعهم عمر علىٰ أبيّ بن كعب ، فاستقر الأمر علىٰ ذلك والصحابة متوافرون من غير إنكار من أحد منهم .

ثم إن مذهب الشافعي والجمهور : استحبابها جماعةً ، وقال مالك وأبو يوسف وبعض أصحاب الشافعي : الأفضل فرادىٰ في البيت ، والصواب الأول ؛ لما ذكرناه من فعل عمر رضي الله عنه وإجماع الصحابة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي »[2]، وقال : « أَصْحَابِي كَٱلنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ . . ٱهْتَدَيْتُمْ»[3].

وأما عددها وتسميتها بالتراويح . . فرواه البيهقي بالإسناد الصحيح عن فعل عمر والصحابة ، وتسمىٰ كل تسليمتين منها ترويحةً ؛ لأنهم كانوا إذا صلوا تسليمتين . . استراحوا ساعةً .

قال الحليمي في « منهاجه » ما حاصله : أن الأفضل في وقتها بعد مضي ربع الليل فصاعداً ، سواء أخر العشاء إليها أو صلاها ثم نام ، قال : فأما إقامة العشاء لأول وقتها ووصل القيام بها . . فذلك من بدع الكسالىٰ والمترفين ، وليس من القيام المسنون في شيء[4] .

قال أصحابنا : ولا تصح التراويح بنية مطلقة ، بل ينوي في كل ركعتين سنة التراويح أو قيام رمضان .

قال الإمام محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : وأما القراءة فيها . . فالمختار الذي قاله الأكثرون وأطبق الناس على العمل به : أن تُقرأ الختمة بكمالها في التراويح في جميع

---

(١) البخاري (٢٠٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو داوود (٤٦٠٧) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه .
(٣) قال ابن حجر رحمه الله في « التلخيص الحبير » (٦/٣١٨٩) : (قال أبو بكر البزار : هٰذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن حزم : هٰذا خبر مكذوب موضوع باطل) .
(٤) المنهاج في شعب الإيمان (٢/٣٠٦ـ٣٠٧) .

الشهر ؛ فيقرأ في كل ليلة نحو جزء من ثلاثين ، ويستحب أن يرتل القراءة ويبينها ، وليحذر من التطويل عليهم بقراءة أكثر من جزء . هـٰذا كلامه[١] .

قلت : ومما يتعين الاعتناء به والتنبيه عليه ما اعتاده كثيرون من أئمة المصلين بالناس التراويح من الإدراج في قراءتها والتخفيف في أركانها وحذف أذكارها ، وقد قال العلماء : صفتها كصفة باقي الصلوات في الشروط والآداب وجميع الأذكار ، كدعاء الافتتاح ، وأذكار الأركان ، والدعاء بعد التشهد ، وغير ذلك ، ومن ذلك : طلبهم لآيات الرحمة حتىٰ لا يركعون إلا عليها ، وربما أداهم طلب ذلك إلىٰ تفويت أمرين مهمين من آداب الصلاة والقراءة ؛ وهما تطويل الركعة الثانية على الأولىٰ والوقوف على الكلام المرتبط بعضه ببعض ، وسبب جميع ذلك : إهمال السنن واندراسها لقلة الاستعمال ، حتىٰ صار المستعمل لها مُجهَّلاً عند كثير من الناس لمخالفته ما عليه السواد الأعظم ، وذلك لفساد الزمان ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَاَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ ٱلْمَعْرُوفُ مُنْكَراً ، وَٱلْمُنْكَرُ مَعْرُوفاً »[٢] فعليك بلزوم السنة ، وطالب بها نفسك ، وأمر بها من أطاعك . تنج وتسلم وتغنم .

قال السيد الجليل أبو علي الفضيل بن عياض رضي الله عنه ونفع به : لا تستوحش طرق الهدىٰ لقلة أهلها ، ولا تغتر بكثرة الهالكين[٣] .

صلاة الاستخارة

اعلم : أنه ورد في الاستخارة أحاديث كثيرة ، وأصح ما في هـٰذا الباب : ما رويناه في « صحيح البخاري » عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِٱلأَمْرِ . . فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ ٱلْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ ٱلْعَظِيمِ ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَاَ أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ

---

(١) الأذكار (ص ٣١٠) .
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٣٢١) عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .
(٣) أخرجه البيهقي في « الزهد الكبير » (٢٤٠) .

وَلاَ أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ ٱلْغُيُوبِ ، اَللَّهُمَّ ؛ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أو قال : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَٱقْدُرْهُ لِي ، وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا ٱلأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أو قال : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَٱصْرِفْهُ عَنِّي ، وَٱصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَٱقْدُرْ لِي ٱلْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ » ، قال : « وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ »[1] .

قال العلماء : تحصل ركعتاها براتبة وتحية وغير ذلك ، والاستقلال بسبب الاستخارة أولى ، يقرأ في الأولىٰ بعد (الفاتحة) : (قل يا أيها الكافرون) وفي الثانية : (قل هو الله أحد) ، قال بعضهم : ويقرأ أيضاً بعد (قل يا أيها الكافرون) : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ الآية ، وبعد (قل هو الله أحد) : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۞ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، وهـٰذا لا بأس به ، وفيه مناسبة حسنة .

ولو تعذرت عليه الصلاة في الحال . . استخار بالدعاء ، ويستحب افتتاحه وختمه بالحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أدب في جميع الأدعية ، ويستحب أن يقول : اللهم ؛ خر لي واختر لي ؛ فقد روينا ذلك في حديث مرفوع في « جامع الترمذي » وضعفه[2] .

ويقرأ بعد الصلاة والدعاء : (ألم نشرح لك صدرك) ثم يمضي بعد ذلك لما ينشرح له صدره ، فلا شك أن الخير فيه ، وإن ظهر له منه شر . . فلا شك أن في طيه خيراً ؛ فإن الخير ما هو عند الله خير ، لا ما يظهر للناس ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ويستحب أن يكرر الصلاة والدعاء سبع مرات ؛ فقد روينا في « كتاب ابن السني » بسند فيه مجاهيل عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَنَسُ ؛

(١) البخاري (١١٦٦) .
(٢) الترمذي (٣٥١٦) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ . . فَٱسْتَخِرْ رَبَّكَ فِيهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ ٱنْظُرْ إِلَى ٱلَّذِي سَبَقَ إِلَىٰ قَلْبِكَ ؛ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ فِيهِ »[1] .

وينبغي ألاَّ تُترك الاستخارة في كل الأمور وإن كانت طاعةً كالحج ونحوه ؛ للحديث السابق ، ولما رواه البيهقي أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مِنْ سَعَادَةِ ٱبْنِ آدَمَ ٱسْتِخَارَتُهُ ٱللهَ وَرِضَاهُ بِمَا قَضَى ٱللهُ عَلَيْهِ ، وَمِنْ شَقَاوَةِ ٱبْنِ آدَمَ تَرْكُهُ ٱسْتِخَارَةَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَسَخَطُهُ بِمَا قَضَى ٱللهُ تَعَالَىٰ »[2] .

صلاة حفظ القرآن

روينا في « جامع الترمذي » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ دخل علينا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؛ تفلّت هـٰذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ ؛ أَفَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ ٱللهُ بِهِنَّ ، وَيَنْتَفِعُ بِهِنَّ مَنْ عَلَّمْتَهُ ، وَيُثَبِّتْ مَا تَعَلَّمْتَ فِي صَدْرِكَ ؟ » قال : أجل يا رسول الله فعلمني ، قال : « إِذَا كَانَ لَيْلَةُ ٱلْجُمُعَةِ : فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَقُومَ فِي ثُلُثِ ٱللَّيْلِ ٱلآخِرِ . . فَإِنَّهَا سَاعَةٌ مَشْهُودَةٌ ، وَٱلدُّعَاءُ فِيهَا مُسْتَجَابٌ ، وَقَدْ قَالَ أَخِي يَعْقُوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ لِبَنِيهِ : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ يَقُولُ : حَتَّىٰ تَأْتِيَ لَيْلَةُ ٱلْجُمُعَةِ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ . . فَقُمْ فِي وَسَطِهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ . . فَفِي أَوَّلِهَا ، وَصَلِّ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ، تَقْرَأُ فِي ٱلرَّكْعَةِ ٱلأُولَىٰ بِـ(فَاتِحَةِ ٱلْكِتَابِ) وَ(سُورَةِ يسۤ) ، وَفِي ٱلرَّكْعَةِ ٱلثَّانِيَةِ بِـ(فَاتِحَةِ ٱلْكِتَابِ) وَ(حمۤ ٱلدُّخَانِ) ، وَفِي ٱلرَّكْعَةَ ٱلثَّالِثَةِ بِـ(فَاتِحَةِ ٱلْكِتَابِ) وَ(الۤمۤ تَنْزِيلُ ٱلسَّجْدَةِ) ، وَفِي ٱلرَّكْعَةِ ٱلرَّابِعَةِ بِـ(فَاتِحَةِ ٱلْكِتَابِ) وَ(تَبَارَكَ) ٱلْمُفَصَّلِ ، فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ ٱلتَّشَهُّدِ . . فَٱحْمَدِ ٱللهِ ، وَأَحْسِنِ ٱلثَّنَاءَ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَصَلِّ عَلَيَّ وَأَحْسِنْ ، وَعَلَىٰ سَائِرِ ٱلنَّبِيِّينَ ، وَٱسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ، وَلإِخْوَانِكَ ٱلَّذِينَ سَبَقُوكَ بِٱلإِيمَانِ ، ثُمَّ قُلْ فِي آخِرِ ذَلِكَ : ٱللَّهُمَّ ؛ ٱرْحَمْنِي بِتَرْكِ ٱلْمَعَاصِي أَبَداً مَا أَبْقَيْتَنِي ، وَٱرْحَمْنِي أَنْ أَتَكَلَّفَ مَا لاَ يَعْنِينِي ، وَٱرْزُقْنِي حُسْنَ ٱلنَّظَرِ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي ، ٱللَّهُمَّ ؛ بَدِيعَ

---

(١) عمل اليوم والليلة (٥٩٨) .

(٢) شعب الإيمان (١٩٩) ، وأخرجه أحمد (١/١٦٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، ذَا ٱلْجَلاَلِ وَٱلإِكْرَامِ ، وَٱلْعِزَّةِ ٱلَّتِي لاَ تُرَامُ ؛ أَسْأَلُكَ يَا أَللهُ يَا رَحْمَـٰنُ بِجَلاَلِكَ وَنُورِ وَجْهِكَ أَنْ تُلْزِمَ قَلْبِي حِفْظَ كِتَابِكَ كَمَا عَلَّمْتَنِي ، وَٱرْزُقْنِي أَنْ أَتْلُوَهُ عَلَى ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي يُرْضِيكَ عَنِّي ، اَللَّهُمَّ ، بَدِيعَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ ، ذَا ٱلْجَلاَلِ وَٱلإِكْرَامِ ، وَٱلْعِزَّةِ ٱلَّتِي لاَ تُرَامُ ؛ أَسْأَلُكَ يَا أَللهُ يَا رَحْمَـٰنُ بِجَلاَلِكَ وَنُورِ وَجْهِكَ أَنْ تُنَوِّرَ بِكِتَابِكَ بَصَرِي ، وَأَنْ تُطْلِقَ بِهِ لِسَانِي ، وَأَنْ تُفَرِّجَ بِهِ عَنْ قَلْبِي ، وَأَنْ تَشْرَحَ بِهِ صَدْرِي ، وَأَنْ تُعْمِلَ بِهِ بَدَنِي ؛ فَإِنَّهُ لاَ يُعِينُنِي عَلَى ٱلْحَقِّ غَيْرُكَ ، وَلاَ يُؤْتِينِيهِ إِلاَّ أَنْتَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ » قال : « يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ ؛ تَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ جُمَعٍ أَوْ خَمْساً أَوْ سَبْعاً . . تُجَابُ بِإِذْنِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَٱلَّذِي بَعَثَنِي بِٱلْحَقِّ نَبِيّاً ؛ مَا أَخْطَأَ مُؤْمِناً قَطُّ » ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما لبث علي إلاَّ خمساً أو سبعاً حتىٰ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل ذلك المجلس فقال : يا رسول الله ؛ إني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن ، فإذا قرأتهن علىٰ نفسي . . تفلتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية أو نحوها ، فإذا قرأتها علىٰ نفسي . . فكأنما كتاب الله بين عينيّ ، ولقد كنت أسمع الحديث ، فإذا رددته . . تَفَلَّت علي ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث ، فإذا تحدثت بها . . لم أخرِم منها حرفاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُؤْمِنٌ وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ » ، قال الترمذي : هـٰذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم[1] .

قلت : وخرجه الحاكم أبو عبد الله في كتابه « المستدرك على الصحيحين » وادعىٰ أنه علىٰ شرطهما[2] ، وشهد علىٰ صحته ما صح منه بالتجربة ، والله أعلم .

صلاة التسبيح

التي علمها النبي صلى الله عليه وسلم عمه العباس ، وقال له عند ذلك : « يَا عَبَّاسُ ، يَاعَمِّ ؛ أَلاَ أَصِلُكَ ؟ أَلاَ أَحْبُوكَ ؟ أَلاَ أَنْفَعُكَ ؟ » قال : بلىٰ يا رسول الله ؛ قال : « يَا عَمِّ ؛ صَلِّ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ . . . » وذكر الحديث وقال في آخره : « فَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُكَ مِثْلَ رَمْلِ عَالِجٍ . . غَفَرَ ٱللهُ تَعَالَىٰ لَكَ »[3] وفي رواية قال : « إِذَا أَنْتَ فَعَلْتَ ذَلِكَ . . غَفَرَ ٱللهُ لَكَ ذَنْبَكَ ؛ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ ، خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ ، صَغِيرَهُ وَكَبِيرَهُ ، سِرَّهُ وَعَلاَنِيَتَهُ » .

---

(١) الترمذي (٣٥٧٠) .

(٢) المستدرك (١/ ٤٦١) .

(٣) أخرجه الترمذي (٤٨٢) عن أبي رافع مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال في إحدىٰ رواياتها : « إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تُصَلِّيَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّةً . . فَٱفْعَلْ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ . . فَفِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ . . فَفِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ . . فَفِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ . . فَفِي عُمُرِكَ مَرَّةً »[١] .

واعلم : أن صلاة التسبيح قد رواها جماعة من الحفاظ بطرق عديدة ووعود متداخلة ، وضعفوا طرقها كلها ، وممن ضعفها أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه « الموضوعات »[٢] وأبو بكر ابن العربي المالكي في كتابه « الأحوذي في شرح الترمذي »[٣] ، وصححها آخرون منهم : الحافظ علي بن عمر الدارقطني ، والحاكم في « المستدرك » وابن خزيمة[٤] .

وعلى الجملة : فقد تلقاها الناس بالقبول ، وعمل بها أكابر العلماء ؛ لأنها وإن لم يقطع بصحتها فهي مرتفعة عن نوع الموضوع ، وقد قالوا : فضائل الأعمال يعمل فيها بالضعيف ما لم يتعلق بنهي حديث أصح منه .

واختار كثيرون من رواياتها رواية عبد الله بن المبارك ، وهي ما رواها الترمذي فقال : حدثنا أحمد بن عبدة الضبي قال : حدثنا أبو وهب قال : سألت ابن المبارك عن الصلاة التي يسبح فيها ، قال : تكبر ثم تقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالىٰ جدك ، ولا إلـٰه غيرك ، ثم يقول خمس عشرة مرةً : سبحان الله والحمد لله ولا إلـٰه إلا الله والله أكبر ، ثم يتعوذ ويقرأ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و(فاتحة الكتاب) وسورةً ، ثم يقول عشر مرات : سبحان الله والحمد لله ولا إلـٰه إلا الله والله أكبر ، ثم يركع فيقولها عشراً ، ثم يرفع رأسه فيقولها عشراً ، ثم يسجد فيقولها عشراً ، ثم يرفع رأسه فيقولها عشراً ، ثم يسجد الثانية فيقولها عشراً ، يصلي أربع ركعات علىٰ هـٰذا ، فذلك خمس وسبعون تسبيحة في كل ركعة ، يبدأ بخمس عشرة تسبيحة ثم يقرأ ثم يسبح عشراً ، قال : فإن صلىٰ ليلاً . . فأحب إليَّ أن يسلم في كل ركعتين ، وإن صلىٰ نهاراً : فإن شاء . . سلم ، وإن شاء . . لم يسلم[٥] .

---

(١) أخرج الروايتين أبو داوود (١٢٩٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) الموضوعات (٢/ ٦٣) .

(٣) عارضة الأحوذي (٢/ ٢٦٥) .

(٤) الحاكم (١/ ٣١٨) ، وابن خزيمة (١٢١٦) .

(٥) الترمذي (٤٨١) .

صلاة الضحى

وبيان فضلها ووقتها وأقلها وأكثرها

روينا في« الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحىٰ ، وأن أوتر قبل أن أنام)(١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُصْبِحُ عَلَىٰ كُلِّ سُلاَمَىٰ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِٱلْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَيُجْزِىءُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ ٱلضُّحَىٰ » رواه مسلم(٢) .

وروىٰ أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الضحىٰ أربعاً ، ويزيد ما شاء الله)(٣) .

وفي « الصحيحين » : عن أم هانىء ما معناه : قالت : (ذهبت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فوجدته يغتسل ، فلما فرغ من غسله . . صلىٰ ثماني ركعات ، وذلك ضحىً)(٤) .

سماها الجزري وغيره : صلاة الفتح ، ومعناهم : أنها تسن عند الفتوحات والظفر .

وروى البيهقي وغيره بإسناد فيه مقال : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر : « إِنْ صَلَّيْتَ ٱلضُّحَىٰ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً . . بَنَى ٱللهُ لَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ »(٥) وهٰذا بيان أكملها ، ونقل النووي في « شرح المهذب » عن الأكثرين : أن أكثرها ثمانٍ ، وذكر فيه أن أدنى الكمال أربع ، وأفضل منه ست ، وأنه يسلم من كل ركعتين ، وينوي ركعتين من الضحىٰ(٦) .

وأما وقتها . . فقال العلماء : وقتها من حين ترتفع الشمس كرمح إلى الزوال ، وهٰذا

---

(١) البخاري (١٩٨١) ومسلم (٧٢١) .

(٢) مسلم (٧٢٠) **السلامىٰ** : جميع عظام البدن ومفاصله .

(٣) مسلم (٧١٩) .

(٤) البخاري (٣٥٧) ومسلم (٣٣٦) .

(٥) السنن الكبرىٰ (٣/٤٨) .

(٦) شرح المهذب (٤/٤١) .

ما جزم به الرافعي في « شرحيه »[1] وتبعه علىٰ ذلك النووي في « شرحه للمهذب » وفي كتابه « التحقيق » ، وخالف في « الروضة » فقال : إن الأصحاب قالوا : يدخل وقتها بالطلوع ، وإن التأخير إلى الارتفاع مستحب[2] ، والصواب : أن صلاتها عند الطلوع مكروهة ، وأن النهي عن الصلاة لا يزول بنفس الطلوع ، بل لا بد من طلوعها طلوعاً حسناً بيضاء نقيةً ، وقدر العلماء ذلك برمح ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو بن عبسة في حديثه الطويل : « صَلِّ صَلَاةَ ٱلصُّبْحِ ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ ٱلصَّلَاةِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ حَتَّىٰ تَرْتَفِعَ »[3] فدل ذلك علىٰ أن النهي لا يزول بنفس الطلوع ، وذكر القاضي عياض رحمه الله تعالىٰ أحاديث النهي ، وجمع ألفاظها ثم قال : وهـٰذا كله يبين أن المراد بالطلوع ـ يعني في الروايات المطلقة ـ : ارتفاعها وإشراقها وإضاءتها ، لا مجرد ظهور قرصها[4] .

قال النووي في « شرح مسلم » : وهـٰذا الذي قاله القاضي صحيح متعين لا عدول عنه ؛ للجمع بين الروايات[5] ، والله أعلم .

وذكر النووي في « شرح المهذب » و« التحقيق » : أن وقتها المختار : حين يمضي ربع النهار[6] ، وكأنه تبع في ذلك الغزالي رحمه الله تعالىٰ ؛ فإنه ذكر ذلك في كتابه « الإحياء » وقال : حتىٰ لا يخلو كل ربع من النهار عن عبادة[7] .

قلت : والدليل على استحباب ذلك : ما رويناه في « صحيح مسلم » عن زيد بن أرقم رضي الله عنه : أنه رأىٰ قوماً يصلون من الضحىٰ فقال : أما قد علموا أن الصلاة في غير هـٰذه الساعة أفضل ؟! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صَلَاةُ ٱلْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ ٱلْفِصَالُ »[8] .

---

(١) العزيز في شرح الوجيز (٢/ ١٣٠) .
(٢) المجموع (٤/ ٤١) ، و« التحقيق » (ص٢٢٨) ، و« الروضة » (١/ ٣٣٢) .
(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢) .
(٤) إكمال المعلم (٣/ ٢٠٣) .
(٥) شرح صحيح مسلم (٦/ ١١١) .
(٦) شرح المهذب (٤/ ٤١) و« التحقيق » (ص٢٢٨) .
(٧) إحياء علوم الدين (١/ ٣٤٩) .
(٨) مسلم (٧٤٨) ، **تَرْمَض** : تُصيب أخفافها حر الرمضاء ، **الفصيل** : ولد الناقة .

فائدة

[ما ينبغي قراءته في صلاة الضحىٰ]

قال بعض العلماء : ينبغي لمن صلى الضحىٰ ركعتين أن يقرأ فيهما بعد (الفاتحة) بـ(الشمس وضحاها) و(الضحىٰ) ، وإن صلاها أربعاً . . قرأ في الآخرتين بـ(قل يا أيها الكافرون) و(قل هو الله أحد) وهـٰذا لا بأس به ، لكن لم يصح في هـٰذا الباب شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم .

صلاة الضر والحاجة

اعلم : أن صلاة الحاجة رواها جماعة من المحدثين علىٰ وجوه كثيرة ، فمن ذلك : ما رواه الترمذي عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ أَوْ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ . . فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُحْسِنِ ٱلْوُضُوءَ ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ وَلْيُصَلِّ عَلَى ٱلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ لِيَقُلْ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ٱلْحَلِيمُ ٱلْكَرِيمُ ، سُبْحَانَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ، ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ ، وَٱلْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ ، وَٱلسَّلاَمَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، لاَ تَدَعْ لِي ذَنْباً إِلاَّ غَفَرْتَهُ ، وَلاَ هَمّاً إِلاَّ فَرَّجْتَهُ ، وَلاَ حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلاَّ قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ ٱلرَّاحِمِينَ »[1] .

وروىٰ أيضاً : أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله لي أن يعافيني ، قال : « إِنْ شِئْتَ . . دَعَوْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ . . صَبَرْتَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ فيُحسن وضوءه ويدعو بهـٰذا الدعاء : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نَبِيِّ ٱلرَّحْمَةِ ، يَا مُحَمَّدُ ؛ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَىٰ رَبِّي فِي حَاجَتِي هَـٰذِهِ لِتُقْضَىٰ لِي ، اَللَّهُمَّ ؛ فَشَفِّعْهُ فِيَّ »[2] .

وروى البيهقي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « تُصَلِّي ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، تَتَشَهَّدُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ، فَإِذَا جَلَسْتَ فِي آخِرِ صَلاَتِكَ . . فَأَثْنِ عَلَى ٱللهِ ، وَصَلِّ عَلَى

---

(١) الترمذي (٤٧٩) .

(٢) الترمذي (٣٥٧٨) .

ٱلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ كَبِّرْ وَٱسْجُدْ ، وَٱقْرَأْ وَأَنْتَ سَاجِدٌ (فَاتِحَةَ ٱلْكِتَابِ) سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَآيَةَ ٱلْكُرْسِيِّ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَ(قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ) سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قُلِ : ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَاقِدِ ٱلْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ ، وَمُنْتَهَى ٱلرَّحْمَةِ مِنْ كِتَابِكَ ، وَأَسْأَلُكَ بِٱسْمِكَ ٱلأَعْظَمِ ، وَجَدِّكَ ٱلأَعْلَىٰ ، وَكَلِمَاتِكَ ٱلتَّامَّاتِ ٱلَّتِي لاَ يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ ، ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ ، ثُمَّ ٱرْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلِّمْ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ ، وَٱتَّقِ ٱلسُّفَهَاءَ أَنْ يَعْلَمُوهَا فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيُسْتَجَابُ لَهُمْ » قال البيهقي : إنه قد جرب فوجد سبباً لقضاء الحاجة[1] ، وذكر الواحدي التجربة فيه عن جماعة من العلماء علىٰ أن في سنده من لا يعرف .

قلت : وفي النفس منه شيء من قبل قراءة القرآن في السجود ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ ٱلْقُرْآنَ وَأَنَا رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ »[2] والله أعلم .

وقد رأينا أن نختم هـٰذه الصلوات بصلاة التوبة ؛ تفاؤلاً أن يختم الله لنا بها .

اعلم : أنه قد ورد فيها أحاديث :

منها : ما رويناه في « الصحيحين » عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أنه توضأ وضوءاً متمماً ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هـٰذا ثم قال : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَـٰذَا ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ . . غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[3] .

ومن ذلك : ما رواه أبو داوود والنسائي وأحمد ابن حنبل عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ ٱللهَ . . إِلاَّ غَفَرَ ٱللهُ لَهُ » ثم قرأ هـٰذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية[4] .

واعلم : أنه قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة علىٰ وجوب التوبة ؛ قال الله

---

(١) الدعوات الكبير (٢/ ١٥٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) البخاري (١٦٤) ومسلم (٢٢٦) .

(٤) أبو داوود (١٥٢١) والسنن الكبرىٰ (١٠٢٤٧) أحمد (١/ ٢) .

تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ولها شروط ثلاثة : **أحدها** : أن يقلع عن المعصية ، **والثاني** : أن يندم علىٰ فعلها ، **والثالث** : أن يعزم علىٰ ألاَّ يعود إليها أبداً ، فإن تعلقت بآدمي . . زاد شرط رابع وهو : رد المظالم إلىٰ أهلها ، فإن كانت ماليةً . . ردها ، وإن كانت عرضيةً . . استحل منها ، وهل يشترط أن يعلمه بها ؟ فيه خلاف[1] .

قلت : وقد علم من ظواهر الأحاديث الصحيحة : أنه إذا صح الندم باطناً . . قبل الله توبة العبد ورضي عنه ، ووهب له حقه ، وأرضىٰ عنه خلقه ؛ لحديث الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم كمل المئة ، والرجلين اللذين جَثَوَا بين يدي الله تعالىٰ ، والله أعلم .

ثم إن مذهب أهل السنة : أن العبد إذا تاب من بعض الذنوب دون جميعها . . صحت توبته من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي ، وأنه إذا تاب ثم عاد . . لا يهدم عوده توبته السابقة ؛ لأن السيئات لا تذهب الحسنات ، وإنما نطق القرآن بعكس ذلك ، وخرج الحاكم من حديث عقبة : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أحدنا يذنب ؟ قال : « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال : ثم يستغفر منه ويتوب ؟ قال : « يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ » قال : ثم يعود فيذنب ؟ قال : « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال : ثم يستغفر منه ويتوب ؟ قال : « يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَمَلُّ ٱللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَصَرَّ مَنِ ٱسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي ٱلْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » رواه الترمذي[3] .

وفي « الصحيحين » مرفوعاً : « أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً فَقَالَ : رَبِّ ؛ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْباً فَٱغْفِرْ لِي ، فَقَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ ٱلذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِٱلذَّنْبِ ، فَقَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً آخَرَ . . إِلَىٰ أَنْ قَالَ فِي ٱلرَّابِعَةِ : فَلْيَعْمَلْ عَبْدِي مَا شَاءَ »[4] .

أما الاستغفار بغير ندم ولا عقد قلب . . فهو ذكر من الأذكار لا تعلق له بالتوبة ، لكنه داع ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ لاَ يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ

---

(١) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (٢/٣٦٩) : جزم النووي في « الأذكار » بالاشتراط ، ومقتضىٰ كلام الحليمي وغيره : عدم الاشتراط ، وزعم الأذرعي أنه الأصح .

(٢) المستدرك (٤/٢٥٧) .

(٣) الترمذي (٣٥٥٩) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٤) البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨) .

لاَهٍ »[1] ، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ ونفع به : استغفار بلا إقلاع . . توبة الكذابين ، وسئل بعضهم عن ذلك فقال : احمدوا الله علىٰ أن زين جارحةً من جوارحكم بطاعته .

والداء العضال الذي يتوقع منه سوء المآل : أن يستغفر من ذنب هو مقيم عليه في حال استغفاره ، فيكون استغفاره استهزاءً كما أخرجه ابن أبي الدنيا مرفوعاً : « اَلتَّائِبُ مِنَ ٱلذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ ، وَٱلْمُسْتَغْفِرُ مِنْ ذَنْبٍ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ كَٱلْمُسْتَهْزِىءِ بِرَبِّهِ »[2] ، وقالت السيدة الجليلة رابعة العدوية رحمها الله ونفع بها : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير[3] .

فَصْلٌ
في ذكر شيء من منهيات الصلاة

نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة وقال : « هُوَ ٱخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ ٱلْعَبْدِ »[4] ، وسئل الإمام أحمد ابن حنبل عن حديث : (أنه صلى الله عليه وسلم كان يلحظ في الصلاة ولا يلتفت) فغضب غضباً شديداً وقال : هـٰذا حديث ليس له إسناد ، لكن قد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته كان قد بعث شخصاً إلى العدو ، ثم اشتغل بالصلاة ، فجعل يلتفت إلىٰ جهته ، وهـٰذا نادر ، وفي نافلة لمصلحة عامة ، فهو من باب تداخل العبادات وتقديم أهمها ، وقد قال عمر رضي الله عنه : (إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة)[5] .

ونهىٰ صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد في الصلاة ، **والصفن** : رفع إحدى الرجلين ، وفي معناه : الاعتماد علىٰ إحدى الرجلين وتقديم الأخرىٰ ، فقد قال العلماء : كما يكره لك أن تقدم رجليك علىٰ أخيك في الصف . . كذلك لا تقدم إحدىٰ رجليك على

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٧٨٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٤/ ٧٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ في « شرح البهجة » (٢/ ٣٧١) قال العلماء : ومع كون هـٰذا الاستغفار يحتاج إلى استغفار لا ينبغي تركه ؛ لأن اللسان إذا ألف الذكر . . أوشك أن يألفه القلب .

(٤) أخرجه البخاري (٧٥١) عن عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري في (الجمعة ، باب : يفكر الرجل الشيء في الصلاة) تعليقاً .

الأخرىٰ ، **وأما الصفد** : فهو اقتران القدمين معاً متلاصقتين ، بل المندوب أن يفرج بينهما قليلاً ، وقدر ذلك بأربع أصابع ، وفي السجود بشبر .

ونهىٰ صلى الله عليه وسلم عن الكَفْت والسدل ، **فأما الكَفْت** : فهو ضم الثياب والشعر ومنعهما من السجود معه ، وقد سبق في (فضل السجود) حديث : (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسجد علىٰ سبعة أعضاء ، ونهي أن يكف شعره أو ثيابه) ، وسبق هناك فعل ابن عباس بابن الحارث وحله لرأسه وهو يصلي ، كله من رواية مسلم[1] ، وفي « سنن أبي داوود » : أن أبا رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم مر بحسن بن علي رضي الله عنهما وهو يصلي قائماً وقد غرز ضَفْره في قفاه ، فحلها أبو رافع ، فالتفت حسن إليه مغضباً ، فقال أبو رافع : أقبل علىٰ صلاتك ولا تغضب عليّ ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ذَلِكَ كِفْلُ ٱلشَّيْطَانِ » يعني : مَقْعَد الشيطان[2] ، **وأما السدل** : فهو أن يضع الثوب علىٰ رأسه أو علىٰ كتفيه ، ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله ، بل ينبغي أن يتلفع به ويخرج يديه من ثيابه كلها .

ونهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصَّلْب في الصلاة ، وهو أن يضع يديه علىٰ خاصرتيه[3] .

ونهىٰ صلى الله عليه وسلم عن التشبه بالحيوانات فقال : « لاَ تَبْرُكُوا بُرُوكَ ٱلْبَعِيرِ[4] ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا ٱلْتِفَاتَ ٱلثَّعْلَبِ[5] ، وَلاَ تَفْتَرِشُوا ٱفْتِرَاشَ ٱلسَّبُعِ[6] ، وَلاَ تُقْعُوا إِقْعَاءَ ٱلْكَلْبِ[7] ، وَلاَ تَنْقُرُوا نَقْرَ ٱلْغُرَابِ[8] ، وَلاَ تَرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فِي حَالِ ٱلسَّلاَمِ كَأَذْنَابِ ٱلْخَيْلِ ٱلشُّمُسِ »[9] .

---

(١) ص (٥٥٥) .
(٢) أبو داوود (٦٤٦) .
(٣) أخرجه مسلم (٥٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) أخرجه النسائي (٢/ ٢٠٧) ، والدارقطني (١/ ٣٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البيهقي (٢/ ١٢٠) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٢٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه مسلم (٤٩٨) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .
(٧) أخرجه ابن ماجه (٨٩٥) عن علي رضي الله عنه .
(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٨) عن عبد الرحمـٰن بن شبل رضي الله عنه بنحوه .
(٩) أخرجه النسائي (١١٨٤) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه بنحوه .

وهٰذا الباب واسع ، وقد رأينا أن نقتصر علىٰ هٰذا القدر ، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق .

فصل
في صيام رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثبت في الصحاح : أنه صلى الله عليه وسلم حض على السحور[1] ، وكان يؤخره جداً ، فكان بين سحوره وبين الفجر قدر خمسين آية ، وكان يعجل الفطر ، وحض علىٰ ذلك فقال : « لاَ تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا ٱلْفِطْرَ »[2] قال أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلي علىٰ رطبات ، فإن لم تكن رطبات . . فتمرات ، فإن لم تكن تمرات . . حسا حسوات من الماء[3] .

وقال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ . . فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ . . فَلْيَقُلْ : إِنِّي صَائِمٌ »[4] .

وقال : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ ٱلزُّورِ وَٱلْعَمَلَ بِهِ . . فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ »[5] .

وكان صلى الله عليه وسلم ربما أدركه الفجر وهو جنب ، ثم يغتسل ويصوم .

قالت عائشة رضي الله عنها : (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من شهر أكثر من شعبان ؛ فإنه كان يصوم شعبان كله)[6] وفي رواية : (كان يصوم شعبان إلا قليلاً)[7] .

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٥٧) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (٦٩٦) .

(٤) أخرجه النسائي (٢٢١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو عند البخاري عنه بمعناه (١٨٩٤) ، **الرفث** : الكلام الفاحش ، **الصخب** : رفع الصوت بالمشاتمة .

(٥) أخرجه البخاري (١٩٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، **قول الزور** : الكذب .

(٦) أخرجه البخاري (١٩٧٠) .

(٧) أخرجها مسلم (١١٥٦) عن عائشة رضي الله عنها .

وصام صلى الله عليه وسلم عاشوراء ، وأمر بصومه ، وقال : « صِيَامُهُ يُكَفِّرُ ٱلسَّنَةَ ٱلْمَاضِيَةَ »[1] وقال : « لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ . . لأَصُومَنَّ ٱلتَّاسِعَ »[2] .

وقال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتّاً مِنْ شَوَّالٍ . . كَانَ كَصِيَامِ ٱلدَّهْرِ »[3] .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الإثنين فقال : « ذَلِكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ »[4] وقال : « تُعْرَضُ ٱلأَعْمَالُ يَوْمَ ٱلإِثْنَيْنِ وَٱلْخَمِيسِ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ »[5] وقالت عائشة : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرىٰ يوم الإثنين والخميس)[6] .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم عرفة فقال : « يُكَفِّرُ ٱلسَّنَةَ ٱلْمَاضِيَةَ وَٱلْبَاقِيَةَ»[7] .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت : نعم ، قيل لها : من أي الشهر كان يصوم ؟ قالت : لم يكن يبالي من أي الشهر كان يصوم[8] .

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « إِذَا صُمْتَ مِنَ ٱلشَّهْرِ ثَلاَثاً . . فَصُمْ ثَلاَثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ »[9] وكان صلى الله عليه وسلم لا يفطرهن في حضر ولا سفر .

وسئل أنس عن صوم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (كان يصوم من الشهر حتىٰ نرىٰ أنه لا يريد أن يفطر ، ويفطر حتىٰ نرىٰ أنه لا يريد أن يصوم ، وكنتَ لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً . . إلا رأيته مصلياً ، ولا نائماً . . إلا رأيته نائماً)[10] ونحوه عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم .

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢) عن أبي قتادة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه مسلم (١١٣٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) أخرجه مسلم (١١٦٤) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه .
(٤) أخرجه مسلم (١١٦٢) عن أبي قتادة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه الترمذي (٧٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه النسائي (٢٣٦١) .
(٧) أخرجه مسلم (١١٦٢) .
(٨) أخرجه مسلم (١١٦٠) .
(٩) أخرجه الترمذي (٧٦١) .
(١٠) أخرجه الترمذي (٧٦٩) .

واعلم : أن الصوم من أفضل العبادات وأسرار المجاهدات ، وقد ورد في فضله أحاديث كثيرة ، أجلها : ما اتفق عليه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه بروايات ، وهـٰذه إحدىٰ روايات مسلم : « كُلُّ عَمَلِ ٱبْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ ؛ اَلْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : إِلاَّ ٱلصَّوْمَ ؛ فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ ، وَلَخُلُوفُ فَمِ ٱلصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ ٱللهِ مِنْ رِيحِ ٱلْمِسْكِ »[1] .

وأما أذكاره. . فإنه ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أفطر . . قال : « ذَهَبَ ٱلظَّمَأُ ، وَٱبْتَلَّتِ ٱلْعُرُوقُ ، وَثَبَتَ ٱلأَجْرُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[2] ، وكان يقول أيضاً : « اَللَّهُمَّ ؛ لَكَ صُمْتُ ، وَعَلَىٰ رِزْقِكَ أَفْطَرْتُ »[3] ، وكان يقول أيضاً : « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي أَعَانَنِي فَصُمْتُ ، وَرَزَقَنِي فَأَفْطَرْتُ »[4] ، وكان يقول أيضاً : « اَللَّهُمَّ ؛ لَكَ صُمْنَا ، وَعَلَىٰ رِزْقِكَ أَفْطَرْنَا ، فَتَقَبَّلْ مِنَّا ؛ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ »[5] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند قوم . . دعا لهم فقال : « أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ ٱلصَّائِمُونَ ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ ٱلأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ »[6] .

وينبغي للصائم أن يجتهد في الدعاء عند فطره ؛ لأنه ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لَدَعْوَةً مَا تُرَدُّ » قال ابن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه إذا أفطر يقول : (اللهم ؛ إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي)[7] .

---

(١) مسلم (١١٥١) .
(٢) أخرجه أبو داوود (٢٣٥٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٣) أخرجه أبو داوود (٢٣٥٨) عن معاذ بن زهرة رحمه الله تعالىٰ .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٣٩٠٢) عن معاذ رضي الله عنه .
(٥) أخرجه الدارقطني (٢/ ١٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٦) أخرجه أبو داوود (٣٨٥٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٧) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) .

فَصْلٌ

في عادته صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن وكيف كان سمته وخشوعه حال قراءته واستماعه من غيره

كان له صلى الله عليه وسلم في الدرس كل يوم وظيفة معينة لا يتركها ، وأما رمضان. . فكان جبريل ينزل عليه في كل ليلة منه فيدارسه القرآن ، وكان إذا أراد القراءة. . قال : « أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ » كما أمره الله تعالىٰ ، وربما زاد : من همزه ونفثه ونفخه .

وكان حسن الصوت ، وفي صوته صحل ، قال البراء بن عازب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في العشاء بـ(التين والزيتون) فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه[1] .

وكان يرتل قراءته ويبينها حرفاً حرفاً ، ويقف عند آخر الكَلِمِ ، ويكمل المد في موضعه ، وكان يقرأ في كل حال لا يمنعه من ذلك إلا الجنابة .

وكان يحب سماعه من غيره كما رويناه فيما اتفق عليه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اِقْرَأْ عَلَيَّ ٱلْقُرْآنَ » فقلت : يا رسول الله ؛ أقرأ عليك وعليك أنزل ؟! قال : « إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأت عليه (سورة النساء) حتىٰ بلغت هٰذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال : « حَسْبُكَ ٱلآنَ » فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب : « إِنَّ ٱللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ » قال أُبي : وسماني لك ؟ قال : « وَسَمَّاكَ لِي » فبكىٰ أبي وقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب)[3] .

وأمر صلى الله عليه وسلم بتحسين الصوت بالقراءة فقال : « زَيِّنُوا ٱلْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ »[4] ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٩) .
(٢) البخاري (٥٠٥٥) ومسلم (٨٠٠) .
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٦٠) .
(٤) أخرجه أبو داوود (١٤٦٨) عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

وقال : « مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِٱلْقُرْآنِ . . فَلَيْسَ مِنَّا »[1] ، وقال : « مَا أَذِنَ ٱللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ ٱلصَّوْتِ يَتَغَنَّىٰ بِٱلْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ »[2] .

قال العلماء : والناس في التغني والتحسين علىٰ ضربين :

ضرب : تسمح طبائعهم بذلك بديهةً من غير تكلفٍ ولا تمرين ، وربما ازدادوا بالتغني والتحسين حسناً كما قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه وقد قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَىٰ قِرَاءَتِكَ ٱلْبَارِحَةَ » فقال : (لو شعرت أنك تسمع . . لحبرته تحبيراً)[3] فهٰذا الضرب إن بقوا علىٰ طبائعهم . . فحسن ، وإن تكلفوا زيادة تحسين . . فقد أمروا بذلك .

والضرب الثاني : من لا يحصل له ذلك بسماحة الطبع بل بتكلف وعلاج ، فينبغي له أن يتكلف ذلك ما استطاع ما لم يخرج إلىٰ حد التمطيط والتقعير المنهي عنه ، والله أعلم .

فَصْلٌ

[في حثه صلى الله عليه وسلم على الاجتماع لقراءة القرآن وتخصيصه بعض السور والآيات بأوقات معلومة]

حث النبي صلى الله عليه وسلم على الاجتماع لقراءة القرآن فقال : « مَا ٱجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ ٱللهِ تَعَالَىٰ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ . . إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّكِينَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ ٱلرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ ٱللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[4] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في قراءة سور وآيات مخصوصة لأوقات معلومة ومطلقة ، من ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « ٱلآيَتَانِ مِنْ آخِرِ (سُورَةِ ٱلْبَقَرَةِ) مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ . . كَفَتَاهُ ، لاَ يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلاَثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ »[5] و« مَنْ قَرَأَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٧٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البيهقي (٣/ ١٢) ، والبزار (٣١٦٠) عن أبي موسىٰ رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٤) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه بنحوه .

(يسٓ) فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللهِ . . غَفَرَ ٱللهُ لَهُ »[1] ، وقال : « اِقْرَؤُوهَا عَلَىٰ مَوْتَاكُمْ »[2] ، وقال : « قَلْبُ ٱلْقُرْآنِ يسٓ »[3] ، وقال : « مَنْ قَرَأَ (سُورَةَ ٱلدُّخَانِ) فِي لَيْلَةٍ ـ وفي رواية : لَيْلَةِ ٱلْجُمُعَةِ ـ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ »[4] و« مَنْ قَرَأَ (سُورَةَ ٱلْوَاقِعَةِ) فِي كُلِّ لَيْلَةٍ . . لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ »[5] .

وكان صلى الله عليه وسلم لا ينام في كل ليلة حتىٰ يقرأ (ألم تنزيل الكتاب) و(تبارك الملك)[6] .

وقال : « مَنْ قَرَأَ آيَةَ ٱلْكُرْسِيِّ وَأَوَّلَ (حمٓ غَافِرٍ) . . عُصِمَ ذَلِكَ ٱلْيَوْمَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ »[7] و« مَنْ قَرَأَ خَاتِمَةَ (سُورَةِ ٱلتَّوْبَةِ) ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ . . كَفَاهُ ٱللهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ صَادِقاً كَانَ أَوْ كَاذِباً »[8] .

وأمر صلى الله عليه وسلم سريةً بعثها أن يقرؤوا إذا أصبحوا وإذا أمسوا : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ إلىٰ آخر السورة ، فقرؤوها فغنموا وسلموا .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ . . أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ مِنْ يَوْمِهِ »[9] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تَعَلَّمُوا (تَبَارَكَ ٱلْمُلْكُ) فَإِنَّهَا ٱلْمُنْجِيَةُ ؛ تُنْجِي مِنْ عَذَابِ ٱلْقَبْرِ »[10] ، وقال : « مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ . . فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْنَبَ »[11] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٧٤) ، والطبراني في « الصغير » (٤١٧) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٣٠٠٢) ، وأبو داوود (٣١٢١) ، وأحمد (٥/ ٢٦) .
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٢٢٠) .
(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٤٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٤٩٨) ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٦) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٢) ، والترمذي (٢٨٩٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٧) أخرجه الدارمي (٣٤٢٩) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .
(٨) أخرجه أبو داوود (٥٠٨١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ١٥٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه بنحوه .
(٩) أخرجه أبو داوود (٥٠٧٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه .
(١٠) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه .
(١١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

وعن أبي هريرة يرفعه : « مَنْ قَرَأَ فِي لَيْلَةٍ (إِذَا زُلْزِلَتْ) . . كَانَتْ لَهُ كَعِدْلِ نِصْفِ ٱلْقُرْآنِ ، وَمَنْ قَرَأَ : (قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ) . . كَانَتْ لَهُ كَعِدْلِ رُبْعِ ٱلْقُرْآنِ ، وَمَنْ قَرَأَ : (قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ) . . كَانَتْ لَهُ كَعِدْلِ ثُلُثِ ٱلْقُرْآنِ »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن خبيب : « اِقْرَأْ : (قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ) وَ(ٱلْمُعَوِّذَتَيْنِ) حِينَ تُصْبِحُ وَحِينَ تُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . . تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ »[٢] .

والأحاديث بنحو ما ذكرنا كثيرة معلومة ، وقد التقطت مجموع الآيات التي ورد لها ذكر وجمعتها في نحو كراسة ، استوعبت فيها جميع ذلك ، وإنما ذكرنا هنا هـٰذا الطرف تبريكاً للكتاب ، وتتميماً للفائدة ، وبالله سبحانه التوفيق .

فَصْلٌ

في ذكره صلى الله عليه وسلم عند الصباح والمساء

كان يقول إذا أصبح : « اَللَّهُمَّ ؛ بِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ ٱلنُّشُورُ » وإذا أمسىٰ . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ بِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ أَصْبَحْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ »[٣] .

وسأله أبو بكر رضي الله عنه أن يعلمه ذكراً في الصباح والمساء ، فقال له : « قُلِ : ٱللَّهُمَّ ، فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ ٱلشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ » قال له : « قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ »[٤] .

وقال له رجل : يا رسول الله ؛ ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة ، قال : « أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ ٱللهِ ٱلتَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ثَلَاثاً . . لَمْ تَضُرَّكَ »[٥] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « سَيِّدُ ٱلِاسْتِغْفَارِ : اَللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) عن أنس رضي الله عنه .
(٢) أخرجه أبو داوود (٥٠٨٢) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٥٠٦٨) ، والترمذي (٣٣٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) أخرجه مسلم (٢٧٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَٱغْفِرْ لِي ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ ، مَنْ قَالَهَا فِي ٱلنَّهَارِ مُوقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ . . فَهُوَ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ ٱللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ . . فَهُوَ مِنْ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ »(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ : بِٱسْمِ ٱللهِ ٱلَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ ٱسْمِهِ شَيْءٌ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ . . لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ »(٢) وفي رواية : « لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ »(٣) .

وقال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي : اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلاَئِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ ٱللهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ . . أَعْتَقَ ٱللهُ رُبُعَهُ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ . . أَعْتَقَ ٱللهُ تَعَالَىٰ نِصْفَهُ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلاَثاً . . أَعْتَقَ ٱللهُ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِهِ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَمَنْ قَالَهَا أَرْبَعاً . . أَعْتَقَهُ ٱللهُ مِنَ ٱلنَّارِ »(٤) .

وقال : « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ : اَللَّهُمَّ ؛ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ . . فَمِنْكَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، لَكَ ٱلْحَمْدُ وَلَكَ ٱلشُّكْرُ . . فَقَدْ أَدَّىٰ شُكْرَ يَوْمِهِ ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي . . فَقَدْ أَدَّىٰ شُكْرَ لَيْلَتِهِ »(٥) .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هـٰؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ ٱلْعَافِيَةَ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ، اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ ٱلْعَفْوَ وَٱلْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي ، اَللَّهُمَّ ؛ ٱسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، اَللَّهُمَّ ؛ ٱحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي »(٦) .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٣) أخرجها أبو داوود (٥٠٨٨) عنه رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو داوود (٥٠٦٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٥) أخرجه أبو داوود (٥٠٧٣) عن عبد الله بن غنام رضي الله عنه .

(٦) أخرجه أبو داوود (٥٠٧٤) .

وشكا أبو أمامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم الدَّين فقال له : « قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ : اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْهَمِّ وَٱلْحُزْنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْعَجْزِ وَٱلْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْجُبْنِ وَٱلْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ ٱلدَّيْنِ وَقَهْرِ ٱلرِّجَالِ » قال : « فَفَعَلْتُ ذَٰلِكَ ، فَأَذْهَبَ ٱللهُ هَمِّي ، وَقَضَىٰ عَنِّي دَيْنِي »(١) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لابنته فاطمة رضي الله عنها : « مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ ؟ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ : يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ؛ بِكَ أَسْتَغِيثُ ، فَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ »(٢) ، وقال لها ولعلي وكانت سألته خادماً : « أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَىٰ فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا . . فَكَبِّرَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَسَبِّحَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، وَٱحْمَدَا ثَلاَثاً وَثَلاَثِينَ ، هَـٰذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ »(٣) .

وشكا إليه صلى الله عليه وسلم رجل أنه تصيبه الآفات ، فقال له : « قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ : بِٱسْمِ ٱللهِ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي فَإِنَّهُ لاَ يَذْهَبُ لَكَ شَيْءٌ » فقالهن الرجل فذهبت عنه الآفات(٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ : اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْكَ فِي نِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ وَسِتْرٍ ، فَأَتِمَّ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ وَعَافِيَتَكَ وَسِتْرَكَ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَىٰ . كَانَ حَقّاً عَلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يُتِمَّ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ »(٥) .

وقيل لأبي الدرداء : قد احترق بيتك ، فقال : ما احترق ؛ لم يكن الله عز وجل ليفعل ذلك لكلمات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قالهن أول نهاره . . لم تصبه مصيبة حتىٰ يمسي ، ومن قالهن آخر النهار . . لم تصبه مصيبة حتىٰ يصبح : « اَللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ ، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ، مَا شَاءَ ٱللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٥٥٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٣٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٦١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١٨) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

يَكُنْ ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ ، أَعْلَمُ أَنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ، اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(١) .

فهٰذه جملة من الأحاديث المنتخبة من كتب الحديث المعتمدة ، فيها الصحيح والحسن وما يقاربهما ، وليس فيها حديث موضوع ، والله أعلم .

فَصْلٌ

في أذكار ودعوات كان يقولها صلى الله عليه وسلم لأمور عارضات

كان يقول عند الكرب : « لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ٱلْعَظِيمُ ٱلْحَلِيمُ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمُ ، لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَرَبُّ ٱلأَرْضِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمُ »(٢) ، « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ؛ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ »(٣) .

وكان إذا راعه شيء . . قال : « هُوَ ٱللهُ رَبِّي لاَ شَرِيكَ لَهُ »(٤) ، وكان إذا خاف قوماً . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ »(٥) .

وقال لعلي رضي الله عنه : « إِذَا وَقَعْتَ فِي وَرْطَةٍ . . فَقُلْ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْعَظِيمِ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَصْرِفُ بِهَا مَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْبَلاَءِ »(٦) .

وكان إذا لقي العدو . . قال : « يَا مَالِكَ يَوْمِ ٱلدِّينِ ؛ إِيَّاكَ أَعْبُدُ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ »(٧) .

وأمر عند توقع البلاء وغلبة الأمور بقول : « حَسْبِيَ ٱللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ، عَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْنَا »(٨) .

---

(١) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٧) .
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٣) أخرج هٰذه القطعة الترمذي (٣٥٢٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٣٥) عن ثوبان رضي الله عنه بنحوه .
(٥) أخرجه أبو داوود (١٥٣٧) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .
(٦) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٣٦) عن علي رضي الله عنه .
(٧) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٣٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٨) أخرجه الترمذي (٢٤٣١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وأمر من تعسرت عليه معيشته أن يقول إذا خرج من بيته : « بِٱسْمِ ٱللهِ عَلَىٰ نَفْسِي وَمَالِي وَدِينِي ، اَللَّهُمَّ ؛ رَضِّنِي بِقَضَائِكَ وَبَارِكْ لِي فِيمَا قَدَّرْتَ لِي ، حَتَّىٰ لاَ أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَلاَ تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ »[١] .

وقال : « مَا أَنْعَمَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً فِي أَهْلٍ وَمَالٍ وَوَلَدٍ فَقَالَ : مَا شَاءَ ٱللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ ، فَيَرَىٰ فِيهَا آفَةً دُونَ ٱلْمَوْتِ »[٢] .

وقال : « لِيَسْتَرْجِعْ أَحَدُكُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ فِي شِسْعِ نَعْلِهِ ؛ فَإِنَّهَا مِنَ ٱلْمَصَائِبِ »[٣] .

وأمر من وجد الوسواس أن يقول : « آمَنْتُ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ، هُوَ ٱلأَوَّلُ وَٱلآخِرُ ، وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »[٤] .

وأمر أن يرقى اللديغ والمعتوه بـ(الفاتحة) ، وكان صلى الله عليه وسلم يُعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما [يقول] : « أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ ٱللهِ ٱلتَّامَّةِ ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ » ويقول : « إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »[٥] صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

وكان عادته صلى الله عليه وسلم في عيادة المرضىٰ : يضع يده المباركة على المريض ويقول : « لاَ بَأْسَ ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[٦] ثم يرقيه فيقول : « اَللَّهُمَّ رَبَّ ٱلنَّاسِ ؛ أَذْهِبِ ٱلْبَاسَ ، اِشْفِ أَنْتَ ٱلشَّافِي ، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَماً »[٧] ثم يسأله عن حاله وعمَّا يشتهيه ، فإن ذكر شيئاً . طلبه له ، وقال : « لاَ تُكْرِهُوا مَرْضَاكُمْ عَلَى ٱلطَّعَامِ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ »[٨] ، وقال : « إِذَا دَخَلْتَ عَلَىٰ مَرِيضٍ . فَمُرْهُ فَلْيَدْعُ

---

(١) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٥٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٥٩٩٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٣٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٢٦) عن عائشة رضي الله عنها مختصراً ، وفي (د) و(و): (ورسله) .

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) أخرجه البخاري (٣٦١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) أخرجه البخاري (٥٦٧٥) عن عائشة رضي الله عنها، وفي (د) و(و): (لاَ شَافِيَ إِلاَّ أَنْتَ) .

(٨) أخرجه الترمذي (٢٠٤٠) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه .

لَكَ ؛ فَإِنَّ دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ ٱلْمَلاَئِكَةِ »[1] ، وقال : « عَائِدُ ٱلْمَرِيضِ فِي مَخْرَفَةِ ٱلْجَنَّةِ »[2] .

وقال : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ »[3] ، « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ . . دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ »[4] .

وقال : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، اَللَّهُمَّ ؛ ٱؤْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا . . إِلاَّ أَجَرَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْراً مِنْهَا »[5] .

وقال : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ : مَا لِعَبْدِي ٱلْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ ٱحْتَسَبَهُ إِلاَّ ٱلْجَنَّةُ »[6] ، وقال : « إِنَّ ٱللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ ٱلْعَيْنِ وَلاَ بِحُزْنِ ٱلْقَلْبِ ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَـٰذَا أَوْ يَرْحَمُ » وأشار إلىٰ لسانه[7] .

وبَرِىء صلى الله عليه وسلم من الصالقة والحالقة والشاقة ، ولعن النائحة والمستمعة[8] .

وقال : « مَنْ عَزَّىٰ مُصَاباً . . فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ »[9] ، و« مَنْ عَزَّىٰ ثَكْلَىٰ . . كُسِيَ بُرْداً فِي ٱلْجَنَّةِ »[10] .

وقال : « اُذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ ، وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ »[11] ، وقال : « مَنْ غَسَّلَ مَيِّتاً فَكَتَمَ عَلَيْهِ . . غُفِرَ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً »[12] ، وقال : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ . . أَدْخَلَهُ ٱللهُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٤١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٨) عن ثوبان بن بجدد رضي الله عنه .
(٣) أخرجه مسلم (٩١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) أخرجه أبو داوود (٣١١٦) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .
(٥) أخرجه مسلم (٩١٨) عن أم سلمة رضي الله عنها .
(٦) أخرجه البخاري (٦٤٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٧) أخرجه البخاري (١٣٠٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٨) أخرجه أبو داوود (٣١٢٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٩) أخرجه الترمذي (١٠٧٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(١٠) أخرجه الترمذي (١٠٧٦) عن أبي برزة رضي الله عنه .
(١١) أخرجه أبو داوود (٤٩٠٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(١٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٥٤) عن أبي رافع رضي الله عنه .

ٱلْجَنَّةَ » قال عمر رضي الله عنه : فقلنا : وثلاثة ؟ قال : « وَثَلاَثَةٌ » فقلنا : واثنان ؟ قال : « وَٱثْنَانِ » ثم لم نسأله عن الواحد(١) .

وكان صلى الله عليه وسلم يعلمهم عند زيارة القبور أن يقول قائلهم : « اَلسَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلدِّيَارِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللهُ لَلاَحِقُونَ ، أَسْأَلُ ٱللهَ لَنَا وَلَكُمُ ٱلْعَافِيَةَ »(٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ »(٣) ، « اَللَّهُمَّ ؛ لَقْحاً لاَ عَقِيماً »(٤) ، وكان إذا رأىٰ ناشئاً في أفق السماء . . ترك العمل وإن كان في صلاة ثم يقول : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا » فإن مُطِر . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ صَيِّباً نَافِعاً »(٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا وَقَعَتْ كَبِيرَةٌ أَوْ هَاجَتْ رِيحٌ عَظِيمَةٌ . . فَعَلَيْكُمْ بِٱلتَّكْبِيرِ ؛ فَإِنَّهُ يُجْلِي ٱلْعَجَاجَ ٱلأَسْوَدَ »(٦) ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ لاَ تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ »(٧) .

أذكاره صلى الله عليه وسلم في السفر

كان صلى الله عليه وسلم يركع قبل الخروج من بيته ركعتين وقال : « مَا خَلَّفَ أَحَدٌ عِنْدَ أَهْلِهِ أَفْضَلَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يَرْكَعُهُمَا عِنْدَهُمْ حِينَ يُرِيدُ سَفَراً »(٨) ، ثم إذا قدم من سفره . . بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، وكان يقول لمن يودعه : « أَسْتَوْدِعُ ٱللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٥) عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، وفي (د) : (بِكُمْ لَلاَحِقُونَ)، وفي (و): (بِكُمْ لاَحِقُونَ).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩) عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) أخرجه ابن حبان (١٠٠٨) عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه .

(٥) أخرجه أبو داوود (٥٠٩٩) عن عائشة رضي الله عنها بنحوه .

(٦) أخرجه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٩٤٧) عن جابر رضي الله عنه .

(٧) أخرجه الترمذي (٣٤٥٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٨) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/٣٥٦) عن المطعم بن المقدام ، وانظر « الفتوحات الربانية » (٥/١٠٥) .

عَمَلِكَ »[1] وكان يقول لمن يُخلِّف : « أَسْتَوْدِعُكُمُ ٱللهَ ٱلَّذِي لاَ تَضِيعُ وَدَائِعُهُ »[2] وقال : « إِنَّ ٱللهَ إِذَا ٱسْتُودِعَ شَيْئاً . . حَفِظَهُ »[3] .

وجاءه رجل فقال : يا رسول الله ؛ إني أريد سفراً فزودني ، قال : « زَوَّدَكَ ٱللهُ ٱلتَّقْوَىٰ » قال : زدني ، قال : « وَغَفَرَ ذَنْبَكَ » قال : زدني ، قال : « وَيَسَّرَ لَكَ ٱلْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ »[4] .

وقال له آخر : إني أريد أن أسافر فأوصني ، قال : « عَلَيْكَ بِتَقْوَى ٱللهِ ، وَٱلتَّكْبِيرِ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ » فلما ولَّى الرجل . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱطْوِ لَهُ ٱلْبُعْدَ ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ ٱلسَّفَرَ »[5] .

وقال عمر رضي الله عنه : (استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة ، فأذن لي وقال : « لاَ تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ » فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا)[6] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استوىٰ علىٰ بعيره خارجاً إلىٰ سفر . . كبر ثلاثاً ثم قال : « سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ، اَللَّهُمَّ ؛ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَـٰذَا ٱلْبِرَّ وَٱلتَّقْوَىٰ ، وَمِنَ ٱلْعَمَلِ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ ، اَللَّهُمَّ ؛ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَـٰذَا ، وَٱطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ ، اَللَّهُمَّ ؛ أَنْتَ ٱلصَّاحِبُ فِي ٱلسَّفَرِ ، وَٱلْخَلِيفَةُ فِي ٱلأَهْلِ وَٱلْمَالِ » وإذا رجع . . قالهن وزاد فيهن : « آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ »[7] .

وكان هو وجيوشه إذا علوا الثنايا . . كبروا ، وإذا هبطوا . . سبحوا .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ : دَعْوَةُ ٱلْمَظْلُومِ ، وَدَعْوَةُ ٱلْمُسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ ٱلْوَالِدِ عَلَىٰ وَلَدِهِ »[8] .

وقال : « أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ ٱلْغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا ـ يعني السفينة ـ أَنْ يَقُولُوا : ﴿ بِسْمِ ٱللهِ مَجْرِيٰهَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤٣) .
(٢) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٨٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤) عن أنس رضي الله عنه .
(٥) أخرجه الترمذي (٣٤٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٦) أخرجه أبو داوود (١٤٩٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٧) أخرجه مسلم (١٣٤٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفي (د): (هَوِّنْ عَلَيْنَا فِي سَفَرِنَا هَـٰذَا) .
(٨) أخرجه أبو داوود (١٥٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَمُرْسَلٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ » الآية[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا ٱنْفَلَتَتْ دَابَّةُ أَحَدِكُمْ فِي فَلَاةٍ . . فَلْيُنَادِ : يَا عِبَادَ ٱللهِ ٱحْبِسُوا ، يَا عِبَادَ ٱللهِ ٱحْبِسُوا ؛ فَإِنَّ لِلهِ فِي ٱلْأَرْضِ حَاضِراً سَيَحْبِسُهُ »[٢] .

وكان إذا أشرف علىٰ قرية يريد دخولها يقول : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَـٰذِهِ وَخَيْرِ مَا جَمَعْتَ فِيهَا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جَمَعْتَ فِيهَا ، اَللَّهُمَّ ؛ ٱرْزُقْنَا جَنَاهَا ، وَأَعِذْنَا مِنْ وَبَاهَا ، وَحَبِّبْنَا إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَحَبِّبْ صَالِحِي أَهْلِهَا إِلَيْنَا »[٣] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل . . قال : « يَا أَرْضُ ؛ رَبِّي وَرَبُّكِ ٱللهُ ، أَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ شَرِّكِ وَشَرِّ مَا فِيكِ ، وَشَرِّ مَا خُلِقَ فِيكِ وَشَرِّ مَا يَدِبُّ عَلَيْكِ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدَ ، وَمِنَ ٱلْحَيَّةِ وَٱلْعَقْرَبِ ، وَمِنْ سَاكِنِ ٱلْبَلَدِ ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ »[٤] .

وقال : « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ ٱللهِ ٱلتَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . . لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ »[٥] .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجع من سفره فدخل علىٰ أهله . . قال : « تَوْباً تَوْباً لِرَبِّنَا ، أَوْباً لَا يُغَادِرُ حَوْباً »[٦] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ . . فَلْيَقُلِ : ٱلْحَمْدُ لِلهِ ، وَلْيَقُلْ لَهُ أَخُوهُ أَوْ صَاحِبُهُ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ ، فَإِذَا قَالَ لَهُ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ . . فَلْيَقُلْ : يَهْدِيكُمُ ٱللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ »[٧] ، وقال : « إِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ ٱللهَ . . فَشَمِّتُوهُ ، وَإِذَا لَمْ يَحْمَدِ ٱللهَ . . فَلَا تُشَمِّتُوهُ »[٨] .

---

(١) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٠٠) عن الحسين بن علي رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٠٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٢٧) عن عائشة رضي الله عنها، **الجنى** : ما يجتنىٰ من الثمر .

(٤) أخرجه أبو داوود (٢٦٠٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما، **الأسود** : الحية العظيمة ، وفيه: (أَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدَ).

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها .

(٦) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٥٣١) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) أخرجه البخاري (٦٢٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٨) أخرجه مسلم (٢٩٩٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فَصْلٌ

[في أذكار متفرقة وردت عنه صلى الله عليه وسلم]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا سَمِعْتُمْ نُهَاقَ ٱلْحَمِيرِ . . فَتَعَوَّذُوا بِٱللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَاناً ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ ٱلدِّيَكَةِ . . فَٱسْأَلُوا ٱللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ ؛ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً »(١) ، وقال : « إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ ٱلْكِلاَبِ وَنَهِيقَ ٱلْحَمِيرِ بِٱللَّيْلِ . . فَتَعَوَّذُوا بِٱللهِ ؛ فَإِنَّهُنَّ يَرَيْنَ مَا لاَ تَرَوْنَ »(٢) .

وقال : « إِذَا رَأَيْتُمُ ٱلْحَرِيقَ . . فَكَبِّرُوا ؛ فَإِنَّ ٱلتَّكْبِيرَ يُطْفِئُهُ »(٣) .

وقال : « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ كَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَٰلِكَ : سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ . . إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَٰلِكَ »(٤) ، وقلما كان صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتىٰ يدعو بهـٰؤلاء الدعوات بين أصحابه : « اَللَّهُمَّ ؛ ٱقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ ، وَمِنَ ٱلْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ ٱلدُّنْيَا ، اَللَّهُمَّ ؛ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا أَبَداً مَا أَحْيَيْتَنَا ، وَٱجْعَلْهُ ٱلْوَارِثَ مِنَّا ، وَٱجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنَا ، وَٱنْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ عَادَانَا ، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلاَ تَجْعَلِ ٱلدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بِذُنُوبِنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا »(٥) .

وقال : « مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً لَمْ يَذْكُرُوا ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ . . إِلاَّ كَانَتْ عَلَيْهِمْ تِرَةً ، فَإِنْ شَاءَ . . عَذَّبَهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ . . غَفَرَ لَهُمْ »(٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَأَىٰ مُبْتَلًىٰ فَقَالَ : ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي عَافَانِي مِمَّا ٱبْتَلاَكَ بِهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داوود (٥١٠٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٩٤) .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وَفَضَّلَنِي عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً . . لَمْ يُصِبْهُ ذَٰلِكَ ٱلْبَلَاءُ »[1] .

وقال : « مَنْ دَخَلَ ٱلسُّوقَ فَقَالَ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ ٱلْمُلْكُ ، وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ، بِيَدِهِ ٱلْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . كَتَبَ ٱللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ »[2] .

وقال : « إِذَا طَنَّتْ أُذُنُ أَحَدِكُمْ . . فَلْيَذْكُرْنِي ، وَلْيُصَلِّ عَلَيَّ ، وَلْيَقُلْ : ذَكَرَ ٱللهُ بِخَيْرٍ مَنْ ذَكَرَنِي »[3] .

وقال : « مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ : جَزَاكَ ٱللهُ خَيْراً . . فَقَدْ أَبْلَغَ فِي ٱلثَّنَاءِ »[4] ، وقال : « إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلسَّلَفِ . . ٱلْحَمْدُ وَٱلأَدَاءُ »[5] .

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب الأنصاري وقد تناول من لحيته أذىً : « مَسَحَ ٱللهُ عَنْكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ مَا تَكْرَهُ ، لاَ يَكُنْ بِكَ ٱلسُّوءُ يَا أَبَا أَيُّوبَ ، لاَ يَكُنْ بِكَ ٱلسُّوءُ »[6] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أتيَ بباكورة ثمر . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا ، بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ » ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان[7] ، وفي رواية : أنه كان يضعه علىٰ عينيه ثم علىٰ شفتيه[8] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خاف أن يصيب شيئاً بعينه . . قال : « اَللَّهُمَّ ؛ بَارِكْ فِيهِ وَلاَ تَضُرَّهُ »[9] ، وقال : « إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يُعْجِبُهُ فِي نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ . . فَلْيُبَرِّكْ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ ٱلْعَيْنَ حَقٌّ »[10] ، وقال : « اَلْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ ٱلْقَدَرَ . . سَبَقَتْهُ ٱلْعَيْنُ ، وَإِذَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٢٨) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٣) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (١٦٦) عن أبي رافع رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٣٥) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما .
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦) .
(٦) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٨١ـ ٢٨٢) .
(٧) أخرجه مسلم (١٣٧٣/ ٤٧٣ ، ٤٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٨) أخرجها ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٨٠) عنه رضي الله عنه .
(٩) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٠٨) عن سعيد بن حكيم رضي الله عنه .
(١٠) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٠٥) عن سهل بن حنيف رضي الله عنه .

ٱسْتُغْسِلْتُمْ فَٱغْسِلُوا »[1] قالت عائشة رضي الله عنها : (كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المَعِينُ)[2] .

وقال : « إِذَا رَأَيْتُمْ مِنَ ٱلطِّيَرَةِ شَيْئاً تَكْرَهُونَهُ . . فَقُولُوا : ٱللَّهُمَّ ؛ لاَ يَأْتِي بِٱلْحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنْتَ ، وَلاَ يَذْهَبُ بِٱلسَّيِّئَاتِ إِلاَّ أَنْتَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ »[3] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أتي بمولود . . أذن في أذنه حين ولادته ، ووضعه في حجره ، وحنكه بتمرة ، ودعا له ، وبرك عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن قال له : رأيت رؤيا : « خَيْراً رَأَيْتَ وَخَيْراً يَكُونُ » وفي رواية : « خَيْراً تَلَقَّاهُ ، وَشَرّاً تَوَقَّاهُ ، خَيْراً لَنَا وَشَرّاً عَلَىٰ أَعْدَائِنَا ، وَٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ »[4] .

ولمن رآه يضحك : « أَضْحَكَ ٱللهُ سِنَّكَ » ، ولمن رأىٰ عليه ثوباً جديداً : « تُبْلِي وَيُخْلِفُ ٱللهُ ، أَبْلِ وَأَخْلِقْ ، ثُمَّ أَبْلِ وَأَخْلِقْ ، ثُمَّ أَبْلِ وَأَخْلِقْ »[5] ، ولمن قال له : غفر الله لك ، قال : « وَلَكَ »[6] .

فهٰذه أطراف من أذكاره صلى الله عليه وسلم المتفرقة ، وهي أجل من أن تستوعب أو يحيط بها مكتتب .

فَصْلٌ

فيما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من فضل حِلَق الذكر

وما لملازميها من عظيم الثواب والغفران وما لمجانبيها من الوبال والحرمان

روينا في صحيح « البخاري » و« مسلم » رحمهما الله تعالىٰ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ للهِ تَعَالَىٰ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي ٱلطُّرُقِ ؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٨٨٠) **المعين** : الذي أصابه العين .

(٣) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٩٣) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٧٧٣ـ ٧٧٢) .

(٥) أخرجه أبو داوود (٤٠٢٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مختصراً ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٠٣٧٧) عن أبي نضرة كذلك مختصراً .

(٦) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٠٥٤) ، وأبو يعلىٰ (١٥٦٣) عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه .

يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ ٱللهَ تَعَالَىٰ . . تَنَادَوْا : هَلُمُّوا إِلَىٰ حَاجَتِكُمْ ، فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلدُّنْيَا ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالُوا : يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَأَوْنِي ؟ فَيَقُولُونَ : لاَ وَٱللهِ مَا رَأَوْكَ ، فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْكَ . . كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً ، وَأَشَدَّ تَحْمِيداً ، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحاً ، فَيَقُولُ : فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالَ : يَسْأَلُونَكَ ٱلْجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لاَ ، وَٱللهِ يَا رَبِّ ؛ مَا رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : إِنَّهُمْ لَوْ رَأَوْهَا . . كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصاً ، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً ، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً ، قَالَ : فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ قَالُوا : يَتَعَوَّذُونَ مِنَ ٱلنَّارِ ، قَالَ : فَيَقُولُ : وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ : لاَ وَٱللهِ مَا رَأَوْهَا ، فَيَقُولُ : كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لَوْ رَأَوْهَا . . كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَاراً ، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً . قَالَ : فَيَقُولُ : فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ ، قَالَ : يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ ٱلْمَلاَئِكَةِ : فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ ؟ قَالَ : هُمُ ٱلْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَىٰ بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »(١) .

وروينا فيهما أيضاً عن أبي واقد الحارث بن عوف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه ؛ إذْ أقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد ، قال : فوقفا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما أحدهما ، فرأىٰ فرجةً في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر . . فجلس خلفهم ، وأما الثالث . . فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . قال :

« أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ ٱلثَّلاَثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ . . فَأَوَىٰ إِلَى ٱللهِ فَآوَاهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، وَأَمَّا ٱلآخَرُ . . فَٱسْتَحْيَا فَٱسْتَحْيَا ٱللهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا ٱلآخَرُ . . فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ ٱللهُ عَنْهُ »(٢) .

وروينا في « صحيح مسلم » عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما : أنهما شهدا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاَ يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ ٱللهَ تَعَالَىٰ . . إِلاَّ حَفَّتْهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ ٱلرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ ٱللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »(٣) .

---

(١) البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩) .
(٢) البخاري (٦٦) ومسلم (٢١٧٦) .
(٣) مسلم (٢٧٠٠) .

وروينا فيه أيضاً عن معاوية رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حلقة من أصحابه فقال : « مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ، ونحمده علىٰ ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا ، قال : « آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ ؟ » قالوا : والله ؛ ما أجلسنا إلا ذاك ؟ قال : « أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يُبَاهِي بِكُمُ ٱلْمَلاَئِكَةَ »[1] .

وروينا في « صحيحيهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ . . ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ . . ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ »[2] .

وروينا في « جامع الترمذي » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ ٱلْجَنَّةِ . . فَٱرْتَعُوا » قالوا : يا رسول الله ؛ وما رياض الجنة ؟ قال : « حِلَقُ الذِّكْرِ »[3] فهـٰذا ما ورد في « الصحيحين » من هـٰذا المعنىٰ .

وقد رأيت أن أختم ذلك بخمسة أذكار منتقاة من الصحاح عظيمة الأرباح مفصحة وعودها باليمن والفلاح :

أولها : لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

ثانيها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلـٰه إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثالثها : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

رابعها : رب اغفر لي وتب عليّ ؛ إنك أنت التواب الرحيم .

خامسها : اللهم ؛ صلِّ وسلِّم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آل محمد ، كما صليت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ؛ إنك حميد مجيد .

---

(١) مسلم (٢٧٠١) .

(٢) البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) .

(٣) الترمذي (٣٥١٠) وهو عنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

فهٰذه الخمسة الأذكار قد جمعت أفضل أنواع التهليل ، وأفضل أنواع التسبيح ، ومن أفضل أنواع الاستغفار في اختصار ، وأخصر كيفيات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في تمام ، ولكل منها شرح طويل مما يقطع بصحته ، فهي أفضل الأذكار بعد القرآن ، فينبغي لكل متدين ملازمتها كل يوم ، واتخاذها ورداً يطالب بها نفسه ، ويأسف عليها إن فاتته ، وينبغي له أن يأتي بكل ذكر منها مئة ، وأن يأتي بها أول نهاره ؛ لتكون حرزاً له بقية يومه ، وأرجو أن من وفق للعمل بها وأثبتت كل يوم في صحيفة أعماله أن يكون ممن لقَّاه الله اليمن والبركة ، وجنبه الشؤم والهلكة ، وغلبت حسناته سيئاته ، وبالله سبحانه التوفيق .

* * *

الباب الرابع

في فضل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، ومن نعظم لأجله، وفضل حديثه ومحدثيه وختامه فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم

وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في فضل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ وقال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ .

وعن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن سَبْرة وعمر بن مسلم إلىٰ زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه . . قال له حصين : لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً ؛ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا بن أخي ؛ والله لقد كَبِرت سني ، وقَدُم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حدثتكم . . فاقبلوا ، وما لا . . فلا تكلفونيه ، ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يُدْعىٰ : خُمّاً بين مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ : أَلاَ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ : أَوَّلُهُمَا : كِتَابُ ٱللهِ فِيهِ ٱلْهُدَىٰ وَٱلنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ ٱللهِ وَٱسْتَمْسِكُوا بِهِ » فحث علىٰ كتاب الله ورغّب فيه ثم قال : « وَأَهْلُ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ ٱللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ ٱللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي » فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من

حُرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عَقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس ، قال : كل هـٰؤلاء حرم الصدقة ؟ قال : نعم ، رواه مسلم[1] .

وروى البخاري عن ابن عمر ، عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم موقوفاً عليه أنه قال : (ارقبوا محمداً في أهل بيته)[2] وقال : (والذي نفسي بيده ؛ لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليَّ أن أصل من قرابتي)[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَعْرِفَةُ آلِ مُحَمَّدٍ . . بَرَاءَةٌ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَحُبُّ آلِ مُحَمَّدٍ . . جَوَازٌ عَلَى ٱلصِّرَاطِ ، وَٱلْوِلاَيَةُ لِآلِ مُحَمَّدٍ . . أَمَانٌ مِنَ ٱلْعَذَابِ »[4] قال بعضهم : معرفتهم : هي معرفة مكانهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا عرفهم بذلك . . عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه[5] .

وعن عمر بن أبي سلمة قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وذلك في بيت أم سلمة . . دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وحسناً وحسيناً ، فجللهم بكساء وعليٌّ رضي الله عنه خلف ظهره ثم قال : « اَللَّهُمَّ ؛ هَؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً »[6] وكذلك لما نزلت آية المباهلة . . دعاهم أيضاً وقال : « اَللَّهُمَّ ؛ هَؤُلاَءِ أَهْلِي »[7] .

وقال صلى الله عليه وسلم في علي رضي الله عنه : « مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ . . فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ ، اَللَّهُمَّ ؛ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ »[8] ، وقال فيه أيضاً : « لاَ يُحِبُّكَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يُبْغِضُكَ إِلاَّ مُنَافِقٌ »[9] .

---

(١) مسلم (٢٤٠٨) .
(٢) البخاري (٣٧١٣) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٧١٢) .
(٤) أخرجه الكلاباذي في « بحر الفوائد » (١ـ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥) وانظر « الشفا » (٥٢٨) .
(٥) انظر « الشفا » (٥٢٨) .
(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٨٧) .
(٧) أخرجه مسلم (٢٤٠٤/٣٢) .
(٨) أخرجه أحمد (١/١١٨) .
(٩) أخرجه مسلم (٧٨) .

وقال للعباس : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ ٱلإِيمَانُ حَتَّىٰ يُحِبَّكُمْ لِلهِ وَرَسُولِهِ » ، وقال : « مَنْ آذَىٰ عَمِّي . . فَقَدْ آذَانِي ، وَإِنَّمَا عَمُّ ٱلرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ »[1] .

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ أسامة بن زيد والحسن بن علي ويقول : « اَللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا »[2] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَـٰذَيْنِ ـ وأشار إلى الحسن والحسين ـ وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا . . كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[3] .

وقال : « مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ . . مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ ؛ مَنْ رَكِبَ فِيهَا . . نَجَا ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا . . غَرِقَ »[4] .

وعن عقبة بن الحارث قال : رأيت أبا بكر جعل الحسن علىٰ عنقه وهو يقول : (بأبي شبيه بالنبي ليس شبيه بعلي وعليٌّ يضحك)[5] .

وروي عن عبد الله بن الحسن بن الحسن قال : أتيت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في حاجة ، فقال لي : إذا كانت لك حاجة . . فأرسل إليّ أو اكتب ؛ فإني أستحيي من الله عز وجل أن يراك علىٰ بابي[6] .

وروي : أن زيد بن ثابت أراد أن يركب بغلة له ، فأخذ ابن عباس بركابها وقال : هـٰكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء ، فقبل زيد يد ابن عباس وقال : هـٰكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا[7] .

وروي : أن المنصور أراد أن يُقِيدَ مالكاً من جعفر بن سليمان وكان ضربه حتىٰ غشي عليه ، فقال : أعوذ بالله ، والله ؛ ما ارتفع منها سوط عن جسمي . . إلا وقد جعلته في حل ؛ لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٣٥) .
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٧٧) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٤٦) .
(٥) أخرجه البخاري (٣٧٥٠) .
(٦) انظر « الشفا » (٥٣١) .
(٧) أخرجه الطبراني في « الكبير » مختصراً (٥/ ١٠٧) .

وقال أبو بكر بن عياش : لو أتاني أبو بكر وعمر وعليٌّ في حاجة . . لبدأت بحاجة عليٍّ قبلهما ؛ وذلك لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأَنْ أَخِرَّ من السماء إلى الأرض أحب إليَّ من أن أقدمه عليهما[1] .

قال المؤلف كان الله له : ففي جملة هٰذه الأخبار والآثار تنويه بقدر آل النبي المختار ، ورفع لمنزلتهم ، وتنبيه علىٰ عظيم مكانتهم ، فينبغي أن يعرف لهم ذلك ، ويقدموا في الأمور ، ويوسعوا في الصلة ، ويقابلوا بالتبجيل والتعظيم ، ويلحقوا بنبيهم في الصلاة والتسليم ، ففي ذلك امتثال لأمر الله ، وصلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وينبغي لمن قصده أحد من أهل البيت متعرضاً لمعروفه متعرفاً إليه بالقرابة النبوية . . أن يصله ، ولا يطالبه بالبينة علىٰ نسبه فيقع في المحذور ؛ فقد روي : أن بعض المُثْرِين اعتراه بعض فقراء أهل البيت متعرفاً إليه باتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « من يشهد لك علىٰ ذلك ؟ فأعرض عنه ، فرأىٰ ذلك الرجل أن القيامة قد قامت ، وغشيه كربها ، فلجأ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم متعرفاً إليه بأني رجل من أمتك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَشْهَدُ لَكَ عَلَىٰ ذَلِكَ ؟ » وفي الكلام قصة طويلة .

ومما يتعين التحذير منه : الغلو في حب أهل البيت حتىٰ يتناول بسببهم كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يحب أفعالهم الصادرة منهم حسنها وسيئها لا يقبح منها شيئاً ، وكل من أحبهم علىٰ هٰذا الوجه . . خسر ، ولا يقاوم خيره شره .

وقد روينا بالسند الثابت عن الفضل بن مرزوق قال : سمعت الحسن ـ يعني المثنىٰ رحمه الله تعالىٰ ونفع به ـ يقول لرجل ممن يغلو فيهم : ويحكم! أحبونا لله ، فإن أطعنا الله . . فأحبونا ، وإن عصينا الله . . فأبغضونا ، فقال له رجل : إنكم ذو قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، فقال : ويحكم! لو كان الله نافعاً بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير عمل بطاعته . . لنفع بذلك من هو أقرب إليه منا أباه وأمه ، والله ؛ إني أخاف أن يضاعف للعاصي منا العذاب ضعفين ، والله ؛ إني لأرجو أن يؤتى المحسن

---

(١) انظر « الشفا » (٥٣٣) .

منا أجره مرتين[1] ، ونحو منه : ما روي عن الحسن بن علي ، وهو الناصر الأُطْرُوش رضي الله عنهم ، وما ورد في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة ابنته رضي الله عنها : « لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً »[2] مبين عن ذلك ، والله أعلم .

* * *

---

(١) انظر « تاريخ مدينة دمشق » (١٣/ ٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الفصل الثاني

في فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالىٰ : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إلىٰ آخر السورة ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ ، والآيات في هـٰذا المعنىٰ كثيرة ، وتقدم كثير منها ومن الأحاديث في أثناء الكتاب ، وسنزيد هنا تكراراً وبياناً : عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ أَصْحَابِي كَمَثَلِ ٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ ؛ لاَ يَصْلُحُ ٱلطَّعَامُ إِلاَّ بِهِ »[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أَصْحَابِي كَٱلنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ . ٱهْتَدَيْتُمْ »[2] وقال : « اَللهَ ٱللهَ فِي أَصْحَابِي ، لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ . فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ . فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَى ٱللهَ ، وَمَنْ آذَى ٱللهَ . . يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ »[3] ، وقال : « لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً . . مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ »[4] ، وقال : « مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي . . فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً »[5] ، وقال : « إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي . . فَأَمْسِكُوا »[6] .

وقال مالك بن أنس وغيره : من أبغض الصحابة وسبهم . . فليس له في فيء المسلمين حق ، ونزع بآية الحشر ، وقال : من غاظه أصحاب محمد . . فهو كافر ، قال الله تعالىٰ : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٢٧٦٢) ، والبزار (٢٧٧١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) سبق (ص ٥٧٩) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢) عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٥) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٧٣٠٢) عن جابر رضي الله عنه .

(٦) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢/٩٦) عن ثوبان رضي الله عنه .

وقال عبد الله بن المبارك : خصلتان من كانتا فيه.. نجا : الصدق ، وحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أيوب السختياني : من أحب أبا بكر.. فقد أقام الدين ، ومن أحب عمر.. فقد أوضح السبيل ، ومن أحب عثمان.. فقد استضاء بنور الله تعالىٰ ، ومن أحب علياً.. فقد أخذ بالعروة الوثقىٰ ، ومن أحسن الثناء علىٰ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.. فقد بريء من النفاق ، ومن انتقص واحداً منهم.. فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح ، وأخاف ألاَّ يصعد له عمل إلى السماء حتىٰ يحبهم جميعاً ويكون قلبه سليماً[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ غَفَرَ لِأَهْلِ بَدْرٍ وَٱلْحُدَيْبِيَةِ ، أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ اِحْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَأَصْهَارِي وَأَخْتَانِي ، لاَ يُطَالِبَنَّكُمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَظْلَمَةٍ ؛ فَإِنَّهَا مَظْلَمَةٌ لاَ تُوهَبُ فِي ٱلْقِيَامَةِ غَداً »[2] .

وقال رجل للمعافى بن عمران : أين عمر بن عبد العزيز من معاوية رضي الله عنه ، فغضب وقال : لا يقاس بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد ، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه علىٰ وحي الله عز وجل[3] .

وقال كعب : ليس أحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا وله شفاعة يوم القيامة .

وقال سهل بن عبد الله التستري : لم يؤمن بالرسول من لم يوقر أصحابه[4] .

وقال القاضي عياض : ومن توقيره صلى الله عليه وسلم وبره.. توقير أصحابه وبرهم ، ومعرفة حقهم ، والاقتداء بهم ، وحسن الثناء عليهم ، والاستغفار لهم ، والإمساك عما شجر بينهم ، ومعاداة من عاداهم ، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال

---

(١) انظر « الشفا » (٥٣٧) .

(٢) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٨١٨٧) عن كعب بن مالك رضي الله عنه بنحوه ، وانظر « الشفا » (٥٣٨) .

(٣) انظر « الشفا » (٥٣٨) .

(٤) انظر « الشفا » (٥٣٨) .

الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم ، وأن يُلتمس لهم فيما نقل من مثل ذلك وفيما كان بينهم من الفتن أحسنُ التأويلات ، ويُخرَّج لهم أصوب المخارج ؛ إِذْ هم أهل ذلك ، ولا يذكر أحد منهم بسوء ، ولا يُغْمَصُ عليه أمره ، بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وجميل سيرهم ، ويسكت عما وراء ذلك ، والله أعلم[1] .

* * *

(١) انظر « الشفا » (٥٣٤) .

الفصل الثالث

في تعظيم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عظمه ومحبتهم لما أحبه

من ذلك : ما قدمنا روايته : أن أبا بكر كان يقول لعمر رضي الله عنهما : اذهب بنا إلىٰ أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها . . . وذكر الحديث[١] .

ولما فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأعطية . . فرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف ، ولأسامة بن زيد ثلاثة آلاف وخمس مئة ، فقال عبد الله : لم فضلته عليّ ؟! فوالله ؛ ما سبقني إلىٰ مشهد ، فقال له : لأن زيداً كان أحب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، وأسامة أحب إليه منك ، فآثرت حب رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حبي[٢] .

وروي : أن حليمة السعدية وفدت علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : فصنعا بها كما كان يصنع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] .

ورأى ابن عمر محمد بن أسامة وكأنه كره منه شيئاً ، فقال : ليت هـٰذا عندي ، فقيل له : هـٰذا محمد بن أسامة ، فطأطأ ابن عمر رأسه ونقر بيده الأرض وقال : لو رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لأحبه[٤] .

ولما وفدت بنت أسامة علىٰ عمر بن عبد العزيز . . تلقاها وجلس بين يديها وما ترك لها حاجةً إلا قضاها .

أما محبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم له وحملهم أنفسهم علىٰ ما شاهدوه من جميل سيرته وحسن طريقته والتأسي به في عموم أحوالهم . . فأمر لا يحكىٰ ، وقد أثنى الله سبحانه عليهم بذلك ، وانتشرت به الأخبار ، ولولا خشية الإطالة . . لذكرت منها ذكراً واسعاً ، وإنما ذكرت هـٰذا الطرف في ذكر محبتهم لمن أحب ؛ لأن فيه تنبيهاً علىٰ قدر

---

(١) ص : (٣٨٣) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨١٣) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) ، وابن ماجه (١٦٣٥) ، عن أنس رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٣٤) .

محبتهم له ، وإن ذلك من باب أولىٰ ، ويكفي في تحقيق ذلك : أنهم هجروا في محبته خير البلاد ومحاب الأهل والأولاد ، واتخذوهم أعدى الأعادي ، وصار حبه طبعاً وعادةً عندهم ، حتىٰ في المباحات وشهوات النفس كما قال أنس رضي الله عنه : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من نواحي القصعة ، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ[١] ، ونقيضه في الكراهة : قول أبي أيوب رضي الله عنه وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الثوم : أحرام هو ؟ قال : « لاَ ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ مِنْ أَجْلِ رِيحِهِ » قال : فإني أكره ما كرهت[٢] ، وهـٰذا الحسن بن عليّ وأصحابه رضي الله عنهم أتوا سلمىٰ مولاة النبي صلى الله عليه وسلم وسألوها أن تصنع لهم طعاماً مما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] ، وكان ابن عمر يلبس النعال السبتية ويصبغ بالصفرة ؛ إذ رأى النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك[٤] .

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٩) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٥٣) .
(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤/ ٢٤١) .
(٤) أخرجه البخاري (١٦٦) .

الفصل الرابع

في فضل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحدثيه وما نقل عن السلف من تعظيمهم لذلك

من ذلك : ما رواه الدارقطني عن عمرو بن ميمون قال : اختلفت إلى ابن مسعود سنة ، فما سمعته يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه حدث يوماً فجرىٰ علىٰ لسانه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم علاه كَرْبٌ حتىٰ رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : هٰكذا إن شاء الله تعالىٰ ، أو فوق ذا ، أو ما دون ذا ، أو ما هو قريب من ذا[1] .

وقد سبق من رواية البخاري : أن ابن عباس رضي الله عنهما أمر ابنه علياً ومولاه عكرمة أن يأتيا أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيسمعا منه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوه وهو يعمل في حائط له ، فلما كلماه في ذلك . . ترك العمل وأخذ رداءه واحتبىٰ ، ثم أقبل يحدثهم[2] .

ومر مالك بن أنس علىٰ أبي حازم وهو يحدث الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتاز بمجلسه وقال : إني لم أجد موضعاً أجلس فيه ، وكرهت أن آخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم .

وسئل ابن المسيب عن حديث وهو مضطجع ، فجلس ، فقال له السائل : وددت أنك لم تتعنَّ ، فقال : إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع .

وكان ابن سيرين ربما يعرض له بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك . . فيخشع .

وقال مطرف : كان إذا أتى الناسُ مالكاً . . خرجت إليهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا : المسائل . . خرج إليهم ، وإن قالوا : الحديث . . دخل مغتسله واغتسل وتطيب ، ولبس ثياباً جدداً وتعمم ، ووضع علىٰ رأسه

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣١٤) .

(٢) البخاري (٤٤٧) .

رداءً ، وتلقىٰ له مِنَصَّةٌ يجلس عليها ، وعليه الخشوع ، ولا يزال يتبخر بالعود حتىٰ يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يجلس علىٰ تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له في ذلك فقال : إني أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحدث به إلا علىٰ طهارة متمكناً ، وقيل : إنه لدغته عقرب ست عشرة مرةً فلم يقطع حديثه ، وسأله جرير بن عبد الحميد عن حديث وهو قائم فأمر بحبسه ، فقيل له : إنه قاض ، فقال : القاضي أحق من أُدِّبَ[1] ، وكان إذا رفع أحد صوته في مجلسه . . زبره ويقول : قال الله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ فمن رفع صوته عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وسأل أبو عمرو إسماعيلُ بن نجيد أحمدَ بن حمدان وكانا عبدين صالحين : بأي نية أكتب الحديث ؟ فقال : ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ؟ قال : نعم ، قال : فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الصالحين[3] .

وروينا بالسند الصحيح إلى الشافعي رحمه الله تعالىٰ أنه قال : كلما رأيت رجلاً من أصحاب الحديث . . كأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أيوب السختياني : إن الرجل من أهل السنة ليموت . . فكأنما مات بعض أعضائي ، أبشروا يا أهل السنة برحمة الله ورضوانه ، اليوم على السنة وغداً في الجنة .

وأجمع علماء الأمة الذين يعتد بهم في قوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[4] أنهم أصحاب الحديث[5] .

---

(١) انظر كل هـٰذه الأقوال في « الشفا » (٥٢٤ـ٥٢٦) .

(٢) أخرجه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (٩٦٨) ، وأبو سعد السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (ص٢٧) .

(٣) انظر « مقدمة ابن الصلاح » (ص٢٤٥) ، وفي (د): (ألستم تروون).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٤١) عن معاوية رضي الله عنه .

(٥) قال العلامة الأشخر رحمه الله تعالىٰ (٤٠٨) : قال النووي : ويحتمل أن هـٰذه الطائفة معروفة في المؤمنين فمنهم قائم بالجهاد ، ومنهم قائم بالعلم ، ومنهم قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومنهم قائم بأنواع أخرىٰ من الخير . انتهىٰ ، وهـٰذا يخالف ما ذكره المصنف من الإجماع .

وقال الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله تعالىٰ : هٰذا وإن علم الحديث من أفضل العلوم الفاضلة ، وأنفع الفنون النافعة ، يحبه ذكور الرجال وفحولهم ، ويُعْنَىٰ به محققوا العلماء وكملتهم ، ولا يكرهه من الناس إلا أرذالهم وسفلتهم ، وهو من أكثر العلوم تولجاً في فنونها ، لا سيما الفقه الذي هو إنسان عيونها ، ولذلك كثر غلط العاطلين منه من مصنفي الفقهاء ، وظهر الخلل في كلام المخلين به من العلماء[١] .

وقال في موضع آخر : علم الحديث . . علم شريف يناسب مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وينافر مساوي الأخلاق ومشاين الشيم ، وهو من علوم الآخرة لا من علوم الدنيا[٢] .

ومما قيل من الشعر في هٰذا المعنىٰ : قول ابن الأنباري رحمه الله تعالىٰ : [من الكامل]

أَهْـلاً وَسَهْـلاً بِـالَّـذِيـنَ أَوَدُّهُـمْ ... وَأُحِبُّهُـمْ فِـي ٱللهِ ذِي ٱلآلاَءِ

أَهْـلاً بِقَـوْمٍ صَـالِحِيـنَ ذَوِي تُقًـىً ... خَيْـرِ ٱلـرِّجَـالِ وَزَيْـنِ كُـلِّ مَـلاَءِ

يَسْعَـوْنَ فِـي طَلَـبِ ٱلْحَـدِيـثِ بِعِفَّـةٍ ... وَتَـوَقُّـرٍ وَسَكِينَـةٍ وَحَيَـاءِ

لَهُـمُ ٱلْمَهَـابَـةُ وَٱلْجَـلاَلَـةُ وَٱلْعُـلاَ ... وَفَضَـائِـلٌ جَلَّـتْ عَـنِ ٱلإِحْصَـاءِ

وَمِـدَادُ مَـا تَجْـرِي بِـهِ أَقْـلاَمُهُـمْ ... أَزْكَـىٰ وَأَفْضَـلُ مِـنْ دَمِ ٱلشُّهَـدَاءِ

يَـا طَـالِبِـي عِلْـمِ ٱلنَّبِـيِّ مُحَمَّـدٍ ... مَـا أَنْتُـمُ وَسِـوَاكُـمُ بِسَـوَاءِ

ومما قيل فيه أيضاً : قول أبي زرعة الرازي رحمه الله تعالىٰ ونفع به آمين : [من الكامل]

دِيـنُ ٱلنَّبِـيِّ مُحَمَّـدٍ آثَـارُ ... نِعْـمَ ٱلْمَطِيَّـةُ لِلْـوَرَىٰ أَخْبَـارُ

لاَ تَغْفَلَـنَّ عَـنِ ٱلْحَـدِيـثِ وَأَهْلِـهِ ... فَـٱلـرَّأْيُ لَيْـلٌ وَٱلْحَـدِيـثُ نَهَـارُ

وَلَـرُبَّمَـا غَلِـطَ ٱلْفَتَـىٰ سُبُـلَ ٱلْهُـدَىٰ ... وَٱلشَّمْـسُ وَاضِحَـةٌ لَهَـا أَنْـوَارُ

ومنه : قول أبي الحسن المقري رحمه الله تعالىٰ : [من الوافر]

أَفِـقْ وَٱطْلُـبْ لِنَفْسِـكَ مُسْتَـوَاهَـا ... وَدَعْ عُصَبـاً قَـدِ ٱتَّبَعَـتْ هَـوَاهَـا

(١) انظر « مقدمة ابن الصلاح » (ص٥) ، وفي (د) و(و): (إلاّ رُذَّالهم وسفلتهم).
(٢) انظر « مقدمة ابن الصلاح » (ص٢٣٦) .

وَسُنَّــةَ أَحْمَــدَ ٱلْمُخْتَــارِ فَــٱلْــزَمْ وَعَظِّمْهَـــا وَعَظِّـــمْ مَـــنْ رَوَاهَـــا
وَإِنْ رَغِمَـــتْ أُنُــوفٌ مِـــنْ أُنَــاسٍ فَقُــلْ يَــا رَبِّ لاَ تُــرْغِــمْ سِــوَاهَــا

ومنه : قول أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري رحمه الله تعالىٰ : [من الوافر]

أَحَــادِيــثُ ٱلــرَّسُــولِ شِفَــاءُ قَلْبِــي وَقُــرَّةُ نَــاظِــرِي وَجَــلاَءُ هَمِّــي
فَــدَتْ نَفْسِــي ثِقَــاتٍ قَــدْ رَوَوْهَــا وَمَــا مَلَكَــتْ يَــدِي وَأَبِــي وَعَمِّــي
أَعَــاذِلَتِــي عَلَيْــهِ إِلَيْــكِ عَنِّــي فَــإِنَّ إِلَيْهِــمُ قَصْــدِي وَأَمِّــي
لِمَــنْ وَالاَهُــمُ حُبِّــي وَمَــدْحِــي لِمَــنْ عَــادَاهُــمُ بُغْضِــي وَذَمِّــي

ومنه قول بعضهم : [من البسيط]

كُــلُّ ٱلْعُلُــومِ سِــوَى ٱلْقُــرْآنِ زَنْــدَقَــةٌ إِلاَّ ٱلْحَــدِيــثَ وَإِلاَّ ٱلْفِقْــهَ فِــي ٱلــدِّيــنِ
وَٱلْعِلْــمُ مُتَّبَــعٌ مَــا قَــالَ حَــدَّثَنَــا وَمَــا سِــوَىٰ ذَاكَ وَسْــوَاسُ ٱلشَّيَــاطِيــنِ

روىٰ هٰذه الأشعار جميعها بأسانيدها الحافظ أبو الفتوح الطائي في كتابه « الأربعين » التي خرجها عن أربعين صحابياً ، وتَعلَّق بها جملٌ من الفوائد(١) .

ومما رواه شيخنا شيخ الإسلام أبو الفتح العثماني المدني عن شيخه جلال الدين عرف بابن خطيب داريا لنفسه رحمه الله تعالىٰ : [من الكامل]

لَمْ أَسْعَ فِي طَلَبِ ٱلْحَدِيثِ لِسُمْعَةٍ أَوْ لاِجْتِمَــاعِ قَــدِيمِــهِ وَحَــدِيثِــهِ
لَكِــنْ إِذَا فَــاتَ ٱلْمُحِــبَّ لِقَــاءُ مَــنْ يَهْــوَىٰ تَعَلَّــلَ بِــٱسْتِمَــاعِ حَــدِيثِــهِ

وله أيضاً : [من الكامل]

يَــا عَيْــنُ إِنْ بَعُــدَ ٱلْحَبِيــبُ وَدَارُهُ وَنَــأَتْ مَنَــازِلُــهُ وَشَــطَّ مَــزَارُهُ
فَلَــكِ ٱلْهَنَــاءُ فَقَــدْ ظَفِــرْتِ بِطَــائِــلٍ إِنْ لَــمْ تَــرَيْــهِ فَهَــٰذِهِ آثَــارُهُ

* * *

(١) انظر « الأربعين » (١٢٩ ، ١١٥ ، ١٣٤ ، ١٦٩ ، ١٧٦) .

الفصل الخامس

في فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وحكمها ومواطنها

قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ .

روينا في « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً . . صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً »[1] .

وروينا في « كتاب الترمذي » و« مسند البزار » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . . أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاَةً » قال الترمذي : حديث حسن[2] .

وروىٰ أبو داوود والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة عن أوس بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ ٱلصَّلاَةِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » فقالوا : يا رسول الله ؛ وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرَمْتَ ؟! قال : يقولون : بَلِيتَ ، قال : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى ٱلأَرْضِ أَجْسَادَ ٱلأَنْبِيَاءِ »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ » ، وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ . . إِلاَّ رَدَّ ٱللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمَ » رواهما أبو داوود بإسناد صحيح[4] .

---

(١) مسلم (٣٨٤) .

(٢) الترمذي (٤٨٤) والبزار (١٤٤٦) .

(٣) أبو داوود (١٠٤٧) والنسائي (١٣٥٧) وابن ماجه (١٠٨٥) .

(٤) أخرجه أبو داوود (٢٠٤٢ ، ٢٠٤١) .

وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » ، وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اَلْبَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » رواهما الترمذي[1] وقال في الأول : حسن ، وفي الثاني : حسن صحيح .

وعن عامر بن ربيعة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلاَةً . . صَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْمَلاَئِكَةُ مَا صَلَّىٰ عَلَيَّ ، فَلْيُقَلِّلْ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ » رواه ابن صخر في « فوائده »[2] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلاَةً وَاحِدَةً . . صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ » رواه النسائي[3] ، وفي حديث : « وَكُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ »[4] .

وروىٰ مسلم والنسائي أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ ٱلْمُؤَذِّنَ . . فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلاَةً . . صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ، ثُمَّ سَلُوا ٱللهَ لِيَ ٱلْوَسِيلَةَ ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي ٱلْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ ٱللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ ٱلْوَسِيلَةَ . . حَلَّتْ لَهُ ٱلشَّفَاعَةُ »[5] .

وروى الترمذي عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد ؛ إذ دخل عليه رجل فصلىٰ فقال : اللهم ؛ اغفر لي وارحمني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَجِلْتَ أَيُّهَا ٱلْمُصَلِّي ، إِذَا صَلَّيْتَ فَقَعَدْتَ . . فَٱحْمَدِ ٱللهَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَصَلِّ عَلَيَّ ثُمَّ ٱدْعُهُ » ، ثم صلىٰ رجل آخر بعد ذلك فحمد الله وصلىٰ على النبي صلى الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥ ، ٣٥٤٦) .
(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٠٧) بنحوه .
(٣) النسائي (١٢٨٠) .
(٤) أخرجه الترمذي (٤٨٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
(٥) مسلم (٣٨٤) النسائي (٦٧١) .

عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أَيُّهَا ٱلْمُصَلِّي ، ٱدْعُ . . تُجَبْ »(١) .

وروي أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتىٰ تصلي علىٰ نبيك صلى الله عليه وسلم)(٢) .

ونحوه عن علي رضي الله عنه مرفوعاً(٣) .

وخرج عبد الرزاق عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَجْعَلُونِي كَقَدَحِ ٱلرَّاكِبِ ؛ فَإِنَّ ٱلرَّاكِبَ يَمْلأُ قَدَحَهُ ثُمَّ يَضَعُهُ وَيَرْفَعُ مَتَاعَهُ ، فَإِنِ ٱحْتَاجَ إِلَىٰ شَرَابٍ . . شَرِبَهُ ، أَوِ ٱلْوُضُوءِ . . تَوَضَّأَ ، وَإِلاَّ . . أَهْرَاقَهُ ، وَلَكِنِ ٱجْعَلُونِي فِي أَوَّلِ ٱلدُّعَاءِ وَأَوْسَطِهِ وَآخِرِهِ »(٤) .

وقال ابن عطاء رحمه الله تعالىٰ : للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات ، فإن وافق أركانه . . قوي ، وإن وافق أجنحته . . طار في السماء ، وإن وافق مواقيته . . فاز ، وإن وافق أسبابه . . أنجح ، فأركانه : حضور القلب ، والرقة ، والاستكانة ، والخشوع ، وتعلق القلب بالله تعالىٰ ، وقطعه عن الأسباب ، وأجنحته : الصدق ، ومواقيته : الأسحار ، وأسبابه : الصلاة علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم .

وفي حديث : « اَلدُّعَاءُ بَيْنَ ٱلصَّلاَتَيْنِ عَلَيَّ لاَ يُرَدُّ »(٥) .

وروى الترمذي وغيره عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل . . قام فقال : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ ٱذْكُرُوا ٱللهَ ؛ جَاءَتِ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ، جَاءَ ٱلْمَوْتُ بِمَا فِيهِ » فقال أبي بن كعب : يا رسول الله ؛ إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « مَا شِئْتَ » قال : قلت : الربع ؟ قال : « مَا شِئْتَ ، وَإِنْ زِدْتَ . . فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قال : الثلث ؟ قال : « مَا شِئْتَ ، وَإِنْ زِدْتَ . . فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قال :

---

(١) الترمذي (٣٤٧٦) .

(٢) أخرجه الترمذي (٤٨٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٥٧٦) ، ولفظه : « الدعاء محجوب عن الله حتىٰ يُصلَّىٰ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد » .

(٤) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٢١٥) ، وهو عنده بنحوه .

(٥) انظر « شرف المصطفىٰ » (٤/ ٢٠٨) ، و« الشفا » (ص ٥٥٣) .

النصف ؟ قال : « مَا شِئْتَ ، وَإِنْ زِدْتَ . . فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قال : الثلثين ؟ قال : « مَا شِئْتَ ، وَإِنْ زِدْتَ . . فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ » قال : يا رسول الله ؛ فأجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إِذاً تُكْفَىٰ هَمَّكَ ، وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ »[1] .

وخرج البزار في « مسنده » عن رويفع بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَقَالَ : ٱللَّهُمَّ ؛ أَنْزِلْهُ ٱلْمَقْعَدَ ٱلْمُقَرَّبَ عِنْدَكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . . وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي »[2] .

وخرج أيضاً عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ وَكَّلَ بِقَبْرِي مَلَكاً أَعْطَاهُ أَسْمَاعَ ٱلْخَلاَئِقِ ، فَلاَ يُصَلِّي عَلَيَّ أَحَدٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ . . إِلاَّ بَلَّغَنِي بِٱسْمِهِ وَٱسْمِ أَبِيهِ ؛ هَـٰذَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ قَدْ صَلَّىٰ عَلَيْكَ »[3] .

وروى ابن وهب : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ عَشْراً . . فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً »[4] .

وفي بعض الأخبار : « لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ مَا أَعْرِفُهُمْ إِلاَّ بِكَثْرَةِ صَلاَتِهِمْ عَلَيَّ »[5] ، وفي آخر : « أَنْجَاكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنْ مَوَاطِنِهَا . . أَكْثَرُكُمْ عَلَيَّ صَلاَةً »[6] .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : (الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أمحق للذنوب من الماء البارد للنار ، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب)[7] .

وروى القشيري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (أوحى الله عز وجل إلىٰ موسىٰ صلى الله عليه وسلم : إني جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتىٰ سمعت كلامي ،

---

(١) الترمذي (٢٤٥٧) ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » (١٤٩٩) .
(٢) مسند البزار (٢٣١٥) .
(٣) مسند البزار (١٤٢٥) .
(٤) انظر « الشفا » (٥٧٠) و« القول البديع » (١٦٢) .
(٥) قال الإمام السخاوي رحمه الله تعالىٰ في « القول البديع » (٢٦٤) : لم أقف علىٰ سنده .
(٦) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٨١٧٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٧) أخرجه ابن بشكوال في « القربة » (١٧) ، وقال الإمام السخاوي رحمه الله تعالىٰ في « القول البديع » (٢٥٨) : رواه النميري .

وعشرة آلاف لسان حتىٰ أجبتني ، وأحب ما تكون إليَّ وأقربه إذا أكثرت من الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم)[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ فِي كِتَابٍ . . لَمْ تَزَلِ ٱلْمَلاَئِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا بَقِيَ ٱسْمِي فِي ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابِ »[2] .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صَلاَتُكُمْ عَلَيَّ مُجَوِّزَةٌ لِدُعَائِكُمْ وَمَرْضَاةٌ لِرَبِّكُمْ ، وَزَكَاةٌ لِأَبْدَانِكُمْ »[3] .

وقال عبد الله بن الحكم : رأيت الشافعي في النوم ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمني ربي ، وغفر لي ، وزفني إلى الجنة كما تزف العروس ، ونثر علي كما ينثر على العروس ، فقلت : بم بلغت هـٰذا الحال ؟ فقال لي قائل : بما في كتاب « الرسالة » من الصلاة علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : وصلى الله علىٰ محمد عدد ما ذكره الذاكرون ، وعدد ما غفل عنه الغافلون ، قال : فلما أصبحت . . نظرت إلىٰ « الرسالة » ، فوجدت الأمر كما رأيت .

وقال أحمد بن عطاء الروذباري : سمعت أبا القاسم عبد الله المروزي يقول : كنت أنا وأبي نقابل بالليل الحديث ، فرأيت في الموضع الذي كنا نقابل فيه عموداً من نور يبلغ عنان السماء ، فقلت : ما هـٰذا النور ؟ فقيل : صلاتهما علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قابلا[4] .

وقال ابن شهاب الزهري : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَكْثِرُوا مِنَ ٱلصَّلاَةِ عَلَيَّ فِي ٱللَّيْلَةِ ٱلزَّهْرَاءِ وَٱلْيَوْمِ ٱلأَزْهَرِ ؛ فَإِنَّهُمَا يُؤَدِّيَانِ عَنْكُمْ »[5] . فهـٰذه جملة من أحاديث فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ووراء ذلك أحاديث كثيرة .

أما كيفيتها . . فأفضلها كما قال محيي الدين النووي رحمه الله تعالىٰ : (اللهم ؛ صل علىٰ محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلىٰ آل محمد وأزواجه وذريته كما صليتَ علىٰ

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٢٧٣) .
(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٨٣٥) .
(٣) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٣٧٣٩) ، وفي (و): (مَجْوَزَةٌ) كذا.
(٤) أخرجه الخطيب في « شرف أصحاب الحديث » (ص٣٧) .
(٥) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .

إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ، وبارك علىٰ محمد النبي الأمي وعلىٰ آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت علىٰ إبراهيم وعلىٰ آل إبراهيم ، في العالمين ، إنك حميد مجيد)[1] وهـٰذا ما ثبت في « الصحيحين »[2] وغيرهما من رواية كعب بن عجرة وأبي حميد الساعدي وأبي مسعود الأنصاري وغيرهم ، والله أعلم .

والأفضل : أن يجمع بين الصلاة والتسليم ولا يقتصر علىٰ أحدهما ، وقد قدمنا عند ذكر الأذكار الخمسة كيفية موجزة في تمام ، والله أعلم .

وأما حكمها . . فهي واجبة إجماعاً ؛ للآية الكريمة ، لكنه غير محدود بوقت ولا عدد ، وقال الشافعي رحمه الله تعالىٰ : المفترض من ذلك : الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير ، وما سوىٰ ذلك سنة وندب ، وخالفه الجمهور ، والله أعلم .

ثم أجمع من يعتد به علىٰ جواز الصلاة واستحبابها علىٰ سائر الأنبياء والملائكة استقلالاً ، وتجوز علىٰ غيرهم تبعاً لهم ، كالصلاة علىٰ آل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يترضىٰ عن الصحابة والسلف الصالح ، ويترحم عليهم ، والظاهر : أن هـٰذا الباب واسع لا يوصف منه شيء بالتحريم والمنع ، ولا يقوم دليل علىٰ ذلك ، والله أعلم .

وأما مواطن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . . فتقدم كثير منها في ضمن الأحاديث السابقة ، وقد استوعبها نظماً القاضي الفاضل الأجل العلامة وجيه الدين عبد الغني بن أبي بكر المعلم الشرجي فقال كان الله له : [من الرجز]

أَلْحَمْــدُ لِلّــهِ ٱلْعَظِيــمِ ٱلْقَــاهِــرِ ... ذِي ٱلنِّعَــمِ ٱلْبَــوَاطِــنِ ٱلظَّــوَاهِــرِ

ثُــمَّ ٱلصَّــلاَةُ بَعْــدُ وَٱلتَّسْلِيــمُ ... عَلَــىٰ نَبِــيٍّ دِينُــهُ قَــوِيــمُ

مُحَمَّــدُ ٱلْهَــادِي صَفِــيُّ رَبِّــهِ ... وَآلِــهِ مِــنْ بَعْــدِهِ وَصَحْبِــهِ

وَبَعْــدُ فَــٱسْمَــعْ إِنْ تَكُــنْ ذَا ذِهْــنِ ... مَــا قَــدْ نَظَمْــتُ قَــائِــلاً مِــنْ لَسْــنِ

مَــوَاضِعَــاً فِيهَــا ٱلصَّــلاَةُ تُسْتَحَــبّ ... عَلَــى ٱلنَّبِــيِّ ٱلْعَــرَبِــيِّ ٱلْمُنْتَجَــبْ

---

(١) الأذكار (١٣٥) .

(٢) البخاري (٣٣٧٠) ومسلم (٤٠٦) .

خُذْهَا بِإِتْقَانٍ وَفَهْمٍ ثَاقِبِ   تَظْفَرْ بِنَيْلِ ٱلسُّؤْلِ وَٱلْمَطَالِبِ

وَهْيَ ثَلَاثُونَ ذُكِرْنَ مَوْضِعاً   وَوَاحِدٌ فِي ٱلْعَدِّ يَتْلُوهَا مَعَا

بَعْدَ ٱنْتِهَا إِجَابَةِ ٱلْمُؤَذِّنِ   وَبَعْدَ أَلْفَاظِ ٱلْقُنُوتِ ٱلْمُتْقَنِ

وَبَعْدَ إِتْمَامِكَ لِلتَّشَهُّدِ   وَعِنْدَ يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي مَشْهَدِ

وَٱهْتِفْ بِهَا بَيْنَ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةْ   مُنَافِساً فِيهَا وَبَعْدَ ٱلْخُطْبَةْ

وَقَبْلَ مَا تَشْرَعُ فِي ٱلإِقَامَةْ   تَفُزْ بِهَا فِي مَوْقِفِ ٱلْقِيَامَةْ

وَلَيْلَةَ ٱلْجُمْعَةِ وَٱلْيَوْمَ مَعَا   وَمَنْ دَعَا جَاءَ بِهَا قَبْلَ ٱلدُّعَا

وَآخِراً فِي سَائِرِ ٱلدُّعَاءِ   وَٱلطَّرَفَيْنِ ٱلصُّبْحِ وَٱلْمَسَاءِ

وَمَنْ يُرِيدُ ٱلسُّؤْلَ وَٱلْمَفَازَةْ   صَلَّىٰ إِذَا صَلَّىٰ عَلَى ٱلْجَنَازَةْ

وَصَلِّ يَا صَاحِ عَلَىٰ مُحَمَّدِ   عِنْدَ ٱلْخُرُوجِ أَوْ دُخُولِ ٱلْمَسْجِدِ

وَٱرْفَعْ بِهَا تُسْمَعْ أَتَمَّ ٱلسَّمْعِ   عِنْدَ دُخُولِ ٱلسُّوقِ بَيْنَ ٱلْجَمْعِ

وَأْتِ بِهَا فِي خَتْمَةِ ٱلْقُرْآنِ   بَعْدُ وَعِنْدَ ٱلنَّوْمِ وَٱلنِّسْيَانِ

وَبَعْدَ هَـٰذَا فَعَقِيبَ ٱلتَّلْبِيَةْ   اِغْنَ بِهَا فَهْيَ ٱلصَّلَاةُ ٱلْمُغْنِيَةْ

وَٱسْعَ بِهَا فِي طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ   ذَاكَ لَهَا مِنْ أَفْضَلِ ٱلأَوْقَاتِ

وَٱدْفَعْ بِهَا ضُرَّ ٱلْبَلَا وَٱلْوَهَنِ   وَأْتِ بِهَا عِنْدَ طَنِينِ ٱلأُذْنِ

وَأْتِ بِهَا فِي خُطْبَةِ ٱلنِّكَاحِ   وَإِنْ عَطَسْتَ فَٱتْلُهَا يَا صَاحِ

وَهَاتِهَا عِنْدَ ٱلْوُضُوءِ مُعْلِنَا   وَفِي ٱلذِّبَاحَاتِ فُرَادَىٰ وَثُنَىٰ

وَمَنْ يَكُنْ ذَا فِطْنَةٍ مُنْتَبِهَا   إِذَا ٱبْتَدَىٰ كِتَابَةً جَاءَ بِهَا

وَمَنْ يَقُمْ مِنْ مَجْلِسٍ مُحْتَفِلِ   صَلَّىٰ عَلَىٰ خَيْرِ جَمِيعِ ٱلرُّسُلِ

وَإِنْ دَخَلْتَ ٱلْبَيْتَ صَلِّ يَا فَتَىٰ   يَكُنْ لَكَ ٱلْفَوْزُ هُنَاكَ مُثْبَتَا

وَإِنْ تَجِدْ هَـٰذَا ٱلنَّبِيَّ ٱلطَّاهِرَا   آثَرَ فِي قَلْبِكَ مِنْ كُلِّ ٱلْوَرَىٰ

فَاذْكُرْهُ عِنْدَ ٱلْخُدْرِ بِٱلْمَقَالِ   تُطْلَقُ كَٱلْبَعِيرِ مِنْ عِقَالِ

فهٰذه جملة من مواطن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد زدت علىٰ ما ذكره الناظم المذكور البيتين الأخيرين في ذكر خدر الرجل ، فصارت الجملة اثنين وثلاثين موضعاً، والله أعلم .

وأما معنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وتفسيرها . . فقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ معناه : أن الله وملائكته يباركون على النبي[1] ، وقال بكر القشيري : الصلاة من الله تعالىٰ لمن دون النبي رحمة ، وللنبي صلى الله عليه وسلم تشريف وزيادة تزكية ، وقال غيرهم : الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، ومن المؤمنين الدعاء .

وأما الصلاة المذكورة في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وقوله : كم أجعل لك من صلاتي . . فقيل : معناه : كم أجعل لك من أوقاتي بعد أداء فرائضي ومهمات ديني ، ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم أن يوقفه علىٰ حد حتىٰ قال : أجعل لك صلاتي كلها ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بكفاية المهمات ، وغفران الزلات ، كذا تلقيته عن بعض مشايخي ، ويدل عليه : ما ذكره الإمام الحافظ أحمد بن معد التُّجيبي في « الأربعين » التي ألفها في فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : وإن جعلت الصلاة علىٰ نبيك معظم عبادتك . . فقد كفاك الله همَّ دنياك وآخرتك ، ثم أتىٰ بالحديث .

وظهر لي فيه معنىٰ آخر ، وهو : أن الصلاة معناها الدعاء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ ﴾ أي : ادع لهم ؛ فالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دعاء له ، وفيه معنى التعظيم والتكريم ، ومعناه والله أعلم : كم أجعل لك من دعائي ، وهو كل دعاء عرض لي وأردت أن أدعو به ، ولم ير صلى الله عليه وسلم أن يوقفه علىٰ حد معلوم حتىٰ قال : أجعل كل دعاء أردت أن أدعو به لنفسي دعاءً لك ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إِذاً تُكْفَىٰ هَمَّكَ ، وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ » ومعناه : إذا جعلت الصلاة عليّ بدلاً عن دعائك لنفسك . . أعطاك الله كل شيء طلبته ؛ مكافأة لك علىٰ أن آثرتني علىٰ حظ نفسك ، وتصديق ذلك : ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ أنه قال : « مَنْ شَغَلَهُ

---

(١) انظر « تفسير الطبري » (٢٨٦٣٥) .

ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي . . أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي ٱلسَّائِلِينَ »[1] والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مشتملة علىٰ ذكر الله تعالىٰ وذكر رسوله ، فهي أفضل الأذكار ، وفيها موافقة للعزيز الجبار والملائكة الأبرار ، وامتثال لما أمر الله به المؤمنين الأخيار صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً دائمةَ التكرار ، ما أقبل الليل وأدبر النهار وسلم .

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢٩٨٨١) عن مالك بن الحارث .

قال المؤلف كان الله له وليّاً : وهنا انتجز الكلام على الوجه الذي شرطناه والأمر الذي التزمناه ، حاوياً للسير الموشحة بالأحاديث المصححة ، والمعجزات الباهرة والشمائل النيرة ، وغير ذلك من مستحسنات العلوم ومستلذات الفهوم ، وأنا أسأل من بيده الخفض والرفع والضر والنفع والعطاء والمنع أن يجعله من جملة الأعمال الزاكية والحسنات النامية ، وأن يجعلنا ممن تولىٰ هـٰذا النبي الكريم ، وشغف بحبه وحشر يوم القيامة في سربه ، وأن يهب لنا بجميل عفوه ووسيع كرمه ما تخلل تأليفه من شوائب النيات والتصنعات ، وأن يعظم الأجر لقارئيه وسامعيه وكاتبيه ومكتتبيه ؛ إنه هو الرب المعبود والإله المقصود ، لا رب سواه ، ولا معبود إلا إياه ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ونعم المولىٰ ونعم النصير .

* * *

تم الكتاب المبارك بحمد الله ومنّه ، وعونه وحسن توفيقه

والحمد لله على تمامه ، ونسأله سبحانه المزيد من فضله وإنعامه

وكان الفراغ **ضحى يوم الأربعاء سابع عشر شهر محرم الحرام**

سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة من الهجرة النبوية الطاهرة الزكية

على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين حمداً يفوق حمد الحامدين

حمداً حمد به نفسه لنفسه ، حمداً يكافىء نعمه ، ويوافي مزيده

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النصير

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم

وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم(١)

---

(١) **وجاء في خاتمة النسخة (ب)** : (واتفق الفراغ من تحصيله نهار الإثنين سادس وعشرين من شهور شعبان الكريم من شهور سنة « **٩٧٣هـ** » **من** الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .
وصلى [الله] على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .
اللهم ؛ صل وسلم وبارك وكرم على أكرم رسلك سيدنا محمد) .
وعليه علامة الشطب ، والله تعالى أعلم .
وعلى يساره كتب : (وفرغ **من** رقمه المبارك سلخ المحرم الحرام أحد شهور سنة **سبعة وسبعين وتسع مئة** من الهجرة النبوية على مشرفها أفضل الصلاة والسلام) .
وجاء في خاتمة النسخة (ج) : (بلغ نساخته حسب الإمكان ، فللَّه الحمد رب العالمين .
وصلى الله على رسوله الأمين ، وآله الطيبين الطاهرين [. . .] ٢ شهر صفر الخير **سنة « ١٠٣٣هـ »** .
وجاء في خاتمة النسخة (د) : (قال مؤلفه رحمه الله : فرغت من تأليفه يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان المعظم سنة **خمس وخمسين وثمان مئة** من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .
وكان الفراغ **من** زبره عصر يوم الجمعة في سلخ شهر القعدة الحرام **أحد سني أحد وستين وألف [من]** هجرة نبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، وذلك [. . .] الولد الصالح الساعي للمتجر الرابح صالح بن صديق [. . .] ، عافاه الله تعالى ، ورزقه فهم ما فيه والعمل به ، إنه جواد كريم ، رؤوف رحيم ، وما توفيقي إلاّ بالله تعالى .
بخط أفقر عباد الله وأحوجهم إلى عفوه أحمد بن عمر بن علي بن أبي بكر السبعي ، عفا الله عنهم ، ولمن دعا لهم بالمغفرة ـ آمين آمين ـ ولجميع المسلمين ، وصلى الله على محمد عدد ما ذكره الذاكرون ، وعدد ما غفل =

. . . .

* * *

= عن ذكره الغافلون ، وسلم تسليماً كثيراً وعلى آله وصحبه وأزواجه ، آمين آمين) .

وجاء في خاتمة النسخة (و) : (قال المؤلف رحمه الله : فرغت من تأليفه يوم الأحد الرابع عشر من شهر رمضان المعظم من شهور سنة (**٨٥٥هـ**) .

والحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فلك الحمد حتى ترضى .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، طيباً مباركاً إلى يوم الدين .

كان الفراغ من [. . .] هذه « البهجة » المباركة منتصف شهر صفر الذي هو من شهور سنة **سبعة وسبعين وألف سنة** من الهجرة النبوية على مُشرِّفها أفضل الصلاة والتسليم برسم سيدي الفقيه الصالح التقي الفالح وجيه الدين ، حماه الله تعالى .

بخط أفقر عباد الله وأحوجهم إلى عفوه عبد الهادي بن عبد الله البرفندي ، عفى الله عنهما ، آمين آمين) .

أهمّ مصادر ومراجع التحقيق(1)

- الإتقان في علوم القرآن ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا ، ط٢ ، (١٩٩٣م) ، دار ابن كثير ودار العلوم الإنسانية ، سورية .
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » ، **للإمام الحافظ ضياء الدين** محمد بن عبد الواحد **المقدسي** (ت ٦٤٣هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك عبد الله دهيش ، ط٤ ، (٢٠٠١هـ) ، دار خضر ، لبنان .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان المسمى : « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، **للإمام الحافظ علي بن بَلبان** الفارسي المصري (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط٣ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- إحياء علوم الدين وبذيله المغني عن حمل الأسفار في الأسفار للعراقي (ت ٨٠٦هـ) ، **لحجة الإسلام** محمد بن محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٩٨٢م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- أدب الإملاء والاستملاء ، **للإمام الحافظ** عبد الكريم بن محمد **السمعاني** (ت ٥٦٢هـ) ، عني به ماكس فايسنايلر ، لبنان .
- الأذكار من كلام سيد الأبرار المسمى : « حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار المستحبة في الليل والنهار » ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، عني به صلاح الدين الحمصي وعبد اللطيف عبد اللطيف ومحمد شعبان ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، **للإمام الحافظ** يوسف بن عبد الله النمري المعروف بـ **ابن عبد البر** (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق عادل مرشد ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار الأعلام ، الأردن .
- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (الموضوعات الكبرى) ، **للإمام العلامة** علي بن محمد الهروي المعروف بـ **ملا علي القاري** (ت ١٠١٤هـ) ، تحقيق محمد بن لطفي الصباغ ، ط٢ ، (١٩٨٦م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

---

(1) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، رقم الطبعة ، تاريخ طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

- الإصابة في تمييز الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .

- الأعلام وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، **للأديب الكبير خير الدين** بن محمود بن محمد **الزِّركلي** (ت ١٣٩٦هـ) ، ط١٢ ، (١٩٩٧م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .

- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والثلاثة الخلفاء ، **للإمام الحافظ** سليمان بن موسى **الكلاعي** (ت ٦٣٤هـ) ، تحقيق الدكتور كمال الدين عز الدين علي ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، عالم الكتب ، لبنان .

- إكمال المعلم بفوائد مسلم ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى إسماعيل ، ط٢ ، (٢٠٠٤م) ، دار الوفاء ، مصر .

- الأم ، **لإمام الدنيا** محمد بن إدريس **الشافعي** (ت ٢٠٤هـ) ، تحقيق الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار الوفاء ، مصر .

- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، **للعلامة إسماعيل باشا** بن محمد أمين البابانيي أصلاً **والبغدادي** مولداً ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .

- البحر الزخار المعروف بمسند البزار ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عمرو **البزار** (ت ٢٩٢هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

- بحر المذهب في فروع مذهب الإمام الشافعي ، **للإمام الفقيه** عبد الواحد بن إسماعيل **الروياني** (ت ٥٠٢هـ) ، تحقيق أحمد عزو عناية ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- البداية والنهاية ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت ٧٧٤هـ) ، عني به مجموعة من المحققين بإشراف عبد القادر الأرناؤوط والدكتور بشار عواد معروف ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، **للإمام العلامة** محمد بن علي بن محمد **الشوكاني** (ت ١٢٥٠هـ) ، تحقيق الدكتور حسين بن عبد الله العمري ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر ، سورية .

- البردة بشرح الباجوري ، **للإمام العلامة** إبراهيم بن محمد **الباجوري** (ت ١٢٧٦هـ) ، تحقيق يوسف علي بديوي وبلال أسامة الرفاعي ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، دار منابع النور ، سورية .
- بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل ، **للعلامة الشيخ** يحيى بن أبي بكر **العامري** (ت ٨٩٣هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٣٣٠هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الجمالية لدى دار صادر ، لبنان .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، **للإمام الكبير الشريف** محمد بن محمد **الزَّبيدي** الحسيني المعروف بـ **مرتضى الزبيدي** (ت ١٢٠٥هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج وجماعة من أئمة التحقيق ، ط١ ، (١٣٨٥هـ) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .
- تاريخ أصبهان المعروف بذكر أخبار أصبهان ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط١ ، (١٩٩٠) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- التاريخ الكبير ، **لإمام الدنيا** الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦هـ) ، عني به مصطفى عبد القادر عطا ، ط٢ ، (٢٠٠٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- تاريخ بغداد ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- تاريخ ثغر عدن ، **للإمام القاضي** عبد الله **الطيب بامخرمة** (ت ٩٤٧هـ) ، تحقيق أوسكار لوفكرين ، ط٢ ، بدون تاريخ ، مكتبة مدبولي ، مصر .
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها ، **للإمام الحافظ** علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بـ **ابن عساكر** (ت ٥٧١هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العَمْروي ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .
- التبيان في آداب حملة القرآن ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، تحقيق محمد شادي مصطفى عربش ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .
- التحقيق ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، دار الجيل ، لبنان .
- تعظيم قدر الصلاة ، **للإمام الحافظ محمد بن نصر المروزي** (ت ٢٩٤هـ) ، عني به الدكتور عبد الرحمن الفريوائي ، مكتبة الدار ، السعودية .
- تفسير البغوي المسمى : « معالم التنزيل » ، **للإمام الحافظ** الحسين بن مسعود **البغوي** (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار المعرفة ، لبنان .

ـ تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، **للإمام العلامة** محمد بن جرير **الطبري** (ت ٣١٠هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

ـ تفسير القرطبي المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » ، **للإمام** محمد بن أحمد **القرطبي** (ت ٦٧١هـ) ، (١٩٨٥م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ تلخيص الحبير المسمى : « التمييز في تلخيص تخريج أحاديث شرح الوجيز » ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي **بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، عني به الدكتور محمد الثاني موسى ، ط١ ، (٢٠٠٧م) ، دار أضواء السلف ، السعودية .

ـ التهجد وقيام الليل ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد القرشي المعروف بـ **ابن أبي الدنيا** (ت ٢٨١هـ) ، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي ، ط٢ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ تهذيب الأسماء واللغات ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار الفيحاء ودار المنهل ، سورية .

ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي المعروف بـ **الخطيب البغدادي** (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط١ ، (١٩٩١م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ الجامع لشعب الإيمان ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط٢ ، (٢٠٠٤م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ الجمع بين الصحيحين ، **للإمام المحدث** محمد بن فتوح **الحميدي** (ت ٤٨٨هـ) ، تحقيق الدكتور علي حسين البواب ، ط٢ ، (٢٠٠٢م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

ـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للإمام أحمد الدردير (ت ١٢٠١هـ) على مختصر خليل وبهامشه تعليقات العلامة محمد عُلَيْش (ت١٢٩٩هـ) ، **للعلامة** محمد بن أحمد بن عرفة **الدسوقي** (ت ١٢٣٠هـ) ، بدون تاريخ ، دار الفكر ، لبنان .

ـ الحاوي للفتاوي ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، (١٩٨٨م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠هـ) ، ط٥ ، (١٩٨٧م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدى دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .

- حياة الحيوان الكبرى ، **للإمام محمد بن موسى الدميري** (ت ٨٠٨هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار البشائر ، سورية .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، (٢٠٠٢م) ، دار الفكر ، لبنان .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق **الدكتور** عبد المعطي قلعجي ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار الريان ، مصر .
- دلائل النبوة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٣٤٠هـ) ، عني به عبد البر عباس ومحمد رواس قلعة جي ، ط١ ، (١٩٧٠م) ، دار ابن كثير ، سورية .
- ديوان حسان بن ثابت ، **للصحابي الجليل** حسان **بن ثابت** رضي الله عنه (ت ٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، ط١ ، (١٩٧٤م) ، دار صادر ، لبنان .
- ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ويليه « لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ » ويتلوه « ذيل طبقات الحفاظ للذهبي » ويتلوهم « التبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ » ، **الأول : للحافظ المؤرخ** محمد بن علي بن حمزة **الحسيني** (ت ٧٦٥ هـ) ، **والثاني : للفقيه المؤرخ** محمد بن محمد **ابن فهد** (ت ٨٧١ هـ) ، **والثالث : للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت٩١١ هـ) ، **والرابع : للمحدث الأديب** أحمد رافع بن محمد **الطهطاوي** (١٣٥٥ هـ) ، عني بها العلامة محمد زاهد الكوثري ، ط١ ، (١٣٤٧هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة القدسي بدمشق لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- الرسالة القشيرية في علم التصوف ، **لزين الإسلام الإمام** عبد الكريم بن هوازن **القشيري** (ت ٤٦٥هـ) ، ط١ ، (١٩٨٧م) ، طبعة مصورة لدى دار أسامة ، لبنان .
- الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ، **للإمام المحدث** الشريف محمد بن جعفر **الكتاني** ، عني به محمد المنتصر بن محمد الزمزمي الكتاني ، ط٦ ، (٢٠٠٠م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .
- الروض الأُنُف في شرح سيرة ابن هشام ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن عبد الله **السهيلي** (ت ٥٨١هـ) ، بعناية عمر عبد السلام السلامي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- روضة الطالبين ومعه المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي ومنتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع للحافظ السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ رياض الصالحين من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد العارفين ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، مكتب الدراسات والبحث العلمي لدار المنهاج ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ الرياض المستطابة في جملة من روى في الصحيحين من الصحابة ، **للعلامة** يحيى بن أبي بكر **العامري** اليمني ، عني به عمر الديراوي أبو حجلة ، ط٣ ، (١٩٨٣م) ، مكتبة المعارف ، لبنان .

ـ الزهد الكبير ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط٣ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .

ـ سنن ابن ماجه ، **للإمام الحافظ** محمد بن يزيد القزويني المعروف بـ **ابن ماجه** (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

ـ سنن أبي داوود وبهامشه معالم السنن للخطابي ، **للإمام الحافظ أبي داوود** سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

ـ سنن الترمذي المسمى : « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط١ ، (١٩٣٨م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ سنن الدارقطني وبذيله التعليق المغني على الدارقطني ، **للإمام الحافظ** علي بن عمر **الدارقطني** (ت ٣٨٥هـ) ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط١ ، (١٩٦٦م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ السنن الكبرى وبذيله الجوهر النقي لابن التركماني ، **للإمام الحافظ** أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، بعناية السيد هاشم الندوي ، ط١ ، (١٣٥٦هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدّكّن لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ سنن النسائي (المجتبى) ومعه زهر الربى على المجتبى للسيوطي ، وبذيله حاشية الإمام السندي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت ٣٠٣هـ) ، ط١ ، (١٣١٢هـ) ، نسخة مصورة لدى دار الكتاب العربي عن طبعة المطبعة الميمنية ، لبنان .

ـ سنن سعيد بن منصور ، **للإمام الحافظ سعيد بن منصور** (ت ٢٢٧هـ) ، تحقيق الدكتور سعد بن عبد الله آل حميد ، ط٢ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

ـ سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدون) ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨هـ) ، إشراف شعيب الأرناؤوط ، ط١١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ السيرة الحلبية المسمى : « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون صلى الله عليه وآله وسلم » وبهامشه السيرة النبوية والآثار المحمدية للشريف زيني دحلان (ت ١٣٠٤هـ) ، **للإمام المحقق** علي بن إبراهيم **الحلبي** (ت ١٠٤٤هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٣٢٠هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة محمد أفندي مصطفى لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ السيرة الشامية المسماة : « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد صلى الله عليه وسلم » ، **للإمام المحدث** محمد بن يوسف **الصالحي** الشامي (ت ٩٤٢هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر .

ـ السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة دراسة محرَّرة جَمَعت بين أصالة القديم وجِدَّة الحديث ، **للعلامة الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة** ، ط٣ ، (١٩٩٦م) ، دار القلم ، سورية .

ـ السيرة النبوية ، **للإمام الحافظ** إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بـ **ابن كثير** (ت ٧٧٤هـ) ، مصطفى عبد الواحد ، ط١ ، (١٩٦٦م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ السيرة النبوية ، **للإمام** عبد الملك **بن هشام** الحميري (**ت** ٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار ابن كثير ، سورية .

ـ شرح صحيح مسلم المسمى : « المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج » ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (**ت** ٦٧٦هـ) ، بدون تحقيق ، (١٣٤٩هـ) ، طبعة مصورة لدى مكتبة الغزالي ، سورية .

ـ شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم برواية الإمام القدوة عبد الكريم بن هوازن القشيري ، **للإمام الحافظ** عبد الملك بن محمد **الخركوشي** (ت ٤٠٦هـ) ، تحقيق الشريف نبيل هاشم الغمري ، ط١ ، (٢٠٠٣م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ، **للإمام القاضي عِيَاض** بن موسى اليَحْصُبي (ت ٥٤٤هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة الغزالي ودار الفيحاء ، سورية .

ـ الشمائل المحمدية ومعه المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية للإمام الفقيه إبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ) ، **للإمام الحافظ** محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي** (ت ٢٧٩هـ) ، عني به الشيخ محمد عوَّامه ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، نشره محققه ، لبنان .

ـ صحيح ابن خزيمة المسمى : « مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ، **للإمام الحافظ** محمد بن إسحاق بن **خزيمة** (ت ٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط٣ ، (٢٠٠٣م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .

ـ صحيح البخاري المسمى بـ : « الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه » (الطبعة السلطانية العثمانية) ، **لإمام الدنيا الحافظ** محمد بن إسماعيل بن إبراهيم **البخاري** (ت ٢٥٦هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .

ـ صحيح مسلم المسمى : « الجامع الصحيح » ، **للإمام الحافظ مسلم** بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

ـ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة ، **للإمام العلامة** أحمد بن محمد ابن **حجر الهيتمي** (ت ٩٧٤هـ) ، تحقيق عبد الرحمن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ الضعفاء ومن نسب إلى الكذب ووضع الحديث ومن غلب على حديثه الوهم ومن يتهم في بعض حديثه ومجهول روى ما لا يتابع عليه وصاحب بدعة يغلو فيها ويدعو إليها وإن كانت حاله في الحديث مستقيمة ، **للإمام الحافظ** محمد بن عمرو بن موسى بن حماد **العُقَيلي** (ت ٣٢٢هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الرحمن **السخاوي** (ت ٩٠٢هـ) ، عني به محمد جمال القاسمي ، ط١ ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة عن نشرة القاسمي سنة (١٣١٣ هـ) لدى دار الجيل ، لبنان .

ـ الطبقات الكبير ، **للإمام الحافظ المؤرخ** محمد بن **سعد بن منيع البصري** (ت ٢٣٠هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط١ ، (٢٠١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ عارضة الأحوذي لشرح صحيح الترمذي ، **للإمام القاضي** محمد بن عبد الله المعروف بـ **ابن العربي** المالكي (ت ٥٤٣هـ) ، ط٢ ، (١٣٥٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .

- العزيز شرح الوجيز ، **للإمام** عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم **الرافعي** (ت ٦٢٣هـ) ، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، **للحافظ المؤرخ** محمد بن أحمد بن علي المعروف بـ **التقي الفاسي** (ت ٨٣٢هـ) ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط١ ، (١٩٥٨م) ، مطبعة السنة المحمدية ، مصر .
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق خليل الميس ، ط١ ، (١٤٠٣هـ) ، لبنان .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، **للإمام العلامة** محمود بن أحمد **العيني** (ت ٨٥٥هـ) ، ط١ ، (١٣٤٨هـ) ، طبعة مصورة عن نشرة السلفية لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- عمل اليوم والليلة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن شعيب **النسائي** (ت ٣٠٣هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٩٨٨م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .
- عمل اليوم والليلة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن محمد الدينوري الشهير بـ **ابن السني** (ت ٣٦٤هـ) ، تحقيق بشير محمد عيون ، ط٣ ، (١٩٩٤م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، **للعلامة** محمد بن محمد بن محمد المعروف بـ **ابن سيد الناس** (ت ٧٣٤هـ) ، ط٣ ، (١٩٨٢م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .
- فتاوى الإمام النووي المسماة : « المسائل المنثورة » ، **ترتيب تلميذه الشيخ علاء الدين بن العطار** ، تحقيق محمد الحجار ، ط٦ ، (١٩٩٦م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مكتبة الغزالي ، سورية .
- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية ، **للإمام العلامة** محمد **بن علان** الصديقي (ت ١٠٥٧هـ) ، ط١ ، (١٣٥٨هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- الفردوس بمأثور الخطاب ، **للإمام الحافظ** شيرويه بن شهردار **الديلمي** (ت ٥٠٩هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ـ الفقه وأصوله ، ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، مؤسسة آل البيت ، الأردن .
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ، **للعلامة المحدث الشريف** محمد عبد الحي بن عبد الكبير **الكتاني** الحسني (ت ١٣٨٢هـ) ، عني به الدكتور إحسان عباس ، ط٢ ، (١٩٨٢م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .

ـ فهرست مخطوطات مكتبة الجامع الكبير ، صنعاء ، **للأساتذة** أحمد عبد الرزاق **الرقيحي** ، وعبد الله محمد **الحبشي** ، وعلي وهاب **الآنسي** ، ط ١ ، (١٩٨٤م) ، وزارة الأوقاف والإرشاد ، اليمن .

ـ الفوائد ، **للإمام الحافظ تمام** بن محمد **الرازي** (ت ٤١٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، **للإمام العلامة** محمد عبد الرؤوف بن علي **المناوي** (ت ١٠٣١هـ) ، بدون تحقيق ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم ، **للمؤرخ البحّاثة** خلف بن عبد الملك المعروف بـ **ابن بَشْكُوَال** (ت ٥٧٨هـ) ، تحقيق سيد محمد سيد وخلاف عبد السميع ، ط١ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، **للإمام العلامة الطيب** بن عبد الله بن أحمد **با مخرمة** (ت ٩٤٧هـ) ، عني به بوجمعة عبد القادر مكري ، ط١ ، (٢٠٠٨م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الرحمن **السخاوي** (ت ٩٠٢هـ) ، تحقيق محمد عوامة ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، مؤسسة الريان ، السعودية .

ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، **للإمام الحافظ** عبد الله **بن عدي الجرجاني** (ت ٣٦٥هـ) ، الطبعة الأولى بتحقيق الدكتور سهيل زكار والثالثة يحيى مختار غزاوي ، ط٣ ، (١٩٨٨م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، **للعلامة المحدث** إسماعيل بن محمد **العجلوني** (ت ١١٦٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط٣ ، (١٣٥١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ الكنى والأسماء ، **للعلامة** محمد بن أحمد بن حماد **الدولابي** (ت ٣١٠هـ) ، ط١ ، (١٣٢٢هـ) ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، الهند .

ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن أبي بكر **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ لسان الميزان ، **للإمام الحافظ** أحمد **بن علي بن حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، عني به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٢م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ المجروحين من المحدثين ، **للإمام الحافظ** محمد بن حِبَّان البُسْتي (ت ٣٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الصميعي ، السعودية .

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، **للإمام الحافظ نور الدين** علي بن أبي بكر **الهيثمي** (ت ٨٠٧هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٦م) ، طبعة مصورة لدى مكتبة المعارف ، لبنان .

ـ المجموع شرح المهذب ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، ط١ ، (١٩٩٦م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، **لإمام العربية** عثمان بن جني الموصلي المعروف بـ **ابن كِنِّي** (ت ٣٩٢هـ) ، تحقيق علي النجدي ناصيف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر .

ـ مختصر المزني ، **للإمام** إسماعيل بن يحيى **المزني** (ت ٢٦٤هـ) ، بدون تحقيق ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، **للمؤرخ البحّاثة** علي بن الحسين بن علي **المسعودي** (ت ٣٤٦هـ) ، تصحيح شارك بلا ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، انتشارات الشريف الرضي ، إيران .

ـ المستدرك على الصحيحين وبذيله تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بـ **الحاكم** (ت ٤٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٣٣٥هـ) ، نسخة مصورة لدى دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدّكّن ، لبنان .

ـ مسند أبي داوود الطيالسي ، **للإمام الحافظ** سليمان بن داوود بن الجارود المعروف بـ **أبي داوود الطيالسي** (ت ٢٠٤هـ) ، ط١ ، (١٣٢١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ مسند أبي يعلى الموصلي ، **للإمام الحافظ** أحمد بن علي بن المثنى المعروف بـ **أبي يعلى الموصلي** (ت ٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط٢ ، (١٩٨٩م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .

ـ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، **للإمام الحافظ أحمد** بن محمد **بن حنبل** الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، تحقيق مجموعة من العلماء بإشراف شعيب الأرناؤوط ، ط١ ، (١٩٩٥هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن عبد الرحمن **الدارمي** (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار المغني ، السعودية .
- مسند الروياني ، **للإمام الحافظ** محمد بن هارون **الروياني** (ت ٣٠٧هـ) ، عني به أيمن علي أبو يماني ، مؤسسة قرطبة ، مصر .
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، **للإمام القاضي عياض** بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٩٧٧م) ، دار التراث ، مصر .
- المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، **للعلامة السيد** محمد بن أبي بكر **الشِّلِّي** باعلوي (ت ١٠٩٣هـ) ، بدون تاريخ ، طبع على نفقة من يعلمه الله ويراه ، مصر .
- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، **للإمام المحدث** إسحاق بن إبراهيم بن محمد **الخُتَّلي** (ت ٢٨٣هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربية المتحدة .
- المصنف ومعه الجامع للإمام معمر الأزدي ، **للإمام الحافظ** عبد الرزاق بن همام **الصنعاني** (ت ٢١١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط٢ ، (١٩٨٣م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .
- المصنف ، **للإمام الحافظ** عبد الله بن محمد **بن أبي شيبة** (ت ٢٣٥هـ) ، تحقيق محمد عوَّامة ، ط١ ، (٢٠٠٦م) ، دار القبلة ، السعودية .
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (الموضوعات الصغرى) ، **للإمام العلامة** علي بن محمد الهروي المعروف بـ **ملا علي القاري** (ت ١٠١٤هـ) ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ت ١٤١٧ هـ) ، ط٥ ، (١٩٩٤م) ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، سورية .
- معالم السنن ، **للإمام الحافظ** حَمْد بن محمد **الخطابي** (ت ٣٨٨هـ) ، صححه محمد راغب الطباخ ، ط١ ، (١٩٣٣م) ، المطبعة العلمية ، سورية .
- المعجم الأوسط ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط١ ، (١٩٨٥م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .
- المعجم الصغير ومعه غنية الألمعي للعظيم آبادي ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠هـ) ، ط١ ، (١٩٨٣م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
- المعجم الكبير ومعه الأحاديث الطوال ، **للإمام الحافظ** سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

- معجم المؤلفين ، **للأستاذ المؤرخ عمر رضا كحالة** (ت ١٤٠٨هـ) ، عني به مكتب تحقيق الدار ، ط١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- المعجم الوسيط ، مجموعة من العلماء ، تقديم الدكتور إبراهيم مدكور ، ط٣ ، بدون تاريخ ، مجمع اللغة العربية ، مصر .

- معرفة الصحابة ، **للإمام الحافظ** أحمد بن عبد الله المعروف بـ **أبي نُعيم الأصبهاني** (ت ٤٣٠هـ) ، تحقيق عادل يوسف العزازي ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار الوطن ، السعودية .

- المغازي ، **للقاضي المؤرخ** محمد بن عمر **الواقدي** (ت ٢٠٧هـ) ، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مؤسسة الأعظمي للمطبوعات ، لبنان .

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الرحمن **السخاوي** (ت ٩٠٢هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط٢ ، (١٩٩١م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

- مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح ، **للإمام الحافظ** عثمان بن عبد الرحمن الشَّهْرَزوري المعروف بـ **ابن الصلاح** (ت ٦٤٣ هـ) وللإمام الحافظ عمر بن رسلان البلقيني المصري (ت ٨٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، مصر .

- منهاج الطالبين وعمدة المفتين ، **للإمام الحافظ** يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، عني به محمد محمد طاهر شعبان ، ط١ ، (٢٠٠٥م) ، دار المنهاج ، السعودية .

- المنهاج في شعب الإيمان ، **للإمام الحافظ** الحسين بن الحسن **الحليمي** (ت ٤٠٣هـ) ، تحقيق حلمي محمد فودة ، ط١ ، (١٩٧٩م) ، دار الفكر ، لبنان .

- الموضوعات ، **للإمام الحافظ** عبد الرحمن بن علي المعروف بـ **ابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، عني به توفيق حمدان ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

- الموطأ ، **لإمام المدينة مالك بن أنس** بن مالك بن نافع الأصبحي (ت ١٧٩هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، **للإمام الحافظ** محمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي** (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- النسبة إلى المواضع والبلدان ، **للعلامة المؤرخ** عبد الله **الطيب بامخرمة** الحميري (ت ٩٤٧هـ) ، ط١ ، (٢٠٠٤م) ، مركز الوثائق والبحوث ، الإمارات العربية المتحدة .

ـ النشر في القراءات العشر ، **للإمام الحافظ** محمد بن محمد بن محمد **بن الجزري** (ت ٨٣٣هـ) ، عني به الشيخ علي محمد الضباع ، ط١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، **للإمام الحافظ اللغوي المبارك** بن محمد بن محمد المعروف بـ **ابن الأثير** (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، **للعلامة السيد** عبد القادر بن **شيخ العيدروس** (ت ١٠٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي ، ط١ ، (٢٠٠١م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ هِجَر العلم ومعاقِلُهُ في اليمن ، **للقاضي العلامة** إسماعيل بن علي **الأكوع** (ت ١٤٢٩هـ) ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، سورية .

ـ الهداية شرح بداية المبتدي ، **للعلامة علي بن أبي بكر المرغيناني** (ت ٥٩٣هـ) ، تحقيق محمد محمد تامر ـ حافظ عاشور حافظ ، ط١ ، (٢٠٠٠م) ، دار السلام ، مصر .

ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، **لعالِم الكتب البحاثة إسماعيل باشا** بن محمد أمين بن مير سليم **البغدادي** (ت ١٣٣٩هـ) ، ط١ ، (١٣٦٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام ، **للإمام الحافظ** محمد بن عبد الرحمن **السخاوي** (ت ٩٠٢م) ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني ، ط١ ، (١٩٩٥م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

* * *

محتوى الكتاب

السنة الثانية

السنة الثالثة

السنة الرابعة وما في طيها من الحوادث

السنة الخامسة وما انطوت عليه

السنة السادسة وتواريخها

السنة السابعة من الهجرة

السنة الثامنة وما اتفق فيها من عيون الحوادث

السنة التاسعة